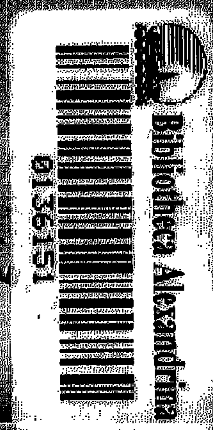
...كار الولاية المحمد...
في مناقب ...

أعلام الصوفية

تراجم علمية صوفية موثقة لخمسين وليا لله عز وجل
بدءا من القرن الثاني الهجري إلى عصرنا الحاضر

للأستاذ الدكتور
جودة محمد أبو اليزيد المهدي



...للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بحار الولاية المحمدية

فى مناقب

أعلام الصوفية

تراجم علمية صوفية موثقة لخمسين وليًا لله عز وجل
بدءا من القرن الثانى الهجرى إلى عصرنا الحاضر

للأستاذ الدكتور
جودة محمد أبو اليزيد المهدى
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت ٣٥٤٢ ٧٩

فاكس : ٣٥٥٤٢٢٤

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩ ٢١٠٧

٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت. ٥٩١٧٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« مُقَدِّمَة »

الحمد لله الذى رفع لواء أعلام أوليائه فى سماء حضرته، وتوجهم بتيجان معرفته، وسقاهم من صفو شراب محبته، وأتحفهم بوصاله وكاشفهم بأسرار أحديته؛ فهم ضنائنه من عباده وصفوته من خليقته، المتحققون بكمال الالتزام بشريعته ومنهاجه وطريقته.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الكائنات، المظهر الأتم لتجليات ربوبيته، المتحقق بالغاية القصوى لأكملية عبوديته سيدنا ومولانا محمد شمس الهداية والعرفان الساطعة فى عليا سموات مملكته، الممدة بالأنوار والأسرار أقطاب ولايته، المشعة أنوارهم فى قلوب السالكين من أهل طاعته. اللهمّ بحقهم عندك حققنا بكمال محبتهم وتبعيتهم وإخلاص توحيدهم لنحظى ببركتهم بشرف وراثته، ونشرف فى الدارين بكمال معيته صلى الله عليه وسلم. اللهم آمين.

أما بعد :-

فلقد بوأ الحق - تبارك وتعالى - أولياءه العارفين وصفوته المتحققين أرفع مكانة فى عباده بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبعظيم قدرهم وسامق مجدهم شهد التنزيل الحكيم؛ حيث قال وليهم ومتوليهم- جل شانه : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

(١) سورة يونس / ٦٢ - ٦٤.

ويرفيع منزلتهم وجزيل عطائهم نوه الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - حيث قال : (إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى !! قيل يا رسول الله خبرنا من هم ؟. وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم. قال : هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »)[1].

وفى نصوص الكتاب والسنة وتراث سلفنا الصالح: الكثير والكثير مما يشيد بفضل الأولياء ويبين سواطع كراماتهم، وسوامق مقاماتهم، وشرائف أحوالهم، ومثاقيب عرفانهم، ومفاخر مناقبهم.

وقد أجمع المحققون من أعلام علماء الأمة على أن طريق السادة الصوفية هو طريق الولاية الحقة لله عز وجل، وهو الصراط المستقيم الذى سلكه سلفنا الصالح ومن تبعهم بإحسان رضى الله تعالى عنهم أجمعين، ومصادر التاريخ الموثقة تشهد بإجلال أئمة علماء الأمة - لا سيما أئمة السلفية - للتصوف ورجاله.

فهاهو ذا الإمام الجليل أحمد بن حنبل - رضوان الله عليه - حضر ذات ليلة مجلس الإمام الصوفى الحارث المحاسبى ومريديه رضى الله عنهم واستمع إلى كلامه فى المعرفة فبكى حتى غشى عليه، فقيل له : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل !! »[2].

ونقل صاحب (طبقات الحنابلة) عن أبى محمد التميمى الحنبلى أنه قال فى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وروى النسائى نحوه عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه وخرجه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/٤٧ - ٤٨ نشر دار الحديث) عن ابن حبان.

(٢) الحافظ ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٦ نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت.

وصف عقيدة الإمام أحمد وبيان مذهبه ومشربه : (وكان يُعظم الصوفية ويكرمهم، وقال-وقد سئل عنهم وقيل له : يجلسون فى المساجد - : فقال : العلم أجلسهم)(١).

وقال الإمام الشعرانى رضى الله عنه : (ويكفينا للقوم - أى للصوفية - مدحاً إذعان الإمام الشافعى رضى الله عنه لشيبان الراعى حين طلب الإمام أحمد ابن حنبل أن يسأله عمن نسى صلاة لا يدرى أى صلاة هى؟.

وإذعان الإمام أحمد بن حنبل لشيبان كذلك حين قال شيبان : هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه أن يؤدب !!.

وكذلك يكفينا إذعان الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - لأبى حمزة البغدادى الصوفى - رضى الله عنه - واعتقاده حين كان يرسل له دقائق المسائل ويقول ما تقول فى هذا يا صوفى ؟؟)(٢).

وها هو ذا حجة الإسلام ومجدد القرن الخامس الهجرى الإمام أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه يقول - بعد أن تربع على قمة علماء عصره - :

(والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسنُ السير، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

---

(١) عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكى : موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ص/٢٥٥ ط دار السلام بالقاهرة، والنقل فيه عن طبقات الحنابلة لأبى الحسين محمد بن أبى يعلى فى آخر الجزء الثانى

(٢) الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : الطبقات الكبرى : ٤/١ ط الشرقية، وانظر أيضاً طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى : ٢٦٨/١.

وبالجملة : فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها - وهى أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها : - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله.

وآخرها : - الفناء بالكلية فى الله ؟؟.

وآخرها، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق: أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة : تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد ...) (١).

لقد صدر هذا البيان من حجة الإسلام من واقع تجربة صوفية عملية مسبوقة بإمامة ورسوخ علمى فى شتى علوم الشريعة، وبتفرد فكرى قهر به هذا الإمام أساطين الفلسفة ومؤلهة العقل؛ ليعلى صرح الربانية بنور الوحى والتزكية الإحسانية. ولئن قيل : إن هذه شهادة من أحد أعمدة الصوفية، وهو بلا شك ممتدح لاتجاهه ومشربه فماذا يقول المعترضون فى شهادة شيوخ السلفية- بعد الإمام أحمد - كابن الجوزى، وابن تيمية، وابن القيم ، والحافظ الذهبى، وابن كثير، ثم محمد بن عبد الوهاب؟؟ هل وقف هؤلاء من التصوف والصوفية موقف الرفض بالإطلاق، واعتبروه كفراً وشركاً وإلحاداً وزندقة كما فعل المتمنتون الحانقون على التصوف من بعدهم وكما يفعل الكثيرون من سلفية اليوم ؟؟ اللهم كلا ثم كلا.

فقد كان لكل منهم وجهة نظر فى فهم التصوف ورصد إيجابيات الصوفية وسلبيات الأدعياء الدخلاء عليهم.

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى : المنقذ من الضلال، مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى للدكتور عبدالحليم محمود : ١٢٨ - ١٢٩ نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

أما جوهر التصوف وسلوكياته الرفيعة، وعلومه اللدنية، ومقامات الصوفية وأحوالهم وكراماتهم فقد أشاد بها هؤلاء جميعاً على تفاوت بينهم - كما صرحت بذلك كتبهم وفتاويهم.

فهاهو ذا الحافظ أبو الفرج بن الجوزى الذى اشتهر بأنه عدو الصوفية لنقده لهم فى كتابه : « تلبيس إبليس » - وهو فى الحقيقة نقد للدخلاء عليهم المتشبهين بهم فى المقام الأول، ثم نقد لما تراءى له فى القوم مما يختلف فيه مع بعضهم- : نجده يعتبر مشايخ الصوفية من أئمة السلف الصالح؛ إذ يقول فى أحد مصنفاته المحققة : (وقد كان السلف يحبون جمع كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها؛ قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويبكى، فقلنا : مالك تبكى؟ فقال : ما اغبرتا فى سبيل الله تعالى، وبكى مرة أخرى فقيل له : ما يبكيك؟ قال : على يوم مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها ... وقعد قوم عند معروف الكرخى فقال : أما تريدون أن تقوموا فإن ملك الشمس يجرها ؟؟ فانظر مدى حرص الكرخى على عدم ضياع الشمس دون تعبد!!)(١).

إن ابن الجوزى فى هذا النص يؤكد لنا حقيقة هامة ليت سلفية العصر يعرفونها : ألا وهى : أن الصوفية الحقة تمثل جوهر السلفية الحقة؛ فإنه هنا استشهد لمعالى الفضائل بسلوك إمامين من أئمة التصوف باعتبارهما من أعيان السلف الصالح!! وإن ابن الجوزى نفسه - وهو الذى يحتج به فى رفض الصوفية- هو الذى صنف فى مناقبهم موسوعته الرائعة « صفة الصفوة » فى أربعة مجلدات، وقلد مشاهير الصوفية أعلى الأوسمة، ووصفهم بأكرم الصفات والمآثر فى تراجم شخصياتهم العديدة كالإمام الجنيد والعارف الشبلى، وسيدى أبى يزيد البسطامى، والسيدة رابعة العدوية وسيدى ذى النون المصرى رضى الله عنهم أجميعن ، ومن

---

(١) ابن الجوزى : لفتة الكبد إلى نصيحة الولد بتحقيق د/ فؤاد عبد المنعم ص ٢٦- ٢٩ وانظر التصوف فى تراث ابن تيمية للدكتور الطبلاوى محمود سعد : ص / ٤١ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شاء الرجوع إلى تعرف مناقبهم وكراماتهم فى « صفة الصفوة » لابن الجوزى سيجد تجسيد عظمة الإسلام ومثاليته الروحية فى هؤلاء القوم.

وناهيك فى التعرف على مشرب السلفية الحقة لابن الجوزى كتابه : « الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم » ففيه توهج نورانية الحب لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم من خلال تعرف شمائله ومآثره وجوانب عظمته صلى الله عليه وسلم، وفيه بيان مشروعية التوسل بذاته الشريفة صلى الله عليه وسلم، بل وفيه «باب الاستسقاء بقبره صلى الله عليه وسلم » (١).

ثم هاهو ذا شيخ السلفية تقى الدين بن تيمية - الذى اشتهر بأنه خصم الصوفية الأول- لم يكن أبداً رافضاً للتصوف ولا معادياً للصوفية بإطلاق، وإنما كان مؤيداً لصوفية الحقائق دون أغلب صوفيه الأرزاق، ودون صوفية الرسوم (٢) المقتصرين على النسبة وهمهم اللباس والآداب الوضعية لا غير.

وإن ابن تيمية ليصرح باتفاقه مع أئمة التصوف على أن الصوفية هم صديقو هذه الأمة بعد الصحابة والتابعين، إذ يقول : (وهم - أى الصوفية - يسيرون بالصوفى إلى معنى الصدّيق - بتشديد الدال -، وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصديقون كما قال تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٣)، ولهذا : ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى .

لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريقه، كما

---

(١) أنظر : الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن الجوزى بتحقيق د/ مصطفى عبد الواحد ٢٠/٢، ٨٠١.
(٢) هؤلاء هم الأصناف الثلاثة للصوفية عند ابن تيمية كما ذكر فى رسالته الصوفية والفقراء (ص ٢٤ بتقديم د.جميل غازى).
(٣) سورة النساء / ٦٩.

يقال : صدّيقو العلماء وصدّيقو الأمراء، فهو أخص من الصدّيق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم ..) [1].

فليت شعرى : ماذا يقول سلفية اليوم الذين يحكمون على الصوفية بالكفر والإلحاد فى حكم شيخهم الأكبر ابن تيمية للصوفية بأنهم من نوع من الصدّيقين الذين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء، وأنهم المختصون بالزهد والعبادة على الوجه الأمثل !!.

وليس هذا فحسب؛ بل إن ابن تيمية قد صرح فى كتبه باحترامه وإجلاله لرواد التصوف وشيوخه العظام من أمثال الأئمة: الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم والسرى السقطى، والجنيد وحماد الدباس والشيخ عبد القادر الجيلانى وعدى ابن مسافر . كما تنطق المصادر الموثقة بأنه كان يشير إلى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الإجلالى الذى يشير به إلى الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنهما - ويصفه بأنه « أعظم مشايخ زمانه أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهى وتقديمه على الذوق، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية »[2].

كما يلقبه بـ « قطب العارفين »[3] - مستعملاً فى ذلك مصطلحات التصوف فى مراتب رجاله رغم أنف المنكرين .!!

بل إن بعض الباحثين المعاصرين ليصرح بانتساب ابن تيمية إلى الطريقة القادرية، حيث يقرر چورج مقدسى ذلك مستنداً إلى أن سلسلة شيوخ ابن تيمية تبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ الإمام عبد القادر الجيلانى المباشر وخريج المدرسة القادرية ببغداد [4]، كما يستند أيضاً : إلى تأثره بمنهجه فى التربية واستشهاده به

---

(١) انظر : الصوفية والفقراء بتقديم د. محمد جميل غازى : ٢٢ - ٢٣ وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية : جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى : المجلد الحادى عشر ص ٤٥ ط الأولى .

(٢) ، (٣) ابن تيمية : الفتاوى : كتاب علم السلوك: المجلد العاشر : ص ٤٤٨ .

(٤) انظر : موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ص ١٩٦ - ١٩٧ ط دار السلام.

كثيراً فى كتبه كمثل أعلى يقتدى به فى الاعتقاد وفى السلوك، إلى جانب أنه يصرح بتبعيته له إذ يعبر عنه بعبارة : « .. شيخنا أبو محمد قدس الله روحه »(١) .

ثم إن ابن تيمية قد رجع عما اشتهر عنه من تحريمه التوسل بذات النبى صلى الله عليه وسلم إلى متجه السادة الصفوية؛ فقال بجواز التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم، حيث نقل تلميذه ابن كثير - فى البداية والنهاية - عن البرزالى أنه عقد لابن تيمية مجلس فى القاهرة ودار بينه وبين الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه محاورة جرى فيها أن ابن تيمية قال « .. لا يستغاث إلا بالله، لا يستغاث بالنبى استغاثة بمعنى العبادة، لكنه يتوسل به ويتشفع به إلى الله»(٢).

ولابن تيمية مؤلفات فى التصوف تشهد باستمداده من مناهل شيوخ الصوفية وباستعمال بعض مصطلحاتهم كالمقامات والأحوال وغير ذلك، ومن تلك المؤلفات: «التحفة العراقية فى الأعمال القلبية » وكتاب « قاعدة المحبة » و « كتاب الاستقامة» و «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » و« كتاب التصوف » وهو ضمن مجموعة الفتاوى(٣).

وإذا ما انتقلنا إلى تلميذ ابن تيمية الأشهر وخليفته من بعده فى إمامة السلفية وهو الإمام ابن القيم نجده هو الآخر قد غاص فى لجج محيط التصوف الزاخر بأنوار المعارف والحقائق؛ قال الحافظ ابن رجب الحنبلى فى ترجمة ابن القيم من كتابه « الذيل على طبقات الحنابلة » : « .. وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له فى كل فن من هذه الفنون اليد الطولى(٤). ثم قال : (وكان فى مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام فى علوم أهل المعارف (أى السادة الصوفية) والدخول فى غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك)(٥).

---

(١) المصدر الأخير نفسه : فى الموضع ذاته.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية بتحقيق د/ أحمد أبو ملحم وآخرين (٤٧/١٤ط : دار الكتب العلمية ببيروت).

(٣) انظر : التصوف فى تراث ابن تيمية للدكتور الطبلاوى محمود سعد : ٣١ - ٣٥ نشر الهيئة المصرية.

(٤)، (٥) ابن رجب الحنبلى : الذيل على طبقات الحنابلة: ٤٤٨/٢ وابن العماد: شذرات الذهب : ١٦٨/٦-١٦٩.

ومن ثم ندرك : أن ابن القيم قد بدأ سلفياً وانتهى متصوفاً، ويشهد بتصوفه كتابه الرائع « مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين » وهو شرح لكتاب « منازل السائرين» لشيخ الإسلام عبد الله الأنصارى الهروى الصوفى رضى الله عنه؛ وكتاب المدارج هذا موسوعة صوفية رفيعة المستوى تناول ابن القيم فيها مقامات العارفين ومنازلهم وقرر حقائقهم وأذواقهم بلغة أهل التصوف العارفين، وقد صرح محققه حامد الفقى فى مقدمته بأن هذا الكتاب من خير ما كتب الإمام ابن القيم [١].

ثم نعرج على قطب آخر من أقطاب المدرسة السلفية الحنبلية وتلميذ بارز آخر من تلاميذ ابن تيمية؛ وهو الحافظ شمس الدين الذهبى المعروف بموسوعيته العلمية وصرامته فى نقد الرجال، فنجد أن هذا الإمام - برغم ما اشتهر به من تحامل على الصوفية- كان منخرطاً فى سلك القوم، إذ صرح بأنه لبس خرقة التصوف من الشيخ ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصارى السبتى عند رحلته إلى مصر [٢].

ولقد حظى أئمة الصوفية بعظيم ثناء الذهبى عليهم فى تراجمهم بكتبه لاسيما تذكرة الحفاظ و « سير أعلام النبلاء »؛ فنجده يقول مثلاً فى صدارة ترجمة العارف الصوفى سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنه : (الفضيل بن عياض : الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو على التميمى اليربوعى المروزى شيخ الحرم. سكن مكة، وكان إماماً ربانياً، صمدانياً، قانتاً، ثقة، كبير الشأن ..» [٣].

وفى ترجمته للإمام أحمد فى سير أعلام النبلاء تجلى تعظيمه للصوفية فى تعقبه لقول محمد بن مصعب العابد « لسوط ضربه أحمد بن حنبل فى الله أكبر من أيام بشر بن الحارث» فقال منصفاً للإمام الصوفى سيدى بشر رضى الله عنه : -

(قلت : بشر عظيم القدر كأحمد ، ولا ندرى وزن الأعمال ، إنما الله يعلم

---

(١) أنظر : مقدمة « المحقق » لكتاب مدارج السالكين لابن القيم بالجزء الأول (ص / ث).
(٢) أنظر مقدمة سير أعلام النبلاء للذهبى ١٣٢/١ نقلاً عن تاريخ الإسلام له : الورقة ٦، ١٨، ٢٠، ١٠٠.
(٣) الحافظ الذهبى : تذكرة الحفاظ : ٢٤٥/١.

ذلك) [1]!! ثم لقد تجلى موقف الحافظ الذهبى من مسلك الصوفية فى التبرك بآثار الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ووصفه للمعارضين له بأنهم من الخوارج المبتدعة، حيث قال فى ترجمة الإمام أحمد رضى الله عنه أيضاً : -

(ومن آدابه : قال عبد الله بن أحمد : رأيت أبى يأخذ شعرة من شعر النبى صلى الله عليه وسلم، فيضعها على فيه يقبلها، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينه، ويغمسها فى الماء ويشربه يستشفى به.

ورأيته أخذ قصعة النبى صلى الله عليه وسلم، فغسلها فى حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفى به، ويمسح به يديه ووجهه.

قلت : أين المتنطع المنكر على أحمد ، وقد ثبت أن أبا عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبى صلى الله عليه وسلم ويمس الحجرة النبوية، فقال : لا أدرى بذلك بأساً. أعاذنا الله وإياكم من رأى الخوارج، ومن البدع »[2].

أرأيت إلى الحافظ الذهبى إمام الجرح والتعديل ونقاده المحدثين كيف يحكم على منكرى التبرك بآثار حضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بأنهم يعتنقون آراء الخوارج وأهل البدع ؟؟ ثم نستجلى رأى إمام آخر من أئمة السلفية؛ وهو الحافظ المفسر إسماعيل بن كثير- وهو تلميذ تقى الدين بن تيمية أيضاً - لنتعرف موقفه من سادات الصوفية : -

إنه يترجم للعديد من أعلام الصوفية فى تاريخه : « البداية والنهاية » ضمن أئمة أعيان الأمة، فيثنى عليهم أطيب الثناء، ويشهد بفضلهم وعلمهم وعبادتهم؛ فهاهو ذا يقول فى ترجمة الإمام الجنيد - سيد الطائفة الصوفية - (..... ولازم التعبد ففتح الله عليه بسبب ذلك علوماً كثيرة، وتكلم على طريقة الصوفية، وكان ورده فى كل يوم ثلاثمائه ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة، ومكث أربعين سنة لا يأوى إلى

---

(١) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء بتحقيق صالح السر وإشراف شعيب الأرنؤوط ٢٠١/١١.
(٢) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء بتحقيق صالح السر وإشراف شعيب الأرنؤوط ٢١٢/١١.

فراش، ففتح عليه من العلم النافع والعمل الصالح بأمور لم تحصل لغيره فى زمانه، وكان يعرف سائر فنون العلم، وإذا أخذ فيها لم يكن له فيها وقفة ولا كبوة، حتى كان يقول فى المسألة الواحدة وجوهاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال، وكذلك فى التصوف وغيره)(1).

ثم إننا لنجد ابن كثير – فى بعض تراجم الصوفية من تاريخه – يذعن لمقامات الصوفية، وأحوالهم وكراماتهم ومراتبهم فيعبر عنها بمصطلحات القوم التى ينكرها – تماماً– خصوم الصوفية؛ فنجده– مثلاً – يقول فى ترجمة الشيخ عبد الله الأرمنى رضى الله عنه :– (... أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد، وسكنوا البرارى والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد، وممن كانت لهم الأحوال والمكاشفات، والمجاهدات، والسياحات فى سائر النواحى والجهات...)(2)!!

وهكذا يظهر للسلفية وجهها السمح الصحيح النظرة للصوفية بلا تعسف ولا غلو ولا دعوى تكفير أو تشريك لصفوة الصفوة من أولياء الرحمن.

بل إننا نجد إقرار حقية التصوف وتأصيل انتمائه الحقيقى للإسلام عند رأس الدعوة الوهابية محمد بن عبد الوهاب؛ إذ يقول فى جزء « الفتاوى والمسائل » من مؤلفاته: (... اعلم – أرشدك الله – أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى الذى هو العلم النافع، ودين الحق الذى هو العمل الصالح .

إذا كان من ينتسب إلى الدين : منهم من يتعانى العلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين) (3).

إنه اعتراف صريح لا يقبل التزوير أو التأويل، ينطق بأن التصوف من صميم شريعة الإسلام وأن ديننا الحنيف شامل للفقه وللتصوف على السواء.

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية بتحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين: ١٢١/١١ نشر دار الكتب العلمية ببيروت اللبنانية.
(2) المصدر الأسبق نفسه : ١٥٢/١٣.

(3) محمد بن عبد الوهاب: القسم الثالث من مجموع مؤلفاته : «فتاوى ومسائل» : جمع وتصحيح : صالح بن عبد الرحمن الأطرم، ومحمد بن عبد الرازق الدويس : المسأله الخامسه ص ٣١.

ثم إن للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رسالة ألفها فى دعوة وحركه أبيه محمد بن عبد الوهاب قال فى خاتمتها:- (.. ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطن من رذائل المعاصى المتعلقة بالقلب ،والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعى، والمنهج القويم المرعى [1].

هذا هو الوجه الصحيح لحقيقة العلاقة بين السلفية والصوفية نقدمه لطلاب الحقيقة بمنأى عن التعصب الجامح والأثرة المذهبية الجائرة.

إننا نقول لمن جعلوا محاربة التصوف فى مقدمة أولويات خدمة الإسلام: رويدكم رويدكم .. كفكفوا عن غلوائكم، وراجعوا أنفسكم من خلال حقيقة آراء أئمتكم، وستجدون - بعد وقفة صدق وإنصاف - أن التصوف - بمفهومه الحقيقى الذى عرفه أشياخكم- هو روح الإسلام ، ونورانيته المتألقة ومثاليته الواقعية !!.

اقرءوا هذا فى تراجم أقطاب الصوفية فى تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء وكتب المناقب والتراجم للذهبى والمشاهير المؤرخين كابن كثير وابن خلكان، وابن العماد وغيرهم.

واقرأوا ذلك أيضاً : فى سائر مؤلفات أساطين السلفية ، مثل « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » و « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم »، ورسالة « الصوفية والفقراء » لابن تيمية، و « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » وكتاب « الروح » لابن القيم وكتاب « جامع العلوم والحكم » و « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبلى، وغير ذلك.

أما الإصرار على موقف الإنكار - وإن بدا الحق كالشمس فى وضح النهار- فإنه نذير العداوة لله عز وجل، القائل فى صحيح الحديث القدسى : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » [2].

---

(١) الشيخ محمد منظور النعمانى : دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ص ٧٦ / مكتبة الفرقان وانظر: موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية للشيخ عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكى ص ١٩-٢٠ ط: دار السلام للطباعة والنشر بالقاهرة.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق من صحيحه (٨٧/٤ ط : حجازى).

وإن الإنكار على الأولياء - فى حد ذاته - عقوبة لصاحبه ويخشى عليه بها من سوء الخاتمة - والعياذ بالله - وأثبت ههنا تصريحين لاثنين من كبار العارفين فى هذا الصدد :-

فقد قال الإمام أبو تراب النخشبى رضى الله عنه : (إذا ألف العبد الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة فى أولياء الله) [1].

وقال الإمام محمد المغربى الشاذلى رضى الله عنه : « إذا أراد أن يسلب إيمان عبد عند الموت سلطه على ولى يؤذيه [2].

وهذا التصريح الذى يبدو غريباً عند البعض إنما هو التفسير الواقعى المؤيد بكشف العارفين لقوله تعالى : « فقد آذنته بالحرب » فنعوذ بالله من الإنكار على أهل الله وصفوته فإن الإنكار عليهم سم قاتل وهلاك محقق، ولقد كشف العارفون بالله تعالى عن أسباب إنكار خصومهم عليهم ومحاربتهم لأهل التصوف، فنقل الإمام الشعرانى عن الإمام محيى الدين بن عربى رضى الله عنهما أنه كان يقول : (أصل منازعة الناس فى المعرفة الإلهية والإشارات الربانية : كونها خارجة عن طور العقول ، ومجيئها بغتة من غير نقل ونظر، ومن غير طريق العقل ، فتنكرت على الناس من حيث طريقها فأنكروها وجهلوها، ومن أنكر طريقاً من الطرق عادى أهلها؛ ضرورة لاعتقاده فسادها وفساد عقائد أهلها. وغاب عنه : أن الإنكار من الوجود، والعاقل يجب عليه : أن يغير منكر إنكاره ليخرج عن طور الجحود؛ فإن الأولياء والعلماء العاملين قد جلسوا مع الله عز وجل حتى سلّموا قيادهم إليه وألقوا نفوسهم سلماً بين يديه، وتركوا الانتصار لأنفسهم فى وقت من الأوقات حياء من

---

(١) انظر مقدمة الطبقات الكبرى للإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : ٤/١ ط: الشرقية .
وقد عقب الإمام الشعرانى رضى الله عنه على عبارة الإمام النخشبى المذكورة بالتوجيه لها بقوله : (قلت : وذلك لأنه لو كان من المقبلين بقلوبهم على حضرة الله تعالى لشم روائح أهل حضرة ربه فتأدب معهم ومدحهم وأحبهم وخدم نعالهم حتى يقربوه إلى حضرتهم ويصير مثلهم كما هو شأن من يريد التقرب إلى ملوك الدنيا) انظر مقدمة الطبقات الكبرى : ١٠/٢ ط: الشرقية.

(٢) الإمام الشعرانى الطبقات الكبرى : ١٠٣/٢ ط: الشرقية، ١١٧/٢ط: الحلبى (الأولى).

ربوبية ربهم عز وجل، واكتفوا بقيوميته عليهم، فقام لهم بما يقومون لأنفسهم بل أعظم، وكان تعالى هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم) [1].

إنها خصوصية معارف الصوفية ودقة مرامى كلامهم وعلو معانى إشاراتهم وجنوحهم إلى الرمز والمصطلحات فى كلامهم لصيانة مداركهم عن الأغيار خشية عليهم من مغبة الإنكار.

وسبب آخر من أقوى أسباب الإنكار على الأولياء رضى الله عنهم: هو تسلل الدخلاء فيهم من الأدعياء الكاذبين؛ يقول الإمام محيى الدين عليه رضوان الله: (ومما يفتح باب قلة الاعتقاد فى أولياء الله تعالى : وقوع زلة ممن تزيّا بزيهم وانتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع ذلك من أكبر القواطع عن الله عز وجل، وقد قال تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [2] وقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [3].

فمن أين يلزم من إساءة واحد أن يكون جميع أهل حرفته كذلك ؟؟ ما هذا إلا محض عناد وتعصب بباطل) [4]!!.

وسبب آخر من أخطر أسباب المعاداة للأولياء وإنكار طريقهم : هو وقوع الدس عليهم من حسّادهم وأعدائهم فى كتبهم ومصنفاتهم مما يخالف الشريعة ويبرأ منه أهل الله تعالى .

وقد أوضح الإمام الشعرانى - المفترى عليه من أعداء أولياء الله تعالى - رضى الله عنه هذه الحقيقة بجلاء فى تناوله لعقيدة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى كتابه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد

---

(١) الإمام الشعرانى رضى الله عنه : مقدمة الطبقات الكبرى : ٩/١ط : الشرفية.

(٢) سورة الأحزاب/ ٣٨.

(٣) سورة فاطر/١٨.

(٤) أنظر مقدمة الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه : ٨/١ط : الشرفية.

الأكابر»[1]. حيث قال عليه رضوان الله تعالى :-

وكان رضى الله عنه - أى الشيخ محيى الدين - متقيداً بالكتاب والسنة، ويقول : كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك (!!) وسيأتى قوله: « وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك».

وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة، وجميع مالم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقيه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ أبو الطاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ثم أخرج لى نسخة « الفتوحات » التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة « قونية » فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات !!.

وقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل - فى مرض موته- عقائد زائغة، ولولا أن أصحاب الشيخ يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا بما وجدوه تحت وسادته!!.

وكذلك دسوا على شيخ الإسلام مجد الدين الفيروزأبادى - صاحب القاموس- كتاباً فى الرد على أبى حنيفة وتكفيره، ودفعوه إلى أبى الخياط اليمنى البغوى فأرسل يلوم الشيخ مجد الدين على ذلك فكتب إليه الشيخ مجد الدين : « إن كان بكفك هذا الكتاب فأحرقه، فإنه افتراء من الأعداء وأنا من أعظم المعتقدين فى الإمام أبى حنيفة، وذكرت مناقبه فى مجلد !!.

وكذلك دسوا على الإمام الغزالى عدة مسائل فى كتاب « الإحياء » وظفر القاضى عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها !!.

---

(١) هذا الكتاب من عيون مصنفات ترجمان الأولياء سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه، وهو حرى بأن يكتب بماء الذهب؛ لتجسيده حقيقة عقائد أئمة الصوفية العارفين بالله تعالى وهى بعينها - على الحقيقة- عقيدة السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين مبراة من دعاوى الحلول والاتحاد وما أخطأ الناس فهمه من وحدة الوجود وغير ذلك.

وكذلك دسوا عليّ أنا فى كتابى المسمى بـ: « البحر المورود » جملة من العقائد الزائغة وأشاعوا تلك العقائد فى مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا برىء منها كما بينت ذلك فى خطبة الكتاب لما غيرتها، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التى عليها خطوطهم » [1].

وهكذا تتجلى حقيقة الأمر فيما ينسب إليهم ويطنطن به أعداء الصوفية الذين يتصيدون للصوفية تلك المدسوسات والعبارات الموهمة وينسجون منها دعاوى الإلحاد والزندقة ويلصقونها بأولياء الله تعالى، فيطلع علينا أحدهم بكتاب شيطانى يدعى « مصرع التصوف » وبآخر تحت عنوان « هذه هى الصوفية » وتصدر مجموعة من الكتب تصور التصوف بأنه الوثنية بعينها وأن أبرز مشاهير الأولياء بمصر وغيرها يمثلون شبكة تشيّع وجاسوسية للدوله الفاطمية [2] « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » !!.

إنها مصداقية الإنذار الإلهى « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » ، وكم حاولوا جهد أنفسهم أن يوهنوا هذا الحديث رغم أنه فى صحيح البخارى !!.

وحينما نتساءل عن الحكمة فى وقوع الإنكار على الصوفية وابتلاء الأولياء بطعن المنكرين عليهم :

فإننا نجد الجواب الشافى عند الأولياء أنفسهم ناطقاً بالحكمة الربانية، حيث يقول الإمام الشعرانى قدس الله سره :-

(.. وسمعت سيدى علياً الخوّاص رضى الله تعالى عنه يقول : - لو أن كمال الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفاً على إطباق الخلق على تصديقهم لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله، وقد صدقهم قوم وهداهم الله بفضله، وحرم آخرون فأشقاهم الله تعالى بعدله».

---

(١) الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : اليواقيت والجواهر : ٧/١ط : الأزهرية المصرية.

(٢) أنظر كتاب : السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة للدكتور أحمد صبحى منصور ص : ٢٢ وما بعدها وكتاب : السيد البدوى : دراسة نقدية للدكتور عبد الله صابر ص ٣٠ وفيه النقل عن الكتاب السابق.

ولما كان الأولياء والعلماء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام فى مقام التأسى بهم أنقسم الناس فيهم فريقين : فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب؛ كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام ليحقق الله تعالى بذلك ميراثهم، فلا يصدقهم ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم إلا من أراد الله عز وجل أن يلحقه بهم ولو بعد حين.

وأما المكذب لهم، المنكر عليهم: فهو مطرود عن حضرتهم، لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بعداً) (١).

إن فى اعتراض المعترضين على الصوفية مزيد ترق وعلو مقام ومضاعفة للحسنات للصفوة الأولياء ومزيد شقاء وحرمان لمخالفيهم. ومن ثم : فإن هذا الاعتراض- الذى هو نتيجة للإعراض - مطلوب لتحقيق مقتضى الحكمة الإلهية، ولله در القائل :-

أيها المعرض عنا ... إن إعراضك منا
لو أردناك جعلنا ... كل ما فيك يردنا

وحسب السادة الصوفية أن الله تعالى اختارهم لقربه وأتحفهم بمشاهدته، وبينما أهل القطيعة فى غيهم يعمهون، إذا هم فى بحار النور سابحون ، وبنور المعرفة واصلون!! وإننى لأسجد لله عز وجل شكراً أن منّ على بالتوجه إلى رحاب السادة الصوفية، وحفز همتى إلى خدمة طريقهم، والتشرف بالكتابة فى مناقب شوامخ أعلامهم، والفضل فى ذلك من الله تعالى خلقاً، ولحضرة والدى وشيخى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى - رضى الله تعالى عنه وأرضاه سبباً، فلقد وجهنى رضوان الله عليه إثر تخرجى من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف - منذ ربع قرن- إلى الكتابة عن أولياء الله تعالى ، بينما كان توجهى أولاً إلى الكتابة

(١) الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى: ١/٧ط : الشرفية

الأدبية والتحليق فى أفق الأدباء والشعراء، فتوجهت ببركة نظره ورعايته إلى تراث العارفين أنهل منها قوام الحياة الروحية ومدد السعادة الأبدية، وأخذت أترجم للسادة الصوفية وأكتب فى مناقب أعلامهم على امتداد الأعصر والقرون مقالات شهرية نشرت بمجلة منبر الإسلام على مدى أربع سنوات فى سلسلة ذهبية متصلة الحلقات على التوالي، حتى شاء الله تعالى أن أتفرغ لإعداد رسالة « الدكتوراه» فى التفسير وعلوم القرآن الكريم.

وفى تلك الحقبة: كان الإمام الأكبر الراحل العارف بالله تعالى الدكتور عبدالحليم محمود رضى الله عنه يتابع هذه المقالات التى كانت تنشر لى تحت عنوان « أعلام الصوفية» وكان صديقاً لوالدى عليه رضوان الله تعالى ومحباً له باعتباره من أعلام صوفية العصر، حيث إنه من أجل أتباع شيخى الأكبر جدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه إمام الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية، كما أنه يعد من أفراد خاصة أحباب سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه .

وذات يوم كنت بصحبة والدى عليه وضوان الله تعالى لزيارة أستاذى الشيخ عبد الحليم محمود لتهنئته بمنصب وكيل الأزهر الشريف، وإذا به يقول لوالدى- وأنا بجانبه- « أهنئك بالعبقرية الناشئة » ! مشيداً بكتابتى عن « أعلام الصوفية » - وأستغفر الله تعالى من حظ النفس فى قصِّ هذه الواقعة - وإنما هو تحدث بنعمة الله عز وجل على فى حصول رضا الإمام الأكبر - باعث نهضة التصوف فى الأزهر الشريف - عما أكتب.

ودارت رحى الزمن ، وألفيت نفسى - بعد ربع قرن من الزمان - يعترينى إلحاح ذاتى شديد يساوقه ويجاوبه إلحاح خارجى من عامة الأحباب محبى الأولياء؛ أن أجمع هذه المقالات التى كتبتها عن أعلام الصوفية، وأن أوثق مصادر مادتها العلمية؛ وأضيف إليها ما يتراءى لى بعد بُعْد النجعة، وطول الإبحار فى تعرف مناقب الصوفية الأخيار، فاستخرت الله تعالى فى إمضاء ما عن لى وللأحباب، وازددت بعد الاستخارة توقداً فى العزيمة، وطمحاً فى إنجاز هذا المأرب - لا سيما

بعد أن استشرت فى ذلك شيخى العارف بالله تعالى الشيخ عيسى جوده شيخ الطريقة النقشبندية الخالديه الجودية رضى الله عنه وأدام لنا مدده وعطاءه، فزكى لى الإقدام على هذاالعمل واستحثنى على إتمامه خدمة لطريق الله ولأحباب أوليائه تعالى فأقدمت على ذلك مستهدفاً من نشر هذا المؤلف ما يلى :-

أولاً : التحبب إلى الله تعالى بحب أوليائه وتحبيبهم إلى عباده؛ بنشر مناقبهم والتعريف بمآثرهم وكراماتهم ومناهجهم ومعارجهم فى القرب والتحقق، مؤملاً بذلك أن أحشر معهم حيث « يحشر المرء مع من يحب ».

وثانياً: إبراز الجوهر الحقيقى للتصوف الإسلامى من خلال الترجمة لأعلامه وتجسيد نورانية السلوك الصوفى الرشيد المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . لترغيب المستشرفين للنور والتحقق فى سلوك الطريق إلى الله تعالى على هدى وبصيرة. فقد عرف التصوف بأنه : صفاء ومشاهدة. وبأنه صدق التوجه إلى الله تعالى.

وثالثاً : تجسيد حقيقة فى ذروة الأهمية لأبناء أمتى فى هذا العصر : وهى أن «جوهر التصوف الحقيقى هو ذاته جوهر السلفية الحقة » وذلك يتضح منه تعرف عقائد وسلوكيات السادة الصوفية، وإطباق الكافة من أساطين علماء الأمة - لا سيما أئمة السلفية - على تزكيتهم وإجلالهم والثناء على متجههم، عسى أن تسفر تجلية هذه الحقيقة عن حسم النزاع المستعر بين السلفية المعاصرة وبين الصوفية.

ورابعاً : إحياء المفاهيم الصوفية الحقيقية التى تبرز مثالية الحياة الروحية فى الإسلام لا سيما تلك المفاهيم الأخلاقية التى كادت أن تندثر تحت وطأة المادية الجامحة من جانب وبفعل التعمية المصطنعة التى يثير غبارها محترفو عداوة التصوف من جانب آخر.

وخامساً : التعرف على مشارب وأذواق الخاصة - بل خاصة الخاصة - من أهل الله تعالى والنهل من مناهلهم العرفانية التى تمثل أرقى ذرى المعرفة الإنسانية المطلة على سماء الحقائق الربانية.

وسادساً : استطراق لأبواب حل مشكلات عبارات الصوفية الموهمة مخالفة ظواهر النصوص الشرعية فى الكتاب والسنة، بمحاولة الوقوف على حقائق دلالات تلك العبارات من خلال توضيحات أئمة الصوفية أنفسهم أو بالتوفيق إلى استنباطها والحيلولة دون مناقضتها لصريح النقول الشرعية.

ثم سابعاً : إفراغ الوسع، وبذل أنفاس نفيسة من العمر فى عمل أرجو صلاحه وقبوله من الله عز وجل ليكون ذخيرة عند جنابه الأقدس فى الآخرة ، ألا وهو التعايش مع سيرة صفوة أوليائه والاقتباس من أنوارهم، واستخراج لآلئ معارفهم وجواهر بحارهم لإحياء القلب بذكرهم ونفع أمة الإسلام بهديهم.

ومنهجى فى هذا الكتاب: يجمع بين خصائص المنهج التاريخى والاستقرائى والتحليلى،حيث استمد المادة العلمية من مصادر التاريخ الموثقة كسير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وطبقات الصوفية، وكذا من مصادر التصوف الأصيلة كاللمع والرسالة القشيرية وعوارف المعارف والفتوحات المكية وغيرها، وأتتبع بناء الأفكار الصوفية وسياقاتها المتعددة للربط بينها، وتحليل موادها العلمية - ما أمكن- وشرح ما تمس الحاجة إليه من عبارات القوم ومصطلحاتهم، وإجلاء الخصائص المنهجية لطرق أئمة القوم، وتنحية ما يتوهم نسبته إليهم مما يخالف حقيقة متجههم، وإبراز الجوانب العلمية- بعد الترجمة التاريخية للأعلام - بما يؤكد تضلعهم العلمى وتأسيس السلوك عليه، وإثبات طائفة من كراماتهم- بجوانبها المتعددة- بما يؤكد مصداقية تحققهم.

وسيكون ترتيب الأعلام تاريخياً نسبياً - حسب تتابع القرون - حيث أبدأ بمشيئة الله تعالى بنخبة من أعلام صوفية القرن الثانى الهجري، ثم بثلة من أعلام القرن الثالث... وهكذا؛ للتعرف على طابع التصوف فى كل عصر، وللتمكن من ربط جوانب الاتصال والتأثير والتأثر لدى كل طبقة.

أما نسبية الترتيب التاريخى : فمن حيث تصنيف الأعلام فى قرونهم بحسب أغلبية الفترة الزمنية التى عاشتها الشخصية فى قرن ما - واشتهر اقترانها بهذا

العصر غالباً - وبعد استقطاع خمسة عشر عاماً - هى ما دون البلوغ فى الغالب - حيث يكون التأثير الأكبر للشخصية فى القرن الذى نسبت إليه، ولن أحيد عن هذا السنن إلا لضرورة ينوه عنها فى موضعها إن وجدت أو لاشتهار انتماء الشخصية للقرن الذى صنفت فيه.

هذا : وأسأل الله العلى القدير متشفعا إليه بكتابه وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبورثته الأولياء أن يهبنى الإخلاص والتوفيق والقبول فى هذا العمل ، وأن يجنبنى فيه الخطأ والزلل وأن يجعله سبباً لنيل سعادة الدارين وأن ينفع به المسلمين إنه تعالى على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفقير إلى الله تعالى

جودة محمد أبو اليزيد المهدى

من أعلام الصوفية فى القرن الثانى

١ - سيدنا الإمام الحسن البصرى ١١٠هـ

٢ - سيدنا مالك بن دينار ١٢٧هـ

٣ - سيدنا أبو حنيفة النعمان ١٥٠هـ

٤- سيدنا سفيان الثورى ١٦١ هـ

٥ - سيدنا ابراهيم بن أدهم ١٦٢هـ

٦ - سيدنا داود الطائى ١٦٦ هـ

٧ - سيدنا الليث بن سعد ١٧٥ هـ

٨ - سيدنا الإمام مالك بن أنس ١٧٩هـ

٩ - سيدنا الإمام عبدالله بن المبارك ١٨١هـ

١٠ - سيدنا الفضيل بن عياض ١٨٧هـ

١١ - سيدنا سفيان بن عيينة ١٩٨ه

١٢ - سيدى معروف الكرخى ٢٠٠ هـ

« ١ »

سيدنا الإمام الحسن البصرى
سيد التابعين .. وإمام الصوفية
رضى الله تعالى عنه

إلى الحضرة العلياء والمحل الأسمى سمت أرواح الأولياء العارفين والصفوة الصوفية المقربين بعد أن صفت نفوسهم، وتحررت من رق السوى قلوبهم، وتقابلت الحضرتان، وسطعت أنوار الحضــرة الإلهيـة من قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾، والتقت بأنوار عبودية القلب وهو ساجد سجود الأبد الذى لا رفع بعده ، فاندرج نور العبودية فى نور الربوبية:

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

★ ★ ★

وعلى القمة الشامخة نرى رجالا من أفذاذ خير القرون يخلفون صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نهلوا من ينابيعهم الدفاقة مدد النور المحمدى ليتسلسل الفيض النورانى إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم. ثم الذين يلونهم.

من هؤلاء الصفوة الأولياء والصوفية الأصفياء سيد التابعين ، وإمام الزهاد والعلماء المتحققين ، حامل لواء الدعوة إلى الله على بصيرة شيخ الإسلام الإمام أبوسعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى رضى الله تعالى عنه.

ولقد آثرت أن يكون هذا العلم الشامخ فى صدارة شخصيات هذا الكتاب لجملة من الاعتبارات :-

★ فأول هذه الاعتبارات أن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه يعد رأس التابعين ، وهم أفضل الأمة بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ومن ثم فإن إبراز صوفية هذا الإمام هو تأصيل للتصوف الإسلامى فى وجه من يزعمون خروجه عن دائرة الإسلام جهلا به أو تجاهلا لحقيقته.

★ وثانى هذه الاعتبارات : أن الإمام الحسن رضى الله عنه قد استمد مشربه الصوفى من راحة رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسنده الصوفى متصل به اتصالا مباشرا - كما سيأتى توثيقه فى هذه الترجمة - ومن ثم : يثبت رفع الإسناد الصوفى متصلا إلى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم عن طريق الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، وبذلك تندحر دعوى خصوم التصوف القائلين بأنه بدعة لم تكن على عهد السلف.

★ وثالث هذه الاعتبارات : أن الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه كان أول من تكلم فى علم التصوف واستعمل تسمية الصوفية ، وثبت عنه ترديد هذا المصطلح العلمى الذى يزعم خصوم التصوف أنه مبتدع ولم يكن مستعملا على عهد السلف .

ومن ثم يتحقق توثيق تسمية الصوفية أيضا كما تحقق توثيق معناها وانبثاقه من حقيقة الإسلام ذاته .

ولنبدأ بالتعرف على جوانب من الترجمة الشخصية للإمام الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه ، من حيث اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، ولقبه ، ومولده ونشأته ، وصلته بالبيت النبوى الكريم .

فأما عن اسمه ونسبه وأسرته : فقد نطقت المصادر التاريخية بأنه الحسن ابن أبى الحسن يسار البصرى ، نسبة إلى البصرة بالعراق ؛ لأن أسرته - أصلاً - كانت تقطن بليدة تدعى (ميسان) بأسفل البصرة ، بينها وبين واسط .

وكان والده (يسار) يسمى - قبل الإسلام - بـ (فيروز) ثم صار من سبى

ميسان هو وزوجه (خيرة) - أم الحسن - لرجل من بنى النجار من الأنصار [١] ثم أعتق أبوه ، وصارت أمه مولاة لأم المؤمنين سيدتنا أم سلمة المخزومية رضى الله تعالى عنها ، وصار هو مولى لسيدنا زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه .

ويذكر الذهبى - من جملة الروايات فى هذا الصدد أيضا - أن والد الإمام الحسن رضى الله عنه قد تزوج بأم الحسن بعد أن سكن المدينة المنورة ، وأعتق ، وذلك فى خلافة سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه . [٢]

وأما كنية الإمام الحسن ولقبه : فإنه كان يكنى بأبى سعيد حيث ولد له سعيد وعبدالله ، كما رزق بنتا . [٣] وكان يلقب بـ (شيخ الإسلام) كما رواه الحافظ الذهبى، كما كان يلقب بإمام أهل البصرة . [٤]

وأما عن مولده : فقد ولد الإمام الحسن رضى الله تعالى فى بيت السيدة أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة سنة إحدى وعشرين للهجرة النبوية لسنتين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى ، عنه ويوافق ذلك سنة ٦٤١م .

وهنا نستشرف أول معالم العظمة من خلال تعرف مولد الإمام الحسن وبيئته الخاصة ، حيث ولد فى هذا البيت النبوى الكريم فى أعطاف العناية الإلهية تظلله رعاية أم المؤمنين ، بل وينال الشرف الأعظم من رضاعه منها كما نطقت الروايات الموثقة ؛ فقد روى الحافظ الذهبى عن محمد بن سلام عن أبى عمرو الشعاب بسنده أنه قال : «كانت أم سلمة تبعث أم الحسن فى الحاجة فيبكى وهو طفل فتسكته أم سلمة بثديها [٥] ، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ نشر مؤسسة الرسالة ببيروت ، وانظر أيضا : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى ص ١٤٠ ط/ النهضة المصرية .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ نشر مؤسسة الرسالة ببيروت ، وانظر أيضا : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى ص ١٤٠ ط/ النهضة المصرية .

(٣) المصدر الأخير : ص ١٤٨ .

(٤) انظر : تذكرة الحفاظ للذهبى ١١/١ وشذرات الذهب لابن العماد ١٣٦/١ .

(٥) جاء فى نظير هذه الرواية فى - حلية الأولياء ١٤٧/٢ - (.. فرقت عليه أم سلمة رضى الله تعالى عنها فأخذته فوضعته فى حجرها فألقمته ثديها فدر عليه فشرب منه ، فكان يقال إن المبلغ الذى بلغه الحسن من الحكمة من ذلك اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم) .

وهو صغير ، وكانت أمه منقطعة إليها ، فكانوا يدعون له ، فأخرجته إلى عمر فدعا له وقال : اللهم فقهه فى الدين ، وحببه إلى الناس» . (١)

وعن نشأته وتدرجه فى مراقى الفلاح وتلقيه عن أئمة من أجلاء الصحابة يقول صاحب (تذكرة الحفاظ) :-

(نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ، ثم كبر ، ولازم الجهاد ، ولازم العلم والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، يذكر مع قطرى بن الفجاءة ، وصار كاتبا فى دولة معاوية لوالى خراسان : الربيع بن زياد ، حدّث عن عثمان وعمران بن حصين ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالرحمن بن سمرة ، وسمرة بن جندب ، وجندب البجلى ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبى بكرة ، وعمرو بن تغلب وجابر ، وطائفة كثيرة) . (٢)

لقد نهل الإمام الحسن رضوان الله عليه من ينابيع علوم الصحابة الذين كانوا أوعية العلم والمعرفة ، وحملة الإرث المحمدى .

لقد روى عنه الحافظ أبو نعيم فى الحلية رضى الله عنه أنه كان يقول (والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف. (٣)

وكان سيدنا الحسن ممن جمع القرآن الكريم على عهد سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد روى الذهبى أنه كان يقول : أنا يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ، جمعت القرآن أنظر إلى طلحة بن عبيد الله) . (٤)

وكان بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يؤثر الإمام الحسن بالفتيا ، ويشيد بحفظه للعلم ، فقد روى الحافظ الذهبى عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سلوا الحسن ، فإنه حفظ ونسينا) .(٥)

كما روى عن سيدنا قتادة التابعى رضى الله عنه أنه قال : (ما جمعت علم الحسن إلى أحد من العلماء إلا وجدت له فضلا عليه) . (٦)

---

(١) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ .

(٢) الحافظ الذهبى : تذكرة الحفاظ : ٧١/١ نشر دار إحياء التراث العربى ببيروت .

(٣) الحافظ أبونعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ١٣٤/٢ .

(٤) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء . ٥٧٧/٤ . (٥) ، (٦) المصدر السابق ٥٧٣/٤ .

ولله در محمد بن سعد إذ قال فى طبقاته : (كان الحسن رحمه الله جامعا ، عالما ، رفيعا ، فقيها ، ثقة ، حجة ، مأمونا ، عابدا ، ناسكا ، كثير العلم ، فصيحا ، جميلا ، وسيما) . [1]

ونجد من معالم عظمة هذا الإمام مزاوجته بين العلم والعمل ، حتى لقد كان على رأس التابعين، وانعقدت له سيادة أهل زمانه ، فقد سجل الذهبى هذه السيادة قائلا فى ترجمته : (وكان سيد أهل زمانه علما وعملا) . [2]

بل إن جانب العمل كان أرجح عند الإمام الحسن من جانب العلم الذى كان يطاول عنان السماء ، ينبئنا عن ذلك قول ابن العماد : (وقيل ليونس بن عبيد : أتعرف أحدا يعمل بعمل الحسن ؟ والله ما أعرف أحدا يقول بقوله ، فكيف يعمل بعمله ؟) ثم وصفه فقال : (كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له)[3] !! .

إنه تجسيد حى لشدة خوفه من ربه وخشيته من عذابه ، مع أنه كان شديد الاجتهاد فى طاعة الله تعالى وعبادته ، إذ يقول الإمام المناوى فى ترجمته من طبقاته . (.. ثم صار من رؤوس العبّاد الأخيار ، صلى الغداة - أى الصبح - بوضوء العشاء أربعين سنة !!) . [4]

لقد كان كبار التابعين يشبهونه بالصحابة ، إذ يروى الذهبى عن على بن زيد أنه قال : سمعت من ابن المسيب وعروة والقاسم وغيرهم : (ما رأيت مثل الحسن ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم ما تقدموه) . [5]

وعن أبى بردة رضى الله تعالى عنه أنه قال : (ما رأيت أحدا أشبه بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم منه) . [6]

---

(١) المصدر السابق ٤/٥٧٢ .

(٢) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/٥٦٥ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب : ١/١٣٨ .

(٤) الإمام المناوى : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ١/١٨١ نشر الأزهرية للتراث .

(٥) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/٥٧٤ .

(٦) المصدر السابق : ٤/٥٧٢ .

ومع ذلك كان الإمام الحسن قمة فى التواضع واستقلال قدره بالنسبة للصحابة ، حتى كان يقول رضى الله عنه : (لقد أدركت أقواما ما أنا عندهم إلا لص) [1] !!

لقد كان يرقب الصفوة الذين رباهم النبى صلى الله عليه وسلم على عينه فكانوا مثلا عليا فى العبادة وطرح الدنيا ، فكان يقول : (أدركت أقواما : ما تطوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ، ولا أمر فى بيته بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئا قط) [2] !!

وهنا نقف وقفة لإبراز صوفية الإمام الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه وتأصيلها علميا فى مواجهة الذين يطرحون هذا التساؤل : هل كان الإمام الحسن البصرى صوفيا ؟. نقول - بكل التحقق اليقينى -: نعم ، لقد كان الإمام الحسن إماما من كبار أئمة الصوفية على عهد التابعين رضى الله عنهم ، ولتوثيق ذلك : ندلى بهذه الأدلة والحجج والشواهد :

★ أما أولا : فقد صرح جمع كبير من أكابر العارفين بالله تعالى بأن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه معدود من أئمة الصوفية أهل الطريق إلى الله تعالى ، ومن ذلك ما ذكره الإمام المناوى فى ترجمة الإمام الحسن ضمن تراجم السادة الصوفية إذ قال : وقال ابن عربى رضى الله عنه : (الحسن عندنا من أئمة أهل طريق الله جل جلاله ، ومن أهل الأسرار والإشارات) . [3] كما عرض تاج الدين الكلاباذى اسم الإمام الحسن تحت عنوان (فى رجال الصوفية) . [4]

★ وثانيا : إن مؤرخى التصوف ومصنفى طبقات الأولياء الصوفية قد أفردوه بالترجمة وتناول مناقبه فى مصنفاتهم ومناقبهم على أنه أحد أعلام الأئمة الصوفية، نجد ذلك فى (حلية الأولياء) لأبى نعيم و(صفة الصفوة) لابن الجوزى و(الطبقات الكبرى) للإمام الشعرانى ، و(الكواكب الدرية) للإمام المناوى [5] ، وغير ذلك .

---

(١) الحافظ ابن الجوزى : صفة الصفوة : ٢٣٤/٣ نشر دار الوعى بحلب .

(٢) الإمام المناوى : الكواكب الدرية ١٨٣/١ - ١٨٤ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للإمام المناوى بتحقيق د. عبدالحميد صالح حمدان ١٨١/١.

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف بالباب الثانى ، و : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى .

(٥) انظر الحلية ١٣١/٢ وصفة الصفوة : ٢٣٣/٣ وطبقات الإمام الشعرانى ٢٥/١ والكواكب الدرية ١٨١/١ .

★ وثالثا : تقرير الحفاظ الأثبات من رؤوس السلفية - كابن الجوزى والذهبى - لصوفية الإمام الحسن وتناقل الروايات الدالة على ذلك فى مصنفاتهم ، فها هو ذا الحافظ الذهبى يقول فى ترجمة الإمام الحسن من (سير أعلام النبلاء) :-

(وقال أبوسعيد بن الأعرابى [٤] فى «طبقات النساك» : كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن ، ويسمعون كلامه ، ويذعنون له بالفقه فى هذه المعانى خاصة ، وكان عمرو بن عبيد ، وعبدالواحد بن زيد من الملازمين له .

وكان له مجلس خاص فى منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا فى معانى الزهد والنسك وعلوم الباطن ، فإن سأله إنسان غيرها تبرم به ، وقال : إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر. فأما حلقته فى المسجد : فكان يمر فيها الحديث ، والفقه ، وعلم القرآن . واللغة ، وسائر العلوم .

وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب [٥] ، وكان منهم من يصحبه للحديث ، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان ، ومنهم من يصحبه للبلاغة ، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص كعمرو بن عبيد ، وأبى جهير ، وعبدالواحد بن زيد ، وصالح المرى ، وشميط ، وأبى عبيدة الناجى ، وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال ، يعنى فى العبادة. [١]

أترى بعد ذلك التجسيد الحى لجانب التصوف عند الإمام الحسن - ولاسيما من تقرير الحافظ الذهبى - مجالا للشك فى اعتداد سيد التابعين من أعلام الصوفية الواصلين ؟؟

★ ثم رابعا : روى الحافظان الذهبى والمناوى عن سيدنا قتادة (التابعى) رضى الله عنه أن الإمام الحسن رضوان الله عليه كان فى عصره من السبعة الذين

---

(١) عرف به محقق (السير) قائلا : (هو أحمد بن محمد بن زياد أبوسعيد بن الأعرابى البصرى الصوفى المتوفى سنة ٣٤٠هـ ، وكتابه هذا نقل عنه المؤلف فى أكثر من موضع) وهذا يدل على أن الصوفية من مصادر السلفية .

(٢) لا ريب أن فى ذكر الحافظ الذهبى هذه العبارة مع إقرارها دليل على إقرار علماء السلفية - المنصفين - للتصوف ورجاله .

(٣) الحافظ الذهبى . سير أعلام النبلاء ٥٧٩/٤ .

هم على قدم خليل الرحمن ، بهم يغاث الناس ، وبهم يسقون وينصرون ، وهؤلاء هم المعروفون عند الصوفية بالأبدال ، قال سيدنا قتادة (يقال : ما خلت الأرض قط من سبعة رهط بهم يسقون ، وبهم يدفع عنهم ، وإنى لأرجو أن يكون الحسن أحد السبعة) .[1]

وفى شرح الإمام المناوى لحديث : (لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ، ما مات منهم أحد إلا بدل الله مكانه آخر) قال (قال سعيد : سمعت قتادة يقول : لسنا نشك أن الحسن منهم ، وهؤلاء هم الأبدال المشار إليهم فى حرف الباء (طس عن أنس) - أى رواه الطبرانى فى الاوسط عن أنس رضى الله عنه ، قال الهيثمى : إسناده حسن) [2] وللتوفيق بين الحديث والأثر أقول : أن الأبدال أربعون رجلا ورؤساؤهم سبعة ، ويستمدون من المشرب الذى ينهل منه خليل الرحمن من حضرة النبى صلى الله عليه وسلم .

★ وخامسا : أن الإمام الحسن رضوان الله عليه يعد - عند أئمة من علماء الصوفية - أول من تكلم فى علم التصوف ومهد سبيله وفتق الألسنة به ، ونطق بما فيه ، وأظهر أنواره ، وكشف قناعه ، وكان يتكلم بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه ، فقيل له : يا أبا سعيد : إنك تتكلم فى هذاالعلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك فممن أخذت هذا ؟ فقال : (من حذيفة بن اليمان رضى الله عنه) ، هكذا صرح الإمام أبوطالب المكى رضى الله عنه وقال فى (قوت القلوب) الذى هو من أعظم مصادر التصوف : - (.. والحسن البصرى هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به ، أثره نقفو ، وسبيله نتبع ، ومن مشكاته نستضىء ، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى من إمام عن إمام إلى أن ينتهى ذلك إليه ، وكان من خيار التابعين بإحسان).[3]

---

(١) المصدر السابق ٥٧٤/٤ .

(٢) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى : ٣٠٠/٥ .

(٣) انظر : قوت القلوب لأبى طالب المكى رضى الله عنه : ٣٠٤/١ - ٣٠٥ .

وانظر أيضا : الإنسان والاسلام للشيخ حامد الطاهر الحامدى حيث قال عن علم التصوف فى ص ٢١٠ - ٢١٢:
(وأول من تكلم فى هذا اللون من أتباع الراية المحمدية : الحسن البصرى قال أبو سعيد بن الأعرابى (لم يبلغنا أن أحدا تكلم فى هذه المذاهب - يعنى فى أحوال النفس - ودعا إليها ، وزاد فى بيانها وترتيبها ، وصفات أهلها مثل الحسن البصرى) .

وانظر : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى : ص : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

★ ثم إن الإمام الحسن رضوان الله عليه قد أثر عنه استعمال لفظ (صوفى) كمصطلح علمى ، وكتسمية تنازع الناس فى تأصيلها ، وتنطع المتنطعون بزعم أنها لم تعرف على عهد السلف ، واتخذوا من ذلك ذريعة لإنكار التصوف والصوفية ، مع أن الإمام الحسن البصرى الذى عاش جل عمره فى القرن الأول ، وعاصر وشافه كبار الصحابة العظام رضوان الله عليهم أجمعين : روى عنه صاحب (عوارف المعارف) أنه قال : (رأيت صوفيا فى الطواف ، فأعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال : «معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى» [1] . ومن ثم يتأصل استعمال لفظ الصوفى على عهد السلف الصالح رضى الله عنهم .

★ ولقد ربط الإمام الحسن بين مظهر الصوفى - المتمثل فى لبس الصوف - وبين حقيقته الباطنة حيث قال عليه الرضوان (ما كل الناس يصلح للبس الصوف؛ لأنه يطلب صفاء ومراقبة) [2]

وقيل له ذات يوم : ما سبب لبسك الصوف ؟ فسكت ، فقيل له : ألا تجيب؟ قال (إن قلت زهدا زكيت نفسى ، أو فقرا أو ضيقا شكوت ربى) [3] !! أجل : إنه مشرب الصوفية الأطهار.

★ سادسا : أن أئمة من المحققين من الصوفية نصوا على انتهاء إسنادهم فى الطريق إلى سيدنا الحسن البصرى رضى الله عنهم - وتلك حجة عملية لا تقبل المراء لانبناء أسانيد أشهر الطرق الصوفية عليها - ومبنى ذلك : على أن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه قد لبس خرقة التصوف من سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ففى تبيان الإمام نور الدين الحلبى - صاحب السيرة الحلبية - لسند طريقة سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه يقول : «والمشهور المحفوظ : أن الحسن أى البصرى - إنما لبس الخرقة من سيدنا على بن أبى طالب ، لكن نوزع فى

---

(١) الامام السهروردى : عوارف المعارف : ص /٤٨ .

(٢) ، (٣) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى : ١/١٨٥ .

اجتماعه بسيدنا على ، وصحح الجلال السيوطى ثبوت اجتماعه [١] به ، والحاصل : أن سند إلباس الخرقة ينتهى إما إلى الحسن البصرى ، وإما لأويس القرنى ، وقد ذكر بعضهم : أن سند سيدى عبدالقادر الجيلى - الشهير بالكيلانى - بالخرقة ينتهى إلى الحسن البصرى أيضا ، وكذلك سيدى أحمد بن الرفاعى بها ينتهى إلى الحسن البصرى أيضا ، وأن الحسن البصرى أخذها عن سيدنا على كرم الله وجهه). [٢]

وكذلك حقق بعض العلماء الجهابذة المعاصرين صحة انتهاء بعض سلاسل الطرق الصوفية إلى سيدنا على كرم الله وجهه من طريق الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه ، ومن هؤلاء : الدكتور إحسان عباس الذى صنف كتابا قيما عن الإمام الحسن البصرى ، وبين فيه سلاسل الطرق الصوفية التى ينتهى إسنادها إليه، وحصرها فى ثلاثة فروع ، ووافقه على ذلك الدكتور على سامى النشار ، وهذه الفروع الصوفية هى :-

الفرع الأول : الذى يبدأ من الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، ومنه إلى سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، ومنه إلى سيدنا الحسن البصرى ، ومنه إلى الإمام الحارث المحاسبى عليهما الرضوان . وقد اشتهرت هذه السلسلة وانتشرت فى شمال أفريقيا خاصة ، ومن ثم رصد البحث الصوفى ضمن الطرق الصوفية العديدة : طريقة تعرف بـ (الطريقة البصرية) نسبة إلى الإمام الحسن البصرى .

والفرع الثانى : يبدأ من حضرة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، ومنه إلى سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومنه إلى سيدنا الحسن البصرى رضى الله عنه ، ومنه إلى سيدنا حبيب العجمى رضى الله عنه ، إلى سيدنا داود الطائى

---

(١) علق محقق النصيحة العلوية للإمام : الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله على هذا بانه ذهب جماعة من أهل الحديث إلى صحة إلباس الخرقة من سيدنا على كرم الله وجهه للحسن البصرى ، وذهب جماعة إلى بطلان ذلك . وذكر أن ممن ذهب إلى صحة إلباسها الفاكهى فى مناقب الإمام أحمد بن حجر الهيثمى ، وروى ذلك عن الهيثمى نفسه ورد على من خالفه ، ونقل التصحيح عن الحافظ السيوطى فى كتابه (إتحاف الفرقة برفو الخرقة) .

(٢) انظر : النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية للإمام نور الدين الحلبى ص٣٦ ط : الأولى

رضى الله عنه ، إلى سيدنا معروف الكرخى رضى الله عنه إلى سيدنا السرى السقطى رضى الله عنه إلى سيدنا الإمام الجنيد الملقب بـ (سيد الطائفة الصوفية) رضى الله عنه ، وهذا الفرع يعد أحد السلاسل الثلاث التى تنتهى بها الطريقة النقشبندية إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفرع الثالث : يبدأ من حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ،ومنه إلى سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه ، ومنه إلى الإمام الحسن البصرى ، ومنه إلى سيدنا فرقد السبخى ، ومنه إلى سيدنا معروف الكرخى رضى الله عنهم أجمعين . (١)

ثم سابعا : من أدلّ الدلائل على صوفية الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه وولايته : ثبوت وقوع الكرامات على يديه . فالكرامة للولىّ : بمثابة المعجزة للنبى . والكرامة كما عرفها علماء العقيدة : هى عند جمهور أهل السنة : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبى كلف بشريعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها أو لم يعلم . (٢)

كما عرفوا الولى بأنه العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعات المجتنب للمعاسى ، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات المباحة . (٣)

وقد اشتهرت عن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه كرامات ناطقة بولايته وصوفيته ، كما أثبت له العلامة الشيخ يوسف النبهانى رضى الله عنه : ترجمة فى كتابه الفريد (جامع كرامات الأولياء) .

---

(١) انظر : الحسن البصرى للدكتور إحسان عباس ص/ ١٠ - ١١ . ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور سامى النشار ٣/١٦٠ - ١٦١ والحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى ص٣٤٦. وانظر أسانيد طرق صوفية أخرى إلى الإمام الحسن البصرى وثبوت تلقيه عن سيدنا على كرم الله وجهه : فى كتاب على إمام العارفين - أو - القول الجلى فى تحقيق انتساب الصوفية إلى على ، للعلامة أحمد الصديق الغمارى ص١٦٩ ، ٢٠٠ ط/ السعادة (الأولى) وانظر : طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٩٣.

(٢) ، (٣) انظر إتحاف المريد بجوهرة التوحيد (شرح عبدالسلام على الجوهرة) ص١٣٠ نشر مكتبة القاهرة .

★ فمن الكرامات التى تناقلتها المصادر الموثقة عن الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه ما رواه الحافظ الذهبى فى ترجمته عن مطر الوراق أنه قال : (لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة ؛ فهو يخبر عما عاين) [1] !!

إنها كرامة المكاشفة بأمور الآخرة ، نظير مكاشفة سيدنا حارثة حيث قال (.. وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، فقال- اى النبى صلى الله عليه وسلم - : «عرفت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه») . [2]

★ ومن كراماته أيضا ما ذكره الذهبى فى ترجمته قائلا : (.. ويروى أنه أغمى عليه ، ثم أفاق إفاقة فقال : لقد نبهتمونى من جنات وعيون ، ومقام كريم)[3]!!

★ ومن كراماته أيضا : ما سجله الإمام النبهانى فى «جامع الكرامات» قائلا : (قال الشيخ علوان الحموى فى «نسمات الأسحار» : لما بلغ الحسن قتل الحجاج لسعيد بن جبير : قال : اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج . فما بقى إلا ثلاثا حتى وقع فى جوفه الأكلة والدود فمات ، وهذه من كرامات الحسن البصرى) . [4]

★ ومن كراماته كذلك : ما نص عليه فى «جامع الكرامات» بقوله (ومن كراماته - أى الحسن البصرى - أنه كان ممن يصلى الصلوات الخمس بمكة - يعنى وهو فى البصرة - تطوى له الأرض ، فهو من أهل الخطوة) [5] !!

★ ثم من الكرامات المأثورة له : ما ذكره الإمام المناوى رضى الله عنه قائلا : (ورأى بعض الأولياء ليلة موته - أى الإمام الحسن - أبواب السماء مفتحة وكأن منادياً ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض). [6]

---

(١) الحافظ الذهبى : سير أعلام النبلاء : ٥٧٣/٤ .

(٢) رواه البزار فى مسنده ، والبيهقى فى الشعب ، وله طرق عند ابن المبارك فى الزهد ، وعبدالرزاق فى التفسير ، والطبرانى فى المعجم وابن منده . انظر الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ أبى الفضل عبدالله الصديق الغمارى ط/ دار لوران بالإسكندرية.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى٥٨٧/٤ .

(٤) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٣٨٩/١ ط/ دار الكتب العربية الكبرى .

(٥) المصدر السابق .

(٦) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١٨٥/١ - ١٨٦ نشر المكتبة الأزهرية للتراث والمصدر السابق .

هذه طائفة من كرامات هذا الإمام العارف بربه تشهد بتحقق صوفيته وولايته. ويتبقى لنا أن نتساءل عن المشرب الصوفى والمنهج السلوكى والتحققى الذى تحقق به الإمام الحسن البصرى وارتقى به مكانة شامخة فى قمة عصر التابعين وصار به إماما للصوفية من بعده إلى عصرنا هذا ؟؟

إن هذا المنهج الذى يسفر عنه البحث فى حياة الإمام الحسن وسلوكه وأقواله وأشاراته يتراءى لنا مرتكزا على أربعة أسس رئيسة ، الا وهى :-

المعرفة ، والزهد فى الدنيا ، والخوف ، والعمل للمشاهدة على أساس من تزكية النفس وصلاح القلب.

أما الاساس الأول - وهو أساس المعرفة - فعليه تنبنى بقية الأسس ، إذ لا زهد ولا خوف ، ولا عمل للمشاهدة إلا بعد الفقه والتبصر والتفكر السديد فى حقائق الأمور .ولقد كان الإمام الحسن رضوان الله عليه متفردا فى عصره فى علمه ومعرفته ، حتى لقد روى الذهبى عن عوف أنه قال (ما رأيت رجلا أعلم بطريق الجنة من الحسن) . (١)

وقد مر بنا قول الحافظ الذهبى فيه (وكان سيد زمانه علما وعملا) ، كما روى عن أبى قتادة أنه قال : (ما رأيت أحدا أشبه رأيا بعمر بن الخطاب منه - يعنى الحسن -) . (٢)

وقد كان سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه يكتب إلى الإمام الحسن كلما أشكل عليه أمر وهو خليفة للمسلمين فيجيبه سيدنا الحسن بثاقب عرفانه ونفاذ بصيرته وروائع وعظه ، مشاركا بدعوته فى بناء الدولة والفرد والمجتمع ، ومن بدائع رسائله إليه ما جاء فى صدرها : (اعلم أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه ، وليس ما يفنى وإن كان كثيرا يعدل ما يبقى وإن كان طلبه عزيزا ، واحتمال المؤونة المنقطعة التى تعقب الراحة

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء : ٥٧٥/٤

(٢) المصدر السابق ٥٧٤/٤ .

الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة ، التى قد تزينت بخدعها وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة ..) . [١]

ولقد رصد العلماء والمفكرون للإمام الحسن أنه كان مؤسس (علم القلوب والخواطر) وهو ما سماه الباحثون المحدثون بـ (السيكولوجية التنسكية) وهى المبادئ التى قامت عليها العديد من الطرق الصوفية ، وصرح بعضهم بأن الإمام الحسن كان قطب الغوث فى زمانه . [٢]

وقد مر بنا أن أبا سعيد الأعرابى قال (لم يبلغنا أن أحدا تكلم فى هذه المذاهب - يعنى فى أحوال النفس - ودعا إليها ، وزاد فى بيانها وترتيبها وصفات أهلها مثل الحسن البصرى) . [٣]

وأما الأساس الثانى - وهو الزهد - فإنه من المقطوع به عند العلماء والباحثين فى التصوف : أن الإمام الحسن البصرى هو مؤسس مدرسة الزهد فى عصر التابعين ، وقد روى الحافظ أبو نعيم عن علقمة بن مرثد رضى الله عنهما أنه قال (انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبى الحسن فما رأينا أحداً من الناس كان أطول حزنا منه). [٤]

ولقد كان من روائع حكم الإمام الحسن ونصائحه فى الزهد قوله (إن الدنيا دار عمل ، من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها ؛ ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقى بها وأجحف بحظه من الله عز وجل ، ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه ولا طاقة له به من عذاب الله ، فأمرها صغير ، ومتاعها قليل ، والفناء عليها مكتوب ..) [٥]

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ٢/١٣٤ - ١٣٥ .
(٢) انظر التنسك الإسلامى للدكتور محمد غلاب ص٨٦ ط/ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
(٣) انظر : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى ص٢٦٢ - ٢٦٣ .
(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الاصبهانى ٢/١٣٤ .
(٥) المصدر السابق ٢/١٤٠ .

وكانت حياته مرآة لقوله فى الزهد ، إذ يروى الذهبى ، عن مطر إنه قال (دخلنا على الحسن نعوده فما كان فى البيت شىء ، لا فراش ولا بساط ولا وسادة ولا حصير إلا سرير مرمول هو عليه) (١) !!

وكان رضى الله عنه يندد بحب الدنيا ويحذر من صرعتها ، فقد كتب يوما إلى سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما قائلا (.. أما بعد : فإن الدنيا دار مخيفة ، إنما أهبط آدم من الجنة إليها عقوبة ، واعلم أن صرعتها ليست كالصرعة، من أكرمها يهن ، ولها فى كل حين قتيل ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء خيفة طول البلاء ، والسلام) . (٢)

وأما الأساس الثالث : فهو الخوف والحزن ، ولقد كان الامام الحسن مضرب المثل فى خوفه وخشيته وطول حزنه ، حتى لقد روى ابن الجوزى عن يزيد بن حوشب أنه قال (ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز ؛ كأن النار لم تخلق إلا لهما) . (٣)

وروى عن يوسف بن أسباط أنه قال (مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح) . (٤)

وكان الإمام الحسن رضى الله عنه يرى أن الخوف والحزن إنما هما من ثمرات صلاح القلوب ، فيقول : (لو أن بالقلوب حياة .. لو أن بالقلوب صلاحا لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة) . (٥)

وروى ابن الجوزى أيضا عن حفص بن عمر أنه قال : بكى الحسن ، فقلنا له ما يبكيك ؟ فقال (أخاف ان يطرحنى غدا فى النار ولا يبالى) (٦) . إنه الخوف العمرى بروعته وجلاله !

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ٥٨٢/٤ .
(٢) انظر حلية الأولياء ١٤٨/٢ .
(٣) انظر صفة الصفوة لابن الجوزى : ٢٣٣/٣ .
(٤) انظر المصدر السابق ٢٣٤/٣ .
(٥) انظر المصدر السابق ٢٣٤/٣ .
(٦) انظر المصدر السابق ٢٣٣/٣ .

وأما الأساس الرابع : فإنه العمل الدؤوب على أساس من تطهير النفس وصلاحية القلب توقا إلى مشاهدة الله عز وجل .

★ لقد ربط الإمام الحسن رضى الله عنه مداومة العبادة لله تعالى بالفقه والزهد ، ربط المسبب بالسبب فقال (إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه) . (١)

★ وكانت عظاته فى الحث على العمل تقع على القلوب الحية كالصواعق ، فمنها قوله (عجبا لقوم أمروا بالزاد ونودى بالرحيل فيهم ،وحبس أولاهم عن أخراهم وهم قعود يلعبون !! ابن آدم : السكين تحد ،والتنور يسجر ، والكبش يعلف ، كفى بالتجارب وبتقلب الأيام عظة ، وبذكر الموت زاجرا عن المعصية ، ذهبت الأيام وبقيت الآثام قلائد فى الأعناق) (٢) !!

★ وكان يرى رضوان الله عليه أن التقصير فى العمل مرده إلى المعاصى والخطايا ، فهى التى تحبس عن الطاعات ، فقدروى ابن الجوزى عن مبارك بن فضالة أنه قال : سمعت الحسن وقال له شاب : أعيانى قيام الليل ، فقال : (قيدتك خطاياك) (٣) !

★ وفى فضل العبادة والانقطاع إلى الله تعالى كان يقول : (من انقطع إلى الله فى مسجد للذكر والصلاة أقام الله له الدنيا خادمة) . (٤)

وقال : (المقيم فى مسجد مرابط على طاعة الله يدفع الله به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد) (٥) إنه تجسيد لفضل العبادة وتصريح من الإمام الحسن بمشروعية التوسل بالصالحين .

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ١٨٤/١ .
(٢) المصدر السابق ١٨٢/١ .
(٣) انظر : صفة الصفوة لابن الجوزى ٢٣٥/٣ .
(٤) ، (٥) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١٨٢/١ .

★ ولكن ما الغاية التى يقصدها الإمام لحسن بالعبادة ؟ أهو نعيم الجنة ؟ إنه هدف أعلى وأسمى من ذلك : إنه نعيم المشاهدة ، وفى ذلك يقول الإمام الحسن سيد التابعين : «لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا» . (١)

لقد أحسن الدكتور إبراهيم بسيونى فى تعليقه على هذا الأثر بقوله : (فمشاهدة الله إذاً مطمع هذا العابد ، لا الجنة بغرفها ، ولا النار بلظاها ، ورؤية الحبيب أمل يداعب الصوفية ويفنون فى سبيله أعمارهم .

وهكذا يمكن من تتبع منهج الحسن أن نجد عنده أصدق تطبيق عملى لما فى الإسلام من تصوف خلال هذا العصر ، ولهذا يعده كثير من الباحثين واضع أصول التصوف . (٢)

أجل : إنها المشاهدة التى هى مرتجى كل محب لله تعالى ، يقول مولانا القطب الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمة سيدنا الحسن البصرى من طبقاته الكبرى (وكان رضى الله عنه يقول : المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه) . (٣)

تلك غاية الصفوة الذين طهرت قلوبهم من السوى بتصحيح العمل لله والتحرر من أسر النفس والشيطان ؛ وقد وصف الإمام الحسن - حكيم القلوب والنفوس - الدواء للتغلب على العدوين الأكبرين قائلا (يستعان على دفع وسوسة إبليس بالذكر والقراءة ، والنفس : بالصوم والصلاة والمجاهدة والرياضة) . (٤)

وإذا صح القلب وطهرت النفس كان الشوق إلى اللقاء والحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذا كان الإمام الحسن إذا ذكر حديث حنين الخشبة التى كان

---

(١) انظرحلية الأولياء لأبى نعيم ١٥٩/٢ .

(٢) د. إبراهيم بسيونى : نشأة التصوف الإسلامى ص: ١٠٧ .

(٣) سيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى ٢٦/١ ط/ الشرقية .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٨٤/١ .

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جنبها يقول (يا عباد الله : الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه). [1]

هذا هو الإمام الحسن البصرى الذى كان إذا ذكر عند الإمام محمد الباقر رضى الله عنه قال (ذاك الذى كلامه كلام الأنبياء)[2] !!

لقد لقى ربه رضوان الله عليه سنة عشر ومائة للهجرة الشريفة ، فجزاه الله تعالى عن الأمة المحمدية خير الجزاء وحشرنا فى زمرته فى دار البقاء .

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٥٧٠/٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٨٥/٤ .

« ٢ »

سيدى مالك بن دينار رضى الله عنه

على قلوب العارفين تتنزل النفحات الإلهية لتضىء ساحتها بالأنوار الربانية وتجذبها إلى حضرة المولى عز وجل، فيظل العارف مستهلكا فى بحار التحقيق فانيا فى الله قائما به، فلا يشهد غير محبوبه الأزلى، ولا ينشغل إلا بمعشوقه الأبدى مصدر كل جلال وجمال وكمال.

إنه الولاء المطلق للحق تبارك وتعالى الذى خص به صفوته من خليقته، رضى الله عنهم وعنا بهم وأدخلنا بهم فى الصالحين.

من أفذاذ أولئك الأئمة الأخيار والصوفية الأبرار قطب سماء العرفان وولي أفنى ذاته فى محبة الرحمن.

إنه الإمام العابد، والصوفى الزاهد والربانى الساجد، صاحب الإمداد والنور:

سيدى أبويحيى مالك بن دينار. رضى الله تعالى عنه وعنا به إكراما لجنابه الشريف. سيد من سادات التابعين، وعلم من أعلام الصوفية الواصلين، وإمام تفرد فى زهده وإخباته وتبتله وانقطاعه لمولاه.

فكانت حكمته غذاء القلوب وسلوكه ضياء النفوس ومنهاجه اقتفاء الأثر المحمدى المنير. فلم تحد قدمه عن الطريق حتى وصل إلى مولاه وترك وراءه أثره ليسلك على دربه من تعشق الذروة وامتلك قياد نفسه ليهب عمره لله كما فعل.

وحديث المؤرخين وأصحاب الطبقات عن الإمام مالك بن دينار لم يتناول عن تاريخه الشخصى إلا شذرات قليلة سرعان ما ينتقل منها إلى سرد مأثوراته ومناقبه وإشاراته التى تصور منهجه الروحى واتجاهه الصوفى.

ففى ترجمته يذكر صاحب وفيات الأعيان أنه (من موالى بنى أسامة بن لؤى القرشى، كان عالما زاهدا كثير الورع، قنوعا لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب المصاحف بالأجرة..)هـ وقد ذكر المؤرخون - منهم ابن خلكان - أن سيدى مالكا قد توفى بالبصرة سنة إحدى وثلاثين ومائة هجرية[1].

وقد أدرك رضوان الله عليه من الصحابة سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه، وأسند عنه عدة أحاديث روى الإمام أبو نعيم طرفا منها فى الحلية، وذكر أنه روى أيضا عن جلة التابعين: عن الحسن وابن سيرين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله وغيرهم.

وقد أخرج له البخارى فى صحيحه وأخرج له الإمام أحمد وروى عنه الثقات من المحدثين[2].

وهكذا نجد أن سيدى مالكا قد عاش فى القرنين الأولين للإسلام حيث لا يزال عبير النبوة متضوعا فى الأرجاء لقرب العهد بإشراق شمس النبوة.

فلقى من لقى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، واستمد من نوره المدد المحمدى فتمثلت فيه القولة المأثورة: (إذا رأيت من رأى فقد رأيت).

وأخذ سيدى مالك يسبح فى أجواء الطهر والإيمان ويتطلع ببصيرته إلى مرتقى أعد لأمثاله من الصفوة الأصفياء.

وبينما نحن نبحث عن نقطة البداية التى كانت منطلقا لارتقائه إلى القمة، يضع التاريخ بين أيدينا رواية عن تلك البداية تحمل فى إطارها طابعا رمزيا ومضمونا له أبعاده ودلالاته.

فيروى الإمام المناوى رضى الله عنه فى طبقاته عن ابن الجوزى أنه قال فى كتاب التوابين: « إنه - أى سيدى مالك - كان أولا شرطيا . وأنه سئل عن سبب توبته فقال:

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس : ١٣٩/٤ -١٤٠ نشر دار صادر.

(٢) انظر حلية الأولياء : ٣٨٦/٢ ثم انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٣٦٢/٥ نشر مؤسسة الرسالة.

اشتريت جارية فوقعت منى أحسن موقع، وولدت منى بنتا فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت من قلبى حبا، وألفتنى وألفتها، فلما تم لها سنتان ماتت. فأكمد فى حزنها. فلما كان ليلة نصف شعبان - وكانت ليلة جمعة - رأيت فى منامى أن القيامة قامت، ونفخ فى الصور، وحشر الخلائق وأنا معهم.

فسمعت حسا فالتفت فإذا أنا بتنين عظيم أسود أزرق فتح فاه مسرعا نحوى، فمررت بين يديه جاريا مرعوبا.

فمررت بطريقى بشيخ نقى الثوب طيب الرائحة، فسلمت عليه فرد على السلام، فقلت:أجرنى من هذا التنين أجارك الله.

فبكى وقال: أنا ضعيف وهذا أقوى منى، مر وأسرع لعل الله أن يقيض لك ما ينجيك منه، فوليت هاربا على وجهى، فصعدت على شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فكدت أهوى فيها من فزعى، فصاح صائح: ارجع فلست من أهلها.

فاطمأننت لقوله، ورجعت ورجع التنين فى طلبى فأتيت الشيخ فقلت: سألتك أن تجيرنى من هذا التنين فلم تفعل.

فبكى وقال:أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فتنصرك.

فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، فيه طاقات مخرقة وستور معلقة، على كل طاقة مصراعان من ذهب أحمر، على كل مصراع ستر من حرير، فلما نظرت إليه هرولت والتنين من ورائى.

حتى إذا اقتربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصارع.

فأشرفوا على، فرأيت أطفالا كالأقمار، وقرب التنين منى فحرت فى أمرى.

فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه.

فأشرفوا فوجا بعد فوج فإذا أنا بابنتى التى ماتت.

فنظرت إلى وقالت: أبى والله. ثم وثبت فى كفة من نور كرمية السهم حتى صارت عندى، ومدت يدها الشمال إلى يدى اليمين فتعلقت بها، ومدت يدها اليمين إلى التنين فولى هاربا، ثم أجلستنى وقعدت فى حجرى، وضربت يدها اليمنى إلى لحيتى وقالت: يا أبت: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ؟؟ فبكيت وقلت: وأنتم تعرفون القرآن؟ قالت: نحن أعرف به منكم. قلت: فأخبرينى عن التنين الذى أراد أن يهلكنى؟ قالت: ذاك عملك السيىء قويته فأراد إغراقك فى نار الجحيم.

قلت فالشيخ؟ قالت: عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السيىء.

فقلت يا بنية: ما تفعلون فى هذا الجبل؟ قالت: أطفال المسلمين أسكنوا فيه إلى قيام الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم !!

قال مالك رحمه الله: (فانتبهت فزعا مرعوبا فكسرت آلات المخالفة، وعقدت مع الله عز وجل توبة نصوحا فتاب على سبحانه). [1] ا هـ

وكانت البداية النورانية، وبدأ التحول الروحى يأخذ مجراه على أثر هذا النداء الإلهى الذى سيقت من أجله تلك الواقعة: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)[2].

إن الولاية لله عز وجل لابد أن ترتكز على دعامتين راسختين هما:

الإيمان بالله، وتقوى الله. ومقياس هذه التقوى هو خشوع القلب لذكر الله.

ولقد كان قلب سيدى مالك عامرا بالإيمان ومهيّأ لإشراق نور التقوى.

ولكن اتصال الشعاع كان فى حين معلوم، وما كانت هذه الرؤيا التى رآها سيدى مالك إلا إيذانا بالولاية لله والفرار إلى الله وتخلية القلب لله تخلية يتبعها سجود القلب لله حيث قمة مراتب الولاية.

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان : ١/٢٧٧-٢٧٨.

(٢) سورة الحديد : الآية الكريمة /١٦.

وذاق سيدى مالك منذ ذلك الحين حلاوة العبودية لله وتألم على ما مضى من العمر سدى ولكن العناية ادخرت له ماهو فوق مطمح الآمال فجاءه الفتح الإلهى وصعد إلى علياء منازل الأبرار والمقربين.

وإذا ما تساءلنا عن الجانب السلوكى عند العارف ابن دينار لوقفنا على قمة قلما نجد نظيرا لها فى الأمة.

فلقد رفع لواء الجهاد الأكبر - جهاد النفس - وشهر سيف المجاهدة على نفسه فى طاعة الله فسمعه أحد أصحابه وهو يقول: (يقولون الجهاد! أنا من نفسى فى جهاد)!! وسمعه آخر يقول: (قال رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أرأيتم نفسا إن أنا أكرمتها ونعمتها وفنقتها ذمتنى غدا قدام الله، وإن أنا أتعبتها وأرهقتها وأنصبتها مدحتنى غدا قدام الله - يعنى نفسه -)[1]!!

والجهاد الروحى طريقه طويل لا ينتهى حتى تضمحل النفس وتصفو من أدرانها وشوائبها.

ولما كان حب الدنيا هو السم الزعاف الذى يطفئ نورانية الروح فقد غالب سيدى مالك نفسه بالزهد فى الدنيا وبلغ فى ذلك شأوا لا يدرك.

فما كان يتقوت إلا من عمله فى حرفتين هما كتابة المصاحف - وهى مع كونها حرفة عبادة - وعمل الخوص.

وكان يكتب المصحف فى أربعة أشهر، وكان مجموع ما يتكسبه من حرفتيه لا يعدو درهمين.

فقد روى أبو نعيم عن محمد بن عمر بن كريب قال: (ما كان لمالك بن دينار من الدنيا إلا درهمان: درهم لورقه، ودرهم ليشترى به خوصا يعمل به).

ويبلغ التقلل والزهد مداه عند سيدى مالك حتى ليروى صاحب الحلية أيضا عن أبى بلج قال: (كان أدم مالك بن دينار كل سنة ملحا بفلسين)!!

---

(١) انظر حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم الأصفهانى ٢/٣٦٢ -٣٦٣.

وأما عن متاع بيته: فيقول سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه: (وكان بيته خاليا ليس فيه غير مصحف وإبريق وحصير، ويقول: هلك أصحاب الأثقال)!! ولم يكن هذا التبرى من متاع الدنيا إلا إجابة لدعائه، فقد كان يتضرع إلى ربه قائلا: (اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شيئا)[1]!!

ولنا هنا وقفة وتساؤل : ما الذى حدا بسيدى مالك بن دينار إلى هذا الزهد والتقلل من الدنيا إلى هذا الحد؟؟

ونجد عنده الجواب ينطق بالحكمة والصواب. فهو الذى يقول: (من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذى يفرق الشيطان من ظله)[2]!!

وهو الذى كان يقول: (إن فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة ذكرى من قلبه)[3] وكثيرا ما كان يحذر منها قائلا: (اتقوا السحارة - يعنى الدنيا - فإنها تسحر قلوب العلماء) وصدق الله عز وجل إذ يقول: (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى...).

ولقد كان أمر الآخرة هو الشغل الشاغل لسيدى مالك.

فقد كان يقوم فى محرابه ويقول: (يا رب قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار ففى أى الدارين مالك؟؟ ثم يبكى!!).

لقد كان نداء العبودية لله يدوى فى أعماق سيدى مالك بكل حرارة ووجد، حتى لقد قال فيما رواه الإمام الشعرانى رضى الله عنه: (لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت أنى إذا مت أن أغل فأدفع إلى ربى مغلولا كما يدفع العبد الآبق إلى مولاه)!!

وكانت عباداته فى جوف الليل سراً بينه وبين مولاه يناجيه بقلبه ومشاعره ويسر إليه بحديثه ونجواه.

روى أبونعيم عن المغيرة بن حبيب - ختن سيدى مالك - يقول: (يموت مالك ابن دينار وأنا معه فى الدار لا أدرى ما عمله - قال - فصليت معه العشاء الآخرة ثم

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/٣٢ الشرقية.
(٢) ، (٣) انظر حلية الأولياء ٢/٣٦٠ ، ٣٦٥.

جئت فلبست قطيفة فى أطول ما يكون الليل - قال - وجاء مالك فقرب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار، فوالله ما زال كذلك حتى غلبتنى عينى ثم انتبهت، فإذا هو على تلك الحال يقدم رجلا ويؤخر رجلا ويقول: يا رب، إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار. فما زال كذلك حتى طلع الفجر)[1]. إنه فى مقام الخوف يناجى ربه من شدة خشيته مشفقا على نفسه.

ولقد سمعه بعض أصحابه يوما وهو يقول: (لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانا لفرقتهم ينادون فى سائر الدنيا كلها يا أيها الناس: النار.. النار..)!!

وما أن يعطى مقام الخوف حقه حتى يعود إلى شاطئ الرجاء.

حتى لقد رؤى فى النوم بعد وفاته فقيل له: ماذا قدمت به على الله ؟؟ قال:

(قدمت بذنوب كثيرة محاها حسن الظن بالله تعالى) وحسن الظن بالله تعالى هو قمة الرجاء.

وفى كل من مقامى الخوف والرجاء كان سيدى مالك لا يفتر عن ذكر الله. كان يقتات منه، وكان يطرب لسماع القرآن الكريم ويقول لأصحابه:(إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة - ثم يقول: - خذوا فيقرأ، ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه)!!

ولقد كان الذكر عنده مقياسا لمحبة الله عز وجل. فهو يقول: (علامة محبة الله مداومة ذكره؛ لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره).

إن حب الله قد ملك عليه فؤاده وغمر حواسه ومشاعره، ولقد كان له مع المحبين - فى بدء أمره - وقائع ينتشى القلب من ذكرها:

فمن تلك الوقائع ما ذكره الإمام أبو طالب المكى قائلا: (وحكى عن مالك

(١) انظر حلية الأولياء: ٢/٣٦٢.

ابن دينار - وهو مما يليق بهذا الفصل - قال، خرجت من البصرة أريد الحج إلى بيت الله الحرام. فلما بلغت مكة استحليت الطواف ذات ليلة.

فبينما أنا أطوف بالكعبة وأنا متلذذ بحلاوة الخلوة، فلما دنا قرب الفجر رأيت جارية تطوف أمامى وهى تقول: سيدى ومولاى: بسكرى البارحة وخمارى الساعة إلا غفرت لى! فقلت: يا جارية.

ما هذا الكلام فى مثل هذا المقام؟

فقالت: يا مالك ما قلت إلا ما يليق بحالى، وهذه كلمة تصلح لى ولا تصلح لك. فقلت واعجباه! كانت المسألة واحدة فصارت اثنتين، أخبرينى كيف عرفت أنى مالك بن دينار؟ وكيف صلحت الكلمة لك ولم تصلح لى، فقالت، أما معرفتى بك فإن روحى وروحك التقيا تحت عرش الجبار.

فشم روحى روحك فعرفتك حين رأيتك.

وأما قولى أن هذه كلمة تصلح لى ولا تصلح لك فذاك لأنى أحب الله وأنت تريد الله، فما أبعد ما بينهما.

فأما ما يعجبك من قولى، فوالله ما قلت كذبا. شربت بكأس المحبة مسرورة فأصبحت فى ميدان الشوق مخمورة، ثم ولت وهى تقول:

أسقيتنى كأسا فأسكرتنى ... فمنك سكرى لا من الكأس
قطعتنى عن كل مستوحش ... أفديك بالعينين والرأس[1]

وثمة واقعة أخرى لسيدى مالك مع أحد المحبين الإلهيين يرويها عنه الإمام المناوى رضى الله عنه قائلا:

وقال: حبس المطر فاستسقينا مرارا فلم نسق. فانصرف الناس وبقيت بالمصلى.

---

(١) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى ص١٩٤-١٩٥.

فلما أظلم الليل إذا أنا بأسود دقيق الساقين عظيم البطن. فصلى، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: سيدى: إلى كم ترد عبادك فيما لا ينقصك؟ أنفد ما عندك؟!! أقسمت عليك بحبك لى إلا سقيتنا الساعة، فما تم كلامه حتى أمطرت كأفواه القرب، فخرجنا نخوض، فتعرضت له. فقلت: أما تستحى، تقول بحبك لى؟ وما يدريك أنه يحبك؟ قال: يا من اشتغل عنه بنفسه: أين كنت أنا حين خصنى بتوحيده ومعرفته؟ أتراه بدأنى بذلك إلا لمحبته لى؟ ثم بادر يسعى فقلت : أرفق.

فقال: أنا مملوك على طاعة مالكى الصغير، فسألت عن مالكه، فقلت: بعنيه فقال: هذاغلام مشئوم لا همة له إلا البكاء، قلت: ولذا أريده. فاشتريته فقال: لماذا اشتريتنى؟ فقلت لأخدمك. فدخل مسجدا فصلى، وقال:هذا سر كان بينى وبينك، أظهرته لمخلوق، أقسمت عليك إلا قبضتنى، فإذا هو ميت)[1]!!

لقد كانت تلك الوقائع تعمق فى قلب سيدى مالك مشاعر التعلق بالله وتفرغ فيه من دنان المحبة كئوساً مثملات، وظل ينهل من تلك الدنان المعتقة حتى ارتوى وغمر شعاعها قلبه وانزاحت الأستار وتكشفت له الحقائق العلوية التى لا تتجلى إلا للصفوة، وصار ينعم فى الحياة بأحلى ما فى الحياة وهو معرفة الله تعالى.

استمع إليه وهو يقول : (خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قال : معرفة الله تعالى).

إنه لم يحكم إلا عن ذوق ولم يخبر إلا عن عيان !.

ولقد روى عنه سيدى أبو طالب المكى فى (علم القلوب) أنه قال : (إن فى الدنيا جنة من وجدها لم يشتق معها شيئاً، قيل وما هى؟ قال : معرفة الله. وأنشد فى ذلك : -

إن عرفان ذى الجلال لعز ... وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء ... وعليهم من الجلال نور

---

(١) انظر : الكواكب الدريه للإمام المناوى : ١/ ٢٨١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

فـهنيـئـاً لمن عـرفك إلهى   هـو والله دهـره مسـرور[1]

إنها المعرفة بالله التى لا ينالها إلا من والاه واصطفاه وآنسه واجتباه، فاستوحش من المخلوقين لأنه مع الخالق دائماً.

فهو يقول : (من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوق فقد قل عمله وعمى قلبه وضيع عمره) ا.

ويوسعنا أن نتعرف - بعض التعرف- على مقام العارف سيدى مالك من خلال ما رواه الإمام أبو نعيم فى الحلية بسنده عن سيدى مالك قال : (أتينا أنس ابن مالك - صفو كل قبيلة - أنا وثابت البنانى ويزيد الرقاشى وزياد النميرى وأشباهنا، فنظر إلينا فقال :-

ما أشبهكم بأصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ا.

ثم قال : رؤوسكم ولحاكم. ثم قال : -

والله لأنتم أحب إلىّ من عدة ولدى إلا أن يكونوا فى الفضل مثلكم، وإنى لأدعو لكم بالأسحار[2]، هنيئا لك ياسيدى مالك حظيت بصحبة سيدنا أنس بن مالك صحابى سيدنا رسول الله-صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم-، وحظيت بحبه كولده وبدعائه لك فى الأسحار ومن قبل ذلك بشهادته لك بشبهك لصحابته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، اللهم إنا لم نحظ بشرف صحبة هؤلاء الأخيار فألحقنا بهم بحبنا لهم واجعلنا من السائرين على دربهم بحق حبك لهم فإنك أكرم الأكرمين.

ونعود إلى استكشاف بعض ملامح العظمة فى شخصية الإمام ابن دينار فنقف على داعية من دعاة النور والفضيلة وعلى قدوة تضافرت لها مقومات التصدر للهداية والقيادة الروحية.

---

(١) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى بتحقيق عبد القادر عطا ص ١٣٥.

(٢) انظر حلية الأولياء ٢/ ٣٨١ -٣٨٢.

لقد كان سمته وحده خير ناصح ومرشد، وحاله يدلك عليه أكثر من مقاله ومقاله أروع تجسيد للحكمة الهادية.

كان رضوان الله عليه يقول : (إنكم فى زمان أشهب، لا يبصر زمانكم إلا البصير، إنكم فى زمان كثير تفاخرهم، قد انتفخت ألسنتهم فى أفواههم وطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فاحذروهم على أنفسكم لا يوقعونكم فى شباكهم).

ومن حكمه المضيئة : (إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة)[1].

وكان يقول : (كان الأبرار يتواصون بثلاث : بسجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة). ولأن الحكمة ثمينة لا يعرفها إلا أهلها فقد نعى سيدى مالك على المعرضين عن الحق وصوّر حالهم قائلاً : (يا هؤلاء : إن الكلب إذا طرح عليه الذهب والفضة لم يعرفها وإذا طرح إليه العظم أكب عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق).

وحقاً ما قال فلقد مُنِى الحق فى كل زمان بالسفهاء كما مُنِى الأولياء بمن ينكرون عليهم ويناصبون التصوف - وهو قمة الروحية الإسلامية- العداء ولكن وليهم الله ورسوله فلا يبالون بعنت المحجوبين.

وهذا مثل من صميم الواقع يصور لنا إلى أى مدى جعل الله الأولياء سفناً للنجاة.

يروى العارف المناوى أن سيدى مالكاً دخل لص داره فما وجد شيئاً يسرقه، فجاء ليخرج ومالك ينظره. فقال : سلام عليك، أعلم أن شيئاً من الدنيا ما حصل لك فترغب فى شىء من الآخرة؟ قال نعم . قال توضأ وصلّ. ففعل إلى الصبح فخرج به مالك إلى المسجد. فقال أصحابه : من هذا ؟قال : هذا جاء يسرق فسرقناه)!![2] .

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٦٣.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٢٧٩ نشر الأزهرية للتراث.

ومن الوقائع اللطيفة أن سيدى مالكاً سُرق له مصحف. فوعظ أصحابه، فجعلوا يبكون، فقال : كلنا نبكى فمن سرق المصحف ؟!.

وكان من دعائه رضى اللهُ عنه: (أنت أصلحت الصالحين، فاجعلنا صالحين حتى نكون صالحين ..).

وكان يبشر أصحابه ومن على شاكلتهم من الأخيار قائلاً : (عرس المتقين يوم القيامة).!.

ومن مناقبه وكراماته رضى الله عنه ما رواه ابن خلكان عن أبى القاسم ابن بشكوال حيث قال فى كتابه : (المستغيثين بالله تعالى) : بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذا جاءه رجل فقال يا أبا يحيى: أدع الله لامرأة حبلى منذ اربع سنين فقد أصبحت في كرب شديد، فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أننا أنبياء !!.

ثم قرأ ثم دعا فقال : (اللهم هذه المرأة إن كان فى بطنها جارية فأبدلها بها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب).

ثم رفع مالك يده ورفع الناس أيديهم . وجاء الرسول إلى الرجل وقال أدرك امرأتك فذهب الرجل فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد وعلى رقبته غلام جعد قطط ابن أربع سنين قد استوت أسنانه ما قطع سراره)[1]!!.

رضى الله عنك يا سيدى مالك وعنّا بك وحشرنا معكم وجعلنا من السائرين على دربكم المقتفين أثركم الشريف بجاه سيد الخلق سيدنا محمد- صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وسلام عليكم فى العالمين وتحية منا إليكم إلى يوم الدين.

★ ★ ★

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ٥٥٢/٤.

«٣»

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه

على طريق التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى دخل الصفوة الأولياء علماء الصوفية، وصوفية العلماء فى ظل الصفات القدسية فغمرتهم تجليات الذات العلية، وترقَّوْا فى منازل القلب والروح حتى فنيت حدثانهم فحظوا بالبقاء فى عين الجمع يستمدون من الأنوار الإلهية ويحظون بالنفحات القدسية أولئك أقطاب الأمة المحمدية رضى الله عنهم وعنّا بهم والحقنا بزمرتهم فى الدنيا ويوم الدين.

من عين تلك النخبة من رجال الله الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه: بحر من بحور الشريعة المحمدية الغراء، وعلم من شوامخ أعلام الصوفية العظماء.

إنه العالم العامل، والزاهد الواصل، والعابد المتبتل، والعارف المحقق، المجاهد فى الله حق جهاده، الناهل من رحيق التقى واليقين زاده لمعاده، سيدى الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معية إمامنا الشافعى وسائر أئمة الدين عليهم الرضوان ورزقنا بهم الوصول إلى مقام الإحسان.

يتفرع الإمام الأعظم من شجرة فارسية النسب، فقد ساق المؤرخون نسب الإمام من طرق مختلفة ولكنها متلاقية عند أصله الفارسى.

فابن خلكان يسوق نسبه فى الوفيات قائلاً : (الإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت- رضى الله عنه - بن زوطى بن ماه، الإمام الفقيه الكوفى مولى تيم الله ابن ثعلبة، وهو من رهط حمزة الزيات)[1].

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان : ٥/٤٠٥.

ويتفق هذا السياق مع ما أخرجه عمر بن حماد بن أبى حنيفة وعلى ذلك يكون الإمام فارسى الأصل تيمى الولاء حيث إن جده زوطى كان مملوكاً لبنى تيم الله ابن ثعلبة.

بيد أن رواية أخرى قد ساقها صاحب (تاريخ بغداد) بسنده عن إسماعيل ابن حماد بن أبى حنيفة- أخى عمر السابق- أنه كان يقول : (أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، من أبناء فارس الأحرار، ،والله ما وقع علينا رق قط، ولد جدى فى سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته، ونحن نرجو من الله أن يكون قد استجاب ذلك لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فينا) هـ.

وقد وفق الإمام ابن حجر الهيثمى فى مؤلفه البديع (الخيرات الحسان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) بين رأيى الحفيدين فى اختلافهما فى أن والد ثابت النعمان أو زوطى، وجده المرزبان أو ماه باحتمال أن يكون لكلٍّ اسمان أو اسم ولقب أو أن معنى زوطى: النعمان ، والمرزبان: ماه.

كما أجاب عن تخالفهما فى الرق بأن من أثبته أراد فى الجد ومن نفاه أراد فى الأب[1].

بيد أن إسماعيل بن حماد قد نفى وقوع الرق أصلاً إذ قال : (والله ما وقع لنا رق قط).

على أن وقوع الرق على أصل الإمام - على فرض صحته - لا يقدح بحال فى مكانه إمام استرق بعلمه وإمامته ملايين المقلدين والمتعبدين على مذهبه القويم.

كما لا يغض كذلك من سمو منزلته أنه فارسى وعجمى فحسبه أن يصدق فيه حديث الصادق المصدوق- صلى الله عليه وآله وسلم- الذى رواه الشيخان وغيرهما

(١) انظر : الخيرات الحسان فى مناقب الإمام الأعظم إلى حنيفة النعمان للعلامة شهاب الدين بن حجر الهيثمى ص ٢١ ط/الخيرية، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان : ٥//٤٠٥.

« لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس »[١] كما لم تمنع فارسية سيدنا سلمان رضى الله تعالى عنه من أن يقول فيه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: (سلمان منا آل البيت). فمقياس الفضل والقربى فى الإسلام دائماً وأبداً إنما هو التقوى مناط كل بر وتكريم كما أكد الحق تعالى فى القرآن الكريم: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقد ولد الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه بالكوفة سنة ثمانين للهجرة النبوية الشريفة وقد ذكر شيخ الإسلام ابن حجر فى فتاويه أن الإمام أبا حنيفة أدرك جماعة من الصحابة كانوا بالكوفة بعد مولده بها سنة ثمانين.

وإذن فهو من التابعين الذين شملهم قول الحق تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٢]

وقد ذكر الذهبى أن الإمام قد رأى سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه وهو صغير. وقال مولانا الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى ترجمة الإمام أبى حنيفة من طبقاته: « ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة، وكان فى زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك، وعبد الله بن أبى أوفى، وسهل بن سعد، وأبو الطفيل، وهو آخرهم موتاً، ولم يأخذ عن واحد منهم»[٣].

والمشهور عند الكثير من المحدثين أن مجرد لقيا الصحابى تثبت تابعية من لقيه، إذ يقول صاحب الخيرات الحسان: « وأكثر المحدثين على أن التابعى من لقى

---

(١) خرجه بهذا اللفظ أبو نعيم فى الحلية ، وخرجه كذلك الإمام أحمد عن أبى هريرة بلفظ (لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس).

كما خرجه الشيخان عن أبى هريرة بلفظ (لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء وأشار لفارس) انظر فيض القدير للمناوى ٣٢٣/٥.

(٢) سورة التوبة / ١٠٠.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٤٥/١ ط/ الشرفية.

الصحابى وإن لم يصحبه، وصححه النووى كابن الصلاح » وعلى ذلك تحققت تابعية الإمام الاعظم وإن لم يأخذ عمن لقيهم من الصحابة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ونشأ الإمام النعمان بالكوفة فى بيت مسلم يجمع إلى متانة الدين يسر المعيشة، وكان والد الإمام خزازاً يتاجر فى الخز ويختلف إلى السوق فأخذ الإمام فى مهنة أبيه فى مطلع حياته قبل الاشتغال بالعلم إلى أن قيض الله له الإمام الشعبى فوجهه وجهة العلم وتوسم فيه الفتوح.

يروى المكى عن الإمام فى مناقبه أنه قال : « مررت على الشعبى وهو جالس فدعانى فقال لى إلى من تختلف؟ فقلت : أختلف إلى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف إلى السوق. عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت له : أنا قليل الاختلاف إليهم . فقال لى : لا تغفل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة ، قال فوقع فى قلبى من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق وأخذت فى العلم فنفعنى الله بقوله ».

واتجه الإمام إلى مجالس العلماء تحوطه عناية الرحمن لترفعه إلى ذروة التفقه والرسوخ فى العلم. فبعد أن حفظ القرآن الكريم على قراءة عاصم خاض غمار العلوم بمختلف تياراتها من حديث وتفسير وكلام ونحو وأدب وشعر، وعلا نجمه فى أفق العلم وظل يغوص بذهنه المتوقد فى أمهات المسائل ومشكلات علم الكلام حتى عمت شهرته الآفاق.

فيروى أنه كان يرتحل للبصرة ويمكث بها سنة كاملة ليجادل الفرق المختلفة فى مسائل الاعتقاد إيماناً منه آنذاك بأولوية علم الكلام على سائر العلوم لتعلقه بأشرف الموضوعات وهو العقيدة.

لكنه قد ألهم بعد ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يخوضوا فيه مع توافر قدراتهم عليه أكثر وأعمق من غيرهم بل إنهم قد نهوا عنه فانصرفوا إلى أمور الشرع والفقه مما ينفعهم فى معاملاتهم مع الله ومع خلقه. فكره الإمام طرائق

الجدل، وولى وجهه شطر التفقه فى الدين. وقد أكد ذلك عنده - كما يذكر صاحب الخيرات الحسان - أنه كان يجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان. فجاءته امرأة فسألته عن رجل يريد أن يطلق امرأته للسنة كيف يقول؟ فلم يجد جواباً فأمرها أن تسأل حماداً ثم تعلمه جوابه، ففعلت، فترك الكلام وجلس فى حلقة حماد فكان يحفظ جميع ما يقوله ويخطئ فيه أصحابه، فأجلسه بحذائه فى صدر الحلقة عشر سنين. ويكمل ابن حجر الهيثمى تلك الرواية بعزم الإمام على ملازمة شيخه حماد حتى يموت. وقد كان !.

ولم يَقْصُرْ الإمام أبو حنيفة همته على الفقه فحسب. بل إنه - كما قلت - خاض غمار العلوم الشرعية من وسائل وغايات حتى إن أبا يوسف كان يقول : (ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبى حنيفة، وكان أبصر بالحديث الصحيح منى) وروى البيهقى أن الإمام النعمان كان يسأل عن الأخذ عن سفيان الثورى فيقول : اكتب عنه فإنه ثقة ما عدا أحاديث أبى إسحق عن جابر الجعفى.

كما روى الخطيب عن سيدى الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه أنه قال : أول من أقعدنى للحديث بالكوفة أبو حنيفة، قال لهم هذا أعلم الناس بحديث عمرو ابن دينار !».

ومن ذلك تعلم منزلة الإمام أبى حنيفة الرفيعة فى علوم الأثر مما يدحض افتراء القائلين بابتناء مذهبه على الرأى فحسب دون الرجوع إلى الأثر لعدم رسوخه فيه.

أما عن شيوخ الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه : فقد ذكر صاحب الخيرات الحسان أن الإمام أبا حفص الكبير قد ذكر من شيوخ الإمام أربعة آلاف شيخ وقال غيره: له أربعة آلاف شيخ من التابعين فما بالك بغيرهم، وعدّ منهم الليث بن سعد، والإمام مالك بن أنس رضى الله عنهما[1]. علماً بأنهما أيضاً من جملة الآخذين عنه.

---

(١) انظر : الخيرات الحسان للعلامة ابن حجر الهيثمى ص/٢٥.

وتذكر المصادر أن الإمام أبا حنيفة قد تتلمذ على أيدى نخبة من صفوة علماء أهل البيت رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين، فقد ذكر الموفق المكى فى مناقب الإمام أنه التقى بسيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين رضى الله عنهما وتناظر معه بالمدينة المنورة وفى نهاية المناظرة قام الإمام الباقر وعانق الإمام النعمان وقبل وجهه وأكرمه.

كما يذكر المكى كذلك أن الإمام أبا حنيفة التقى بسيدى جعفر الصادق رضى الله عنه وعنا به عند أبى جعفر المنصور قبل العداء بينه وبين العلويين.

وتذكر بعض الروايات أن الإمام أبا حنيفة قد أخذ العهد فى الطريق الصوفى على يد الإمام جعفر الصادق رضى الله عنهما[1].

وهكذا نهل الإمام أبو حنيفة من شتى المنابع التى منحت علمه ومذهبه كل الثقة فى أعين الجميع. يروى الخطيب البغدادى أن الإمام أبا حنيفة قد دخل يوماً على المنصور وعنده عيسى بن موسى. فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم ! فقال له : يا نعمان، عمن أخذت العلم؟ قال : عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب على عن على، وعن أصحاب عبد الله - أى ابن عباس - عن عبد الله، وما كان فى وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه.

قال : لقد استوثقت لنفسك)!!.

وذكر ابن خلكان أن الإمام قد سمع عطاء بن أبى رباح، وأبا إسحق السبيعى، ومحارب بن دثار، والهيثم بن حبيب الصراف، ومحمد بن المنكدر ونافعاً مولى عبد الله بن عمر وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين.

ومن تلك المنابع الدفاقة وبعناية الله واجتبائه وصل الإمام أبو حنيفة فى العلم إلى الذروة الشامخة والإمامه الراسخة التى شهد له بها الأئمة الأثبات.

---

(١) انظر حديث الإمام جعفر الصادق مع الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما فى : (حلية الأولياء) لأبى نعيم ١٩٧/٣ .

ولعلنا نستعيض عن القصور عن التعريف بمكانة الإمام العلمية مباشرة بما ترجمه الأئمة فى عباراتهم عن الإمام فيروى حرملة عن إمامنا الشافعى رضى الله عنه أنه قال : (من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفة، إنه ممن وفق له الفقه)[1]!!.

كما يروى الربيع عن مولانا الشافعى رضى الله عنه أنه قال: (الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة، ما رأيت - أى علمت - أحداً أفقه منه؛ لأنه لم يدرك أحداً أفقه منه) [2]!.

ويروى الخطيب عن الإمام الشافعى عليه الرضوان أنه قال (قيل لمالك رحمه الله: هل رأيت أبا حنيفة رحمه الله؟ قال نعم رأيت رجلاً لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته)!!.

وقال عنه سيدى الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه: (كان أفقه الناس، ما رأيت أفقه منه)، وقال النضر بن شميل : (كان الناس نياماً عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتّقه وبيّنه ولخصه)، وقال الإمام سفيان الثورى لمن جاءه من عند أبى حنيفة: (لقد جئت من عند أفقه أهل الأرض).

والآن لننتقل إلى الحديث عن صوفية الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه سلوكاً وعملاً ومنهجاً وتحقيقاً فذلك بيت القصيد الذى نريد أن نقف عنده ونتعايش مع مفهومه لنستجلى الصورة التطبيقية لعلم الإمام.

ونبدأ بجانب العبادة فنقف أمام مثل فذ للعباد القانتين المخبتين الأوّابين. ونعاين تلك الثمرة التى أثمرتها شجرة العلم لرأس مذهب فى الفقه أم باجتهاده المطلق فى الشريعة جمهوراً يتأبى تعداده من المسلمين على تتابع القرون ومر الأحقاب. لقد كان هذا الإمام آية من آيات الله فى التعبد والعكوف على طاعة الله.

حتى لقد كان يسمى لدى السلف الصالح من العباد بالوتد من كثرة قيامه بالليل[3].

---

(١) انظر الخيرات الحسان ص ٣١.

(٢) المصدر السابق ص٣٦.

(٣) المصدر السابق : نفس الموضع.

بل يذكر صاحب الخيرات الحسان وهو ثقة صدوق - وتظاهره روايات متعددة - أن الإمام أبا حنيفة قد أحيا الليل بقراءة القرآن كله فى ركعة واحدة على مدى ثلاثين سنة بلا انقطاع[1] !!.

أجل يقول الإمام ابن حجر الهيثمى: « وحفظ عنه أن صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن فى ركعة واحدة يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عنه أنه ختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعة آلاف مرة»[2] !!.

ثم يؤكد ذلك بواقعة تاريخية رويت عن الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه إذ وقع فى الإمام أبى حنيفة رجل عنده فقال له : « ويحك ! أتقع فى رجل صلى خمسا وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد وكان يختم القرآن فى ركعة وتعلمت ما عندى من الفقه منه ؟؟ » !!.

والرواية التى نقلت المصادر عنها صلاة الإمام الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وقراءة القرآن الكريم جميعه فى ركعة واحدة وختم القرآن الكريم سبعة آلاف مرة فى موضع وفاته ذكرت فى تاريخ بغداد مسندة إلى أسد بن عمرو.

وقد روى صاحب « الخيرات الحسان » سبب إحيائه الليل كله أنه سمع رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة الذى لا ينام !، فقال لأبى يوسف : سبحان الله! الا ترى الله تعالى نشر لنا هذا الذكر ؟ أو ليس بقبيح أن يعلم الله تعالى منا ضد ذلك ؟؟ والله لا يتحدث الناس عنى بما لم أفعل ! فكان يحيى الليل صلاة وتضرعاً ودعاء !! والرواية بعينها ثابتة فى تاريخ بغداد.

وكان الإمام رضى الله عنه يديم الطواف بالكعبة تقرباً إلى الله تعالى : حتى ليروى الخطيب البغدادى عن أبى مطيع أنه قال : « كنت بمكة، فما دخلت الطواف فى ساعة من ساعات الليل إلا رأيت أبا حنيفة وسفياناً فى الطواف ». وروى الخطيب عن أبى معاذ عن مسعر بن كدام قال : أتيت أبا حنيفة فى مسجده فرأيته

(١) ، (٢) المصدر السابق ص ٣٦.

يصلى الغداة ثم يجلس الناس فى العلم إلى أن يصلى الظهر، ثم يجلس إلى العصر، فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب، فإذا صلى المغرب جلس إلى العشاء. فقلت فى نفسى: هذا الرجل فى هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة ؟ الا تعاهدته الليلة، قال فتعاهدته، فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر، ودخل منزله ولبس ثيابه وخرج إلى المسجد، وصلى الغداة فجلس للناس إلى الظهر ثم إلى العصر ثم إلى المغرب ثم إلى العشاء. فقلت فى نفسى إن الرجل قد تنشط الليلة الماضية للعبادة لأتعاهدته الليلة، فتعاهدته، فلما هدأ الناس خرج فانتصب للصلاة ففعل كفعله فى الليلة الأولى. فلما أصبح خرج إلى الصلاة وفعل كفعله فى يوميه حتى إذا صلى العشاء فقلت فى نفسى إن الرجل لينشط الليلة والليلة لاتعاهدنه الليلة، ففعل كفعله فى ليلته فلما أصبح جلس كذلك. فقلت فى نفسى: لألزمنه إلى أن أموت أو يموت . قال : فلازمته فى مسجده قال ابن أبى معاذ : فبلغنى أن مسعراً مات فى مسجد أبى حنيفة فى سجود، رحمه الله تعالى » !!.

ويذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به الوقت الذى كان ينامه الإمام أبو حنيفة فى يومه، وليلته فيقول « وكان نومه دائماً ساعة بين الظهر والعصر، وفى الشتاء ساعة أول الليل »[1]!!.

ساعة واحدة كانت لراحة الجسد وبقية الوقت وقف على الطاعة مباشرة. بل إن الساعة التى ينامها كانت نفسها طاعة لأنها تعطى الجسم قوة على الطاعة، ولقلة ذلك الوقت الذى ينامه الإمام لم يلحظه مسعر بن كدام كما يبدو فى روايته السابقة.

وأيضاً كان الإمام شريك يقول : « كنت معه سنة فما رأيته وضع جنبه على الفراش». إنه توفيق الله تعالى لمن أراده لحضرته واستخلصه لنفسه من عباده واجتباه لطاعته ووصاله.

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٤٦/١.

وأما عن خوفه ومراقبته لله تعالى فكان عجباً عجاباً. لقد كان الليل محرابه والخلوة بالحبيب الأعلى قوته وشرابه، يظل طوال الليل قائماً باكياً حتى يشفق عليه ويرحمه جيرانه لما يعانيه من تردد صدى الوعيد فى أعماقه.

يذكر الخطيب فى تاريخه عنه أنه قام رضى الله عنه ليلة بهذه الآية الكريمة: « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» يرددها ويبكى ويتضرع. وروى الخطيب عن يزيد بن الكميت - وكان من أخيار الناس - أنه كان يقول : « كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا على بن الحسن المؤذن ليلة من عشاء الآخرة (إذا زلزلت)، وأبو حنيفة خلفه، فلما قضى الصلاة وخرج الناس، نظرت إلى أبى حنيفة وهو جالس يفكر ويتنفس، فقلت أقوم، لا يشتغل قلبه، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول : « يا من يجزى بمثقال ذرة خير خيرا، ويا من يجزى بمثقال ذرة شر شرا أجر النعمان عبدك من النار وما يقرب منها من السوء وأدخله فى سعة رحمتك» . قال فأذنت فإذا القنديل يزهو وهو قائم !! فلما دخلت قال لى : تريد أن تأخذ القنديل « قال : قد أذنت لصلاة الغداة. قال : اكتم علىّ ما رأيت، وركع ركعتى الفجر، وجلس حتى أقمت الصلاة، وصلى معنا الغداة على وضوء أوّل الليل » !!.

تلك إحدى كرامات الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه.

إنه لمن الواضح كل الوضوح أن توفيق الإمام إلى أداء تلك العبادات وعلى هذا النحو إنما هو فى ذاته من قبيل الكرامات التى أكرمه الله بها ومن ثم لا يعترض على ذكر صلاته الخمس فرائض بوضوء واحد أو قيامه بالقرآن الكريم فى ركعة.

يقول الإمام ابن حجر الهيثمى : (وختمه القرآن فى ركعة لا ينافى خبر أن من قرأه فى أقل من ثلاث لم يتفقه؛ لأن محله فيمن لم تخرق له العادة فى الحفظ والسهولة واتساع الزمن، ومن ثم جاء عن كثير من الصحابة والتابعين أنهم كانوا يختمونه فى ركعة. بل ختمه بعضهم أربع مرات فيما بين المغرب والعشاء وكل ذلك من باب الكرامات فلا يعترض به » اهـ.

وقصارى القول أن « من ذاق عرف ومن جهل انحرف » وكيف يستبعد على رجال وهبوا أنفسهم لله بالكلية أن يخضع لهم نواميس الكون والطبيعة بينما هم غيروا من نواميسهم وطبائعهم إرضاءً لذاته تعالى.

وأما عن زهد الإمام وورعه فقد روى عن الإمام ابن المبارك رضى الله عنه أنه قال : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها، فقالوا : أبو حنيفة[1] !!.

وقال مكى بن إبراهيم : جالست الكوفيين فلم أر فيهم أورع منه !.

وقال عنه الحسن بن صالح : « كان شديد الورع هائباً للحرام تاركاً للكثير من الحلال مخافة الشبهة، ما رأيت فقيهاً أشد منه صيانة لنفسة ولعلمه، وكان جهاده كله إلى قبره». وقد رووا أن الإمام رضى الله عنه أراد مرة شراء جارية فمكث عشر سنين - وفى رواية عشرين سنة - يختار ويشاور من أى سبى سالم عن الشبهة يشترى[2]! إنها شدة الورع اللائقة بمقام الإمام.

وقد روى الإمام الشعرانى- رضى الله عنه- فى طبقاته من أقوال سيدى أبى حنيفة فى الورع: « لو أن عبداً عبد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية ثم أنه لا يدرى ما يدخل بطنه حلال أو حرام ما تقبل منه» وأيضاً كان - عليه الرضوان - يقول فى ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها : « لو لم تبغض الدنيا إلا لأن الله تعالى يعصى فيها لكانت تبغض » ولندرة من فطن إلى تلك المفاهيم السامية وطبقها من العلماء كان الإمام يقول : « بلغنى إنه ليس فى الدنيا أعز من فقيه ورع » !!.

إنها مقاييس الصفوة الذين أضاء الله بهم حوالك القلوب وعمر بهم الأكوان. لقد امتحن الإمام فى ورعه حين أراد له الخليفة المنصور أن يلى القضاء فاختار الإمام أن يصلى بنار المحنة على أن يحكم بغير ما أنزل الله إرضاءً للخليفة أو رغبة فى الدنيا . فإذا بنار المحبة نور يجلى معدن الذهب ويطهره . واستعمل الإمام كل طاقاته فى البعد عن القضاء.

---

(١) ، (٢) انظر : الخيرات الحسان للعلامة ابن حجر الهيثمى ص ٤٢.

يروى ابن خلكان أن الربيع قال : « رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة فى أمر القضاء وهو - أى الإمام - يقول : اتق الله ولا ترع فى أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون فى الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو تلى الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت ، أنت تصلح. فقال له: قد حكمت على نفسك. كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب[1] !! وقاسى الإمام رغم ذلك من عسف الخلفاء والولاة بسبب رفضه للقضاء فقد روى الخطيب بسنده أن ابن هبيرة - والى مروان بن محمد على العراقيين - كلم أبا حنيفة أن يلى قضاء الكوفة فأبى عليه فضربه مائة سوط وعشرة أسواط وهو على الامتناع. فلما رأى ذلك خلى سبيله. ويذكر الخطيب أيضاً أن الإمام كان يخرج كل يوم أو بين الأيام فيُضرب ليدخل فى القضاء فيأبى، ولقد بكى فى بعض الأيام فلما أطلق قال : كان غم والدتى أشد على من الضرب !!.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إذا ذكر له ذلك بكى وترحم عليه خصوصاً بعد أن ضرب هو أيضاً !.

لقد عانى الإمام فى عهد الأمويين وفى عهد العباسيين فيروى أنه بعد المناقشة التى وقعت له مع المنصور. وذكرت آنفاً - أُمر به إلى السجن فظل محبوساً إلى أن توفى فى السجن سنة ١٥٠هـ رضى الله عنه.

إنه جهاد الأئمة أقطاب الأمة. ومن ثم ارتفعت منزلته بعلمه وسلوكه وجهاده وتحققه.

إنه عبد ربانى آتاه ربه من لدنه علماً واستعمله به.

يروى صاحب الطبقات السنية عن أزهر أنه قال : كنت زاهداً فى علم أبى حنيفة فرأيت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - وخلفه رجلان فقيل لى المتقدم هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم واللذان خلفه أبو بكر وعمر رضى الله

---

(١) انظر : الخيرات الحسان ص٦٥.

عنهما. فقلت لهما أسأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن شىء؟ فقالا لى . سل ولا ترفع صوتك. فسألته عن علم أبى حنيفة. فقال هذا علم انتسخ من علم الحضرة[1] !!.

إنه الإمام الذى رفع لواؤه فى عليين وظهر نوره فى الأرض فتبرك به الأئمة.

ويروى صاحب الطبقات السنية عن مولانا الإمام الشافعى أنه كان يقول : إنى لأتبرك بأبى حنيفة رضى الله عنه وأجىء إلى قبره فى كل يوم وكنت إذا عرضت لى حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة. فما تبعد عنى حتى تقضى » !![2].

ألا فليفقه المنكرون على الصوفية زيارة الأولياء والتقرب بهم إلى الله تعالى والتبرك بآثارهم. رضى الله تعالى عنك ياسيدى أبا حنيفة وعنا بك دنيا وآخرة.

آمين

★ ★ ★

(١) انظر : الطبقات السنية فى تراجم الحنفية لتقى الدين الغزى ١٦٨/١ ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) المصدر الأخير ١٦٧/١.

« ٤ »

أمير المؤمنين فى الحديث

سيــدنا سفيــان الثــورى رضى الله عنه

بأحرف من نور سطر التاريخ مجد أولياء الله الذين ارتفعت بهم راية الإسلام وربتهم يد الرسول الأعظم- صلى الله عليه وآله وسلم- بدءاً من الصديق الأكبر- رضى الله عنه وعنا به، وانطلاقاً وتفرعاً من البيت النبوى الشريف حتى سرى النور من الشجرة المباركة ليغذى روح الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها أمة خير من أخرجه الله إلى الوجود لينير الوجود. صلى الله عليه وعلى آله ومن سرى فيه مدده الزكى ، وجعلنا من خواص أحبابه فى الدنيا ويوم الدين.

ممن شَرَّفُوا وجه هذه الأمة وجَسَّدُوا السلوك المحمدى بنورانيته المتألقة وشموخه الفذ، ومثاليته الرفيعة الإمام الورع والعارف الواصل حجة العلماء وزين البررة الأصفياء سيد عصره فى الزهد والتحقق وواحد دهره فى المعرفة والتخلق أمير المؤمنين فى الحديث، وقدوة الأئمة المقتفين أثر الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- سيدى أبو عبدالله سفيان بن سعيد الثورى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معيته الشريفة دنيا وآخرة.

إمام توافرت له جوانب العظمة الإنسانية فى شخصيته التى قلما يظفر التاريخ بنظير لها ، فأينما توجهت إلى جانب من جوانبها فاجأك الانبهار والتطامن أمام عالم دانت له رقاب أئمة العلم، وزاهد على مائدته تربى أساطين الزهد، وعارف من راحته نهل العارفون، ومصلح اجتماعى تتحسر الإنسانية الآن على فقدان نظير له ينقذها من آفاتها وآلامها .

وهكذا يجتمع أئمة فى إمام، بل أمة فى إنسان .ومعاذ الله من تجاوز صريح الحق إلى شطط المغالاة والإطراء . فإمامنا له فى متناول اليد شواهد وشواهد تكل الأوهام عن تصورها وحجج ناطقة تخاطبنا فى جدية الحق وقوته : انظروا يا أمة خاتم المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) : هذا واحد من صوفية الرعيل الأول وقف على ذروة الحقيقة منارة للهدى ودعوة إلى المحمدية، ينطق لسان حاله من وحى الوراثة المحمدية الشريفة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(١).

فلقد كان من أخيار التابعين للهدى المحمدى ولقد طبق التبعية السلوكية بأشرف مفاهيمها وأنبل صورها فتجسدت فيه القدوة وتحققت فيه الإمامة.

ولد سيدى سفيان- رضى الله عنه وعنا به- سنة سبع وتسعين هـ. وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة. وتوفى رضى الله عنه بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة هـ على ما ذكره مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته، وهو ما صححه الحافظ الذهبى فى السير(٢).

أما حديث سائر الأئمة والمؤرخين وأصحاب الطبقات عن سيدى سفيان فهو كأمواج البحر ثراء وفيضاً وتدفقاً، وكلها يقع على كنوز من اللآلئ والجواهر المكنونة. وتبقى بعد ذلك حقيقة سيدى سفيان عند الله من المضنون بمعرفتها؛ لأنه ضن بذاته وحياته على ما سوى ربه فقد نذر الروح لله بالكلية وأدى رسالته فى خدمة دين الله كأوفى ما يكون الأداء.

فلنتعرف على رأى السادة الأئمة فى الإمام سفيان. أما رأى صاحبه وقرينه الإمام الصوفى العارف سيدى سفيان بن عيينة رضى الله عنه فقد سجله الإمام أبو نعيم فى (حلية الأولياء) إذ روى بسنده أنه كان يقول : (أئمة الناس بعد أصحاب

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى : ٧/٢٣٠ ، ٢٧٩ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/٤٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن عباس فى زمانه، والشعبى - وفى رواية والشافعى- فى زمانه، وسفيان الثورى فى زمانه)[1].

ويروى عنه أيضاً أنه كان يقول : (ما رأيت أحداً أفضل من سفيان ولا أرى سفيان مثل نفسه).

أما سيدى بشر بن الحارث رضى الله عنه فيروى الإمام أبو نعيم أنه كان يقول: (سفيان الثورى عندى إمام الناس)[2].

وأما الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه فقد سئل مرة: هل رأيت مثل سفيان الثورى؟ فقال : وهل رأى سفيان الثورى مثل نفسه ؟؟[3]

ثم روى عنه رضى الله عنه أنه قال : (ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان الثورى رحمه الله) [4]وللإمام يحيى القطان رأى ذكره عنه الإمام المناوى رضى الله عنه فى طبقاته إذ روى أنه كان يقول : (سفيان فوق مالك فى كل شيء) كذلك قال الإمام الأوزاعى رضى الله عنه كلمته فى الإمام سفيان إذ روى صاحب الحلية بسنده عنه أنه كان يقول: لو قيل لى اختر رجلاً يقوم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لاخترت لهم الثورى.

وللإمام يوسف بن أسباط شهادة جميلة جليلة للإمام سفيان. فقد روى عنه أنه قال:

(إنى لأرى أهل زمان سفيان سيعاقبون فيقال لهم لم يكن فيكم مثل سفيان)!!.

وثمة المزيد والمزيد من الآراء الصادقة التى تصور سموق شأو الإمام سفيان. وكلها آراء لا تحيد عن جادة الحق ذرة؛ لأنها لأئمة عدول حملوا أمانة هذه الأمة عن جدارة واستحقاق، وكل أولئك الأئمة كانوا يرون أن الإمام الثورى منة من الله

---

(١) ، (٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٥٦/٦ ، ٣٥٧.

(٣)،(٤) المصدر السابق ٣٥/٧ ، ٣٥٨ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٥٥/٧.

تعالى بها على هذه الأمة، فيروى عن المعافى بن عمران أنه سمع أباه يقول : (لقد من الله على أهل الإسلام بسفيان الثورى).

كما كانوا يرونه حجة الله على أهل زمانه، فيروى عن الإمام شريك أنه كان يقول : (إن الله تعالى لا يدع الأرض من حجة تكون لله على عباده، يقول ما منعكم أن تكونوا مثل فلان؟ قال شريك - ونرى أن سفيان الثورى منهم .

ولنقبض عنان الاسترسال مع عبارات التقدير الحقة التى قلدها الإمام سفيان من أئمة عصره لندخل فى مذكرة تفسيرية تشرح لنا فى إجمال موجز حيثيات تلك الأحكام والتقديرات التى أشادت بمنزلة الإمام الثورى. وليكن البدء بالإشارة السريعة إلى الجانب العلمى عند سيدى سفيان باعتباره منطلقاً إلى العمل الموصل إلى الله عز وجل.

لقد أوضح لنا الإمام سفيان رسالة العلم وبين منزلتها وغاياتها وطرقها الصحيحة.

فصرَّحَ بأن منزلة العلم هى أشرف المنازل التى ترتفع بالإنسان إلى الذروة وتضىء له طريق الوصول. ومن ثم فالعلم عنده وسيلة لا غاية فى نفسه ولكنه أشرف الوسائل لأشرف الغايات.

ويروى صاحب الحلية عن سيدى سفيان أنه قال: (إنما يطلب العلم ليتقى الله به، فمِنْ ثَمَّ فُضِّلَ، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء)(١).

وأما عن منزلة العلم فيروى وكيع بن الجراح عن سيدى سفيان أنه قال : (ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم)، ويرسم سيدي سفيان الخطوات الصحيحة للاضطلاع برسالة العلم كما ينبغى أن يكون فيقول عليه الرضوان (كان يقال : أول العلم الصمت، والثانى الاستماع له وحفظه، والثالث العمل به، والرابع نشره وتعليمه) (٢) .

---

(١) ، (٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٦/٣٦٢.

وقد نهض سيدى سفيان فى أهل عصره معلماً وداعياً إلى العلم. يذكر العارف أبو نعيم فى حليته أن سيدى سفيان كان يقول لرجل من العرب : (اطلبوا العلم ويحكم فإنى أخاف أن يخرج منكم فيصير فى غيركم، اطلبوه ويحكم فإنه عز وشرف فى الدنيا والآخرة)(١).

وقد جسد رسالة العالم فى ذلك التنظير الحكيم : (مثل العالم مثل الطبيب، لا يضع الدواء إلا على موضع الداء).

وقد أكد رضى الله عنه فى جزم صريح أن العلم ليس مقصوداً لنفسه ولا ينبغى إهدار كرامته لغرض دنىء ولكنه شجرة تجتنى منها الثمرة والثمرة المثلى للعلم يحددها سيدى سفيان فى قوله : (ليس طلب العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل) ومصداق قولته الحكيمة قول الحق تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وبهمة الأفذاذ دخل سيدى سفيان فى محيط العلم ولابد لطلب العلم- فى منهج سيدى سفيان- من استعداد فطرى وسلوكى يؤهل الطالب للمطلوب ولقد كان ذلك التأهيل فى نظر سيدى سفيان يتمثل فى أدب النفس لتصلح لبذرة العلم حتى تنبت نباتاً حسناً.

ولقد روى الإمام الشعرانى- رضى الله عنه- أن الإمام سفيان كان يقول : (لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة)(٢)اا.

ولقد اختار سيدى سفيان طريقه فى العلم بأن يضع نفسه فى صفوف حملة الحديث النبوى الشريف وبأن يكون وعاء للسنة المحمدية فدرس الحديث بعد أن ألم بمحصلات العلم التى أعطته مفتاح الريادة والتصدر لأخطر أمانة هى حفظ الأصل الثانى من أصول الدين.

---

(١) المصدر السابق ٦/٣٦٨.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١/٤٠.

وانظر نحوه عن زائدة - فى الحلية ٧/٣٦١ - بلفظ (سمعت سفيان الثورى يقول (كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة)اا.

فتلقن على يد أساطين الرواة والمحدثين طرق التحديث وعلم الرجال وقد مكنه من النبوغ فى ذلك موهبة نادرة فى الحفظ ندر أن نجد لها نظيراً .

ففى الحلية يروى عن يحيى بن يمان أنه قال : ﴿ سمعت سفيان الثورى يقول: : (ما استودعت أذنى شيئاً قط إلا حفظته حتى أنى أَمُرُّ بكذا- كلمة قالها- فأسد أذنى مخافة أن أحفظ ما يقول) [1]وأيضاً روى أنه كان يقول : (ما استودعت قلبى شيئاً قط فخاننى) .

وقد بلغ ما روى عن الإمام الثورى كثرة كاثرة وذخيرة غزيرة من الأحاديث فقد ذكر الحافظ أبو نعيم بسنده عن يحيى بن يمان أنه سمع الإمام الثورى يقول : (ما أحدث من كل عشرة بواحدة- ومع ذلك يقول ابن يمان (وقد كتبنا عنه عشرين ألفاً وأخبرنى الأشجعى أنه كتب عنه ثلاثين ألفاً) وكان سيدى سفيان فوق إمامته فى رواية الحديث يضطلع بمهمة أخرى هى تفسير الحديث وشرحه وحل مشكله وبيان مبهمه فى وقت عنى فيه جلة العلماء بالرواية فحسب.

يروى الإمام أبو نعيم عن سليمان بن حيان أنه قال : (كنا نصحب سفيان الثورى وقد سمعنا ممن سمع منه، إنما نريد منه تفسير الحديث) ولقد جعلت كل تلك المميزات والمقومات من سيدى سفيان مثلاً فذا فى العلم عامة وفى الحديث خاصة. فهو مرجع الأئمة فى الفقه والتفسير. وكان مجتهداً ذا مذهب مستقل فى الفقه.

وأما فى الحديث فقد حصل بإجماع أئمة عصره على لقب أمير المؤمنين فى الحديث.

يروى الحافظ أبو نعيم عن شعبة أنه كان يقول : (سفيان الثورى أمير المؤمنين فى الحديث)[2]. ولو حاولنا استيعاب أبعاد الجانب العلمى عند سيدى سفيان لاحتجنا إلى مجلدات لتسجيل مجد هذا الإمام الشامخ .

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٨/٦.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٥٦/٦.

فلننتقل إلى الجانب العملى لنرى انعكاس الصورة العلمية فى شكلها التطبيقى، أو بمعنى آخر لنقف على الثمرة التى أثمرتها شجرة العلم فى شخص سيدى سفيان. ولكى نربط النظر بالتطبيق والعلم بالعمل نسترجع ما ذكرناه آنفاً من ارتباط العلم النافع بالخشية والخوف من الله عز وجل.

فماذا كانت صورة هذا الارتباط عند سيدى سفيان ؟! هنا سندع الروايات والوقائع وحدها تتحدث.

يروى صاحب الحلية عن على بن عثام قال : (مرض سفيان الثورى بالكوفة فبعث بمائه إلى متطبب بالكوفة. فلما نظر إليه قال : ويلك! بول من هذا ؟ فقال ما تسأل، انظر ما ترى فيه.

قال : أرى بول رجل قد أحرق الخوف كبده والحزن جوفه)[(١)] !!.

ويروى الحافظ أبو نعيم عن عبيد الله بن سعيد يقول : سمعت أسامة يقول : (كان من يرى سفيان الثورى يراه كأنه فى سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول : يارب سلم سلم) وكان الخوف من الله يغلب عليه فى صلاته حتى ربما ينقطع عنها ثم يعاودها ثانياً وهكذا. ويروى عن مزاحم بن زفر أنه قال : (صلى بنا سفيان الثورى المغرب فقرأ حتى بلغ « إياك نعبد وإياك نستعين» بكى حتى انقطعت قراءته ثم عاد فقرأ الحمد لله) وقد بلغ من شدة خوفه وإدمانه التفكر أنه كان يبول الدم. إذ يروى عن يوسف بن أسباط أنه قال : (كان سفيان من شدة تفكره يبول الدم)[(٢)] إنها قمة الخوف من الله والخشية لله. لقد أحرق الخوف موضع الدنيا من قلبه وصهر نفسه وقتل هواه فارتقى سلم العبادة بتفان واستماتة وإخلاص وانقطاع إلى الله. فكانت الذرة من عباداته ترجح ثقل الجبال.

يروى سيدى أبو نعيم عن ابن وهب أنه قال : (رأيت الثورى فى المسجد الحرام بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودى بصلاة العشاء)[(٣)] ! وكذلك كان سيدى سفيان يستغرق أحياناً سجوده مقدار طواف سبعة

---

(١) المصدر السابق : ١٤/٧.
(٢) المصدر السابق : ٢٣/٧.
(٣) المصدر السابق : ٥٧/٧.

أشواط بالكعبة، إذ يروى صاحب الحلية عن سيدى على بن فضيل رضى الله عنه قال : (رأيت سفيان الثورى ساجداً حول البيت فطفت سبعة أشواط قبل أن يرفع رأسه)!!.

وكان ذكر الموت دائماً يؤرق الإمام سفيان ويملك عليه مجامع نفسه إلى حد الذهول حتى ليروى صاحب الحلية عن أبى نعيم الأحول أنه قال : (كان سفيان الثورى إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياماً، وإذا سئل عن شىء قال لا أدرى.. لاأدرى)[1]! وكان إذا التقى بصوفية عصره يتذاكر معهم الخوف والرجاء وتنص الروايات على أنه كان يكثر مجالسة الإمام الفضيل بن عياض وسيدى إبراهيم بن أدهم وسيدى سفيان بن عيينة وسيدى شيبان الراعى والسيدة رابعة العدوية وغيرهم رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم، وكان رضى الله عنه إذا خلا بنفسه تضرع إلى الله فى استكانة وتذلل.

ويذكر الإمام الشعرانى أنه كان رضى الله عنه يقول : (إلهى .. البهائم يزجرها الراعى فتزجرعن هواها وأرانى لا يزجرنى كتابك عما أهواه فيا سوأتاه)[2]!! وكان سيدى سفيان مع شدة عبادته الظاهرة يرى أن مدار أمر التصوف على عبادة القلب. لقد كان يرى فى بعض الليالى قائماً إلى الصباح وبعضها ينام ويقوم فقال له يوماً محمد بن يوسف الفريابى : (أرى الناس يقولون سفيان الثورى وأنت تنام بالليل؟ فقال له : اسكت، ملاك هذا الأمر التقوى)!

وفى بعض الليالى كان يستولى التفكر فى الآخرة على سيدى سفيان فيستغرق إلى الصباح، إذ يروى عن سيدى يوسف بن أسباط أنه قال: قال لى سفيان الثورى- وأنا وهو فى المسجد- يا يوسف ناولنى المطهرة أتوضأ فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر. فنظرت إليه فإذا

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٥٨/٧.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٤١/١.

المطهرة على حالها. فقلت يا أبا عبد الله قد طلع الفجر. قال : لم أزل منذ ناولتنى المطهرة أتفكر فى الآخرة إلى هذه الساعة).

كانت العبادة عنده بشتى ضروبها هى القوت والغذاء ولقد عرفت عنه شدة المجاهدة وبذل الجهد فى الطاعة، وقد سئل عن جهده الخارق للعادة فأجاب بمنطق العلم ونور العرفان فقد نقل الإمام النبهانى رضى الله عنه فى جامع الكرامات عن الإمام اليافعى رضى الله عنه هذ الواقعة الفريدة قائلاً :

(حكى أن الثورى كلمه أصحابه لما رأوا عليه من شدة الخوف وكثرة المجاهدة والجهد فقالوا له يا شيخ، لو نقصت عن هذه المجاهدة التى نراك بها نلت مرادك إن شاء الله تعالى. فقال لهم كيف لا أجتهد كل الاجتهاد وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى لهم نور عظيم تضىء له الجنان الثمان من شدة ضيائه وحسن بهائه فيظنون أن ذلك النور من قبل الرحمن سبحانه وتعالى فيخرون ساجدين فينادى مناد : ارفعوا رءوسكم ليس هذا الذى تظنون إنما هو نور حورية تبسمت فى وجه زوجها فظهر من تبسمها هذا النور. فليس يا إخوانى يلام من أجتهد فى طلب الحور الحسان فكيف بمن طلب المولى الرحمن؟؟!!)[1].

وهكذا تتوافر الداعية إلى العبادة ولكنها لذات الله لا لطلب نعيم أو خوف عذاب أليم بل طلباً للرضا واتقاء للسخط .

كذلك عرف عن سيدى سفيان شدة الورع حتى كان حجة وإماماً للورعين فى عصره. وقد حدا به ورعه إلى الفرار من السلاطين والأمراء. وقد كان هارون الرشيد يتمنى أن يجلس معه ويغدق عليه لكن الإما م سفيان كان يرسل إليه يزجره من بعيد ويحذره من ظلم الرعية، وكان الرشيد يبعث فى المدائن والأمصار من ينادى: من جاء بسفيان فله عشرة آلاف[2]. لكن سيدى سفيان كان يضن بنفسه على بساط الخلفاء اتقاء الركون إلى الدنيا ولكنه إذا التقى مصادفة بأحدهم حاسبه فى

---

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٢/ ٩٨ ط الحلبى (الثانية).
(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٧/ ٤.

غير هوادة. فذات مرة قال للمهدى حين التقى به : كم أنفقت فى حجتك؟ فقال ما أدرى. فقال له لكن عمر بن الخطاب يدرى. أنفق ستة عشر ديناراً فاستكثرها!!.

أما يحق بعد ذلك لمعاصر سيدى يحيى بن يمان أن يقول ما قال : (اتعب سفيان القراء بعده، ولا رأينا مثل سفيان، ولا راى سفيان مثل نفسه، أقبلت عليه الدنيا فانصرف بوجهه عنها)[1] ؟!.

بلى والله وقد روى صاحب الحلية بسنده عن مصعب بن المقدام أنه قال : (رايت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى النوم آخذاً بيد سفيان الثورى وهو يجزيه خيراً ويقول : حسن الطريقة)!![2].

هذه شهادة من النبى صلى الله عليه وسلم - ورؤياه حق - بِحُسْنِ طريقته.

لقد تقطعت أفلاذه من خشية الله فعبد وزهد وعرف واتصل وجلس على منصة الخصوصية فى صفوف ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وظل منقطعاً لربه حتى لحق به مع المقربين الأخيار وأمن فى جوار الله وجاءت البشرى لخلفه وأتباعه. فيروى سيدى أبو نعيم عن القاسم بن الحكم أنه قال : (لما مات سفيان الثورى جاء شيخ أبيض الرأس واللحية حتى قام على قبره وهو يدفن فقال: ياسفيان، آمنت مما كنت تخاف . وقدمت على من كنت تعبد والله ما يسرنا أن يلى حسابنا أحد غير الله تعالى. ثم لم ير. فكانوا يرونه الخضر)[3].

كما روى أبو نعيم عن قبيصة أنه كان يقول : (رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت: ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحاً فقال لى — هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا اقبل الدجى — بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته — وزرنى فإنى منك غير بعيد[4]

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦٨/٧.
(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٨٥/٦.
(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦٢/٧.
(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧٤/٧.

ولعله يجمل بنا ألا نترك الحديث عن سيدى سفيان دون أن نذكر له كرامة أخرى، فهو كريم ومكرم عند الله، والكرامة دليل الإكرام . والرواية للحافظ أبى نعيم رضى الله عنه الذى حفظ لنا تراثاً زاخراً عن سيدى سفيان فيروى بسنده عن عبد الرزاق أنه سَمع يقول : (بعث أبو جعفر - أى المنصور - الخشابين حين خرج إلى مكة فقال : إن رأيتم سفيان الثورى فأصلبوه. قال: فجاء النجارون فنصبوا الخشب. ونودى سفيان وإذا رأسه فى حجر فضيل بن عياض ورجلاه فى حجر ابن عيينه. فقالوا له يا أبا عبد الله : اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء. قال فتقدم إلى الأستار- أستار الكعبة- ثم دخله فأخذه، وقال برئت منه إن دخلها أبو جعفر. قال فمات قبل أن يدخل مكة. فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئاً)[1] !!.

وذكر الإمام أبو نعيم أن عبد الرحمن بن مهدى سمع يقول : لما أن غسلت سفيان الثورى وجدت فى جسده مكتوباً : (فسيكفيكهم الله)[2]

رضى الله عنك يا إمام الأمة يا وارث النور المحمدى يا سيدى سفيان ورضى عنا بك ومعك وأمدنا بمددك وألحقنا بك فى زمرتك فى معية سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

اللهم آمين.

★ ★ ★

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/٤١-٤٢.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦/٣٧١.

« ٥ »

سلطان الزاهدين

سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

على مشارف الفتح الإلهى ترنو بصائر أهل الولاية والاصطفاء إلى آفاق النور والضياء، وبقلوب تحرقت شوقاً إلى مولاها واصل السالكون خطاهم على درب المحبة عبر أشواك المجاهدات وهجران المخالفات فاستردت أرواحهم فى الطاعات ذاتيتها النورانية، وتحررت من رق الأشياء بالكلية. هنالك هَبَّتْ عليهم نفحات القبول وأديرت لهم كاسات الوصول وصاروا جنداً للحق ومنارات للخلق وأئمة يهتدى بهم إلى جناب رب العالمين.

من خاصة أولئك الأولياء المقربين والأقطاب العارفين: سلطان الزاهدين سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه . إمام من أئمة السلوك الصوفى الرفيع وأحد أفذاذ الرعيل الأول الذين انطبعت فيهم الصورة المثلى للنهج المحمدى الوضاء وتمثلوا فى سلوكهم أعلى مثل للاقتداء. فكانت حياتهم صفحات من نور أينما نقلبها تنعكس أضواؤها لترسم لنا النماذج المثلى لمدرسة السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين.

وسيدى إبراهيم بن أدهم- رضوان الله عليه- له فى تاريخ التصوف مكانة سامقة لاقت من التبجيل والإعجاب مالم تظفر به إلا قلة من المتفردين فى ذروة الزهد والفتوة والإيثار. ولسمو منزلة سيدى إبراهيم فى مقام الزهد خاصة عرف بسلطان الزاهدين. وفى ترجمته يقول العارف الهجويرى فى (كشف المحجوب) : (كان أوحد زمانه ، وسيد أقرانه فى عصره ، وملك ملوك الرجال ، وكان مريد الخضر)[1]

---

(١) انظر : كشف المحجوب للهجويرى دراسة وترجمة وتعليق د. إسعاد قنديل : ٢١٤/١ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وإلى جانب الزهد الذى تحقق به حتى بلغ فيه مداه فإن ثمة جوانب عديدة ذات أصالة روحية عميقة قد حفلت بها هذه الشخصية العظيمة. وسنحاول أن نتعرف عليها- بعض التعرف- وستبهرنا أضواؤها دون شك؛ لأنها تملك خواص الجاذبية الروحية. وتلك سمة لا تتوافر إلا فى أولئك الذين أسبغت عليهم العناية حلل أنوارها.

ونتساءل عن أول الطريق كيف عرف سيدى إبراهيم الطريق إلى مولاه؟.

ويجيبنا سلطان الزاهدين - كما روى صاحب الحلية : -

كان أبى من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان وكان من المياسر وحبب إلينا الصيد فخرجت راكباً فرسى وكلبى معى فبينما أنا كذلك فثار أرنب أو ثعلب فحركت فرسى فسمعت نداء من ورائى « ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت » فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أرَ أحداً فقلت لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى فأسمع نداء أجهر من ذلك « ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت » فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً فقلت لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى فأسمع نداء من قربوس سرجى- أى مقدمته - ياإبراهيم ما لذا خلقت ولا بذا أمرت. فوقفت فقلت : أنبهت أنبهت جاءنى نذير من رب العالمين والله لا عصيت الله بعد يومى هذا ما عصمنى ربى)[1].

وفى رواية أخرى عن يونس بن سليمان البلخى : ذكر فى هذه القصة نفسها أن سيدى إبراهيم بينما هو على فرسه يركضه إذ سمع صوتاً من فوقه (يا إبراهيم ما هذا العبث ؟؟؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) ؟ اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة) فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ فى عمل الآخرة.

وهكذا ترك سيدى إبراهيم الدنيا وهى أرغد ما تكون له ملكاً وترفاً وأبهة وفر من نفسه إلى الله وخلع عن نفسه طوق الغفلة ليدخل حياة قوامها العبودية

---

(١) انظر حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم الأصبهانى ٣٦٨/٧.

الصادقة لله. لقد ولى وجهه شطر مولاه فلم يصبح للدنيا وزن عنده. لقد تلاشت الكائنات من مرآة وجوده وانمحت الأغيار فاستقبل عهد الصلح مع الله، وترك وطنه خراسان وسافر إلى العراق ليلتمس فيها الرزق الحلال ويتزود من قوت العبادة وأكسير الطاعة.

وكان ميزانه فى طلب الحلال عجيباً وحاسته فى الورع لا تخطئ دبيب النمل حتى أنه قد أعياه طلب الحلال مع الورع الذى ينشده فى العراق فسافر إلى الشام وأقام بمدينة يقال لها (المنصورة) أياماً ثم توجه إلى (طرسوس) واستقر مقاماً بها. وأخذ يعمل - وهو ابن الملوك - فى الحصاد ونظارة البساتين بأجر يومى لا يكاد يفى بحاجات خادم فى ملك أبيه.

ولكن الصفاء الذى غمر وجدان سيدى إبراهيم وهو يمارس أسباب رزقه بيديه تأسياً بسيدنا داود على نبينا وعليه السلام واقتداء بسلف الأمة الصالح كان لا يعادله صفاء لا سيما وقد ترك وراءه ملكاً عريضاً كان سيتوج ملكاً عليه والدنيا تفتح له ذراعيها. ولكنه قد ربأ بنفسه وتعالى بهمته أن يرتمى فى أحضان الدنيا ورأى السعادة- كل السعادة- فى كسرة خبز من حلال صاف يتقوى بها على طاعة ربه وقيامه فى جوف الليل والناس رقود.

ولقد كانت صورة ورعه وزهده رضى الله عنه وهو يعمل بنظارة البساتين وحراستها- عجيبة تأخذ بالألباب:

إذ وقع له ذات يوم وهو يعمل ناظوراً فى بستان بطرسوس أن جاءه خادم صاحب البستان وقال له اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فذهب سيدى إبراهيم وأتاه بأكبر رمان فى البستان فأخذ الخادم وكسرها فوجدها حامضة. فقال له يا ناظور: أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا سنة تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا لا تعرف الحلو من الحامض ؟ فقال سيدى إبراهيم: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً وما أعرف الحلو من الحامض !!.

فأشار الخادم إلى أصحابة- وكان لا يعرف أنه سيدى إبراهيم بن أدهم - فقال: أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا !! فلما كان الغد ذكر الخادم صفته للناس فعرفوه فأقبلوا إليه محتشدين لرؤية زاهد الدنيا سيدى إبراهيم ابن أدهم فلما أدرك أنه عرف فيهم اختفى عنهم وولى هارباً من طرسوس .

وأخذ سيدى إبراهيم ينتقل فى بلاد الشام من بلد إلى بلد سائحاً عابداً زاهداً متخلقاً بالورع الأمثل متصفاً بالمكرمات التى قلما تجتمع لشخص واحد فى عصر بأكمله وكانت عباداته ومجاهداته حديث الدنيا بأسرها وشهرته تسبق ضوء الشمس فى شتى البقاع والأمصار.

لقد ضرب باجتهاده فى العبادات مثلاً فذا لا يجارى فى قهر النفس بكل ما فيها من نوازع وأهواء. كان يتحمل الجوع والسهر وسائر مخالفات العادة بحد مذهل وقد شهد له بذلك أئمة التصوف وأعلامه.

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالى رضى الله عنه: (وكان ابن أدهم والثورى رضى الله عنهما يطويان ثلاثاً ثلاثاً ويأكلان فى الرابع) ثم قال: (وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالمجاهدة)[(١)].

ويصور صاحب الحلية جانباً من جهاده رضى الله عنه فى العبادة فى روايته بسنده عن أبى إسحق الفزارى قال : (كان إبراهيم بن أدهم فى شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار ويصلى بالليل فمكث ثلاثين يوماً لا ينام بالليل ولا بالنهار)[(٢)] ويتحدث الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته عن منهج سيدى إبراهيم فى العبادة قائلاً : (وكان يقلل الطعام والأكل ما استطاع ويقول : لايحتمل الحلال الصرف حتى كان يصلى خمس عشرة صلاة بوضوء واحد) [(٣)]

إنه جهاد الأبرار الذين شفت روحانيتهم بكثرة المجاهدة حتى انخرقت عوائدهم وتذللت لهم طبائعهم الجسدية والنفسية.

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ١٤٣/١.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٧٨/٧.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٥٩/١.

يقول سيدى إبراهيم بن أدهم : (ما قاسيت شيئاً من أمر الدنيا أشد على من نفسى مرة علىّ ومرة لى . وأما هواى فقد - والله - استعنت بالله عليه فأعاننى واستكفيته سوء مغالبته فكفانى فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها) لقد زهد فى الدنيا بالكلية حتى استوى عنده إقبالها وإدبارها. ولقد أعطى الدليل على ذلك مرات عديدة.

فذات يوم وبينما هو جالس مع صحبة له عند جامع المصيصة بالشام إذا برجل قادم من خراسان فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فقال أنا هو. فقال إن إخوتك بعثونى إليك.

فلما سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيده جانباً وقال له ما جاء بك؟ فقال: أنا مملوكك مع فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم بعث بها إليك إخوتك. فقال له إن كنت صادقاً فأنت حر وما معك ملك لك : اذهب لا تخبر بذلك أحداً(١)

إنه العارف سيدى إبراهيم بن أدهم زاهد السلاطين وسلطان الزاهدين وليت شعرى هل يقدر أحد أن ينال هذه المرتبة فى الزهد من أولئك الذين يطعنون فى التصوف والصوفية بينما هم يتكالبون على الدنيا بدينهم ويزحفون وراء بريقها؟؟

أم هل يستطيع أحد ممن يهاجمون أعلام الصوفية أن يكبحوا جماح أنفسهم وأهوائهم كهؤلاء؟؟ كلا والله وما هم وهؤلاء الأعلام إلا كذرّات الهباء أمام الجبال الرواسى. ولئن سوّلت لهم نفوسهم أن ينالوا من أقدار الأولياء فهم كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها　　　فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ولنعد إلى سلطان الزاهدين الذى ضرب أروع الأمثلة فى الإيثار و الفتوة إلى جانب تفرده فى علياء مقام الزهد. وهذا مثل يقف بنا على عظمة هذا الإمام الصوفى: يروى الإمام أبو نعيم فى حليته بسنده عن سهل بن إبراهيم قال : (صحبت إبراهيم بن أدهم فى سفر فأنفق علىّ نفقته كلها. قال : ثم مرضت عليه فاشتهيت شهوة - أى شيئاً يشتهى من الحلال- فذهب فأخذ حماره فباعه واشترى

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/٢٨٣.

شهوتى فجاء بها فقلت يا إبراهيم فأين الحمار؟ قال : يا أخى بعناه . قال قلت يا أخى فعلى أى شىء تركب ؟ قال يا أخى على عنقى: قال فحمله على عنقه ثلاث منازل قال: فقال الأوزاعى ليس فى هؤلاء القراء - أى الصوفية - أفضل من إبراهيم بن أدهم فإنه أسخى القوم).

إنها أخلاق الرجال الذين ورثوا أخلاق النبوة بما فيها من سماحة وسخاء.

ولقد صحب سيدى إبراهيم نخبة ممتازة من أساطين العلم وأئمة الولاية والتصوف الذين شع نورهم فى القرن الثانى الهجرى كالإمام سفيان الثورى، وسيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنهما حيث التقى بهما فى مكة قبل رحلته إلى بلاد الشام كما التقى بالعارف أسلم بن يزيد الجهنى وأخذ عنه جملة من آداب الطريق وأخلاق الولاية والفتوة.

ولما قدم سيدى سفيان الثورى- رضى الله عنه- إلى الرملة أرسل إليه سيدى إبراهيم بن أدهم قائلاً: (تعال فحدثنا) فاستعظم بعض الناس أن يخاطب أمير المؤمنين فى الحديث بمثل هذه العبارة وقالوا لسيدى إبراهيم : تبعث إليه بمثل هذا هكذا؟ فقال لهم : أردت أن أنظر كيف تواضعه !!.

ولقد ذكر الإمام أبو عبد الرحمن السلمى - رضى الله عنه- فى طبقاته : أن سيدى إبراهيم لقى الخضر عليه السلام بالبادية فعلّمه الاسم الأعظم وقال له : (لا تدع به على أحد بينك وبينه عداوة فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة، ولكن ادع الله أن يشجع به جنبك ويقوى به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ويحدد به فى كل ساعة رغبتك)(١)

وهذه واقعة لطيفة تصور لنا مكانة سيدى إبراهيم فى حب الله وحب أحباب الله. يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن فارس النجار قال : بلغنى أن إبراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل إلى الأرض فقال له لم نزلت إلى

---

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريبة ص٣٠-٣١.

الأرض؟ قال لاكتب المحبين. قال مثل من ؟! قال مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى (وعد جماعات) قال أنا منهم ؟ قال: لا، فقال له فإذا كتبتهم فاكتب تحتهم : (محب المحبين). قال فنزل الوحى: اكتبه أولهم !![1] .

أرأيت ماذا تصنع محبة الأولياء ؟؟ إنها ترقى بالعبد إلى مدارج من الكمالات لا تنال بشيء سواها.

اللهم فاكتبنا من محبى محبيك بحق سيدى إبراهيم بن أدهم عندك واجعلنا من الصادقين فى محبتك آمين.

إن سيدى إبراهيم كان لصدق محبته يناجى ربه ويقول: (اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة إذا آنستنى بذكرك ورزقتنى حبك وسهلت على طاعتك أعط الجنة لمن شئت)[2].

لقد كان سيدى إبراهيم ينشد فى حبه نعيم الوصل وسرور الأنس ولذة التفانى فى خدمة المحبوب. ولقد تحقق له ما أراد وظفر بالمراد فقال فى نشوة وصاله (لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ولذة العيش وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف ... طلبوا الراحة والنعيم فأخطأوا الصراط المستقيم)[3] ومرة أخرى يقول : (ما أغفل أهل الدنيا عنا.. ما فى الدنيا أنعم عيشاً منا) إنه نعيم عيش المنعمين فى كفالة الله المحبين له، العارفين به، والمتوكلين عليه.

وتلك الواقعة جرت لسيدى إبراهيم مع سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه تنبئ بعلو كعبه فى التخلق بأخلاق الفتوة والزهادة والإيثار : يقول العارف سيدى حذيفة المرعشى: (دخلنا مكه مع إبراهيم بن أدهم فإذا شقيق البلخى قد حج فى تلك السنة فاجتمعنا فى شق الطواف فقال إبراهيم لشقيق: على أى شىء أصلتم أصلكم؟؟ قال : أصلنا على أنا إذا رزقنا أكلنا وإذا مُنعنا: صبرنا فقال، إبراهيم:

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٨/٢٤-٢٥ وانظر الكواكب الدرية للمناوى ١/١٤٧.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٨/٢٥.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٧/٣٧٠ - ٣٧١.

هكذا تفعل كلاب بلخ! فقال له شقيق : فعلى ماذا أصلتم أصلكم؟ قال أصلنا على أنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا، فقال شقيق فجلس بين يدى إبراهيم فقال : يا أستاذ : أنت أستاذنا !!).

أجل لقد كان العارف بالله سيدى إبراهيم ابن أدهم أستاذ عصره فى الزهد والمعرفة والورع ولا أدل على ذلك مما روى عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه قال عنه حين لقيه : (هو سيدنا)[1].

وهاهو ذا يحدد مفهوم الورع عند أهل الطريق قائلاً: (الورع ترك كل شبهة، وترك مالا يعنيك هو ترك الفضلات).

أى أن الورع يتلخص فى اتقاء الشبهات أولاً ثم بطرح مالا يعنى مما لا تدعو إليه حاجة دينية لأنه قد صار فى عداد الفضلات التى يستغنى عنها وقد سأله يوماً خادمه العارف إبراهيم بن بشار قائلاً: بم يتم الورع ؟ فقال سيدى إبراهيم (بتسوية كل الخلق من قلبك واشتغالك عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جميل. فكر فى ذنبك وتب إلى ربك يثبت الورع فى قلبك واحسم الطمع إلا من ربك) كلمات وضاءة صدرت عن قلب ربانى سقى بماء الحكمة وارتوى بماء المعرفة.

وننتقل إلى مقام الزهد لنستمع إلى سلطان الزاهدين وهو يقول: (الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فالفرض الزهد فى الحرام، والفضل الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات) ولا يخفى أن مراده بالزهد فى الحلال: الزهد فى المباح الذى لا تدعو إليه حاجة شرعية فهو داخل فى عداد الفضلات التى أسلفنا بيانها. وبتحقيق هذه المراتب الثلاث : يصل العبد إلى ذروة الزهد ويرتقى إلى سماء الواصلين.

ولسيدى إبراهيم بن أدهم فهم عالٍ فى كلام الله تعالى وذوق روحى يبهر العقول.

---

(١) انظر تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢٣٤.

يقول رضى الله عنه فى قوله تعالى: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات):[1]

« السابق مضروب بسيف المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الكرامة. والمقتصد مضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الحسرة مضطجع على باب العفو، والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة مقتول بسيف الأمل مضطجع على باب العقوبة» اهـ[2].

هذه إشارات يفهمها أهل الله فى كلام الله. ولقد كان سيدى إبراهيم حين يتحدث يغترف من بحار العلوم اللدنية وكان لا يسأل فى شىء إلا أجاب وأبهر. لقد مر يوماً فى أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه فقالوا: (يا أبا إسحق: إن الله تعالى يقول: (ادعونى استجب لكم) ونحن ندعوه منذ حين وهو لا يستجيب لنا ؟؟ فقال: (يا أهل البصرة : ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء : (١) عرفتم كتاب الله ولم تؤدوا حقه. (٢) وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به . (٣) وادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركتم سنته . (٤) وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه . (٥) وقلتم أن الموت حق ولم تستعدوا له . (٦) وقلتم نخاف النار وارتضيتم أنفسكم لها . (٧) وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها. (٨) واشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم . (٩) وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها. (١٠) ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم فكيف يستجاب لكم ؟[3])

أجل يا سلطان الزاهدين كيف يستجاب لمن مات قلبه والله إنما يتقبل من المتقين الذين أحيا قلوبهم بنور معرفته فساروا فى طريق النور.

وكما بين القطب العارف سيدى إبراهيم العقبات التى تقف فى طريق إحياء القلوب وإجابة الدعاء. فقد رسم للسالكين طريق الصلاح والفلاح يقول صاحب

---

(١) سورة فاطر : ٣٢.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٨/٣٦ - ٣٧.

(٣) انظر . حلية الأولياء لأبى نعيم ٨/١٥ - ١٦.

· الرسالة القشيرية: (قال إبراهيم بن أدهم لرجل فى الطواف: « اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات : أولاها : تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة- أى تنتقل من حياة الترف والدعة إلى حياة الرياضة والمجاهدة- والثانية: تغلق باب العز وتفتح باب الذل - ومرارة ذل النفس فى طريق الجهاد الأكبر- والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد . والرابعة: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر. والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر - أى الافتقار إلى الله- والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت). [1]اهـ.

حقيقة إنها عقبات لا يقوى عليها سوى أهلها ومن أهلها سوى الصوفية ؟؟ صفوة الله من خلقه وخواصه من عباده ؟.

ثم ننتقل فى عجالة عاجلة إلى طرف يسير من كرامات الإمام الصوفى سيدى إبراهيم بن أدهم وما أكثر كراماته !!.

يروى صاحب حلية الأولياء بسنده عن مكى بن إبراهيم يقول كان إبراهيم ابن أدهم بمكة. فسئل : ما يبلغ من كرامة المؤمن على الله عز وجل ؟ قال : يبلغ من كراماته على الله تعالى : لو قال لهذا الجبل تحرك لتحرك. فتحرك الجبل فقال : ما إياك عنيت[2]!!

وذكر الإمام المناوى فى طبقاته : أن سيدى إبراهيم بن أدهم أراد ركوب سفينة فأبى الملاح إلا أن يأخذ ديناراً. فصلى ركعتين وقال : اللهم إنهم سألونى ما ليس عندى وهو عندك كثير. فصار الرمل دنانير. فأخذ واحداً ودفعه لهم ولم يأخذ غيره [3]!!

إنه عبد ربانى أطاع الله فأطاع الله كل شىء له:قال العلامة المناوى فى نهاية

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم القشيرى بتحقيق د. عبد الحليم محمود : ١/٥٣.
(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٨/٤ والكواكب الدرية للإمام المناوى ١/١٤٤.
(٣) انظر : الكواكب الدرية للعامة المناوى : ١/١٤٨.

ترجمته بطبقاته (مات بالجزيرة سنة اثنتين ومائة وحمل فدفن بصور، وقبره بها مشهور)أهـ.

(وبعد) فهذا هو ولى الأولياء وسلطان الزاهدين الأصفياء سيدى إبراهيم بن أدهم الصوفى الذى فر من ملك الدنيا إلى ملك الآخرة، وفر من الخلق إلى الخالق ومن نفسه إلى مولاه فحباه الله بعطاء تتقاصر الأوهام عن تصوره، وجعله من خواص أوليائه المتقين. رضى الله عنه وعنا به، وجعلنا من ورثة مدده ومن خاصة أحبائه فى الدارين.

آمين

* * *

« ٦ »

سيدى داود الطائى رضى الله عنه

فى منازل التحقيق والعرفان أسلم الصوفية وجوههم لله وأخبتوا إلى ربهم فوصلوا إلى مقام الإحسان وتحققوا بقول الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم-: (أن تعبد الله كأنك تراه). والعبادة على المشاهدة ذروة القرب والنعيم الذى تتضاءل دونه متع الجنان بأسرها، من أجل ذلك فاز الأولياء- بعد الأنبياء - بمراتب الخصوصية وبالحظ الأوفر من العطاء الإلهى- رضى الله عنهم وألحقنا بهم فى الأولى والآخرة.

هناك فى تلك الذرى الشامخة من تلك المنازل العالية تربع إمام من صدور الأئمة المحققين والأقطاب الواصلين هو سيدى أبو سليمان داود بن نصير الطائى الكوفى. رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معيته المشرفة دنيا وأخرى. آمين.

هو أحد الكواكب السيارة فى أفق الشهود والتجلى الإلهى. وأحد من عاشوا لربهم وآثروا مولاهم على كل ما سواه، فأخذهم منهم إلى حضرته، وشملهم برداء عزته وخلع عليهم خلع محبته ثم اختارهم أمناءه فى خلقه وحفظة على حقه.

على شعاع من نور هذا الإمام المستمد من نور الحقيقة المحمدية نتعايش من خلال التقائنا به فى هذه السطور الواصلة بيننا وبينه فى وقت نحن أحوج ما تكون إلى تمثل مجد السلف الصالح لنسترد للإسلام سالف مجده وللأمة مكانتها فى الصدارة.

ونتساءل : أين ما حفظه لنا التاريخ عن أعلام السلف من أمثال الإمام الطائى فى أسفاره ؟

والجواب : لا شىء إلا أثارة من علم عن جوانب متفرقة من منهجه الروحى ونزراً يسيراً من كلماته مما لا يفى بمكانة هذا العارف الصوفى. ثم لا شىء عن سيرته وحياته الخاصة.

لذلك سنحاول التقاط الدر من هنا وهناك لننظم فى عقد فريد يفى - فى حدود المقدرة - ببعض حقه علينا عوضاً عن ظلم التاريخ لحقه فى التعريف به .

وقد اختلفت الروايات - اختلافاً يسيراً - فى سنة وفاته، على حين لم تتعرض لسنة مولده. فالإمام أبو نعيم يذكر فى الحلية أنه توفى سنة ست وقيل خمس وستين ومائة هـ (١).

بينما يذكر الإمام المناوى فى (الكواكب الدرية) أنه مات سنة ثنتين وستين ومائة فى السنة التى مات فيها سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنهما. وقد عاش إمامنا الطائى حياة حافلة بحق، فقد وسعت أمجاداً عريضة خلدت ذكره على مر القرون . ويتمثل المحور الأساسى لتلك الأمجاد فى الاتصال بالله عز وجل اتصالاً بهر أئمة عصره فى القرن الثانى ومن وليهم.

وقد بدأ سيدى داود رحلته إلى الوصول بالتفقه والإحاطة بعلوم الدين وثقافة الإسلام من تفسير وحديث - رواية ودراية - وعلم كلام ولغة وتاريخ ... إلخ.

ويذكر لنا التاريخ أنه كان من أكابر أصحاب الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه، وقد أخذ عنه الفقه وأحكمه حتى أنه لا تكاد تطرح مسألة فى مجلسه إلا ويتصدى لها بالإجابة، وظل يتزود من معين العلم الفياض حتى صار بحراً خضماً.

ثم حين أتقن الوسيلة شرع فى الغاية. وهذه رواية تحدثنا عن نقطة التحول وعن سبب تصوف الإمام الطائى وزهده يرويها صاحب الحلية بسنده عن سيدى أحمد بن أبى الحوارى تلميذ سيدى أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما إذ قال : (حدثنى بعض أصحابنا قال : - إنما كان سبب داود الطائى - أى سبب زهده

---

(١) انظر : حلية الأولياء للحافظ ابى نعيم ٧/٣٦١.

وتصوفه - أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان، أما الأداة فقد أحكمناها، فقال داود : فأى شىء بقى؟ قال : بقى العمل به . قال فنازعتنى نفسى إلى العزلة والوحدة فقلت لها: حتى تجلسى معهم فلا تجيبى فى مسألة قال : فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل. قال فكانت المسألة تجىء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء فلا أجيب فيها . قال فاعتزلتهم بعد»[1].

من تلك الواقعة ينكشف لنا أن نقطة التحول كانت لفتة كريمة من الإمام أبى حنيفة لسيدى داود.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه أحد كبار الصوفية وأعلامهم. وقد سلك الطريق الصوفى على يد مولانا الإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه وعنا به، كما لا يفوتنا أن نقرر أن بقية أئمة الشريعة الأربعة : - مولانا الإمام الشافعى، والإمام مالك، والإمام أحمد رضوان الله عليهم- هم صوفية على المستوى الرفيع للتصوف. وسنتناول الحديث عنهم- من الجانب الصوفى - فى صفحات مقبلة بمشيئة الله تعالى.

ولم يعتزل سيدى داود دروس العلم ومجالس التفقه والدرس إلا بعد أن أصبح إماماً عظيم الشأن فى مختلف ميادين المعرفة. وقد شهد له بذلك أساطين العلماء والفقهاء . فقد قال عنه الحافظ الذهبى رحمه الله : - (كان إماماً فقيهاً ذا فنون عديدة، ثم تعبد وآثر الخلوة والوحدة وأقبل على شأنه وساد أهل زمانه)[2].

وقال عنه الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه : (كان داود ممن فقه ثم علم ثم عمل).

وقد كان سيدى داود من رواة الحديث النبوى الشريف الثقات، وأحد من زخرت بأسانيدهم أمهات كتب السنة والمراجع الحديثية الشريفة. وقد روى الإمام أبو نعيم فى الحلية للإمام داود نيفاً وعشرين حديثاً من مروياته، وتحدث عن إسناده

(١) المصدر السابق ٣٤١/٧-١٤٣.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٩٢/١.

قائلاً : (أسند داود بن نصير الطائى عن جماعة من التابعين منهم عبد الله بن عمير، وإسماعيل بن أبى خالد، والأعمش، وحميد الطويل، وأكثر روايته عن الأعمش أروى الناس عن داود بن صعب بن المقدام، وروى عنه إسماعيل بن علية وزافر بن سليمان)[1].

ومما ذكره الحافظ أبو نعيم من مسانيد الإمام الطائى ما رواه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : (إن لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى)[2].

وهكذا حقق العارف الطائى لنفسه مجداً علمياً شامخاً رأى بعده أن يشرع فى الغاية بعد تحقيق الوسيلة، فكان التحول الذى حدث فى الواقعة المذكورة آنفاً له مع الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما.

وتضيف المصادر روايات أخرى تعلل لمنطلقه الصوفى وكلها متلاقية فى الجوهر والمضمون ولا يمنع مانع من تعددها إذ إنه حينما تتضافر عدة مؤثرات متفقة فيما بينها على مؤثر فيه واحد يكون الأثر أقوى وأثرى. من ذلك ما ذكره صاحب (الكواكب الدرية) قائلاً:– (وقيل إنما سبب توبته: أن امرأة جاءت إلى أبى حنيفة رحمه الله تسأله عن مسألة فأجابها فأعجبت بجوابه. ثم قالت : هذا العلم فأين العمل ؟ فأثر كلامها فى قلب داود رحمه الله فاعتزل وتعبد فصار عظيم الشأن علماً وعملاً وزهداً وورعاً)[3]، وثمة روايتان أخريان ذكرهما الإمام القشيرى رضى الله عنه فى رسالته قائلاً : (سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول: كان سبب زهد داود الطائى أنه كان يمر ببغداد فمر يوماً فنحاه المطرقون بين يدى حميد الطوسى فالتفت داود فرأى حميداً فقال داود : أف لدنيا سبقك بها حميد،

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٧/٣٦١.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٧/٣٦٣-٣٦٤.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/١٩٢.

ولزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة !! وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول : إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول.

بأى خديك تبدى البلى

وأى عينيك إذا سالا[1]

وانطلق سيدى داود ليحقق رسالة العلم بالعمل به وليتساءل مع معاصريه قائلاً: (إذا كنا وهنّا فى جمع الآلاتُ فمتى يكون البناء؟) وقد أكد هذا المضمون بقوله : (إنما شرع العلم ليعمل به الطالب فإذا قطع عمره فى تحصيله فمتى العمل؟).

أجل متى العمل ؟ سؤال يفجر الطاقة الروحية فى كل قلب سبقت له الرحمة والعناية. فانطلق سيدى داود بطاقته الإيمانية الكبرى وقد نزع من قلبه كل هم سوى الله.. سوى التحبب للحبيب الأعلى بغية الوصول إليه. وأبصر العارف الطائى أنه لابد له من يد بصيرة تقود خطاه على الدرب الصحيح. لابد له من شيخ وصل إلى الله وعرف معالم الطريق الحق وباشر جهاد النفس وعلم خوافى علل القلب وأبصر سر الرابطة الروحية فى تثبيت قدم السائر على الطريق. وسرعان ما جمعته العناية بشيخه الذى وصل على يديه. وهو الإمام العارف سيدى حبيب العجمى رضى الله عنه. كان من أكابر أقطاب الصوفية وقد أخذ الطريق مباشرة عن سيد التابعين مولانا الإمام الحسن البصرى - رضى الله عنه - الذى أخذ بدوره عن باب مدينة العلم صلى الله عليه وسلم سيدنا ومولانا الإمام على كرم الله وجهه. وإذن فبين سيدى داود الطائى رضى الله عنه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة شيوخ فحسب. ومن ثم يعتبر الإمام الطائى وشيخه سيدى حبيب العجمى رضى الله عنهما من رؤساء الطريق الصوفى، وعنهما تفرعت الطريقة النقشبندية العلية وسائر الطرق. وألقى الإمام داود بنفسه فى الخضم متجرداً عما سوى الله. فعزفت نفسه

---

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ٧٤/١.

عن الدنيا وأهلها واعتكف لربه ليعبده على صفاء ونقاء. وكانت فلسفة العزلة عنده تتمثل فى تمحيض القلب لربه والوفاء بعهده والتلذذ بعبادته.

يروى صاحب الحلية بسنده عن عثمان بن زفر أنه قال : حدثنى سعيد قال : كان داود شديد الانقباض، يعالج نفسه بالصمت . وكان قبل ذلك كثير الكلام وكانت معالجته نفسه فى ترك الكلام، فأخرجته تلك المعالجة إلى التفكر. فبالتفكر ملك نفسه، ولقد جئته يوماً فى وقت الصلاة فانتظرته حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب فسلك بى غير طريقه، فقلت : أين تريد؟ فسلك بى سككاً خالية حتى خرج على المسجد فقلت : الطريق ثمة أقرب عليك، فقال : يا سعيد، فر من الناس فرارك من السبع إنه ما خالط الناس أحد إلا نسى العهد) [1] ومراده رضى الله عنه بمخالطة الناس المخالطة القلبية لا مجرد الخلطة الظاهرية لئلا يستشكل بسلوك الأنبياء المعاشرين أممهم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وإنما آثر سيدى داود العزلة وعدم الخلطة ظاهراً وباطناً لاستجماع كل همه مع ربه، أما الأنبياء والخلفاء الراشدون فلتوافر الكمال الأقصى فى الحضور مع الله عندهم: لا تنال منهم الخلطة بحال ويطلق على حالتهم تلك (الخلوة فى الجلوة)، أى أنهم وهم مع الناس فى جلوتهم هم فى خلوة قلبية مع ربهم.

وقد بدأ سيدى داود بالخلوة الظاهرة ثم ترقى فيما بعد المرحلة الأولية للسلوك إلى خلوة القلب. وكلتا الخلوتين فى ذروة التصوف ولهما فى النهج المحمدى أصل راسخ . فقد اختلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بربه أولاً خلوة ظاهرية وباطنية فى غار حراء ثم بعد البعثة الشريفة خالط أمته ولم يزل فى تمام حضوره مع ربه.

وكان سيدى داود فى فترة سلوكه تلك فى عبادة متواصلة وجانبها الأكبر لم يكن يعلم به أحد من الناس حرصاً منه على الإخلاص لله تعالى وتحاشى الرياء،

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٤٢/٧.

فقد ذكر صاحب (الحدائق الوردية) أن سيدى داود صام أربعين سنة لا يعلم به أهله : فقد كان يحمل غذاءه معه ويتصدق به فى الطريق ويرجع إلى أهله ويفطر عندهم عشاء [1]!!.

وكان رضى الله عنه يمضى ليله ما بين صلاة وتلاوة قرآن وتفكر، وكان استغراقه فى عبادته ينسيه الوجود وما حواه، يقول معاصره أبو خالد الطائى : (ذهبت أنا وأبى إلى داود الطائى نسلم عليه - أو فى شىء - فرأيته يصلى فوقعت شرفة من المسجد، فوقعت بالقرب منه، فما رأيته تأهب لها بل أقبل على صلاته)! كان كل حرصه على قضاء أنفاسه فى الطاعة ونبذ كل ما يعطل عن العبادة أياً كان.

يروى الإمام القشيرى بسنده عن إسماعيل بن زياد الطائى قال : قالت داية - أى جارية - داود الطائى: ما تشتهى الخبزا؟؟ - وكان طعامه الفتيت المبلول - فقال: (بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية)!!

لقد آثر مبلول الفتيت على الخبز المشتهى لئلا يمضى زمن يفوت عليه قراءة خمسين آية من القرآن. فكان مع الله على نفسه وذلك هو طريق الصديقين !

وهذه صورة وصفية لحاله بالليل يرويها الإمام أبو نعيم بسنده عن إسحق السلولى قال : (حدثتنى أم سعيد بنت علقمة- وكان سعيد من نساك الخلع وكانت أمه طائية - قالت : - كان بيننا وبين داود الطائى جدار قصير. فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته فى جوف الليل يقول :- اللهم همك عطل على الهموم، وحال بينى وبين السهاد، وشوقى إلى النظر إليك منع منى اللذات والشهوات: فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب- قالت - ولربما ترنم فى السحر بشىء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا فى ترنمه تلك الساعة. قالت : وكان يكون فى الدار وحده. وكان لا يصبح - نعنى لا يسرج [2].

---

(١) انظر : الحدائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية للعلامة الشيخ عبد المجيد الخانى : ص ٨٤ نشر الدروبى بدمشق.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٦/٧ - ٢٥٧ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٤٢٤/٧.

وكان سيدى داود يربأ بهمته أن تمتد إلى شىء من حظوظ النفس حتى المباح منها طالما كان مجرداً من العبادة، يقول جبر بن مجاهد : مرض داود الطائى فقيل له : لو خرجت إلى روح - أى مكان راحة وهواء - يفرح قلبك ؟ قال : إنى استحى من ربى أن أنقل قدمى إلى ما فيه راحة لبدنى[1] !!.

وأما زهده فى الدنيا وتقشفه : فقد كان مضرب الأمثال، يروى صاحب الحلية عن عثمان بن زهر قال : أخبرنى ابن عم لداود قال : (ورث داود الطائى عن أبيه عشرين ديناراً فأكلها فى عشرين سنة، كل سنة ديناراً منه يأكل ومنه يتصدق. وورث بيتاً وكان يكون فيه لا يعمره، كلما خربت ناحية تركها وتحول إلى ناحية أخرى، فخرب البيت كله إلا زاوية منه يكون فيها) وتحدث سيدى عبد الوهاب الشعرانى - رضى الله عنه - وعنا به عن سيدى داود فى طبقاته فقال :

(كان رضى الله عنه كبير الشأن فى باب الزهد والورع حتى أنهم دخلوا عليه فى مرض موته فلم يجدوا فى بيته شيئاً غير دن صغير فيه خبز يابس، ومطهرة. ولبنة كبيرة من التراب هى مخدته وكان رضى الله عنه يقول : إياكم أن يتخذ أحدكم فى داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة[2] .

وروى عن سيدى أحمد بن أبى الحوارى أنه سمع شيخه سيدى أبا سليمان الدارانى رضى الله عنه يقول : (أقام داود الطائى أربعاً وستين سنة أعزب فقيل له: كيف صبرت على النساء؟ قال : قاسيت شهوتهن عند إدراكى سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبى ،- قال أبو سليمان- فنرى أنه من صبر عنهن عند إدراكه سنة لم يعرفهن حلالاً ولا حراماً، أنه يكفى مؤنتهن)[3]. وكان سيدى داود مع شدة زهده وتقشفه جواداً كريماً لا يقاس بجوده وكرمه، وتلك هى سمات الصوفى الحقيقى، يروى سيدى أبو نعيم أن أبا سعيد السكرى قال : (احتجم داود الطائى فدفع ديناراً إلى الحجام فقيل له : هذا إسراف. فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له)[4]!! كما يروى

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٥/٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٦٥/١ط/ الشرقية.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٤٩/٧.

(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٤/٧.

الإمام أبو نعيم بسنده عن قبيصة أنه قال : (حدثنى صاحب لنا أن امرأة من أهل داود الطائى صنعت ثريدة بسمن ثم بعثت بها إلى داود حين إفطاره مع جارية لها - وكان بينها وبينهم رضاع - قالت الجارية - فأتيته بالقصعة فوضعتها بين يديه فى الحجرة. قال : فسعى ليأكل منها فجاء سائل فوقف على الباب فقام فدفعها إليه وجلس معه على الباب حتى أكلها ثم دخل فغسل القصعة، ثم عمد إلى تمر كان بين يديه، قالت الجارية: ظننت أنه كان أعده لعشائه فوضعه فى القصعة ودفعها إلى وقال : أقرئيها السلام، قالت الجارية: ودفع إلى السائل ما جئناه به ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه، قالت وأظنه ما بات إلا طاوياً!! قال قبيصة: كنت أراه قد نحل جداً)[1]

تلك هى مثاليات التصوف وأخلاق الأولياء التى ورثوها عن سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ولا يقدر عليها إلا هم وحدهم. أما من ينظر إليهم بعين الانتقاد وينكر عليهم من ذوى القلوب المدنسة بأوحال الدنيا الأرقاء لشهواتهم وظلمة طبعهم. فحسبهم جهالتهم وللأولياء البصيرة وكفاهم ظلمتهم وللأولياء النور والرضوان !.

وأما عن منزلة سيدى داود فى مقام الخوف من الله تعالى فهى الذروة الشامخة. لقد كان مع انقطاعه الكامل إلى الله فى العبادة وإخباته وتبتله يقول : (سبقنى العابدون وقطع بى والهفاه !!)

ولقد روى عنه سيدى إبراهيم بن أدهم - رضى الله عنهما - أنه كان يقول : (إن للخوف تحركات تعرف فى الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون. وأين أولئك ؟؟ أولئك هم الفائزون)[2] ولقد كان رضى الله عنه يفرق قلبه عند تذكر المعصية ؟ يقول مؤلف (الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية): - (ومر داود يوماً بموضع فلما وقع نظره عليه خر مغشياً عليه

(١) انظر حلية الأوياء لأبى نعيم ٣٤٨/٧.

(٢) المصدر السابق ٣٤٦/٧.

فحمل إلى منزله، فلما أفاق سئل عن ذلك فقال : تذكرت أنى اغتبت رجلاً فى هذا الموضع فذكرت مطالبته إياى بين يدى الله عز وجل فلم أملك نفسى لأجل ذلك).

ليت شعرى أين تلك الأخلاق الآن، وأين اتقاء الله إلى هذا الحد الذى لا يحده تصور؟؟ إنه الخوف، والإجلال والتعظيم والخشية. لقد ظل العارف الطائى على خوف دائم من ربه حتى لحق به، بل لقد مات من شدة وطأة هذا الخوف على قلبه، يروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن حفص الجعفى أنه قال :

(اشتكى داود الطائى، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذكر النار فكررها مراراً فى ليلته فأصبح مريضاً فوجدوه قد مات)[1] وهنا ملحظ نود أن نشير إليه : ذلك أن سيدى داود بعد أن ترقى إلى ذروة تمكينه واكتمل صوفياً كان مناط خوفه إنما هو الحجب عن الله عز وجل كما أن مناط رجائه هو الوصول بلا انقطاع، وهنا حين مر بآية فيها ذكر النار استشعر حال أهلها من الحجاب عن الله عز وجل فأكل الخوف قلبه فأخذه مولاه إليه إلى الأبد فى وصال دائم فالخوف ثمة كان من رب النار لا من نفس النار.

ثم ثمة ملحظ آخر هو أنه مع هذه المنزلة فى الخوف كانت له منزلة لا تقل عنها فى الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، فقد كان رضى الله عنه يقول : (ما نعول إلا على حسن الظن، فأما التفريط فهو المستولى على الأبدان) لقد ظل يتهم نفسه بالتفريط فى جنب مولاه رغم بذله ما أتعب من بعده. ومع ذلك الاتهام كان الرجاء الواسع حتى خرج من سجن الدنيا. يقول صاحب الرسالة القشيرية : (ولما توفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يعدو فقال له : مالك؟ فقال : الساعة تخلصت من السجن، فاستيقظ الرجل من منامه فارتفع الصياح بقول الناس: مات داود الطائى)[2]!

لقد أمضى حياته محباً لله حتى لحق بحبيبه وعن منطقه فى المحبة : يروى

---

(١) المصدر نفسه ٧/٣٤٠.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف ٧٥/١.

صاحب الحدائق الوردية عنه أنه قال : (رأيت ولياً من أولياء الله تعالى فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله من قلبك؟ فقال: لو جعل حساب الخلائق كلهم معى لسرنى ذلك ورغبت فيه فقلت ولم ذاك؟ قال يا داود. وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدى الله عز وجل وهو يشاهده ويخاطبه؟؟ والله العظيم إن ذلك عندى أشرف الدرجات)[١]. ذلك هو منطق المحبة الذى كان سيدى داود يتمثله حتى أسر الحب قلبه وملك الشوق روحه.

كان مقام سيدى داود الطائى شامخاً فى ذروة الأولياء العارفين والأقطاب الواصلين. وشاهد ذلك - فوق ما قدمنا- هو نظرة أئمة عصره إليه وأقوالهم فيه وموقفهم منه. لقد كان سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه - وهو من هو - يعظم شأن سيدى داود الطائى ويجلس إليه مستنصحاً، وكان إذا ذكر سيدى داود أمامه يقول : (أبصر الطائى أمره)[٢].

ولقد التقى سيدى داود بالإمام سفيان فقال له : (إذا كنت تشرب الماء المبرد وتأكل اللذيذ المطيب وتمشى فى الظل الظليل فمتى تحب الموت والقدوم على الله؟ فبكى سيدى سفيان)[٣] !.

وأما الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه فكان يقول : (وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائى ؟)[٤] ويروى عن سيدى محمد بن بشر أنه قال : (قدم علينا داود الطائى من السواد فكنا نضحك منه، فما مات حتى سادنا) ! وأكثر من ذلك أن كبار أقطاب التصوف وسادته كانوا يأتون إلى سيدى داود بعد أن انقطع لربه فيلقونه تارة أو يقفون على بابه تارة أخرى وهو يطلب منهم ألا يلقاهم لانشغاله الكلى بالله ! يروى صاحب الحلية عن عبد الله بن خبيق أنه قال : أتى فضيل بن عياض داود الطائى يعوده فقال له : (أقلل من زيارتى فإنى قد قليت الناس) كما

---

(١) انظر الحدائق الوردية لسيدى عبد المجيد الخانى النقشبندى ص ٨٦.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى : ٤٢٣/٧.
(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٤٦/٧.
(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٣٦/٧.

روى فى الحلية عن أبى أسامه أنه قال : (جئت أنا وابن عيينة داود الطائى فقال : جئتمانى مرة فلا تعودا إلى)[1] !! وكان الإمام ابن السماك واعظ الدنيا آنذاك يأتيه ويستوصيه.فيروى أنه قال : أوصانى أخى داود بوصية : (أنظر أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك، استح فى قربه منك وقدرته عليك)[2]. وعرفت الدنيا كلها نصائح سيدى داود وحكمه الربانية وكلماته التى دوت فى سمع التاريخ لتنير دياجى القلوب وحوالك النفوس.

كان رضى الله عنه يقول : (كفى باليقين زهداً وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً) والعلم هنا هو العلم بالله عز وجل الذى هو ثمرة التقوى.

وأتاه يوماً رجل من أهله فقال له، يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصنى .. قال : فدمعت عيناه ثم قال لى : (يا أخى، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى بهم ذلك إلى آخر سفرهم. فإن استطعت أن تقدم فى كل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك وأقض ما أنت قاض من أمرك فكأنك بالأمر قد بغتك، إنى أقول هذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً منى لذلك ثم قام)[3]، ومن روائع حكمه قوله عليه الرضوان: (ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصى إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس)[4]. وكان رضى الله عنه يقول : (لا تمهر الدنيا دينك فمن أمهرها دينه زفت إليه الندم).

وعلى يد هذا الإمام الذى سطعت فى قلبه إشراقات الكتاب والسنة واستغرقته الأنوار المحمدية تربى صفوة صوفية عصره. وحسبنا أن نذكر أنه تربى على يديه الإمام العارف سيدى معروف الكرخى وهو شيخ الإمام السرى السقطى

---

(١) انظر حلية الأولياء ٣٤٢/٧.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٣٥٨/٧.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان ١٩٣/١.

(٤) المصدر السابق ١٩٤/١ وحلية الأولياء ٣٥٦/٧.

الذى هو شيخ سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنهم وعنا به أجمعين.

وعن سيدى داود الطائى وتلامذته تفرعت طرق التصوف بسلاسلها المختلفة المنتهية إلى سيد الطائفة. وقد تسلسلت من سيدى داود الطائى الطريقة النقشبندية العلية التى انتهت فى عصرنا هذا إلى الإمام الربانى والقطب الربانى شيخى وجدّى وقدوتى إلى الله تعالى سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه وعنا به، الكائن ضريحه بمنيا القمح شرقية، فهو أحد من رفعوا لواء الطريق إلى الله وقادوا القلوب على درب النور، وعنه تلقى والدى سيدى محمد أبو اليزيد المهدى رضى الله عنه هذه النسبة النقشبندية المباركة. أسأل الله تعالى أن يلحقنى بركبهم الأسعد فى الدنيا والآخرة.

ولعله يجدر بنا أن نذكر طرفاً - ولو يسيرا من كرامات شيخنا الإمام الطائى:

يروى صاب الحلية بسنده عن عبد العزيز بن محمد . قال : (رأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول : من يحضر من يحضر؟؟ فأتيته فقال لى ما تريد ؟ قلت سمعتك تقول من يحضر من يحضر. فأتيت أسألك عن معنى كلامك فقال لى : أما ترى القائم الذى يخطب الناس ويخبرهم عن أعلى مراتب الأولياء . فأدرك فلعلك تلحق وتسمع كلامه قبل انصرافه. قال : فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول :

ما نال عبد من الرحمن منزلة

أعلى من الشوق إن الشوق محمود

قال ثم سلم ونزل فقلت لرجل إلى جنبى من هذا؟ قال أما تعرفه؟ قلت لا . قال هذا داود الطائى. فعجبت فى منأى منه. فقال أتعجب مما رأيت؟ والله للذى لداود عند الله أعظم من هذا أو أكثر) [1]!! وروى صاحب الحلية أن أحمد بن شراعة قال : (كنت أسبل الماء بالليل فرأيت عند قبر داود الطائى سراجاً . قال

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٦٠/٧.

فذهبت أنظر إليه فإذا هو قد ذهب. ثم قال عدت إلى تسبيل الماء فإذا أنا بالسراج فذهبت فغاب! حتى فعل ذلك ثلاثاً. قال ثم نمت فرأيت فيما يرى النائم كان إنساناً يقول : لا تسبل الماء عند القبر ولا تدن منه. قال فلم أقبل - قال الراوى عنه : فابتلى فرأيت به السل حتى مات)[1].

نعوذ بالله من مخالفة أوليائه ومن التعرض لهم ونسأله تعالى أن يرزقنا حبهم وحب من يحبهم دنيا وآخرة .

وروى الإمام المناوى أن سيدى داود قال : ماتت امرأة بجوارى ولم يكن لها كبير طاعة. فقيل لى يا داود اطلع على قبرها. فاطلعت فرأيت فيه نوراً عظيماً وفرشاً وطيئة وسرراً عالية. فقلت : بِمَ استوجبت هذا ؟ فنوديت : استأنست بنا فى سجدتها فآنسناها فى وحدتها)[2].

إنه الكشف والمعرفة والكرامة لمن كرّمه ربه واصطفاه لمعرفته.

هذا هو الإمام العارف سيدى داود الطائى الذى اغترف من بحار النور المحمدى فاستنار وأنار السبيل للسالكين من بعده. فرضى الله عنك يا سيدى داود فى أعلى مراتب الأولياء العارفين ورضى الله عنا بك ومنّ علينا بمعيتك المشرفة فى الدنيا ويوم الدين ببركة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم اللهم آمين.

* * *

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٥٨/٧ - ٣٥٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٩٥/١.

« ٧ »

الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه

فى سجل العناية الأزلية حظى عشاق الحضرة القدسية بمرسوم السعادة الأبدية، إذ استخلصهم مولاهم لنفسه، واجتباهم لقربه وأنسه، فوفقهم فى بدايتهم للسلوك والمجاهدة، ومن عليهم فى نهايتهم بالوصول والمشاهدة، وأغدق عليهم فى تجليات أسمائه ما غيبهم عنهم به فيه له. فهم فى جماله مهيمون وفى رياض وصاله يحبرون. رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم وأمدنا بأنوارهم لنكون فى معيتهم فى دار الفناء ودار البقاء.

ممن حظوا بذلك العطاء الإلهى والمدد الاصطفائى: الإمام الربانى ذو الفيض العرفانى حبر الشريعة وبحر الحقيقة، الصوفى التقى والولى السخى سيدى ومولاى الإمام أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى المصرى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

فقيه عرف الله بقلبه وعشقه بروحه وشاهد نوره بسره فغرق فى بحار النور.

وعالم أضاءت له مصابيح العناية سبل الهداية فاستغرق فى خضم محيط الشريعة حتى أضحى بحراً من بحورها وطوداً من الراسخين فى علومها. وبنور الشريعة سلك طريقه إلى الحقيقة فكان متحققاً فى شريعته ومتشرعاً فى حقيقته فهو أحد أعاظم الأئمة المجتهدين وأحد أكابر الأولياء الراسخين المحققين.

والإمام الليث - رضى الله عنه - مصرى المولد والموطن والوفاة، فارسى الأصل، عربى الولاء فقد ذكر صاحب الحلية أنه كان يقول : « نحن من أهل أصبهان فاستوصوا بهم خيراً »[1] وذكر صاحب تاريخ بغداد أن أهل بيت الإمام الليث كانوا يقولون : « نحن من الفرس من أهل أصبهان ».

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/٣٢١

وأما عن ولائه العربى : فيقول ابن خلكان فى (الوفيات) فى مستهل ترجمته للإمام الليث : (كان مولى قيس بن رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى)[1] وبنو فهم الذين ينسب إليهم الإمام الليث هم: كما يذكر القلقشندى فى نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب- بطن من قيس عيلان من العدنانية.

ويؤكد ابن قتيبة الدينورى فى (المعارف) ولاء الإمام الليث لقيس قائلاً : (الليث بن سعد رضى الله عنه هو مولى لقيس ويكنى أبا الحارث)[2] وكذلك ذكر الإمام ابن سعد فى الطبقات أن الإمام الليث مولى لقيس. ونقل صاحب (الحديث والمحدثون) عن الإمام محمد بن سعد أنه قال : (كان الليث مولى لقريش)[3] وفى ذلك تأكيد لقرشية بنى فهم الذين ينتسب إليهم الإمام الليث بالولاء.

وأما عن مصرية إمامنا الليث - رضى الله عنه - فالخطيب البغدادى يقول فى تاريخه : « والمشهور أنه فهمى ولد بقرقشندة وهى قرية من أسفل أرض مصر» وقرقشندة التى يذكرها الخطيب هى - كما يضبطها ابن خلكان فى وفيات الأعيان- (قلقشندى) التى ينسب إليها العالم المؤرخ أبو العباس القلقشندى صاحب صبح الأعشى، وهى بلدة العارف بالله تعالى القطب الربانى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به . وهى قرية تقع جنوب مركز طوخ بمحافظة القليوبية.

وقد ولد الإمام الليث رضى الله عنه - فى قلقشندة - سنة أربع وتسعين هـ يقول ابن خلكان « وكان الليث يقول : قال لى بعض أهلى : ولدت سنة اثنتين وتسعين للهجرة، والذى أوقن سنة أربع وتسعين فى شعبان، وتوفى يوم الخميس، وقيل الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ودفن يوم الجمعة بمصر فى القرافة الصغرى، وقبره أحد المزارات رضى الله عنه »[4].

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ١٢٧/٤.

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٣) انظر الحديث والمحدثون للشيخ محمد محمد أبو زهو ص ٢٩٧.

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٨/٤.

وبمقتضى هذه الرواية التى ذكرها صاحب الوفيات والتى تذكر أرجح الآراء فى تاريخى مولد ووفاة الإمام الليث رضى الله عنه يكون قد عاش إحدى وثمانين سنة كانت خيراً وبركة على الأمة بأسرها.

وقد نشأ مولانا الإمام الليث فى أرض مصر لتظفر كنانة الله بهذا الليث المقيض للذود عن عرين دين الله، ولتحمل شرف نسبته إليها ورفع لواء مجدها العلمى على يديه، ولهذا رأينا الحافظ الذهبى يصدر ترجمة الإمام الليث فى تذكرة الحفاظ بقوله : « الليث بن سعد الإمام الحافظ : شيخ الديار المصرية وعالمها ورئيسها أبو الحارث الفهمى مولاهم الأصبهانى الأصل المصرى »[1].

وقد عرف إمامنا الليث منذ شبابه الغض بمتانة دينه وحسن خلقه ونبوغه المبكر وعبقريته الفذة فى تحصيل العلوم.

وهذه رواية تصور نظرة أئمة العلم والدين للإمام منذ حداثة سنه يرويها صاحب تاريخ بغداد بسنده عن شرحبيل بن جميل بن يزيد مولى شرحبيل بن حسنة رضى الله عنهما.

يقول : (أدركت الناس أيام هشام، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد الله بن جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد بن أبى حبيب، وابن هبيرة وغيرهم من أهل مصر ومن قدم علينا من فقهاء المدينة وأنهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه على حداثة سنه وناهيك بهؤلاء أن يشهدوا لليث.. ثم يقول الخطيب - قال ابن بكير- ورأيت من رأيت فلم أر مثل الليث).

وقال عنه الحافظ ابن عساكر : « كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون إليه وهو شاب ». وتدرج الإمام الليث فى مراقى الفتح والعرفان وأخذ ينهل من أوعية العلم ويثرى محصلته من جهابذة العلماء فى مختلف الأرجاء فارتحل إلى العديد من بلاد العالم الإسلامى ليلتقى بأساطين المعرفة، ويغترف من فيوضاته

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٢٢٤.

الزاخرة المعطاءة . يروى الخطيب البغدادى بسنده عن ابن بكير أنه قال : وحج الليث بن سعد سنة ثلاث عشرة أى بعد المائة- فسمع عن ابن شهاب بمكة، وسمع من ابن أبى مليكة، وعطاء بن أبى رباح، وأبى الزبير، ونافع، وعمران بن أبى أنس وعدة مشايخ[١] .

وقد أكد ابن خلكان هذه الرحلة قائلاً : (وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وهو ابن عشرين سنة وسمع من نافع مولى ابن عمر رضى الله عنهما) وذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية أن الإمام الليث أدرك نيفاً وخمسين رجلاً من التابعين، وأدرك من تابعى التابعين ومن دونهم مائة وخمسين نفساً[٢]..

وكان الإمام الليث رضوان الله عليه يطلب العلم لله تعالى منزهاً عن أى غرض دنيوى لأنه يريد أن يصل إلى الله ومن كان الله مراده تساقطت حظوظ الدنيا بل وكل ما سوى الله من قلبه.

يدلنا على ذلك الاتجاه الرفيع والمرتقى السامى ما ذكره ابن خلكان قائلاً : (قال الليث : كتبت من علم محمد بن شهاب الزهرى علماً كثيراً، وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت ألا يكون ذلك لله تعالى فتركته »[٣] !!.

كذلك ارتحل إلى بغداد ونشر فيها علمه ومروياته الحديثية. يقول الخطيب فى تاريخه : (وقدم بغداد وحدث بها فروى عنه من أهلها حجين بن المثنى ومنصور بن سلمة ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، ويحيى بن إسحق البلخى، وشبابة ابن سوار، وموسى بن داود وجماعة من البصريين سمعوا منه ببغداد).

ووصل الإمام الليث إلى منزلة فى العلم والحديث يغبطه عليها الأئمة. فهو المحدث الحافظ الثقة قال عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه- فيما رواه بسنده صاحب تاريخ بغداد- : « الليث بن سعد كثير العلم صحيح الحديث » ومرة

---

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : ١٣/٣ وسير أعلام النبلاء للذهبى ١٣٧/٨.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٢٤/٧.

(٣) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٧/٤.

أخرى قال - فيما رواه الخطيب أيضاً - « ليس فيهم - يعنى أهل مصر - أصح حديثاً من الليث بن سعد . وعمرو بن الحارث يقاربه ».

وحسبنا أنه أحد شيوخ الشيخين البخارى ومسلم. وقد أحصى الأستاذ عبد الله شحاته فى كتابه « الإمام المصرى الليث بن سعد » مرويات الإمام الليث فى الصحيحين وسنن النسائى فذكر أن البخارى قد ذكر له فى جامعه الصحيح ٣٩٨ حديثاً وروى له مسلم ٢٨٥ حديثاً، وروى له النسائى ٢٣٣ حديثاً . كذلك ذكر الإمام أبو نعيم فى الحلية من مرويات إمامنا الليث بضعة عشر حديثاً، ويجمل بنا أن نتبرك بذكر واحد منها من المتفق عليه. فقد روى الحافظ أبو نعيم بسنده عن الإمام الليث عن ابن أبى مليكة عن المسور بن مخرمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وهو على المنبر : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب، فلا إذن، ثم لا إذن، ثم لا إذن، فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها »[١].

صدق مولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأما عن منزلة الإمام الليث فى الفقه : فبحسبنا أن إمامنا الشافعى رضى الله عنه كان يفضله على الإمام مالك رضى الله عنه فى (حسن المحاضرة) « وقال الشافعى : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه»[٢]، إذ لم يوجد للإمام تلامذة يقومون بحق مذهبه من التدوين والانتشار كما كان للإمام مالك من تلاميذه الأعلام الذين دونوا مذهبه وآراءه. كذلك روى الإمام أبو نعيم بسنده عن حرملة بن يحيى أنه قال : - « سمعت الشافعى يقول: الليث بن سعد اتبع للأثر من مالك»[٣] ويقول ابن خلكان فى الوفيات : « وكان ابن وهب يقرأ عليه مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل من الغرباء : - أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً فيجيب هو . « فأقل »

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٢٥/٧.
(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ٢٢٤/١.
(٣) انظر حلية الأولياء ٣١٩/٧.

فقال ابن وهب للرجل . بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو . والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً أفقه من الليث »[1].

وقال ابن وهب مرة أخرى- فيما رواه الخطيب فى تاريخه -؟« لولا مالك والليث لضل الناس » يتضح لنا من ذلك بجلاء أن الإمام الليث رضى الله عنه كان قمة الحديث والفقه فى عصره.

ونضيف: أنه كان قمة فى شتى المعارف والعلوم بشهادة أئمة عصره، يروى صاحب تاريخ بغداد بسنده عن عبد الملك بن يحيى بن بكير أنه سمع أباه يقول : «ما رأيت أحداً أكمل من الليث بن سعد، كان فقيه البدن عربى اللسان، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث، حسن المذاكرة، وما زال يذكر خصالاً جميلة ويعقد بيديه حتى عقد عشرة . لم أر مثله»

ومما يؤكد موسوعية الإمام الليث العلمية ما ذكره الحافظ ابن حجر فى كتابه « الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية » من أن سيدى شعيب بن الإمام الليث رضى الله عنهما قال :

(قيل لأبى : إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك! قال : لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب).

لله درك يا إمام من حبر تضيق بحمل علمك السفائن ؛ لأنها تسبح فى البحر وأنت البحر الذى غابت عن العلماء سواحله !!

تلك شذرات قليلة وقطرات يسيرة تناولناها من المحيط العلمى لإمام الأئمة مولانا الليث. وقد اقتضتنا شخصية الإمام الليث أن نشغل من المقال هذا الحيز عن الجانب العلمى، فقد كان هذاالجانب هو القاعدة الراسخة والمنطلق الطبيعى لإمامنا الليث وغيره من علماء الأولياء وأولياء العلماء إلى رحاب التصوف وآفاق الولاية. وقد أكدت لنا شخصية العارف الليث أن الشريعة هى شجرة الحقيقة فإذا أثمرت لدى العالم المتشرع كانت الثمرة هى الولاية وكان النتاج هو معدن الولى.

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان : ١٢٧/٤.

وحينما نتناول الجانب الصوفى عند الإمام الليث بالتعرف ثم بالتعريف نجده الخلفية العملية للجانب العلمى. ولأنه (خلفية) نجده مستوراً وراء هذا الجانب لذا لم نجد فيما كتبه المؤرخون للإمام ما يفى بقليل من حق هذا الجانب الذى عرفه العارفون وهباً ولم يعرفه العلماء كسباً.

لقد ظهر علمه للناس لينتفعوا به. وبطن عمله وتحققه لأنه لله فبقى بينه وبين الله تعالى لم يقف عليه إلا أهل البصيرة عن الله عز وجل ومن ثم لم يتعرف على حقيقة ولاية مولانا الليث إلا الأولياء الذين وقفوا على بحر عطائه وعلمه اللدنى وبركاته الزاخرة وأحواله الفاخرة، فالصوفى من حيث حقيقته مضنون به على غير أهله ومقامه عند الله سر من أسرار الله تعالى هذا وإن اشتهر ذكر كثير من الأولياء للاقتداء بهم وبهديهم المحمدى.

ورغم تستر الجانب الصوفى وراء الوجه العلمى لشخصية الإمام الليث فإننا لم نعدم فى محيط العلم الكسبى بعض ما يصلنا بصوفية هذا العارف الواصل إلى الله عز وجل . لقد وقف الإمام الشافعى رضى الله عنه على قبر الإمام الليث حين أتى مصر ولم يظفر بلقائه وقال : « لله أنت يا إمام !! لقد حزت أربع خصال لم يكملهن أحد: العلم والعمل والزهد والكرم!».

أما العلم فقد تحدثنا عنه بحسب المقام، وأما جانب العمل وهو الجانب التطبيقى الصوفى الذى تثمر به شجرة الحقيقة : فإمامنا نموذج لم نقف عليه لأحد فيما نعلم بعد، يقول الإمام النبهانى فى : « جامع كرامات الأولياء » : - وقال محمد ابن وهب : سمعت الإمام الليث يقول : إنى لأعرف رجلاً لم يأت الله بمحرم قط !! قال : فعلمنا أنه يعنى نفسه بذلك لأن هذا لا يعلم من أحد »[1] إنها قمة التقوى والورع عن محارم الله.

وقد عرف الحق تعالى أولياءه فى محكم كتابه بأنهم : « الذين آمنوا وكانوا يتقون»[2] وأى تقوى تلك التى تقى صاحبها محارم الله فلا يباشر معصية قط؟ « إن

(١) انظر : جامع كرامات للإمام النبهانى ٢/٤٤٦.
(٢) سورة يونس /٦٣.

هذا العطاء الإلهى قد بهر الأئمة ومن ثم يروى الإمام النبهانى وغيره أنه لما قدم الإمام الشافعى إلى مصر أتى قبر الإمام الليث وزاره وقال : (ما فاتنى شىء أشد على من ابن ذئب والليث بن سعد)[1] وابن ذئب هذا هو الإمام محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشى أحد الأئمة، وقد قال فيه الإمام أحمد (يشبه بابن المسيب، وهو أصلح وأروع وأقوم بالحق من مالك).

وكان الإمام الليث بشهادة العلماء فيه جامعاً فى سلوكه لكل أنواع البر والطاعات فرضها ونفلها حتى كان يراه بعضهم أفضل الخلق فى عصره. إذ يروى عن ابن أبى مريم أنه كان يقول : (ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من ليث، وما كانت خصلة يتقرب بها إلى الله عز وجل إلا كانت تلك الخصلة فى الليث) !!.

لقد تقرب إلى الله حتى أحبه، واشتغل قلبه بالله فانشغلت جوارحه فى طاعته. كان الليل ستراً بينه وبين الخلق ومحراباً يتجه فيه للحق، وكان نهاره نفعاً وبركة للمسلمين، يروى الخطيب فى تاريخه بسنده عن أشهب بن عبد العزيز يقول : «كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها. أما أولها فيجلس لنائب السلطان فى نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضى أمراً أو من السلطان : كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس إلى أصحاب الحديث، وكان يقول : نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم ويجلس للمسائل - أى الفتوى - يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده كبرت حاجته أو صغرت) عاش سيدى الإمام الليث حياته فى مرضاة الحق ونفع وهذه هى الولاية الكبرى .

ثم نطل على جانبين عظيمين من صوفية هذا الإمام وهما اللذان أشار إليهما إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - آنفاً فى ثنائه عليه وهو يزور قبره : الزهد والكرم.

فيذكر المؤرخون أن الإمام الليث كان على جانب عظيم من الثراء والسخاء

---

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٢/٤٤٦.

أما ثراؤه فيروى فيه صاحب الحلية بسنده عن ابن رميح أنه قال : (كان دخل الليث ابن سعد فى كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله تعالى عليه درهماً بزكاة قط)(١)!! وفى الرواية نفسها يتضح مبلغ كرم ذلك الإمام، فإنه كان لا يحول عليه الحول إلا وقد أنفق ماله فى مرضاة الله يصل الفقراء وينفق على البؤساء، ويصون حرمة العلماء .

وقد ضرب الإمام الليث بسخائه أروع مثل للصوفية الأثرياء، ولست مجاوزاً للحقيقة حين أقول أنه لم يبق لحاتم الطائى فضلاً عليه فى السخاء . يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن يحيى بن بكير أنه قال : (وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار، احترقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار، وحج فأهدى إليه مالك بن أنس رطباً على طبق فرد إليه على الطبق ألف دينار، ووصل منصور بن عمار القاضى بألف دينار وقال : لا تسمع بهذا ابنى فتهون عليه، فبلغ ذلك شعيب ابن الليث فوصله بألف دينار إلا ديناراً، وقال إنما نقصتك هذا الدينار لئلا أساوى الشيخ فى عطيته) (٢)!!.

وروى الإمام ابن خلكان فى الوفيات أن الإمام مالكاً أهدى إلى الإمام الليث صينية فيها تمر فأعادها مملوءة ذهباً !! ثم قال صاحب الوفيات : (وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيه الدنانير ليحصل لكل من أكل كثيراً أكثر من صاحبه)! كما يقول ابن خلكان أيضاً : (وقال منصور بن عمار، أتيت الليث فأعطانى ألف دينار وقال : صن بهذه الحكمة التى آتاك الله تعالى) .

وكان سيدى منصور بن عمار أحد أجلاء الصوفية العارفين بالله تعالى، فمنحه الإمام الليث هذا العطاء لئلا يبذل حكمته الربانية لغير أهلها تكسباً بالعلم!!.

ويروى صاحب سير أعلام النبلاء عن ابن وهب أنه قال : (كتب مالك إلى الليث، إنى أريد أن أدخل ابنتى على زوجها فأحب أن تبعث إلى بشىء من عصفر.

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٢٢/٧.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٢٢/٧.

قال ابن وهب: فبعث إليه الليث بثلاثين جملاً عصفرا! فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمائة دينار وبقى عنده فضلة »[1] !!

لقد أقام سيدى الإمام الليث البرهان الساطع على أن الأولياء هم الزاهدون فى الدنيا وهى تتمرغ تحت أقدامهم وألقى بألف حجر فى وجه أولئك الذين يزعمون أن التصوف سلبية مع الحياة وفشل فى تسخير الدنيا، ومن ناحية أخرى أعطى الإمام الليث الدرس الصوفى العملى على أن الزهد فى الدنيا لا يعنى بالضرورة الفقر المادى بل إن روعة التصوف تتجلى فى الزهد فيها وهى ملك اليمين، ومن ثم نجد رغم هذا الثراء الذى توفر لإمامنا الليث أن إمامنا الشافعى رضى لله عنه يشهد له بالزهد.

وأذكر أن شيخنا العارف بالله تعالى سيدى الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية قدس الله سره ورضى عنه وعنا به قد قال يوماً لأحد مريديه:- (أخرج الدنيا من قلبك إلى يدك فإنها لا تضرك) فالزهد لا يعنى العجز عن تحصيل متطلبات الحياة إطلاقاً ، كل ما هنالك أن بعض الصوفية الأجلاء قد يؤثر التجرد الكامل لله تعالى ظاهراً وباطناً لا عن عجز وإنما رغبة فى التفرغ لمولاه بينما يؤثر صنف آخر كالإمام الليث التقرب إلى الله بنعم الله مما يتطلب توافر الدنيا مع الزهد فيها بحيث لا يتأثر القلب بغدوها ورواحها. ولعل أصدق شاهد على عزوف مولانا الليث عن الدنيا رغم كونها فى يده هو رفضه لعرض الخليفة له أن يكون والياً على مصر.

فيروى الخطيب البغدادى بسنده عن ابن بكير قال : (قال الليث : قال لى أبو جعفر : تلى لى أمر مصر ؟ قلت لا يا أمير المؤمنين إنى أضعف عن ذلك، إنى رجل من الموالى، فقال: مابك ضعف معى، ولكن ضعف نيتك فى العمل عن ذلك لى)[2]!!.

لقد أدرك الخليفة أنه قوى على الإمارة، ولكنه يأباها رغبة عن الجاه وبعداً

---

(١) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبى ٢١٩/٨.
(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى : ٢٢٥/١.

عن أوضاع يأباها عليه دينه. ومع بعد الإمام الليث عن الولاية وتنحيه عن السلطان فإنه لم يدخر وسعاً فى النصح لأولى الأمر حرصاً على مصلحة المسلمين، يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن صالح يقول : سمعت الليث بن سعد يقول : (لما قدمت على هارون الرشيد قال لى : ياليث : ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها.. ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقى! فقال : صدقت يا أبا الحارث)[1] !!

وفيما يتصل بنظرة الحكام للإمام الليث أنه قال : (لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال : أعجبنى ما رأيت من شدة عقلك، والحمد لله الذى جعل فى رعيتى مثلك! قال شعيب وكان أبى يقول : لا تخبروا بهذا ما دمت حياً) !.

إنه الإخلاص لله وعدم رؤية النفس وإنكار الذات مع شموخ المنزلة وكلها مثاليات الصوفية، لقد كان سيدى الليث ثريا فى أخلاقه ومثالياته أكثر من ثرائه المادى وكانت له الحجة فى منازعه واتجاهاته فكان قرآنياً بكل ما تحويه الكلمة.

ففيما يتعلق بمنزعه فى الثراء ومشربه فى اقتناء الدنيا- كخادمة للأخرى- يروى صاحب النجوم الزاهرة أن الإمام مالكاً كتب إليه من المدينة: (بلغنى أنك تأكل الرقاق - بضم الراء - وتلبس الرقاق - بكسرها- وتمشى فى الأسواق. فكتب إليه الليث بن سعد: (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)[2])!!.

وسلم الإمام للإمام فى اتجاهه المستمد من كتاب الله تعالى .

وإذا كان لكل ولى شاهد على صدق ولايته للخلق فما أغنى الإمام الليث عن الشواهد. ولكن بعض المحبين للأولياء يفرحون بكرامتهم ويطربون لها بنفس الدرجة التى يفتقر بها ضعفاء اليقين إلى الكرامة كدليل على صحة الولاية، ومن ثم أتمم حديثى الموجز عن الجانب الصوفى عند الإمام الليث بتلك الكرامة التى

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/٣٢٢.

(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

ذكرها سيدى الإمام النبهانى فى كتابه جامع الكرامات إذ يقول : (روى عن الفتح بن محمود عن أبيه أنه قال : بنى الإمام الليث داره فهدمها ابن رفاعة عناداً له فى الليل، ثم بناها ثانياً فهدمها أيضاً. فلما كان الليلة الثالثة أتاه آت فى منامه وقال : اسمع يا أبا الحارث (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض)(١) فلما أصبح فإذا ابن رفاعة قد لحقه الفالج ومات بعد ذلك(٢).

وأريد أن أنفذ إلى ما وراء الكرامة هنا كخارقة للعادة يكرم الله به وليه، وأتأمل ملياً فى مضمون الآية التى تحقق بها مولانا الليث رضى الله عن. فقد جعله الله إماماً وجعله وارثاً محمدياً، ومكن له فى الأرض حتى عرضت عليه ولاية مصر فأباها فى شموخ العالم وزهد الولى وتحقيق العارف .

ومن ثم حق للإمام أبى نعيم أن يصفه فى (حلية الأولياء) ببعض ماله قائلاً: (ومنهم الثرى السخى الملى الوفى، لعلمه عقول، ولماله بذول، أبو الحارث الليث ابن سعد. كان يعلم الأحكام ملياً، ويبذل الأموال سخياً. وقيل إن التصوف : السخاء والوفاء)(٣).

ومن ثم حق لنا أن نتقرب بذكره إلى الله لأنه حبيبه ووليه، وأن نتوسل به إليه فى أن يحشرنا معه وفى حزبه مرددين مع قائل القوم العارف بالله:

بملاذنا الليثى بحر عطائه ... عم البرية للأحبة والعدا
قطب الزمان ومعدن العرفان من ... قد كان يشهد للحقائق محتدا
علم الهدى كالشمس فى إشراقها ... كم ذا أجار المستغيث وأيدا
الله ينفعنا بهم وبحبهم ... دنيا وأخرى لا يزال مؤيدا

رضى الله عنك يا سيدى يا ليث الأولياء وولى العلماء ومنحنا بحبك وبركاتك جزيل العطاء فى الدنيا ويوم الجزاء بجاه سيدنا ومولانا محمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وصحبه الكرام الأصفياء.

---

(١) سورة القصص /٥.
(٢) انظر : جامع الكرامات للإمام النبهانى ٢/٤٤٦.
(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٧/٢١٨ - ٢١٩.

« ٨ »

الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه

تحت لواء الولاية لله عز وجل انخرط العلماء العاملون فى سلك زمرة العارفين الربانيين الذين سطعت أنوار الحقيقة فى مرآة قلوبهم بعد أن صقلت بماء العلم وتألقت بأكسير العمل والمجاهدة فلاح فى تلك القلوب إشراق النور الإلهى والفيض الربانى ووسعت معرفة الحق تعالى التى لم تتسع لها أرض ولا سماء.

إنها قلوب العلماء العاملين والصفوة العارفين رضى الله عنهم وعنا بهم تحت لواء ولاية رب العالمين فى الدنيا ويوم الدين.

فى هذا المحيط الربانى تشع أنوار عالم جعله الله حجة فى أرضه واستحفظه على شريعة مصطفاه من خلقه - صلى الله عليه وآله وسلم - وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما وولاه واجتباه إنه الإمام العارف والولى الشامخ إمام دار الهجرة ورافع لواء الحضرة سيدى الإمام مالك بن أنس الأصبحى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معية إمامنا الشافعى رضوان الله عليه دنيا وأخرى.

نلتقى الآن بهذا الإمام فى علياء شوامخ أعلام الصوفية لنؤكد من خلال إبراز صوفية أئمة الشريعة الأربعة التلازم بين الشريعة والحقيقة وأنه لا انفكاك بينها فى نفس الأمر، وفى اعتبارنا إذا صح تصورنا لكل من مفهومى الشريعة والحقيقة: وقد لا تجدى الجدليات المنطقية فى هذا الصدد بقدر ما نتمثل ذلك الارتباط واقعا عمليا فى شخصيات تمثل القمة فى التشرع وهى متحققة بالضرورة. أو فى أخرى تتسنم الذروة فى التحقيق وهى راسخة فى التشرع.

وفارس حلبتنا الآن لا يمكننا فى تلك العجالة أن نفى بحق أى جانب من جوانب عظمته كمحدث وفقيه وكصوفى على النحو اللائق به، ومن ثم فاتجاهنا هو

إجلاء الجانب الصوفى عنده بما يستلزم ذلك من رسم إطار تاريخى وعلمى تتضح فيه - على قدر المقام - المعالم الصوفية. وحين نتعرف على الإطار التاريخى نعمد أولا إلى نسب الإمام وأصله الذى نبت منه: فنجد أنه ينتمى إلى قبيلة يمنية هى قبيلة (ذى اصبح) ونجد ابن خلكان يذكر نسبه قائلا: (الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان - بغين معجمة وياء تحتها نقطتان ويقال عثمان - بتاء مثلثة وعين مهملة - بن جيثل بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان، وقال ابن سعد هو خثيل بخاء معجمة ابن عمرو بن ذى أصبح، واسمه الحارث الأصبحى المدنى[1].

وقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه أن ذا أصبح كان من ملوك اليمن فى الإسلام. بينما تذكر المصادر الأخرى أن صلة الأسرة بالإسلام بدأت عند أبى عامر الجد الثانى للإمام،إذ يذكر صاحب (ترتيب المدارك)، والمقدسى فى (التنوير) أن أبا عامر كان صحابيا يشهد المغازى كلها مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماعدا بدرا[2].

وثمة رواية أخرى تذكر أن أبا عامر كان تابعيا مخضرما حضر المدينة بعد انتقال الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى جوار ربه، وصاهر بنى تيم.

وتطرقت رواية ثالثة فذكرت أن مالكا الجد الأول كان أول من قدم من الأسرة المدينة المنورة متظلما من بعض ولاة اليمن.

وقد ذكر المؤرخون أن مالكا جد الإمام من أكابر التابعين العلماء العاملين، وقد روى عن بعض الصحابة وروى له الإمام فى الموطأ وذكرت بعض المصادر أنه كان أحد الأربعة الذين حملوا سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وعنا به إلى قبره ليلا[3].

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٥/٤.

(٢) انظر : ترتيب المدارك للقاضى عياض : ١٠٢/١.

(٣) انظر (مالك : تجارب حياة) لأمين الخولى ص٤٧ سلسلة أعلام العرب.

وأما سيدنا أنس والد الإمام فقد كان رابع إخوة ثلاثة له هو أكبرهم هم: أويس ونافع والربيع. وتذكر الرواية أنه اشتغل بالحديث الشريف كما يذكر المقدسي الحنبلى أنه كان فقيها.

وأما والدة سيدنا الإمام مالك فهى السيدة: العالية بنت شريك الأزدية[1] -رضى الله عنها - ونخلص من ذلك إلى أن أبوى الإمام - رضى الله عنهما - كانا عربيين يمنيين.

وقد ولد مولانا الإمام مالك رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين للهجرة الشريفة على أشهر الأقوال وأرجحها فيروى صاحب (تزيين الممالك) أنه قال -رضى الله عنه - (ولد سنة ثلاث وتسعين) ويذكر المؤرخون أن أمه حملت به ثلاث سنين، وكأن العناية أبت إلا أن تُظْهِرَ تَفَرُّدَ هذا الإمام حتى وهو فى عالم الغيب. وقد كان العرب يرون فى طول مدة الحمل إنضاجا للجنين، وفى ذلك يقول طرماح:

يضن بحملنا الأرحام حتى   تنضجنا بطون الحاملات[2]

ومما يؤكد صحة ثبوت هذه المدة لحمل الإمام - حيث استبعد ثبوتها بعض العلماء المعاصرين أنه أفتى فى مذهبه بجواز بقاء الجنين ثلاث سنين فى بطن أمه. وفى رحاب دار الهجرة ولد أمام دار الهجرة على مسافة اثنين وتسعين ومائة كيلومتر. تقريبا شمالى المدينة المنورة حيث يقع (ذو المروة) فى بيت تحوطه العيون والبساتين وتحفه روحانية الأصل العريق والمحتد الإسلامى.

ويدرج فى أرجاء تلك البيئة الطفل الأشقر عظيم الرأس واسع العينين كبير الأذنين ذو وجه مليح تشوب بياضه حمرة وضّاءة تنعكس فيها نورانية الفطرة الزكية.

وكانت الوجهة إلى آفاق النور. حفظ الإمام القرآن الكريم وأحكم تجويده فأخذ القراءة عرضا عن نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم إمام أهل المدينة وأحد القراء السبعة.

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٤٩/٨.

(٢) انظر : مالك : تجارب حياة لأمين الخولى ص٥٦.

واشتعلت منذ الصبا المبكر عند الإمام جذوة التطلع إلى نور العلم فلازم العلماء ملازمة حياة يتنفس فى مجالسهم علما ويتزود من محصلاتهم معرفة.

وكانت المدينة فى وقته منارة العلم والفتوى ومحط رجال العلماء وموئل الأساطين فى العلم والفقه.

وهذه روايه يذكرها صاحب (ترتيب المدارك) تصور لنا إقبال الإمام على العلم منذ صباه الباكر فيذكر أن الإمام مالكا قال : (كان لى أخ فى سن ابن شهاب، فألقى أبى يوما علينا مسألة فأصاب أخى وأخطأت. فقال لى أبى: ألهتك الحمام عن طلب العلم؟ فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين - وفى رواية ثمانى سنين - لم اخلطه بغيره وكنت أحمل فى كمى تمرا وأناوله صبيانه وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول). وقال ابن هرمز يوما لجاريته من بالباب فلم تر إلا مالكا فرجعت فقالت: ما ثم إلا ذلك الأشقر. فقال أدعيه فذلك عالم الناس؟

«وكان مالك قد اتخذ ثيابا - أى ثيابا كالسراويل - محشوًّا للجلوس على باب ابن هرمز يتقى به برد حجر هناك. وقيل بل من برد صخر المسجد وكان فيه مجلس ابن هرمز» كما اختلف الإمام مالك كذلك إلى ربيعة الرأى أحد أئمة الفقهاء وعمالقة الجدل والدهاء.

يروى صاحب تاريخ بغداد أن الإمام مالكا كان يقول : (ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة بن عبدالرحمن) .

ومن أساتذة الإمام مالك كذلك محمد بن شهاب الزهرى واضع علم الحديث رواية عند كثير من العلماء وكان يلقب بأعلم الحفاظ.

أما الصورة التى كان يتلقى الإمام بها علمه فناهيك بها ذروة فى الأدب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

يذكر صاحب المدارك أن سيدنا مالكا سُئل: أسمع عن عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون فكرهت أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا قائم!!

ولو ذهبنا نلتمس مصدر علم الإمام وشيوخه الذين أخذ عنهم لرمنا فوق الطاقة وحسبنا أن نذكر أن الإمام المناوى قد ذكر فى طبقاته أن سيدنا مالكا قد أخذ عن سبعمائة شيخ فأكثر[1] وأن الإمام الشعرانى - رضى الله عنه وعنا به - قد ذكر أن الإمام أخذ عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين[2] كما ذكرت المصادر فى ثبت شيوخه مولانا الإمام جعفر الصادق والإمام نافع وابن المنكدر وعروة بن أذينة وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين.

ولم يصل الإمام إلى تلك المنزلة التى عرفتها الأمة له إلا بالفتح العلمى المحمدى الذى راع أئمة عصره.

يروى الإمام أبو نعيم فى (حلية الأولياء) بسنده أن الإمام مالكا كان يقول: (ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك)[3].

ويحدثنا الإمام المناوى عن بعض ما حازه الإمام من منزلة فى العلم فيقول : (كتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وصارت حلقته أكثر من حلقة مشايخه فى حياتهم، وكان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان)[4].

وحسبنا بحق أنه شيخ إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - الذى ملأ طباق الأرض علما والذى كان يقول عن أستاذه : (إذا ذكر العلماء فمالك النجم)[5] وقال (لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز) وقال عن كتاب شيخه «الموطأ» (ما أعلم بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك).

وقال أيضا : (ماكتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع للمسلمين من موطأ مالك).

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٢٨٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١/٤٥.

(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٦/٣١٦.

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٢٨٢.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى : ٨/٥٧.

وهذا هو الإمام يحيى القطان يقول : (ما أقدم على مالك فى زمانه أحد).

ويروى الحافظ أبونعيم بسنده عن القعنبى أنه قال (أتينا سفيان بن عيينة فرأيته حزينا. فقيل: بلغه موت مالك بن أنس رحمه الله. ثم قال سفيان: ما ترك على الأرض مثله).

وذروة الأوسمة التى تقلدها إمام دار الهجرة من سيد الخلق -صلى الله عليه وآله وسلم ماوراه صاحب الحلية بسنده عن إسماعيل بن مزاحم المروزى - وكان من أصحاب ابن المبارك العباد - قال : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى المنام فقلت يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس)[1].

وهنا نقف على ساحل المحيط العلمى ونتوجه بعد تلك الرؤية العابرة إلى المحيط الصوفى العملى لننفى بالدليل القطعى أن ثمة انفصالا أو ازدواجية حقيقية بين التشرع والتحقق لدى صوفية العلماء وعلماء الصوفية.ونؤكد أن شجرة العلم ما بسقت فروعها وآتت أكلها لدى هؤلاء القوم إلا بعد أن سقيت بماء العناية، وما أثمرت شجرة الحقيقة إلا بعد أن ارتوت بماء الشريعة. وثمة واضح البرهان.

يروى الإمام أبو نعيم بسنده إلى أبى عبدالله مولى الليثيين أنه قال : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى المسجد قاعدا والناس حوله ومالك قائم بين يديه، وبين يدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مسك هو يأخذ منه قبضة قبضة فيدفعها ومالك ينشرها على الناس. قال مطرف: فأولت ذلك العلم واتباع السنة)[2].

إن سيدنا مالكا - رضى الله عنه - مثله مثل باقى الأئمة الأربعه - لم يحتجب عن سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن الحقيقة سر من أسرار الله عز وجل فى قلوب أصفيائه ومن ثم فلا تباح إلا بإذن الله.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٦/٣١٧.

(٢) انطر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦ / ٣١٧.

وإذا احتجبت الشمس عن ذى رمد ففى رؤية السليم دليل!!

وقد يتبدى جزء من الحقيقة للتيقن من وجودها. ومن ذلك القبيل ما رواه الإمام أبو نعيم بسنده عن المثنى بن سعيد القصير قال: سمعت مالك بن أنس يقول: (ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[1]. إنه اتصال الأصل بالفرع.

وكيف يحتجب عن الشمس من يوصل الناس بضيائها؟؟ وبمقدار ذلك الاتصال الذى هو لب صوفية الإمام كان تعظيمه لصاحب الشرع صلى الله عليه وآله وسلم،،

وفى هذا الصدد يقول الإمام المناوى رضى الله عنه : (.. وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم وقعد على منصته بخضوع وخشوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى آخره بعود أدبا مع المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى بلغ من تعظيمه له أنه لدغته عقرب وهو يحدث ست عشرة مرة فصار يصفر ويتلوى حتى تم المجلس وتفرق الناس وقال صبرت إجلالا للمصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم -)[2]!!!

إنه فى حضرة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يكون فى مجلس علم، وقد اقتضاه أدبه مع سيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يؤثر الحضور معه على سلامة نفسه. فسلمه الله.

وليت شعرى هل يقدر إنسان عادى على تحمل ست عشرة لدغة من عقرب مالم يكن محصنا بالمدد المحمدى؟؟

ولقد اقتضاه أدبه الجم مع مولانا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه لم يركب دابة قط فى مدينة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إكراما لذاته الشريفة واحتراما لمثواه العظيم.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦ / ٣١٧.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٨٢/١.

يقول مولانا الشعرانى رضوان الله عليه فى ترجمة سيدنا مالك من طبقاته: (وكان يمشى فى أزقة المدينة حافيا ماشيا ويقول: أنا استحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها قبر رسول ا لله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحافر دابة)[1] !!

ألا فليستح المجترئون على المقام المحمدى الواهمون أنه صلى الله عليه وسلم كسائر البشر !!

أما عن عباداته رضى الله عنه: فكانت تلازم أنفاسه فى الليل والنهار من صوم وتهجد، إلى ذكر وتفكر. كان مثال المخبت المتبتل إلى الله تعالى مع إمامته ومسئوليته العلمية.

يقول مولانا الشعرانى رضوان الله عليه : (وكان إذا دخل بيته يكون شغله المصحف، وتلاوة القرآن، وكانت السلاطين تهابه)[2] !!

وتحدثنا الروايات أن الإمام مالكا اختلى وانقطع إلى الله. فقد ذكر مولانا الإمام الغزالى - رضى الله عنه - فى الإحياء إن سيدنا مالكا كان يشهد الجنائز، ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم، فترك واحدا واحدا ثم تركها كلها وقال:لا يتهيأ للرجل أن يخبر بكل عذر له. ويقول عنه الإمام الشعرانى عليهما الرضوان: (ومكث رضى الله عنه خمسا وعشرين سنة لم يشهد الجماعة، فقيل له: ما يمنعك من الخروج؟ فقال: مخافة أن أرى منكرا أحتاج أن أغيره)[3] !!

ويعلق الإمام الشعرانى على ذلك بقوله: (وقلت إنما سومح فى ذلك لأنه مجتهد، ولو فعل ذلك غيره لا يقدر على ذلك والله أعلم)[4].

وأقول: إن ظاهرة هذه الخلوة هو ما عبر عنه الإمام مالك رضى الله عنه من تحاشى رؤية منكر لا يقدر على تغييره.

وحقيقة سر تلك الخلوة يكمن فى صوفية الإمام الذى قدم للناس حقهم فى

---

(١) ، (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/٤٥.

(٣) (٤) المصدر الأخير.

بيان أحكام الشريعة واختلى ليؤدى حق الله فى العبادة فتفرد لله، وعكف على المراقبة والمشاهدة، ولم يطلع الخلق على مابينه وبين الله تعالى، ولقد أشار إلى حقيقة ما كان عليه من العبادة وما انتهجه من الانقطاع إلى ربه إذ قال - فيما ذكره عنه المناوى - (أدركت الناس وهم يتعلمون العلم حتى يصل أحدهم إلى الأربعين فينقطع للعبادة ويطوى الفراش ويقوم الليل كله)[1].

ولقد حدد الإمام سن الأربعين لبدء الانقطاع إلى الله تعالى لأنها السن التى بعث فيها كل رسول إذ عندها يكتمل الرجل.

فهى عند علماء الصوفية نقطة تحول من العلم إلى العمل الدائم لله تعالى، ومن التخلى للتحلى، ومن الصفاء للمشاهدة. ولقد أدرك الإمام أن العلم رسالة ومسئولية بقدر ما هو هبة وعناية، فما العلم الحقيقى إلا نور من عند الله للاهتداء به إلى الحق والحقيقة، يقول الإمام: (العلم ليس بكثرة الرواية بل نور يضعه الله فى القلب يفرق بين الحق والباطل) وعن مسئوليته يقول عليه الرضوان : (بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[2] ولعظم تلك المسئولية فقد امتحن الإمام محنة الكبار حتى تألق جوهره أصفى من خالص النضار.

يقول الإمام المناوى : (وامتحن فى خلافة المنصور - أو الرشيد - لإفتائه بعدم وقوع طلاق المكره وتقديمه عثمان على على رضى الله عنهما. فضربه أمير المؤمنين من ثلاثين إلى مائة ومدت يداه حتى انحلت كتفاه وصار بعد ذلك لا يمكنه رفع يديه حتى مات، وصار يقول حين ضربه: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون، وحمل مغمى عليه فلما أفاق: قال أشهدكم أنى جعلت ضاربى فى حل. وما زال بعد الضرب فى رفعة من الناس وإعظام حتى كأن تلك الأسواط حليا حلى به)[3] إنها

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله تعالى عنه ٢٨٤/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣١٩/٦.

(٣) انظر اللكواكب الدرية للعلامة المناوى ٢٨٥/١.

القوة فى الدين التى لم يؤتها إلا خواص الله فى خلقه ومن ثم كان الخلق يهرعون إلى الإمام مالك فى أمور دينهم وكلهم يقين واطمئنان.

يذكر صاحب الأنوار القدسية أن حماد بن زيد قال لرجل جاء فى مسألة اختلفت الناس فيها : يا أخى إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة وأصغ إلى قوله فإنه حجة .. مالك بن أنس إمام الناس).

وقال الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه وعنا به : (علم مالك علم تقى، علم مالك أمان لمن يأخذ به من الأنام) ويقول صاحب الأنوار القدسية، (وقال محمد بن رمح: حججت مع أبى وأنا صبى لم أبلغ الحلم فنمت فى مسجد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى الروضة بين القبر والمنبر فرأيت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من قبره وهو متوكئ على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقمت فسلمت عليه فرد علىّ السلام. فقلت يا رسول الله: أين أنت ذاهب. فقال أقيم لمالك الصراط المستقيم فانتهيت فأتيت أنا وأبى فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ وكان أول خروجه) !!

ألم أقل إنه كان إماما محمديا؟ لقد كان الإمام مالك يرى مالا يراه الناظرون. يقول صاحب الأنوار القدسية : (وقال مصعب بن عبدالله: كان مالك إذا ذكر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له فى ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم ما ترون) بالله ماذا يمكن أن يرى أو يؤخذ من وراء تلك العبارة ؟؟

إنها الحقيقة .. إنه الكشف والمشاهدة .. إنها عظمة أولياء الله الذين يرون مالا يراه الناس لأنهم عبدوا الله فوق ما يعبده سائر الناس واجتباهم ربهم من سائر الناس. فليت شعرى ماذا تجدى محاولات أعداء الأولياء أمام تلك الشمس الساطعة؟ هم يتحدثون فى الظلام وأولياء الله فى وهج النور وفى كنف العناية الإلهية مختصون بالعطاء. ولقد حاول خصوم التصوف أن يحولوا بين التصوف والشريعة فماذا يحاولون الآن ونحن نتفيأ ظلال إمام دار الهجرة وأحد أركان الاجتهاد المطلق

فى الشريعة لنستقى منه نهج الحقيقة ؟؟ إنه حجة الشريعة الذى حمل عليه الحديث الذى رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه وعنا به: (يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة)[1]

كما حمل على إمامنا الشافعى - رضى الله عنه وعنا به - حديث «عالم قريش يملأ طباق الأرض علما».

وهل ثمة كرامة تدل على عظم ولايته أكثر من رؤيته لسيدنا المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - مناما كل ليلة؟ أو من مشاهدة حضرته صلى الله عليه وآله وسلم بمجرد ذكر اسمه الشريف؟ ومن ذلك فلنستزد: يقول الإمام المناوى رضى الله عنه: (ولما ألف الموطأ اتهم نفسه فى الإخلاص فيه فألقاه فى الماء وقال: إن ابتل لاحاجة لى به فلم يبتل منه شىء)[2].

ولقد أراه ربه عشية انتقاله إلى جواره الأعلى من عظم بره وكرمه قبل أن يلقاه ما شرح صدره.

يقول الإمام المناوى: (وقال بكر بن سليم الصواف، دخلنا على مالك العشية التى مات فيها فقلنا كيف تجدك؟ قال: لا أدرى ما أقول لكم إلا انكم ستعاينون من عفو الله مالم يكن لكم فى حساب. ثم ما برحنا أن أغمضناه)[3].

وأخرج ابن عساكرعن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال : رأيت أبى فى النوم عليه قلنسوة طويلة فقلت ما فعل الله بك؟ قال زيننى بزينة العلم، قلت : فأين مالك ابن أنس؟ قال : فوق فوق فلم يزل يكرر فوق ويرفع رأسه حتى سقطت القلنسوة عن رأسه.

وذكر الإمام القشيرى إنه قيل له - فى الرؤيا - ما فعل الله بك بعد موتك؟ فقال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت[4] رضى الله عنه وعنا به آمين.

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ٢٠٨/١.

(٢) ، (٣) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٢٨٤/١.

(٤) انظر : الرسالة القشيرية للإمام القشيرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٣١٩/١.

« ٩ »

سيدى الإمام عبدالله بن المبارك رضى الله عنه

فى نور الحقيقة المطلقة سار على الدرب رجال عرفوا الطريق إلى الله فلم تجد الدنيا طريقها إلى قلوبهم، ولم يعرف الشيطان سبيله إلى نفوسهم؛ لأنهم - وقد اهتدوا إلى الله - صاروا فى كلاءته تعالى وحفظه ودخلوا فى خصوصية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(١).

وما تحققت العبودية إلا بتحقق الولاية التى فاز بها المصطفون من عباد الله الأخيار - رضى الله عنهم - وأدخلنا فى زمرتهم فى هذه الدار وفى تلك الدار.

من صفوة عباد الرحمن السابحين فى بحار أنوار القرآن، المستغرقين فى ذكر الله والواصلين إلى مقام الإحسان: صوفى من أئمة السلف الصالح المجاهدين فى الله حق جهاده، المجتبين لمعرفة الله والناهلين من صفو وداده.

هو الإمام العارف والزاهد الواصل فقيه العرب وإمام المسلمين سيدى أبوعبد الرحمن عبدالله بن المبارك الخراسانى - رضى الله تعالى عنه - وأمدنا من فيض بركاته فى الدنيا ويوم الدين.

هو من أتباع التابعين لسيد المرسلين - صلى الله عليه وآله وسلم - وأحد أعيان السلف الصالح العلماء العاملين المجمع على جلالتهم وفضلهم.

ولد رضى الله عنه سنة ثمان عشرة ومائة هـ. على ما ذكره الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به(٢). ولحق بربه سنة إحدى وثمانين ومائة على أثر عودته من الغزو. ودفن بمدينة (هيت) على نهر الفرات.

---

(١) سورة الحجر : ٤٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/٥٠.

وقد ذكر العارف المناوى - رضى الله عنه - أن أبا سيدى عبدالله كان تركيا مملوكا لرجل من همدان[1]، وقد نشأ الإمام ابن المبارك وتربى فى خراسان فكانت وطنه التى إليها ينتسب.

ولذلك نجد الإمام أبانعيم يلقبه فى (الحلية) بـ (شاهنشاه)[2]. وهو بحق قد شرف هذه النسبة أيما شرف، كما حق للأمة بأسرها أن تعد نسبة ابن المبارك إليها شرفا وكسبا لها، وإضافة محمدية لمجدها المتواصل على امتداد عصر السلف الصالح وما خلفه من رجال.

وسنبدأ - كما هو دأبنا فى هذه السلسلة الصوفية - بإطلالة على الجانب العلمى الذى صارت محصلته زادا للتطبيق العملى. وبالمواءمة والتلازم بين الجانبين لا ندع ثغرة يتسلل منها خصم للتصوف ولا سيما أن الحديث هنا عن أعز ما يعتز بهم الإسلام من رجال السلف الصالح الذين حملوا مجده. فباتضاح الصورة الحقة للتصوف من خلال هؤلاء الأعلام يظل الباطل قامعا فى ظلمته فارا من سراج الحق الوهاج.

فالعلم دائما وأبدا كان هو المنطلق إلى رحاب الحقيقة، ولم يصل ولى إلا بالتحقق بالكتاب والسنة. وهاهو ذا إمامنا ابن المبارك قد أجمع رجال السلف على جلالته وإمامته فى علوم الإسلام حتى لقد ذكر الإمام المناوى أن الإمام سفيان الثورى سمع رجلا يقول: أين ابن المبارك عالم المشرق؟ فقال: عالم المشرق والمغرب وما بينهما[3] اهـ.

وقال عنه الإمام الفراء - فيما رواه الإمام المناوى -: (ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين)[4].

وروى صاحب الحلية بسنده عن إسماعيل بن مسلمة الفضى أنه سمع محمد

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٢٤٠.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨/١٦٢.

(٣) (٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٢٤٠.

ابن المعتمر بن سليمان يقول:- (قلت لأبى: يا أبت. من فقيه العرب؟ قال سفيان الثورى، فلما مات سفيان الثورى قلت لابى: يا أبت. من فقيه العرب؟ قال: عبدالله ابن المبارك)[1].

وروى صاحب الكواكب الدرية عن ابن معين أنه قال عن ابن المبارك: (هو أعلم من سفيان الثورى رضى الله عنه).

كما يروى أبو نعيم بسنده عن المسيب بن واضح يقول: (سمعت أبا إسحق الفزارى يقول: ابن المبارك إمام المسلمين، قال: ورأيته قاعداً بين يديه يسأله، وروى صاحب الحلية عن العمرى أنه قال : (ما رأيت فى دهرنا هذا أحدا يصلح لهذا الأمر إلا رجلا أتانى إلى منزلى فأقام عندى ثلاثا يسألنى عن غير ما يسألنى عنه أهل هذا الدهر، فصيح اللسان إلا أن اللغة شرقية، يكنى أبا عبدالرحمن، معه غلام يقال له سفير، فقلنا له هذا عبدالله بن المبارك، فقال: هكذا ينبغى، إن كان معى أحد يصلح لهذا الأمر فذاك، قال عبيد الراوى - يعنى الاقتداء بالعلم -)[2].

لقد كان الإمام ابن المبارك بحرا من بحور العلم الزاخرة، ولقد اتسعت ملكته العلمية لاستيعاب شتى مناهل المعرفة حتى قال عنه الإمام المناوى: (وجمع الفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والقيام وقلة الكلام فيما لا يعنيه، وكتب الحديث عن مائة وألف شيخ)[3]!! وقد روى له الحافظ أبونعيم فى حليته نيفا وستين حديثا من مروياته، ومنها ما رواه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ). صحيح متفق عليه.

وكان الإمام ابن المبارك داعية إلى العلم فى عصره وكان يؤمن أن العلم هو الطريق الصحيح للعبادة الصحيحة.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٣/٨.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٢/٨ - ١٦٣.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤٠/١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٨٣/٨.

فيذكر الإمام الشعرانى - رضى الله عنه - فى طبقاته أنه كان يقول : (إذا تعلم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معانى القرآن).

وكانت له فلسفة فى الخلوة لطلب العلم والعكوف على آثار الصحابة والتابعين لاقتفاء أثرهم والسلامة مما يأباه دينه.

يروى عن سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه أنه كان يقول : (قيل لابن المبارك : إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال : أذهب مع الصحابة والتابعين. قلنا له ومن أين الصحابة والتابعون قال : أذهب أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم. فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كان سنة ثمانين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفر من الناس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك يسلم لك مجهودك)[1].

ليت شعرى إذا كان أهل القرن الثانى يشكون من زمانهم ترى ماذا كانوا يصنعون لو أدركوا القرن الرابع عشر ؟؟

وهكذا كان الإمام ابن المبارك فذا فى عصره متمسكاً بهدى الأئمة من الصحابة والتابعين. ثم لقد كان يعظم قدر العلم ويرتفع بشأنه ويجل حديث مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيما إجلال.

حتى لقد روى عن سيدى بشر بن الحارث رضى الله عنه أنه قال : (سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشى، قال : ليس هذا من توقير العلم- قال سيدى بشر - فاستحسنته جداً).

وهذه واقعة أخرى تتمثل فيها عزة الإمام العالم ابن المبارك الذى لم يمتهن حديثه ولم يبذل علمه لتجار الدنيا، يروى صاحب الحلية عن سيدى أحمد بن أبى الحوارى - رضى الله عنه - أنه قال : حدثنى بعض أصحابنا قال: (جاء عبد الله

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى : ٨/٢٩٨ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/١٦٤-١٦٥.

ابن أبى العباس الطرسوسى- وكان واليا بمرو- إلى عبد الله بن المبارك بالليل ومعه كاتبه والدواة والقرطاس معه، قال : فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه- ثلاث مرات - فقال لكاتبه : أطو قرطاسك، ما أرى عبد الرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا. فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار فقال له : يا أبا عبد الرحمن، لم لم ترنا أهلا أن تحدثنا وتمشى معنا . فقال : إنى أحببت أن أذل لك بدنى ولا أذل لك حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال أحمد : فحدثت به محمد ابن أبى شيبة ابن أخت ابن المبارك فقال : ما حفظ الذى حدثك. لم يحسن معه، إنما قام ذلك ليركب وقام خالى إلى قاعة الدار ليبول)[1].

وكان رضى الله عنه يعظم أهل العلم العاملين.

يروى الإمام أبو نعيم عن سنيد بن داود أنه قال : (سألت ابن المبارك: من الناس ؟ قال : العلماء، قلت فمن الملوك؟ قال : الزهاد. قلت فمن الغوغاء؟ قال : خزيمة وأصحابه، قلت فمن السفلة؟ قال : الذين يعيشون بدينهم).

وكان ميزان الإمام ابن المبارك العلمى من أدق ما يتصوره وكان متشدداً فى سند الحديث حتى لقد سئل يوماً: الرجل يطلب الحديث لله يشتد فى سنده؟ فقال: إذا كان يطلب الحديث لله فهو أولى أن يشتد فى سنده !.

ولقد روى الحافظ أبو نعيم أن أبا إسحق الطالقانى قال : (سألت ابن المبارك عن الرجل يصلى عن أبويه؟ فقال : من يرويه؟ قلت شهاب بن خراش.. قال: ثقة عمن؟ قلت عن الحجاج بن دينار. قال ثقة عمن؟ قلت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبين الحجاج مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل)[2].

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٩/٨.

(٢) المصدر السابق ١٦٧/٨-١٦٨.

وكان يندد ببخلاء العلم ويقول : (من بخل بالعلم ابتلى بثلاث: إما موت فيذهب علمه، وإما ينسى، وإما يصحب فيذهب علمه)[1].

وكان رضى الله عنه يقول فى أمر الآخرة على العلماء العاملين ويعلق صلاحية العبد على تعظيمه لقدر أهل العلم فكان من كلماته النيرة : (من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته).

ثم كان يقول : (الحبر فى الثوب خلوف العلماء).

لقد جمع سيدى عبدالله بن المبارك بين العلم والحكمة فكان ينطق بدرر الحكم وينشر جواهر المعانى من فيض علمه وحكمته. يروى الإمام المناوى فى طبقاته أنه قال : (أربع كلمات انتخبت من أربعة آلاف حديث: لا تثق بامرأة، ولا تحمّل معدتك مالا تطيق، ولا تغتر بمال، ولا تتعلم من العلم إلا ما تعلم أنك تعمل به)[2]. وسئل رضى الله عنه : ما ينبغى للعالم أن يتكرم عنه ؟ (فقال : ينبغى أن يتكرم عما حرم الله عليه، ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال. وسئل مرة أخرى: ما ينبغى أن يجعل عظمة شكرنا له؟ قال : زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم. وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دنياكم. وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم).

ولقد أدرك سيدى عبد الله بن المبارك أن ثمرة العلم إنما هى فى التطبيق على العمل كما مر بنا فى بعض عباراته، ولذلك طبع سلوكه على وفق ما حصله من علم فكانت أحواله وأقواله وأفعاله على مقتضى الكتاب والسنة.

ولقد وضع التاريخ أمامنا بعض المرويات التى تصور الجانب العلمى والسلوكى عند الإمام ابن المبارك. فقد كان رضى الله عنه مع مكانته العلمية السامقة يعمل بالتجارة. ولقد نقل الإمام المناوى عن الذهبى أنه قال عن سيدى

---

(١) انظر : حلية الأولياء ١٦٥/٨.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤١/١.

عبد الله: كان يتاجر، وينفق على الفقراء فى العام مائة ألف درهم[1] !! وكان مع ثرائه غاية فى الزهد والتقشف والورع صوّاماً قوّاماً دائم العبادة مع الإخلاص والوفاء، يقول معاصره فطن بن سعيد: (ما أفطر ابن المبارك قط ولا رئى صائماً قط)! لقد اقتضاه إخلاصه أن يخفى عبادته عن الخلق لينجو من الرياء . أما بينه وبين الله تعالى : فهو صائم عن المفطرات الحسية والمعنوية، الظاهرية والباطنية مستجمع للفضائل والمحامد حتى قال عنه الإمام ابن عياش : (ما على وجه الأرض مثله، ما خلق الله خصلة من خصال الخير إلا وجعلها فيه وهو من أتباع التابعين).

وقال عنه الإمام المناوى رضى الله عنه : (وكان يسيح وحده، شديد الورع جداً بحيث سافر من مَرْو إلى الشام فى رد قلم استعاره ونسيه فى رحله وسافر!! وما دخل حماماً قط لشدة تقشفه؟؟)[2]. وقد أثمر علمه الواسع الغزير خوفاً عظيماً وخشية لله ملكت عليه وجدانه وكان يقول : (أكثركم علماً ينبغى أن يكون أشدكم خوفاً).

وكان يتساءل : (كيف يدعى رجل أنه أكثر علماً وهو أقل خوفاً وزهداً ؟؟) وكان يجالس أهل الخشية من أولياء الله كالإمام الفضيل بن عياض – رضى الله عنه الذى يروى عنه أنه قال : (قال لى ابن المبارك: استعد للموت ولما بعد الموت.. قال الفضيل – فشهق علىّ شهقة فلم يزل مغشياً عليه عامة الليل) !!.

هؤلاء حقاً هم أهل الآخرة وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3] وأهل الخشية هم أهل الأدب مع الله تعالى، وقد كان سيدى عبدالله يقول : (نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم) وكان ينعى على نفسه أنه لم يدرك الصف الأول من حملة الأدب النبوى الرفيع وهم الصحابة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

---

(١) انظر المصدر الأخير ١/ ٢٤٠.
(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٢٤٠.
(٣) سورة فاطر / ٢٨.

فكان يقول : (طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون)!!.

وفى مفهوم الأدب عند الصوفية يقول الإمام الطوسى السراج صاحب (اللمع) رضى الله عنه : (الناس فى الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم فى رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات. وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب)(١).

من ثم ندرك أن الأدب طبقات ومراتب ولكل قوم حظهم من الأدب ولذا نجد العارف ابن المبارك يقول : (الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف) أى للمريد المبتدئ.

نجد مذاقات الصوفية تتعدد فى المفهوم الواحد، وهى فى تعددها متفقة كل الاتفاق فتعطينا ثراءً روحياً لا نظير له . فبينما يعطى كل صوفى ما عنده فى تحديد مفهوم الأدب نجد إمامنا ابن المبارك - رضى الله عنه - يقف به عند حد مشرق بالمعرفة فيقول قدس سره : (قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس) . ونضع هذا المفهوم بجوار الحديث الشريف (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (٢).

وقد تحقق سيدى عبد الله بالأدب حتى بلغ الذروة. ومن ثم روى صاحب الحلية أن سيدى عبد الرحمن بن مهدى كان يقول : (ابن المبارك أأدب عندنا من سفيان) وكذلك قال الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (وكانو يقدمونه فى الأدب على سفيان الثورى)(٣).

---

(١) انظر : اللمع للإمام السراج الطوسى رضى الله عنه بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ طه عبد الباقى سرور ص١٩٥-١٩٦.

(٢) نقل العجلونى فى (كشف الخفاء) ص ٣٦١ عن الإمام النووى وغيره إن هذا الحديث لم يثبت مرفوعا وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ. بينما استدرك النجم بأنه وقع فى (ادب الدنيا والدين) للماوردى أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه ؟ فقال (أعرفهم بنفسه).

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٥٠/١.

ولقد جاهد سيدى عبد الله نفسه حتى ذللها وملك زمامها وسخرها فى طاعة الله. وحينما عرف نفسه حق المعرفة وجد الأدب فى ذل النفس أمام عظمة الله. ولقد ضرب فى ذلك أروع الأمثلة بحاله ومقاله فهو القائل رضى الله عنه: (من علامة من عرف نفسه أن يكون أذل من الكلب)[1]! ولم لا وقد وصف الرحمن أحبابه بأنهم «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ».

وقد طبق الإمام ابن المبارك الجانب الآخر وهو العزة على الكافرين بل وعلى الأشقياء المتكبرين.

يروى الإمام الشعرانى - رضى الله عنه - أنه قيل للإمام ابن المبارك: ما التواضع؟ قال : التكبر على الأغنياء. وفى رواية للإمام المناوى قال : التواضع التكبر على الأغنياء ثقة بالله تعالى .

ومن منطلق التواضع وذل النفس فى مرضاة الله آثر سيدى عبد الله نكران الذات وخمول الذكر إخلاصاً لله. ولقد بلغ من تواضعه أنه كان إذا بلغه عن أصحابه أنهم ضافوا إليه مسألة فى العلم- وهو سلطان العلماء- يرسل إليهم بكشطها بالسكين ويقول : من أنا حتى يكتب قولى !!.

وكان رضى الله عنه يقول : (كن محباً للخمول كارهاً للشهرة ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك)!.

ونتساءل : أى شىء نتج عن ذل النفس واتضاع حظها حسبما تخلق الإمام ابن المبارك وأرشد إليه؟.

والجواب من الواقع الذى نؤرخ له اليوم أنه أذل نفسه فأعزه الله وتواضع فرفعه الله وصار علماً من أعلام الواصلين . لقد أدب نفسه فاكتملت روحه.

وصدق رضى الله عنه إذ قال : (كاد الأدب أن يكون ثلثى الدين)[2].

---

(١) هذا الأثر فى حلية الأولياء ١٦٨/٨ بلفظ (إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب) أى تذلل لعظمة الله تعالى.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٥١/١.

وأين أمثال ابن المبارك اليوم ونحن فى زمن يبيع المرء حياته جرياً وراء الشهرة ويلهث وراء الظهور ويدفع دينه ثمناً (للأنا) التى دخل بها إبليس زمرة الأشقياء ليكون فى صدارتهم !!.

كذلك نجد الإمام ابن المبارك فى الذروة من الزهد والعزوف عن الدنيا رغبة فيما عند الله بل حباً فى الله واتقاء لحسابه يقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه : (وكان إذا اشتهى شيئاً لا يأكله إلا مع ضيف ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه)[1].

وكانت الطيبات من الرزق دائماً فى متناول يده فيؤثر بها الأصحاب والفقراء.

يقول أبو إسحق الطالقانى : (رأيت بعيرين مملوءين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك) إنها لسفرته ولكنها ليست له.

يقول الإمام الشعرانى : (وكان رضى الله عنه يطعم أصحابه الفالوذوج والخبيص ويظل هو نهاره صائماً) وكان رضى الله عنه جواداً بغير حدود حتى أنه قيل له فى أخريات حياته: قد قل المال فقلل من صلة الناس. فقال : (إن كان المال قد قل فإن العمر قد نفد).

ولقد عرف سيدى ابن المبارك الزهد فقال : (الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر) وحب الفقر هذا فيه تبعية لسيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - الذى آثر الفقر على الغنى لغناه بربه ولعدم حاجته إلى الدنيا. ثم حب الفقر عند سيدى ابن المبارك وهو الثرى المكتسب مرده الجود والإنفاق فى سبيل الله تعالى.

ثم إنه يفضل الزهد والقناعة على الإنفاق والبذل عند الموازنة بينها فيقول : (سخاء النفس عما فى أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل) ومع الزهد كانت قمة الورع عند الإمام ابن المبارك وقد سبق لورعه شاهد وذلك آخر يرويه صاحب الرسالة القشيرية قائلاً : (وقيل : سَيَّبَ ابن المبارك دابة قيمتها كثيرة، وصلى الظهر فرفعت الدابة فى زرع قرية سلطانية- أى تابعة للسلطان - فترك ابن

(١) المصدر الأخير.

المبارك الدابة ولم يركبها)[1] وكان سيدى عبد الله بزهده وورعه نافذ البصيرة فى أمراض القلب وتشخيص علله.

يروى صاحب الحلية عنه أنه قال : (لو أن رجلين اصطحبا فى الطريق فأراد أحدهما أن يصلى ركعتين فتركهما لأجل صاحبه كان ذلك رياء وإن صلاهما من أجل صاحبه فهو مشرك)[2] والمراد الإشراك فى العمل لا فى العقيدة. فإن حقيقة الإخلاص تقتضى تمحيض العبادة لله. وروى الإمام أبو طالب المكى فى (علم القلوب) عن الإمام ابن المبارك أنه قال : (خمسة أشياء لا تصعد من الأرض إلى السماء إلا بالتمام: حرمة المؤمن، وشكر نعمة الرب، وحق الوالدين، وإكرام العالم الزاهد، وعبادة الجبار) وذكر الإمام السبكى فى طبقات الشافعية أن الإمام ابن المبارك كان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغاً مستريحاً

وإذا ما هممت بالنطق بالبا ... طل فاجعل مكانه تسبيحاً

فاغتنام السكوت أفضل من خو ... ض وإن كنت بالكلام فصيحاً

وذكر الإمام أبو نعيم أن الإمام ابن المبارك سُمع يقول : (أحب الصالحين ولست منهم، وأبغض الصالحين وأنا شر منهم، ثم أنشأ سيدى عبد الله يقول :

الصمت أزين بالفتى ... من منطق فى غير حينه

والصدق أجمل بالفتى ... فى القول عندى من يمينه

وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه

فمن الذى يخفى عليك ... إذا نظرت إلى قرينه

رب امرئ متيقن ... غلب الشقاء على يقينه

فأزاله عن رأيه ... فابتاع دنياه بدينه[3]

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ١٧١/٨.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ١٧٠/٨.

وكان سيدى عبد الله من صفوة أهل السنة الذين ينقمون على من انتقص أحداً من صحابة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولقد روى صاحب الحلية أن الإمام ابن المبارك روى عمن أخبره قال : قدم وفد من وفود العرب على معاوية فقال لهم : ما تعدون المروءة فيكم؟ قالوا العفاف فى الدين والإصلاح فى المعيشة. فقال معاوية: اسمع يا يزيد) ومؤدى هذه الرواية أن سيدنا معاوية برئ مما أحدثه يزيد من بعده وأن ابتداء الظلم كان من أول عهد يزيد، أما الصحابة فهم فى ذروة الكمال لأنهم مدرسة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وأما ساداتنا أهل البيت المحمدى - رضى الله عنهم وعنا بهم فهم عين الكمال.

ولقد كان سيدنا ابن المبارك من أكثر الناس أدباً مع آل البيت ومع الصحابة عليهم رضوان الله، ولم لا وقد غلبت محبة الله عليه حتى كان كلامه يقطر حباً والمحب لله يحب أحبابه.

إن الإمام ابن المبارك لم تفارقه الخشية ولا المحبة حتى آخر نفس من حياته وقد كان يوازن بينهما حتى أنه القائل : (من أعطى شيئاً من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع). ولقد خشى الله حتى لقيه فأمن وأحب الله حتى فنى فيه وسكر سكراً لم يصح منه إلا بمشاهدة محبوبه فنطق بلسان القوم كما حكى فى الرسالة القشيرية:

فأسكر القوم دور كأس   وكان سكرى من المدير

هذا هو الإمام ابن المبارك المحب الإلهى الذى أحله الله مكانة فى القرب لم ينلها إلا خواص الخواص من عباده، وأحله عند خلقه مكانة أشادت بها السنة الأئمة وأقلام جهابذة الأمة حتى قال سيدى عبد الرحمن بن مهدى : (ما رأت عيناى مثل سفيان ولا أقدم على عبد الله بن المبارك أحداً)[1] وحتى قال المعتمر بن سليمان (ما رأيت مثل ابن المبارك تصيب عنده الشيء الذى لا تصيبه عند أحد) وحتى قال

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٣/٨.

سيدى سفيان الثورى - رضى الله عنه - أمير المؤمنين فى الحديث- وهو من هو- (لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما كان عليه ابن المبارك لم أقدر)[1]!!.

وهذا هو الإمام الأوزاعى - رضى الله عنه - يقول لعبد الله بن يزيد بن عثمان الحمصى : رأيت عبد الله بن المبارك ؟ فيقول لا . فيقول لو رأيته لقرت عينك!!.

ثم هذا هو عطاء بن مسلم يقول لعبيد بن جناد: يا عبيد ، رأيت عبد الله بن المبارك؟ فيقول نعم . فيقول : ما رأيت مثله ولا ترى مثله.

هذه أوسمة من الأئمة تقلدها سيدى عبد الله عن أحقية وجدارة.

ثم هذه بعض كراماته- يقول الإمام القشيرى فى رسالته: (وقيل كان ابن المبارك يقاتل عِلْجاً - أى كافراً - مرة فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله مهلة فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلاً يقول : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[2] فأمسك. فلما سلم المجوسى قال له لم أمسكت عما هممت به ؟ فذكر له ما سمع فقال المجوسى (نعم الرب رب يعاتب وليه فى عدوه. فأسلم وحسن إسلامه)[3]!!.

وذكر الإمام المناوى رضى الله عنه فى طبقاته : أن سيدى عبد الله بن المبارك لما احتضر فتح عينيه وضحك وقال :﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ[4] ﴾[5]!.

وذكر الإمام القشيرى أن سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه رؤى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمنى فقيل له ، ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين[6].

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٣/٨.

(٢) سورة الإسراء / ٣٤.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ٣٢٢/١.

(٤) سورة الصافات / ٦١.

(٥) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤١/١ والرسالة القشيرية ٥٩١/٢.

(٦) انظر : الرسالة القشيرية ٧٢٠/٢.

هؤلاء هم أولياء الله وصفوة الرحمن.

ومن عجب أن مفهوم الولاية بعد كل تلك الشواهد يظل ملتبساً على كثير من الناس حتى أنى استمعت خلال هذا الشهر إلى برنامج نقد إذاعى يتولى فيه أحد الفنانين التصدى لبعض المفاهيم بالنقد فإذا به فى الحديث عن الأولياء يتهكم من كراماتهم ومن التوسل بهم إلى الله تعالى خالطاً بين مفهوم الولاية والشعوذة ونحو ذلك مما يبرأ منه التصوف والأولياء.

ولكن أمامنا هذه النماذج المثلى التى تصور حقيقة الأولياء وبحسبنا منهم الإمام ابن المبارك الذى أضاء الدنيا بعلمه ونوره وبركاته ، رضى الله عنك يا إمام المسلمين يا سيدى عبد الله بن المبارك،ونفعنا بك وأمدنا بمددك وحشرنا فى زمرتك مع الأولياء المقربين المباركين.

* * *

«١٠»

سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنه

على هدى النبوة وفى طريق الله سلك ربانيو هذه الأمة العارفون بربهم . فبذلوا المهج والأرواح وأذابوا قلوبهم عشقاً لمولاهم، وقدموا حياتهم على أكف التذلل والعبودية قرباناً إليه متجردين عن رق الأكوان لا يرون إلا معشوقهم الواحد الديان فسابقوا أنفاسهم سراعاً إلى طاعته لا يفترون عن ذكره ولا ينقطعون عن عبادته ولا يبرحون بابه، فجذبهم الحق تعالى إلى حضرته وأفناهم فيه، وأغناهم بوصله، وسقاهم من كأس أنسه.

أولئك هم أصفياؤه المقربون وأولياؤه العارفون. رضى الله عنهم وعنا بهم وكتبنا فى سجهلم بمنه وفضله إنه أكرم الأكرمين.

من عيون أولئك الصفوة العارفين إمام حلقت روحه فى آفاق النور ، وارتوت ذاتيته من كرم الوصال فعاش حياته متمحضاً لربه، مشاهداً لقدس جلاله ، فانيا فى عشق جماله، مضيئاً طريق الواصلين ومربياً للأرواح العارفين.

إنه القطب العارف والصوفى الواصل شيخ الحرم سيدى ومولاى الإمام الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه وعنا به وأمدنا بمدده فى الدارين.

هو أحد أئمة سلفنا الصالح الذين يعتز بهم الإسلام ويهيب ببنيه اليوم أن يحتذوا حذوهم كى يضيئوا آفاق هذا العصر بنور الروحية الإسلامية المستمدة من هدى الكتاب والسنة .

فلقد كان الإمام الفضيل داعية كأشرف وأنبل وأنجح ما يكون الداعية. ولقد كان عالماً تجسدت فيه قدسية الكلمة ومثالية القدوة مع روعة الزهد وشرف الغاية ومن ثم كان عظيماً فى أمته، وما أقل العظماء من طراز الفضيل !!!.

إننا لن نسترسل فى حديثنا من بعيد خارج الإطار. بل سننفذ إلى الداخل وسنترك المواقف وحدها تحدثنا من داخل هذه الشخصية العظيمة عن بعض الملامح التى دفعتها إلى الصدارة وزجت بها نحو القمة.

وسنبدأ ببعض الخطوط التاريخية التى توصلنا إلى المحتوى الصوفى .

ذكر الإمام السلمى فى طبقاته أنه : خراسانى من ناحية « مرو » - مدينة بفارس- بقرية يقال لها فندين ونشأ بأبيورد من بلاد التركستان . قال الفضيل: ولدت بسمرقند ونشأت بأبيورد، ورأيت بسمرقند عشرة آلاف جوزة بدرهم [(١)].

وقال ابنه أبو عبيدة : (أبى فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر. يكنى بأبى على من بنى تميم من بنى يربوع. من أنفسهم. ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد. والأصل من الكوفة ومات فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة بمكة ..) [(٢)] أ هـ.

وقد ذكر الإمام المناوى أن الإمام الفضيل قد مات عن نحو ثمانين عاماً فتكون ولادته حوالى سنة سبع ومائة هجرية أو خمس ومائة على ما ذكر فى بعض الروايات. [(٣)]

ولقد كانت حياة الإمام الفضيل - شأنها شأن غيرها من حياة الصوفية بصفة عامة- مكتنفة فى تفاصيلها التاريخية الجزئية بقدر كبير من الخفاء .

بيد أن الجوانب الموضوعية التى ينشدها الباحث والتى هى مناط التأسى ومحور الانطلاق الروحى نستطيع التعرف عليها بوضوح وتكوين صورة حية نرى من خلالها أبعاد هذه الشخصية الفريدة.

وإذا ما أردنا أن نحدد زوايا البحث فى شخصية هذا الإمام العارف لوجدنا أنها تتمثل فى ثلاثة جوانب : هى الجانب العلمى ثم الجانب العملى الذى هو التطبيق للجانب العلمى وأخيراً جانب التحقق والوصول : الذى هو ثمرة للعلم

---

(١) ، (٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى (ص ٦ ، ٨) بتحقيق نور الدين شريبة .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ١ / ٢٧١ .

والعمل. ونعنى به جانب الأحوال والمقامات التى تنتهى بالسالك إلى ذروة الولاية.
فأما عن الجانب العلمى عند سيدى الفضيل رضى الله عنه:

فإنه بتحديد الفترة التى عاش فيها منذ أوائل القرن الثانى الهجرى حتى أواخر العقد الثامن منه نجد أنه قد عاصر كثيرين من أعلام التابعين، ولقد أتاح له ذلك أن يأخذ الحديث عنهم ويكون أحد الرواة الثقات.

فقد ذكر الحافظ أبو نعيم أن الإمام الفضيل أسند الحديث عن أعلام التابعين وعلمائهم: منهم سليمان الأعمش، ومنصور بن المعتمر- أدركا أنس ابن مالك- وعبد الله بن أبى أوفى - رضى الله تعالى عنهم. ومنهم عطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن، ومسلم الأعور، وأبان بن أبى عياش، وكلهم أدركوا أنس بن مالك رضى الله عنه (١).

ثم ذكر أن الإمام الفضيل قد روى عنه كثير من الأعلام والأئمة: منهم الإمام سفيان الثورى- أمير المؤمنين فى الحديث- والإمام سفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى، ويحيى النيسابورى ونظراؤهم (٢).

ثم لقد شهد للإمام الفضيل كثير من أئمة العلماء والحفاظ بمكانته فى العلم والحديث. فهذا هو الإمام المناوى يقول عنه فى طبقاته (وكان من أعاظم أئمة المحدثين، خرج له الجماعة إلا ابن ماجه، وعنه أخذ الشافعى وابن المبارك رضى الله عنهما، وأسند الستة إليه،وخلق ..) (٣).

ثم لقد شهد الحافظ الذهبى بسمو منزلته قائلاً: (كان سيداً عابداً ورعاً زاهداً ، إماماً ربانياً، فقيهاً محدثاً أضاء الدنيا) (٤).

فما ظنك بعالم أخذ عنه الإمام الشافعى والسفيانان وأسند إليه الأئمة الستة

---

(١) ، (٢) انظر حلية الأولياء لابى نعيم ٨ / ١١٤ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

رضوان الله عليهم، وشهد له الذهبى وهو من هو فى النقد لاسيما فى جانب المتصوفة؟؟.

لاشك أن ذلك يعطينا صورة فريدة لهذا العالم الذى شرف العلماء وذلك الصوفى الذى شرف الصوفية.

ولكن الإمام الفضيل لم يقف بالعلم عند حد التحصيل والدراية بل أدرك أن للعلم رسالة سامية لابد من أدائها وهى الدعوة إلى الله التى يتحمل أمانتها العلماء بحكم أنهم ورثة للأنبياء .

فلقد كان رضى الله عنه يقول: (من قرأ القرآن سئل يوم القيامة كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تبليغ الرسالة فإنه وارثهم) [1].

وانطلاقاً من فهم هذه الرسالة على هذا النحو فقد وجه الإمام فضيل كلمته للعلماء، وانتقد فى غير هوادة أولئك الذين انحرفوا بالعلم عن رسالته، فكان يقول : (عالم الآخرة علمه مستور وعالم الدنيا علمه منشور فاتبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتنكم بغروره وزخرفته ودعواه العمل من غير عمل أو العمل من غير صدق) [2]. ولقد رأى الإمام الفضيل أن آفة العالم هى حب الدنيا الذى يميل به عن مقصد العلم ويجعل منه سلعة فى يده لتحقيق أهوائه فينتكس إلى الحضيض، فأطلق كلمته التى دوت فى سمع التاريخ (لو أن أهل العلم زهدوا فى الدنيا لخضعت إليهم رقاب الجبابرة، وانقادت الناس لهم، ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما فى أيديهم فذلوا وهانوا على الناس) [3].

وهذه واقعة لسيدى الفضيل مع سيدى سفيان بن عيينه وهو من هو علماً وفضلاً، يسوقها الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته فيقول : (وجلس إليه سفيان بن عيينه، فقال له الفضيل: كنتم معاشر العلماء سرجاً للبلاد يستضاء بكم فصرتم ظلمة، وكنتم نجوماً يهتدى بكم فصرتم حيرة، أما يستحى أحدكم من الله إذا أتى إلى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو لا يعلم من أين أخذوا ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول : حدثنى فلان عن فلان؟ فطأطأ سفيان رأسه وقال : نستغفر الله ونتوب إليه) [4] !!.

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١ / ٥٩ وحليه الأولياء ٨ / ٩٢ .

ليت شعرى إذا كان مثل الإمام سفيان بن عيينه يُقال له مثل هذا فيستغفر فيكف بمن تبنتهم الدنيا بالكلية وصاروا لها خدّاماً ؟؟.

الا لمثل الفضيل وسفيان شهد التنزيل الحكيم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

ثم ماذا عن الجانب العملى والسلوكى عند الإمام الفضيل ؟.

نبدأ بنقطة التحول التى بدأ سيدى الفضيل منها طريقه إلى الله. ويدهشنا أن نعلم أن الإمام الفضيل لم يبدأ حياته فى رحاب التصوف، وإنما كان فى واد آخر تماماً لم يلبث أن جذبته دواعى الحضرة الإلهية لكى يدخل فى ديوان الصفوة ليصبح إمام الزهاد وقطب العارفين.

وعن نقطة التحول يحدثنا الإمام القشيرى فى رسالته فيقول : (كان الفضيل شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [2] ؟ فقال: يارب قد آن. فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا.

فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرم حتى مات) [3] أ.هـ.

ومن ثم نتبين أن الإمام الفضيل قد حصل له الوصل من بعد القطع، وأنه قد تمثلت فيه قولة بعض الصوفية: (فى لمحة تقع الصلحة)، وفى ذلك أيما دلالة على أن الولاية فى الأصل إنما هى محض اجتباء من الله تعالى ،، وقد تتحقق بلا مقدمات . بل ربما يجذب العبد إلى حظيرة القدس على غرة منه بسابق العناية الأزلية.

---

(١) سورة فاطر / ٢٨ .

(٢) سورة الحديد / ١٦ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود و د / محمود بن الشريف ١ / ٥٧ .

وهكذا تحول الإمام الفضيل بكليته إلى الله تعالى على ظمأ للتقوى وتعطش للوصال . فامتلأ قلبه من الخشية والتعظيم لربه ما لا يحده تصور.

حتى لقد روى صاحب الحلية بسنده أن إبراهيم الأشعث قال (ما رأيت أحداً كان الله فى صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه حتى يرحمه من بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره- يعنى الفضيل) [١] اهـ.

لقد أدرك سيدى الفضيل- رضى الله عنه- أن بالمزاوجة بين العلم والعمل تنصهر الذات فى محراب العبودية لكى تشف الروح وتتصل بالملأ الأعلى ويدخل العبد إلى حضرة مولاه فيأنس وينعم بقربه، ومن ثم فقد ضرب مولانا الفضيل المثل الرائع فى التفانى فى طاعة الله والإقبال عليه كأصدق وأخلص وأبر ما يكون، ولم لا؟ وهو على يقين من أنه عبد والعبد مكلف بخدمة سيده، وعلى قدر عظمة السيد يكون خضوع العبد وتذلله وانقطاعه لسيده.

ومن هنا كان الجهاد الروحى المنقطع النظير عند الإمام الفضيل فيذكر الإمام المناوى فى طبقاته أن سيدى الفضيل (كان إذا صلى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر وربما أمسك لحيته وهو واقف وبكى حتى بل الثرى من العشاء إلى الصباح ويقول : ويحك يا فضيل، كنت فى صباك فاسقاً وصرت فى آخر عمرك مرائياً. والله للمرائى أشد من الفاسق، وكان كثيراً ما يغلب عليه النوم فيصير دائراً فى داره تصدم رأسه الحيطان إلى الصباح ثم ينشد :

وكيف تنام العين وهى قريرة

ولم تدر فى أى المحلين تنزل [٢] اهـ.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٨٤ .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام : ١ / ٢٧٠ .

كما يذكر الإمام السلمى أيضاً أن سيدى الفضيل (كان إذا صلى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر وهو يبكى) !.

لقد كانت الطاعة عند الإمام الفضيل فى القوت والغذاء وهى الدواء والشفاء فلم يدع لحظة من حياته منذ اتصل بالله تضيع هباء ، ولقد سمعه معاصره إسحق ابن إبراهيم الطبرى يقول: (إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك)[1]. إنه منهج الأفذاذ فى الطاعة.

لقد سقطت عنه المشقة فى الطاعة والعبادة لأنهم صاروا يحبونها ويتلذذون بها لأنها تصلهم بمحبوبهم الأعلى، وعين المحب لا تنام !!.

روى الإمام أبو نعيم أن الحسين بن زياد قال: (أخذ فضيل بن عياض بيدى فقال : يا حسين، ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول الرب : من ادعى محبتى إذا جنه الليل نام عنى ؟؟ أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ؟؟ ها أنذا مطّلع على أحبائى إذا جنهم الليل مثلت نفسى بين أعينهم فخاطبونى على المشاهدة وكلمونى على حضورى، فذا أقر أعين أحبائى فى جناتى)[2] !!.

ولقد أيقن الإمام الفضيل أن عليه واجباً هاماً وخطيراً حيال مجتمعه وأمته يتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال كلمته التى ترضى ربه وواجه بها الدنيا بأسرها، وكان يؤمن أن صلاح الرعية معقود بصلاح الراعى ومن ثم كان يقول (لو أن لى دعوة مستجابة ما صيرتها إلا فى الإمام، قيل له : وكيف ذلك يا أبا على؟ قال : متى صيرتها فى نفسى لم تجزنى. ومتى صيرتها فى الإمام فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد ..)[3] !! .

ولقد كان للإمام الفضيل مع هارون الرشيد مواقف ومواقف سجلها التاريخ بمداد من نور. فهى خير شاهد على مجد علماء الإسلام الذين حملوا لواء الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة.

---

(١) (٢) انظر حلية الأولياء ٨ / ٩٦ ، ٩٩ .

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٩٣ .

من تلك المواقف ما رواه صاحب حلية الأولياء بسنده عن يحيى بن يوسف عن الفضيل بن عياض قال : (لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال : أيكم هو ؟ قال فأشاروا إلى أمير المؤمنين.

فقال أنت هو يا حسن الوجه؟ لقد وليت أمراً عظيماً. أنى ما رأيت أحداً هو أحسن وجهاً منك. فإن قدرت ألا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل. فقال لى:" عظنى، فقلت، بماذا أعظك؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين. انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه- وقال - إنى رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ويطلبونها طلباً حثيثاً . أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال عد إلى . فقال : لو لم تبعث إلى لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت منى عدت إليك [1].

وثمة واقعة أخرى للإمام الفضيل مع الرشيد يرويها ابن خلكان قائلاً: حدث سفيان بن عيينة قال: دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه فقال: يا سفيان، وأيهم أمير المؤمنين؟. فقلت هذا وأومات إلى الرشيد فقال له يا حسن الوجه: أنت الذى أمر هذه الأمة فى يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً.

فبكى الرشيد ثم أتى كل رجل منا ببدرة فكل قبلها إلا الفضيل، فقال الرشيد يا أبا على ، إن لم تستحل أخذها فأعطها ذا دين أو أشبع بها جائعاً واكس بها عارياً. فاستعفاه منها فلما خرجنا قلت : يا أبا على، أخطأت. ألا أخذتها وصرفتها فى أبواب البر؟ فأخذ بلحيتى ثم قال يا أبا محمد: أنت فقيه البلد والمنظور وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لى)[2] !!.

(ويحكى أن الرشيد قال له يوماً : ما أزهدك!! فقال له الفضيل أنت أزهد منى قال وكيف ذلك؟ قال: لأنى أزهد فى الدنيا وأنت تزهد فى الآخرة ، و الدنيا فانية والآخرة باقية)[3] !!.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ١٠٥ .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق وإحسان عباس ٤ / ٤٧ - ٤٨ نشر دار صادر .

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد ١ / ٢١٧

لقد كان ثقل المسئولية أمام الله يؤرق الإمام الفضيل فلم يدخر وسعاً فى أداء الأمانة لأهلها وكان ذلك الوعظ والتذكير جزءاً لا يتجزأ من عبادته لله.

ثم لعلنا وقد طوفنا فى آفاق الجانب العملى عند الإمام الفضيل- أن نكون قد استكشفنا بعض ملامح الجانب الثالث وهو جانب التحقق والوصول. وماذا يمكن أن يقال عن إمام كالفضيل .

وقد ارتوى من معين العلم والحكمة حتى بلغ مرتبة الإمامة للأئمة ثم شربت روحه من دنان الطاعة والتبتل حتى صفت واستنارت وتعلقت بالله بلا انقطاع ؟؟.

ليس بعد إلا ثمار الوصل الطيبة، وليس إلا العروج فى آفاق الولاية إلى القمة ومن ثم فقد تربع الإمام الفضيل على عرش الولاية وصار عارفاً ربانياً راسخاً فى العلوم اللدنية كما شهد له بذلك أساطين العلم والولاية.

وناهيك بشهادة سيدى عبد الله بن المبارك - رضى الله عنه - إذ يقول فى الإمام الفضيل : (ما بقى على ظهر الأرض عندى أفضل من الفضيل بن عياض)[1]، ويقول عنه الإمام الغزالى رضى الله عنه (كان الفضيل غصناً مثمراً فى شجرة التقوى).

وفى مقام الخوف من الله ضرب المثل الأعلى فى عصره حتى لقد قال فيه سيدى عبدالله بن المبارك : (إذا مات الفضيل ارتفع الحزن)[2] .

وقال الإمام سفيان بن عيينة : (ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وأبيه)[3] .

وفى مقام الزهد يرتفع الإمام الفضيل فوق الذروة، فقد روى الإمام أبو نعيم عن إبراهيم بن الأشعث قال:سمعت الفضيل بن عياض يقول : (لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على لا أحاسب بها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه)[4] .

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٨ / ٤٢٤ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٨٧ .

(٣)، (٤) انظر حلية الاولياء لابى نعيم ٨ / ٨٥ ، ٨٩ .

لقد أشرب قلبه الإخلاص لله فى كل شىء وقصرت رغبته على الله وحده، وها هو ذا يصور إخلاصه فى الإيمان بقوله: (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يبالى من أكل الدنيا وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله عز وجل).

ومعنى عده البلاء نعمة أنه تكفير عن الخطايا ورفع فى الدرجات، واعتبار الرخاء مصيبة من حيث إنه ابتلاء شاق للعبد فيما فوضه الله فيه وهو محاسبه عليه لا محالة.

إن الإخلاص والصدق متلازمان، ومن ثم حرص عليهما الإمام الفضيل أيما حرص إنه يقول : (ما تزين العباد بشىء أفضل من الصدق. إن الله يسأل الصادقين عن صدقهم فكيف بالكاذبين)!!.

ثم يتجلى صدق إيمان الإمام الفضيل فى شدة محبته للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولآل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فهو يقول : (إذا نظرت إلى رجل من أصحاب أهل البيت كأنى نظرت إلى رجل أصحاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وأيضاً فهو يندد بأصحاب الأهواء والبدع ومن ينتقصون أحداً من صحابة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيقول : (إنى أحب من أحبهم الله وهم الذين يسلم منهم أصحاب محمد - صلى لله عليه وعلى آله وسلم -، وأبغض من أبغضه الله وهم أصحاب الأهواء والبدع).

وفى مقام المحبة نجد الإمام غارقاً فى بحارها ثملا من كرمها ولقد عبر عن حقيقة المحبة لله تعالى بعبارة تذوب لها شغاف القلوب إذ يقول : (حقيقة المحبة إيثار المحبوب على الكونين فى القرب والبعد)[2] وقال: (إذا أحب الله عبداً أسكن محبته فى قلوب خلقه).

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٩٦ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١ / ٢٧١ .

وأما مقام الرضا: فقد بلغ فيه الإمام الفضيل منزلة لا تسامى، ذكر ابن خلكان أن أبا على الرازى قال : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه على فقلت له فى ذلك فقال : (إن الله أحب أمراً فأحببت ذلك الأمر وكان ولده المذكور شاباً ثرياً من كبار الصالحين وهو معدود فى جملة من قتلهم محبة البارى سبحانه وتعالى ....)[1].

من خلال ذلك كله يتضح جلياً أن الإمام الفضيل قد تحقق بأعلى مقامات الولاية، وأنه قد صار ربانياً من خواص الحق تعالى وأوليائه المقربين.

وهذه واقعة تصور تمكنه فى الولاية يرويها الإمام أبو نعيم بسنده عن مليح ابن وكيع قال سمعتهم يقولون خرجنا من مكة فى طلب فضيل بن عياض إلى رأس الجبل : فقرأنا القرآن. فإذا هو قد خرج علينا فى شعب لم نره فقال لنا : أخرجتمونى من منزلى ومنعتمونى الصلاة والطواف. أما إنكم لو أطعتم الله ثم شئتم أن تزول الجبال معكم لزالت. ثم دق الجبل بيده فرأينا الجبال - أو الجبل اهتزت وتحركت)[*].

حقيقة أنه من جنود الحق الذين لهم ما يشاءون عند ربهم وإنه لحجة الله على خلقه[2].

ولقد ذكر الإمام المناوى أن ابن عساكر أخرج عن بعض المكيين: (رأيت سعد بن سالم القداح فى النوم فقلت : من أفضل من فى هذه المقبرة ؟.

قال صاحب ذاك القبر. قلت : بم فضلهم؟ قال : ابتلى فصبر. قلت: ما فعل فضيل؟ قال : هيهات كُسِىَ حلة لا تقوم لها الدنيا بحواشيها)[3].

رضى الله عنك يا مولانا الفضيل وأمدنا بمددك والحقنا بركابك فى زمرة العلماء العاملين والأولياء المقربين بجاه الرسول الكريم - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين دائماً أبداً إلى يوم الدين.

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ٤٩ .

★ انظر نحو هذه الكرامة فى الرسالة القشيرية ٢ / ٦٨٧ .

(٢) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبى ٨ / ٤٢٥ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للامام المناوى / ٢٧٢ .

« ١١ »

الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه

نال الصفوة من عباد الرحمن من المولى عز وجل خلعة الرضوان، ومنحوا منشور الولاية بسابق العناية، إذ ألقى الحق تعالى عليهم محبة منه فهاموا فى بحار محبته، وأفاض عليهم من لدنه علماً فعرفوا آداب عبوديته، فاستبقوا الخيرات، واغتنموا النفحات، وارتقوا إلى أعلى الدرجات، - رضى الله عنهم وعنا بهم ومعهم،- وأفاء علينا من بركاتهم فى الدنيا ويوم لا ظل إلا ظله.

من أولئك الذين تسنَّموا ذروة المعرفة والتحقيق، وكشفوا بنور علمهم ومعرفتهم معالم الطريق، وقادوا مواكب النور على درب النور إلى النور المطلق والرضوان المحقق: إمام العلماء وعَلَم الأولياء ، وكوكب الزهاد والأتقياء سيدى الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالى الكوفى رضى الله تعالى عنه وعنا به .

هو أحد أعلام أتباع التابعين لسيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وهو أحد أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

الذين كانوا بحاراً زاخرة فى العلم ومثلاً علياً فى تطبيق مثاليات الإسلام ومبادئه التى قهرت أعداءه، وصمدت على مر الزمن تعلن معجزة نبى فى صنع أمة، وشموخ أمة فى تمثلها لنهج رسولها - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ذلك النهج الصوفى الرفيع الذى يجعل العبد ربانياً بكل ما فى هذا الوصف من روعة وجلال .

من هنا كان التصوف بحق هو التطبيق المثالى لروح الإسلام شريعة ومنهاجاً، وكان أعلام الصوفية الأولياء على مر الحقب وامتداد الزمن سرجاً مضيئة تقود قوافل السائرين إلى رحاب الحقيقة.

وسيدى سفيان بن عيينة كان من أولئك الأعلام الشامخين والعلماء الربانيين والأولياء العارفين.

ترجم له الإمام أبو نعيم الأصبهانى فى (حلية الأولياء) قائلاً : « ومنهم الإمام الأمين ذو العقل الرصين، والرأى الراجح المكين، المستنبط للمعانى ، والمرتبط للمبانى أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالى. كان عالماً ناقداً، وزاهداً عابداً، علمه مشهور، وزهده معمور» (١).

وذكره ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) قائلاً: « أبو محمد سفيان بن عيينة ابن أبى عمران ميمون الهلالى مولى امرأة من بنى هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وقيل : مولى بنى هاشم، وقيل مولى الضحاك بن مزاحم، وقيل مولى مسعر ابن كدام، وأصله من الكوفة، وقيل ولد بالكوفة ونقله أبوه إلى مكة.

ذكره ابن سعد فى كتاب الطبقات وعده فى الطبقة الخامسة من أهل مكة»(٢). وقد ذكر الإمام العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته أن سيدى سفيان قد (ولد بالكوفة سنة سبع ومائة وسكن مكة وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائة ودفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة رضى الله عنه) (٣).

وحين نحاول التعرف على الجانب العلمى عند سيدى سفيان فإننا بلا شك لن نستطيع فى تلك الصفحات القلائل أن نعطى لهذا الجانب حقه ، ولا بعض حقه ، ولكننا تبعاً لما التزمناه غالباً فى تلك السلسلة من إلقاء بعض الضوء على الصورة العلمية قبل التعرف على الصورة العملية : سنأخذ قدراً من هذا الجانب قبل ذاك.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/٢٧٠ .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٣٩١.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/٤٩.

أما عن الصورة التى نقلها العلماء والمؤرخون لسيدى سفيان العالم فإنها تضعه فى صدارة أفذاذ الأمة وأساطين علمائها الراسخين وأئمة فقهائها ومحدثيها الأثبات المحققين. وحينما نتتبع هذه الصورة من بدايتها سوف ندهش بحق لهذا النبوغ العلمى المبكر الذى حظى به سيدى سفيان .

يقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى مستهل ترجمة الإمام ابن عيينة: «حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين » !!.

وقد نقل هذه العبارة الإمام المناوى فى طبقاته وأتبعها بقوله : « ثم برع حتى صار أوحد زمانه علماً وزهداً وورعاً، قال فى الربيع : كان يحضر مجلسه مائة ألف، وكان يقول: أنا لكم مثل جبل أبى قبيس، اصعدوا على واطلعوا على التابعين، وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل »(1) !! .

وقد شهد بسمو منزلة هذا الإمام علمياً أكابر أئمة الأمة وأعيان علمائها فلقد ذكر صاحب شذرات الذهب أن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال : « لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز) (2) .

وذكر صاحب (وفيات الأعيان) أن إمامنا الشافعى رضى الله عنه قال : (ما رأيت أحداً فيه من آلة الفتيا ما فى سفيان - أى ابن عيينة- وما رأيت أكف منه عن الفتيا) (3).

وذكر صاحب الشذرات أيضاً أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال : (ما رأيت أعلم بالسنن من ابن عيينة) (4) ولا ريب أن هذه الشهادة فى علم السنة من إمام السنة أحمد بن حنبل تعطينا مدى شموخ سيدى سفيان فى علم الحديث.

---

(1) انظر أولاً · الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤٨/١ ثم الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢١٦/١.

(2) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٤/١.

(3) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٢/٢ والمصدر السابق ٣٥٥/١.

(4) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٤/١.

وقد وصفه صاحب الوفيات أيضاً بأنه : (كان إماماً عالماً ثبتاً زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته).

ويضيف صاحب الشذرات أيضاً فيما يتعلق بعلم سيدى سفيان بالحديث الشريف أن أحمد العجلى قال : (كان حديثه نحواً من سبعة آلاف حديث لم يكن له كتب)[1].

وقد لقى سيدى سفيان الكثير من أعلام التابعين وأخذ عنهم مدداً فياضاً من العلم والحديث الشريف والفقه وغير ذلك.

فيقول الحافظ أبو نعيم فى الحلية : « أسند سفيان بن عيينة عن الجماهير من التابعين.أدرك ستة وثمانين نفساً من أعلام التابعين وأركانهم كعمرو بن دينار، والزهرى، ومحمد بن المنكدر، وعبدالله بن دينار، وزيد بن أسلم، وأبى حازم، ويحيى بن سعيد الأنصارى..

ومن الكوفيين: أبو إسحق، وعبدالملك بن عمير، والشيبانى، والأعمش، ومنصور، وإسماعيل ابن أبى خالد..

ومن البصريين : أيوب، وسليمان التيمى، وداود بن أبى هند، وعلى بن زيد ابن جدعان، وحميد الطويل.

وحدث عنه من الأئمة، سفيان الثورى، وشعبة بن الحجاج، والأعمش، والأوزاعى»[2] .

وقد روى الحافظ أبو نعيم من إسناد سيدى سفيان قرابة خمسين حديثاً فى الحلية. نذكر منها- تبركاً- هذا الحديث الشريف المتفق عليه الذى رواه سيدى سفيان عن محمد بن المكندر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم : دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً - أو داراً-

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٤/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٠٧/٧ ، ٣٠٩ والحديث المذكور متفق عليه.

فسمعت فيها ضوضاء فقلت : لمن هذا ؟ فقيل لرجل من قريش، فرجوت أن أكون هو، فقيل : لعمر بن الخطاب، فلولا غيرتك يا أبا حفص لدخلته. فبكى عمر وقال : أيغار عليك يا رسول الله ؟! » [١].

وقد كان علم سيدى سفيان المأخوذ عن التابعين محل تقدير الأئمة وهو الذى حدا بهم أن يقدموه للفتيا وهو فى ريعان شبابه، يذكر ابن خلكان أن سيدى سفيان قال : « دخلت الكوفة ولم يتم لى عشرون سنة فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار، قال فجاء الناس يسألوننى عن عمرو بن دينار.

فأول من صيرنى محدثاً أبو حنيفة، فذاكرته فقال لى : يابنى، ما سمعت من عمرو إلا ثلاثة أحاديث، يضطرب فى حفظ تلك الأحاديث» [٢].

وأما علم سيدى سفيان بتفسير القرآن الكريم : فقد كان آية عصره، يذكر صاحب الشذرات أن ابن وهب قال :(لا أعلم أحداً أعلم بالتفسير من ابن عيينة) [٣].

وقد روى الإمام أبو نعيم فى مناقبه بضع إشارات مضيئة وتفسيرات بديعة لبعض آيات التنزيل الحكيم مروية عن الإمام ابن عيينة.

منها قوله فى قوله تعالى: « أنزل الله من السماء ماء فسالت أودية بقدرها »[٤] إلخ: - أنزل من السماء قرآناً فاحتمله الرجال بعقولها. « فأما الزبد فيذهب جفاء » قال : وهو قول أهل البدع والأهواء. « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » قال : وهو الحلال والحرام - أى علمهما -[٥] اهـ.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٠٧/٧ ، ٣٠٩ والحديث المذكور متفق عليه.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٣/٢.

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٤/١.

(٤) سورة الرعد / ١٧.

(٥) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٧٧/٧.

وقال فى قوله تعالى : « ولدينا مزيد »(١) ليس تكاد أبصارهم تسمو إلى شىء مما هم فيه حتى يفتح لهم شىء يقال له المزيد . فإذا فتح ذلك جاء شىء بالذى كانوا فيه فيشرف عليهم فينادونه فيقولون: من أنت ؟ فيقول : أنا من الذين قال الله: « ولدينا مزيد »(٢) .

ويروى صاحب الحلية بسنده عن أبى بكر الأصلى قال : (وقف فضيل بن عياض على رأس سفيان بن عيينة وحوله جماعة فقال له، يا أبا محمد ، « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فيلفرحوا هو خير مما يجمعون » فقال له سفيان : يا أبا على ، والله لا يفرح أبداً حتى يأخذ دواء القرآن فيضعه على داء قلبه (٣) !!.

وسئل سيدى سفيان عن قوله تعالى: « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون».

فقال : (أنزل الله عليه القرآن بمكارم الأخلاق فهم الذين كانوا يشرفون بها ويفضل بعضهم بعضاً بها من حسن الجوار ووفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة. فقال : إنما جاء محمد - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - بمكارم أخلاقكم التى كنتم بها تشرفون وتعظمون. انظروا هل جاء بشىء مما كنتم تعيبون من الأخلاق القبيحة التى كنتم تعيبونها فلم يقبح القبيح ولم يحسن الحسن؟؟.

وقال الحسن بن أبى الحسن: أمسك عليكم دينكم أخلاق القرآن.

وقال مجاهد: « ورفعنا لك ذكرك» قال : لا أُذكر إلا ذُكِرت معى . أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) (٤) اهـ.

---

(١) سورة (ق) / ٣٥.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٧٥/٧ .

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٧٨/٧ - ٢٧٩ .

(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٩١/٧ - ٢٩٢ .

والمتصفح للجانب العلمى عند سيدى سفيان يجد أنه كان يقدس العلم ويقدر له مسئوليته التى عبر عنها بقوله رضى الله عنه : « من قرأ القرآن يسأل عما يسأل عنه الأنبياء عليهم السلام إلا تبليغ الرسالة! وكان يقول فى طالب علم الحديث الشريف: ؟ « من طلب الحديث فقد بايع الله »[1].

وروى صاحب الحلية عنه أنه كان يقول : « لو أن رجلاً استقبل القبلة ثم ذكر الحديث لرجوت ألا يقوم حتى يغفر له »[2].

ولكن مسئولية العالم إلى جانب فضل العلم جسيمة أيضاً كما مر آنفاً حتى لقد حدث سيدى سفيان عن سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنهما أنه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب»[3] !!.

إنها المسئولية تسير جنباً إلى جنب مع المنزلة التى يكون فيها العبد. وقد كان سيدى سفيان يقدر مسئوليته كعالم وكمؤمن . حتى أنه مع درجته السامقة فى العلم والتى أشرنا إليها لم يكن يجيب عن كل سؤال يوجه إليه إلا إذا تيقن من علمه بالإجابة.

يقول على المدينى : (كان سفيان إذا سئل عن شيء - لا يعرف إجابته - يقول: لا أحسن. فيقول : من يسأل ؟ فيقول سل العلماء وسل الله التوفيق)[4] وتعليلاً لذلك يروى أن سيدى سفيان كان يقول : -

(إذا ترك العالم لا أدرى أصيبت مقاتله) !! هذا عن مسئولية العالم بالنسبة للوثوق من علمه نجد سيدى سفيان يجزل له تقديره.

ثم نجد محور الارتكاز الذى يعطى الإمام سفيان له كل الاهتمام هو التلازم بين العلم والعمل ووجوب تطبيق هذا التلازم والقيام بحق العلم فى العمل به وفى

(١) المصدر نفسه لأبى نعيم ٧ / ٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه لأبى نعيم ٧ / ٢٨٠.

(٣) انظر حلية الأولياء /١٥٧.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ٨ / ٤٦٨.

ذلك يقول عليه الرضوان : (إنما أرباب العلم هم أهله الذين يعملون به) [1] وكان يضع مراتب العلم الصحيح النافع هكذا كما قال : (أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر). ومن أقواله فى هذا الصدد: (قال بعض الفقهاء : كان يقال : العلماء ثلاثة عالم بالله وعالم بأمر الله وعالم بالله وبأمر الله. فأما العالم بأمر الله- أى مجرد العلم النظرى - فهو الذى يعلم السنة ولا يخاف الله. وأما العالم بالله فهو الذى يخاف الله ولا يعلم السنة- أى علماً كسبياً- وأما العالم بالله وبأمر الله فهو الذى يعلم السنة ويخاف الله، فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السموات) [2] وكان رضى الله عنه يقول : (ما عليك أضر من علم لا تعمل به) [3] ! من أجل ذلك حرص سيدى سفيان كل الحرص على أن يعمل بما علم ومع ذروة الإخلاص.

ولا نجد فى هذا المضمار أدق من وصف الإمام المناوى السابق له : (وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل) !! وفى هذا الربط والملازمة بين العلم والعمل تكمن صوفية الإمام سفيان فى أروع صورها.

ومن خلال هذا الربط ننتقل إلى الجانب الصوفى عند العارف بالله سيدى سفيان بن عيينة. لقد كان ثمة سؤال يؤرقه منذ بدء اشتغاله بالعلم وهو سؤال ينطوى على اتهامه نفسه بالتفريط فى جنب الله وتحفز دائب للعبادة والخدمة.

كان يردد هذا التساؤل: (إذا كان نهارى نهار سفيه، وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذى كتبت) [4] ؟؟.

ومن ثم هرع إلى محراب الطاعة، وأخذ نفسه ليحررها من أنيتها فى مظهر الجهاد النفسى على النهج المحمدى الوضاء.

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٢٧١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٢٨٠.

(٣) انظر طبقات الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ٤٩.

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ٤٨.

فانغمس سيدى سفيان فى محيط القيادة بمظاهرها المتنوعة من صيام وقيام وحج وجهاد وذكر لا ينقطع.

فما أن يسدل الليل ستوره، ويخلد الخلق إلى الراحة حتى يهرع سيدى سفيان إلى محرابه مستغرقاً فى صلاة تحمل كل معانى الصلة بالله تعالى ثم يروى الرواة أنه ما إن يفرغ من صلاته حتى يدعو مولاه عز وجل قائلاً: (اللهم اغفر لى ما كان فيها)[١].

وكان يهيب بأهل عصره أن يحضروا للصلاة من قبل أن يؤذن المؤذن لوقتها فيقول: (ائتوا للصلاة قبل النداء ولا تكونوا كالعبد السوء لا يأتى للصلاة حتى يدعى إليها)[٢]. وكان رضى الله عنه يكثر من الذكر الأكبر وهو تلاوة القرآن الكريم متمثلاً بقول سيدنا عثمان رضى الله عنه وعنا به : (إنّ قلوبَنا طَهُرَتْ ما شبعت من كلام الله)[٣]. وبقوله عليه الرضوان: (ما أحب أن يأتى على يوم ولا ليلة إلا أنظر فى كلام الله فى المصحف)[٤] . وأما عن عبادة الحج فيذكر ابن خلكان فى الوفيات أن سيدى سفيان بن عيينة قد حج سبعين حجة[٥] !!.

وأما فى ميدان الجهاد فيروى صاحب الحلية بسنده عن سيدى سفيان أنه كان يقول : (شهدت ثمانين موقفاً)[٦].

ثم انتقل سيدى سفيان إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس الذى قال فيه : (الجهاد عشرة أجزاء : جهاد العدو جزء، وجهاد النفس تسعة أجزاء)[٧].

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٨٢/٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤٩/١.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ .

(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ .

(٥) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٢/٢ وانظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٤/١ - ٣٥٥.

(٦) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧ / ٢٨٩.

(٧) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٨٤ .

وفى مطهر الجهاد الأكبر ألقى سيدى سفيان بنفسه فى الخضم ليصهر معدنها فتتجاب عنها الغشاوات المظلمة وتنمحى أدرانها القاتمة ليصفو نضارها وتتألق أنوارها.

أدرك سيدى سفيان أن لا سبيل لكسب الآخرة إلا بالزهد فى الدنيا.

فقد روى الحافظ أبو نعيم أن سيدى سفيان قد روى عن حصين عن سالم ابن أبى الجعد أن سيدنا عمر رضى الله عنه استعمل النعمان بن مقرن على (كسكر) فكتب إليه النعمان : يا أمير المؤمنين، اعزلنى عن كسكر وابعثنى فى بعض جيوش المسلمين فإنما مثل كسكر مثل مومسة بنى إسرائيل، تعطر وتزين فى اليوم مرتين! فكان عمر إذا ذكر النعمان بن مقرن بعد موته قال : يا لهف نفسى على النعمان [1] !!

وأدرك سيدى سفيان أن صحة العبادة لا تتحقق إلا بأمور ثلاثة، فقد روى صاحب الحلية أنه قال : (لا تصلح عبادة إلا بزهد، ولا يصلح زهد إلا بفقه، ولا يصلح فقه إلا بصبر) [2].

فأيقن بحتمية توافر هذه الأمور فيه ومن ثم وصل فى الزهد إلى قمته.

يروى صاحب الحلية أن حرملة بن يحيى قال : (أخذ سفيان بن عيينة بيدى فأقامنى فى ناحية، وأخرج من كمه رغيف شعير وقال لى : دع يا حرملة ما يقوله الناس هذا طعامى منذ ستين سنة) [3] !! .

ويتساءل بعض أدعياء العلم من متحذلقى العصر، ولماذا يحرم الإنسان نفسه من طيبات الرزق ويلزم نفسه هذا التقشف المضنى ؟ أفى الإسلام مشروعية لهذا السلوك ؟ ونقول لهؤلاء القابعين فى رق نفوسهم: أما لديكم من مفهوم لطيبات الرزق غير مشتهيات البطن ورغائب الحس؟ كيف وقد ندد القرآن الكريم بالكفار

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٣٠٢ . ·

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٧٣ .

قائلاً : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) [١] ووصف الكفار بأبشع وصف إذ قال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» [٢].

يا قوم : إن طيبات الرزق هى الحلالات المباحة ولو كانت كسرة من خبز يابس وليست كل ما تهفو إليه المعدة !.

لقد ذكر الواحدى وغيره من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » [٣] والمعنى : كلوا من الحلال.

وهذا التقشف الذى يسلكه الصوفية فإنه وإن أضنى النفس فى أول ممارسته فإنه مطفئ لنار الشهوة المتأججة التى تأكل دين الرجل وعفته.

ثم هو مضىء لسراج الروح الذى أطفأته رياح المعاصى والغفلات . وصلى الله على سيدنا محمد الذى كان يمر الشهر والشهران فلا يوجد فى بيته إلا الأسودان التمر والماء. وما أروع ما قاله سيدى سفيان بن عيينة :

(من أعطى القرآن فمد عينيه إلى شىء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم تسمع قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » [٤] يعنى القرآن » [٥].

وللزهد عند سيدى سفيان مفاهيم متعددة تتلاقى فى جوهرها وإن تعددت وجهة النظر إليها. فتارة يعرفه بقوله : (الزهد فى الدنيا الصبر وارتقاب الموت) [٦]

---

(١) سورة الأحقاف / ٢٠.

(٢) سورة سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم /١٢.

(٣) سورة (المؤمنون) : ٥١ .

(٤) سورة (طه) صلى الله عليه وسلم / ١٣١ .

(٥) انظر الحلية لأبى نعيم : ٣٠٣/٧.

(٦) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٧٢/٧.

وهنا نلاحظ أن ترقب الموت مدعاة للزهد فى الدنيا، والصبر عون على الزهد وأداة له .

وتارة أخرى يعرفه بأنه الصبر والشكر، إذ يروى صاحب الحلية أن سيدى أحمد بن أبى الحوارى قال : (قلت لسفيان : يا أبا محمد ، أى شىء الزهد فى الدنيا قال : من إذا أنعم الله عليه بنعمة فشكرها وابتلى ببلية فصبر فذلك الزهد. قلت له : يا أبا محمد فإن أنعم الله عليه بنعمة فشكر وابتلى فصبر وهو ممسك للدنيا كيف يكون زاهداً ؟ قال : اسكت فمن لم تمنعه البلوى من الصبر والنعمة من الشكر فذلك الزاهد) [(١)] ولكن ما هو الشكر الذى يعد زهداً مع وجود النعمة؟ إنه الطاعة وعدم المعصية بالكلية. إذ يروى الإمام المناوى أن سيدى سفيان قال :

(ما شكر الله عبد استعان بنعمته على معصيته).

وأما الصبر فيجعله سيدى سفيان رأس الأمر. يقول الإمام القشيرى فى رسالته: (وقال ابن عيينة فى معنى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ [(٢)] قال : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء [(٣)]).

وبنظرة فاحصة وعميقة نجد أن مفهوم الصبر داخل فى مفهوم الشكر على ضوء ما ورد من كلام سيدى سفيان.

فحيث إن الشكر هو عدم الاستعانة بالنعمة على المعصية وذلك بالقطع يستلزم الصبر على الطاعة وعن المعصية مع توافر دواعى المعصية وصوارف الطاعة وهى النعم كان الصبر جزءاً جوهرياً من مدلول الشكر.

ولذا نجد سيدى سفيان يفضل الشكر مع العافية على الصبر، يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن عمر بن السكن قال : (كنت عند سفيان بن عيينة فقام إليه رجل

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٧/٢٧٣.

(٢) سورة السجدة / ٢٤.

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١ / ٤٠٢ - ٤٠٤ .

من أهل بغداد فقال : يا محمد أخبرنى عن قول مطرف : لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر. أهو أحب إليك أم قول أخيه: اللهم رضيت بنفسى ما رضيت لى ؟ قال: فسكت سكتة ثم قال : قول مطرف أحب إلى . فقال الرجل كيف وقد رضى هذا لنفسه ما رضيه الله له ؟ فقال سفيان : إنى قرأت القرآن فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التى كان فيها نعم (العبد إنه أواب) ووجدت صفة أيوب مع البلاء الذى كان فيه « نعم العبد إنه أواب » فاستوت الصفتان وهذا معافى وهذا مبتلى . فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر . فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب إلىّ من البلاء مع الصبر)[1] ا.هـ.

ثم نطل على جانب آخر من صوفية سيدى سفيان وهو ارتقاب الموت والتأهب للآخرة. يروى مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى سفيان بن عيينة كتب إلى أخ له : أما آن لك يا أخى أن تستوحش من الناس ؟ لقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جَنَّ عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدة تأهبه للموت)[2] !!.

وروى صاحب الحلية أنه كان يقول : (كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة ولم تزل، وكأنك بآخر من يموت وقد مات !!).

ألا هل ليت شعرى هل تصغى إلى تلك المفاهيم أفئدة مسلمى القرن الرابع عشر الهجرى الذين لا يخطر الموت ببال أحدهم ويظل طوال عمره يرتع فى وادى الغفلة بين لهو الحياة الدنيا ولعبها حتى يذكره الموت بنفسه لحظة انقضاء أجله ؟؟؟.

تالله لو استشعر معنى الموت تاجر لما غش فى تجارته، أو موظف لمافرط فى أمانة وظيفته، أو شاب لما أضاع شبابه فى إرضاء غريزته أو فى إماتة رجولته، أو أى مسلم لتفانى فى عبادة ربه وفى نفع أمته. إن فى ارتقاب الموت معنى الحياة لمن عرف حق الحياة!.

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٨٣.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١ / ٤٨.

ولقد كان سيدى سفيان من شدة تأهبه للآخرة دائم الحزن والخوف من الله عز وجل، وكان يرى الحزن والخوف رحمة ، إذ يروى سيدى أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه أن سيدى سفيان قال : (لو أن محزوناً بكى فى أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه) [١].

ويروى الإمام أبو نعيم أنه قال : (خلقت النار رحمة يخوف الله بها عباده لينتهوا) [٢] وكان يستدر من نفسه الحزن على التفريط فيقول : (واحزناه على أن لا أحزن).

ولقد روى صاحب الحلية أن سيدى منصور بن عمار قال : (تكلمت فى مجلس فيه سفيان بن عيينة، وفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك. فأما سفيان ابن عيينة فتغرغرت عيناه ثم نشفتا من الدموع. وأما ابن المبارك فسالت دموعه، وأما الفضيل فانتحب. فلما قام الفضيل وابن المبارك قلت لسفيان: ما منعك أن يجىء منك ما جاء من صاحبك ؟ قال : هذا أكمد للحزن، إن الدمعة إذا خرجت استراح القلب) [٣] !!.

ثم مع هذا الحزن والخوف كانت قمة الرجاء عند سيدى سفيان وقمة حسن الظن بالله عز وجل. ولم لا وقد روى أنه قال : (صلى محمد بن المكندر على رجل فقيل له : تصلى على فلان ؟ فقال : إنى أستحى من الله أن يعلم منى أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه) !!.

بل لقد تحقق سيدى سفيان بما فوق مقام الرجاء وهو مقام الرضا إذ يروى الإمام أبو نعيم عن أبى عبد الله الرازى أنه قال : (قال لى سفيان بن عيينة : يا أبا عبد الله، عليك بالنصح لله فى خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه. ألا لا تأنس بمراد

---

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١/ ٣٢٩.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٧/ ٢٧٥.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٧/ ٣٠٢.

هؤلاء. فلو نـادى مناد من السـمـاء أن الناس كلهم يدخلون الجنة وأنا وحـدى أدخل النار لكنت بذلك راضياً) [1].

إذن فمن أى شىء كان يخاف سيدى سفيان ويرجو ؟؟.

إنه لم يخف إلا الله وليست النار أو أى شىء سوى الله، وأنه لم يرج إلا الله وليست الجنة أو أى شىء سوى الله. فتلك عبادة خواص الرحمن الذين تحرروا من رق السوى وأفردوا عبوديتهم له وحده !!.

لقد كان سيدى سفيان من أبرز الدعاة إلى الإخلاص لله وترك الطمع فيما سواه ولقد عبر عن صعوبة الترقى إلى هذا المقام فقال : (خصلتان يعسر علاجهما : ترك الطمع فيما بأيدى الناس وإخلاص العمل لله) ولكنه هو قد تغلب على ذلك العسر منذ أول قدم فصار عبداً ربانياً قد أفنى مراده فى مراد سيده، وذلك هو منطق المحبة الصادقة لله. تلك المحبة التى سرت فى دمه وملكت أنفاسه وخواطره حتى كان داعية من دعاة المحبة لله وفى الله عن صدق وتحقق.

يروى صاحب الحلية أن سيدى أحمد بن أبى الحوارى قال : (سمعت سفيان ابن عيينة يقول : لا تبلغوا ذروة هذا الأمر إلا حتى لا يكون شىء أحب إليكم من الله، ومن أحب القرآن فقد أحب الله. افقهوا ما يقال لكم) [2].

ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره. لذا نجد سيدى سفيان مستغرقاً دائماً فى الذكر سراً وجهراً وكان يعبر عن شعوره أصدق تعبير وهو يقول - فيما رواه صاحب الحلية . (ما تنعم متنعم بمثل ذكر الله) ولقد وصل سيدى سفيان بالمحبة والعبادة إلى المعرفة الحقة.

وكان له لسان فى الحقائق واللدنيات والحكم الإلهامية والمكاشفات ما يضيق عنه ذلك المقام ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله.

كان رضى الله عنه يقول فى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله فى الآخرة بمنزلة

---

(١) ، (٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٧٨ .

الماء فى الدنيا لا يحيا شىء فى الدنيا إلا على الماء) قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ﴾ (١) فلا إله إلا الله بمنزلة الماء فى الدنيا، من لم تكن معه لا إله إلا الله فهو ميت ومن كانت معه لا إله إلا الله فهو حى (٢).

ويذكر الإمام أبو نعيم - رضى الله عنه - عن رواية تحث على التخلق بأخلاق الله تعالى تلقاها العارف سيدى سفيان من سيدنا الخضر عليه السلام أو بعض الأبدال.

إذ يروى عن سيدى سفيان أنه قال : « بينما أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مشرف على الناس حسن الشيب. فقلنا بعضنا لبعض. ما أشبه هذاالرجل أن يكون من أهل العلم ! قال : فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين ولما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا؟ قال: قال ربكم: أنا الملك أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً.

ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحى الذى لا يموت أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتُون.

ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله . قال : قال ربكم : أنا الذى إذا أردت شيئاً كان. أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم .

قال ابن عيينة، ثم ذهب فلم نره فلقيت سفيان الثورى فأخبرته بذلك فقال: ما أشبه أن يكون هذا الخضر. أو بعض هؤلاء - يعنى الإبدال -)(٣) ا.هـ.

وهذه الواقعة بلا شك تنطوى على عدة كرامات:

---

(١) سورة الأنبياء / ٣٠ .

(٢) انظر : الحلية لأبى نعيم ٢٧٢/٧.

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٣٠٣ .

منها : التقاء الإمام سفيان ابن عيينة بسيدنا الخضر عليه السلام . أو ببعض أبدال الأولياء الذين يظهر أحدهم فى عدة أماكن مختلفة فى وقت واحد.

ثم منها تحديث سيدنا الخضر أو ذلك البدل عن الله تعالى إلهاماً وتلك مرتبة التحديث التى قال عنها مولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، (قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى منهم فعمر منهم) [1] وهذه الكرامات إكرامات من الله تعالى للمخلصين من عباده.

وقد ظل أناس من الجاحدين والمعاندين ينفون تلك الكرامات عن الأولياء برغم ثبوتها فى الكتاب والسنة ولا يزالون يمارون فى ثبوتها فى الوقت الذى تطالعنا فيه الصحف الآن بما يرويه بعض الكتاب من خوارق للعادة فى غير الجو الإسلامى.

رضى الله عن أوليائه المكرمين ورضى عنك يا إمام العلماء الأولياء يا سيدى سفيان بن عيينة وعنا بك، وحشرنا فى زمرتك وجعلنا من خواص أحبابك دنيا وأخرى آمين.



(١) رواه البخارى والإمام احمد عن سيدنا أبى هريرة ، كما رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن السيدة عائشة رضى الله عنها . انظر الفتح الكبير للنبهانى ٢٩٨/٢.

«١٢»

سيدى معروف الكرخى رضى الله عنه

كما تشرق الشمس بعد ظلمة الليل بالسنا الوضاء لتغمر آفاق الكون بالضياء يشرق نور المعرفة فى قلب الولى بعد انقشاع الحجب التى كانت تحول بينه وبين مصدر الإشراق. فإذا بجوهر العبد يتحول من إنيته الترابية إلى روح نيرة شفافة متصلة بالله عز وجل،وإذا بتلك الروح تصفو وتترقى فى معاريج الصفاء فى رحلة النور إلى منتهى الغايات ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(١).

وممن انتهت غاياتهم إلى الله تعالى وشربت أرواحهم من معين الحب الإلهى الإمام العارف : سيدى أبو محفوظ معروف الكرخى رضى الله عنه .

فهو أحد من حظوا من الله تعالى بموفور العناية وكمال الرعاية، فجالت أرواحهم فى ملكوت الله سابحة فى النور الإلهى عابدة أوّابة تستمطر الفيوضات الربانية وتستلهم اللطائف الرحمانية. إنهم جنود الله وحراسه على شريعته وطريقته وحقيقته.

وسيدى معروف هو شيخ التصوف بالعراق فى عصره. وقد انتهت إليه تربية المريدين وإمامة المربين، وقد شهد له مشايخ عصر بأنه لم يكن فى زمنه من يربى المريدين مثله(٢)، وناهيك بمن هو شيخ للسرى السقطى الذى هو شيخ الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية لذا فهو يعتبر بحق شيخاً للسلسلة الصوفية التى نهلت من نبع آل البيت رضوان الله عليهم واستمدت من أنوارهم ضياءها.

---

(١) سورة النجم/٤٢.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف اللمناوى ٤٨٨/١.

فسيدى معروف هو واسطة العقد النفيس بين آل البيت وأقطاب التصوف رضى الله عنهم. وقد امتدت حياته فى القرن الثانى حتى نهايته حيث أرخ لوفاته بسنة مائتين أو إحدى أو أربع ومائتين هـ والأول هو الصحيح كما حققه الذهبى(١).

ولقد كانت حياة سيدى معروف - رضى الله عنه - وقفاً على طاعته لربه وعبوديته الصادقة لله تعالى فلم تَشُبْهَا رائحة الدنيا، ولم يكن فيها متسع لمأرب آخر سوى الاتصال بالله عز وجل. فلقد نذر حياته لله تعالى ولم يأل جهداً فى وفائه بحق هذا النذر فلم تسترع الدنيا منه أدنى التفاتة، لأنه أدرك أنها دنيا، ومن تعلق بها قلبه فهو دنى الهمة آبق من سيده، فار من ساحة الميدان.

وحينما نتصفح سيرة الإمام الكرخى نقف فى السطور الأولى من تاريخ حياته على أحداث عدة تلقى أضواءها على هذه الشخصية الفذة التى توافرت لها سُبُل الرعاية الإلهية والعناية الربانية.

فلقد ولد رضى الله عنه من أبوين كانا يعتنقان النصراينة، وما أن بدأ يستقبل بواكير صباه حتى أسلمه أبواه للمعلم ليلقنه تعاليم النصرانية، فأخذه وصار يقول له قل ثالث ثلاثة فيقول له بل إله واحد. فيكرر عليه المعلم قولته. وتصمد الفطرة المؤمنة أمام كلمة الكفر حتى لم يجد المعلم بدا من اللجوء إلى القوة والإكراه فضربه ضرباً مبرحاً ليكرهه على دينه جبراً وتعسفاً فهرب سيدى معروف منه ومن أبويه. أو بالأحرى فَرَّ إلى ربه. فألقت به العناية الإلهية فى أحضان بيت النبوة إذ التقى بفرع الدوحة النبوية سيدى على بن موسى الرضا رضى الله عنه وعنا به . فتلقته يَدُ حانية لتمسح عنه آلامه ثم لتغسل عنه أدرانه ثم لتملأ قلبه بالنور. فَعَبَّ من نبع الهدى والصفاء وشرب من منهل الحنيفية السمحاء. ولما افتقده والداه صارا يقولان : ليته يرجع إلينا على أى دين شاء فنوافقه عليه. وذات يوم دق الباب. فقيل:من؟ قال معروف. فقالا له على أى دين أتيت ؟ فقال على

---

(١) « سير أعلام النبلاء للذهبى ٩/٣٤٤.

الإسلام. فأسلم أبواه[1]. وبذا سجل العارف معروف أول فتح للإسلام على يديه مبتدئاً بأبويه. وحين أخذ مفتاح فتوحه من سيدى على الرضا كان قد بدأ حياة جديدة قوامها الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس فى طاعة الله تعالى واقتفاء أثر السلف الصالح رضوان الله عليهم وتزود لكل ذلك بالعلم فتضلع منه حتى كان مرجعاً للأئمة فى عصره فقد ذكر الإمام الغزالى رضى الله عنه أن الإمام أحمد ابن حنبل كان يختلف إليه هو وابن معين ويسألانه ولم يكن فى علم الظاهرمثلهما- فيقال لهما، مثلكما يفعل ذلك؟ فيقولان كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم (سلو الصالحين)[2].

وكان الإمام الكرخى ذا رواية فى الحديث. ويذكر الحافظ أبو نعيم أن من مسانيد حديثه هذا الحديث الذى رواه عن عبد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن السيدة عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شىء من الجور أو تبغض على شىء من العدل. وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله؟ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[3].

وكان الإمام معروف الكرخى - وهو شيخ وإمام فى علوم القوم- ذا منهج خاص فى التربية الصوفية ويتضح هذا المنهج من تتبع أقواله المأثورة فى التصوف والتى تنبئ عن علو قدمه فى ميدان المعرفة. .

فقد سئل سيدى معروف عن حقيقة الوفاء فقال . حقيقة الوفاء : إفاقة السر عن رقدة الغفلات وفراغ الهم من فضول الآفات)[4] .

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١ و: سير أعلام النبلاء للذهبى ٣٣٩/٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٨٨/١ - ٤٨٩.

(٣) سورة آل عمران / ٣١، وانظر : الحلية لأبى نعيم ٣٦٧/٨ - ٣٦٨.

(٤) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريبة ص٨٨.

وخلاصة جوابه هى تخلية السر لله تعالى وتصفية القلب من الغفلة ومن كل ما من شأنه أن يشغل عن الله تعالى .

وسئل رضى الله عنه : بم تخرج الدنيا من القلب؟ فقال : بصفاء الود وحسن المعاملة. وللصفاء علامات ثلاث: وفاء بلاخلاف وعطاء بلاسؤال ومدح بلا جود[١] .

ويقول : (وعلامة الأولياء ثلاثة : همومهم لله، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه)[٢] وسأله أبو سليمان الدارانى عن الطائعين بأى شىء قدروا على الطاعة؟ فقال بإخراج الدنيا من قلوبهم . ولو كان منها شىء فى قلوبهم ما صحت لهم سجدة) !!

أرأيت إلى هذا المعراج السامى فى مراقى الحقائق؟ إن الإمام معروف الكرخى لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد أن تحقق بها. لذلك فإن كلماته تنفذ إلى القلب لأنها من القلب ولأنها صدرت عن إخلاص لله وبغير ذلك لا يمكن أن تثمر الكلمات. ولقد ترجم سيدى معروف سلوكه مع الله فى هذه الكلمات التى فيها غذاء القلب وقوت الروح.

إنه يقول : (توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك)[٣].

إن من يفعل ذلك فقد صار محلاً لولاية الله تعالى وهنا تتنزل عليه الرحمات وتفيض عليه الإلهامات وتخرق له العادات لأنه صار ربانياً يسمع بالله ويبصر بالله ويفعل كل شىء بالله ولأنه جاهد فى الله حق جهاده. ومما وقع لسيدى معروف من الكرامات ما رواه صاحب الحلية عن إبراهيم بن عبدالله بن إسحق عن محمد بن إسحق النقفى قال سمعت أبا سليمان الرومى يقول سمعت خليلاً الصياد يقول : غاب ابنى محمد فجزعت أمه عليه جزعاً شديداً فأتيت معروفاً فقلت أبا محفوظ .

---

(١) (٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٦٧/٨.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٠/٨.

قال: ما تشاء؟ قلت : - ابنى محمد غاب وجزعت أمه عليه جزعاً شديداً فادع الله أن يرده عليها. فقال : اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك فأت به. قال خليل فأتيت باب الشام فإذا ابنى محمد قائم منبهر قلت محمد؟ قال :- ياأبت كنت الساعة بالأنبار[1] !!

وليس عجيباً أن يجيب الله دعاء من أطاعه مهما كان خارقاً للعادة. وليس عجيباً أن تخرق العادة لمن خرج عن مألوف عاداته بجهاده لنفسه فى طاعة الله. بل إن خرقه للعادة أقل القليل بالنسبة لعطاء هؤلاء الصفوة الخواص. إنهم أهل الحضرة الإلهية وضنائن الله فى خلقه .

يقول العارف السرى السقطى (رأيت معروفاً الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش والبارى جلت قدرته يقول لملائكته: من هذا؟ وهم يقولون أنت أعلم يا ربنا منا فقال هذا معروف الكرخى سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى) [2]!!

هذه هى منزلة سيدى معروف قد أراها الله لخليفته سيدى السرى الذى أخذ عنه الطريق. ومنازل الأولياء فى الحقيقة لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما هى إشارات تقربنا منهم وتدلنا عليهم وتخبرنا بمدى صدقهم مع الله تعالى.

ولقد عرف الصوفية الطريق إلى الله تعالى فسلكوه ولم يلتفتوا عنه طرفة عين وحسبنا من العلم بمنازلهم أنهم آثروا الله على كل شىء فمنحهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن الإمام العارف سيدى معروفًا الكرخى قد أجمعت آراء صفوة العارفين على إمامته فى علوم القوم وعلى أنه كان فريداً فى عصره علماً وذوقاً وسلوكاً وشرب من راحة آل البيت حتى ارتوى وأروى وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الإشارات التى قادت قلوباً وأرواحاً إلى الله تعالى وهو الذى استغرقت محبة الله روحه وأنفاسه فعاش عيشة الأبرار ولقى ربه مع المصطفين الأخيار رضى الله عنه ورضى عنا به

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٢/٨.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١.

وأمدنا ببركاته دنيا وأخرى آمين. لقد كان الإمام معروف رضى الله عنه كما قال الحافظ الذهبى فى صدارة ترجمته (عَلَم الزهاد ، بركة العصر)، ولا يدلك على العارف إلا عارف مثله.

فقد روى عن سيدنا سفيان بن عينية أنه قال لمعاصره إسماعيل بن شداد : ما فعل ذلك الحبْر الذى فيكم ببغداد؟

فقال من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف. قال : بخير. فقال الإمام سفيان : (لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقى)(١).

كما ذكر الحافظ الذهبى من كرامات سيدى معروف رضى الله عنه أن ابن شيرويه قال : قلت لمعروف : بلغنى أنك تمشى على الماء.

فقال له ما وقع هذا ، ولكن إذا هممت بالعبور جُمِعَ لى طرفا النهر فأتخطاه(٢)

إن سيدى معروفا ممن لهم جاه عظيم يتوسل به إلى الله تعالى ، فقد روى الإمام القشيرى أنه قال لمريده الإمام السرى السقطى رضى الله عنهما (إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى)(٣)!!

ألا وإن جاهه عند الله تعالى لم ينقطع بوفاته ، فقد قال أبو عبد الرحمن السلمى فى ترجمته : (وهو من جلة المشايخ وقدمائهم ، والمذكورين بالورع والفتوة، كان أستاذ السرى السقطى ، صحب داود الطائى ، وقبره ببغداد ظاهر يستشفى به ويُتبَّرك بزيارته)(٤).

ثم روى عن إبراهيم بن الجزرى أنه كان يقول (قبر معروف الترياق المجرب).(٥) وقد منَّ الله تعالى على فقيره مؤلف هذا الكتاب بزيارة مقام الإمام معروف الكرخى ببغداد سنة ١٩٩٠ هـ حيث كنت فى مؤتمر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية. أفاض الله علينا بركاته وحشرنا فى زمرته رضى الله تعالى عنه.

---

(١) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبى : ٣٣٩/٩ - ٣٤٠.

(٢) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبى : ٣٤٢/٩.

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١.

(٤) ، (٥) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٨٤-٨٥.

القرن الثالث

١ - سيـــدنا الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٠٤.

٢ - سيدنا أبو سليمان الداراني رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢١٥.

٣ - سيدنا بشر الحافى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٢٧.

٤ - سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤١

٥ - سيدنا الحارث المحاسبى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٣.

٦ - سيدنا أبوتراب النخشبى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٥.

٧ - سيدنا ذو النون المصرى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٥.

٨ - سيدنا السرى السقطى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٥١.

٩ - سيدنا يحيى بن معاذ رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٥٨.

١٠- سيدنا أبو يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٦٠.

١١- سيدنا أبوسعيد الخراز رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٧٩.

١٢- سيدنا سهل التسترى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٣.

١٣- سيدنا الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٧.

١٤- سيدنا ممشاد الدينورى رضى الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٩.

« ١٣ »

عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً

«الإمام الشافعى رضى الله عنه»

فى وهج نور الشريعة وضياء الحقيقة سلك الأخيار طريقهم إلى النور المطلق الذى أذابت محبته قلوب العاشقين الربانيين فسبحت فى بحار النور تَسْتَقِى وتُسْقِى وتَسْتَضِىء وتضىء وتحرق رداء أنيتها بنار عشقها الأبدى، فتحقق لأولئك الصفوة الأخيار ربانيتهم حين خلعوا ربقة أنيتهم، وارتشفوا من المعين المحمدى نورانيتهم المتألقة فكانوا ذخائر الله فى الوجود وأنواره فى الأكوان. رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم ، وزج بنا فى زمرتهم فى الدنيا ويوم الدين.

فى أعلى تلك الآفاق المتوهجة يسطع نور من الحضرة المحمدية ليضىء لأهل الحنيفية سبل الوصول إلى الله تعالى فيسرى شعاعه الدفاق ليغمر الأرض بالنور. وهو نور لا يرى إلا بأعين القلوب، فيصل هذا النور الأرض بالسماء ويحيل ظلمتها إلى ضياء، ولا عجب فهذا القبس المحمدى هو من صدق فيه حديث سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (عالم قريش يملأ الأرض علما) [١].

إنه الإمام الأعظم والعارف الأفخم بحر الشريعة وقطب الحقيقة، مفخرة الإسلام، وأحد أركان الشريعة الأربعة العظام: سيدنا ومولانا وإمامنا وقدوتنا إلى الله تعالى الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى المطلبى قدس الله سره. وأعلى فى عليين قدره، ورفع فى العالمين ذكره ، ورضى الله عنه وعنا به، وأمدنا

---

(١) خرجه الذهبى فى السير (٨٢/١٠) عن سند الطيالسى والإمام أحمد وابى نعيم فى الحلية، ومناقب الشافعى للبيهقى.

بمدده الأعلى ما يلحقنا به ويحقق لنا معيته المباركة ومحسوبيته المشرفة فى الدنيا وأبد الآبدين.

أطل هذا النور المحمدى على الوجود سنة خمسين ومائة للهجرة الشريفة [1] فى نفس العام الذى لحق فيه بربه مولانا الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله تعالى عنه وعنا به، إذ شاءت العناية الإلهية ألا تغيب فى سماء هذه الأمة شمس محمدية حتى تبزغ أخرى ليتواصل النور ويظل صرح الدين مرتفعا على هامات سدنته وحفاظه. وهذه الشمس - أو هذا الإمام الذى قيضه الله لحفظ دينه وشريعة مصطفاه - صلى الله عليه وآله وسلم - هو ابن عم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يلتقى معه فى عبد مناف وهو الجد الثالث لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والجد التاسع لمولانا الشافعى رضى الله عنه فقد أورد البيهقى فى (مناقب الشافعى) بسنده عن أبى عبدالله البوشنجى نسب الإمام الشافعى شعرا:

هو الشافعى الهاشمى محمد ... ووالده إدريس حَمَّالُ فَادِحِ
وعباس ينميه أبو الأب رُتّبَةً ... ومن بعده عثمان عون المنادح
إلى شافع بن السائب بن عبيدها ... بنى الغر والشم الأنوف الجحاجح
وعبد يزيد بعده ثم هاشم ... نماه لأعراق كرام المناكح
ومُطَّلِبٌ من بعده هاشم قد نما ... لعبد مناف سِرٌّ نصر المناجِحِ [2]

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه - لانتمائه فى النسب للمطلب بن عبدمناف - يلقب بالمطلبى. وقد حقق العلماء انتسابه إلى سيدنا هاشم بن عبدمناف جد أبى سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد ذكر البيهقى نقلا عن كتاب أبى يحيى الساجى بسنده إلى النسابة، أحمد بن محمد العدوى أنه قال - بعد أن ساق نسب الشافعى على النحو السالف -: (وقد ولده هاشم بن عبدمناف ثلاث مرات:

---

(١) انظر مناقب الشافعى للبيهقى بتحقيق السيد صقر ٧٣/١.

(٢) انظر مناقب الشافعى لأبى بكر البيهقى بتحقيق السيد صقر: ٨٣/١ - ٨٤.

أم السائب: الشفاء بنت الأرقم بن هاشم بن عبدمناف - أسر السائب يوم بدر كافرا وكان يشبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وأم الشفاء بنت الأرقم: خلدة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف، وأم يزيد: الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف ابن قصى...) [1] أهـ.

وإلى جانب ثبوت مطلبيته ثم هاشميته من جهة الأب يثبت العلماء هاشميته وشرف نسبه كذلك من جهة الأم فيذكر البيهقى أن يونس بن عبدالأعلى كان يقول: (لا أعلم هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبى طالب ثم الشافعى رضى الله عنه، فأم على رضى الله عنه: فاطمة بنت أسد بن هاشم، وجدة الشافعى: الشفاء بنت أسد بن الحسن: وأم الشافعى: فاطمة بنت عبيد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب...). وقد رجح البيهقى - بروايات أخرى - أن أم الشافعى رضى الله عنها تنتمى نسبا إلى قبيلة الأزد، وهى قبيلة لها فضل فى الإسلام فقد قال فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (نعم الحى الأزد والأشعريون، لا يفرون فى القتال ولا يغلون. هم منى وأنا منهم) [2].

وقد رجح الإمام السبكى فى طبقات الشافعية هاشمية أم الإمام. وذلك بناء على روايات ثابتة أيضاً وأدلة فى غاية القوة.

وإذن: فإمامنا رضى الله عنه هاشمى من آل بيت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين فى الدنيا والآخرة - فهو كما قال الفرزدق صادقا:

من معشر حبهم دين وبغضهم   كفر وقربهم منجى ومعتصم

ولا يخفى بحال ما لهذا الأصل العريق والمحتد الشريف من أثر فى إمامنا الشافعى. فلقريش منزلة سامقة فى الفضل وأى منزلة!! فبحسبها أن سيدنا رسول

---

(١) المصدر نفسه: ١/٨٤ - ٨٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٤/١٢٩ والترمذى فى المناقب ٢/٣٣٠ وقال: (حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث وهب بن جرير) وأشار إليه ابن حجر فى الإصابة ٧/١٢٠ - ١٢١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عنها: (لا تسبوا قريشا فإن عالمها يمد طباق الأرض علما. اللهم أذقت أولها نكالاً فأذق آخرها نوالا)[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الأئمة من قريش)[2].

وناهيك بما لوشائج القربى للإمام مع سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم من نورانية غمرته وغذته برحيقها المحمدى!

ونعود بعد التحليق فى هذا الأفق المحمدى القرشى إلى تتبع هذا النور الزاحف بإشراقه فى منتصف القرن الثانى للهجرة لنحقق البقعة التى ظفرت بمشرقه.

فنجد روايات متعددة تنص على جهة مولده ونشأته. منها ما رواه البيهقى بسنده عن محمد بن عبدالله بن عبدالحكم يقول: سمعت الشافعى يقول: (ولدت بغزة وحملتنى أمى إلى عسقلان)[3] وبجانب ذلك نجد روايات أخرى بعضها يفيد أنه ولد باليمن والآخر ينص على ولادته بعسقلان التى تقع من غزة على ستة أميال كما ذكر البيهقى. والراجح المحقق أنه ولد بغزة. وقد حقق ذلك البيهقى وقال: (والذى يدل عليه سائر الروايات من ولادته بغزة ثم حمله منها إلى عسقلان ثم إلى مكة أشهر والله أعلم) كما أول ما ورد من ولادته باليمن قائلا: (ويحتمل أن يكون أراد موضعا يسكنه بطون اليمن، وغزة من ذلك).

وأيضا فإن عسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها، وبها كانت نشأته.

ومن ثم لا يلتبس علينا ما يرد من نصوص تفيد ولادته باليمن أو بعسقلان.

وننتقل إلى النشأة الشريفة فيذكر لنا البيهقى بسنده عن ابن وهب أنه قال: (سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: ولدت باليمن فخافت أمى على الضيعة فقالت: الحق بأهلك فتكون مثلهم. فجهزتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر

(١) انظر: مسند أبى داود الطيالسى (ص٣٩ - ٤٠) وحلية الأولياء لأبى نعيم ٢٩٥/٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٢٩/٣ والنسائى فى سننه الكبرى كما ذكر صاحب (تحفة الأشراف ١٠٢/١) والبيهقى فى السنن الكبرى ١٤٤/٨.

(٣) انظر: حلية الأولياء ٦٧/٩ ومناقب الشافعى للبيهقى ٧١/١.

سنين) [1] وأضاف البيهقى تتمة أخرى لتلك الرواية بسند آخر: ... فإنى أخاف أن نغلب على نسبك ، فجهزتنى إلى مكة فقدمتها وأنا يومئذ ابن عشر سنين أو شبيه بذلك، فصرت إلى نسيب لى فجعلت أطلب العلم - أى مطلق العلم - فيقول لى: لا تشتغل بهذا وأقبل على ما ينفعك. فجعلت همتى فى هذا العلم فطلبته حتى رزقنى الله منه ما رزق) [2].

وفى رواية أخرى بسند البيهقى عن مولانا الشافعى يقول: (ولدت بعسقلان. فلما أتت على سنتان حملتنى أمى إلى مكة وكانت نهمتى فى شيئين: الرمى وطلب العلم، فنلت من الرمى حتى أنه لأصيب من عشرة عشرة وسكت عن العلم فقلت: أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى) [3] أهـ.

ونلاحظ أن الرواية الأولى تنص على انتقاله إلى مكة مع أمه وهو ابن عشر بينما تثبت الثانية انتقاله وهو ابن سنتين. ويجمع بين الروايتين بأنه انتقل مرتين إلى مكة. أولاهما مع أمه وهو ابن عامين، لتأكيد انتمائه إلى أهله ونسبته لهم. ثم ارتحل وهو ابن عشر لطلب العلم ولتنشئته مع أهله أو توثيق صلته بهم.

وتحدثنا الروايات أن أبا الإمام الشافعى رضى الله عنهما قد مات وابنه صغير خارج مكة ، وكان قليل ذات اليد. فنشأ الإمام نشأة الأصفياء المكتفين برعاية الله تعالى وولايته. ولله ما أبهى حلة الفقر إذ يتحلى بها الشريف مع يتمه فيتحقق افتقاره لله تعالى وتأسيه بسيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - وفى هذا الجو النبوى بدأ الإمام أولى خطاه على درب العناية وهو فى كفالة الله.

يقول الإمام رضى الله عنه - فيما أسنده إليه البيهقى - (كنت يتيما فى حجر أمى فدفعتنى إلى الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطى المعلم، وكان المعلم قد رضى منى أن أخلفه إذا قام. فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث والمسألة فأحفظها، فلم يكن عند أمى ما تعطينى

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى بتحقيق السيد صقر ٧٣/١ ، ٧٤.

أشترى به القراطيس، فكنت أنظر إلى العظم فآخذه فأكتب فيه فإذا امتلأ طرحته فى جرة فاجتمع عندى حُبَّان - أى جرتان) (١).

ويقول الإمام رضى الله عنه فى رواية أخرى: (كنت وأنا فى الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبى الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم. فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أملى، فقال لى ذات يوم: ما يحل لى أن آخذ منك شيئا. قال: ثم لما أن خرجت من الكتاب كنت ألتقط الخزف، والرقوق، وكَرَبَ النخل، وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث، وأجىء إلى الدواوين وأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كان لأمى حبان فملأتهما أكتافا وخزفا وكربا مملوءة حديثا) (٢).

واتجه إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - فى ابتداء أمره بعد حفظه لكتاب الله تعالى ومع أخذه فى الحديث الشريف إلى تعلم أصول العربية وآدابها وشعر العرب وتاريخهم، ولم يقنع بدراسة العربية حيث يقيم، بل ارتحل إلى البادية ليتلقى اللغة الخالصة من معدنها حيث لم تَشُبْهَا لكنة غير عربية، وظل ينهل من معين اللغة الخالصة وآدابها حتى بلغ فى ذلك شأوا عظيماً لا يمكننا هنا استقصاؤه، وبحسبنا أن نذكر أن الأصمعى - هو من هو فى العربية - قال يوما: «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس» (٣) !!

ولكن اللغة وسيلة وما كان لإمامنا أن يقف عندها دون الغاية. فمضى إلى محيط الشريعة يرتوى منه ليكون البحر الزاخر. وتحدثنا الروايات المختلفة عن الأسباب المباشرة التى دفعت إمامنا للتفرغ لدراسة الفقه.

وهى أسباب نعتبرها منبهات مباشرة للشروع فى المهمة التى خلق إمامنا من أجلها، فالدوافع الحقيقية كامنة فى فطرة الإمام بلا ريب. لذلك نجد الروايات التى

---

(١) المصدر السابق ٩٢/١.

(٢) المصدر السابق ٩٥/١.

(٣) انظر مناقب الشافعى للبيهقى ٤٤/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبى ٤٩/١٠.

ذكرت سبب تفقهه تتعدد، ولكنها تتلاقى عند محور الإيقاظ المباشر لانطلاق مواهبه وإبراز طاقاته.

يروى البيهقى بسنده إلى الإمام الشافعى قال: (كنت أنظر فى الشعر فارتقيت عقبة فإذا صوت من خلفى : عليك بالفقه!!) [1].

إنه نداء العناية لعالم قريش الذى سيملأ طباق الأرض علما.

والرواية الثانية: وهى بسند البيهقى أيضاً إلى الإمام الشافعى يقول: (خرجت أطلب النحو والأدب فلقينى مسلم بن خالد فقال: يا فتى! من أين أنت؟ قلت : من أهل مكة. قال: وأين منزلك بها؟ قلت: بشعب الحنيف، قال: من أى قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبدمناف. قال: بخ بخ!! لقد شرفك الله فى الدنيا والآخرة ألا جعلت فهمك هذا فى الفقه فكان أحسن بك!!) [2].

وأؤكد هنا مرات ومرات أن العناية كانت للإمام سابقة على الاكتساب، والمواهب متقدمة على الأسباب، وثمة الدليل: يقول الربيع بن سليمان: سمعت الشافعى يقول: رأيت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرى النائم قبل حلمى فقال لى: يا غلام، قلت لبيك يا رسول الله، قال: ممن أنت؟ قلت من رهطك يا رسول الله!! قال: ادن منى. فدنوت منه فأخذ من ريقه ففتحت فمى، فأمر بريقه على لسانى وفمى وشفتى وقال: امض بارك الله فيك!! فما أذكر أنى لحنت فى حديث بعد ذلك ولا شعر» [3].

وأخذ إمامنا مفتاح الفتوح من مصدر الفتوح صلى الله عليه وآله وسلم فانطلقت مواهبه المحمدية وعبقريته الفذة القرشية فأخذ يجمع شتات العلم ويلم بفروع الفقه وروايات الحديث الشريف حتى بلغ مرتقى الأئمة وهو لا يزال شاباً يافعاً حتى قال له مسلم بن خالد الزنجى الذى تفقه عليه بمكة: «أفت يا عبدالله فقد آن لك أن تفتى» ولكن نهم الإمام فى طلب العلم كان يملك عليه خاطره ووجدانه فما أن يسمع بعالم أو فقيه حتى يهرع إليه.

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر مناقب الشافعى للبيهقى ١/٩٧ ، ٩٨.

وكان الإمام مالك فى ذلك الوقت حديث الدنيا بأسرها وإمام المسلمين. فوقع فى قلب مولانا الشافعى قصد ذلك الإمام. ولكنه لم يذهب إليه وهو فى الثالثة عشرة من عمره إلا وقد حفظ موطأه عن ظهر قلب.

يروى البيهقى بسنده إلى الإمام أنه قال: «حفظت الموطأ قبل أن آتى مالك ابن أنس فلما أتيته قال اطلب من يقرأ لك فقلت لا عليك أن تسمع قراءتى، فإن أعجبتك قراءتى وإلا طلبت من يقرأ لى. فقال لى: هات. فلما قرأت أعجبته قراءتى فقرأت عليه» وفى رواية أخرى بسند البيهقى إلى حرملة يقول: سمعت الشافعى يقول: «أتيت مالك بن أنس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، وكان ابن عم لى والى المدينة، فكلم لى مالكا فلقيته لأقرأ عليه، فقال: اطلب من يقرأ لك فقلت أنا أقرأ. قال فقرأت عليه،وكان ربما قال لى لشىء قد مر: أعد حديث كذا، فأعيد حفظا، فكأنه أعجبه ثم سألته عن مسألة فأجابنى ثم أخرى ثم أخرى فقال: أنت يجب أن تكون قاضيا» [(١)].

ولزم إمامنا الشافعى الإمام مالكا حجة الله فى أرضه. وإمام أئمة عصره الذى تلقى العلم عن أكثر من تسعمائة شيخ وما أفتى حتى شهد له سبعون إماما بأهليته للفتيا. ووجد الإمام مالك فى إمامنا الشافعى ضالته المنشودة فهو الوارث الذى سيأخذ المسلمون عنه دينهم.

وتحدثنا المصادر أنه ألقى إلى أمامنا الشافعى المفتاح الأمثل للعلم اللدنى ممثلا فى تلك الوصية التى يرويها البيهقى بسنده عن أبى حاتم الحسن بن أحمد الفقيه يقول: قال مالك بن أنس للشافعى رضى الله عنهما: «إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية» [(٢)] !!

إنها التقوى باب كل خير ومفتاح كل فتح. ولقد بشره فى أول لقاء بينهما بما ينتظره من فتح وأوصاه بالتقوى قائلا: (اتق الله فإنه سيكون لك شأن) وعض .

---

(١) انظر مناقب الشافعى للبيهقى ١/١٠٠ - ١٠١.

(٢) انظر مناقب الشافعى للبيهقى ١/١٠٤.

الإمام على وصية شيخه بالنواجذ فأثمرت التقوى فى قلبه نوراً على نور فجاب الآفاق بالعلم والنور والهدى والمعرفة. يقول مولانا الشعرانى رضى الله عنه وعنا به: (.. ثم رحل إلى اليمن حين تولى القضاء بها. واشتهر بها ثم رحل إلى العراق وجد فى الاشتغال بالعلم. وناظر محمد بن الحسن وغيره. ونشر علم الحديث، وأقام مذهب أهله ونصر السنة واستخرج الأحكام منها،ورجع كثير من العلماء عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه ، ثم خرج إلى مصر آخر سنة تسع وتسعين ومائة، وصنف كتبه الجديدة بها ورحل الناس إليه من سائر الأقطار) (١) .

لقد أجمل الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى تلك السطور ما بعد رحلة مولانا الشافعى إلى الإمام مالك حتى قدومه مصر قبيل وفاته بخمس سنين إذ توفى رضى الله عنه بمصر ليلة الجمعة بعد المغرب سنة أربع ومائتين (٢) .

وقد تناولت كتب المناقب المطولة للإمام رضى الله عنه تفصيل تلك الرحلات العلمية وأحداثها، وجهود الإمام رضى الله عنه فى تأسيس مذهبه ونشر علمه ومكانته فى شتى فروع العلم.

يقول الإمام المناوى رضى الله عنه «وقد أكثر القوم التصانيف فى مناقبه. فمن أفرد ذلك بالتأليف الإمام داود الظاهرى والساجى وابن أبى حاتم، والأبرى والحاكم والأصبهانى والقطان والقراب، والأستاذ أبو منصور البغدادى، والبيهقى والخطيب البغدادى، والإمام الرازى وابن المقرى وفندق، وإمام الحرمين والدارقطنى والآجرى والسرخسى والصاحب بن عباد، ونضر المقدسى والسبكى وخلائق بين متقدم ومتأخر» (٣) .

بلغ الإمام الشافعى منزلة فى الفقه والحديث حتى لقب بناصر السنة وأسس علم أصول الفقه بوضعه لكتاب الرسالة، وشب مذهبه على القرآن الكريم وصحيح

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٤٣/١.
(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦٨/٩.
(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٨٠/١.

السنة فكان رضى الله عنه يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبى) [١] واجتمع طلاب العلم والأئمة عند بابه، يقول مولانا الشعرانى رضى الله عنه: (قال الربيع ابن سليمان: رأيت على باب دار الإمام الشافعى رضى الله عنه سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه رضى الله عنه) [٢].

ولو حاولنا هنا أن ننغمس فى الجو العلمى للإمام الشافعى رضوان الله عليه وتتبع مناهجه وآرائه لرمنا المحال ، ففى كل جانب من جوانبه العلمية لا تفى مجلدات ولكننا نشير فقط إلى مكانة الإمام وسندعم الإشارة القاصرة ببعض ما شهد به أئمة عصر الشافعى له فهذا الإمام محمد بن الحسن يقول - فيما رواه صاحب الحلية بسنده - «إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى - يعنى لما وضع كتابه - ».

وبسند الإمام أبى نعيم أيضاً عن أحمد بن محمد الشافعى يقول: «كانت الحلقة فى الفتيا بمكة فى المسجد الحرام لابن عباس وبعد ابن عباس لعطاء بن أبى رباح، وبعد عطاء لعبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج وبعد ابن جريج لمسلم بن خالد الزنجى، وبعد مسلم لسعيد بن سالم القداح، وبعد سعيد لمحمد بن إدريس الشافعى وهو شاب» ويذكر صاحب الحلية أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال: (ما رأيت أحدا أتبع للأثر من الشافعى) [٣] !!

ومرة أخرى قال عنه (ما سبق أحد الشافعى إلى كتاب الحديث).

وقد بلغ إجلال مولانا الشافعى رضى الله عنه لأهل الحديث أنه قال - فيما رواه أبو نعيم بسنده -: (إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث كأنى رأيت رجلا من أصحاب النبى - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) [٤] .

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٦/٩ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤٢/١ واللفظ منه.

(٢) انظر المصدر الأخير.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٠/٩.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٩/٩.

وكـان إمـامنا الشـافـعى رضى الله عنه مع تمسكه بالأثر فى الدرجـة الأولى وصاحب رأى ومناظرة لم يداخله أحد فيهما.

يروى البـيـهـقـى بسنده عن قـتـيـبـة بن سـعـيـد يقـول: (رأيت الشـافـعى يناظر محمد بن الحسن، فكان محمد بن الحسن فى يده كالكرة يديرها كيف شاء)! وكان على علم بالتفسير لا يبارى . وقد أثبت البيهقى فى مناقبه عديدا من الآراء التى تشير إلى عظم مكانته.

وجماع القول فى الإمام الشافعى العالم لا نجد فيه خيراً مما قاله من أوتى جوامع الكلم - صلى الله عليه وسلم - إذ قـال: (عـالم قـريش يمـلأ طبـاق الأرض علما) فلقد جدد الله به للأمة دينها. يروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن حميد بن زنجويه قـال سـمـعت أحـمـد بن حنبل يقـول: يروى الحـديث عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قـال: «إن الله يمن على أهل دينه فى رأس كل مـائة سنة بـرجل من أهل بيتى يبين لهم أمر دينهم وإنى نظرت فى سنة مائة فإذا رجل من آل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمر بن عبدالعزيز ونظرت فى المائة الثانية فإذا هـو رجـل من آل رسـول الله صـلى الله عليـه وآله وسـلم مـحـمـد بن إدريس الشـافعى» [(١)] ا.

ولنكتف بهـذا القـدر من الحـديث عن علم الإمـام الشـافـعى فـمـهـمـا قلنا فـالتقـصيـر لازم والقـصـور وافـر ، ولنتناول صـوفيـة الإمـام الشـافعى رضـى الله عنه علما بأن هذا الجانب العلمى بعينه فيه كفاء لمن رام لب التصوف، وذروة الولاية ولكن يأبى البعض إلا أن يقرأ عن التصوف بلغة التصـوف المألوفة فى كتب القوم من حديث عن الجانب التعبدى، والأحوال والمقامات والإشارات والكرامات.

ووفـاء بـبـعـض حق الإمـام فى إبراز هذا الجـانب بتلك اللغـة وحـتى لا يقـول مـتـعنت كـيف يعـد الإمـام الشـافـعى من أعـلام الصـوفـيـة وهو إمـام فى الشـريعـة

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٩٧ - ٩٨.

فحسب؟ من أجل ذلك أسجل هنا ظاهرة التصوف التى تملأ كيان الإمام الشافعى والتى لم تفارق الجانب الظاهرى الشرعى.

فلعله من نافلة القول أن الشريعة والحقيقة متلازمتان وأن الحقيقة هى - فى بعض ما يطلق عليها من تعبيرات ثمرة شجرة الشريعة، والتصوف هو الوصول إلى الحقيقة. وما كان للإمام الشافعى - وهو من آل بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذين هم معدن الطهر والصفاء - أن يكتفى بالشجرة دون الثمرة. بل وما كان لإمام مجتهد كمولانا الشافعى عليه الرضوان ألا ينشد الحقيقة وهو رأس مذهب تقلده فيه أقطاب التصوف من أمثال سلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى والإمام الشعرانى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ولقد ذكر الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى الميزان أن مرتبة الاجتهاد المطلق لا تتحقق لإمام إلا إذا صار ينهل من عين الشريعة المحمدية بلا واسطة ، أى أن يستمد من سيد الوجود - صلى الله عليه وآله وسلم - مباشرة وتلك مرتبة خواص الخواص (١) .

ومع ذلك لنتعرف - بالقدر الممكن - على الجانب العملى والتحققى عند إمامنا الشافعى رضوان الله عليه:

أما عن عباداته فقد كان رضى الله عنه آية من آيات الله فى مواصلة الطاعة والعبادة مع مسئولياته العلمية، يقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى مناقب الإمام من طبقاته: (وكان قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثانى يصلى، والثالث ينام، وفى رواية ما كان ينام من الليل إلا يسيرا، وكان يختم فى كل ليل ختمة، وكان يقول: ما كذبت قط وما حلفت بالله لا صادقا ولا كاذباً، وما تركت غسل الجمعة قط لا فى برد ولا فى سفر ولا فى حضر، وما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتى) (٢) .

---

(١) انظر: الميزان الكبرى لأبى المواهب سيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/٢٠، ٢٤، ٣٠ ط/ الحلبى.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به ١/٤٣ وانظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٩/١٣٤ - ١٣٥.

ويروى البيهقى بسنده عن الربيع بن سليمان يقول: (خرجت مع محمد بن إدريس الشافعى من الفسطاط إلى الإسكندرية مرابطا وكان يصلى الصلوات الخمس فى المسجد الجامع ثم يسير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه جالساً يقرأ القرآن فى الليل والنهار حتى أحصيت عليه ستين ختمة فى شهر رمضان) [1]!!

وبهذا السند عن الأرسوفى قال: سمعت بحر بن نصر يقول: (ما رأيت ولا سمعت كان فى عصر الشافعى أتقى لله ولا أورع من الشافعى ولا أحسن صوتا منه بالقرآن)[2].

وعن زهده فى الدنيا يقول رضى الله عنه - فيما أسنده إليه البيهقى - : (طلب فضول الدنيا عقوبة، عاقب الله بها أهل التوحيد) [3].

وبسند البيهقى عن الربيع بن سليمان يقول: قال لى الشافعى: (يا ربيع عليك بالزهد فللزهد على الزاهد أحسن من الحلى على المرأة الناهد)!!

وفى معنى غنى النفس يقول رضى الله عنه:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن   على حالة إلا رضيت بدونها

ولقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه إماما فى السلوك الصوفى ومصدرا لأئمة الصوفية.

فقد روى البيهقى بسنده عن سيد الطائفة الصوفية مولانا الإمام الجنيد رضى الله عنه وعنا به أنه سمع يقول: (كان الشافعى من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدين، وعظ أخًا له فى الله عز وجل وخوّفه بأسه فقال: يا أخى إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله تعالى، وارض برزق الله، لا تستسلف من دار

(١) ، (٢) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى ١٥٨/٢.
(٣) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى ١٦٩/٢.

بقائك فى دار فنائك فإن عيشك فىء زائل وجدار مائل، أكثر على عملك، وقصّر من أملك) [1] أ. هـ.

ليت شعرى أى لسان هذا سوى لسان العارف الله المعرض عن الدنيا، والآمل فى الآخرة؟.

ويروى البيهقى بسنده عن الحسين بن يزدان البصرى عن بعض شيوخه قال: (كان الشافعى فى مجلس سفيان بن عيينة يسمع منه الحديث، إذ مر به حديث فيه رقائق فبكى الشافعى حتى أغمى عليه [2] قال: فقال الناس: قد مات محمد بن إدريس الشافعى، فقال سفيان بن عينية: إن كان محمد بن إدريس قد مات فقد مات أفضل أهل زمانه) [3]!!

لقد بلغ الإخلاص فى قلب مولانا الشافعى - رضى الله عنه - إلى حد أنه كان يقول - كما روى الإمام الشعرانى -(وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلىّ منه حرف) يقول الإمام الشعرانى. قال شيخنا شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصارى. وقد أجابه الحق إلى ذلك فلا يكاد يسمع فى مذهبه إلا مقالات أصحابه قال الرافعى، قال النووى، قال الزركشى ونحو ذلك [4]. أ هـ.

ومن أقوال الإمام الصوفية الحكيمة: (من أحب أن يفتح الله عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا) [5].

وكان رضى الله عنه يقول: (لابد للعالم من ورد من أعماله يكون بينه وبين الله تعالى) وذكر الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن مولانا الشافعى رضى الله عنه

---

(١) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى ١٧١/٢.
(٢) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى ١٧٨/٢.
(٣) المصدر نفسه ١٧٥/٢.
(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٤٣/١.
(٥) المصدر نفسه ٤٤/١.

كان يقول: (صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، وأفضل العصمة ألا تجد) [1].

وفى ذلك نص صريح على صحبته للقوم رضى الله عنهم.

وأما ما استفاده منهم فهو قضاء الأنفاس فى طاعة الله تعالى، وعدم إمساك الدنيا درءًا لحبها.

ثم ختاما يحدثنا الإمام القشيرى رضى الله عنه عن بعض المقامات التى وصلها إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - فيروى بسنده عن بلال الخواص يقول: كنت فى تيه بنى إسرائيل فإذا رجل يماشينى فتعجبت منه ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له: بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر، فقلت له: أريد أن أسألك، فقال: سل. فقلت، ما تقول فى الشافعى؟ فقال: هو من الأوتاد - أى الرجال الأربعة الذين يحفظ الله بهم جهات العالم الأربع - فقلت ما تقول فى أحمد بن حنبل رضى الله عنه؟ قال رجل صديق) [2] أ هـ.

رضى الله عنك يا سيدى يا إمام الشريعة والحقيقة يا مولانا الشافعى ورضى عنابك وجعلنا فى زمرتك فى الدنيا ويوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

★ ★ ★

(١) المصدر نفسه ١/٤٣.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ١/٦٩ - ٧٠.

«١٤»

«سيدى أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه»

إلى الدرجات العلى صعد النجباء الأتقياء الأولياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وباعوا الدارين بحبه تعالى فمنحهم نعيم قربه ولذة مشاهدته وحلاوة مناجاته، فتبتلت أرواحهم فى محراب الوصول تنشد المزيد من الوصول، وتذوب عشقا فى الجناب القدسى الأعلى فتقترب وتقترب وتفنى ثم تبقى وعليها من خلع الرضوان ما عز وصفه وسما شأوه. فطوبى لهم من صفوة نجباء ومن خاصة أولياء رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم فى سجل أحبابه المقربين.

من أئمة أولئك الصفوة العارفين والأقطاب المقربين: ولى خاض بحار الشوق فى طلب الحقيقة حتى وصل إلى الله بقلب ليس فيه غيره، وروح لم تستعبد لسواه. إنه الإمام العارف سيدى أبو سليمان عبدالرحمن بن أحمد بن عطية بن سليمان العنسى الدارانى رضى الله تعالى عنه وأمدنا بمدده فى الدارين.

هو أحد أركان الطريق الصوفى وإمام من صفوة الرعيل الأول الذى أرسى مناهج السلوك وزاوج فى التصوف بين الصبغة العلمية والعملية فكانت أقواله وأعماله منارات على الطريق تهدى السائرين وتوجه السالكين.

والإمام الدارانى شامى الموطن فهو من أهل (دَارَيَّا) على ما ذكره السلمى [١]. وهى قرية من قرى الشام بغوطة دمشق.

وقد رحل إلى بغداد وأقام بها ثم عاد إلى الشام وتوفى ببلده . وقد ذكر ياقوت الحموى أنه توفى بداريا سنة خمس وثلاثين ومائتين هـ وقبره بها مشهور

---

(١) انظر: طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريبة ص٧٥.

يزار. بينما ذكر غيره من المؤرخين والصوفية أنه توفى سنة خمس عشرة ومائتين هـ، كما روى الإمام القشيرى فى رسالته [1].

هذا ونسبته إلى قرية داريا وقيل إلى داران إحدى قرى دمشق كما ذكره القشيرى ورجحه صاحب الشذرات.

وأما تلقيبه بالعنسى، فنسبة إلى أحد أصول عنس بن مالك بن أدد حَيٌّ من مذحج كما ذكره ابن خلكان [2].

وقد التقى سيدى أبو سليمان بصفوة من أعيان التابعين وأخذ عن الإمام سفيان الثورى رضى الله عنه، وأسند الحديث الشريف المروى عن أبى هريرة (من تواضع لله رفعه). كما أخذ عن الإمام الدارانى ثلة من أعيان الصوفية ومن أبرزهم مريده العارف سيدى أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه الذى قال فيه الإمام الجنيد رضى الله عنه: أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشام [3]!!

وقد انخرط العارف أبو سليمان فى سلك الصفوة منذ لمعت له أول بارقة من شعاع الطريق فقد ذكر الإمام القشيرى فى رسالته أنه حكى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال: (اختلفت إلى مجلس قاض، فأثر كلامه فى قلبى، فلما قمت لم يبق فى قلبى منه شىء.. فعدت ثانيا فبقى أثر كلامه فى قلبى حتى رجعت إلى منزلى فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق.. ثم يقول الإمام القشيرى - فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيا!! أراد بالعصفور ذلك القاضى، وبالكركى: أبا سليمان الدارانى)[4] أ هـ.

وبدأ الإمام الدارانى أول خطوة له على الطريق حيث انفتحت له أنوار الهداية فى قلبه وذاق حلاوة العبودية لله، فعكف على طاعة مولاه وخدمته، وألفت

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ١/٨٦.
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/٣٦٣.
(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ١/٩٥ وسير أعلام النبلاء للذهبى ١٠/١٨٢.
(٤) انظر المصدر السابق ١/٢٥٥ - ٢٥٦.

روحه العبادة بل عشقتها ، وبازدياد الطاعة يتأجج لظى الشوق، وتنساب العبرات فى جوف الليل لتفضى بأسرار المحبة وتبدى كوامن العشق الإلهى.

يقول تلميذه سيدى أحمد بن أبى الحوارى: (دخلت على أبى سليمان يوما وهو يبكى، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد،ولم لا أبكى وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت فى محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى: يا جبريل، بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى. وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم. فلم لا تنادى فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه؟ أم كيف يجمل بى أن آخذ قوما إذا أجنهم الليل تملقوا إلى؟ فبى حلفت أنهم إذا وردوا علىَّ يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلى وأنظر إليهم) [1]!!

وكان منهج سيدى أبى سليمان السلوكى ينحصر فى: عبادة مبنية على علم، وعلم مشيد على هدى الكتاب والسنة.

فيروى الإمام القشيرى بسنده عن سيد الطائفة الإمام الجنيد رضى الله عنه أنه كان يقول: (قال أبو سليمان الدارانى: ربما يقع فى قلبى النكتة - أى كلمة الحكمة - من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة) [2]!!

هذا هو التصوف الحق الذى نؤمن به ونعتنق مبادئه، ونسعى إلى غايته.

وهوالتصوف الذى يتحدى دعاوى المغرضين الذين يضعون حدودا مصطنعة بينه وبين الكتاب والسنة بينما سداه ولحمته من هدى الكتاب والسنة!

وكل من حاد عن الكتاب والسنة قيد شعرة: تلفظه الطريق طوعا أو كرها. هذا منطلق لابد أن نُعَبِّرَ عنه لاستشراف آفاق التصوف من قريب أو بعيد.

---

(١) انظر المصدر السابق ١/٨٧ - ٨٨.

(٢) انظر المصدر السابق ١/٨٦ وانظر طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص٧٨.

ولسوف نرى ثمار هذا المنهج من خلال مسيرتنا مع الإمام الدارانى حجة ناصعة له والتصوف بصفة عامة.

وبدهى أن عرض كل مسألة تطرأ للإمام الدارانى على الكتاب والسنة - كما ذكر آنفا - يستلزم الإحاطة والتبحر فى علوم الشريعة بالقدر الذى يسمح باستيعاب جوانب السلوك العملية بأسرها. ثم إن المزاوجة بين العلم والعمل من شأنها أن تكسب الإنسان علم مالم يعلم من حيث إنه وفى بحق ما علم.

ومن هنا نقف على نبعين استقى منهما الإمام الدارانى زاده العلمى هما: العلم الكسبى الذى تزود به أساساً ليمارس فى ضوئه عباداته ، ثم العلم الوهبى اللدنى الذى جاءه ثمرة لتطبيق العلم الكسبى عمليا.

فلنتعرف على بعض ملامح الجانب العلمى عند سيدى أبى سليمان: ونبدأ بنقطة لها خطورتها وأهميتها فى محيط التصوف. والكلام للإمام أبى سليمان. يقول رضى الله عنه: (ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد) [1]! - ويضيف قائلا - ولا خير فى قلب يتوقع قرع الباب يتوقع إنساناً يجىء يعطيه شيئاً)!!

إنه الرد الحاسم العملى على من يزعم أن التصوف هروب من الكسب الحلال أو تقاعس عن السعى فى طلب الرزق. كلا. فأخص متطلبات الصوفى هو القوت الحلال. فضلاً عن أن أهل التجريد من الصوفية لا يتكفّفون الناس بل يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون كما كان فى شأن السيدة مريم رضى الله عنها: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) [2]..

ثم نقف بعد ذلك على الصورة المشرفة لأبى سليمان العابد. الذى أشتهر فى عصره بأنه كان من الذين يصلون الصبح بوضوء العشاء!

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٥٩/١.

(٢) سورة آل عمران /٣٧.

كان يصف أقدامه فى حندس الليل ويظل قائماً لربه حتى غلبت عليه الهيبة والدهشة والجلال فكان لا يقوى على القيام لما فيه من غلبة الهيبة والجلال فيقضى الليل فى الذكر. ولذا يسمعه مريده سيدى أحمد بن أبى الحوارى يقول: (حيل بينى وبين قيام الليل) فيعلق على قوله موضحاً: (كان الذكر يغلب عليه فإذا قام غشى عليه).

كان الإمام الدارانى موقنا بأن الطاعة هى سبيل المعرفة، وأنها لا تنال إلا بمحض الهبة والتوفيق من عند الله. فقد سأله أحد معاصريه: (يا أبا سليمان: بأى شىء تنال معرفته؟ قال: بطاعته. قال فبأى شىء تنال طاعته؟ قال: به) [1].

ولقد قسم أبو سليمان منهجه فى الطريق إلى وسائل وغايات. وقد ربط هذا التقسيم بين سياحاته ورحلاته. فقد سمعه مريده سيدى أحمد يقول: (كنت بالعراق أعمل وأنا بالشام أعرف. قال مريده: فحدثت به سليمان ابنه فقال: معرفة أبى الله بالشام لطاعته له بالعراق، ولو ازداد لله بالشام طاعة لازداد بالله معرفة) [2].

وكان للإمام أبى سليمان فى عباداته سبحات من القرآن الكريم واستشراف لآفاق أنواره وانغماس فى محيط أسراره.

يروى صاحب الحلية عن سيدى أحمد مريده أنه قال : سمعت أبا سليمان يقول: (ربما أقمت فى الآية الواحدة خمس ليال، ولولا أنى بعد أدع الفكر فيها ما جزتها أبدا، وربما جاءت الآية من القرآن تطير العقل، فسبحان الذى رده إليهم بعد) [3]!!

ومع هذا الذكر المتصل والفكر المتواصل كان سيدى أبو سليمان يجد للطاعة لذة لا تعادلها لذة ، ونعيما لا يساويه نعيم. فكان يقول: (ذهب المطيعون لله بلذيذ

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٧٢/٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٦٢/٩.

العيش فى الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: رضيتم بى بدلا دون خلقى وآثرتمونى على شهواتكم فى الدنيا، فعندى اليوم فباشروها، فلكم اليوم عندى تحياتى وكرامتى، فبى فافرحوا وبقربى فتنعموا فوعزتى وجلالى ماخلقت الجنات إلا من أجلكم) (١).

وكان لتعايشه المستمر مع الطاعة يتعجب للمنقطعين عنها فيقول: (ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة إنما العجب ممن وجد لذتها ثم انقطع عنها، والعجب أن يصبر على الجفاء بعد الوصال، والقطيعة بعد المؤانسة، ولقد كانت لذته فى الطاعة لرؤية المطاع فيها، فهو فى الصلاة فى صلة مع المصلى له. وهو فى الذكر والمذكور وهو فى ذلك فى غيبته عن الخلق والأكوان.

يروى العارف المناوى أن سيدى أحمد بن أبى الحوارى قال له يوما: (صليت أمس صلاة فى خلوة فرأيت لها لذة. قال: ما لذتك منها؟ قال: كونى لم يرن أحد. قال: إنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق) (٢) !!

هذا هو صدق المعاملة مع الله عز وجل! وكان الإمام الدارانى يرى أن الطاعة تثمر مزيدا من الطاعة، وأن الشهوات والمعاصى حجب تحرم العبد من نعيم الخدمة والقربة.

فكان يقول: (من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب عبدا بشهوة تركت له) (٣).

ولقد شكا إليه مريده يوما فقال له: (لم أوتر البارحة ولم أصل ركعتى الفجر، ولم أصل الصبح فى جماعة. فقال له: بما كسبت يداك والله ليس بظلام للعبيد - شهوة أصبتها) (٤).

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٢٥٥.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٤٦١ وطبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص٧٩.

(٣) انظر طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى رضى الله عنه ص٧٧.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٢٥٨.

إن الصـوفـى دائمـاً فى جـهـاد مع نفـسـه إلى أن تتقـشع الحـجب وتتـلاشى الأستار، وكان الإمام أبو سليمان متعلق الهمة بربه قاصرا غايته عليه غير ملتفت إلى السوى. جاءه رجل يسأله عن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل فقال له: (أن يطلع الله على قلبك وأنت لا تريد فى الدارين غيره)[1]!!

إنها همة الأفذاذ، وإنها لقمة لم يسم إلى عليائها بعد الأنبياء إلا الصوفية ورثتهم. ولا ريب أن التحليق فى هذا الأفق السامى لا يعنى القدح فيمن يطلب ثواب الآخرة. فنحن متعبدون بطلب الثواب. وإنما الأمر ترق من حسن إلى أحسن ومن كمال إلى أكمل (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون)[2].

وللطاعات عند الإمام الدارانى أنماط متعددة تمتد لتشمل جوانب السلوك المختلفة. فهى عنده ليست قاصرة على أعمال الجوارح بل هناك ما هو أعظم منها وهو أعمال القلوب.

يروى عنه سيدى أحمد بن أبى الحوارى أنه قال: (لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا بصلاة ولكن بالسخاء وشجاعة القلوب وسلامة الصدور، وذمهم أنفسهم عند أنفسهم)[3].

إن مكمن الداء المعوق عن الوصول إلى الحضرة الإلهية إنما هو النفس. فإذا طهرت من أدناسها وانقمع هواها ألفت الطاعات وتحولت عاداتها إلى عبادات. فمخالفة هواها من أعظم القربات ؛ ولذا يقول سيدى أبو سليمان: (أفضل الأعمال خلاف هوى النفس)[4] ولقد خالف هواها حتى غدت طوع أمره وذللت فى مرضاة الله وخف وزنها عنده حتى كان يقول: (لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى لما قدروا عليه). وكان رسوخ سيدى أبى سليمان فى سبر أغوار النفس وكشف قناعها عجيبا. فكان يقول (من توسل إلى الله بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه وحكمه فى جنته)[5] وكان جهاده لنفسه فى العزوف عن الدنيا مثلا رائعاً

---

(١) المصدر السابق ٩/٢٥٦ - ٢٥٧ وطبقات الأولياء لابن الملقن ص٢٨٧.

(٢) سورة آل عمران/١٦٣.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم: ٩/٢٧٤.

(٤)، (٥) انظر طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص٨١.

مبنيا على الحكمة والتبصر. فالدنيا هى مهوى النفس الأمارة. وقد حذر الله تعالى منها بقوله: (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) (١) وكشف حقيقتها بقوله سبحانه (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٢). ونعى على المؤثرين لها على الآخرة بقوله تعالى: (بلى تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) (٣) ومن ثم كانت نظرة العارف أبى سليمان إلى الدنيا نظرة الحكيم الربانى. وقد فلسف هذه النظرة فى إشاراته الصوفية. فهو يقول: (الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية) (٤) ثم يضع بين يدى السالك هذه المعادلة: (من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما، وكل أم يتبعها بنوها). ويكشف اللثام عن حقيقتها محذراً: (الدنيا تطلب الهارب منها وتهرب ممن طلبها فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها طالبها قتلته) (٥)!!

ثم يبرز التضاد بين الدنيا والآخرة قائلا: (إذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحلت منه الآخرة، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تجئ الآخرة تزحمها لأن الدنيا لئيمة والآخرة عزيزة).

ويسمعه سيدى أحد مريده يوما وهو يقول: (خذ الكيزان تجد الماء) فيفسر ذلك قائلا: (يريد بذلك أخرج الدنيا من القلب تجد الحكمة فيه).

ومن ثم فقد زهد الإمام الدارانى فى الدنيا زهد الكبار، وهجر شهواتها هجر الأبرار. كان يتقلل فى معيشته ويجوع ويتقشف، ويقول: (مفتاح الآخرة الجوع ومفتاح الدنيا الشره) (٦) وكان يوصى مريده: (عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ويورث العلم السماوى).

وكان منطقه فى الجوع مبنيا على حكم ربانية أوضحها قائلا: (من شبع دخل عليه خمس آفات: فقد حلاوة العبادة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لظنه أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة وزيادة الشهوة) (٧).

---

(١) سورة فاطر/ ٥ . (٢) سورة آل عمران/ ١٨٥.

(٣) سورة الأعلى/ ١٦ - ١٧.

(٤) ، (٥) انظر: الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٤٥٨ ، ٤٦١.

(٦) ، (٧) المصدر الأخير ١/٤٥٧ ، ٤٥٨.

ولعلنا فى غنى عن التحفظ بأن مراد الصوفية من الجوع ليس هو المخمصة المهلكة للنفس، فذلك بمنأى عن منطق الشرع، وبالتالى عن منطق التصوف من حيث إن مبناه هو الشرع نفسه. كما أن الشبع مراد به ما فوق الكفاية مما هو ضار بالروح والجسم معا. فقد انتهز خصوم التصوف موهمات هذه المفاهيم ليهاجموها بها وهم بين الجهل والعناد فى لجاج.

ثم ننتقل إلى جانب الأحوال والمقامات عند العارف الدارانى رضى الله عنه. ونحتاج إلى صفحات وصفحات نسجل فيها هذا التفرد الصوفى والسمو الروحى الذى ينضح بالنور والإشراق. ولكن سنقبس من هذا الوهج قبسات نستضىء بها ونتعرف فى ضوئها على معالم هذه القمة الشامخة.

إن مفتاح الشموخ الروحى عند العارف أبى سليمان يتمثل فى شدة خوفه من ربه. كان خوف إجلال وكان خوف عقاب وخوف مسئولية. وأبلغ تصوير لمقامه فى الخوف قد سمعه منه مريده الشيخ أحمد بن أبى الحوارى يقول: (أمثل لى رأسى بين جبلين من نار، وربما رأيتنى أهوى فيها حتى أبلغ قرارها. فكيف تهنأ الدنيا من كانت هذه صفته [1] (؟!) ولقد تعايش مع هذا المقام حتى أدرك ثماره. وقد جسدها بقوله (أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى) وفى قوله: (إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات، وطرد الغفلة من القلب) فالخوف إذن يورث الحضور مع الله على الدوام ويطهر ساحات القلب من الغفلات حتى تشرق أنوار الوصول. ولقد بلغ من منزلة الخوف عنده أنه كان يقول: (لو أن محزونا بكى فى أمة لرحم الله تلك الأمة) (*).

وكان يرى أيضاً أن الخوف مقياس اليقين، إذ يقول عليه الرضوان: (لكل شىء صدق وصدق اليقين الخوف من الله تعالى).

ولقد وصل سيدى أبو سليمان إلى قمة اليقين إلى حد أنه كان يقول: (لو

---

(١) انظر حلية الاولياء لأبى نعيم ٩/٢٦١.

* انظر طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص/ ٨٢.

شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى) وكان الإمام ابن أبى الحوارى يسمعه آنذاك فعلق قائلا: (كان قلبه فى هذا مثل قلب أبى بكر الصديق يوم الردة) [1] !!

إنها قمة القمم التى لا يستشرف علياءها إلا الصديقون. وفى مقام المحبة صعد سيدى أبو سليمان إلى الذروة فكان يناجى ربه فى جنح الليل فى خلوته ويبوح له - وهو أعلم - بمحبته.

روى صاحب الحلية بسنده عن سيدى ذى النون المصرى رضى الله عنه يقول: (تسمعوا ليلا على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول: يارب: إن طالبتنى بسريرتى طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك) [2] !!

وذكر الإمام أبو طالب المكى فى (علم القلوب): أنه سئل أبو سليمان الدارانى عن علامة المحب فقال أن يكون فارا من الناس كالوحوش، واسمه - أى المولى عز وجل فى قلبه منقوش وهو بين يدى الله تعالى كالهائم المدهوش) [3].

وفى مقام الزهد وصل العارف الدارانى بهمته إلى غاية ما بعدها غاية. فالزهد عنده مقياس للصدق مع الله تعالى. إذ يقول: (لكل شىء معدن ومعدن الصدق قلوب الزاهدين) ثم إن للزهد - عند العارفين - مفاهيم متعددة. كل بحسب ما يرى ويتحقق، ولكن المفهوم الذى أطلقه سيدى أبو سليمان هو قمة المفاهيم التى أطلقت على الزهد ، روى الإمام أبو نعيم عن سيدى أحمد بن أبى الحوارى أنه سمع أبا سليمان يقول: (اختلفوا علينا بالزهد فى العراق فمنهم من قال: إن الزهد فى ترك الناس، ومنهم من قال: فى ترك الشهوات، ومنهم من قال

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٦/٩.
(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٥/٩.
(٣) انظر: علم القلوب لأبى طالب المكى بتحقيق عبدالقادر عطا ص٢٧١.

فى ترك الشبع. وكلامهم قريب بعضه من بعض. وأنا أذهب إلى أن الزهد فى ترك ما يشغلك عن الله) [1].

كان كل همه الانقطاع إلى الله تعالى ، وهو يصور الالتزام الذى يفرضه هذا الانقطاع بقوله: (من أظهر الانقطاع إلى الله فقد لزمه خلع ما دونه من عنقه) إنه صريح العبودية لله تعالى، وصريح الحرية من كل ما سواه. وهذا هو لب الولاية وجوهر الصدق مع الله عز وجل.

وتحدث الإمام الدارانى رضى الله عنه عن مقام الرضا حديث المتحقق الراسخ. فهو يقول: (الرضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق درجة المرسلين) فقمة الرضا تنتهى عند درجة الرسل ويتدرج الأولياء فى منازل هذا المقام كل بحسب مقامه.

أما عن درجة شيخنا الدارانى فى الرضا: فهو يصفها بقوله: (أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقا لو أدخلنى النار لكنت راضيا) [2].

أما المعرفة فقد تربع سيدى أبو سليمان فى عليائها. كان رضى الله عنه يقول: (لو أعلم أن بمكة رجلا يفيدنى فى هذا العلم كلمة - يعنى علم المعرفة - لحضرنى فيه أن أمشى على رجلى ولو ألف فرسخ حتى أسمعها منه) وفى هذه العبارة إشارة إلى أنه كان عارف زمانه ولم يوجد فى عصره من يفوقه ولو بكلمة وإلا لرحل إليه. والثابت أنه منذ فتح عليه بالشام لم يرتحل.

لقد استغرق فى محيط المعرفة حتى كان فتحه واتصاله ملازما له فى كل حال. فكان يقول: (إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه مالا يفتح لغيره وهو قائم يصلى) [3] !!

والمعرفة عنده اتصال يرتقى إلى المشاهدة فقد سمعه مريده سيدى أحمد

---

(١) انظر: الحلية لأبى نعيم: ٢٥٨/٩.

(٢) انظر: الحلية لأبى نعيم: ٢٦٣/٩.

(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٥٩/١.

يقول: لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هذه الآية الواحدة لاكتفوا بها: (وجوه يومئذ ناضرة.إلى ربها ناظرة) [1] !! [2]

ولقد سمعه أيضاً يقول: (أى شىء أراد أهل المعرفة؟ والله ما أرادوا إلا ما سأل موسى عليه السلام) [3] !!

تحقق سيدى أبو سليمان بالمقامات وارتقى فيها إلى القمة وكان من أوائل من تحدثوا من الصوفية عن ترتيب المقامات والأحوال ، وذلك لا يتسنى إلا للراسخين الواصلين.

كان رضوان الله عليه يقول: (القناعة أول الرضا والورع أول الزهد) [4] ثم يقول: (إذا بلغ العبد الزهد أخرجه إلى التوكل) [5] وهكذا حتى ينتهى السائر إلى غايته ويصل ، وليس بعد الوصل قطع بمقتضى الكرم الإلهى وإنما القطع لمن لم يصل.

يقول العارف أبو سليمان قدس الله سره: (إذا وصلوا إليه لم يرجعوا أبداً وإنما رجع من رجع من أول الطريق، [6] وإنما حرموا الوصول لتضييع الأصول، ومن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صح وصوله الخروج من الطبع والأدب مع الشرع واتباعه حيث سلك) .

ولقد ترجم رضوان الله عليه عن تعظيم المصطفى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ومحبة القوم لجنابه الشريف إذ سمعه مريده يقول: (لما حج أويس - أى القرنى سيد التابعين - دخل المدينة.. فلما وقف على باب المسجد: قيل له: هذا قبر النبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - فغشى عليه. فلما أفاق قال: أخرجونى فليس بلادى بلدا محمد صلى الله عليه وسلم فيه مدفون)!! [7] فدتك الروح يا معظم الجناب المحمدى.

---

(١) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣.
(٢) ، (٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٢٦٤.
(٤) المصدر الأخير ٩/٢٥٧.
(٥) المصدر الأخير ٩/٢٥٦.
(٦) المصدر الأخير ٩/٢٦١.
(٧) المصدر الأخير ٩/٢٦٢.

حقيقة والله: ليس من راء كمن سمعا!

كما يتجلى حب سيدى أبى سليمان للنبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - فى تعظيمه لقدر صحابته - رضى الله عنهم وعنا بهم - وعرفانه بحقهم وإجلاله لمقامهم. يقول مريده: (قلت لأبى سليمان كان عثمان بن عفان وعبدالرحمن ابن عوف موسرين؟ قال : اسكت. إنما كان عثمان وعبدالرحمن من خزان الله فى أرضه ينفقان فى وجوه الخير - قال - وسمعت أبا سليمان يقول: هم عاملوا ربهم بقلوبهم) (١).

لله أنت يا سيدى أبا سليمان من عارف بحقوق الصحبة المحمدية!

كان خلقه محمديا ومنطقه إلهاميا. يسأله رجل عن النكاح فيقول له: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار!!

وكان يقول: (تحذر من إبليس بمخالفة هواك، وتزين له - أى لمولاك - بالإخلاص والصدق، وتعرض للعفو بالحياء منه والمراقبة، واستجلب زيادة النعم بالشكر، واستدم النعمة بخوف زوالها، ولا عمل كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى).

ثم ننتقل إلى الكرامات التى هى آيات على صدق الولاية..

روى الإمام القشيرى بسنده عن يوسف بن الحسين أنه سُمع يقول: (كان بين أبى سليمان وأحمد بن أبى الحوارى عقد، لا يخالفه أحمد فى شىء يأمره به.. فجاءه يوما وهو يتكلم فى مجلسه، فقال: إن التنور قد سجر - أى حمى - فما تأمر؟ فلم يجبه.. فقال مرتين أو ثلاثة. فقال أبو سليمان اذهب فاقعد فيه!! كأنه ضاق به قلبه. وتغافل عنه أبو سليمان ساعة ثم ذكر. فقال: أدركوا أحمد فانه فى التنور، لأنه آلى على نفسه أن لا يخالفنى.. فنظروا فإذا هو فى التنور لم تحترق منه شعره) (٢)!!

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٦٢/٩.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ٤٣٥.

وهذه كرامة أخرى يرويها الإمام القشيرى قائلا: (وقال أبو سليمان نمت عن وردى فإذا أنا بحوراء تقول لى: تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام)[1] !! هذا هو الإمام الدارانى العارف المحقق الذى افتخر به الإمام النووى قائلا: (كان من كبار العارفين أصحاب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والحكم المتناظرة وهو أحد مفاخر بلادنا دمشق وما حولها)[2] رضى الله عنك يا سيدى أبا سليمان وأمدنا بمددك وجعلنا من خواص أحبائك وألحقنا بركبك المحمدى فى الدنيا ويوم الدين.



(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٢٥٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للمناوى ١/٤٥٧.

« ١٥ »

« سيدى بشر الحافى رضى الله عنه »

إلى عالم القدس والنور تطير أرواح المشتاقين إلى حضرة المولى عز وجل لمطالعة الجمال المطلق، والاستغراق فى محيط الأنوار الإلهية.

هنالك تحظى قلوب الربانيين من عباد الله بالأنس والمشاهدة وتنعم بالقرب والمناجاة، وتتحقق بأسمى مراتب العبودية باستمدادها من أنوار الربوبية . إنها معاريج أهل الصفاء والمشاهدة الذين اختصهم الله بولايته وجعلهم من أهل وده ورعايته.

ومن خاصة أولئك الصفوة الأولياء والأبرار الأصفياء : سيدى أبو نصر بشر ابن الحارث الحافى رضى الله عنه.

إمام عصره فى الزهد والورع ، وأوحد وقته فى التبتل والانقطاع إلى الله تعالى ، وهو أحد رؤساء الطريق ، وله الصدارة فى علوم القوم ، والإشارة العالية فى دقائق التصوف وسبر أغواره.

أصله من مرو . وقد ولد سنة ١٥٠هـ ثم سكن بغداد وأقام بها والتقى بأعلام الصوفية فى عصره كالإمام الفضيل بن عياض ومن فى طبقته.

كما التقى بالإمام السرى السقطى خال الإمام الجنيد وأستاذه. رضى الله عنهم أجمعين.

وقد أفاد العارف بشر من شيوخه ومعاصريه فى الطريق حتى صار إماما يشار إليه بالبنان لا يدانى فى ذوقه وعرفانه.

وكانت وفاته - رضى الله عنه - ببغداد سنة سبع وعشرين ومائتين[1] هـ.

ولنقف أولا على سبب تسميته بالحافى : لقد كان سيدى بشر رضى الله عنه يسير حافى القدمين منذ أن فتح عليه حتى لقى ربه.

وسبب ذلك أنه قد جلس يوما فى ابتداء أمره مع بعض رفقائه فى مجلس لهو وطرب ومسامرة. وبينما هو كذلك إذا برجل يدق بابه فخرجت له الجارية.

فقال لها : صاحب هذه الدار حُرٌّ أَمْ عَبْد ؟ قالت حر. قال: صدقت لو كان عبدا لاستعمل آداب العبودية وترك اللهو !!

ثم ولى الرجل ودخلت الجارية فأخبرت بشرا بما قال ذلك الرجل فخرج يعدو خلفه حافيا حتى أدركه.

فقال له : أنت الذى وقفت بالباب ؟ قال: نعم.

فقال له: أعد على ما قلته فأعاده . فهوى بشر إلى الأرض وأخذ يمرغ خده على التراب ويقول : بل عبد ابن عبد.

ثم هام على وجهه حافيا ومن ثم عرف بالحافى[2] .

لقد كانت كلمات ذلك الرجل الذى ساقه القدر المغيب شرارات تفجرت منها أعماق بشر بكل ما يكمن فيها من طاقات إيمانية كانت تنتظر هذا الميقات لتشق طريقها كالإعصار يجتاح كل مخالفة ، ويمحق كل خطيئة لكى تنبت أزهار الحب الإلهى فى ذلك القلب النقى الذى خلق لله فحرام عليه بعد اليوم أن يعيش لغير الله.

وتلفت العارف بشر وأخذ يجول بنظره فى آفاق الوجود ويبحث عن مصيره. إن مكانه هناك بين صفوف الزاهدين العارفين مع الفضيل والسرى وأضرابهما من أهل الحضرة الإلهية.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٠/٤٧٦.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٣٦٩.

ولقد سئل سيدى بشر بعد ذلك : لم لا تلبس نعلين تقيانك من الحر والبرد؟

فقال : ما صالحنى مولاى إلا وأنا حاف فلا أزول عن هذه الحالة !!

وثمة حادثة أخرى كان لها أثر كبير فى التحول الروحى عند العارف بشر : يقول الإمام القشيرى فى رسالته : (وكان سبب توبته أنه أصاب فى الطريق كاغدة - أى ورقة - مكتوبا فيها اسم الله عز وجل. قد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية فطيب بها الكاغدة وجعلها فى شق حائط . فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيبت اسمى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة)[1].

وقد تحقق الوعد الإلهى لسيدى بشر إذ طيب الله ذكره فى الدنيا وبعد انتقاله منها حتى لقد قال معاصره محمد بن الصلت: (كان اسمه بين الناس كأنه اسم نبى)[2] وحتى لقد كان رضى الله عنه يناجى ربه فى مرض موته (إلهى : رفعتنى فوق قدرى ونوهت باسمى وشهرتنى بين الناس فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحنى غدا يوم القيامة)[3] .

وللإمام بشر منزلة علمية رفيعة أقر له بها أساطين العلم والحديث فى عصره.

فقد كان من رواة الحديث الثقات ، وشهد له الإمام الدارقطنى قائلا : (وهو ثقة لا يروى إلا حديثا صحيحا) [4]

وله مرويات كثيرة تلقاها عن محدثى عصره كعبد الرحمن بن أسلم وابن المبارك وحماد وغيرهم، كما روى عنه جماعة منهم محمد بن المثنى والسرى السقطى ونعيم بن الهضيم وغيرهم.

وكذلك التقى بالإمام مالك وحج معه وسمع منه كما ذكر فى تاريخ بغداد.

---

(١) « الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦٨/١ والحلية لأبى نعيم : ٣٣٦/٨.
(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٣٦/٨ والكواكب الدرية للعلامة المناوى ٣٦٩/١.
(٣) انظر : الكواكب الدرية : ٣٧٣/١.
(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى : ٤٧٥/١٠.

ومن مروياته هذا الحديث الذى ذكره صاحب كتاب تاريخ بغداد بسنده عن محمد ابن المثنى السمار قال سمعت بشر بن الحارث يقول سمعت العوفى يذكر عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال: (اتخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - خاتما فلبسه ثم ألقاه).

ولكن الإمام بشرا قد توقف عن الرواية بعد أن رسخت قدمه فى الولاية، وبعد أن صار العلم فى عصره حرفة ومطية للجاه ووسيلة للدنيا لا للآخرة. لذلك كان الإمام بشر ينعى على المتكسبين بالعلم والذين قصر حظهم عن العمل به ولم يحققوا منه غايته.

فكان رضى الله عنه يقول : (يا طالب العلم أنت متلذذ متفكه بالعلم تسمع وتحكى لا غير . ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم. ويحك. إنما يراد بالعلم العمل فاسمع ياأخى وتعلم ثم اعمل واهرب. ألا ترى إلى سفيان الثورى رضى الله عنه كيف طلب العلم وتعلم ثم هرب ؟.فاسمع ما أقول لك فإن طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها)[1].

ومراد الإمام بشر من الهرب من الدنيا الزهد فيها وعدم التكالب على مناصبها فإن غاية العلم شريفة، وهى أسمى من ذلك.

وفى الركون إلى الدنيا إهانة للعلم وإجحاف بحقه وإماتة لرسالته.

أما سمات العلماء الحقيقيين فيصورها العارف بشر بقوله : (أدركنا العلماء وفيهم ثلاث خصال: صدق الحديث، والزهد فى الدنيا، وأكل الحلال، ولا نرى فيهم اليوم واحدة منها، فلذلك لا يعبأ بهم)[2].

ولقد انتهج الإمام بشر نهج أئمة الصوفية فى أداء حق العلم وهو العمل به . وكان عمله فى الخفاء بينه وبين مولاه حتى لا يداخله رياء ولا سمعة.

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى رضي الله تعالى عنه ٦٢/١.
(٢) المصدر السابق ٦٣/١.

وكان يطوى الليالى ساجدا لله ، وكان يقتات من الطاعة ويلتمس فيها غذاء الروح ونعيم القلب وسرور الفؤاد، كان يعشق الصفاء ويهيم فى التفكير فى عظمة الخالق ويسبح بوجدانه فى أعماق الحقيقة ونبض فؤاده لا يكف عن ترداد أحلى نغم تعشقه الروح (الله ... الله ...) لقد سكبت هذه الكلمة فى روحه راح المعرفة وإكسير المحبة وسلاف اليقين، فأخذ يترقى فى معاريج الاصطفاء من مقام إلى مقام، وكل مقام له سماء هى أرض لما فوقه ... وأن إلى ربك المنتهى.

ولقد تربع العارف بشر على عرش المحبة وارتوت روحه من دنان المعارف والأسرار فنطق بجوهر الحكمة النورانية وتدفق فى أعماقه نبع من المعرفة اللدنية فأخذ يسقى منه كل من صلح له وتأهل لاستمداده.

لقد سأله المازنى يوما عن التوكل فقال له : (اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب)[1] فقال له المازنى: ليس نفقه هذا . قال: نعم. ليس هذا من إبزاركم. قال: فـفسره لنا حتى نفقه. قال: اضطراب بلا سكون: رجل يضطرب بجوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله. وسكون بلا اضطراب : رجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة وهذا عزيز وهو من صفات الأبدال)[2] ا.هـ.

وكان العارف بشر يرنو فى بداية سيره إلى الله تعالى إلى حياة القلب التى تلى موت النفس والتى يليها حياة الروح والسر. وهى مراق يعرفها أهل الله.

فكان رضى الله عنه يقول : (حسبك أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن أقواما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم)[3].

ولقد أدرك العارف بشر منذ البداية أن استئصال حظ النفس من العبد هو بداية صعوده إلى مراقى الرجال.

وحظ النفس إنما يتمثل فى الشهوات والأهواء واللذات وكل علائق الطينية

---

(١) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/ ٣٧٠ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٨/ ٣٥١.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ٦٢.

التى تجـذب القلب إلى الأرض - أرض النفس - حـتى لا يرقى إلى سـمـاء الروح. لذلك حدد بصره إلى غـايته وألقى بحظ النفس بعيداً وأطلق هـذه العبارة التى أرسى بها قاعدة للسلوك (لا تجد حلاوة العبـادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)[1].

إنها عزيمة الأحرار الذين ملكوا نفوسهم ولم يمكنوها من أن تملكهم.

ولقد نأى سيدى بشـر عن كل مظنات الهوى النفسى فى كل أشكاله وصوره والتزم جانب الورع فى قمة المنازل ، وأعلى المراتب حتى لقد عرف عند الصوفية أكثر ما عرف بشدة ورعه.

فهذا هو أبو عبـد الله بن الجـلاء يقول : (رأيت ذا النون وكانت له العبارة ورأيت سهلا وكانت له الإشارة ورأيت بشـر بن الحارث وكان له الورع. فقيل له: فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لبشـر بن الحارث أستاذنا)[2].

وقد بلغ الورع عند سيدى بشـر إلى حد يفوق التصور حتى لقد كان يقول (إنى أشتهى الشواء منذ أربعين سنة ما صفا لى ثمنه)[3].

وذكـر الطوسى فى اللمع : إن سيـدى بشـرا حـمـل إلى دعـوة - أى وليـمـة - فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده فلم تمتد ثم جهد فلم تمتد ثلاث مرات.

فقال رجل ممن كان يعرفه: إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الرجل إلى بيته[4] ا هـ.

وكان سيدى بشـر - رضى الله عنه - يحذر من عدم التورع فى المطعم أهل عصره وكأنه صوت من السماء يدوى فى أعماق النفوس فتمتلئ القلوب بالخشية والهيبة. فها هو ذا يقول فى صرامة أهل الحق: (انظر خبزك من أين هو ولا تعرض لحمك للنار).

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ٣٥٤/٨.
(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٧٠/١.
(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.
(٤) انظر اللمع للإمام السراج الطوسى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٧٠-٧١.

وجاءت أخته يوما إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت له: إنّا نغزل على سطوحنا فتمر المشاعل فيقع الشعاع علينا فهل لنا أن نغزل فى شعاعها؟ فقال: من أنت؟ قالت: أنا أخت بشر. فبكى حتى أبكى من حوله، وقال : من بيتكم خرج الورع. لا تغزلى فى شعاعها!![1]

وروى الإمام الغزالى – رضى الله عنه – فى الإحياء عن بعض الصالحين : قال: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها غير بشر[2].

أتاه رجل فى مرضه فشكى إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه فاستعار ثوباً فمات فيه !!

إنه الإمام بشر الذى أتعب من بعده لأنه سما بسلوكه وهديه إلى مستوى القمة. قمة الزهد وقمة الإيثار وقمة التفانى فى مرضاة الله.

لقد دخل عليه رجل فى يوم شديد البرد فوجده عريانا يرعد وينتفض فقال له: يا أبا نصر ، ما هذا ؟ فقال : ذكرت الفقراء وماهم فيه وليس لى ما أواسيهم به فأحببت أن أواسيهم بنفسى فى مقاساة البرد[3]!!

لله درك أيها العارف المتخلق بأخلاق النبوة . إنها الشفقة الرحيمة بالفقراء، والمشاركة لهم فى البأساء والضراء. وإنها لصفات قد يجفوها غلاظ القلوب وقساة النفوس، ولكنها تمس شغاف القلب المؤمن وتعلمه كيف الرحمة بعباد الله.

أما عن مكانة القطب العارف سيدى بشر ومنزلته الصوفية عند شيوخ الطريق وأئمة السلوك: فإنها بلغت شأوا لا تناله إدراكات العقول.

وناهيك بمعرفته وورعه وزهده وأخلاقه.

أينما توجهت فى مناحى سموه وقفت على شواهد العظمة الإنسانية ممثلة فى أحد أفذاذها.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية : ٢٨٦/١ - ٢٨٧.

(٢) انظر الكواكب الدرية للمناوى ٣٧٣/١.

(٣) انظر اللمع للعارف أبى نصر الطوسى ص٢٧٣.

لقد ذكر سيدى محيى الدين بن عربى - رضى الله عنه - فى فتوحاته كما ذكر الإمام القشيرى فى رسالته (أن بعض الصالحين لقى الخضر فقال له : ما تقول فى الشافعى ؟ قال: من الأوتاد . قال: فأحمد بن حنبل ؟ قال: صديق. قال: فبشر الحافى ؟ قال: ما ترك بعده مثله !!)[1].

وذكر صاحب تاريخ بغداد أن محمد بن المثنى قال للإمام أحمد بن حنبل: (ماتقول فى هذا الرجل؟ قال له: أى الرجال؟ قال له: بشر، فقال له: سألتنى عن رابع سبعة من الأبدال!!).

ولقد كان سيدى بشر كثيرا مايلتقى بسيدنا الخضر. ويروى الإمام الشعرانى أن العارف بشرا كان يقول : (دخلت دارى يوما فإذا رجل جالس فى الدار فقلت له كيف دخلت دارى بغير إذنى فقال أنا أخوك الخضر. فقلت ادع لله تعالى لى . فقال عليه السلام : هون الله عليك طاعته. فقلت زدنى . قال وسترها عليك)[2].

ولقد كان سيدى بشر كما يقول العارف المناوى من الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله. ولقد صلى يوما فأطال وأحسن ورجل يصلى خلفه ففطن به الإمام بشر ، فقال له:لا يعجبنك ما رأيت منــى فإبليس عَبَدَ الله مع الملائكة دهراً ثم صار إلى ما صار إليه[3] .

لقد قصد سيدى بشر بذلك أن يسد منافذ الشيطان إلى قلبه والتى يتسلل منها عن طريق العجب والرياء .

ومن كبشر فى ذلك ! إن الخليفة المأمون لم يكتم مشاعره بالإجلال تجاه هذا الولى العارف فقال يوماً ليحيى بن أكثم : (لم يبق فى هذه الكورة أحد يستحى منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث).

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/٦٩-٧٠ والكواكب الدرية للمناوى ١/٣٧٣.
(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/٦٢.
(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٣٧٢.

أجل بشر بن الحارث ذلك الرجل الذى أقام الدنيا وأقعدها وهى لا تساوى عنده جناح بعوضة.

ولقد لخص العارف بشر فلسفته الصوفية فى هذه العبارة حين سئل عن التصوف فقال : (هو اسم لثلاث معان ألا يطفئ نور معرفة العارف نور ورعه ، وألا يتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى)[1].

كلمات تفيض بالحكمة والنور والإشراق ومعان لا تصدر إلا عن أهل الله ، أهل المعرفة والورع . إنها قوانين القلوب التى تعرف الطريق لمولاها فتسير إليه على هديها .

ومن أقباس الحكمة الربانية عند العارف بشر (من حرم المعرفة لم يجد للطاعة حلاوة ، ومن لا يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه فى جميع الأحوال ، ومن زهد فى الدنيا على حقيقة كانت مؤنته خفيفة ، ومن وهب الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات . والمؤمن إذا عاش حزينا ولم يرد القيمة أفضل من الراضين عن الله) [2]. تلك آفاق مضيئة بالنور الإلهى يعرفها أهلها ويحلقون فى أجوائها كما حلق الإمام بشر الذى منحه الله من العطاء ما لا يخطر على قلب بشر.

يقول الإمام المناوى فى طبقاته : إن أحد الصالحين رآه - أى سيدى بشرا - فى منامه بعد موته ماشيا فقال له من أين ؟ قال من عليين . قال ما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال تركته الساعة يأكل ويشرب بيدى الله . قال فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه [3] !!.

رضى الله عن الإمام بشر فى عليين ورضى عنا به مع أوليائه المتقين وأمدنا بمدده فى الدارين . آمين .

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/٦٣.
(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى : ٨/٣٤٩ - ٣٥٠.
(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٣٧٤.

« ١٦ »

إمام السَّلَفِيَّة الحقَّة والصوفية الصادقة
« الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه »

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّٰه عليه . فلم يشغلهم فى الوجود إلا الوصول إليه ، ولم تحجبهم الأكوان عن التحقيق بمقام الإحسان لديه ، فغسلوا أرواحهم فى محيط الطاعات ، وخاضوا بنفوسهم بحار المجاهدات حتى صارت العبادات عندهم عادات ، وتبتلوا بقلوبهم فى محراب الجهاد الأكبر حتى نفذت إلى سرائرهم أشعة النور المحمدى فاتصلوا بالحضرة الإلهية وصاروا فى كنف الذات العلية . أولئك هم أهل ود الله ووداده ، وعيون صفوته من عباده . رضى اللّٰه عنهم وأمدنا بمددهم لنلحق بركبهم ونظفر بمعيتهم فى الدنيا ويوم الدين.

من رؤوس أولئك الأولياء الصادقين ، وأعيان أئمة الشريعة المجتهدين إمام ملأ الدنيا بعلمه وعمله ، ونصر الدين بحاله ومقاله ، ورفع لواء السنة برسوخه وشموخه ، وسما على الأفذاذ بجهده وجهاده ، فكان إشراقة نور محمدى شَرَّفَتْ وجه التاريخ ، ودعامة إيمان مكنت لصرح الإسلام ، إنه الإمام الصديق حجة الشرع وقدوة أهل التحقيق ، سيدى ومولاى الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى رضى اللّٰه عنه وعنا به، وغمرنا بأنواره وأمدنا بأسراره فى معية إمامنا الشافعى الأعظم عليه الرضوان دنيا وآخرة بجاه سيد الأولين والآخرين صلى اللّٰه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين فى كل وقت وحين.

فى صحبة رابع أئمة الشريعة والحقيقة مولانا الإمام أحمد نحلق فى أفق نوره المحمدى بعد أن حلقنا فى آفاق الأنوار الثلاثة - فى سالف حلقات أعلام الصوفية - مؤكدين بمنطلق العلم والواقع - من خلال إبراز صوفيتهم الرفيعة

الممثلة فى نهجهم وتحققهم ومجاهداتهم وإشاراتهم ، وأحوالهم ومقاماتهم وكراماتهم .

إن التصوف فى جوهريته المثالية وصورته الحقيقية ما هو إلا ثمرة الشريعة ونتاجها الشرعى الذى لا يمكن بحال فصله عنها مهما أرجفت زُمَرٌ لم يكتب لها أن تخترق ظلمة الحجب لتستشرف آفاق النور وتعانق جوهر الإسلام ، فكان فى إجلاء الجانب الصوفى عند أئمة الشريعة حسمٌ للقضية ، ودلالةٌ بواضح البرهان حيث تعذر العيان .

ولابد لنا من نظرة تاريخية عابرة فى حياة الإمام نتبعها بأخرى فى الجانب العلمى عنده لنصل إلى الثمرة عند الجانب الصوفي، وعنده نضرب الأطناب ونحل بالرحاب ، ولولا ضرورة التكامل الموضوعى لآثرنا قصد الجانب الصوفى مباشرة ، ولكن من الأبواب تؤتى البيوت ، ولولا بياض العين ما حفظ السواد.

يتفرع الإمام أحمد عليه الرضوان من شجرة عربية عدنانية يذكر التاريخ مآثرها وأمجادها فى صفحاته وهى قبيلة شيبان ، وتمتد أصولها إلى نزار بن معد ابن عدنان حيث يلتقى إمامنا فى النسب مع أشرف الخلق صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

ولا ينسى التاريخ من أعضاء تلك الشجرة المباركة البطل الإسلامى الجليل سيدنا المثنى بن حارثة رضى الله عنه الذى قاد جيوش المسلمين فى عهد الصديق الأكبر سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه وعنا به.

وكانت شيبان تقيم بالبصرة؛ ولهذا عرف الإمام بأنه بصرى الأصل ولذا يروى أنه كان إذا مـر بالبصرة صلى فى مسجد مازن بن شيبان وقال : إنه مسجد آبائى [1].. ثم انتقل جده حنبل بأسرته إلى خراسان حيث كان والياً للأمويين على سرخس وكانت ميوله إلى العباسيين فكان داعية لهم.

---

(١) انظر : مناقب الإمام احمد بن حنبل لابن الجوزى ص ١٨ - ٢٠.
نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت، وانظر الحلية لأبى نعيم : ١٦٢/٩.

ولما لهذا الجد من شهرة ودور تاريخى كانت نسبة الإمام أحمد له فصار يقال أحمد بن حنبل وغلبت نسبته لأبيه محمد بن حنبل الذى كان جندياً غازياً . كذلك كانت أم الإمام شيبانية الأصل ، فهى السيدة صفية بنت ميمونة بنت عبد الله الشيبانى[(1)] .

أما عن مولد الإمام ووفاته وطرف من نشأته فيحدثنا ابنه سيدى أبو الفضل صالح - فيما رواه سيدى أبو نعيم الأصبهانى بسنده فى حليته - قائلاً : « سمعت أبى يقول : ولدت سنة أربع وستين ومائة فى أولها فى ربيع الأول ، وجيء بى حملا من مرو - وتوفى أبوه محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليته أمه - قال أبى : وكان قد بعث أدما لى فكانت أمى رحمها الله تصبر فيه حبة لؤلؤ ، فلما ترعرعت فكانت عندها فدفعتها إلىّ فبعتها بنحو من ثلاثين درهما !! - قال أبو الفضل - وتوفى أبى رحمه الله ليلة الجمعة لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فكانت سِنُّهُ من يوم ولد إلى أن توفى سبعا وسبعين سنة .

قال أبو الفضل : - قال أبى : طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة. ومات هشيم وأنا ابن عشرين سنة ، وأول سماعى من هشيم سنة تسع وسبعين وكان ابن المبارك قدم فى هذه السنة ، وهى آخر قَدّمَةٍ قدمها ، فذهبت إلى مجلسه فقالوا قد خرج إلى طرطوس وتوفى سنة إحدى وثمانين[(2)] هـ.

ولد الإمام ونشأ فى بغداد حاضرة العالم الإسلامى وملتقى علوم الإسلام وثقافات العالم آنذاك . فبدأ الإمام رحلة النور بحفظ كتاب الله تعالى وتلقى وسائل العلم الأولية ، إذ يقول رضى الله عنه : (كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب ، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة)[(3)] .

ثم كان المتجه العلمى الأول بعد ذلك هو حلقات المحدثين للإلمام بالأصل

(1) انظر : مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ١٨ - ٢٠. نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت، وانظر الحلية لأبى نعيم : ١٦٢/٩.

(2) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ١٦٣/٩.

(3) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٢١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٨٥/١١.

الثانى من أصول الدين وهو حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أن وقع بصر الأئمة على هذا الفتى حتى تمنى كل منهم أن يحظى بنسبته إليه وإفراغ محصلته فى صدره لما بدا عليه من سمات الفتح الربانى .

فهذا هو الهيثم بن جميل - وكان من شيوخ الحديث -.يرى الإمام أحمد وهو فى مقتبل فتوته فيرى فيه مالا يراه الآخرون فيهتف : (أحسب هذا الفتى إن عاش يكون حجة على أهل زمانه)[(1)] !

وتمضى خطى الزمن ، ويحدث الهيثم بن جميل ذات يوم بحديث عن هشيم فيوهم فيه فيقال له : خالفوك فى هذا ، فيقول من خالفنى ؟ فيقال له أحمد ابن حنبل فيقول ، وددت أنه لو نقص من عمرى وزيد فى عمر أحمد بن حنبل) !!.

وتختلف الروايات فى أول شيوخ الإمام أحمد فى الحديث ، فالرواية التى سلفت هنا تثبت أن أول شيوخه - على التقريب - كان الإمام هشيم بن بشير الواسطى شيخ المحدثين بالعراق فى عصره [(٢)] وقد أخذ عنه الإمام مالك ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدى الذى يراه أحفظ للحديث من الإمام سفيان بن عيينة الذى أخذ عنه إمامنا الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما والذى كان محدث مكة ومرجع الحفاظ بها.

وثمة رواية أخرى عن الإمام أحمد تقول: (أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف) وهو صاحب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما وهو كصاحبه إمام فى فقه الرأى .

فاجتمع للإمام أحمد من هشيم وأبى يوسف فقه الرأى مع فقه الأثر.

وقد أخذت همة الإمام تحلق فى أجواء العلم منذ عرف الدواة والقرطاس بعزيمة تسابق الأنفاس ، فقد روى أنه كان يقول : « كنت ربما أردت البكورفى

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٦٧/٩.

(٢) انظر مناقب الإمام احمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٢٤ وحلية الأولياء ١٦٣/٩.

الحديث فتأخذ أمى بثيابى وتقول : حتى يُؤَذِّنَ الناسُ أو يصبحوا ! وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبى بكر بن عباس » !! لقد هجر الكرى وقلى الهجوع تعشقاً لطلب العلم.

وظل الإمام منذ بدء تلقيه الحديث الشريف سنة ١٧٩هـ يتلقى على أئمة بغداد وأساطين حفاظها حتى سنة ١٨٦هـ حيث بدأت رحلاته العلمية مبتدئاً بالبصرة ثم الحجاز فى العام التالى ، وتعاقبت رحلاته من بعد إلى اليمن والكوفة وغيرها من البلدان فالتقى بعيون الحفاظ ولازم أئمة الرواة من أمثال يحيى القطان ويزيد بن هارون ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق بن همام محدث صنعاء وغيرهم متحملا شاق الارتحال مستهينا بما لاقاه من صعاب فى سبيل حمل الأثر النبوى الشريف وأخذه من مصادره الوثيقة .

يروى أبو نعيم بسنده إلى إبراهيم الدورقى أنه قال : (لما قدم أحمد بن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت شحوباً وقد تبين عليه أثر النصب والتعب ، فقلت: يا أبا عبد الله، لقد شققت على نفسك فى خروجك إلى عبد الرزاق، فقال: – ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ، كتبنا عنه حديث الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة).

وفى رحلة الإمام الأولى إلى الحجاز سنة ١٨٧هـ حيث كان الإمام يقصد الإمام سفيان بن عيينة : محدث مكة الكبير التقى فى جوار الله الحرام بأعظم شيوخه ، الإمام الأكبر ، عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علما.

إنه إمامنا الشافعى رضى الله عنه وعنا به ابن عم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وناصر سنته . فوجد فيه الإمام ابن حنبل بغيته المنشودة أو بالأحرى وجد فيه ذاته . فكل ما كان ينشده الإمام أحمد فى إمام وشيخ وأستاذ وجده فى مولانا الشافعى .

فقد رأى سيدى أحمد فى شيخه الشافعى الإمام فى فقه الحديث وحسبنا أنه قال فيه : « ما كان أصحاب الحديث يعرفون معانى حديث رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – حتى قدم الشافعى فبينها لهم » !! .

كما صور الإمام أحمد تمسك شيخه بالسنة أشد التمسك علما وعملا بقوله عنه : (كان إذا جاءه الحديث عن النبى - صلى اللّٰه عليه وآله وسلم - أو عن أصحابه لم يلتفت إلى غيره، وكان رجلا جمع اللّٰه فيه العلم والفقه وقراءة القرآن والخضوع[1]).

وما أحسب أحد بلغ مبلغ الإمام أحمد فى تقدير إمامنا الشافعى إذ قال : (ما مس أحد بيده محبرة وقلما إلا وللشافعى فى عنقه منة) [2] !!

لقد عرف لشيخه حقه ، وكما تملى طبائع الأشياء أن تمام إدراك الشيء منوط بعظم درجة القرب منه فإن الإمام أحمد قد أذاب كل مسافة بينه وبين شيخه من حيث الاتصال فلم ينسه حتى فى صلاته فقد روى عنه البيهقى أنه كان يقول : «إنى لأدعو اللّٰه للشافعى فى صلاتى منذ أربعين سنة أقول اللهم اغفر لى ولوالدى ولمحمد بن إدريس الشافعى فما كان منهم أتبع لحديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم منه » [3] .

ومصداق تلك التبعية ما ذكره الإمام المناوى من أن إمامنا الشافعى عليه الرضوان رأى النبى - صلى اللّٰه عليه وآله وسلم - وقد أعطاه ميزاناً فأولت بأن مذهبه أعدل المذاهب وأوفقها للسنة التى هى أعدل الملل [4] !!

ومن ثم كان الإمام أحمد يفتى برأى شيخه الشافعى حين يفتقد الأثر إذ ذكر البيهقى بسنده إليه أنه كان يقول : (إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرا ، قلت فيها بقول الشافعى ؛ لأنه إمام عالم من قريش ، وروى عن النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم أنه قال : عالم قريش يملأ طباق الأرض علما).

وأخذ الإمام عن شيخه تمسكه المثالى بالسنة والأثر لدرجة أنه نهى أن تروى عنه الفتيا اكتفاء بالحديث الشريف، وقد وضع مُسْنَدَهُ العظيم مصدرا لتتلقى الأمة

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٩ / ١٨٤.

(٢) انظر مناقب الشافعى للبيهقى بتحقيق السيد صقر ٢/٢٥٥.

(٣) انظر : مناقب الشافعى للبيهقى ٢/٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٤٨٠ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

أحكامها مباشرة من محيط السنة ولذلك عد بعض الأئمة كابن جرير الطبرى وابن قتيبة الإمام أحمد فى زمرة المحدثين لا الفقهاء رغم أن له مصنفات فى الفقه كالمناسك الكبير والصغير وغيرهما.

ولقد لقى الإمام أحمد من أئمة العلماء ما هو جدير به من تقدير.

فهذا يحيى القطان يقول : (ما قدم على مثل أحمد بن حنبل) [1] وأبو زرعة يقول : (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل فى فنون العلم وما قام أحد بمثل ما قام أحمد به) [2].

ويقول سعيد بن خليل الخراز : (لو كان أحمد بن حنبل فى بنى إسرائيل لكان آية) [3] وهو والله فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آية وأى آية !!.

ولله در أبى العباس أحمد بن إبراهيم إذ قال : « من دون أحمد كلهم فى ميزان أحمد كما أن الناس دون أبى بكر فى ميزان أبى بكر الصديق » [4] !!

وليس ذلك بمغالاة فى حق إمام أهل السنة الذى يذكر الإمام المناوى أنه كان يحفظ ألف ألف حديث [5] !!

وأخذ عنه الحديث كل من البخارى ومسلم وأبى داود وغيرهم من أئمة علماء السنة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

أنتقل بعد ذلك إلى صوفية الإمام أحمد حيث بيت القصيد وغاية الحديث لتكتمل أمامنا صورة الإمام الربانى والصديق الثانى إمام الأولياء وقدوة الأصفياء.

أما الصورة التى يضعها إمامنا المؤرخون وأصحاب الطبقات للإمام أحمد العابد والزاهد فهى صورة تنحنى لها هامة التاريخ إجلالا وإعزازاً.

---

(١) انظر مناقب الإمام احمد لابن الجوزى ٧٣ - ٧٤.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ١٦٤/٩.

(٣) المصدر نفسه ١٦٦/٩.

(٤) المصدر نفسه ١٦٦/٩.

(٥) انظر الكواكب الدريه للإمام المناوى ٣٤٢/١ وانظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٥٩.

وفى مقدمة الشهادات التى يعتز بها التاريخ للإمام فى الجانب العملى إلى جوار الجانب العلمى على السواء شهادة إمامنا الشافعى رضى الله عنه له إذ قال فيما أسنده إلى البيهقى : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أروع ولا أعلم - قال الراوى حرملة - وأظنه قال ولا أفقه من أحمد بن حنبل »[1].

وعن بعض جوانب الصورة السلوكية للإمام يقول الإمام المناوى رضى الله عنه : « وكان مجلسه خاصاً بالحديث وبأمور الآخرة لا يذكر فيها شيئاً من شئون الدنيا إلا لضرورة ، وكان أكثر إدامه الخل ، وإذا اشتهى الطعام طبخوا له عدسا وشحماً فى فخارة ، وكان يحيى الليل كله ، ويميل إلى العزلة ويؤثرها حتى كان لا يرى إلا بالمسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، وحج خمس حجات ثلاثة منها ماشياً »[2].

ويحدثنا سيدى عبد الله بن الإمام أحمد عن بعض أوراد أبيه فى العبادة فيقول بإسناد صاحب الحلية إليه : « كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة وكان قرب الثمانين »[3].

كان الإمام مع كل مسئولياته العلمية وغيرها منقطعاً لربه فارا من الأكوان إلى المكون يناجيه ويتحبب إليه بكلامه لا سيما وقد أعلمه الحق تعالى أن مناجاة الله عز وجل بكلامه وتلاوة قرآنه العظيم هى أفضل ما يتقرب به العبد من ربه .

يقول حجة الإسلام مولانا الغزالى - رضى الله عنه وعنا به - فى الإحياء : « وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت يا رب ، ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد ، قال : قلت يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم »[4] !!

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١١/١٩٥.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٣٤٢.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/١٨١.

(٤) انظر إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى ١/٢٤٦ ط/ العثمانية .

وفى سياق ذكر عبادات الإمام أحمد رضى الله عنه يروى ريحانة الأولياء سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به طرفا من هذا الجانب قائلاً : « وكان رضى الله عنه يضرب به المثل فى اتباع السنة واجتناب البدعة ، وكان لا يدع قيام الليل ، وله فى كل يوم وليل ختمة ، وكان يسر ذلك عن الناس » (١) وكان رضى الله عنه يتعجب ممن يطلب العلم الشرعى ولا يكون له قدم فى العبادة وعلى الأخص قيام الليل .

فيذكر الإمام الشعرانى أن أبا عصمة - وكان من طلاب العلم عند الإمام - قال : بت ليلة عند أحمد رضى الله عنه فجاءنى بماء فوضعه . فلما أصبح نظر إلى الماء كما هو . فقال : يا سبحان الله ! رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من قيام الليل (٢) !!

وعاش الإمام أحمد على التقلل والزهد فى الدنيا وقد كانت رهن بنانه. فيذكر الإمام أبو نعيم فى بعض رواياته أن الإمام أحمد كانت تمضى عليه الثلاثة أيام لا يطعم فيها شيئا، وقد عرض عليه يزيد بن هارون وهو يتلقى عنه الحديث الشريف مع يحيى بن معين خمسمائة درهم، فأخذ بن معين ورفض الإمام . (٣)

كما روى أن ابن الجروى جاءه بثلاثة آلاف دينار كانت له من إرث حلال يريد منحها إياه فقام وتركه !! .

وحين كان الإمام أحمد ملازما للإمام الشافعى ببغداد ورأى الإمام الشافعى تلميذه أحمد يرحل لليمن بين الحين والآخر لتلقى الحديث الشريف عند عبد الرزاق مع ضيق ذات اليد وكان الأمين قد فوضه فى اختيار قاض لليمن فاختار الإمام أحمد وعرض عليه لينال رزقا يعينه على طلب العلم واجه الإمام شيخه الشافعى وبعظمة التقدير والحب والاحترام قائلاً : « يا أبا عبد الله ، إن سمعت منك هذا ثانيا لم ترنى عندك » (٤) !!

---

(١) ، (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٤٧/١ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٧٧/٩، ١٧٩.

(٤) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ٢٧٠ - ٢٧١.

ولا يخفى أن ذلك كله من باب الورع والزهد تخليا لله لا سلبية فى الحياة فالدور الذى قام به الإمام يعجز عن أدائه الفحول . ولولا ثقة شيخه الشافعى بأن الدنيا لن تنال منه ما عرض عليه القضاء، ولولا رغبة الإمام أحمد فى التخلى لربه لما رفض . إنها همة الأفذاذ التى ترفض ما سوى الله مأربا فكان الإمام فى زهده متعلقاً بالله تعلقاً لم يدع فيه بقية لغيره.

وهذا منطقه يعبر عن مقامه . يقول رضى الله عنه - فيما رواه المناوى :- (زهد العوام عن الحرام ، وزهد الخواص عن الفضول من الحلال : وزهد العارفين فى ترك ما يشغل عن الله).

وكان رضى الله عنه آية فى الورع ومرجعا لأئمة القوم فى فلسفته ، يذكر الإمام المناوى عن الإمام الطرطوسى أنه قال : (ذهبت أنا ويحيى بن الجلاء وكان من الأبدال إلى أحمد فسألناه: بما تلين القلوب ؟ فقال بأكل الحلال . فمررنا من عنده إلى بشر - أى الحافى - فسألناه عنه فقال : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) [(١)]. فقلت : إن أحمد سألته . فقال : إيش قال ؟ فقلت قال : بأكل الحلال . قال : جاء بالأصل . الأصل ما قاله أحمد) [(٢)].

أى أن أكل الحلال هو أساس اطمئنان القلب بذكر الله لأن من ذكر الله وطعامه حرام لا يطمئن له قلب . وهل ينبئك مثل خبير ؟؟ وكان الإمام أحمد على خوف عظيم من ربه والخوف مقام عظيم عند الصوفية؛ ولذلك يذكر المناوى أن الإمام أحمد قال : (سألت ربى أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلى، فقلت يا رب على قدر ما أطيق ففعل ذلك فسكنت) [(٣)] .

ولقد برح الخوف بإمامنا الصوفى أحمد حتى لقد ذكر مولانا الشعرانى عنه أنه : (لما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده) [(٤)] !!

---

(١) سورة الرعد / ٢٨.

(٢) ، (٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٤٣/١.

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٤٧/١.

إنه خوف من ربه قد ملك عليه جوانب قلبه وقد أثمر هذا الخوف إيثار الإمام دينه وأمانته فى العقيدة على كل شىء فامتحن أقسى امتحان تعرض له إمام فقد أراد الخليفة العباسى المأمون - وكان معتزليا أن يحمل الإمام أحمد على القول بخلق القرآن إذ كان المعتزلة ينفون عن الله سبحانه وتعالى صفات المعانى ، وأنكروا كونه تعالى متكلما وثبت الإمام أحمد كالطود الشامخ يقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكان مع الإمام فى المحنة محمد بن نوح وسجادة والقواريرى فعقدت مناظرات ومجادلات لم تسفر إلا عن رسوخ الإمام وأصالة مذهبه فلم يبق لدى الخليفة إلا التنكيل بالإمام ومن تبعه ثم الإنذار بالإعدام وشد الإمام وصحبه بالأصفاد وكبلوا بالحديد ولم يحتمل القواريرى وسجادة العذاب فأجابا إسحق بن إبراهيم نائب الخليفة ببغداد لطلبه وبقى الإمام ومحمد بن نوح فى قلب المحنة وسيقا إلى الخليفة بطرسوس لينفذ فيهما أمره، واستشهد سيدى محمد بن نوح فى الطريق ومضى الإمام بإيمانه بربه فتلقاه خادم المأمون باكيا يقول له : عزَّ علىَّ يا أبا عبد الله ما نزل بك قد جرد أمير المؤمنين سيفا لم يجرده قط وبسط نطعا لم يبسطه قط ثم قال : وقرابتى من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقولا : (القرآن مخلوق).

وهنا تظهر بحق كرامه الولى ومقام الإمام عند ربه . يقول الراوى أحمد العسال - فيما ذكره الإمام الشعرانى - (فجثا أحمد على ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ودعا . فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة فأقبل علينا خادمه وهو يقول صدقت يا أحمد ، القرآن كلام الله غير مخلوق . قد مات والله أمير المؤمنين) (1) !!

ولكن المحنة لم تنته بعد فتولى المعتصم وظل الإمام - كما يروى الإمام الشعرانى عن سيدنا الفضيل بن عياض - محبوساً ثمانية وعشرين شهراً وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم

(1) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٤٧/١.

وتولى الواثق فاشتد الأمر على الإمام أحمد ، وقال لا أسكن بلدا ألحد فيه، وأقام مختفيا لا يخرج لصلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة !!

وقد شهد الأئمة للإمام أحمد بأوسمة من المجد ومقاليد من العرفان بحقه.

فيروى مولانا الشعرانى أن سيدى بشرا الحافى رضى الله عنه كان يقول : (امتحن أحمد بعد ما أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر)[1].

ويقول مولانا الشعرانى عليه الرضوان : (وأرسل له الخضر فقيرا فقال يا أحمد إن ساكنى السماء ومن حول العرش راضون عنك بما صبرت نفسك لله عز وجل)[2].

وشهد سيدنا الخضر - عليه السلام - للإمام أحمد بالصديقية . يروى الإمام القشيرى فى رسالته بسنده عن بلال الخواص أنه قال : (كنت فى تيه بنى إسرائيل فإذا رجل يماشينى فتعجبت منه ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام. فقلت له: بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر، فقلت له أريد أن أسألك فقال: سل فقلت : ما تقول فى الشافعى رحمه الله ؟ فقال : هو من الأوتاد . فقلت ما تقول فى أحمد بن حنبل رضى الله عنه ؟ قال : رجل صديق)[3].

والصديقية تحتل ذروة الولاية وليس بينها وبين النبوة إلا مقام القربة وهو مقام سيدنا الخضر كما ذكر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه وعنا به .

وكان الإمام أحمد رضى الله عنه من أئمة الصوفية المدافعين عن التصوف ، فيروى الإمام المناوى أن ابن الإمام قال : (سمعت أبى يقول وقد قيل له : إن هؤلاء الصوفية قعود فى المساجد على التوكل بغير علم . قال : العلم أقعدهم . قيل له إن همتهم كسير وخرقة. قال: لا أعلم أعظم قدرا ممن هذه صفته .

---

(١) ، (٢) المصدر السابق ٤٨/١.

(٣) انظر : الرساله القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ٦٩/١.

قيل فإنهـم إن سمعوا السماع يقومون فيرقصون . قال : دعهم يفرحون بربهم) [١].

وكـان الإمـام من أعظم المـتوسلين بالنبى - صلى اللّه عليـه وآله وسلم - المتبركين بآثاره . يروى صاحب الحلية عن عبد اللّه بن الإمام أحمد قال (رأيت أبى حرج على النمل أن يخرجن من داره ، ثم رأيت النمل قد خرجن بعد ذلك نملا سوداء ، ورأيت أبى أخذ شعرة من شعر النبى - صلى اللّه عليـه وآله وسلم - فيضعها على فيه يقبلها ، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينيه ويغمسها فى الماء ثم يشربه ثم يستشفى بها ، ورأيته قد أخذ قصعة للنبى - صلى اللّه عليه وآله وسلم - فغسلها فى جب الماء ثم شرب فيها ، ورأيته غير مرة يشرب ماء زمزم يستشفى به ويمسح به يديه ورجليه) [٢] .

باللّه ماذا يقول أعداء الصوفية المتمسحين فى الإمام أحمد بعد ذلك ؟

وماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟

ومن كرامات الإمام ما أخرجه الطبرانى أنه كان لرجل أم مقعدة نحو عشرين سنة فقالت له: اذهب إلى أحمد وسله يدعو لى فذهب وسأله ثم رجع إلى الباب فوجد أمه قد خرجت تمشى على قدميها من ساعتها [٣] !!

إنه الإمام الصديق الصوفى الولى ، رضى اللّه عنك يا سيدى أحمد ورضى عنا بك.

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٣٤٤.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/١٨٣ - ١٨٤ وانظر أيضا تبرك الإمام أحمد بن حنبل بشعرة النبى صلى الله عليه وسلم وبقصعته وإقرار الحافظ الذهبى له على ذلك قائلاً :

(قلت أين المتنطع المنكر على أحمد ؟؟ ... ثم قال : عافانا الله وإياكم من رأى الخوارج ومن البدع) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١١/٢١٢.

(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ٩/١٨٦ - ١٨٧.

« ١٧ »

أستاذ السائرين وعَلَمُ الواصلين
« الإمام المحاسبى رضى اللّٰه عنه »

من مشكاة النور المحمدى تستمد أرواح العارفين ضياءها لتضىء للناس طريق الوصول إلى الله عز وجل . فبالنور تَحِنُّ القلوب إلى أوطانها وتنجذب الأرواح لخالقها وسيدها ، وبأجنحة المحبة والشوق والخوف والرجاء يحلق العارفون فى سماء الحضرة الربانية حيث تهب عليهم نسائم الاصطفاء وترتوى أرواحهم من مناهل القرب والصفاء إنهم عباد الحق المكرمون وأولياؤه العارفون .

ومن نخبة العارفين وصفوة الواصلين : سيدى أبو عبد اللّٰه الحارث بن أسد المحاسبى رضى اللّٰه عنه .

عارف تربع على القمة ، وصوفى شيد دعائم مدرسة روحية تربوية تربى فيها أئمة وأقطاب ضربوا أروع الأمثلة فى التفانى فى محبة اللّٰه تعالى وإيثار جنابه على كل ما سواه .

والإمام المحاسبى بصرى المولد والمنشأ . فلقد ولد فى العقد السابع من القرن الثانى الهجرى حوالى سنة مائة وخمس وستين هجرية [1] . وأمضى عدة سنوات من باكورة صباه بالبصرة حيث نشأ وأمضى أولى خطواته على طريق العناية الربانية . ثم انتقل إلى بغداد ليواصل خطاه على درب المعرفة فيتعرف على كل الاتجاهات العلمية ليختار الإطار العلمى الذى يناسبه.

---

(١) انظر مقدمة الرعاية لحقوق الله تقديم الدكتور عبد الحليم محمود ص٩ وانظر أيضا مقدمة كتاب المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل للإمام المحاسبى بتقديم أ. عبد القادر عطا ص/٨.
وانظر : أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى للدكتور عبد الحليم محمود ص٢٩ ط / دار المعارف.

وكانت بغداد آنذاك حافلة بمختلف التيارات العلمية من ثقافات يونانية وفارسية وغيرها بالإضافة إلى علوم الإسلام الأصلية . وسرعان ما وجد المحاسبى الجو العلمى الذى يناسبه . إنه الجو الإسلامى الممثل فى هدى الكتاب والسنة ، وهو الامتداد المستقيم لنهج السلف الصالح، فعكف على دراسة علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغيرها ، وأخذ يتزود من محصلات جهابذة العلم وأساطين المعرفة حتى اكتملت شخصيته العلمية وارتقى إلى قمة لم ينازعه فيها منازع ، وصار إماماً فى علوم المعاملات ومضرباً للأمثال فى عمق نظرته ، وسبره لأغوار العلوم حتى لقد قال عنه التميمى : « هو إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام » (1) .

ويصرح الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء « المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على نفسه (2) »

ويضيف ابن الأثير تعزيزاً لتلك الشواهد الدالة على سمو المكانة العلمية للإمام المحاسبى فيقول : « هو إمام علم الكلام وسيد المتحدثين عن الأخلاق وحجة فى أمراض القلوب » .

ومع إسهام المحاسبى فى هذه المجالات العلمية فقد كان فردا فى عباداته ومطبقاً لعلمه فى سلوكه الشخصى تطبيقاً يملأ النفس بالإعجاب والإكبار لهذا الإمام الحجة . ولقد شارك الإمام المحاسبى فى معركة الرأى التى كانت على أشدها بين مختلف الفرق الإسلامية، فناصر مبادئ أهل السنة وألف فى الرد على المعتزلة وغيرهم مؤلفات ترد الشبه وتدحض المفتريات الكلامية ، ولقد قال ابن الأثير ، إنه أول من تكلم فى إثبات الصفات . بالإضافة إلى ذلك فقد أسند الحديث. ويذكر الإمام السلمى صاحب طبقات الصوفية إن هذا الحديث من إسناد

---

(1) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٨٩/١.

(2) المصدر السابق ٣٨٩/١.

المحـاسبي: عن أبى الدرداء قـال : قـال رسـول الله صلـى الله عليه وسلم (أثقل مـا يوضع فى الميزان حسن الخلق) [1] .

ولقد أنتج الإمام المحاسبى فيضا زاخراً من الكتب والمصنفات أثرى بها المكتبة الإسلامية وأضاف بها تراثا حافلا بغذاء القلب ونور العقل ومتعة الروح. وهذه المؤلفات تقدر بمائتى كتاب كما روى السبكى والمناوى [2] . وعلى رأس هذه المؤلفات كتابه النفيس : « الرعاية لحقوق الله عز وجل » وهذا الكتاب له منزلته السامية فى التراث الصوفى ، إذ يعتبر منهاجا للسلوك ونبراسا يضىء للعبد سبيل رعايته لحقوق مولاه .

ولقد أفاد أئمة التصوف من هذا الكتاب ونسجوا على منواله حتى لقد قال الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله أن الإمام الغزالى تبطن كتاب الرعاية فى كتاب الإحياء [3] .

ويعزز هذا القول أن الإمام الغزالى نفسه صرح فى : « المنقذ من الضلال » بأنه قرأ كتب المحاسبى. ولم تقتصر الإشارة بالمحاسبى عن كتاب الرعاية على جمهرة العلماء المسلمين وحدهم . فهذا هو المستشرق « مسينيون » يقول عنه (إن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً فى الآداب العالمية إلا نادراً) [4] .

وبجانب كتاب الرعاية فهناك من التراث المحاسبى المطبوع : كتاب الوصايا وكتاب المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل وكتاب التوهم وهذه الكتب كنوز علمية لا نظير لها فى المكتبة الإسلامية . هذه نظرة إجمالية إلى الجانب العلمى عند الإمام المحاسبى .

---

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١٠٠/١١٠ ولفظه (ما يوضع فى الميزان أثقل من خلق حسن) كما أخرجه ابن حبان والبيهقى (انظر الفتح الكبير للنبهانى ٤١/١ ط/ الحلبى).

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٨٩/١.

(٣) ، (٤) انظر مقدمة الرعاية لحقوق الله عز وجل للدكتور عبد الحليم محمود ص١٤ .

ومن خلال هذه النظرة يتضح لنا مدى تفرد هذه الشخصية بمكانة لم تتسع فى هذه الأمة إلا لأفراد معدودين قد هيأت لهم العناية مكان الصدارة والسمو ليتقلدوا أمانة أمة . وليست هذه الأمانة إلا وراثة الأنبياء فى القيام من بعدهم بتبعة القيادة الروحية التى تصل الخلق بالخالق ، وتدلهم على أشرف غاية وهى معرفة اللّٰه والتفانى فى محبته والقيام بخدمته ليكونوا ربانيين يسمعون باللّٰه ويبصرون باللّٰه وينطقون باللّٰه .

إنها الصوفية التى تصفى العبد وتمحضه لمولاه.

ثم لنطرق الجانب الذى له الأهمية القصوى فى دراستنا للإمام المحاسبى والذى هو محور ارتكازنا فى البحث عنه ، إنه الجانب الصوفى العلمى . وأحب أن أشير إلى أن الإمام المحاسبى على كثرة الدراسات التى تناولته من مختلف الزوايا لم يعرف به صوفياً بالقدر الذى يبرز مكانته فى الطريق ويبين منهجه الروحى فى التربية ومشربه فى الولاية .

أما فيما يتصل بناحية السلوك الصوفى عند المحاسبى : فلعل أول ما يستوقفنا هو تسميته بالمحاسبى، ويعلل الإمام المناوى إطلاق هذه التسمية عليه بأحد أمرين : أولهما - وهو المشهور عند الصوفية - هو كثرة محاسبته نفسه . والثانى هو أنه كان له حصى يعدها ويحسبها حال الذكر .

ولمحاسبة النفس منهج علمى عند المحاسبى . فقد روى أحمد بن محمد بن مسروق قال : سئل الحارث بم تحاسب نفسك ؟ قال : بقيام العقل على حراسة جناية النفس فيتفقد زيادتها من نقصها فقيل له : ومم تتولد المحاسبة ؟ فقال : من مخاوف النقص وشين البخس والرغبة فى زيادة الأرباح ، والمحاسبة تورث الزيادة فى البصيرة والكيس فى الفطنة والسرعة إلى إثبات الحجة، واتساع المعرفة ، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش . فقيل له : من أين تتخلف العقول والقلوب عن محاسبة النفوس قال : من طريق غلبة الهوى والشهوة ؛ لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان . وسئل : ومم يتولد الصدق فى ذلك ؟ قال : من المعرفة بأن

الله يسمع ويرى ، وخوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ وخلف الوعد وتأخير الضمان . فالمعرفة أصل للصدق والصدق أصل لسائر أعمال البر [1].

أرأيت تحليلاً نفسياً يكشف عن دقائق أحوال النفس الإنسانية وخوافيها بمثل هذه المقدرة ؟ إن علم النفس الحقيقى وكما ينبغى أن يكون لا يمكن أن يقوم إلا على أساس معرفة النفس ذاتها حتى يتأتى معرفة أمراضها وعلاجها لأن دوافع السلوك كامنة فى أعماق النفس والظواهر الخارجية لا تصلح فى كل حال مقياسا لما هو كامن فى حقيقة مجهولة ومن ثم فإن الصوفية هم أقدر الناس على تكييف طباع النفس بل وقمعها وما ذاك إلا لوقوفهم على كنهها وحقيقتها ذوقا وكشفا .

ونعود إلى إلقاء الضوء على المنهج الصوفى عند المحاسبى . لقد تحدثنا عن منهج المحاسبة ومع المحاسبة يكون الورع إذ الارتباط بينهما منطقى فبالمحاسبة تتفقد مواضع الشبه وتتكشف الأمور التى يتورع عنها .

وعن الورع عند المحاسبى يقول الإمام القشيرى فى رسالته : (إنه - أى المحاسبى - ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا . قيل لأن أباه كان يقول بالقدر - أى ينكر القدر لأنه كان معتزليا وقدريا - فرأى من الورع أنه لا يأخذ من ميراثه شيئاً وقال : صحت الرواية عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا يتوارث أهل ملتين شيئاً ») [2].

ويقول الإمام أبو على الدقاق (كان الحارث إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع عنه) [3] ومن كلام المحاسبى عن الورع وصلته بالطاعات هذه الفقرات المضيئة ، (أصل الطاعة الورع وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٨٨/١٠.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود : ٧٢/١ والحديث أخرجه الترمذى عن سيدنا جابر ، والنسائى والحاكم عن سيدنا أسامة ، والإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن سيدنا عبدالله بن عمرو رضى الله عنهم (الفتح الكبير ٣٥٣/٣).

(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٧٢/١.

والرجاء معرفة الوعد والوعيد ومعرفة أصل معرفة الوعد والوعيد عظم الجزاء وأصل ذلك الفكرة والعبرة) (١).

إن كل هذه خطوات على طريق المحبة والمحبة هى سبب الوصول إلى غاية المأمول .

وفى المحبة يقول الحارث المحب : (إن أول المحبة الطاعة وهى منتزعة من حبه عز وجل إذ كان هو المبتدئ بها وذلك أنه عرفهم نفسه ودلهم على طاعته وتحبب إليهم على غناه عنهم فجعل المحبة له ودائع فى قلوب محبيه ثم ألبسهم النور الساطع فى ألفاظهم من شدة نور محبته فى قلوبهم فلما فعل ذلك بهم عرضهم سرورا بهم على ملائكته حتى أحبهم الذين ارتضاهم لسكنى أطباق سمواته، نشر لهم الذكر الرفيع عن خليقته ، قبل أن يخلقهم مدحهم، وقبل أن يحمدوه شكرهم) (٢).

وسئل يوماً : ما علامة من سقاه الله بكأس محبته ؟ فقال : (علامته أن يكون عليل الفؤاد بذكر المعاد بطيء الفتور فى جميع الأمور كثير الصيام شديد السقام عفيفا كفيفا قلبه فى العرش جوال والله مراده فى كل الأحوال) (٣).

إن العارف المحاسبى لم يتكلم عن المحبة إلا بعد أن ارتوى من دنانها حتى الثمالة، وثمالة المحبة تزيد فى العقول ولا تنقصها، وأن المحب لا تقر له عين إلا بشهود محبوبه فهو يسمع عنه ويبصر به لأنه لا حجاب بين المحب والمحبوب لذلك يقول الحارث : (مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لسانى إلا من سرى ثم ثلاثين لا يسمع سرى إلا من ربى) (٤) .

إن لسان العارف لا يترجم إلا عن سره - وهذا معنى قوله لا يسمع لسانى ، وسره إنما يستمد من مولاه بالإلهام . إنها حياة المحبين : حضور دائم مع الله وأنس

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٧٦/١٠.

(٢) المصدر الأخير: نفس الموضع.

(٣) المصدر الأخير ٨٤/١٠.

(٤) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ٣٩٠/١.

به فالحب لله هو استنارة القلب للفرح بقربه من حبيبه فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه وهذا يكون الأنس والمنادمة.

لقد شرب سيدنا الحارث من كئوس الحب المترعة ووقف على ساحل المحيط البعيد بعد أن خاض عبابه وارتوى من صفو شرابه يدعو المتعطشين إليه ويستحثهم على الإقبال عليه فإن فيه الحياة كأحلى وأصفى ما تكون الحياة.

ولقد نال المحاسبى نصيبه مع الفريقين مع المتشرعين الواقفين على الحدود ومع المتحققين أهل الكشف والشهود، وأدلى بدلوه فى كلا البحرين؛ ولذلك عده الصوفية من أهل الاقتداء فى الظاهر والباطن ، فقال العارف أبو عبد الله بن خفيف (اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبى ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء - وعمرو ابن عثمان المكى ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق) (١).

والإمام المحاسبى هو أحد شيوخ الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية الذى تلقى الطريق عن خاله الإمام السرى السقطى ، وقد سأله السرى عمن يصحبه من العلماء غيره ، فقال الجنيد : المحاسبى.. قال نعم : (خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام ورده على المتكلمين) (٢) .

ومراده أن الذى يهمك وتبتغيه من مصاحبته إنما هو إفادتك من علمه وأدبه أما ما يتعلق بعلم الكلام ومعرفة قواعد الجدل التى يستخدمها فى الرد على خصومه فليس لك فيها مأرب . وصحب الجنيد المحاسبى وأفاد منه، ويروى الإمام أبو نعيم بسنده عن الإمام الجنيد : أنه قال : (كنت كثيراً أقول للحارث عزلتى أُنس وتخرجنى إلى وحشة رؤية الناس والطرقات ؟ فيقول لى : كم تقول لى أنس فى عزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنسا ولو أن النصف الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم) (٣).

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٧٣/١.

(٢) انظر مقدمة (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح) للإمام المحاسبى تحقيق وتقديم عبد القادر عطا ص١٢ (وفيه رد على النقد المذكور هنا).

(٣) انظر الحلية : ٧٤/١٠ وسير أعلام النبلاء للذهبى ١١١/١٢.

ولعل من أكبر ما يشيد بفضل الإمام المحاسبى أنه اجتذب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى صفوف الصوفية حتى صار يشهد لهم بالمعرفة وينظر لهم بعين الإجلال، والواقعة كما يقصها الإمام الشعرانى فى طبقاته : هى (أنه قيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنه إن الحارث المحاسبى يتكلم فى علوم الصوفية ويحتج لها بالآى والحديث ، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر ؟ فقال : نعم فحضر معه ليلة إلى الصباح ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً . قال لأنى رأيتهم لما أذن بالمغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو يأكل وهذا من السنة فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال : من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآى والحديث فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكت القارئ فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة فلما أصبحوا اعترف أحمد رضى الله عنه بفضله وقال: كنت أسمع من الصوفية خلاف هذا أستغفر الله العظيم [1].

وبعد : فهذا الإمام المحاسبى بحر الشريعة والحقيقة وصاحب الفتح الربانى الأكبر عشنا مع أنواره وسبحاته القدسية نقتبس من هديه ونغترف من بحره ، أمدنا الله من بركاته فى الأولى والآخرة اللهم آمين .



---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٤/١.

« ١٨ »

شيخ عصره بالاتفاق :-
« سيدى أبو تراب النخشبى رضى اللّه عنه »

فى المعية الإلهية استغرق عشاق الحضرة القدسية من خواص الرحمن، الذين سطعت فى بواطنهم أسرار القرآن ، ووصلوا إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد ، فتفجرت ينابيع الحكمة فى قلوبهم ، وفقهوا عن الله فأدركوا عز الدارين بالقرب من محبوبهم. إنهم أهل المحبة والموالاة من أصفياء الحق تعالى وأوليائه المقربين ، رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

من عيون أولئك الأولياء المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إمام من أخيار العارفين المحققين وشيخ من رؤساء الصوفية المتمكنين. ذو الفتح الربانى والذوق العرفانى سيدى أبو تراب النخشبى قدس الله سره وأفاض علينا مدده وبره فى الدنيا والآخرة.

ترجم لهذا العارف جمهرة من مؤرخى التصوف بعديد من المناقب الصوفية الباهرة التى تستهوى أفئدة الباحثين عن أمجاد الأولياء، وتجذب قلوبهم وعقولهم إلى فيضه العرفانى المذهل، وإلى رسوخه فى علوم القوم وبصره بأدواء القلب وعلله، وإسهامه الناجع فى مداواتها بحكمة ربانية نيرة تتهافت دونها شتى الدعاوى المحدثة التى تزعم إصلاح النفس الإنسانية معتمدة على أسس نظرية لم تتمكن بعد من سبر أغوار النفس فضلاً عن الوقوف على كنهها.

ومن ثم نؤكد أن علم النفس الحقيقى قد سبق إليه الصوفية منذ عهد السلف الصالح ولم يلحقوا. وفى الحدود الضيقة لهذا المقال وداخل إطار التعرف على

أمجاد الأولياء وكشف النقاب عن حقيقة التصوف من خلال أعلامه: نحاول إبراز بعض الشواهد التى تضع أمامنا صورة عملية نستوضح من خلالها بعض ملامح علم النفس الصوفى فى الإسلام.

والإمام الذى نحل ضيوفا على مائدته الروحية الآن : هو الإمام العارف سيدى أبو تراب عسكر بن حصين . أو عسكر بن محمد بن حصين على ما ذكره الإمام السلمى فى طبقاته[1].

و(نخشب) التى ينسب إليها عارفنا أبو تراب: هى بلدة وراء النهر. وقد عربت فصار يقال لها (نسف) كما ذكر العارف المناوى فى طبقاته.

والإمام النخشبى هو أحد أئمة التصوف الذين نبتوا فى خراسان فى عصر التصوف الزاهر، فى القرن الثالث الهجرى حيث أرخ لوفاته بسنة ٢٤٥هـ.

وقد صحب سيدى أبو تراب أعلام القوم فى عصره وشرب من رحيق معارفهم، وسلك طريقهم الموصل إلى حضرة المولى عز وجل فصارمن أئمتهم المعدودين الذين يشار إليهم بالبنان فى التحقق والتربية الروحية.

ولقد وصفه أكثر من مؤرخ صوفى – على مستوى الإمامة الصوفية – بأنه كان من رؤساء مشايخ الطريق فى عصره ، ومن أرسخهم علما، وأكثرهم ورعا وزهدا وأصدقهم توكلا.

يقول الإمام السلمى عنه فى طبقاته : (صحب أبا حاتم العطار البصرى ، وحاتما الأصم البلخى ، وهو من جلة مشايخ خراسان ، والمذكورين بالعلم ، والفتوة، والتوكل ، والزهد ، والورع)[2].

ويقول عنه الإمام أبو نعيم فى (حلية الأولياء) كان أحد أعلام المتوكلين وإمام المتجردين تأدب بأدب حاتم الأصم وعلى الرازى المذبوح. له الرياضات

---

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريبة ص١٤٦.
(٢) المصدر نفسه.

المشهورة والسياحات المذكورة. دخل أصبهان وسمع من عبدالله بن محمد بن زكريا، ومحمد بن عبدالله بن مصعب ، وصحبه جدى محمد بن يوسف بمكة وبالحجاز مدة مديدة ، وكذلك صحبه أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم النبيل بالبادية[٢].

أما الإمام المناوى فيقول عنه فى طبقاته : (وكان شيخ عصره بالاتفاق جامعا بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق ، متقشفا متوكلا ، متخشعا متبتلا. قد أضاء فى سماء المعالى بدره، واشتهر فى الآفاق حسنه ، وخدمه أكابر الصوفية وتطلعوا عليه لهمته السرية ، وخضع المريدون له ودانوا، وتطامنوا لرفعته واستكانوا. له الرياضات المذكورة والسياحات المشهورة. صحب حاتما الأصم والخواص والطبقة ، وكتب الحديث الكثير وتفقه على مذهب الشافعى ، وأخذ عنه أحمد بن حنبل وابن الجلاء وآخرون من الأجلاء)[١].

من خلال هذه الأقوال والآراء التى أدلى بها العارفون الثقات والمحققون الأثبات : نقف على عدة مؤشرات تشير إلى مناحى التفرد ، والشموخ فى شخصية الإمام النخشبى . وأول هذه المؤشرات : صحبته لأساطين التصوف والمعرفة أمثال سيدى حاتم الأصم وشيخه سيدى شقيق البلخى وسيدى إبراهيم الخواص وأيضاً سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين وغير أولئك جم غفير من شيوخ الطريق ورد ذكر صحبة إمامنا النخشبى لهم فى سائر كتب الطبقات والتاريخ.

وقبيل أن نتناول أثر تلك الصحبة وما أسفرت عنه من نتائج نقف عند نقطة هامة هى مؤشر آخر للتعرف على العارف النخشبى . ألا وهى الجمع بين العلم والدين والتضلع من علوم الشريعة قبل خوض بحار الحقيقة.

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٤٥/١٠.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٥٨/١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

وقد أكّدت هذه النقطة مرارا فى سلسلة (أعلام الصوفية) درءاً لمزاعم خصوم الصوفية الذين يبغون الحيلولة بين التصوف وعلم الكتاب والسنة. أو بين الثمرة والشجرة. مستندين إلى حقيقة خيلها لهم وهمهم الباطل وهى أن الصوفية قوم بمعزل عن فقه الإسلام وعن التبحر فى علومه (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) كيف وكل أئمة الإسلام ومجتهدى الشريعة الذين رفعوا لواء الدين ونشروا هديه كانوا صوفية روحا وقلبا وعقلاً وجسداً.

وقد تناولت كتب طبقات الصوفية الجانب الصوفى لدى الأئمة الأربعة وغيرهم من أساطين العلم الأجلاء. ومن ناحية أخرى فإنى أتناول فى دراسة ساداتنا الصوفية الجانب العلمى الكسبى توطئة لإبراز الجانب العلمى المشيد على علم الكتاب والسنة. وهنا فى شخصية الإمام النخشبى نجد أن من أبرز جوانبها العلمية أنه محدث وفقيه. وقد ذكر الإمام السبكى فى ترجمة سيدى أبى تراب من (طبقات الشافعية) أنه : (كتب الكثير من الحديث، ونظر فى كتب الشافعى وتفقه على مذهبه) [1] وهذا يفيد أن سيدى أبا تراب محدث مكثر.

وقد ذكر بعض مروياته فى الحديث كل من الإمام أبى نعيم فى (الحلية) والإمام السلمى فى طبقاته . إذ روى كل منهما بسنده إليه أنه روى بسنده عن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن ربهم يطعمهم ويسقيهم)[2].

ثم يوقفنا الإمام المناوى على رسوخ الإمام أبى تراب فى الفقه إذ قال فيه : (وتفقه على مذهب الشافعى وأخذ عنه أحمد بن حنبل ، وابن الجلاء وآخرون من الأجلاء)[3] .

---

(١) انظر طبقات الشافعية للإمام السبكى بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى (٢//٣٠٧).

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ١٠/٥٠ -٥١ وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص١٤٨ وفيه تخريج الحديث بالحاشية عن الترمذى وابن ماجه والحاكم والحكم بصحته.

(٣) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ٣٥٨/١.

فقد توسط سيدى أبو تراب بين إمامين شامخين هما رأسا المذهبين الشافعى والحنبلى فأخذ عن إمامنا الشافعى مباشرة ، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين، وناهيك بتلك من منزلة سامقة فى العلم والتفقه . ومن هنا كان الأساس والمنطق إلى الجانب الصوفى العملى الذى دخله الإمام أبو تراب على علم بين بالسنة وآدابها، وبالشرع وأحكامه.

وهنا نعود للمؤثر الأول وهو الصحبة فى شخصية سيدى أبى تراب . ونجد فى مقدمة من تأثر بهم شيخنا فى تربيته الصوفية سيدى شقيقا البلخى وتلميذه فى الطريق سيدى حاتما الأصم رضى الله عنهما .

أما سيدى شقيق فيقول عنه الإمام السلمى : (وهو من مشاهير مشايخ خراسان ، وأظنه أول من تكلم فى علوم الأحوال بكور خراسان ، وهو أستاذ حاتم الأصم وصحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريقة) (١).

كان لسيدى شقيق منهج فى السلوك وأسلوب فى التربية أفاد منه العارف النخشبى . فها هو ذا يروى عنه بعض الوصايا فى الطريق . إذ يروى صاحب الحلية بسنده عنه أنه قال : (سمعت محمد بن شقيق بن إبراهيم وحاتما الأصم يقولان : كان لشقيق وصيتان : إذا جاء رجل يوصيه بالعربية ويقول : توحد الله بقلبك ولسانك وسعيك ، وأن تكون بالله أوثق مما فى يديك ، والثالث : أن ترضى عن الله ، وإذا جاءه رجل أعجمى قال له : بُنى ، احفظ منى خصالا : أول خصلة أن تحفظ الحق . ولا يكون الحق حقا إلا بإجماع . فإذا اجتمع الناس فقالوا إن هذا الحق : تعمل ذلك الحق برؤية الثواب مع الإياس من الخلق . ولا يكون الباطل باطلاً إلا بالإجماع . فإذا كنت لا تعلم هذا الشىء حق أو باطل فينبغى لك أن تقف حتى تعلم ، فإنه حرام عليك دخوله إلا أن يكون معك بيان لذلك الشىء وعلمه) (٢).

وثمة درس آخر حفظه الإمام أبو تراب عن شيخه حاتم عن شيخه شقيق. وفى هذا الدرس يكمن لب المعرفة وتتضح معالم الطريق الصوفى.

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٦١.
(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦٢/٨.

يروى صاحب الحلية بسنده عن سيدى أبى تراب قال : قال حاتم عن شقيق : (لو أن رجلاً عاش مائتى سنة لم يعرف هذه الأربعة أشياء لم ينج من النار إن شاء الله. أحدها : معرفة الله ، والثانى : معرفة نفسه ، والثالث : معرفة أمر الله ونهيه ، والرابع : معرفة عدو الله وعدو نفسه ، وتفسير معرفة الله : أن تعرف بقلبك أن لا معطى غيره ولا مانع غيره ولانافع غيره ولا ضار غيره . وأما معرفة النفس : فأن تعرف نفسك أنك لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع شيئاً من الأشياء . وخلاف النفس : أن تكون متضرعاً إليه، وأما معرفة أمر الله ونهيه فأن تعرف أمر الله عليك وأن رزقك على الله ، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً فى العمل . وعلامة الإخلاص الا يكون فيك خصلتان : الطمع والثناء . وأما معرفة عدو الله : فأن تعلم أن عدوا لك لا يقبل الله منك شيئاً إلا بمحاربته . والمحاربة فى القلب أن يكون محارباً مجاهداً نافياً للعدو) (١).

وبالسند السابق عن سيدى شقيق يقول رضى الله عنه : (أصحب الناس كما تصحب النار ، خذ منفعتها وحاذر أن تحرقك) (٢) .

وهذه العبارة تصور منهج سيدى شقيق الذى تربى عليه سيدى أبو تراب فى معاشرة الخلق . فالخلق لهم جانبان : نافع وضار. وعلى الحكيم تحصيل النفع مع تجنب الضرر . وليس المراد الاستئثار بالنفع، بل المراد تحصيل مطلق النفع الذى يعود أثره على النافع والمنتفع .

أما الشيخ الثانى الذى أفاد سيدى أبو تراب من صحبته فهو سيدى حاتم الأصم - رضى الله عنه - وقد كان امتدادا لسيدى شقيق شيخه فى الطريق . وكان سيدى حاتم خبيراً بخفايا النفس ودسائسها . وقد أخذ عنه سيدى أبو تراب ذلك التمرس على فهم أسرار النفس ومعرفة خباياها.

فقد روى الإمام أبو نعيم أن سيدى أبا تراب قال : قال حاتم الأصم : (لا أدرى أيهما أشد على الناس : العجب أو الرياء ؟ العجب داخل فيك والرياء

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٤٦/١٠.
(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٤٧/١٠.

يدخل عليك، العجب أشد عليك من الرياء . ومثلهما أن يكون لك فى البيت كلب عقور، وكلب آخر خارج البيت . فأيهما أشد عليك ؟ الداخل معك أو الخارج ؟ أما الداخل فهو العجب وأما الخارج فهو الرياء .

وقال حاتم ، الحزن على وجهين : (حزن لك وحزن عليك . فأما الحزن الذى عليك فكل شىء فاتك من الآخرة فتحزن عليه فهو لك . وتفسيره : إذا كان عندك درهمان فسقط منك درهم حزنت عليه فهذا حزن الدنيا . وإذا خرجت منك زلة أو غيبة أو حسد أو شىء ، فما تحزن عليه وتندم فهو لك) (١).

إنه سبر لأغوار النفس لترويضها على السلوك القويم .

ولقد كان على سيدى أبى تراب أن يعرف أعماق النفس وهو بصدد سلوك الطريق . وكان عليه أن يقف على مناهج الشيوخ الراسخين ويفيد من علمهم وتحققهم ليدخل الطريق على نور من ربه . وكان عليه - بعد أن حصل على زاد وفير من العلوم الشرعية المكتسبة - أن يحصل على علم القلوب الذى يحتوى على علم النفس لكى يقتحم عقبات النفس ثم يأتى إلى مقام القلب ثم الروح ثم السر الذى هو محل المشاهدة . وبالفعل زاوج سيدى عسكر بن حصين بين علم العقول وعلم القلوب ، وسبر النفس وخاض غمار المجاهدة، واستشعر المراقبة وسلك طريق الصفوة متخذا من مناهج شيوخه وأصحابه منارات تهديه فى الطريق الحافل بالمجاهدات والمكابدات . فقد عكف شيخنا على إصلاح قلبه فأخذ يصقل مرآته وينفى غواشيه الترابية ويصلح خواطره . وكان هذا الأمر هو شغله الشاغل فى الطريق ، وقد كان يفضله على كل عبادة . فكان يقول رضوان اللّٰه عليه - فيما رواه الإمام السلمى : - (ليس من العبادات شىء أنفع من إصلاح خواطر القلوب) (٢).

وقبل الترقى إلى مقام القلب لابد من إصلاح النفس لتخليصها من الرعونات والكدورات . ولذا فقد أخذ الإمام أبو تراب يروضها ويجاهدها بشتى ضروب

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/٤٨-٤٩.

(٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص١٤٩.

المجاهدات حتى تذللت له . كان يجاهدها بالجوع الذى يطلق عليه شيخه حاتم الأصم : (الموت الأبيض) وهو ضرب من إماتة النفس الأمارة بالسوء وفى هذا المضمار يحدثنا الإمام القشيرى فى رسالته قائلاً :

(وحكى ابن الجلاء قال : دخل أبو تراب مكة طيب النفس . فقلت : أين أكلت أيها الأستاذ ؟ فقال : أكلة بالبصرة وأكلة بالنباج وأكلة ههنا) [(1)] إنهما أكلتان فحسب هما كل ما طعم الإمام أبو تراب فى رحلته من البصرة إلى مكة !!.

وفى نفس المضمار أيضاً يروى صاحب الرسالة القشيرية تلك الواقعة الطريفة الفكهة ذات المدلول السامى فقد سمع سيدى أبو تراب يقول : (ما تمنت نفسى على شيئاً قط إلا مرة واحدة . تمنت على خبزا وبيضاً وأنا فى سفرى فعدلت عن الطريق إلى قرية . فوثب رجل وتعلق بى وقال : - كان هذا مع اللصوص فبطحونى وضربونى سبعين خشبة !! قال فوقف علينا رجل صوفى فصرخ وقال : ويحكم هذا هو أبو تراب النخشبى ! فخلونى واعتذروا إلى . وأدخلنى الرجل منزله وقدم إلى خبزاً وبيضاً . فقلت : كلها بعد سبعين جلدة) [(2)] !

حتى المباحات كانت عند سيدى أبى تراب وهو فى مرحلة الجهاد النفسى من الأمور البعيدة المنال والتى لا تنال إلا بعقوبة إن لم تكن نفسها هى العقوبة ؛ لأن الطريق الذى سلكه يفرض عليه ألا يتعدى دائرة الواجبات والمندوبات إلى المباحات إلا للضرورة .

وهكذا يظل المباح عنده متحرزا طالما فيه حفظ للنفس الأمارة ، فإذا انقطع حظها وخلصت لله بالتربية عادت المباحات طاعات لخلوها من البطالات. ومع ذلك يظل العارف متقللاً من الدنيا لإيثار جانب مولاه بالانشغال به على جانبه . والمستند المثالى لهذا السلوك الفذ هو سلوك القائد الروحى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الأطهار رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين . فقد تقللوا

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ٩٨/١.

(٢) المصدر نفسه فى ذات الموضع.

من الدنيا ورغائبها وهى تتمرغ تحت أقدامهم لأنهم مع الله لا يتركون نفسا من أنفاسهم يخرج فى غير حضور مع الله .

ونجد الإمام أبا تراب يُبَسِّطُ تكاليف المادة والجسد ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ ليوفر الاهتمام بالقلب والروح . فيقول عليه الرضوان : (الفقير - أى الصوفى - قوته ما وجده ، ولباسه ما ستره ، وسكنه حيث نزل)[1].

إن مطلب الروح له الأولوية .

ولقد أخذ أبو تراب طريق البادية يوماً فقال له على بن الحسين :لابد من القوت . فقال : (لابد ممن لابد منه)[2] .

أى لابد من المقيت لا من القوت. وتلك منزلة عالية فى التوكل والتجرد ، وهى خاصة بخواص الحق تعالى من أمثال سيدى أبى تراب .

فقد روى الإمام السلمى أنه كان يقول : (القناعة : أخذ القوت من الله عز وجل)[3].

لقد صحت له همته وعزيمته فكان انقطاعه لربه شغله الشاغل . كان يبيت الليل قائماً لربه ويصبح صائماً ويمسى متفكراً ذاكراً . وحج لله خمسا وخمسين حجة . وكانت له فى حجته الأخيرة واقعة يرويها الإمام السبكى فى (طبقات الشافعية) بسنده عن أبى تراب قال : (وقفت خمساً وخمسين وقفة ، فلما كان من قابل رأيت الناس بعرفات ما رأيت قط أكثر منهم ولا أكبر خشوعا ولا تضرعا . فأعجبنى ذلك فقلت : اللهم من لم تقبل حجته من هذا الخلق فاجعل ثواب حجتى له . وأفضنا من عرفات وبتنا بجمع . فرأيت فى المنام هاتفا يهتف بى : تتسخى علينا وأنا أسخى الأسخياء ؟ وعزتى وجلالى ما وقف هذا الموقف أحد إلا غفرت له . فانتبهت فرحا بهذه الرؤيا فرأيت يحيى بن معاذ وقصصت عليه الرؤيا . فقال

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية - المحققة - ٩٧/١ وطبقات الصوفية للسلمى ص١٤٩.

(٢) ، (٣) طبقات الصوفية للسلمى : ١٤٩ ، ١٥١.

إن صدقت رؤيتك فإنك تعيش أربعين يوما . قال الراوى : فلما كان يوم أحد وأربعين جاءوا إلى يحيى بن معاذ ، قالوا : إن أبا تراب مات . فغسّله وكفنه) [1] ا . هـ .

قمة العبادة وقمة الفتوة والإيثار. وليس بعجب أن نرى ذلك فى سيدى أبى تراب وقد كان مولاه هو شغله الشاغل . فقد تبتل إليه واعتزل الخلق لينفرد لله . وكان يحذر ممن يشغل الولى عن الله قائلاً : (من شغل مشغولاً بالله عن الله أدركه المقت من ساعته) [2] نعوذ بالله من مقته ونسأله دوام الانشغال به .

ولقد روى الإمام العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته أن سيدى أبا تراب كان يقول : (رأيت رجلاً بالبادية . فقلت له : من أنت؟ فقال : أنا الخضر الموكل بالأولياء أرد قلوبهم إذا شردت عن الله عز وجل . يا أبا تراب : التلف فى أول قدم والنجاة فى آخر قدم [3] .

لقد آتاه سيدنا الخضر رضى الله عنه وعنا به ، وهو بصدد سلوكه الطريق والانقطاع إلى الله ليقول له ، إن تلف النفس الأمارة بالمجاهدة فى أول قدم فى الطريق بينما نجاة القلب والروح والسر لا تكون إلا فى آخر قدم فى السلوك ولم يلتفت سيدى أبو تراب عن الله منذ أول قدم حتى انتهى من آخر قدم.

فقد كانت تحفه العناية وتحوطه الرعاية . فكان رضى الله عنه يقول : (بينى وبين الله عهد ألا أمد يدى إلى حرام إلا قصرت عنه يدى) [4].

إنها قمة التحرز والورع .

أما التوكل فقد صعد فيه الإمام النخشبى إلى الذروة وكان يقول عليه الرضوان : (شرط التوكل : طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر) [5].

---

(١) انظر طبقات الشافعية - المحققة - للسبكى : ٣٠٨/٢.
(٢) انظر طبقات الشافعية - المحققة - للسبكى : ٣١٠/٢
(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧١/١.
(٤) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٩٨/١ وانظر الحلية لأبى نعيم ٤٨/١٠.
(٥) انظر طبقات الشافعية للسبكى (المحققة) ٣١٠/٢.

ثم يشيد بقدر القناعة والتقلل من الدنيا قائلاً : (صحبت مائة شيخ ما نفعنى شىء مثل شد رأس الجراب)[1] .

وكان سيدى أبو تراب ولوعا بذكر الصالحين وأقطاب القوم يقول الإمام المناوى (وكان يكثر ذكر أبى يزيد البسطامى ، ويقول لتلميذ حظى عنده : لو رأيته: فقال : قد أكثرت من ذكر أبى يزيد البسطامى . من يتجلى له الحق بضع مرات كل يوم ما يصنع بأبى يزيد ؟

فقال : لو رأيته لرأيت مرأى عظيماً .

فلم يزل يشوقه حتى ارتحل إليه فقيل له أنه فى الفيضة مع السباع، وكان يأوى إليها فقعد على طريقه. فعندما وقع بصر الفتى عليه خر ميتا . فعجب أبو تراب من ثبوته لتجلى الحق دون رؤية أبى يزيد . فقال أبو يزيد : كان الحق يتجلى له كل يوم على حسب ما عنده . فلما رآنى تجلى له الحق على قدرى فلم يطق، فلا عجب)[2] .

هؤلاء والله هم الرجال ، ضنائن الله فى خلقه . ولقد ارتقى الإمام النخشبى إلى مصاف الصفوة سلوكا وعلما وحالا وتحققا حتى صار إماما فى الطريق وصاحب مدرسة صوفية يشيد بها عمل الرجال . فهذا هو الإمام ابن الجلاء الذى كان يسميه الإمام الجنيد رضى الله عنه (ريحانة الشام) يقول - فيما رواه الإمام القشيرى : (صحبت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة . أولهم أبو تراب النخشبى)[3] !!

كان إماما فى الطريق وحبرا فى علوم القوم ومقامات الرجال ومراتب الواصلين . روى الإمام السلمى أنه كان يقول : (سبب الوصول إلى الله سبع عشرة درجة أدناها الإجابة وأعلاها التوكل على الله بحقيقة)[4].

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكى (المحققة) ٢/ ٣١٠.
(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٢٥٩ ، وانظر المرجع السابق.
(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/ ٩٧.
(٤) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص ١٤٩.

ويروى صاحب الحلية أن سيدى أبا تراب سمع يقول : (يا أيها الناس : أنتم تحبون ثلاثة وليس هى لكم . تحبون النفس وهى لله ، وتحبون الروح والروح لله ، وتحبون المال والمال للورثة ، وتطلبون اثنين ولا تجدونهما : الفرح والراحة وهما فى الجنة) [1] . ولقد حدد الإمام أبو تراب ضوابط الشيخ المربى فى طريق الله تعالى قائلاً : (لابد للأستاذ من أربعة أشياء : تمييز فعل الله عن فعل الخلق ، ومعرفة مقامات العمال - أى السالكين - ومعرفة الطبائع والنفوس ، وتمييز الخلاف من الاختلاف) [2]. ومن أبرز كراماته كما روى المناوى أنه وجد بالبادية قائماً ميتا لا يمسكه شىء فأراد بعض أصحابه حمله ليواريه فما أمكنه وسمع هاتفا يقول : دع ولى الله مع الله بلا تكلف [3].

رضى الله عنه وعنا به آمين .

★ ★ ★

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٥٠/١٠.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٤٧/١٠.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٦١/١.

« ١٩ »

شيخ الديار المصرية واحد وقته
« سيدى ذو النون المصرى رضى اللّٰه عنه »

على صراط المحبة والوفاء تفجرت ينابيع النور والحكمة فى قلوب العاشقين الأصفياء ، وبمدامع الشوق خاضوا لجج البحار حتى تراءت لهم شواطئ الحقيقة فوصلوا إلى غاياتهم حيث تحققوا وتخلقوا وشاهدوا وتواجدوا . هنالك صبت عليهم النفحات ونصبت لهم فوق العلا الرايات . أولئك هم أولياء اللّٰه المقربون وأحبابه العارفون أئمة الهدى وأعلام الدين رضوان اللّٰه عليهم أجمعين.

ومن زمرة هؤلاء الصفوة الأقطاب : الإمام العارف والصوفى الواصل سيدى أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الشهير بذى النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ رضى اللّٰه عنه.

إمام حاز فى مقامات الرجال أشرف مراتب الوصال . وولى نفذت إشاراته إلى أعماق السالكين لدرب الحقيقة فأضاءت دجنات نفوسهم ووضحت لهم السبيل وصوفى شرفت مصر بأن حازت نسبته إليها فكان أول من تكلم فيها عن ترتيب الأحوال ، وفى مقامات الأولياء فحول الرجال .

وأصله من بلاد النوبة ثم نزل أخميم فأقام بها فسمع صوت لهم ودفات . فقال : ما هذا ؟؟ قيل : عرس . وسمع بجانبه بكاء وصياحا فقيل : ما هذا ؟ قيل: مات فلان. فقال : أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا . للّٰه علىّ أن بت بهذا البلد . وخرج إلى مصر فقطنها (١).

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٤٠٠.

والمتصفح لحياة العارفين يرى فيها دائماً مفاتيح للتحول والارتقاء يستطيع الباحث أن يمعن النظر فيها فيخرج بمضامين ذات دلالة واضحة على نوعية هذه الشخصيات التى يدرسها ويتأملها . فكثيراً ما نرى تحول الشخصيات الصوفية إلى صميم الجو الروحى يأتى عن طريق أحداث مؤثرة لها وقع يدير دفة الحياة إلى الجانب الأسمى فتندفع الروح بكل ما فيها من قوة فطرية واصطفائية لتجد طريقها النورانى نحو الغاية العليا : نحو اللّه . وهنالك الفوز الأكبر.

وعن نقطة التحول عند سيدى ذى النون : يروى صاحب الرسالة القشيرية أن سالماً المغربى جاءه فسأله : يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك ؟

قال : عجب لا تطيقه . قال : بمعبودك إلا أخبرتنى .

فقال ذو النون : أردت عدم الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة - أى نوع من العصافير - عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها (سكرجتان) إحداهما ذهب ، والأخرى فضة . وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء . فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا . فقلت : حسبى . قد تبت . ولزمت الباب إلى أن قبلنى اللّه عز وجل (١).

ولنا هنا وقفة قصيرة إذ ربما يستبعد البعض من قصار النظر فى حق الأولياء أمراً خارقاً كهذا .

ونقول : إن اللّه تعالى خرق العوائد بما شاء كيف شاء . وليس ببعيد أن يظهر اللّه تعالى هذا الخارق ليكون سببا فى ولاية رجل صار شأنه إلى ما سنرى فى هذه السطور .

وقبل أن نطل على الجانب الصوفى عند سيدى ذى النون يحق لنا أن نتعرف مكانته العلمية . فلقد كان سيدى ذو النون بشهادة أهل عصره وغيرهم : إماما فى

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/٥٥-٥٦.

العلم والمعرفة . فيقول عنه مسلمة بن قاسم : (كان عالما صالحا زاهداً ورعا مفتيا فى العلوم واحداً فى عصره) [١]. وكان سيدى ذو النون من رواة الحديث وقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية والذهبى فى تاريخه الكبير أنه روى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وابن عيينة ومسلم الخواص وغيرهم . كما روى عنه الحسن بن مصعب النخعى وأحمد بن صبح الفيومى والطائى وغيرهم . ويذكر الإمام أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته : أن سيدى ذا النون روى هذا الحديث بسنده عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) [٢].

وإلى جانب إحاطة سيدى ذى النون بشتى العلوم الشرعية وتفقهه فيها فقد برز إلى أهل عصره بنوع آخر من العلم لم يسطر فى كتاب ولم يرد إليه بواسطة؛ إنه العلم اللدنى الذى اختص اللّه به أحبابه وأصفياءه، فتكلم سيدى ذو النون على أهل عصره فى علوم الإشارات ، والأحوال بما يبهر العقول . وأفاض عليهم من مشكاة معرفته بما يحيى موات القلوب . وفجأة أحس أدعياء العلم من متفقهة عصره بمراجل الغيرة والحسد تأكل فى قلوبهم لأنه بَزَّهُمْ فى ميدانهم أولا ثم تفرد عنهم بهذا العلم الربانى فرموه بالزندقة. وكانت حيثيات التهمة الموجهة نحوه : أنه أتاهم بعلم جديد لا عهد لهم به وهو علم الحقائق . ووشوا به إلى خليفة بغداد المتوكل . فاستدعى من قبل الخليفة للمحاكمة ، وحمل مع بعض أصحابه مغلولاً مقيداً . ولما مثل بين يدى الخليفة قال له : أنت زاهد مصر ؟؟ قال : هكذا يقولون . فقال أحد رجال الخليفة : فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد . فأطرق سيدى ذو النون مليا ثم قال :

يا أمير المؤمنين : إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم . يا أمير المؤمنين : إن للّه

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٤٠٠.

(٢) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص١٧ والحديث الشريف رواه الأئمة : أحمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه ، وانظر التخريج مفصلا فى الفتح الكبير للإمام النبهانى رضى الله عنه ٢/١١٦ ط/ الحلبى.

عبادا عبدوه بخالص من السر فشرَّفَهُمْ بخالص من شكره . فهم الذين تَمُرُّ صحفهم مع الملائكة فُرَّغًا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه . أبدانهم دنياوية وقلوبهم سماوية . قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفرج وأطباق السماوات ، لم يخبتوا فى ربيع الباطل ولم يرتعوا فى مصيف الآثام . ونزهوا الله أن يراهم يثبون على حبائل مكره هيبة منهم وإجلالا له أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشىء لا يدوم وبلذة من العيش مزهودة . فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أطباق أهل المعرفة بالإرواء والنظر فى منابت الدواء . فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر ، فقال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه أو مريض من تذكرى فأدنوه أو ناس لنعمتى فذكروه أو مبارز لى بالمعاصى فنابذوه أو محب لى فواصلوه ..) وظل سيدى ذو النون يتكلم والدموع تنهمر من عينى الخليفة وما أن أتم سيدى ذو النون حديثه حتى امتلأ قلب الخليفة بالإجلال والتقدير لهذا الولى العارف ، فقال للملأ الذين أتوا ليشهدوا محاكمة العارف ذى النون - مشيراً إليه ولأصحابه - : (إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم [1] !!)

ثم لقى سيدى ذو النون وصحبه أعظم التقدير والتبجيل من الخليفة . ورد إلى مصر مكرماً تاركاً وراءه فى قلب الخليفة زاداً من الحكمة وأقباساً من الضياء حتى لقد ذكر أصحاب الطبقات أن الخليفة المتوكل كان إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول : (إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذى النون) [2] . أى فأسرع بذكر ذى النون فإنه أفضلهم ، وحقا ما قال فإن مكانة سيدى ذى النون بين أئمة الصوفية ، فى القمة الشامخة . وفى ترجمته الصوفية يقول عنه الإمام القشيرى : (فائق فى هذا الشأن- أى التصوف - وأوحد وقته علما وورعا وحالاً وأدباً) [3].

ويقول معاصره الصوفى العارف أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء : (لقيت

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم رضى الله تعالى عنه : ٣٣٧/٩ والكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠١/١.

(٢) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٥٤/١.

(٣) انظر : المصدر السابق من ذات الموطع.

ستمائة شيخ فما رأيت مثل أربعة ، ذى النون المصرى ، وأبى ، وأبى تراب ، وأبى عبيد البسرى)[1] .

بل إن ترجمان الصوفية الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه يقول عن سيدى ذى النون : (لقد غدا إماماً بل إمامنا) !!.

ومما يدلنا أيضاً على سمو مكانة سيدى ذى النون عند أكابر الصوفية : ما رواه العارف المناوى فى طبقاته قائلاً : (وأقام سهل - أى التسترى أحد أئمة الصوفية العظام - سنين لا يسند ظهره للمحراب ولا يتكلم ، فلما كان ذات يوم بكى واستند وتكلم وبالغ فى إبراز المعانى العجيبة والإشارات الغريبة فقيل له فيه - أى سئل عن سبب سكوته أولاً ثم تكلمه ثانياً - فقال : كان ذو النون بمصر حيًّا فما تكلمت ولا استندت إجلالا له . والآن قد مات فقيل لى تكلم فقد أذنت)[2] .

هكذا مقامات الأقطاب وهكذا تكون آداب الأولياء ! لقد ارتضع سيدى ذو النون ثدى العناية وشرب من معدن الحكمة وغاص فى بحار المعرفة فأتى بالعجب العجاب ، وتتلمذ على يديه صفوة من الأقطاب وأذعن له الخاص والعام ، وشرب صوفية عصره من معدن روحانيته ونبع معرفته ، وسنرى كيف أرسى منهجه فى المعرفة ونهل من بحار المحبة حتى أفاض بحكمته المشرقة وإشاراته الوضاءة ، ولقد هيأت له العناية أن يلتقى فى سياحاته الصوفية بنماذج من شوامخ أهل الحقيقة وأقطاب الولاية وكانت له معهم أحوال ومساجلات وكرامات وإشارات سنقف على طرف منها . يقول سيدى ذو النون : (خرجت فى طلب المناجاة فإذا أنا برجل قد غاص فى بحر الوله وخرج على ساحل الكمة وهو يقول فى دعائه : أنت تعلم منى أنى لا أعلم أن الاستغفار مع الإصرار لؤم، وأن تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك لعجز . إلهى : أنت الذى خصصت خصائصك بخالص الإخلاص ، وأنت الذى سلمت قلوب العارفين من اعتراض الوسواس ، وأنت آنست الآنسين من

---

(١) انظر : المصدر السابق ١/٢٢٤.

(٢) انظر الكواكب الدرية للشيخ المناوى ١/٤٠١.

أوليائك وأعطيتهم كفاية رعاية المتوكلين عليك ، تكلؤهم فى مضاجعهم وتطلع على سرائرهم ، وسرى عندك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف . قال ثم سكتت صرخته فلم أسمع له صوتا) (١) وفى واقعة أخرى - ذكرها صاحب الحلية - يقول سيدى ذو النون : (بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية وإذا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف فسلمت عليها فردت السلام ثم قالت : ألست ذا النون المصرى ؟؟ قلت عافاك الله كيف عرفتينى ؟ قالت : فتق الحبيب بينى وبين قلبك فعرفتك باتصال معرفة حب الحبيب . ثم قالت : أسألك مسألة ؟ قلت : سلينى . قالت : أى شئ السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت : هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين ؟ قلت : المسارعة إلى طاعة المولى . قالت : فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منه خيرا؟ نعم للواحد عشرة - أى الحسنة بعشر أمثالها - قالت : مر بإبطال هذا . هذا فى الدين قبيح . ولكن المسارعة إلى طاعة المولى أن يطلع إلى قلبك ، وأنت لا تريد منه شيئاً بشئ . ويحك يا ذا النون . إنى أريد أن أقسم عليه فى طلب شئ منذ عشرين سنة فأستحى منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجر ولكن أعمل تعظيماً لهيبته وعز جلاله . قال : ثم مرت وتركتنى) (٢).

وفى واقعة ثالثة رواها الإمام المناوى : قال سيدى ذو النون : (وصف لى رجل بالجبل المقطم فقصدته فمكثت عنده أربعين يوماً ثم سألته فقلت : فيم النجاة؟ قال : فى التقوى والمراقبة . قلت : زدنى. قال : فر من الخلق - أى إلى الله - ولا تأنس بهم - أى دونه تعالى - قلت زدنى . قال : أن لله عباداً حالفوه فسقاهم كأساً من محبته . فهم فى شربهم عطاش وفى عطشهم أرواء . ثم تركنى) (٣).

وقال سيدى ذو النون رضى الله عنه : (صحبت زنجياً فى التيه . فكان إذا ذكر الله أبيض !! فورد على أمر عظيم فسألته فأنشد : -

---

(١) انظر حلية الأولياء لسيدى أبى نعيم الأصبهانى : ٩/٣٣٥.

(٢) انظر حلية الأولياء لسيدى أبى نعيم الأصبهانى : ٩/٣٤٠.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٤١٠.

ذكـــرنا ومـــا كنا لننسى فنذكـــر

ولكن نسيم القـرب يبـدو فـيخـبـر

فـأحـيـا به عنى وأحـيـا به له

إذ الحق عنه مـخـبـر ومـعـبـر (١)

ومن الوقائع التى صادف فيها سيدى ذو النون أصحاب الكرامات والخوارق من الأولياء ما رواه الإمام القشيرى فى رسالته . قال : (وقال ذو النون : كنت وقتا فى السفينة فسرقت جوهرة فاتهموا بها رجلاً . فقلت : دعوه حتى أرفق به . وإذا الشاب نائم فى عباءة فأخرج رأسه من العباءة - فقال له ذو النون فى ذلك المعنى - فقال : إلىّ تقول ذلك ؟ أقسمت عليك يارب ألا تدع واحداً من الحيتان إلا جاء بجوهرة قال فرأينا وجه الماء حيتانا فى أفواهها الجواهر . ثم ألقى الفتى نفسه فى البحر ومر إلى الساحل) (٢) .

ولا ريب أن شخصية العارف ذى النون قد استوعبت كل ما لاح لها من شواهد العرفان والولاية فتحققت بكل تلك المقامات واكتملت فيها تلك الأوصاف والمراتب التى ظهرت بجلاء وصدرت عنها هذه الإشراقات الفيضية والأحوال السنية بصورة لم تعرف إلا لكمل المتحققين من الرجال .

ففى ميدان المعرفة استطاعت إشارات سيدى ذى النون أن تنفذ إلى شغاف القلوب وتجسد المعنى الحق للمعرفة اليقينية بالذات العلية . فقد سئل سيدى ذو النون : بم عرفت ربك ؟ فقال : (عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى) (٣). ولما كانت معرفة اللّه تعالى لا تتناهى بل كلما ازدادت تفضى إلى مزيد من التحير لعظمة الذات العلية قال : (أعرف الناس باللّه أشدهم فيه تحيراً) (٤) . ثم تحدث

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤١٠/١.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية - المحققة - ٦٨٣/٢.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية - المحققة - ٦٠٦/٢.

(٤) انظر الرسالة القشيرية ٦٠٥/٢.

عن وسائل المعرفة قائلاً : (تنال المعرفة بثلاث : بالنظر في الأمور كيف دبرها وفى المقادير كيف قدرها وفى الخلائق كيف خلقها) [1] . وقد سئل العارف ذو النون عن أول درجة يلقاها العارف فقال : التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة [2] . وسئل : ما أغلب الأحوال على العارف ؟ فقال : حبه والجب فيه ، ونشر الآلاء وهى الأحوال التى لا تفارقه [3].

ويصف العارف ذو النون حياة هؤلاء العارفين ومقاماتهم قائلاً : -

مجال قلوب العارفين بروضة
سماوية من دونها حجب الرب
تكنفها من عالم السر قربه
فلو قدر الآجال ذابت من الحب
وأروى صداها كأس صرف بحبه
وبرد نسيم جل عن منتهى الخطب
فيالقلوب قربت فتقربت
لذى العرش مما زين الملك بالقرب
رضيها فأرضاها فحازت مدى الرضا
وحلت من المحبوب بالمنزل الرحب
لها من لطيف العزم عزم سرت به
وتهتك بالأفكار ما داخل الحجب
سرى سرها بين الحبيب وبينها
فأضحى مصونا عن سوى القرب فى القرب [4]

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٣٩/٩ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٠٤/١.
(٢) (٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٤٧٤/٩ .
(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٩/٩.

إنها معاريج المعرفة يصفها عارف ذائق ومحب عاشق فَنِيَ فى محبوبه فنطق به عنه فى حضرة القرب بما يروى ظمأ المتعطشين للجمال الأزلى والضياء القدسى. وفى مقام المحبة الإلهية دارت كأس العارف ذى النون ودار معها حديث أرق من النسيم حديث يأخذ بالألباب ويسكر العقول والأرواح . يقول سيدى ذو النون : (إن للّه عباداً على الأرائك يسمعون كلام اللّه ، إذا كلم المحبين فى المشهد الأعلى لأنهم عبدوه سراً فأوصل إلى قلوبهم لطائف البر. عملوا ببعض ما علموا فلما وقفوا فى الظلام بين يديه هدى قلوبهم إلى ما يعملون. فحسرت ألبابهم لمعرفة الوقوف بين يديه) [1] ويقول سيدى ذو النون :-(قل لمن أظهر حب اللّه : احذر أن تذل لغير اللّه .. ومن علامات المحب فى اللّه : ألا يكون له حاجة إلى غير اللّه).

ثم يبرز هذه السمة المميزة لطريق المحبين فيقول : (من علامات المحب للّه عز وجل متابعة حبيب اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه) [2] .

إنه قانون المحبة القرآنى الذى وصفه رب العزة جل شأنه حيث قال : ﴿ قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعونى يحببكم اللّه ﴾ [3].

ولقد تكاملت شواهد المحبة فى العارف ذى النون حيث ارتقى فيها ذروة السنام وصعد إلى قمتها الشامخة وأخذ يردد أهازيجه التى صاغها من ذوب فؤاده لمحبوبه الأسمى فيخاطبه ويناجيه قائلاً : -

أمـــوت ومـــا مـــاتت إليك صــبـــابتى
ولا قــضــيت من صــدق حــبك أوطارى

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٩/٣٥٥.
(٢) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/٥٥.
(٣) سورة آل عمران - الآية ٣١.

منـاى الـمنـى كل الـمنـى أنـت لـى مـنـى
وأنت الغنـى كل الغنـى عند إفـــتـــارى
وأنت مـــدى ســؤلى وغـــاية رغـــبـــتى
ومـــوضع آمـــالى ومكنون إضـــمـــارى
تحـــمل قلبى فـــيك مـــالا أبثـــه
وإن طال سـقـمى فـيك أو طال إضـــرارى
وبين ضلوعى منك مـــالك قـــد بدا
ولـم يبـــد باديه لأهـل ولا جـــار [1]

ويرسل العارف ذو النون أناته وزفرات محبته لمحبوبه الذى ملك منه الحشا والشغاف ولم يبق فيه بقية لنفسه ، إنها المحبة الإلهية التى تنير ظلمة النفس وتقشع حجب القلب فيبصر بنور الله إلى عز جلال الله .

ويضع سيدى ذو النون الأسس التى يقوم عليها التصوف قائلاً : (مدار الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل) [2].

تلك هى دعائم التصوف يبرزها سيدى ذو النون ويضعها أمام نواظر الذين يناصبون التصوف وأهله العداء عن جهل بحقيقته أو تجاهل مبنى على عناد وضلال.

ليعلم أولئك وغيرهم أن التصوف هو روح الدين الإسلامى بل هو قمة الروحية الإسلامية بسموها وعظمتها . ولنستمع إلى كنوز الفتح الربانى وفيوضات العلم اللدنى عند العارف الواصل سيدى ذى النون .

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ٩/٣٩٠ وبها بقية القصيدة الرائعة وكذا فى طبقات السلمى ص٢١-٢٢.
(٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٤٠٢.

يروى صاحب الحلية بسنده عن محمد بن عبد الملك بن هاشم قال : (قلت لذى النون : كم الأبواب إلى الفطنة ؟ قال : أربعة أبواب . أولها الخوف ثم الرجاء ثم المحبة ثم الشوق . ولها أربعة مفاتيح : فالفرض مفتاح باب الخوف ، والنافلة : مفتاح باب الرجاء وحب العبادة والشوق مفتاح المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق . وهى درجة الولاية . فإذا هممت بالارتقاء فى هذه الدرجة فتناول مفتاح باب الخوف فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنة مفتوحاً لأغلق عليه فإذا دخلته فما أظنك تطيق ما ترى فيه . حينئذ يجوز شرفك الأشراف ويعلو ملكك على الملوك . واعلم أى أخى أنه ليس بالخوف ينال الفرض ولكن بالفرض ينال الخوف ، ولا بالرجاء تنال النافلة ولكن بالنافلة ينال الرجاء . كما أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح ولكن بالمفاتيح تنال الأبواب . واعلم أنه من تكامل فيه الفرض فقد تكامل فيه الخوف ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله ، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله فى قلبه نور الاشتياق إليه . وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى يكون الله عز وجل هو الذى يناوله من يشاء من عباده) [1] .

ويصف سيدى ذو النون أولياء الله قائلاً : (أن لله خاصة من عباده ونجباء من خلقه وصفوة من بريته صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملكوت . أولئك نجباء الله من عباده وأمناء الله فى بلاده والدعاة إلى معرفته والوسيلة إلى دينه . هيهات بعدوا وفاتوا . وارتهم بطون الأرض وفجاجها . على أنه لا تخلو الأرض بعد ذلك من قائم فيها بحجة الله على خلقه . لئلا تبطل حجج الله) [2] .

وأما عن أحوال الشيخ ذى النون وكراماته وخوارقه : فإنها لا يحدها حصر ولا وصف ، فإن الولى إذا سلك الطريق وقطع عقبات النفس وارتقى فى مقامات الرجال تصير الخوارق له عادات ؛ لأنه صار ربانيا . وقد أطلعنا القرآن الكريم على

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ٩/٣٧٨ – ٣٧٩.

(٢) انظر : الحلية لأبى نعيم ٩/٣٤٩.

نماذج من تلك الكرامات فى قصة أهل الكهف والسيدة مريم والذى عنده علم من الكتاب . فلا نكران إذاً على الكرامات من أى مؤمن بالكتاب والسنة .

ومن كرامات سيدى ذى النون رضى الله عنه ما رواه الإمام النبهانى فى جامع الكرامات حيث حكى عن أحمد بن محمد السلمى قال : دخلت على ذى النون المصرى يوماً فرأيت بين يديه طستاً من ذهب وحوله الند والعنبر يسجر. فقال لى : أنت ممن يدخل على الملوك فى حال بسطهم . ثم أعطانى درهما فأنفقت منه إلى بلغ [1] ا هـ. لقد تواجد لسيدى ذى النون فى حال البسط لما لم يكن له به عهد من قبل وهو الند والعنبر وطست الذهب وكل ذلك على سبيل الكرامة.

وذكر الإمام اليافعى كرامة أخرى للشيخ - من بعض ما ذكر - ، قال أبو جعفر كنت عند ذى النون المصرى فتذاكرنا طاعة الأشياء للأولياء . فقال ذو النون : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ثم يرجع مكانه فيفعل . قال فدار السرير فى أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه ، وهناك شاب قاعد فأخذ يبكى حتى مات فى الوقت [2] !!

ومن كراماته أيضاً : أن غلاما من غلمانه دخل بغداد فسمع قوالا - أى شخصاً ذا حال ينشد ويقول فصاح ووقع ميتا . فلما دخل ذو النون بغداد سأل عن القوال وقال له : قل فقال . فصاح ذو النون فخر القوال ميتا . فخرج سيدى ذو النون وهو يقول (النفس بالنفس)[3] .

وقال بكر بن عبد الرحمن : كنت معه فى البادية فجلسنا تحت شجرة أم غيلان . فقلت : ما أطيب الموضع لو كان فيه رطب فحرك - سيدى ذو النون الشجرة فقال : أقسمت عليك بالذى ابتداك وخلقك شجرة إلا نثرت علينا رطباً جنيا . فتساقط الرطب فأكلنا وشبعنا ثم نمت وقمت حركت الشجرة فنثرت شوكاً [4] !!

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٦٢٤/٢ ط/ الحلبى (الثانية).
(٢) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٦٢٤/١ ط/ الحلبى (الثانية).
(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠٨/١.
(٤) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠٩/١.

ومن كرامات سيدى ذى النون أيضاً ما رواه القطب العارف سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته أن سيدى ذا النون قال : قد جاءتنى امرأة فقالت إن ابنى قد أخذه التمساح . فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل وقلت : اللهم أظهر التمساح . فخرج إلىّ فشققت عن جوفه فأخرجت ابنها حيا صحيحا فأخذته ومضت وقالت اجعلنى فى حل فإنى كنت إذا رأيتك سخرت منك وأنا تائبة إلى الله عز وجل [1].

وهكذا يبتلى الأولياء فيصبرون ثم تظهر فتوتهم مع من أساء إليهم . ثم هكذا يتجلى صدق الولاية لله عز وجل بطاعة الأشياء لولى رب الأشياء .

وأخيراً : هكذا نرى الإمام الولى العارف سيدى ذا النون المصرى رضى الله عنه يتربع فى قمة المعرفة والسلوك والولاية ، ويضىء بمشعل الكلمة دياجى النفوس ، ويزرع فى جديب القلوب أزهار الحكمة ، ويسجل فى صفحات الخلود آيات الهداية والعرفان . رضى الله عنك يا قطب الولاية ومختار العناية يا سيدى ذا النون وأمدنا منك بفيض من العطف والبركات وجعلنا من أحبابك ورفقائك فى روضات الجنات إنه نعم المجيب .

★ ★ ★

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٦/٩.

« ٢٠ »

شيخ صوفية العراق
« سيدى الإمام السرى السقطى رضى اللّٰه عنه »

على بساط الأنس والمشاهدة شرب العارفون من رحيق النور الأزلى وارتووا من معين الوصل الإلهى فهامت أرواحهم فى سرادقات الجلال والجمال مستغرقة فى عظمة المولى عز وجل فانية فى وجوده متنغمة بشهوده . إنها أرواح مختصة بالعطاء ، وقلوب سجلت لها العناية مراسيم الولاء . تلك منح وعطايا وهبها اللّٰه تعالى لأحبائه الأولياء الذين رضى عنهم ورضوا عنه . ذلك الفوز العظيم .

ومن خواص أهل الولاية والاصطفاء والعناية والاجتباء : الإمام العارف والصوفى الشامخ سيدى أبو الحسن السرى بن المغلس السقطى رضى اللّٰه عنه. أحد أئمة الصوفية العظام الذين تفجرت عيون مواردهم فى المعارف الإلهية وفاضت مناهل عرفانهم بالنفحات القدسية .

وناهيك بمن هو شيخ للإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية . فهو خاله وأستاذه ، وهو إمام التصوف بالعراق فى عصره ، وهو - كما قال الإمام القشيرى فى رسالته : (أوحد زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد) [١] .

ويقول عنه أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته : (وهو أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال وهو إمام البغداديين وشيخهم فى وقته) [٢].

فالإمام السرى إذاً يعد رائد عصره فى كشف حقائق التصوف وعلومه . ثم

---

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود : ٦٤/١.

(٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى رضى الله تعالى عنه ص٤٨.

هو : إمام زمانه فى أحوال القوم وأخلاقهم ومناهجهم السلوكية التى ترتقى بالعبد إلى قمة الوصول .

والعارف أبو الحسن السرى بغدادى المولد كما أنه بغدادى الوفاة ، إذ توفى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين هجرية [١] ومقامه بالشونيزية ظاهر ، يزار وتلتمس منه البركات.

وقد مَنَّ الله تعالى علىّ بزيارة ضريحه فى بغداد بالعراق سنة ١٤١١هـ - سنة ١٩٩٠م حيث كنت عضواً بالمؤتمر الإسلامى ضمن وفد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد تلقى القطب السرى طريقته عن قطب عصره الإمام العارف سيدى معروف الكرخى - رضى الله عنه - الذى يعد شيخ التصوف بالعراق فى زمنه والذى تلقى بدوره الطريق عن سليل البيت النبوى سيدى على بن موسى الرضا رضى الله عنه . وقد استمد الإمام السرى المدد الصوفى من سيدى معروف ليسرى إليه نور هذه السلسلة المنتهية إلى بيت النبوة ثم منه إلى الإمام أبى القاسم الجنيد الملقب بسيد الطائفة الصوفية .

وعن قصة البداية فى الطريق الصوفى للإمام السرى مع شيخه سيدى معروف : يروى الإمام القشيرى بسنده عن أبى العباس بن مسروق يقول : (بلغنى أن السرى السقطى كان يتجر فى السوق - وهو من أصحاب معروف الكرخى - فجاءه معروف يوماً ومعه صبى يتيم فقال اكسُ هذا اليتيم . قال سرى : فكسوته ففرح به معروف وقال : « بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه » فقمت من الحانوت وليس شىء أبغض إلى من الدنيا وكل ما أنا فيه من بركات معروف [٢] ا. هـ .

وعلى أثر هذا الحادث ، واستجابة لدعوة سيدى معروف توجه الإمام السرى إلى الله ، وترك تجارة الدنيا ليشرع فى تجارة الآخرة . بل ليستقبل عهده مع الله

(١) انظر المصدر الأخير.

(٢) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ١/٦٤.

فى محراب العبادة والعبودية . يعبده تقرباً إليه لا طمعاً فى ثوابه ولا خوفاً من عذابه كما هو الشأن فى عبادة الأحرار .

ولقد سلك الإمام السرى طريق القوم على تعطش للعبادة والمعرفة فأقبل على الطاعات بروح تواقة شغوفة بالتحرر من الأنية والغيرية ، دءوبة على الخدمة والعكوف بباب المولى حتى يؤذن لها بالدخول .

وأخبار عبادات الإمام السرى تثير العجب وتفوق الخيال : يقول الإمام الجنيد رضى الله عنه : (ما رأيت أعبد من السرى . أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُئى مضطجعاً إلا فى علة الموت) [1] !!

أى طراز هذا من الرجال ؟؟ إنه الطراز الملائكى الذى يقتات من العبادات ويتنفس بالطاعات كما قال تعالى فى حق الملائكة : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [2] .

وهذا هو دأب العارف السرى . وقد كان يوصى به أصحابه ومريديه . ولقد سمعه الإمام الجنيد يقول : (إنى أعرف طريقاً يؤدى إلى الجنة قصدا . فقيل له ما هو يا أبا الحسن ؟ فقال : أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل) [3] .

لقد فسر هو بنفسه معنى قوله : (حتى لا يكون لك فيها فضل) عمليا وذلك بعبادته المتصلة ثمانية وتسعين عاماً أمضاها بين صيام وقيام وذكر وفكر حتى لقد كان يقول : (إذا فاتنى جزء من وردى لا يمكن أن أقضيه أبداً) [4] . وعلل لذلك الإمام الجنيد قائلاً : (لأن السرى كان متصل التنفل).

وكان رضى الله عنه يقول : (من قام بين يدى الله فى الظلام نشرت له يوم القيامة الأعلام) [5] .

---

(١) المصدر السابق / ٦٥ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٢/١٨٦.

(٢) سورة الأنبياء : ٢٠.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/١١٩.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/١٢٤ وانظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ١٢/١٨٧.

(٥) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٤١٩.

ولقد كان المنهج السلوكى عند العارف السرى ذا جوانب متعددة عميقة الغور متراميـة الأبعاد . وكانت تلك الجوانب فى مجموعها تمثل حلقات متصلة بحيث تشمل كل المعاملات الظاهرة والباطنة للعبد مع الخالق ومع المخلوقين أيضاً بحيث تفضى هذه الجوانب فى النهاية إلى بلوغ قمة النضج الروحى حيث تحلق الروح فى سماء المعرفة والولاية .

ففى مجال جهاد النفس مثلا : تطالعنا عند الإمام السرى صفحات مضيئة يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار . يقول رضى اللّٰه عنه : (إن نفسى تطالبنى منذ ثلاثيـــن سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة فى دبس - أى عسل التمر وعسل النحل - فما أطعتها)[1] !!

إنها مجاهدة النفس فى شهوة حلال من أجل قطع مآربها لكى يصفو الجو للروح فتنطلق إلى معاريج الوصول .

ولقد دخل عليه الإمام الجنيد يوماً فقال له : يا جنيد : عصفور يجىء كل يوم أفت له الخبز فى يدى فيأكله فنزل الساعة ولم يسقط على يدى فتذكرت أنى أكلت ملحا بأبزار فآليت ألا آكله بعدها فعاد كما كان[2] !!

ولطالما تحرى الإمام السرى الحلال مع شدة الورع حتى تحمل فى ورعه الكثير والكثير وكان يقول دائماً : (آه على لقمـــة ليس للّٰه فيها تبعـــة ولا لمخلوق فيها منة)[3] !!

ومن تلك الوقائع التى تجلى فيها ورع سيدى السرى ما رواه الإمام الشعرانى رضى اللّٰه عنه فى طبقاته إذ قال : وقال على بن الحسين بعثنى أبى للسرى رضى اللّٰه عنه بشىء من حب السعال لسعال كان به . فقال لى : كم ثمنه ؟ فقلت له : لم يخبرنى بشىء . فقال اقرأ عليه السلام وقل له : نحن نعلم الناس منذ خمسين سنة

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/١١٦.

(٢)، (٣)انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٤١٧.

أن لا يأكلوا بأديانهم أفتراني اليوم آكل بديني ؟؟! ثم رده ولم يأخذ منه شيئاً[1] ا.هـ.

ويؤكد صاحب الحلية هذا المرتقى السامى عند الشيخ السرى قائلاً: (وسمعت أبا على الحسن البزاز يقول سألت أبا عبد اللّٰه أحمد بن حنبل عن السرى بعد قدومه من الثغر فقال : أليس الشيخ الذى يعرف بطيب الغذاء ؟ قلت: بلى . قال: هو على سيره عندنا قبل أن يخرج.

ثم يقول أبو نعيم : وقد كان السرى يعرف بطيب الغذاء وتصفية القوة وشدة الورع حتى انتشر ذلك عنه ، وبلغ ذلك أبا عبد اللّٰه أحمد بن حنبل فقال : الشيخ الذى يعرف بطيب الغذاء)[2].

وقد كان منهج السرى فى الورع منطوياً على جواهر الحكم السلوكية الصوفية. فها هو ذا يقول : (لا يقوى على الشهوات إلا من ترك الشبهات)[3] ويؤيده ما ورد فى الحديث الشريف : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » وأيضاً فقد كان العارف السرى يقول : (تصفية العمل من الآفات أشد من العمل)[4].

ثم إلى جانب الزهد والورع فقد كانت المراقبة فى أعلى درجاتها متمثلة فى سلوك الإمام السرى . والمراقبة هى إحدى مرتبتى الإحسان الوارد معناه فى الحديث الشريف إذ قال سيد الوجود صلى اللّٰه عليه وآله وسلم : « الإحسان أن تعبد اللّٰه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فالشق الأول للمشاهدة ، والثانى للمراقبة ، والمراقبة عند العارفين لها درجات ومنازل . ولقد تربع سيدى السرى فى قمة المراقبة والحضور ، يقول رضى اللّٰه عنه : (صليت وردى ليلة فمددت رجلى فى المحراب فنوديت : يا سرى : كذا تجالس الملوك ، قال : فضممت رجلى ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلى أبداً)[5] !!

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عه ٦٣/١.

(٢)،(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٢٦/١٠.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ١٢٢/١٠.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٨٥/١٢.

إنه نداء المراقبة من قبل الحضرة العلية للعارف السرى . ولقد عرف نفس النداء مع سيدى أبى يزيد البسطامى وسيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله تعالى عنهما .

ومع المراقبة هناك التوكل والرضا . ولكلٌ مفهومه عند العارف السرى . فهو يعرف التوكل بأنه : (الانخلاع عن الحول والقوة) (١) .

ثم يقول عن الرضا والورع والعبادة والشكر : (رأس الأعمال الرضا عن الله ، وعمود الدين الورع ، ومخ العبادة الجوع ، وضبط اللسان حصن حصين . ومن شكر الله جرى فى ميدان الزيادة).

ويرى الإمام السقطى أن التجرد لله تعالى هو أقرب ما يوصل إلى الحضرة الإلهية ، فلقد سئل يوماً : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : (إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام ، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه) (٢) .

أى أن هناك طريقين موصلين إلا أن أقربهما للوصول هو ترك السوى . ولقد ترك الإمام السرى كل ما سوى الله فوصل إلى الله . وصل إليه على جناحى المحبة والشوق . وللمحبة عند العارف السرى مقام لا يرام بالكلام ولا يسطر بالأقلام . يقول الإمام الجنيد : (سألنى السرى يوماً عن المحبة فقلت : قال قوم هى الموافقة. وقال قوم الإيثار . وقال قوم كذا وكذا . فأخذ السرى جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد . ثم قال : وعزته لو قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت . ثم غشى عليه فصار وجهه كأنه قمر مشرق . وكان السرى به أدمة - أى سمرة) (٣)].

ومصداقاً لمنطق هذه الواقعة فلقد رفع السرى إلى الإمام الجنيد يوماً رقعة وقال له : انظر ما فيها ، فنظر فإذا فيها .

---

(١) انظر : طبقات الصوفية للسلمى ص/٥٠.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٤١٩/١.

(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ٦٥/١.

إذا ما شكوت الحب قالت كذبتنى ... فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا

فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا [(١)]

ولقد جاء رجل وقال يوماً للعارف السرى : كيف أنت ؟ فأجابه قائلاً :

من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف تفتت الأكباد [(٢)]

إنها محبة العبد لسيده ومولاه ، هى القوت والغذاء ، وهى الخمر وهى الكأس، وهى النعيم وهى السرور فأعجب لنعيم يفتت الأكباد ويذيب المهج ويلصق الجلد بالحشا ويقطع المحب عن كل شىء سوى محبوبه.

ولقد ارتفع سيدى السرى بمحبته إلى درجة العشق . حتى أنه مرضَ يوماً ولم ير عليه تغير . فأخذ الإمام الجنيد بوله فذهب إلى طبيب نصرانى . فتأمله وقال : هذا بول عاشق !! فصعق الإمام الجنيد وأغمى عليه ثم أخبر شيخه السرى فقال : قاتله اللّه ما أخبره ! ما كنت أظن أن الحب يظهر فى هذا !! [(٣)].

وما من شك فى أن غاية المحب ومناه هى الوصال .

ومن ثم فالحجاب عن المحبوب هو أشد ما يعانيه المحب من العذاب . لذلك كان الإمام السرى يتضرع إلى ربه ويناجيه قائلاً : (اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب) [(٤)].

إن الأولياء ينشدون الوصال دائماً فهو مطلبهم الأسمى . ومع الوصال يكون الأنس والرضا والهيبة والجلال . وكلها مقامات لها شأنها عند أهلها . وقصارى ما يمكن أن نصل إليه هو المدلول النظرى عن طريق التعرف والبحث . أما الإدراك الصوفى العملى فهو وقف على أهله الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم . وقد أوجد البون الشاسع بين النظر والتطبيق عقبة منيعة فى التصديق . ولكن لا يسعنا إلا نشدان الحقيقة والتعرف عليها من أى الوجوه والزوايا.

---

(١) انظر طبقات الأولياء لابن الملقن : ص١٦٣.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ١١٩/١٠.

(٣) انظر : الكواكب الدرية للشيخ المناوى ٤٢٠/١.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم : ١٢٠/١٠.

وفى مقام الأنس والهيبة يقول الإمام السرى رضى الله عنه : (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر) [١] .

ويعلق الإمام الجنيد على كلام شيخه قائلاً : (وكان فى قلبى منه شىء حتى بان لى الأمر كذلك ، وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط) . والقبض والبسط : فوق الخوف والرجاء . فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهشة . فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعاً لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه .

والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة . ثم إنهم يتفاوتون فى الهيبة والأنس . وقيل أدنى مرتبة فى الأنس أنه لو ألقى فى النار ما تكدر أنسه . ألا ترى إلى قول السرى: (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر). وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله ، ومن صح له أنس بالله استوحش مما سواه . ا. هـ.

هذه مقامات العارفين السابحين فى بحار القرب الفائزين برضا الرب ، الناعمين بالولاية الربانية والمجتبين للمعرفة الإلهية . وللمعرفة علامات أبان عنها العارف السرى إذ قال : (من علامة المعرفة بالله القيام بحقوق الله وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة) [٢] .

والإيثار بصفة عامة خلق من أخلاق الكمل من الرجال . وقد نال الإمام السرى منه الغاية القصوى وهى الفتوة فى الطريق ، وحمل أثقال المسلمين وتقديم مصلحتهم على الجانب الشخصى . فلقد أثر عن سيدى السرى أنه كان يقول : (وددت أن أحزان الخلق كلهم علىّ) [٣] .

إنه يريد أن يتحمل وحده عبء أحزان الخلائق شفقة منه عليهم وإيثارا لهم على نفسه . وذلك هو عين المشرب المحمدى وأنعم به من مشرب.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١٩٩/١.
(٢) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص٥٣.
(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١١٨/١٠.

ومن النماذج التطبيقية لخلق الفتوة عند الشيخ السرى ما ذكره الإمام القشيرى فى رسالته قائلاً :

(ويحكى عن السرى أنه قال : (منذ ثلاثين سنة أنا فى الاستغفار من قولى (الحمد لله) مرة . قيل : وكيف ؟ فقال : وقع ببغداد حريق فاستقبلنى رجل فقال لى : نجا حانوتك . فقلت الحمد لله فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسى خيراً مما حصل للمسلمين [(١)].!!

لله درك أيها العارف . هذه هى أخلاق الإسلام التى ارتفع بها صرحه وساد العالمين ، وبها تتحقق ذاتية المسلم الكامل الوارث لأخلاق النبوة . إن هذا السمو الأخلاقى هو وليد التربية الصوفية التى تنزع من العبد نفسه الأمارة بالسوء وتمحو منه أنانيته لكى يصفو ويسمو حيث.يحلق فى أجواء الحب النقى الطاهر لله الواحد الأحد . ولقد وضع أقطاب الصوفية فى مناهجهم السلوكية أكمل المبادئ والأسس الأخلاقية التى ترتقى بالعبد إلى مصاف الأبرار المقربين.

يقول الإمام السرى رضوان الله عليه : (ثلاث من أخلاق الأبرار : القيام بالفرائض ، واجتناب المحارم ، وترك الغفلة . وثلاث من أخلاق الأبرار يبلغن بالعبد رضوان الله : كثرة الاستغفار ، وخفض الجناح ، وكثرة الصدقات . وثلاث من أبواب سخط الله : اللعب ، والمزاح ، والغيبة . والعاشر من هذه الثلاث : عمود الدين وذروة سنامه : حسن الظن بالله) [(٢)] .

إنها مدارج الكمال ومعاريج الاتصال يصفها العارف الولى سيدى الإمام السرى . كما يحدثنا عن عقبات الوصول ووسائل الاتصال بالله تعالى قائلاً : (انقطع من انقطع عن الله بخصلتين واتصل من اتصل بأربع خصال . فأما من انقطع عن الله بخصلتين : فيتخطى إلى نافلة بتضييع فرض . والثانى عمل بظاهر

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٦٦/١.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ١٢٣/١٠.

الجوارح لم يواطئ عليه صدق القلوب . وأما الذى اتصل به المتصلون : فلزوم الباب، والتشمير فى الخدمة ، والصبر على المكاره ، وصيانة الكرامات)[١] .

ولمعنى الصبر تحليل جميل عند العارف السرى ، إذ يقول : (معنى الصبر أن تكون مثل الأرض تحمل الجبال وبنى آدم وكل ما عليها لا تأبى ذلك . كذلك الصابر يحتمل كل ما كرهته النفوس لا يأبى ذلك ولا يسميه بلاء بل يسميه نعمة وموهبة من الله سبحانه وتعالى)[٢].

ثم لقد تعرض العارف السرى لبيان أخلاق الصديقين . فقد قال الإمام الجنيد رضى الله عنه : (دخلت يوماً على السرى فقال لى : ما أوائل أحوال الصديقين ؟ قلت : لا أدرى . قال ثلاثة : أن يكونوا بما فى أيديهم مع إخوانهم سواء، ويطالبوا نفوسهم بما للناس عليهم ، وإذا عرض أمران لله عز وجل فيهما رضا حملوا أنفسهم على أصعبهما وأشدهما وإن كان فيه تلف نفوسهم). ويعقد الإمام السرى مقارنة صوفية بين الأبرار والمقربين قائلاً : (قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم . هؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ، وأولئك يقولون : ماذا سبق من الله لنا)[٣] !

وأما عن أخلاق الأبدال من الأولياء فيقول رضى الله عنه : (أربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع ، وتصحيح الإرادة ، وسلامة الصدر للخلق ، والنصح لهم).

تلك إشارات ولطائف رقيقة نورانية اتصف بها قوم فى الذروة العليا من الصفاء والطهر والنقاء ، وتكلم بها إمام فى المعرفة تفجرت فى قلبه ينابيع الحكمة فتحدث عن موارد القلوب . يقول الإمام الجنيد : (بعثنى السرى يوماً فى حاجة فأبطأت عليه . فلما جئت قال لى : إذا بعث بك رجل يتكلم فى موارد القلوب فى حاجة فلا تبطئ عليه فإنك تشغل قلبه)[٤] إنه إمام فذ فى عصره فريد فى طرازه وقد كانت نظرة عصره إليه نظرة المأموم للإمام . فلقد روى صاحب الحلية أن

---

(١) ،(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/١٢٠.
(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/١٢١.
(٤) انظر طبقات السلمى ص٥١ .

الإمام الجنيد سمع الحسن البزاز يقول : (كان أحمد بن حنبل هاهنا وكان بشر بن الحارث هاهنا وكنا نرجو أن يحفظنا اللّه بهما . ثم إنهما ماتا وبقى السرى وإنى أرجو أن يحفظنا اللّه بالسرى)[1] .

ولقد كان للإمام السرى مع الإمام أحمد بن حنبل - فى حياته - شأن جليل فى أمور الحقائق . ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالى رضى اللّه عنه قائلاً : (وأرسل السرى إلى أحمد بن حنبل شيئاً فرده . فقال له : احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال : أعد على ما قلت . فأعاده . فقال : ما رددت إلا لأن عندى قوت شهر. فاحبسه عندك وأرسله بعد شهر)[2] ا.

لقد تلاقى علم الشريعة وعلم الحقيقة فى أعلى قمتين شامختين فى العصر كله . واتفقت الكلمتان وتوحدتا وما كان لهما أن تختلفا أو تتفرقا أبداً برغم ما يقوله أهل الزور من أعداء الصوفية الذين عميت بصائرهم عن رؤية الحقيقة . ولقد أوضح الإمام السرى الحقيقة بجلاء فى قوله : (من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكيم فهو غالط) . ولنعم ما قاله أهل اللّه تعالى : (الشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده) ولكن ما ذنب الشمس فى أن يحجب عنها أعمى أو لا يحس بها فاقد لجوهر الحياة ؟؟ ألا فليبك المحجوبون على أنفسهم بدلاً من أن يصبوا أحقادهم على المتنعمين بشهود الجمال القدسى . فالذين رفعت لهم أعلام الولاية لن يضيرهم عداء أهل الظلمة والغواية .

ولننتقل إلى جانب الكرامات عند قطب الأقطاب العارف المعرف سيدى السرى السقطى : - ولن نضع فى حسباننا الذين ينكرون على الأولياء كراماتهم برغم ورودها فى صحيح الكتاب والسنة : - يروى صاحب الحلية بسنده عن على ابن عبد الحميد الغضائرى يقول : سمعت سريا السقطى ودققت عليه الباب . فقام إلى عضادتى الباب فسمعته يقول : (اللهم اشغل من شغلنى عنك بك) فكان من

---

(١) انظر الحلية ١٠/١٢٦.

(٢) انظر الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ يس السنهوتى : ص٤٣ ط/ السعادة.

بركة دعائه أنى حججت أربعين سنة من حلب على رجلى ماشياً ذاهباً وجائيا [1] !!

ومما ذكره الإمام النبهانى فى جامع الكرامات : قال : (وحكى أن السرى السقطى لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها . فأبطأت يوماً فقال لها السرى : لم أبطأت ؟ فقالت : لأن غزلى لم يشتر ، وذكروا أنه مخلط . فامتنع السرى عن طعامها . ثم إن أخته دخلت عليه يوماً فرأت عجوزاً تكنس بيته وتحمل كل يوم إليه رغيفين فحزنت أخته وشكت إلى أحمد بن حنبل . فقال أحمد بن حنبل للسرى فيها فقال : (لما امتنعت عن أكل طعامها قيض الله لى الدنيا لتنفق على وتخدمنى) [2] !! وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السرى فرأيت فى غرفته كوزا جديداً مكسوراً . فقال : أردت ماء باردا فى كوز جديد فوضعته على هذا الرواق ونمت . فرأيت فى منامى جارية مدنية فقالت : يا سرى : من يخطب مثلى يبرد الماء « ثم رمته برجلها فاستيقظت من نومى فإذا هو مطروح مكسور » . قال الجنيد : فرأيت الخزف المكسور لم يمسسه ولم يرفعه حتى عفى عليه التراب وعلمت أن مخالفة النفس وقمع الشهوات واللذات من دواعى الوصول وشواهد المشاهد [3] ا . هـ .

ولقد فلسف العارف السرى نظرته للكرامات بقوله : (من أطاع من فوقه أطاعه من دونه) [4] . كما فلسف من قبل نظرته للمحبة الإلهية إذ قال : (لا تكمل محبة بين اثنين حتى يقول كل للآخر يا أنا) [5].

والصوفية لا يعرفون المحبة إلا لله أو فى الله لأن قلوبهم ممحضة لله . إنهم عباد إلهيون ربانيون . اجتمعت قلوبهم فى محراب الخصوصية والاصطفاء لتنال من الله وافر العطاء .

---

(١) انظر الحلية ١١٧/١٠.

(٢) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٨٨/٢ - ٨٩ ط الحلبى (الثانية) .

(٣) المصدر الأخير.

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله عنه : ٤٢٠/١ .

(٥) انظر الأنوار القدسية للشيخين : الخانى والسنهوتى ص٤٣ .

وبعد : فقد أمضينا هذه الرحلة النورانية مع قطب من أقطاب الصوفية الأمجاد وإمام من أئمة الولاية الأفراد سيدى الإمام العارف السرى السقطى شيخ الإمام الجنيد وإمام التصوف فى عصره . وقد اقتبسنا منه هذه النفحات المباركات زاداً لأرواحنا ونوراً لقلوبنا علّنا نقتفى الأثر ونسير على الدرب ونسلك السبيل .

رضى اللّه عنك يا مولانا السرى وأمدنا منك بالمدد الأعلى وشرفنا معك بالصحبة المباركة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم .

* * *

« ٢١ »

« الإمام يحيى بن معاذ رضى اللّٰه عنه »

فى بحار العشق الإلهى هام أهل المحبة الممتلئة قلوبهم من فيض الأنوار ، المستمدة أرواحهم من معدن الأسرار ، السابحة أنفاسهم بالذكر والاستغفار مع نسائم الأسحار، فهم فى أعطاف نعيم العبادة والعبودية متنعمون ، وفى معارج السلوك صاعدون وواصلون ، لا تلهيهم شواغل المحدثات عن مراقبة مبدع الكائنات، ولا تستأثرهم قيود العادات عن التبتل فى محاريب العبادات . إنهم أهل الصفاء والوفاء والولاء .

عبيد ولكن الملوك عبيدهم

وعبدهم أضحى له الكون خادماً

رضى اللّٰه عنه وعنا بهم وألحقنا بركبهم مع السائرين على طريق اللّٰه المخصوصين بولايته ورضاه فى الدنيا ويوم الدين . آمين.

من صفوة أولئك الهداة العارفين والأئمة المربين : الإمام العارف ، الناطق بلسان الحقيقة ، والداعى إلى هدى الطريقة ، والناهل من ورد الشريعة زاد السمو إلى الدرجات الرفيعة : سيدى أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى - رضى اللّٰه تعالى عنه وعنا به فى عليين .

هو أحد الدعاة إلى اللّٰه تعالى العاكفين على طاعته والمتفانين فى مرضاته ، والذين رسموا للسالكين مناهج سيرهم إلى الجناب الأعلى مستلهمين الإلهام والمعرفة. فهو بحق أحد الصوفية الراسخين والعارفين المحققين الذين أضاءوا الدنيا نورا وهداية فى القرن الثالث الهجرى.

وحين نتصفح الجانب التاريخى لهذا الإمام لا نجد عند المؤرخين عن سيرته الشخصية إلا فقرات قليلة ثم يكون التركيز والإطناب بعدها متناولاً مناحى فكره ومعرفته وإشاراته الوعظية التى تأخذ طريقها إلى القلب كوميض البرق سرعة وضياء ، بيد أنها لا تخبو لتوها كالبرق الخاطف بل تسكن أعماق القلب لترويه بالنور والحكمة.

فلنتعرف على تلك الشذرات التاريخية من بعض الأقلام المترجمة لحياته . يقول الإمام أبو عبد الرحمن السلمى رضى اللّه عنه فى مستهل حديثه عنه فى طبقاته : (ومنهم يحيى بن معاذ جعفر الرازى الواعظ . تكلم فى علم الرجاء وأحسن الكلام فيه ، وكانوا ثلاثة إخوة : يحيى وإسماعيل وإبراهيم . أكبرهم سناً إسماعيل ويحيى أوسطهم وأصغرهم إبراهيم ، وكانوا كلهم زهاداً وإبراهيم خرج مع يحيى إلى خراسان وتوفى بين نيسابور وبلخ ، وقيل إنه مات فى بعض بلاد جوزجان - بخراسان - وخرج يحيى إلى بلخ وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين ..) [١].

عاش سيدى يحيى إذن فى القرن الثالث الهجرى وعلى وجه التحديد فى النصف الأول وبداية النصف الثانى منه ، ومن ثم فقد عاصر جمهرة التصوف الذين قام بهم صرح التصوف وغزا الآفاق بعد أن استوى على سوقه على يدى أقطابه وأئمته .

وكان من جملة من صحبهم سيدى يحيى وانتفع بصحبتهم وسلوكهم سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضى اللّه عنه فيذكر الإمام الطوسى فى اللّمع أن الإمام الجنيد رضى الله عنه كان يكاتب سيدى يحيى بن معاذ ، وذكر فقرات له من إحدى رسائله يحدثه فيها بلسان الخواص عن حقيقة التوحيد [٢].

---

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريبة ص١٠٧.

(٢) انظر : اللمع للسراج الطوسى بتحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ص٢١١.

وأيضاً فقد صحب سيدى يحيى القطب العارف سيدى أبا يزيد البسطامى رضى الله عنه وأفاد منه فى علوم القوم . كذلك صحب أبا عثمان الحيرى أحد أقطاب نيسابور العارفين . وغير أولئك كثير وكثير عرفهم الإمام ابن معاذ وأفاد من صحبتهم .

وقد روى سيدى يحيى الحديث كما روى عنه . فيذكر الخطيب البغدادى عنه أنه سمع من إسحاق بن سليمان الرازى ومكى بن إبراهيم البلخى ومحمد بن على الطنافسى. ثم يقول الخطيب فى تاريخه : (روى عنه الغرباء من أهل الرى وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة ، وكان قد انتقل عن الرى وسكن نيسابور إلى أن مات بها ، وقدم بغداد واجتمع بها إليه مشايخ الصوفية ..).

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى الحلية عدة أحاديث من مسانيد الإمام يحيى ابن معاذ. ومنها ما رواه بسنده عن مكحول قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (ما من عبد يخلص العبادة لله أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) (1) .

ولقد آثرت ذكر هذا الحديث من بين مروياته لأن مدلوله ينطبق على شخصية الإمام يحيى ويتمثل فيها أيما تمثل . فلقد كان بحق حكيم زمانه ولسان عصره فى الزهد والخوف والرجاء والمعرفة .

كان عابداً من خيرة العباد فانطلقت عباراته وإشاراته ترجمانا لما وقر فى قلبه من المحبة الصادقة لله والإعراض عن زيف الدنيا والإخلاص لعامة المسلمين.

وكان طبيعياً لمن يعد نفسه لتلك القمة التى تطلع إليها الإمام يحيى أن يأخذ من العلم زاده الأوفى كما يؤسس عليه بناءه الشامخ فى ميدان الجهاد الروحى ، وليقول كلمته فيصغى لها التاريخ وتسمعه الدنيا بأسرها .

---

(1) انظر : الحلية لأبى نعيم : ١٠/٧٠.

وكان إيمانه برسالة العلم عميقاً ونيراً . وها هو ذا يجسد خطورة هذه الرسالة وأثرها العميق فى وجدان الأمة قائلاً : (العلماء العاملون أرأف بأمة محمد- صلى الله عليه وسلم - من آبائهم وأمهاتهم) قيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : (لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها) [1] !

بل إن رسالة العلم عنده لا تنتهى بانتهاء الدنيا بل هى باقية فى الآخرة أيضاً، إذ يقول - فيما رواه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (العامة يحتاجون إلى أهل العلم فى الجنة كما فى الدنيا - فقيل له : كيف ؟ فقال : يقال للعامة فى الجنة : تمنوا . فلا يدرون ما يقولون . فيقولون : نرجع لأهل العلم فنسألهم ! فيكون ذلك تمام مكرمة لأهل العلم) [2] . وإذن فرسالة العلماء فى الدنيا تكليف وفى الآخرة تشريف . ولكن العلماء الحقيقيين لهم عند أهل الحقيقة أوصاف وسمات بغيرها لا يقتدى بهم ولا يكونون أسوة حسنة. فالعالم مالم يعمل بعلمه أحرى به ألا يستمع إليه لأنه فشل فى إقناع نفسه برسالته فكيف يقنع بها الآخرين ؟؟ فالعالم المتكالب على الدنيا ، والعالم الغافل عن ذكر الله، والعالم المرائى : كل أولئك صور مشوهة لا تدخل فى حساب رسالة العلم بحال.

وكان سيدى يحيى يقول : (لو أن رجلاً فى علم ابن عباس وهو راغب فى الدنيا لنهيت الناس عن مجالسته، فإنه لا ينصحك من خان نفسه)!! [3] لقد كان ذلك الميزان الدقيق الذى أمسك به الإمام يحيى ليقيس به صدق العلماء منطلقه وفلسفته أن إصلاح الأمة رهن إصلاح العلماء وصدقهم مع الله تعالى ، ولن يفسد حال أمة فيها علماء صالحون. وكان يحذر أصحابه من أولئك المحسوبين - زورا - على العلم بل وعلى القرآن والتصوف فيقول : (اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلون والقراء المداهنون ، والمتصوفة الجاهلون الذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض دينهم) [4] .

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٩/١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٠/١.

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٩/١.

إنها دعوة إصلاحية كبرى تبدأ بالرعاة وتنتهى بالرعية . وقد كان البدء بتنحية الأدعياء عن صفوف المخلصين الصادقين . ولقد كان الإمام يحيى ينظر بنور اللّه حينما ندد بالمندسين فى صفوف المتصوفة حتى لا يطعن التصوف بسببهم . وتلك قضية قديمة حديثة ؛ لأنها بدأت مع التصوف ولم تنته للآن ، وانتهزها أعداء الصوفية ليشهروا حراب حقدهم وعدائهم فى وجه التصوف والصوفية ، فظلم التصوف بين الأعداء والأدعياء . ولكن لم يضع حق وراءه أنصاره، فقد قدم التصوف على مر الأجيال جنوداً صادقين رفعوا لواءه ، وقدموا الحقيقة فى وضح النهار أوضح من شمسه . كما نقدم صاحب هذه الترجمة آية على وجود الشمس لمن لم تسعفهم أبصارهم على رؤيتها ، ومزيداً من الضياء لأهل النور والصفاء .

ثم ماذا كان من أمر الإمام يحيى بعد أن أدرك رسالة العلم ونهل من ينابيعه الثرة حتى ارتوى ؟ هل وقف فى منتصف الطريق ليعطى الناس من ثمرات علمه وحسب ؟ كلا . فما كان ليقع فى محظور حذر منه غيره . ولكنه بدأ من منطلق العلم طريقه الطويل وخطا أولى خطوات النور على الدرب المضئ .

حقا إنه العالم المحدث المتكلم الفقيه . ولكن كل هذه المقومات وسائل - ولابد من الشروع فى المقاصد والغايات . وكان البدء بالتوبة الصادقة التى هى محور التحول إلى اللّه تعالى . والتوبة التى يغتسل فيها العبد من دنس الخطيئة ومن كل قاطع عن اللّه . ثم يتبع التوبة منازل ودرجات وأحوال ومقامات تصعد بالسالك إلى أوج السمو والاصطفاء . وعن تلك الدرجات العلى يحدثنا سيدى الإمام يحيى- فيما رواه صاحب الحلية - قائلاً : (الدرجات التى يسعى إليها أبناء الآخرة سبع : التوبة ثم الزهد ثم الرضا ثم الخوف ثم الشوق ثم المحبة ثم المعرفة .،. فبالتوبة تطهروا من الذنوب ، وبالزهد خرجوا من الدنيا ، وبالرضا البسوا قراطن العبودية وبالخوف جازوا قناطر النار وبالشوق إلى الجنة استوجبوها وبالمحبة عقلوا النعيم،

وبالمعرفة وصلوا إلى الله . وهو - أى الوصول - فى البحر السابع ، ولا يزالون فيه أبد الآبدين فى الدنيا والآخرة) [1].

وحين انغمس الإمام يحيى فى بحر التوبة استنار قلبه ، وآب إلى ربه أوبة الصادقين المخلصين وأخذ يناجى مولاه متذللا ومتضرعاً :

أشكو إليك ذنوباً لست أذكرها

وقد رجوتك يا ذا المن تغفرها

من قبل سؤلك لى فى الحشر يا أملى

يوم الجزاء على الأهوال تذكرها

أرجوك تغفرها فى الحشر يا أملى

إذ كنت سؤلى كما فى الأرض تسترها [2]

وعقد الإمام أبو زكريا عزمه على الوصلة لأن فيها الحياة كل الحياة أما القطيعة - وهى التى يعبر عنها بالفوت فيقول فيها : (الفوت أشد من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق) [3] !!

وكانت الخلوة والمحراب والأنين والشكوى والحنين والمناجاة ، وتسابيح وضراعات تصعد إلى الله فى انكسار وتذلل . يروى صاحب الحلية أنه كان يقول فى مناجاته : (إلهى ، ذنبى إلى نفسى فأنا معناه ، وحبى لك هو لك فأنت معناه ، والحب أعتقده لك طائعاً ، والذنب آتيه كارها، فهب كراهية ذنبى لطواعية حبى ، إنك أرحم الراحمين) [4].

وكان يقول : (إلهى وسيدى ومولاى ومن جميع الأشياء مغناى : ضيعت نفسى

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٠/٦٤.

(٢) انظر . الحلية لأبى نعيم : ١٠/٦٣.

(٣) انظر : طبقات الصوفية للسلمى ص١١٢.

(٤) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٠/٥١.

بالذنوب فردها علي بالتوبة . أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه ، وقد ظلمت نفسي وأنت أكرم الأكرمين . فاعف عني . إلهي : أنت تعلم أن إبليس عدو لك ولي ، وليس شيء أنكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك لي فاغفر لي يا أرحم الراحمين) [1].

وأسلمته التوبة الصادقة إلى الزهد الصادق ، والزهد عند الصوفية – وكما أوضحت في مقالات سابقة بهذه السلسلة – ليس معناه السلبية كما يتصور البعض . اللهم إلا إذا كان سلبية مع الشيطان والهوى . وإنما هو إيجابية مع الحق تعالى وإيجابية مع الحياة بمفهومها السامي ، فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا في قمة الزهد والتقلل حتى أن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنا به كان يخطب على المنبر مرتدياً ثوباً فيه اثنتا عشرة رقعة بينما كانت جيوشه تجوب المعمورة شرقاً وغرباً وخزائن الدنيا طوع بنانه . وإنما هو السمو والترفع عن متاع لا يزن بأسره عند الله جناح بعوضة ، فالزهد تفريغ القلب لله من كل شاغل عن الله . ولما كانت الدنيا تمثل هذه الشواغل حين يتمكن حبها في القلب كان الزهد فيها مطلوباً لتخليص القلب لله . ولذا يقول الإمام يحيى : (لا يزال دين العبد متمزقاً ما دام قلبه بحب الدنيا متعلقاً) [2] وكان يقول : (إياكم والركون إلى دار الدنيا فإنها دار ممر لا دار مقر ، الزاد منها والمقيل في غيرها) [3] ثم يفصح عن حقيقة الدنيا في روعة بيانه (الدنيا خمر الشيطان من سكر فيها لا يفيق إلا في عسكر الموتى) [4] ثم يقول : (الدنيا لا قدر لها عند ربها وهي له . فما ينبغي أن يكون قدرها عندك وهي ليست لك) [5] !! ويصور حتمية فناء الدنيا قائلاً : (لو سمع الخلق صوت النياحة على الدنيا في الغيب من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزناً . ولو سمع الخليفة دمدمة النار على الخليقة لتصدعت القلوب فرقا) [6] !!

---

(١) انظر : اللمع للطوسي ص٣٣١.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ٦٩/١.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ٧٠/١.

(٤) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوي ٤٩٨/١.

(٥) انظر : الحلية ٥٧/١٠.

(٦) انظر: الحلية لأبي نعيم ٥٦/١٠.

ويعلم الإمام يحيى أن فريقاً من الناس يتوهمون أن الزهد سلبية مع رسالة الحياة فقطع عليهم الطريق حاسماً إذ يقول : (طلب الزهد فراراً من مشقة الأعمال الشاقة بطالة ، ولبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العيال جهل) [١] !!

هل هناك نص أحسم من هذا فيصلاً بين الزهد والبطالة من لسان صوفى يقرر الحقيقة ؟؟ فمن أين إذن يطلق على التصوف سلبية ؟ إنه قمة الإيجابية مع الحق ومع الخلق . وفوق ما سبق يحذر الإمام أبو زكريا من احتراف الزهد لنيل مآرب الدنيا فيقول : (لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب بها الدنيا ولكن اجعلها عبادتك لتنال بها الآخرة) . أما سمات الزهد عنده فيحددها بقوله : (الزهد ثلاثة أشياء : القلة والخلوة والجوع) [٢] أما الركن الثالث وهو الجوع فيفسره قائلاً : (الجوع نور والشبع نار ، والشهوة كالحطب يتولد منه الإحراق ولا تنطفئ ناره حتى تحرق صاحبه) ويتحقق العبد بمقام الزهد يشرف على مقام الرضا حيث الروح والريحان فى سكون العبد لاختيار مولاه إنها العبودية الحقة للّه ، ولا يصل العبد إلى اللّه إلا بتحقق عبوديته الكاملة حين يكون راضياً بفعل سيده. يقول سيدى يحيى: (لو لم يسكنهم ببلواه لطارت بهم نعماه ، ولم يصل إليه من لم يرض بقسمه ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه ، ولم يحبه من لم يته فى كرمه).

وبالتأمل فيما أثر عن الإمام يحيى من أقوال يتضح جانبا الخوف والرجاء . فكل مناجياته وتضرعاته مبعثها الخوف والرجاء.وقد قدمنا نماذج لذلك بيد أننا هنا نرجح الرجاء عنده على جانب الخوف بناء على ما قيل عنه وما قاله هو . أما ما قيل عنه فقد ذكرنا فى تعريف الإمام السلمى به فى مستهل حديثه عنه بطبقاته أنه قال : (تكلم فى علم الرجاء وأحسن الكلام فيه) [٣]

(١) انظر . الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٠/١.

(٢) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٩٩/١ وانظر : الحلية ٥٧/١٠.

(٣) انظر : طبقات الصوفية للسلمى ص١٠٧.

ويقول مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى مفتتح ترجمته أيضاً : (له لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة) [١] ومما يدل - من كلامه هو - على غلبة مقام الرجاء عنده على مقام الخوف أنه كان يقول فى مناجاته : (كيف أمتنع بالذنب من رجائك ولا أراك تمتنع للذنب من عطائك ؟؟) وكان رضوان الله عليه يقول أيضاً : (يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك من الأعمال ؛ لأنى أجدنى فى الأعمال أعتمد على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ؟؟ وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟؟) [٢] .

وصعد الإمام يحيى إلى قمة الشوق والمحبة بعد جهاد نفسى عظيم هجر خلاله المألوفات واستتر ببرد الطاعات ، وعكف على صقل مرآة قلبه وتغذيته بالإمدادات . فكان يقول مخبرا عن حاله آنذاك : (أنا فى نصب المنابر وتعبية العساكر والناس لا يعملون) [٣] .

وكان يقول : (علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات) [٤] وكان الإمام السرى السقطى رضى الله عنه يقول فى الشوق : (الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه ، وإذا تحقق فى الشوق لها عن كل شىء يشغله عمن يشتاق إليه) وكذلك كان الإمام يحيى فى شغل دائم بربه حتى وقف على حياض المحبة ينهل من كاساتها المترعة حتى الثمالة فكان رضوان الله عليه يقول :

نفس المحب إلى الحبيب تطلع
وفؤاده من حبه يتقطع
عز الحبيب إذا خلا فى ليله
بحبيبه يشكو إليه ويضرع

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٦٩/١.
(٢) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٣٢٠/١.
(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥٢/١.
(٤) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٩٨/١.

ويقـــوم فى المـــحـــراب يشكو بثـــه

والقلب منه إلى المـــحـــبـــة ينزع [1]

ولقد وجد سيدى يحيى أمامه أقطابا يستحثون همته ويقولون له لا تتوقف فالمحيط هادر والعطاء عظيم والرجل من لا يقف فى المحبة عند حد مهما وصل . وجد أمامه سلطان العارفين سيدى أبا يزيد البسطامى غوث عصره - رضى اللّٰه عنه يشعل طموحه فى ذرى المحبة . فيروى الإمام القشيرى - رضى اللّٰه عنه فى رسالته أن سيدى يحيى بن معاذ كتب إلى سيدى أبى يزيد يقول : (سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته) ! فكتب إليه سيدى أبو يزيد قائلاً : (غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج ويقول هل من مزيد ؟؟» [2] !!! فسمت همة سيدى يحيى وصار ينهل بغير ارتواء ويردد نغمات الحب مع نسائم الشوق قائلاً :

طـــرب الـــحـــب عـــلـــى الـــحـــب

مـــع الـــحـــب يـــدوم

عـــجـــبـــا لمن رأيناه

عـــلـــى الـــحـــب يـــلـــوم

حـــول حب اللّٰه مـــا عـــشـــ

ت مع الشـــوق أحـــوم

وبه أقـــعـــد مـــا عـــشـــ

ت حـــيـــاتى وأقـــوم [3]

وكان فى ابتداء أمره يحب الجنة ويترنم بحبها ، ولكنه بعد أن ذاق حب مولاه

---

(١) انظر : الحلية ١٠/٦١.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ١/٢٢١.

(٣) انظر : الحلية ١٠/٦١.

استصغر كل شىء فى جانب محبته وصار يحب الجنة لا لذاتها وإنما للقاء الحبيب فيها فهى عنده وليمة الحبيب ، وهو يقول - فيما رواه الإمام الشعرانى : (كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقى بالحبيب فى الوليمة [1] !!).

وآية المحبة عند سيدى يحيى : حفظ حدود الله تعالى ، فإنه يقول عليه الرضوان : (ليس بصادق من ادعى حبه ولم يحفظ حده) [2]. وأن المحب الدائم التوقان والحنين إلى حبيبه لا يطيق عنه صبراً . ومن ثم يقول سيدى يحيى : (صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين واعجبا !! كيف يصبرون ؟؟) ويقول شاعر القوم :

الصبر يحمد فى المواطن كلها

إلا عليك فإنه لا يحمد [3]

وحين تمكنت المحبة من قلب سيدى يحيى استحالت إلى داء عظيم هو النعيم بعينه ومن ثم قال :

أموت بداء لا يصاب دوائيا

ولا فرج مما أرى فى بلائيا

يقولون يحيى جن من بعد صحة

ولا يعلم العزال ما فى حشائياً

إذا كان داء المرء حب مليكه

فمن غيره يرجو طبيباً مداويا

مع الله يقضى دهره متلذذا

تراه مطيعاً كان أو كان عاصياً

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٠/١.

(٢) انظر : الحلية لأبى نعيم ٦٧/١٠.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ٣٩٩/١.

ذرونى وشـــــأنى لا تزيدون كــــــريتى

وخلوا عنانى نحـــو مـــولى المـــواليـــا

ألا فـاهـجـرونى وارغـبـوا فى قطيـعـتى

ولا تكشـــفـــوا عـــمـــا يجن فـــؤاديا

كلونى إلى المـــولى وكـفـــوا مـــلامـتى

لأنس بـالمـــــولى على كل مـــــا بيــــا

وارتقى الإمام يحيى إلى معراج العارفين المقربين فكان مع الله على الدوام. وحين سئل ذات مرة عن العارف قال : (رجل كائن بائن) [1] أى كائن مع الله بائن عن الخلق . ومرة أخرى قال عنه : (رجل كان فبان) أى كان مع الخلق فبان عنهم . وقد يقال فى معنى التعبير الأول : أنه كائن مع الخلق ببدنه بائن عنهم بقلبه لأنه مع الله تعالى على الدوام : وكان رضى الله عنه يقول : (من صفة العارف : جسم ناعم، وقلب هائم ، وشوق دائم ، وذكر لازم) [2] .

ثم يبين عبادة العارف قائلاً : (عبادة العارف فى ثلاثة أشياء : معاشرة الخلق بالجميل ، وإدامة الذكر للجليل ، وصحة جسم بين جنبيه قلب عليل) [3].

ويروى صاحب الحلية أنه سمع يقول : (سبحان من طيب الدنيا للعارفين بمعرفته ، وسبحان من طيب لهم الآخرة بمعذرته ، فتلذذوا أيام الحياة بالذكر فى مجالس معرفته ، وغدا يتلذذون فى رياض القدس بشراب مغفرته . فلهم فى الدنيا زرع ذكر ، ولهم فى الآخرة ربيع بر ، ساروا على المطايا من ذخـــره ، فإنه ملك كـــريم) [4] .

وكان يقول قدس سره : (أهل المعرفة وحش الله فى الأرض لا يأنسون إلى أحد ، والزاهدون غرباء فى الدنيا ، والعارفون غرباء فى الآخرة) أى لأنهم عند

---

(١) انظر : اللمع للإمام الطوسى ـص ٥٨ ، ١٧٦.

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥٧/١٠.

مليكهم فى حجاب الأنس . ويقول رضوان الله عليه : (تضاحكت الأشياء إلى أولياء الله العارفين بأفواه القدرة عن مليكهم لما يرون من آثار صنعه فيها ويعاينون من بدائع خلقه معها ، فلهم فى كل شىء معتبر ، وعند كل شىء مدكر)(١)

وتحدث الإمام يحيى عن أولياء الله تعالى حديث الخواص العارفين والذائقين المحققين يقول رضى الله عنه : (الولى ريحان الله تعالى فى الأرض يشمه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم) (٢) .

ويصف الأولياء العارفين قائلاً : (هم عباد تسربلوا بالأنس بالله تعالى بعد المكابدة واعتنقوا الروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية) (٣) . ثم يبين رضوان الله تعالى عليه مهمة الأولياء ورسالتهم تجاه الخلق وهى الهداية والدلالة على الله تعالى قائلاً : (مثل الأولياء مثل الصيادين يصطادون العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد الولى طول عمره إلا واحداً لكان قد أوتى خيراً كثيراً) إنها أمانة الصفوة من جنود الله فى الأرض ، وهى أمانة قد أداها الإمام يحيى بن معاذ بنفسه خير أداء . فقد وقف على منبر الدعوة إلى الله تعالى يجذب الأرواح إلى طريق الله، ويقودها إليه. وتلك هى رسالة العلماء العاملين والأولياء العارفين . كانت حكمته ، وعباراته منارات شامخة وجنوداً مجندة تهدى الحيارى فى دروب الحياة . ومن ثم فليس بعجب أن يقول عنه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (كان أوحد وقته فى زمانه)، كان ترجماناً للصوفية وواعظ عصره وأحد الأوتاد فى زمانه(٤) ولسان الرجاء فى عصره الدال على سبيل السعادة الأبدية . فهو القائل : أوثق الرجاء رجاء العبد بربه وأصدق الظنون حسن الظن بالله .

---

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٠/٥٤.

(٢) ، (٣) انظر : الرسالة القشيرية ٢/٥٢٢ - ٥٢٣.

(٤) قال العلامة سراج الدين بن الملقن فى صدارة ترجمة سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه من كتابه (طبقات الأولياء ص٣٢١) : (يحيى بن معاذ الرازى الواعظ أبو زكريا أحد الأوتاد ، وكان أوحد وقته فى فنه) اهـ.

ولما سئل عن وجد الصوفية وطربهم وتمايلهم حال الذكر قال :

دقـــــــــقـنـــا الأرض بـــالـــرقـــص

علـى غـــــيـب مــــعــــــانيـكـا

ولا عـــــــــــيـب عـلـــى الـرقــص

لـعــــــبـــــد هـائـم فـــــيـكـا

وهــــــــذا دقـــــــنـــــــا الأرض

إذا طـــــفـــنـــا بـــواديـــكـــا [(١)]

رضى الله عنك يا سيدى يحيى بن معاذ فى زمرة المحبين الإلهيين و الصفوة العارفين.ورضى عنا بك فى معيتك مع الأبرار والمقربين وأمدنا منكم بمدد المحبة والعرفان إنه نعم المجيب .

* * *

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ١٠/٦١.

« ٢٢ »

سلطان العارفين
« سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه »

لله فى خلقه رجال اختصهم بمزيد عنايته ، وجبل قلوبهم على محبته . فهم أولياؤه وأصفياؤه وهم ضنائنه بين عباده ، فأرواحهم تقتات بذكره ومشاعرهم تهفو إلى مناجاته، أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

من هؤلاء الأولياء العارفين والخواص الواصلين الغوث الأكبر والقطب الأشهر والكبريت الأحمر سيدى أبو اليزيد البسطامى رضى الله عنه . قمة علياء من قمم التصوف الإسلامى وذروة شامخة من ذرى المعرفة والتحقيق الربانى .

رجل استغرق حب الله كل ذرة فى كيانه فهام فى حب الله عابداً زاهداً متشرعاً متحققاً سابحاً فى النور الإلهى .

لقد وزن الدنيا بالميزان الإلهى فلم تعدل عنده جناح بعوضة فتركها لأهلها ومضى إلى الله فأمضى حياته على بساط العبودية مع الراكعين والساجدين ولطلاب الحقيقة كان منهلا للواردين .

لقد تناول شخصية العارف أبى يزيد كثير من مؤرخى الصوفية وأصحاب الطبقات حيث كان لكل منهم جانب يتناول منه بعض ما ألمت به هذه الشخصية الفذة من عناصر النبوغ الإنسانى .

ففى ترجمته الشخصية يقول عنه ابن خلكان :-

هو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على البسطامى الزاهد المشهور

كان جده مجوسيا فأسلم وكان له أخوان زاهدان عابدان : آدم وعلى كان أبو يزيد أجلهم [1] أ. هـ.

وقال الحافظ الذهبى فى ترجمته (سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامى أحد الزهاد أخو الزاهدين آدم وعلى) [2].

وقد ولد العارف أبو يزيد رضى الله عنه سنة مائة وثمان وثمانين ببسطام فى بلاد خراسان فى محلة يقال لها محلة مويدان - باسم أجداده رضى الله عنه - وتوفى سنة إحدى وستين ومائتين هـ. عن ثلاث وسبعين سنة [3].

ولم يثبت محل دفنه على وجه التحديد بل اشتهرت له أضرحة كثيرة فى أماكن متفرقة . منها ضريحه ببسطام وضريحه بالزمرونية مركز كفر شكر قليوبية وضريحه بمنيل الروضة بالقاهرة وضريحه بسديمة مركز كفر الزيات.

وقد ذكر مؤلف « النور من كلمات أبى طيفور » - نقلاً عن المشايخ - : أن عيسى - والد سيدى أبى يزيد رحمه الله ، لما تزوج بأمه ، وزفها ، لم يباشرها ويلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق فى جوفها أثر ما أكلته من قبل ، وتناولته فيما غبر من الأيام التى كانت فى بيت والدها ثم لما باشرها ظهر من أولاده مثل أبى يزيد [4].

وقد تلقى العارف أبو يزيد طريقته الصوفية عن عدة سلاسل ترتقى إلى آل بيت النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإلى صحابته الأكرمين .

فأحد هذه الروافد عن الإمام على الرضا بن سيدى موسى الكاظم عن أبيه وجده حتى البيت العلوى .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ٥٣١/٢.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى بتحقيق شعيب الأرنؤوط وعلى أبو زيد : ٨٦/١٣ نشر مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر : وفيات الأعيان ٥٣١/٢ وطبقات الأولياء لابن الملقن ص٣٩٨.

(٤) انظر : كتاب النور من كلمات أبى طيفور للسهلكى ، ضمن كتاب (شطحات الصوفية) تأليف د. عبد الرحمن بدوى ص٦٢.

وقد أخبرنى الشيخ على إبراهيم مصطفى خادم مقام سيدى داود بن ماخلا أن سيدى عليا الرضا هو الذى لقب سيدى أبا يزيد بطيفور ومعناه الطائر الذى لا يعلوه طائر . أما اسمه فأحمد كما وجد محفوراً على ضريحه بمنيل الروضة .

وهناك سند آخر يبتدئ به عن طريق محمد بن فارس عن حاتم الأصم عن شقيق البلخى عن إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار عن أبى مسلم الخولانى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه وعنهم أجمعين .

والمشهور لدى أهل الطريق أن سيدى أبا يزيد أويسى التربية (نسبة إلى سيدنا أويس القرنى سيد التابعين) الذى ربته روحانية سيدنا المصطفى - صلى اللّٰه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - بالخصوص وبشر به أصحابه ، ونعته لهم وأمر سيدنا عمر أن يسأله الاستغفار إذا اجتمع به (كما روى مسلم فى صحيحه).

ونسبة أبى يزيد إلى الأويسية مَرَدُّه أنه ربته روحانية سيدنا جعفر الصادق رضى اللّٰه عنه [1] إذ لم يلتق به ، فقد توفى قبل ولادته بنحو أربعين سنة . وهذه التربية الروحية وقف على أهل الطريق الصوفى - طريق الخواص - ولا يطالب بالإذعان لها إلا من كان من أهلها ؛ إنهم الصفوة المختارة .

وها نحن أولاء مع علم من أعلامهم نتأمل - ما وسعنا التأمل - منهجه وطريقته وأسلوبه ومكانته وأثره الذى أثمرته شخصيته .

فلنتعرف على مكانة سيدى أبى يزيد على ضوء ما كتبه عنه علماء الصوفية :-

لقد ذكره الإمام أبو عبد الرحمن السلمى صاحب طبقات الصوفية ضمن

---

(١) نص على ذلك السهلكى فى كتاب (النور فى كلمات أبى طيفور) ص ٦٢ وروى فى نفس الموضع من كتابه : عن أبى عبد الله الداستانى قوله : (سمعت مشايخنا يقولون : خدم أبو يزيد رضى الله عنه ثلاثمائة وثلاثة عشر أستاذا - أى بعدد الرسل - آخرهم جعفر الصادق رضى الله عنه .... - إلى أن قال - حتى قال له : إنى أرى فيك أثر جدى). وأقول : إن هذا من قبيل التربية البرزخية السالفة الذكر ، لعدم التعاصر الزمنى. ثم أقول أيضا لقد نص العارف الطوسى فى (اللمع ص ٢٣٥) والعارف الجامى فى (نفحات الأنس ص١٧٦) على أن أبا على السندى كان أستاذاً لسيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنهما.

الطبقة الأولى مع أئمة التصوف من أمثال الحارث المحاسبى وذى النون المصرى وأبى سليمان الدرانى (١) رضوان الله عليهم أجمعين .

ويترجم له المناوى فيقول : هو رضى الله عنه إمام أئمة العارفين وشيخ مشايخ الصوفية المحققين ، وناهيك بقول الخوافى (هو سلطان العارفين) (٢).

وحسبنا فى التعرف على مقام أبى يزيد أن ترجمان الصوفية الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى كان يسميه أبا يزيد الأكبر وذكر فى كتبه أنه كان القطب الغوث فى زمانه حيث قال رضى الله تعالى عنه « من الأقطاب من يكون ظاهر الحكم ويحوز الخلافة الباطنة من جهة المقام : كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن عبد العزيز ، ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة ولا يكون له حكم فى الظاهر كأبى يزيد (٣) .

وقال العارف الهجويرى فى كشف المحجوب فى ترجمة سيدى أبى يزيد رضى الله عنه : كان من جلة المشايخ وأكبرهم مالا وأعظمهم شأنا، إلى حد أن قال الجنيد رحمه الله : (أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة) (٤).

وهى مرتبة لا تكون فى العصر إلا لواحد هو نادرة ذلك العصر فى معرفته وتحققه .

ولقد كان كذلك سيدى أبو يزيد فهو العالم اللدنى الذى يأخذ علمه عن الله تعالى إلهاما بغير واسطة . أجل إنه القائل : (ليس العالم من يحفظ من كتاب فإذا نسى ما حفظ صار جاهلاً بل من يأخذ العلم من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العالم الربانى) (٥) .

---

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٦٧.

(٢) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٤٢/١.

(٣) انظر : المصدر السابق ٤٤٣/١.

(٤) انظر : كشف المحجوب للهجويرى بتحقيق د/ إسعاد قنديل جـ١ ص٣١٧.

(٥) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخين الخانى والسنهوتى ص٩٩.

والعلم الربانى هو ثمرة إدمان الطاعة والمجاهدة . وهو المشار إليه بقوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) (١) .

فأهل الله يعلمهم الله ، وعلمهم عن الله لا يداخله لبس ولا يعتريه خطأ بخلاف العلم الكسبى الذى يعتريه الجدل والخلافات ؛ لأن للعقل مدخلا إليه والعقول متفاوتة ، أما العلم الوهبى فهو نور محض وهو بمنأى عن اللبس والخلاف.

وأن أبا يزيد يقول : (أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت) (٢).

ونمضى مع الإمام أبى يزيد فى أحواله ومقاماته ومراقبته لله تعالى :- إنه يقول : قعدت ليلة فى محرابى فمددت رجلى فهتف بى هاتف : من يجالس الملوك ينبغى أن يجالسهم بحسن الأدب) (٣).

إنه الأدب الربانى أدب العبيد مع سيدهم فى حركاتهم وسكناتهم ومن البداهة أن هذا الصنف من الناس لا يشغله عن شأنه فى العبادة والمراقبة شهوة ولا حظ دنيوى .

إن سيدى أبا يزيد يقول : (لا يعرف نفسه من صحب شهوته) (٤) ومعلوم أن من لا يعرف نفسه لا يعرف ربه ، فالحظوظ الحسية والمآرب النفسية كلها قواطع عن الطريق الربانى . إن الصوفى لابد أن يكون محرراً من كل استرقاق نفسى أو غريزى لأن رقه متمحض لله تعالى فلا سلطان عليه لغير سيده ، وهنا تكون حلاوة العبودية .

ولقد كان داب العارف أبى يزيد هو الحفاظ المنقطع النظير عن آداب الشريعة ولا يبيح التحلل من هذه الآداب مهما كانت الدوافع والأسباب بخلاف ما شاع - افتراءً وزورا - عن طوائف الصوفية.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٢) انظر : الموضع السابق من : (الأنوار القدسية) ، والكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٤٦/١.

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٦٩.

(٤) انظر : الأنوار القدسية للعلامتين الخانى والسنهوتى ص١٠١.

إنه يقول : (لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة) [١] .

ولقد روى عنه أنه كان يقول : « عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد علىّ من العلم ومتابعته ولولا اختلاف العلماء لتعبت واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد [٢] .

وفى أدب أبى يزيد مع ربه تتحير الألباب ، لقد قال : (لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر اللّٰه أتمضمض وأغسل لسانى قبل أن أذكره) [٣] .

لقد عكف أبو يزيد على تطهير نفسه وإزهاق رعونتها ثم ظل يترقى فى معاريج الصفاء حتى وصل إلى مقام الفناء ، ففناء النفس فى اللّٰه هو شرط دخول الحضرة الإلهية ؛ لأن حضرة القدوس لا يدخلها أرباب النفوس .

ولقد قيل يوماً لسيدى أبى يزيد رضى اللّٰه عنه حدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك . فقال : دعوتها إلى الله فنكلت علىّ فعزمت عليها أن لا أشرب الماء ولا أذوق النوم سنة فأذعنت [٤] .

وها هو ذا مثل يصور درجة الفناء عند سيدى أبى يزيد : لقد سار رجل من أصحاب سيدى ذى النون المصرى خلف أبى يزيد فقال له : من تطلب ؟ قال: أبا يزيد . فقال : يا بنى أبو يزيد يطلب أبا يزيد من أربعين سنة !! فرجع الرجل إلى ذى النون وأخبره بما حدث فغشى عليه ، فلما أفاق قال : إن أخى أبا يزيد فقد نفسه فى حب اللّٰه فصار يطلبها مع الطالبين [٥] .

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٨٢/١.

(٢) انظر · الحلية لأبى نعيم الأصبهانى : ٣٦/١٠ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٦٥/١.

(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم الأصبهانى : ٣٥/١٠.

(٤) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية لسيدى عبد المجيد الخانى والشيخ يس السنهوتى ص٩٩.

(٥) انظر : : النور فى كلمات أبى طيفور للسهلكى بتحقيق د/ عبد الرحمن بدوى ص٩٥.

وفى مقام التوكل صعد أبو يزيد إلى القمة .

فها هو يصلى مرة خلف إمام فلما فرغ من صلاته سأله الإمام : يا أبا يزيد من أين تأكل ؟ قال : اصبر حتى أعيد صلاتى فإنك شككت فى رزق المخلوق ولا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق (١).

إنها قمة التوكل التى لا يرتقى إليها إلا مثل أبى يزيد ولا يطالب بها إلا مثله أيضاً ، وبسقوط المطالبة يجب أن تسقط المعارضة .

ويسأله رجل : دلنى على عمل أتقرب به إلى الله ؟ قال : (أحبب أولياءه ليحبوك فإنه ينظر فى قلوبهم إلى اسمك فى قلب وليه فيغفر لك) (٢) هل رأيت طريقاً أقرب إلى المغفرة والوصال من ذلك ؟ إن حب الأولياء بجانب هذا فريضة على كل مسلم لأنهم أحباب الله ، وناهيك بمحبة آل بيت النبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ففيها يقول أحد العارفين:

أرى حب آل البيت عندى فريضة

على رغم أهل البعد تورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه

على هديه إلا المودة فى القربى

فللّه دَرُّ سيدى أبى يزيد ، لقد وقف على خزائن الحكمة ينفق منها للطالبين . وهذا رجل يسأله عن الاسم الأعظم فيجيبه : ليس له حد محدود وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيته ، فإذا كنت كذلك فارجع إلى أى اسم شئت فإنك تصير به من المشرق إلى المغرب(٣) .

ويسأله رجل : بم نالوا المعرفة ؟ فيجيبه : (إنما نالوا ما نالوا بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له تعالى) (٤).

---

(١) انظر . الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخين الخانى والمنهوتى ص٩٨.

(٢) انظر . طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٠٠ وانظر : (النور فى كلمات أبى طيفور) للسهلكى ص١١٥ .

(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/٣٩.

(٤) انظر . طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٧١.

نعم لقد ضيعوا حظوظ أنفسهم من ملذات هذه الحياة العاجلة وشهدوا ما لله عليهم من واجبات العبودية فأنالهم قربه وأودعهم مكنون الأسرار وحجبهم عن الأغيار، وجعلهم من عباده الأبرار ، ألا لمثل هذا فليعمل العاملون . إن أبا يزيد داعية من دعاة الحضرة الإلهية فهو يسوق القلوب إلى الله ويفقهها عن الله .

لقد سمع رجلاً يكبر فقال له : ما معنى الله أكبر ؟ قال : الله أكبر من كل ما سواه ، فقال أبو يزيد : ليس معه شئ فيكون أكبر منه . قال : فما معناه ؟ قال معناه أكبر من أن يقاس أو يدخل تحت القياس أو تدركه الحواس (١).

إن سيدى أبا يزيد الأكبر رضى الله تعالى عنه كان مرادًا لله تعالى منذ الأزل، وقد سلك الطريق إليه وهو مراد وهو يظن ابتداء أنه مريد ؛ يقول رضى الله عنه (طلبت الله ثلاثين سنة فإذا أنا ظننت أنى أردته ، فإذا هو أرادنى) (٢).

ولأنه مراد الحق تعالى فقد كان منذ صباه يعبد الله عبادة العارفين مكتسيا بحلى الأنوار . فلقد روى أن رجلاً من أهل الحديث قال لسيدى أبى يزيد رضى الله عنه - وهو صبى -: يا غلام : تُحْسِنُ أن تصلى ؟ فقال : نعم إن شاء الله ، فقال له : كيف تصلى ؟ قال : أكبِّرُ بالتلبية ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالتعظيم ، وأسجد بالتواضع وأُسَلِّمُ بالتودُّع .

فقال : يا غلام ، إذا كان لك هذا الفهم والفضل والمعرفة ، فلم تدع الناس يتمسحون بك ؟ قال سيدى أبو يزيد : ليس بى يتمسحون ، لكن يتمسحون بحلية حلَّانيها ربى ، فكيف أمنعهم من ذلك ؟ وذلك لغيرى ؟! (٣).

وبهذا المنطق النورانى الذى أدلى به سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه : يُرَدُّ على منكرى التبرك والتمسح بالأولياء ، إنه ليس عبادة لغير الله ولكنه تبرك بأنوار الله التى يخلعها على وليه . وهكذا تَعرَّفْنَا على صلاة العارف أبى

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٤٤٩/١.

(٢) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للسهلكى ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٩٠.

(٣) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للسهلكى ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٩٩.

يزيد منذ نعومة أظفاره ، قمة الخشوع والتعظيم لله . وكذلك نجده فى عبادة الحج، يحج حج العارفين بالله فيقول : (صرت مرة إلى مكة فرأيت البيت - أى الكعبة - مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجاراً كثيرة من هذا الجنس . وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد بَعْدُ.

وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ولا بيت !! فنوديت فى سرّى : أن يا أبا يزيد : إذا لم تَرَ نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركاً ، وإذا لم تَرَ العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا ، وعندئذ تُبْتُ ، وتبت أيضاً عن رؤية وجودى)[٢] !!

ويحدثنا الإمام أبو يزيد رضى الله عنه عن بعض مقاماته وتحققاته الربانية فيقول :-

(لم أزل أجول فى ميدان التوحيد ، حتى خرجت إلى دار التفريد ، ثم لم أزل أجول فى دار التفريد حتى خرجت إلى الديمومية ، فشربت بكأسه شربة لا أظمأن من ذكره بعدها أبداً)[٣] !!

لقد ارتقى سيدى أبو يزيد قدس الله سره إلى ذروة المعرفة والمحبة حيث لا منتهى لها ولا حدود ، إذ يقول الإمام أبو نعيم فى الحلية : (كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته .

فكتب أبو يزيد فى جوابه : سكرت وما شربت من الدرر غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ، ولسانه مطروح من العطش وهو يقول : هل من مزيد ؟؟ وأنشد يقول :

عجبتُ لمن يقول ذكرت ربى ∴ وهل أنسى فأذكر من نسيت؟

شربت الحب كأسا بعد كأس ∴ فما نفد الشراب ولا رويت !![٣]

ويقص علينا سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه بعض مشاهدات سيدى أبى

(١) ليس بالمراد بالشرك هنا شرك العقيدة المخلد فى النار وإنما هو شرك الشهود عند العارفين.
(٢) انظر : كشف المحجوب للهجويرى بتحقيق د. إسعاد قنديل ٣١٩/١.
(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ٤٠/١٠ وطبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٠٢.

يزيد رضى الله عنه فيقول : (رأيته فى بعض مشاهداته كالغريق ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصاً بعينيه من العشاء إلى الفجر ، ثم سجد عند السحر ، فأطال سجوده ، ثم قعد فقال : - اللهم إن قوماً طلبوا منك فأعطيتهم طى الأرض ، والمشى على الماء ، وركوب الهواء ، وانقلاب الأعيان . وإنى أعوذ بك منها !!.

ثم التفت فرآنى ، فقلت : يا سيدى ، حدثنى بشىء . قال : أحدِّثك بما يصلح لك : - أدخلنى الحق فى الفلك الأسفل ، فدوَّرنى فى الملكوت الأسفل ، فأرانيه ، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى ، وطوَّف بى السموات ، فأرانى ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفنى بين يديه ، فقال : سلْنى أىَّ شىء رأيته حتى أهبه لك !!.

قلت : ما رأيت شيئاً حسنا [1] فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدى حقاً تعبدنى لأجلى صدقا ، لأفعلن بك .. وأفعلن ... وذكر أشياء .

قال ابن معاذ : فهالنى ذلك ، وقلت : لِمَ لَمْ تسأله المعرفة ؟؟ - أى معرفة كنه الذات - قال : غِرْتُ عليه منى ، لا أحب أن يعرفه سواه [2] !!)

أرأيت هذا المرتقى السامى فى المعرفة والأدب مع الله تبارك وتعالى ؟؟

ومما هو متصل بالتحقق العرفانى اليزيدى أيضاً ما رواه صاحب (النور فى كلمات أبى طيفور) قائلاً : (يُحكى عن أبى يزيد أنه قال : غصت فى بحار المعارف حتى بلغت بحر محمد صلى الله عليه وسلم ، فرأيت بينى وبينه ألف مقام لو اقتربت من واحد منها لاحترقت) [3].

ولقد وقف الإمام أبو يزيد قدس الله سره على مقامات الأولياء جميعاً وحددها تحديد العارف المتحقق فقال عليه رضوان الله تعالى :-

« المقام مائة وأربعة وعشرون ألفا - يعنى فى طريق الله تعالى - فى كل مقام نور لا يشبه بعضه بعضا ، فمن ادَّعى بمقام من تلك المقامات : أسأله عن صفة نور

(١) المقصود أنه لم يَستحْسِن شيئا بجانب حُسن الحق تبارك وتعالى ، لاستغراقه فيه .
(٢) انظر : الأنوار القدسية للشيخ الخانى والشيخ يس السنهوتى ص١٠٧ نقلا عن الإحياء.
(٣) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للسهلكى ضمن (شطحات الصوفية) ص ٨٦.

ذلك المقام – يعنى حتى يتبيّن صدق دعواه فى مبناه هذا – وإنى قد حددت لك حدًا ، وعددت لك عدًا ، فاجدد فى ذلك جهدًا وجدًا » [1].

وهكذا يكشف لنا سلطان العارفين سيدى أبو يزيد رضى الله تعالى عنه مقامات الأولياء التى هى بعدد جميع الأنبياء ، مع تمييز كل مقام منها بنوره الخاص به الذى يكاشف به كبار الأولياء كسيدى أبى يزيد.

إنه العارف الكبير الذى لا يرضى بحبِّه بديلاً حتى ولو كانت الجنان بأسرها ، فهو القائل مخبرًا عن نفسه : (إن لله خواصًّ من عباده لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار)[2]. (رضى الله عنك يا سيدى أبا اليزيد ورضى عنا بك وحشرنا فى معيتك يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) .

* * *

---

(١) انظر : المصدر السابق : ص٨٢.

(٢) انظر : الحلية لأبى نعيم : ٣٤/١٠.

« ٢٣ »

قمر الصُوفيّة

« سيدى أبو سعيد الخراز رضى اللّه عنه »

اجتبى المولى عز وجل أناساً من عباده ألقى عليهم من نور ذاته فاستخلص أرواحهم لقربه ومحبته ، وصفّى سرائرهم لنجواه وطاعته .

فلا يزالون سابحين فى بحار القرب إلى أن يَفْنَوْا عن التعلق بالأكوان استغراقاً فى محبة الرحمن .

ثم يرتقى الولى إلى مقام البقاء حيث يدرك بقاء الأنوار القدسية بعد فناء الظلمة الحسية ، ويستشعر بقاء المشهود بفناء الشاهد ، ويظل فى عروج دائم إلى حضرة الرحمن حيث ينال من خزائن الجود الإلهى ما لا يخطر على قلب بشر . هؤلاء هم أولياء اللّه .. نخبة الإنسانية ، ومهبط الأسرار الإلهية . منحنا اللّه تعالى بهم رضوانه الأكبر فى الدنيا ويوم الدين .

فى هذه الآفاق السامية – التى هى وقف على أهل الخصوص من أولياء الحق تبارك وتعالى يحلّق إمام من أكابر أئمة الصوفية الأمجاد ، وعلم من خواص العارفين الأفراد، هو الإمام العارف شيخ الطائفة الصوفية [1] سيدى أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز رضى اللّه تعالى عنه وعنا به وأمدنا بمدده العميم .

هو بغدادى الموطن ، وقد ولد رضوان اللّه عليه فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وشهد مجد التصوف وهو يتألق على أيدى أقطابه وأئمته .

(١) هكذا جاء لقب سيدى أبى سعيد الخراز رضى الله تعالى عنه فى (الكواكب الدرية) للإمام المناوى (٢٣٧/١) حيث قال فى صدارة ترجمته (.. أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز البغدادى شيخ الطائفة المجاهد ، المراقب، عارف يضرب به المثل ، خبير بالأدواء بصير بالعلل ، ناصر للتصوف وأهله ، قائم برفع منار الذكر وجمع شمله).

فجذبه النور واحتضنته العناية ، وأقبل إلى رحاب القوم يتلمس هدى قلبه بالسير على منهاجهم. إذ رآه أروع تجسيد لهدى الكتاب والسنة .

فألقى بنفسه فى الخضم لتتصهر روحه ويصفو معدنه ويتألق نضاره . فصحب من أئمة الطريق شيوخاً كثيرين ، وكان لكلٍّ طريقته ومنهجه السلوكى ولكن الجوهر واحد لا يتعدد . فالهدف الجامع المشترك هو الوصول إلى الله تعالى . وكان فى صدارة من صحب من أساطين الولاية وأقطاب المعرفة . سيدى ذو النون المصرى ، والإمام السرى السقطى ، والعارف بشر بن الحارث والإمام أحمد بن عطاء وغيرهم كثير وكثير رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين .

هذا وقد أرخ لوفاته رضوان الله عليه بسنة تسع وسبعين ومائتين هجرية على ما ذكره الإمام السلمى ومولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنهما كل فى طبقاته (١).

وقد كانت حياة الإمام أبى سعيد مددا متصلاً من الإشراق والفتح الإلهى ليس من السهل أن نحيط بجوانبه ،إذ لم تتوافر لنا معاريج الارتقاء الروحى التى تدنينا من مقامه لنصفه عن عيان . ولكننا سنرى براهين شموخه جلية من خلال استطلاع منهاجه فى المعرفة ، وآراء أئمة القوم فيه .

سلك الإمام أبو سعيد الطريق على فرط تعطش وبروح تواقة للمعرفة ، عزوفة عن أوشاب المادة متطلعة إلى المقصد الأسمى ، وكانت صحبته لأئمة التصوف هى المصعد الذى ارتقى به إلى صفوف الأقطاب .

فقطع عقبات النفس ، وخاض عباب المجاهدات حتى صفت مرآة قلبه واستشرف الآفاق العليا . وكانت الصحبة مباركة لأنه أدى حقها أوفى ما يكون الأداء.

يقول الإمام الطوسى فى كتاب اللمع : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : (صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف . فقيل له : وكيف ذاك؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى) (٢) ؛

---

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص : ٢٢٨ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ط ١- ص٧٨.
وانظر الرسالة القشيرية - المحققة - : ١٢٩/١ ، ١٣٥.

(٢) انظر ، اللمع للإمام السراج الطوسى رضى الله تعالى عنه ٢٣٤.

هذا هو النموذج الأسمى لأدب الصحبة لأولياء الله تعالى !!

ومن قبل ذلك كون الإمام الخراز فى نفسه صورة للشيخ الكامل الذى يقوده إلى الفتح والمعرفة . وقد رسم ملامح هذه الصورة فى رسالة بعث بها إلى معاصره العارف أبى العباس أحمد بن عطاء رضى الله عنه ، يقول له فيها : (يا أبا العباس : تعرف لى رجلاً قد كملت طهارته ، وبرئ من آثار نفسه عنه به له ، موقوف مع الحق بالحق للحق من حيث أوقفه الحق لا له ولا عليه ، فالحق يعلله ، امتحان له وامتحان للخلق به ، فإن عرفت لى هذا فدلنى عليه حتى إن قبلنى كنت له خادماً)[١] !

وبهذا المفهوم الذى رسخ فى وجدان سيدى أبى سعيد عن الشيخ المربى : كان يقطع فجاج الأرض طلبا لهذا الشيخ وبحثاً عن قبس من النور على يديه .

يقول صاحب اللمع : (وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : ذكر لى أبو حاتم العطار وفضله وكان بالبصرة . فرحلت إليه من مصر حتى وافيت البصرة ، فدخلت جامع البصرة فإذا به جالساً وحوله جماعة من أصحابه وهو يتكلم عليهم ، فأول شىء سمعته منه يقول بعد ما نظر إلىّ أنه قال : إنما جلست لواحد وأين ذلك الواحد ؟ ومن لى بذلك الواحد ؟ ثم أشار إلىّ أنه أنت .

ثم قال : أظهَرَهُمْ إلى ما أهَّلَهُمْ ، وأعانهم على ما ألزمهم ، وغيبهم عما أحضرهم ، فهم به له عاملون ، ومنه إليه راجعون)[٢] .

وهكذا كان سيدى أبو سعيد كبيراً فى عين الشيوخ ومطمحاً لأبصارهم ، إذ يرون فيه أهلية الفتح وشواهد الاصطفاء .

ومن خلال هذا التجاوب والتجاذب كان للصحبة ثمارها الجنية التى يبذل فى سبيلها النفس والنفيس . ولقد ظهرت للإمام الخراز خلال سياحاته نماذج فريدة من أهل الله ، كان للقائها انطباع عميق الأثر فى وجدانه .

---

(١) انظر اللمع للطوسى ص٢٠٥.

(٢) انظر اللمع للطوسى ... ص٢٣٩.

فيذكر عنه الإمام المناوى فى طبقاته أنه قال : (رأيت فقيراً بالمسجد الحرام وعليه خرقتان فقلت فى سرى ، هذا وشبهه كَلٌّ على الناس . فنادانى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ [1] . فاستغفرت الله فى سرى فنادانى : ﴿ وهوالذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ [2] ثم غاب عنى .

وروى الإمام المناوى أيضاً أنه قال : (كنت بمكة فجزت على باب بنى شيبة فرأيت شاباً حسناً ميتاً . فنظرت فى وجهه ، فتبسم وقال : يا أبا سعيد : أما علمت أن الأخيار أحياء وإن ماتوا ؟؟ وإنما ينقلون من دار إلى دار ؟؟) [3] .

ولا ريب فى أن هذه الأحداث الخارقة إنما هى من قبيل الكرامات التى خص الله بها أولياءه كما خص أنبياءه بالمعجزات التى كان من بينها إحياء الموتى بإذن الله ، وفلق البحر ، وتسبيح الجمادات بصوت مسموع ونحوه ، وما هذه الكرامات إلا ثمرة للتصديق بالأنبياء وإذاً : فهى بهذا الاعتبار ملحقة بالمعجزات ومن ثم قيل : (ما من كرامة لولى إلا وهى معجزة للنبى الذى يتبعه ذلك الولى) وبهذا ندرأ عنت المعادين للأولياء وسفه المكذبين الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وأنساهم فضل أوليائه حتى تظل قلوبهم غلفا محجوبة عن شعاع النور والهداية . ولنمض مع النور فى مسراه .. مع قمر الصوفية أبى سعيد .

لقد أثمرت لقاءاته مع الشيوخ ، وانقدحت أنوار السلوك مع صفاء الاستعداد فى قلبه وانصهرت النفس بالمجاهدة ، واستنارت الجوارح بالطاعة، وانقطعت مآرب الشيطان فيه انقطاعاً مبرماً .

يروى صاحب الرسالة القشيرية بسنده أن سيدى أبا العباس الصياد سمع الإمام الخراز يقول : (رأيت إبليس فى النوم وهو يمر عنى ناحية . فقلت له تعال،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٥.

(٢) سورة الشورى الآية ٢٥.

(٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله تعالى عنه : ٣٤٠/١.

مالك ؟ قال : إيش أعمل بكم ؟ أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس . قلت ما هو ؟ قال : الدنيا) [1] !.

وكان الإمام الخراز فى ذكره وعباداته مضرب المثل بين الكبار ، وعلى مستوى الأقطاب . يقول العارف المناوى فى طبقاته : (قال الجنيد : لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا أقام كذا كذا سنة ما فاته ذكر الحق تعالى بين الخرزتين) [2] !!

ليت شعرى أى طاقة تتحمل مدلول هذه العبارة ؟ وممن ؟ من سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضوان الله عليه !!.

لقد كان الإمام الخراز - كما تنبئ تسميته - يحترف الخرازة . وقد ذكر صاحب اللمع أنه رحمه الله خرج سنة من السنين من الشام إلى مكة مع القافلة . فجلس ليلة إلى الصباح يخرز نعال أصحابه من الفقراء والصوفية [3] !!

لله ما أجل أدب الكبار وتواضع العظماء !!.

وكان الإمام الخراز بحرفته المتواضعة أسمى منزلة من الملوك فى نظر الخاصة والعامة . لأنه حرر عبادته لله من أغراض الدنيا ، واستعان على عبادته بكسب الحلال من يديه . فاكتملت لديه أركان ثلاثة هى دعامات شموخه ومجده الصوفى : وهى : الكسب الحلال الذى يستعين به على عبادة الله . ثم العلم النافع الذى ذهب يلتمسه عند شيوخ الطريق . ثم العمل المؤسس على العلم.

ومن هذا المنطلق الذى يركز عليه السلوك الصوفى الصحيح بدأ الإمام أبو سعيد مسيرته وارتقاءه إلى عالم القدس . وولى وجهه شطر ربه معرضاً عن كل ما يشغله عن الله مستجمعاً كل همته فى الوصول إلى الله . وصاغ حاله فى لسان

---

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود : ١٢٩/١.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان ٢٣٧/١.

(٣) انظر اللمع للعارف الطوسى ص٢٥٩ - ٢٦٠.

مقاله فوضع حكمته الذهبية التى هى مفتاح التفرد لله والانقطاع إليه والتى أضاء بها طريق أهل العناية .

يقول رضوان الله عليه : (كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل) (١) .

إن مدلول هذه العبارة يؤكد أن الإنسان الذى لم يسلك طريق الله إنما يدور فى فراغ لا يجد فيه ذاته ولا يحقق فيه وجوده . بل هو كالهباء الضائع.. كالعدم .

أما العبد الملتزم لمنهج الشرعية والسائر على الطريقة والواصل إلى الحقيقة فهو الذى أدرك الغاية كلها فلم يفته شىء لأنه نال كل شىء بوصوله لمالك الأشياء . وإذاً : فليس سلوك الطريق الصوفى إلا امتثالاً حرفياً لأمر الحق تبارك وتعالى إذ يقول : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٢) .

وماذا كانت الثمرة التى حققها الإمام أبو سعيد من بحثه عن الحقيقة فى طريق القوم ؟ إنها الولاية . وهل أتاك حديث الولاية ؟؟.

أجل حقيقة مسفرة أبلج من نور الشمس يضمها الذكر الحكيم والسُّنَّة الغراء . ولكن النفس بلا شك مشوقة لأن تتعرف على مفاهيم الولاية من ولى ليتجلى تمثل القواعد الكلية فى النماذج التطبيقية فترسخ المفاهيم فى الأعماق نظراً وعملاً فلنستمع إلى حديث الولاية من أبى سعيد الولى :-

يروى الإمام القشيرى أنه كان يقول عليه الرضوان : (إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبداً من عبيده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٤٩/١٠.
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٣.

والعظمة بقى بلا هو . فحينئذ صار العبد زَمِنًا فانيا، فوقع فى حفظه سبحانه وبرئ من دعاوى نفسه)[1] .

حديث ينبض بالذوق الصوفى الرفيع والتحقق الراسخ ، لا تملك النفس بعده عنان تشوقها إلى المزيد . ولابد من مزيد .

يروى صاحب حلية الأولياء أن الإمام الخراز سمع يقول : (إن اللّه عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره والوصول إلى قربه وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم وأجزل لهم نصيبهم من كل كائن . فعيش أبدانهم عيش الجنانيين - أهل الجنة - وعيش أرواحهم عيش الربانيين لهم لسانان : لسان فى الباطن يعرفهم صنع الصانع فى المصنوع ، ولسان فى الظاهر يُعَلِّمُهُمْ علم المخلوقين . فلسان الظاهر يكلم أجسامهم ، ولسان الباطن يناجى أرواحهم)[2] أ . هـ .

إنه حديث الخواص الذى يقطع بأن الولاية محض اختصاص . ثم هو حديث ينم عن رسوخ قدم فى الولاية وأن صاحبه لم يصف إلا عن ذوق ، ولم يتحدث إلا من خلال ذاته.

لقد وصل الإمام أبو سعيد إلى مرتبة فى الولاية لا يعرفها إلا خواص الخواص. وقد تحدثوا عن مقامه بعبارات لو أمعنا النظر فيها لضاق بنا أفق التصور والتخيل ، وحسبنا من ذلك تلك العبارة التى أوردناها آنفا للإمام الجنيد إذ يقول - وهو بإجماع الأولياء سيد الطائفة الصوفية - (لو طالبنا اللّه بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا) !!.

إذا كان هذا هو رأى سيد الطائفة ترى ماذا يكون رأى جمهرة الأولياء ؟؟ لا ريب أنهم لم يقدموه على الإمام الجنيد ، التزاماً بإجماعهم على سيادته للطائفة . ولكنهم لم يملكوا إلا أن يجعلوه تالياً له فى الفضل فالعارف المناوى يقول فى طبقاته (قال السلمى : الخراز إمام القوم فى كل فن من علومهم وأحسنهم كلاما

(١) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٢/٥٢٤.
(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ١٠/٢٤٧.

خلا الجنيد فإنه الإمام الأكبر . ولذلك كان الطرسوسى وغيره يقولون : الخراز قمر الصوفية . فأفاد أن أمثلهم مطلقاً الجنيد ثم الخراز فذاك الشمس وهذا القمر)[1] . ولقد لقبه الإمام المناوى فى طبقاته بشيخ الطائفة كما لقب سيدى الجنيد بسيد الطائفة ، فهو يقول فى مفتتح ترجمته للعارف أبى سعيد من طبقاته (أبو سعيد شيخ الطائفة المجاهد المراقب عارف يضرب به المثل خبير بالأدواء بصير بالعلل، ناصر للتصوف وأهله ، قائم برفع منار الذكر وجمع شمله)[2] .

أما الحافظ أبو نعيم فيستهل حديثه عنه فى الحلية قائلاً : (ومنهم العارف المعروف الكامل بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة والأجوبة المشهورة : أبو سعيد الخراز أحمد بن عيسى)[3] ثم يقول مشيراً إلى فضله وسمو منزلته وتحقيقه وتمكينه : (صحب ذا النون ونظراءه . انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء)[4] ويقول عنه الإمام السلمى فى طبقاته : (وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم ، قيل أنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء) أما الإمام الكلاباذى فيصفه فى كتاب (التعرف) بأنه (لسان التصوف)[5].

ولاشك أن هذه الآراء التى أدلى بها أئمة الصوفية وعيون أعيان أهل الخصوصية تعطينا شواهد السمو العرفانى والاصطفاء الربانى يتربع الإمام على قمة المعرفة والتحقيق . بيد أننا سنمضى لنتلمس هذه الشواهد نفسها من كلام العارف الخراز نفسه .. من لسان التصوف . وسنجد عنده بلا شك فوق ما نبتغى ، لأننا نتعرف عليه وهو يعرفنا بالله ، ويضع بين أيدينا مفاتيح المعرفة لندخل البيوت من أبوابها ، ونخطو إلى الحقيقة على هدى من سناها المتألق . فهو يحدثنا فيما رواه صاحب الحلية بسنده - عن مصادر المعرفة قائلاً : (المعرفة تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ومن بذل المجهود)[6] .

(١) ، (٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى : ٣٣٧/١ - ٣٣٨.

(٣) ، (٤) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٤٦/١٠.

(٥) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف لتاج الإسلام أبى بكر محمد الكلاباذى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ص٣٠ ط/ الحلبى.

(٦) انظر : الحلية لأبى نعيم : ٢٤٧/١٠.

فهو يرى أن المعرفة إنما مصدرها الوهب الإلهى الذى عبر عنه بعين الجود وكسب العبد الذى عبر عنه ببذل المجهود وإذاً فالولاية تعتمد على الأمرين معاً . وهو يؤكد هذا المعنى قائلاً : (من ظن أنه ببذل الجهد يصل إلى مطلوبه فمتعنٌ ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمنٌ) (٣).

ومعنى قوله (فمتعن) : أنه متعب نفسه بلا جدوى مادام هو بمنأى عن الجود الإلهى . وأما المتمنى فهو من يتوقع حصول الشىء البعيد ويقف عند حد الأمانى دون أن يصاحبها العمل . وعندما تتوافر مصادر المعرفة : يصل العبد إلى منزلة لا يجد العقل وحده سبيلاً إلى إدراك شأوها .

يقول الإمام الخراز رضى الله عنه : (للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأشياء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية) (٤) ويعلق الإمام المناوى على ذلك بقوله : أى لأنهم ينطقون بالله كما قال فى الحديث القدسى : (فبى يسمع وبى ينطق) وهو العلم اللدنى الذى أوتيه الخضر (٥). أ . هـ.

وتحدث الإمام أبو سعيد عن مقامات الطريق (مرتبة) وعن ثمراتها وكيف يندرج السالك فيها من مقام إلى مقام حتى يبلغ إلى علياء منازل المقربين .

يروى الإمام أبو نعيم فى الحلية بسنده عن العارفين : أبى بكر الكتانى وأبى الحسن الرملى أنهما قالا : (سألنا أبا سعيد الخراز فقلنا : أخبرنا عن أوائل الطريق إلى الله ؟

فقال : التوبة - وذكر شرائطها - ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف ، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء ، ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين ، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين ، ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين ، ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين ، ومن

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٣٨/١.
(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٤٨/١٠.
(٣) انظر الكواكب الدرية للشيخ المناوى ٣٣٨/١.

مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء ، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين ، وذكروا لكل مقام عشر شرائط إذا عاناها وأحكمها ، وحلت القلوب هذه المحلة : أدمنت النظر فى النعمة ، وفكرت فى الأيادى والإحسان فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ، وإليه فى محبته ناظرة ، أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سواد الليل أنسا بذكره ... وشوقاً إليه غير مستكره الصبر
ولكن سرورا دائماً وتعرضا ... وقرعاً لباب الرب ذى العز والفخر

فحالهم أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ، ونورت قلوبهم لكى ينظروا إلى ملك عدن بها ينزلون ، فتاهوا بمن يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتنفون . حلوا فلم يظعنوا ، واستوطنوا محلته فلم يرحلوا ، فهم الأولياء وهم العاملون ، وهم الأصفياء وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب هم به آمنون ؟ وعزوا فى غرف هم بها ساكنون جزاء بما كانوا يعملون ؟ فلمثل هذا فليعمل العاملون)[1] أ. هـ .

إنها قيم الإسلام المثلى وروحيته العظمى التى تعطى للحياة قيمتها وترتفع بالعبد إلى أفق النور . ولكنه مهما قيل عن تلك المنازل والمقامات فإن المعول عليه فى معرفتها تماماً إنما هو الذوق الروحى العملى وحده ، ومهمة الوصف إذاً إنما هى الدلالة على حقيقة الشىء وجوهره دلالة نظرية لا تؤتى ثمارها إلا بالمباشرة العملية .

ولقد أعطانا الإمام الخراز - فى سخاء وعن تحقق - أروع المفاهيم التى تشعل طموح العبد وتطلعه إلى تلك الآفاق العليا تحيى فيه روعة التأسى وعلو الهمة، وصدق القصد إلى الله تعالى ، ومن تلك المفاهيم التى عنى الإمام أبو سعيد بإبرازها : حقيقة التوحيد كما يراها الخواص من أولياء الله تعالى. وأقول (الخواص) حتى لا يظن أن من لم تتحقق فيه تلك الأوصاف لا يعد موحداً ،

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ١٠/٢٤٨ - ٢٤٩.

فللتوحيد مراتب ومعاريج تبدأ بإفراد الله تعالى بالألوهية ، ثم تتدرج حتى تصل إلى توحيد الخواص الذى يحدثنا عنه الإمام أبو سعيد قائلاً :

(أول مقام لمن وجد علم التوحيد وحقق بذلك فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عز وجل) [1] ثم يقول رضوان الله عليه : (أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شىء ورد جميع الأشياء إلى موليها حتى يكون المتولى بالمتولى ناظراً إلى الأشياء قائماً بها متمكناً فيها . ثم يخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم فى أنفسهم ويصطنعهم لنفسه . فهذا أول دخول فى التوحيد من حيث ظهور التوحيد بالديمومية) [2] . ولما كانت هذه العبارات فى حاجة إلى إيضاح وبيان : تولى الإمام أبو نصر الطوسى رضى الله عنه فى كتاب اللمع شرحها قائلاً : (وبيان ذلك - والله أعلم - فناء ذكر الأشياء بذكر الله تعالى ، ومعنى خروجه عن كل شىء : يعنى : لا يضيف إلى نفسه واستطاعته شيئاً ، ويرى قوام الأشياء بالله فى الحقيقة لا بهم . ومعنى قوله : حتى يكون المتولى بالمتولى ناظراً إلى الأشياء قائماً بها : يشير إلى تولية الحق له وما يستولى عليه من حقائق التوحيد حتى يرى قوام الأشياء بالله عز وجل لا بذواتها . ألا ترى إلى قول القائل :

وفى كل شىء له شاهد ... يدل على أنه واحد ؟

وأما قوله متمكناً فيها : يريد بذلك أن التلوين لا يجرى عليه فى نظره إلى الأشياء فإن قوامها بالله عز وجل ، ثم قال : (يخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم عن أنفسهم) : يعنى لا يحسون حسا ولا يلاحظون حركة من حركاتهم الظاهرة والباطنة يوماً إليها فى الحقيقة إلا وهى منطمسة تحت سلطان القدرة وإنفاذ المشيئة وإن أضيفت إلى المضاف إليه) [3] .

هذا قبس من مشكاة معرفة الإمام الخراز فى التوحيد عند الخَوَاصّ فلنقتبس قبساً آخر من أنوار تحققه وآدابه ومعرفته من خلال نظرته إلى العبادات

---

(١) ، (٢) انظر اللمع للإمام الطوسى ص ٥٣.

(٣) انظر : اللمع للإمام الطوسى : ص٥٣.

وبخاصة الصلاة ؛ لندرك الفرق بين عبادة الخواص والعوام . يقول صاحب اللمع : سئل أبو سعيد الخراز رحمه اللّه : كيف الدخول فى الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على اللّه تعالى كإقبالك عليه يوم القيامة ، ووقوفك بين يدى اللّه تعالى ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه ، وتعلم بين يدى من أنت واقف ؟ فإنه الملك العظيم [1])).

ويقول صاحب اللمع : وقال أبو سعيد الخراز رحمه اللّه فى كتاب له يصف أدب الصلاة : (إذا رفعت يدك بالتكبير فلا يكن فى قلبك إلا الكبرياء - أى للّه تعالى - ولا يكن عندك فى وقت التكبير شىء أكبر من اللّه تعالى حتى تنسى الدنيا والآخرة فى كبريائه) [2] ويفسر الإمام الطوسى ذلك قائلاً : والمعنى فى ما قاله أبو سعيد الخراز رحمه اللّه : إن العبد إذا قال اللّه أكبر ويكون فى قلبه شىء غير اللّه فلا يكون صادقاً فى قوله اللّه أكبر ثم إذا أخذ فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد بسمع قلبه كأنه يسمع من اللّه تعالى أو كأنه يقرأ على اللّه تعالى [3].

ثم يقول : قال أبو سعيد الخراز رحمه اللّه : (وفيه العلم الجليل لأهل الفهم ، وإذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينصب ويدنو ويتدلى حتى لا يبقى فيه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش ، ثم يعظم اللّه تعالى حتى لا يكون فى قلبه شىء أعظم من اللّه عز وجل ويصغر نفسه حتى يكون أقل من الهباء .

فإذا رفع رأسه وحمد اللّه يعلم أنه هو ذا يسمع ذلك . فإذا سجد فالأدب فى سجوده ألا يكون فى قلبه عند السجود شىء أقرب إليه من اللّه تعالى لأن أقرب ما يكون العبد من ربه عند السجود . فيجب أن ينزهه عن الأضداد بلسانه ولا يكون فى قلبه أجل منه ولا أعز منه ويتم صلاته على هذا ويكون معه من الخشية والهيبة ما يكاد يذوب . ولا يكون له فى صلاته شغل أكثر من شغله بصلاته حتى لا يشتغل بشىء غير الذى هو واقف بين يديه فى صلاته .

---

(١) ، (٢) ، (٣) انظر : اللمع للإمام الطوسى : ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

وكذلك إذا تشهد ودعا وسلم . كل ذلك يعقل ما يقول وما يخاطب حتى يخرج من الصلاة بالعقد الذى قد دخل فى الصلاة) [١] ا. هـ.

كان حال الإمام الخراز مع العبادة والذكر عجيباً . يروى الإمام الشعرانى رضى اللّه عنه أنه قال : (لقيت مرة شخصاً متظاهراً بالجنون . فناديته . قف يامجنون . فالتفت إلى وقال لى : أتدرى من المجنون ؟ فقلت له : لا . فقال : المجنون من يخطو خطوة ولم يذكر ربه فيها) [٢] ا.

فكان الإمام الخراز يقول : (لا يتصف عبد بالشرف حتى تصير الأذكار غذاءه والتراب فراشه)[٣] وليس معنى افتراشه التراب فى حالة مجاهدته للنفس أن يكون غير حسن المظهر ، فالإمام أبو سعيد يناشد الصوفية حسن الملبس وجمال الهيئة قائلاً: (ينبغى للصوفى أن يكون لطيف اللبسة ملازماً للخلوة حسن الصيانة فلا يطلب إلا عند وجود الفاقات وإلا فهو والكذابون سواء) [٤] ا.

وكان يعلم الصوفية أن يزاوجوا بين ملاحظة العبودية الكاملة للعبد والربوبية الحقة للّه تعالى فيقول : (لا تغتر بصفاء العبودية فإن فيها نسيان الربوبية فقيل له فما الخلاص ؟ قال : أن يشهد صنع الربوبية فى إقامة العبودية فينقطع عن نفسه ويسكن إلى ربه وهناك يسلم من الاستدراج) [٥].

كان الإمام أبو سعيد عبداً محضا لربه فانيا فيه حتى عن شهود فنائه مستهلكاً فى وجوده ببقائه ولذلك تكلم عن تحقق فقال فيه الإمام أبو نعيم أنه سيد من تكلم فى علم الفناء. وكان سيدى أبو سعيد يقول فى معنى قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [٦] : أخلاهم فى أفعالهم من أفعالهم وهو أول حال الفناء [٧] ا. هـ.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ، (٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٩/١.

(٤) ، (٥) المصدر الأخير.

(٦) سورة النحل الآية ٥٣.

(٧) انظر : اللمع للعارف الطوسى : ص٢٨٥.

ولقد ورد من كرامات سيدى أبى سعيد ما حكاه عن الإمام القشيرى أنه قال : (كنت فى بعض أسفارى وكان يظهر لى كل ثلاثة أيام شىء فكنت آكله واستقل به . فمضى على ثلاثة أيام وقتاً من الأوقات ولم يظهر شىء فضعفت . وجلست فهتف بى هاتف . أيما أحب إليك . سبب أم قوة ؟ فقلت القوة . فقمت من وقتى ومشيت اثنى عشر يوماً لم أذق فيها شيئاً ولم أضعف [1]).

ولما احتضر كان كثير التواجد عند الموت فقيل ذلك للإمام الجنيد قال لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقًا [2] !.

للّه أنت يا إمام من عظيم ولا يعظم قدر الأولياء إلا من كان عظيم القدر عن اللّه تعالى كما قال سيدى الحسن بن بنان قدس اللّه سره .

يروى الإمام القشيرى فى رسالته عن الإمام العارف سيدى رويم أنه قال : حضرت وفاة أبى سعيد الخراز وهو يقول فى آخر نفسه :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كئوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السكر
هـمومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود اللّه كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر [3]

إنه حديث لسان التصوف يتألق فى عالم الحقيقة شعراً كما تألق نثراً فى سفره الخالد : الطريق إلى اللّه (كتاب الصدق).

هذا هو الإمام أبو سعيد الخراز الذى قال فيه شيخ الإسلام سيدى عبد اللّه الأنصارى (لا أعرف أحداً من المشايخ فاق الخراز فى علوم التوحيد) !! وقال :

---

(١) انظر : اللمع للعارف الطوسى : ص ٤٠٥.
(٢) المصدر الأخير نفسه الطوسى : ٢٨٢.
(٣) انظر الرسالة القشيرية : ٢/٥٩١.

(كاد الخراز أن يكون نبياً من جهة علو شأنه وكان إمام هذا الطريق) !! وقال أيضاً: (ما كان أحد فوق الخراز هو فى غاية الغايات) [1].

رضى الله عنك يا مولانا يا أبا سعيد ورضى عنا بك وألحقنا بك فى زمرة الصفوة المقربين وأفاء علينا من مددك القدسى عز الدنيا والآخرة بالوصول والرضوان والأنس والمحبة والفناء و المشاهدة بجاه الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم .

* * *

(١) انظر : نفحات الأنس من حضرات القدس للشيخ عبد الرحمن الجامى . ص٢٣٧ - ٢٣٨. ط/دار التراث العربى بالقاهرة.

« ٢٤ »

حجة الله على أهل زمانه
الإمام العارف بالله تعالى
« ساجد القلـــب »
« سيدى سهل التُّسْتَرِى رضى اللّه عنه »

بنور اليقين استضاءت بصائر أهل العرفان والتمكين ، وعلى النهج المحمدى واصلوا المسير . فكانت خطواتهم على الدرب هى مفاتيح القرب ، وبزاد من التقوى تزودوا فى رحلة النور حيث كان غذاؤهم الذكر وقوتهم الفكر وأنفاسهم مسافات من العمر قطعوها فى مرضاة اللّه خشعاً ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً فمنّ عليهم ربهم بالوصول وأنالهم منه القبول وجعلهم خاصته وصفوته من عباده .

ومن أعلام أولئك الأئمة الواصلين والأقطاب العارفين : سيدى أبو محمد سهل بن عبد اللّه التسترى رضى اللّه عنه . ولد على رأس القرن الثالث الهجرى سنة مائتين أو إحدى ومائتين ببلدة (تُسْتَرْ) إحدى مدن خراسان والتى إليها نسبته.

وشخصية العارف التسترى لها بين أئمة العارفين منزلة سامية وقدم لا يلحق فى ميدان المعرفة والذوق الروحى .

فهو إمام عصره فى العلوم والمعاملات وأوحد أهل زمانه فى الورع والمجاهدات ، لقى الصوفى العارف سيدى ذا النون المصرى ، وتربى على يديه نخبة من السالكين والأقطاب .

والإمام التسترى قد عرف الطريق إلى مولاه منذ ترقرق فيه ماء الصبا حيث تفتحت زهرة طفولته الناضرة فى بيت تأسس على التقوى وارتوى من معين الإيمان الذى لا ينضب .

فخاله محمد بن سوار أحد الزهاد الورعين العاكفين على طاعة مولاهم . وكان سهل وهو فى الثالثة من عمره يقوم فى أثناء الليل لينظر إلى خاله وهو يقطع أنفاس الليل فى صلاة لربه حتى يؤذن الفجر فاستغرق سهل فى هذا المشهد الجليل بفطرته السوية ، واعتاد أن يقطع بدوره هجعة الكرى لكى يسقى قلبه من روعة هذا المشهد . وذات ليلة قال له خاله : يا سهل.. اذهب فنم فقد شغلت قلبى. ولكن ما للنوم ومن تعده العناية للولاية ، فلما رأى منه خاله هذا الميل الفطرى للعبادة أقبل عليه قائلاً : ألا تذكر اللّه الذى خلقك ؟ فقال : وكيف أذكره ؟ قال له : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : (اللّه شاهدى). ففعل ذلك ثلاثة أيام ثم أشار عليه خاله بأن يزيد العدد إلى سبع ثم إلى إحدى عشرة مرة . وكانت النتيجة كما قال سهل نفسه : (فوقع فى قلبى له حلاوة) وحثه خاله على المواظبة على هذا الذكر قائلاً : احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة (١).

وكان خاله يعده بهذا الذكر للفتح الإلهى ، فاكتمل له من تلقين خاله وِرْدٌ صار معراجا للفتح الربانى وعرف بورد التسترى وهو : « اللّه معى .. اللّه ناظر إلى .. اللّه شاهد على ». لقد كان هذا الورد معراجاً لفتح الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رضى اللّه عنه إذ يقول فى الفتوحات : (دخلت به الخلوة ففتح لى به فى ليلة واحدة وفيه أسرار عجيبة وأذواق غريبة ومن ذكره حببت إليه الطاعات وبغضت إليه المنكرات) (٢).

تلك أسرار عجيبة حظى بها العارف سهل ولم يزل بعد غلاماً زكياً ثم مضى إلى الكُتّاب فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وكان يصوم الدهر آنذاك

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود . ١/٨٣-٨٤.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى : ١/٤٤٠.

ويقتصر فى غذائه على خبز الشعير ويعكف على طاعات ربه من صيام إلى قيام ومن ذكر إلى علم ، كافا جوارحه عن المعاصى وقلبه عن الشهوات [١] ، فاكتمل فى طفولته ما لم يكتمل لأحد من قرنائه فى عصره حتى لقد روى عن أحمد بن سالم فى كتاب صفة الأولياء أنه قال : (ذكر سهل التسترى وهو ابن ثلاث سنين وصام و هو ابن خمس سنين وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين وساح فى طلب العلم وهو ابن تسع سنين وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة وحينئذ ظهرت عليه الكرامات) . ولقد ذكر العارف المناوى فى طبقاته أن العارف سهلا كان أعلم أهل تستر وهو ابن اثنتى عشرة سنة. إنه فتوح من الله خص به أحبابه المقربين إليه . وفى تلك الفترة التى كان فيها العارف سهل يخوض غمار المجاهدات ويتطهر من أوشاب أنيته ويجتاز العقبات فى سيره إلى الله وجد روحه من فرط شفافيتها تحلق فى عالم الملكوت وترشف من رحيق المحبة الإلهية . ووصل فى سيره إلى الله إلى مقام لم يظفر به فى ديوان الولاية إلا بعض خواص الخواص إنه مقام (سجود القلب لله) لقد دهش العارف سهل نفسه من نفسه لأنه لم يسمع من قبل بشىء يسمى سجود القلب لله ومع ذلك فقد تحقق عمليا قبل أن يعرفه نظرياً . وعن تلك الواقعة وأسرارها يحدثنا الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى فى فتوحاته : (كان بدء سهل فى هذا الطريق سجود القلب . وكم من ولى كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب ولا يعلم أن للقلب سجوداً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها فإن سجوده - أى القلب - إذا حصل لا يرفع رأسه أبدا من سجدته ، فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تتفرع منها أقدام كثيرة . وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ولهذا سمى قلبا . وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب . ولهذا لما رأى سهل فى ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقى حائراً فما زال يسأل شيوخ الطريق فما وجد أحدا يعرفها فإنهم أهل صدق لا ينطقون إلا عن ذوق محقق . فقيل له أن

(١) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٨٤/١ والمصدر السابق ٤٢٩/١.

فى عبادان شيخاً معتبراً لو رحلت إليه؟ ففعل فقال له: أيها الشيخ: أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد.. فوجد شفاءه عنده فلزم خدمته فالله يؤتى ما شاء من علمه من شاء من عباده ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ (١) .

وكان الرجل الذى وجد العارف سهل عنده جوابه هو عارف عبادان الشيخ حمزة بن عبد الله رضى الله عنه . وكان فيما قاله له حين أخبره بواقعته : (بشراك يا سهل وطوبى لك . لقد بلغت الذروة العليا وانتقلت إلى المقام الأسمى . لقد سجد قلبك وهو أعلا مراتب اليمين وما أحسب اليوم أن فى الأرض سواك فى هذا المقام) .

إن العارف سهلاً لم يصل إلى تلك المنزلة الرفيعة إلا بأن فرّغ قلبه لله وأعرض عن الأكوان فناء فى المكون وفر إلى الله من نفسه.هناك وجد قلبه وهناك سجد قلبه .

وإذا ما أردنا أن نتعرف على المنهج السلوكى عند العارف التسترى لوجدنا آفاقاً تتوهج بالنور وتشع بالضياء . فإن هذا العارف لم يترك سبيلاً للطاعة والعبادة إلا والتمسه حتى انصهرت روحه فى محراب المجاهدة الروحية فأسلمت له نفسه القياد وصارت الطاعات عنده عادات بفضل قهره للنفس ودحضه لأهوائها .

ولقد سئل سيدى سهل يوماً عن سر النفس فقال : (للنفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون - أى ما اكتمل ظهور ذلك السر إلا فى شخص فرعون - فقال : أنا ربكم الأعلى . ولها سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية . فكلما يدفن العبد نفسه أرضاً سما قلبه سماء فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش) (٢) .

ولقد حرص العارف سهل على أن يصل إلى تلك الغاية السامية وهى وصول

---

(١) سورة النحل الآية ٢ وانظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٨٤-٨٥ والكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان : ١/٤٣٠.

(٢) انظر . حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/٢٠٨ح.

القلب إلى العرش فجاهد نفسه حتى دفنها تحت الثرى فنال ما أمل . وكما جاهد نفسه فقد حارب إبليس وقطع عليه الطريق إلى قلبه حتى أيس اللعين منه . ولقد تغلب على الشيطان بالعلم الذى كشف به عقبات الطريق .

فها هو ذا يقول : (ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار فأيما قلب أو نفس رأى فيه حاجة لسواه سلط عليه إبليس) (١).

فالسبيل إلى تطهير ساحة القلب من عدوه إبليس إنما هو بتعلق القلب بالله بالمراقبة والذكر ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ (٢).

ولقد كان العارف سهل دائماً مع الله ساجد القلب صفى الروح . ولقد سلك هذا الطريق بأسلحة الجهاد الروحى وأوصى غيره بالتذرع بهذا السلاح قائلاً : (اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهد لفساد ما عليه أهل الزمان) (٣).

ولا يغيب عن الذهن أن هذا المنهج للجهاد الروحى إنما هو منهج خاص لا يتأتى إلا لمن لديه الاستعداد الشخصى له . ولقد وصل به الصوفية إلى ما وصلوا من مراتب الحب الإلهى والترقى إلى مقامات اليقين والمشاهدة .

ومما يشير إلى مكانة القطب التسترى بعد أن طبق منهجه السلوكى فى الطريق : تلك الواقعة التى ذكرها الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته إذ يقول عن العارف سهل : (وكان رضى الله عنه يقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أولياء زمانى . فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد الله الزبيرى فذهبا إليه فقال له أبو عبد الله الزبيرى – وكان جسوراً لأنه ضرير – بلغنا عنك أنك تقول: أنا حجة الله على الخلق وأنا حجة الله على أولياء زمانى فبماذا صرت ؟ هل أنت نبى أو صديق ؟ فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ولست أنا نبياً . إنما قلت هذا

---

(١) المصدر نفسه : ١٠/١٩٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٠.

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص٢٠٩.

لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى . فقال له : أأنت صححت الحلال ؟ قال : نعم. لا آكل دائماً إلا حلالاً . فقال له الزبيرى : وكيف ذلك ؟ فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء فأترك الأكل حتى يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفاً أن أكون قد أعنت على نفسى ولترد على الستة الأخرى فبهذا صح لى الحلال . فقال له الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا إلى سبعة أجزاء واعترفا بفضل سهل رضى اللّٰه عنه) [١].

هذا عن جانب من جوانب السمو الروحى عند العارف سهل وهو جانب تحرى الحلال بتلك الدقة الخارقة . وهو يعلل لهذا التحرى الدقيق للمطعم الحلال وبالقدر الضرورى بقوله : (إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت وعن الوصول بسبب سوء المطعم وأذى الخلق) [٢] ومرة أخرى يقول (الدنيا حرام على صفوة خلق اللّٰه لا يتناولون منها إلا بقدر الضرورة) [٣] . بعد هذا يحدد لنا الإمام سهل أصول هذا الطريق الصوفى قائلاً : (أصولنا سبعة : التمسك بكتاب اللّٰه والاقتداء بسنة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وأكل الحلال وكف الأذى ، واجتناب المعاصى ، والتوبة ، وأداء الحقوق) [٤] بهذه الأصول السبعة يتحقق العبد بولاية اللّٰه تعالى لأنه قد وافق فى أفعاله ما يحبه اللّٰه من عبده .

والعارف سهل يقول حين سئل عن الولى : (هو الذى توالت أفعاله على الموافقة [٥] . وبنسبة الولى إلى اللّٰه تعالى فإن فى معاداته محاربة للّٰه عز وجل كما جاء فى الحديث القدسى (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب) . وتأكيداً لهذا

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٦٧/١.
(٢) المصدر نفسه : ٦٨/١.
(٣) المصدر نفسه : ٦٧/١.
(٤) انظر طبقات الصوفية للسلمى : ٢١٠ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٣٢/١.
(٥) المصدر الأخير نفسه ، وطبقات الإمام الشعرانى الكبرى ٦٧/١.

المعنى يقول سيدى سهل : (إياكم ومعاداة من أشهره اللّه بالولاية فإنه كان بالبصرة ولى فعاداه أهلها وآذوه فغضب اللّه عليهم فهلكوا أجمعين فى ليلة) [1] .

وفى مقابلة التحذير من المعاداة يكون الترغيب فى الموالاة إذ يقول الإمام سهل : (طوبى لمن تعرف بالأولياء فإنه ربما استدرك ما فاته وإن لم يستدرك شفعوا فيه لأنهم أهل فتوة) [2] .

ذلك حديث الأولياء [3] من قطب الأولياء سيدى سهل بن عبد اللّه الذى أقام فى مقام البقاء بعد الفناء حيث كان مع اللّه بقلبه ومع الخلق بجسده وعقله ومن ثم أطلق عبارته النافذة إلى شغاف القلوب : (لى أربعون سنة أكلم اللّه والناس يظنون أنى أكلمهم) [4] إنه لم يخاطب فى الخلق إلا تجليات الحق فهو فان فى الحق باق به معه فى الخلق ولسان حاله يقول :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ولقد وقف العارف سهل على أسرار الفهم اللدنى لكتاب اللّه تعالى فألف تفسيراً موجزًا للقرآن الكريم عرف بتفسير التسترى . وفى هذا التفسير من دقائق الفهم فى كتاب اللّه تعالى ما لا يصفه واصف.انظر إليه وهو يفسر معنى الإخلاص فى قوله تعالى : ﴿ دَعَوُا اللّه مخلصين ﴾ [5] : الإخلاص هو المشاهدة وحياة القلب

---

(١) المصدر الأخير للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله تعالى عنه ٤٣٣/١ .

(٣) ومما رواه الإمام الشعرانى فى طبقاته (٦٧/١) عن الإمام سهل- فيما يتعلق بالأولياء - أنه قال : (ما من ولى صحت ولايته إلا ويحضر مكة فى كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك) !!.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٣٨/١.

(٤) سورة يونس / بعض الآية الكريمة ٢٢ وصدرها (فلما ركبوا فى الفلك دعوا الله).

فى شيئين : الإيمان فى الأصل والإخلاص فى الفرع . وأن الإخلاص خطر عظيم وصاحبه منه على حذر حتى يصل إخلاصه بالموت لأن الأعمال بالخواتيم ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (١) ا . هـ.

ومن روائع أقوال الإمام سهل رضى الله عنه : (لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم ، لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم لأنه كلام الله تعالى ، وكلامه صفته وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق لأنها محدثة مخلوقة) (٢).

ومن كرامات هذا الولى العارف أنه حصل له فالج آخر عمره فكان إذا حضرت الصلاة زال عنه فإذا فرغ منها عاد إليه (٣) .

ومنها أن رجلاً دخل إليه يوم جمعة قبل الصلاة فرأى فى بيته حية عظيمة فوقف فقال له سيدى سهل:ادخل . لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شىء يخافه !! ثم قال : هل لك فى صلاة الجمعة ؟ فقال بيننا وبين الجامع مسيرة يوم . فأخذ بيده فأدخله إليه فوراً فصليا ثم خرج ينظر الناس خارجين . فقال : أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل (٤).

وكرامات هذا الإمام ومناقبه لا تقع تحت حصر ، وهى مذكورة فى كتب الصوفية ، وطبقاتهم .

(أما بعد) فهذا إمام من أئمة الصوفية سبحنا فى محيط أنواره نلتقط بعض جواهره ودرره لنقدمها للمتعطشين إلى الضياء . على أننا لم نقدم إلا أقل القليل من

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لأبى محمد سهل بن عبدالله التسترى ص/٤٥ وقوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) الآية ٩٩ والأخيرة من سورة الحجر .

(٢) انظر : اللمع للإمام الطوسى ص١٠٧.

(٣) ، (٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٣٩/١.

ذلك العطاء الكثير الذى هو منحة اللّٰه لخواصه الذين هداهم واجتباهم . وعسى أن تشفع لنا هذه الكلمات فى أن نشرف ببركة هذا الولى العارف سيدى سهل التسترى وأن نكون فى معيته مع المنعم عليهم من الأولياء والصالحين رضى اللّٰه عنهم أجمعين .

* * *

« ٢٥ »

سيد الطائفة الصوفية
« الإمام الجنيد رضى اللّه عنه »

على طريق النور تمضى مواكب العارفين إلى غاية الغايات . حيث تنعم الأرواح التى شربت من ينابيع المحبة والصفاء حتى لم تبق فيها لغير اللّه بقية . فهى دائماً وأبدا مع اللّه وباللّه . إنها أرواح الصفوة الأولياء . الذين اصطفاهم اللّه تعالى لهداية خليقته . فهم الضياء المنبعث فى أرجاء هذه الحياة ليغمر سناه آفاق هذه الإنسانية فيجذب الأرواح التائقة إلى النور.

ومع قمة شامخة من قمم التصوف نلتقى على طريق النور مع الإمام الجنيد رضى اللّه تعالى عنه . فهو أحد أركان الطريق الصوفى الذين يشار إليهم بالبنان ، وهو إمام من أئمة السلوك الذين ارتفعت على أيديهم منارات المعرفة وشربت من منابعهم العذبة أرواح المريدين والسالكين .

ولو ذهبنا نلتمس كلمة أو عبارة نستوحى من خلالها التعرف على مكانة الإمام الجنيد - رضى اللّه عنه - لما وجدنا خيراً من عبارة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رضوان اللّه عليه إذ قال فيه : « هو سيد هذه الطائفة » ولقد صارت هذه الكلمة اصطلاحاً لدى الصوفية على شخصية العارف الجنيد . بجانب ما قيل فيه من أنه شيخ التصوف على الإطلاق،وإمام أهل الخرقة ومقدم الجماعة وغير ذلك.

وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج . أصله من نهاوند . ومولده ومنشؤه بالعراق وقد تفقه على مذهب أبى ثور من أصحاب الإمام الشافعى رضى اللّه عنه

وراوى مذهبه القديم ، وكان الجنيد يفتى بحضرته وهو فى العشرين من عمره فذاعت شهرته فى مختلف الأوساط العلمية ببغداد [1].

أما عن تربيته الصوفية : فقد أخذ الطريق عن خاله السرى السقطى وهو من أئمة رجال التصوف فى عصره . وقد قال عنه الإمام القشيرى : (كان أوحد زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد) [2] فتلقى عنه أصول الطريق كما صحب كلا من الحارث المحاسبى ومحمدا بن على القصاب البغدادى وغيرهما . ويقول الإمام المناوى فى طبقاته : أنه صحب من هذه الطائفة أربع طبقات كل طبقة ثلاثون رجلا وانتهت إليه الرئاسة [3] . هذا ويؤرخ لوفاته رضى الله عنه بسنة سبع أو ثمان وتسعين ومائتين هـ [4].

والمتصفح لتاريخ الإمام الجنيد : يقف فى كل اتجاه على سر من الأسرار التى توحى بجملتها أن هذا الطراز من الرجال قد أعدته العناية الإلهية ليحمل مشعل الهداية لبنى أمته ، وليقدم لها ميزان العبودية الصادق الذى تزن به نفسها فى إطار علاقتها مع خالقها جل شأنه . وهو يعد منذ صغره لتحمل هذه الأمانة . انظر إليه وهو يقول : (كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع والجماعة يتكلمون فى الشكر . فقال : يا غلام ما الشكر ؟ قلت الا يعصى الله بنعمه . فقال : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . فلا أزال أبكى على هذه الكلمة) [5] !.

أجل .. فقد أحدثت هذه الكلمة من خاله السرى فى نفسه دويا هز أركان نفسه . إذ خشى على نفسه أن يكون حظه من التصوف مجرد الكلام فيه وترديد عباراته وأن يحرم من التحقق بمضمون هذا الكلام فعمل من ساعته على أن يكون صوفياً بالحقيقة والحال لا باللسان والمقال . وحين تصدق من العبد الإرادة

---

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص١٥٥ . والرسالة القشيرية (المحققة) ١٠٥/١ .

(٢) المصدر الأخير للإمام القشيرى : ٦٤/١.

(٣) انظر الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للشيخ الإمام عبد الرءوف المناوى ٢٧٧/١

(٤) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص١٥٦ والرسالة القشيرية ١٠٥/١ والمصدر الأخير.

(٥) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ٣٨٦/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٦٦/٢.

ويصاحبها من الله العون والتوفيق فنل من الخير ما شئت . فهذا هو الإمام الجنيد يقبل على مولاه إقبالا يفنيه عن نفسه وعن وجوده . وهو يصور معنى هذا الإقبال ودرجته قائلاً : (لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله)[1] !! .

إنه يرى أن لحظة تفوت العبد مع ربه فيها فوات مغنم تودى خسارته بكل مكاسب العمر . أرأيت همة أرقى من هذه الهمة ؟ وتعبيراً يصور ما صورته من معان؟.

ولكن التساؤل الآن هو : بم تكون معية المخلوق مع خالقه ؟؟ وما هى الصفات التى تؤهل العبد للإقبال على ربه وترفعه إلى مصاف المقربين ؟ وفصل الخطاب فى ذلك إنما هو اتباع منهاج الشريعة المحمدية اتباعاً كليا ليس بالأشباح فقط وإنما بتطويع النفس لطاعة الله وبمكابدة النفس لأنواع المجاهدات درجة فدرجة حتى يساير هوى النفس مقصود الشارع الحكيم وحتى تصير الطاعات عادات تألفها النفس وتتوق إليها ، وأساس ذلك كله صدق النية فى اتباع الشريعة المحمدية اتباعاً مبنياً على علم فلا وصول إلا من هذا الباب ؛ ولذا يقول الإمام الجنيد (الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته)[2] وبعد أن بين معالم السبيل بصراحة لا لبس فيها . تجده يربط بإحكام بين منبع الطريق الصوفى ومصبه . فالمنبع هو الشريعة المحمدية ممثلة فى هدى الكتاب والسنة، والمصب : هو الحقيقة التى يصلها العبد باتباعه لمنهاج الشريعة المستقيم . فها هو يقول: (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)[3] وهذا التقييد إنما هو من قبيل تقييد النتيجة بالمقدمة . وهو بلا جدال قاطع لأى منافاة بينهما . ثم تعال معى لننظر إلى مدى بعد الرؤية عند الإمام الجنيد : لقد أدرك

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٢٧٨/١ والرسالة القشيرية ١٠٧/١.
(٢) انظر : الحلية لابى نعيم ٢٥٧/١٠ والرسالة القشيرية ١٠٧/١.
(٣) انظر المصدر الأخير

هذا الرجل الذى كان يعيش فى القرن الثالث الهجرى ورأى ببصيرته التى نورها الله أن ثمة دعاوى سيلفقها أعداء التصوف ويلصقونها به بعد حين من الزمن ، وهى القول بخروج التصوف على الشريعة ودعوى أن الصوفية يسقطون الأعمال والتكاليف فقطع عليهم الطريق وقطع ألسنتهم . إذ ذكر أمامه أن شخصاً قال : (إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات - أى الأعمال - من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل . فقال الإمام الجنيد : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف عام لم انتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها) [1].

هذا هو قول سيد الطائفة الصوفية الرجل الذى أقام عشرين سنة ووِرده من النوافل فى كل يوم ثلاثمائة ركعة ، وثلاثون ألف تسبيحة [2].

إلى جانب مجالسه العلمية التى كانت ببغداد حديث الرائح والغادى والتى كان يؤمها الأدباء لينهلوا من بلاغته وروعة أسلوبه ، والفقهاء ليأخذوا من فتاواه واستنباطاته ، والفلاسفة لدقة نظره وسمو أفكاره ، والمتكلمون لبراعته وتحقيقه ، والصوفية لإشارته وحقائقه [3] .

ثم هو القطب الصوفى الذى كان آية عصره علما وتحققا . فأوضح منهاج التصوف وأبرز معالمه وآدابه للسالكين حيث قال: (التصوف جامع لعشر خصال : التقلل من كل شىء فى الدنيا مع القدرة عليه ، واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى مع عدم السكون إلى الأسباب ، والرغبة فى الطاعة بما استطاع منها ، والصبر عند فقد الدنيا عن المسألة والشكوى ، والتميز فى الشبهات والحلال ، والشغل بالله تعالى عمن سواه ودوام الذكر بالقلب واللسان ، وتحقيق الإخلاص مع الصدق واستواء السريرة والعلانية ودوام المراقبة لله مع السكون إليه فى جميع

---

(١) انظر المصدر الأخير ١٠٦/١.

(٢) انظر طبقات الشافعية للسبكى ٢٦١/٢.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى : ٦٧/١٤-٦٨.

الأحوال . فإذا اجتمعت هذه الخصال : كان الصوفى فى أول مراتب المحبة ، ثم يرقى إلى حالة المشاهدة ، فيؤخذ منه إليه ويبقى معه فى ميدان المحبة والدهشة[(١)].

هذه هى آداب التصوف التى بها يدنو العبد من باب الحضرة الإلهية حيث الأنس والمشاهدة .

ثم نمضى مع سيد الطائفة لنقبس قبسات من إشاراته الصوفية ولمحاته العلوية . إنه يقول : (إن الله يخلص إلى القلوب من بره بحسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره فانظر ماذا خالط قلبك ؟) [(٢)] .

وها هو ذا ينـدد بالغفلة عن الله قائلاً : (الغفلة عن الله أشد من دخول النار) [(٣)] .

وفى تصوره لمعنى الشوق والمحبة يقول : (بلغنى أن يونس عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد ثم قال : (وعزتك لو كان بينى وبينك بحر من نار لخضته شوقاً إليك) [(٤)].

ثم يوضح ماهية التصوف قائلاً : (التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله الصرف عن الدنيا كما قال حارثة : صرفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى) [(٥)].

ثم فى شرحه لمفهوم العبودية لله تعالى يقول : (إنك لن تكون له على الحقيقة عبدا وشىء مما دونه لك مسترق . وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبودية بقية . فإذا كنت له وحده عبداً كنت مما دونه حرا) [(٦)]

هذه هى حكمة الجنيد فى إشراقها وعمق مغزاها .

(١) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية ص٨٩-٩٠.

(٢) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : ص١٥٧.

(٣) انظر المصدر الأخير ص ١٥٩.

(٤) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٣٨٤.

(٥) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ١٠/٢٧٨.

(٦) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٥٨.

وأما عن جانب الكرامات والخوارق: فإننا نجتزئ من كثرها بهذه الكرامة كمثال ؛ فيسوق لنا الإمام الجنيد هذه الواقعة فيقول : (كان السرى يقول لى تكلم على الناس . وكان فى قلبى حشمة - أى حياء - من الكلام على الناس وكنت أتهم نفسى فى استحقاق ذلك حياء . فرأيت النبى - صلى اللّه عليه وسلم - فى المنام ليلة جمعة فقال لى تكلم على الناس . فانتبهت وأتيت باب السرى قبل أن أصبح ودققت عليه الباب فقال - قبل أن يسمع منه شيئاً - لم تصدقنا حتى قيل لك ذلك : فقعد الجنيد للناس فى الجامع بالغداة . فانتشر فى الناس أن الجنيد قد يتكلم على الناس. فوقف عليه غلام نصرانى ، وقال أيها الشيخ : ما معنى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)؟ فأطرق الجنيد رأسه ثم رفعه فقال : أسلم فقد حان وقت إسلامك! فأسلم الغلام وقطع الزنار[١].

هذا هو نور البصيرة الذى يمنحه الله لمن اجتباه من خلقه وجعله من خواص عباده. ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾. وبعد : فهذا هو الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية. الإمام الربانى والعالم اللدنى الذى قال : (ما أخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لى فيه حظًّا[٢]) وقد شهد له أبو العباس بن عطاء قائلا : (إمامنا فى هذا العلم ومرجعنا والمقتدى به الجنيد[٣]. إنه مقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ التصوف الذى كان لا يغفل عن الله طرفة عين ويقول : (الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار[٤]).

هذا هو إمام أهل الحقيقة وعلم الأولياء فى زمانه الذى كان يناجى مولاه قائلا (يا من هو كل يوم فى شأن : اجعلنى من بعض شأنك[٥]).

وهو الذى تكلم فى المحبة - وهو شاب - بمكة فى موسم الحج ، على كبار

---

(١) انظر جامع الكرامات للإمام النبهانى ٢/١١-١٢.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى : ١٤/٦٧.

(٣) انظر : نفحات الأنس للعارف أبى عبد الرحمن الجامى ص ٢٥٧ ط / دار التراث العربى.

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/٧٢.

(٥) انظر الحلية لأبى نعيم : ١٠/٢٧٠.

المشايخ إذ قالوا له : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال واصفا من تحقق بالمحبة (عبد ذاهل عن نفسه ، متصل بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرق قلبه الأنوار الإلهية ، وصفا شربه من كأس ورده ، وانكشف له الحق من أستار عينه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ومع الله.

فبكى المشايخ ، وقالوا : ما على هذا من مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين!! إنه الرجل الذى اكتملت فيه ولاية الله تعالى وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الحكم لترتوى بها أرواح العارفين . وهو الإمام الذى ضرب بعلمه وحاله وسلوكه أروع المثل. وقدم من جوهر صوفيته وتحققه أنصع البراهين وأقوى الحجج على أن التصوف يمثل أعلى قمة فى الإسلام يظل لواؤها صفوة عباد الله. فسلام عليه فى الخالدين. وسلام عليه مع النبيين والصديقين بمدده وبركته دنيا وآخرة. اللهم آمين.

* * *

« ٢٦ »

« سيدى ممشاذ الدينورى رضى الله عنه »

فى أفق النور الأعلى حلّقت قلوب العارفين الربانيين بأجنحة الشوق والمحبة تنشد الحقيقة المطلقة وتطير إلى رحاب الجناب الأعلى لتسجد سجدة العبودية الصادقة على بساط حضرة الربوبية فتنال شرف الرضوان الأكبر والعز المؤيد . فحياة هذه القلوب لا توجد إلا بالقرب من سيدها ، وأرواح هذه النخبة لا تنفك عن باب الحضرة. إنها أرواح والهة بحب الله، هائمة فى ملكوته ، غارقة فى بحار عشقه، لا تزال مع كل نفس تذكره وتستغرق فى عظمته ، وتفنى فى عشق جماله، وتذوب هيبة من جلاله . إنها أرواح الصفوة من جند الله وأوليائه وخاصته من أحبابه.. رضى الله عنهم وعنا بهم فى زمرة المحبين الإلهيين.

من كبار أقطاب أولئك الصفوة الأخيار : عارف عرفت روحه الطريق إلى سيدها فطارت إليه . وذاق قلبه حلاوة الطاعة وعز العبودية فتبتل إلى ربه تبتيلا. وأنابت نفسه إلى خالقها على شوق ومحبة فأناخت على باب الحبيب حتى أذن لها بالدخول إلى وطنها الأول. فطاب هنالك المقام وارتقت فى الولاية إلى أعلى مقام. إنه الصوفى الشامخ والعارف الراسخ: سيدى ممشاذ الدينورى رضى الله تعالى عنه وعنا به وأمدنا بمدده فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

هو أحد أركان التصوف فى القرن الثالث الهجرى ممن ترجموا الهدى القرآنى الحنيفى إلى سلوك عملى ، وعرفت عنهم الأحوال والمقامات، ومهدوا الطريق لرعيل لاحق من الصفوة ينسج على منوالهم مسترشداً بمناهجهم التربوية الروحية التى لم تعرف الإنسانية لها نظيراً لأنها إرث النبوة وثمرة للتحقق بالكتاب والسنة. وعارفنا الإمام ممشاذ على الرغم من سطوع شهرته فى الآفاق الصوفية والإذعان

لمكانته السامية، إلا أنه لم ينل حقه فى التاريخ كإمام عارف وصوفى محقق. وقد استرعى انتباهى وأنا أقرأ فى كتب القوم ما أثر عنه من فقرات قليلة هنا وهناك أجدها قليلة فى الكم إلى حد لا يفى بحاجة المتطلع لمعرفة الكثير عن هذا الإمام ولكنى أجدنى أقف مشدوها ومشدوداً أمام كل جملة قرأتها لهذا العارف، وأمام كل فقرة يترجم له بها أحد مؤرخى التصوف. على الرغم من أن أحدا ممن قرأت له عن سيدى ممشاذ لم يشر إلى الجانب الشخصى من حياته من نسب أو مولد أو نشأة على الإطلاق. وقد كان هذا مثار فضول علمى وتعطش أكبر إلى التعرف والبحث عن تلك الشخصية الفذة.

وقد اختلف المترجمون لسيدى ممشاذ فى ضبط اسمه. فالإمام أبو نعيم فى الحلية والإمام القشيرى فى رسالته ثم الإمام الشعرانى فى طبقاته كلهم يذكره باسم (ممشاد) بالدال المهملة. بينما يذكره الإمام الطوسى فى اللمع والإمام السلمى فى طبقاته باسم (ممشاذ) بالذال المعجمة. وأيضاً فصاحب اللمع يذكره بكسر الميم الأولى بينما يضمها الإمام السلمى. ودينور التى ينسب إليها الإمام ممشاد : هى - كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : (مدينة من أعمال الجبل قرب (قرميسين) . وهى بلدة تقارب فى حجمها ثلثى همذان. كثيرة الزروع وإليها ينسب كثير من أهل العلم والفضل).

أما عن تاريخ وفاة العارف ممشاد : فيذكر الإمام السلمى - نقلا عن أبى زرعة الجنيدى - كما يذكر صاحب الرسالة القشيرية : أنه مات سنة تسع وتسعين ومائتين هـ.

وإذن فقد عاش الإمام الدينورى فى القرن الثالث الهجرى حتى نهايته تقريباً وعاصر جمهرة صوفية هذا القرن الذين ارتفع بهم صرح التصوف نظرياً وعمليا وكان من أبرز من عرفه شيخنا من أئمتهم : سيد الطائفة الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه وعنا به . وقد ذكر الإمام الطوسى فى صدارة باب : مكاتبات بعض الصوفية إلى بعض من كتاب اللمع : رواية عن أحمد بن على الكرخى يقول فيها :

(كتب الجنيد إلى ممشاد الدينورى رحمه الله تعالى كتابا، فلما وصل الكتاب إليه قلبه وكتب على ظهره: (ما كتب صحيح إلى صحيح قط ولا افترقا فى الحقيقة)[1]!! وفى هذه الفقرة الوجيزة تكمن أسرار وأسرار دونها بحار وبحار . لكن الذى نستطيع أن نستنبطه منها : أن الإمام ممشاد آنذاك كان لا يزال فى الطريق سالكا بينما قد وصل الإمام الجنيد إلى نهاية السلوك فصار صحيحا . ومن ثم كانت المكاتبة وإنما تسقط المكاتبة بين صحيحين يرى كل منهما الآخر بنور الله فى قلبه فلا يحتاج لمكاتبته لأنه لا افتراق بينهما فى الحقيقة .

ولقد مضى الإمام ممشاد فى طريق الله حتى صار صحيحا فى مفهوم القوم. أو بمعنى أصح فى مفهومه هو. فقد صحب العديد من شيوخ التصوف وأئمته فى عصره. وقد صرحت بذلك المصادر المترجمة له دون أن تفصل شيوخه فى الطريق. بيد أنها تواطأت على ذكر واحد منهم بالتعيين وهو الإمام العارف سيدى يحيى الجلاء رضى الله عنه . وسيدى يحيى الجلاء هو أحد أجلاء الصوفية العظام، صحب سيدى بشر بن الحارث وروى عنه كما صحب الحكيم الترمذى وطاهر المقدسى وغيرهم وابنه هو عارف الشام الكبير سيدى أبو عبد الله بن الجلاء الذى كان يعده الصوفية أحد ثلاثة لا نظير لهم فى وقتهم : الإمام الجنيد ببغداد وأبو عثمان بنيسابور وهو بالشام[2] .

وقد روى صاحب (تاريخ بغداد) عن محمد بن داود الرقى أنه قال : قلت لابن الجلاء : لم سمى أبوك الجلاء ؟ فقال : (ما جلا أبى قط ، وما كان له صنعة قط ، وكان يتكلم على الناس فيجلو القلوب فسمى الجلاء) !!.

هذا هو أحد شيوخ الإمام ممشاد الذين تتلمذ على يديهم . وقد ذكرت المصادر أيضاً أن سيدى ممشاداً قد صحب الطبقة التى فوق العارف الجلاء أيضاً. لقد دخل سيدى ممشاد الطريق على تعطش ونهم. وحين وضع القدم فى أول

(١) انظر اللمع للسراج الطوسى : ص٣٠٥.
(٢) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى ص١٧٦.

الطريق أضاءت له منارات العرفان فى عصره ، وتوقدت عزيمته وارتفعت همته إلى أفق النور فلم يرتد طرفه إلى الأرض ثانياً . لقد صار قلبه علويا لا يخلد إلى الطين ولا ينقاد للهوى . فمن كان عَبْدًا للّٰه تحرر روحه من عبودية ما سواه .

وكانت إشارة البدء على يد شيوخ الطريق الذين صحبهم سيدى ممشاد كما أشرنا . واقتضاه ذلك الاقتفاء لآثار شيوخه والمتابعة لهم أن يسيح فى الأرض تلمسا للمناهل العذبة والموارد الدفاقة التى يروى منها تعطشه إلى النور . وكان له مع كل شيخ درس وعظة ولمحة وإشارة . بيد أن مفتاح الوصول لا يكون للمريد – عادة – إلا عند شيخ واحد . وهذا نموذج من تلك الإشارات المضيئة التى انتفع بها شيخنا ممشاد من شيوخه فى سلوكه .

يروى الإمام السلمى فى طبقاته أنه كان يقول : (رأيت فى بعض أسفارى شيخاً توسمت فيه الخير . فقلت يا سيدى ! كلمة تزودنى ، فقال : همتك فاحفظها فإن الهمة مقدمة الأشياء . ومن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال [1] .

واشتعلت جذوة همة العارف ممشاد حتى طارت به فى معاريج الفلاح . فأكب على العمل الدائب والخدمة الدائمة لمن سكن حبه فى أحشائه ووقر سره فى قلبه عكف على العبادة بشتى أشكالها وصورها فلم يدع بابا من أبواب البر إلا وكان له فيه قدم . وسارع إلى النوافل المقربة إلى اللّٰه بعد الفرائض المحببة إليه فأودعها أنفاسه، وتعايش بوجدانه مع الطاعات والقربات فكان يعبد اللّٰه على حب وشوق . وكانت آدابه مع شيوخه فى الطريق كفيلة بأن تدخله فى زمرتهم . كانت مثلا عليا فى التواضع والخلق السامى يقول رضى اللّٰه عنه : (ما دخلت قط على أحد من شيوخى إلا وأنا خال من جميع مالى أنتظر بركة ما يرد على من رؤيته أو كلامه ، فإن من دخل على شيخ بحظه انقطع بحظه عن بركات رؤيته ومجالسته وأدبه وكلامه) [2] .

---

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص٣١٨.

(٢) المصدر نفسه : ص٣١٧.

وكان منطق سيدى ممشاد فى الصحبة نابضاً بالحكمة الرفيعة يقول قدس سره :(صحبة أهل الصلاح تورث فى القلب الصلاح ، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد)[1] .

ولقد صحب سيدى ممشاد أهل الصلاح حتى صلح والصالح فى عرف الطريق : هو من صلح لحضرة الله عز وجل . وذاق الإمام ممشاد شراب القوم ونهل من حياض المعرفة ، وأخذ يترقى ويترقى وقلبه مستغرق مع الله ، وجوارحه نابضة بطاعة الله حتى صار ربانيا صرفا وعارفاً حقا فأذعنت له جمهرة أهل التحقيق وشهدوا له بالرسوخ والعرفان والتمكن . وها هو ذا الإمام السلمى يصفه فى ترجمته من طبقاته بأنه : (من كبار مشايخهم)[2] ويقول عنه أنه : (عظيم المرمى فى هذه العلوم ، أحد فتيان الجبال ، كبير الحال ، ظاهر الفتوة)[3] .

ولنا مع هذه الفقرات وقفات وسبحات ، إذ إن عبارات الصوفية حين تطلق فى مضمار الوصف والتعريف توزن الذرة منها بأطنان الذهب ؛ لأنه الحقيقة بجوهرها عارية عن أى شوائب تخرج بها عن نطاق الحق الصرف . فسيدى أبو عبد الرحمن السلمى يشهد للإمام ممشاد أولا : بأنه من كبار مشايخ الصوفية . ولا يجدر بصوفى أن يحسب فى عداد المشايخ حتى يكمل تربية وسلوكا وحالا ومقاماً ليتأتى له أن يربى غيره على منهج خاص استحق به أن يكون شيخاً .

ولم يكتف الإمام السلمى بوصفه بالمشيخة فحسب . بل جعله من كبار مشايخ القوم فهو إذن صاحب مدرسة لها أسلوبها الخاص فى التربية والترقى .

وثانياً : شهد له الإمام السلمى بأنه عظيم المرمى فى علوم الحقائق . وهى العلوم الوهبية اللدنية التى أوتيت لسيدنا الخضر عليه السلام كما قال سبحانه : ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ (٤).

---

(١) المصدر نفسه : ص٣١٨.

(٢) ، (٣) المصدر نفسه : ص٣١٦.

(٤) سورة الكهف الآية ٦٥.

وكلمة : عظيم المرمى هنا ، ومن الإمام السلمى بالذات تحتاج إلى مجلدات!!.

ولكن علوم القوم فى الحقائق مضنون بها على غير أهلها فلا تفشى إلا لمن صلح وتزكى . ومن ثم لا يمكن الوقوف على تلك العلوم نظراً أو اكتساباً كما لا يتسنى التعرف عليها ممن لم يدخل فى عداد القوم . وإذن فهذه العبارة تجسد لنا مقام (العارف) ممشاد ومنزلته فى المعارف الإلهية .

ثم ثالثا : قوله (أحد فتيان الجبال) : يعطينا أن الإمام ممشاد كان يؤثر منطق العزلة والسياحة فى الجبال . وذلك أن الصوفى حين يصافى من جانب الحق تعالى : لا يجد له راحة إلا فى التفرد لحبيبه والانقطاع التام إليه فيحظى بنعيم الأنس الإلهى والوصل الربانى ويكون وحدانى الذات لا عيش له إلا مع ربه .

ثم يصفه الإمام السلمى رابعاً : بأنه كبير الحال . والحال يعرفه الإمام أحمد ضياء الدين النقشبندى شيخ شيخنا العارف بالله تعالى مولانا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سرهما ورضى عنهما وعنا بهما بأنه : (ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو ذوق . ويزول بظهور صفات النفس سواء تعقبه المثل أو لا . فإذا دام وصار ملكا سمى مقاماً [1]).

وعبارة كبير الحال توحى بعظم الواردات التى سرعان ما تتمكن فى القلب فتصبح مقامات .

ثم خامساً وأخيراً : يصفه الإمام السلمى بأنه ظاهر الفتوة . والفتوة عند العارفين مقام سام من مقامات الخواص المقربين . وقد عبر عنه شيخ شيخنا الإمام أحمد ضياء الدين فى (جامع الأصول) بمعان تبذل فيها الأرواح إذ قال قدس سره : (وأصلها فى هذا القسم : طهارة القلب عن غواشى النشآت والرجوع إلى صفاء الفطرة حتى يتصف بالعدالة التى هى جماع الفضائل الخلقية ، وظل الوحدة الحقيقية ، ويتنزه عن الرذائل النفسية والألواث الطبيعية .

---

(١) انظر : جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم وأوصافهم لسيدى أحمد الكمشخانوى ص٥٨ .

وصورته فى البدايات : الوفاء بعهد الإيمان وعقود الإسلام وترك الخصومة مع الأنام .

وفى الأبواب : نسيان الأحقاد والأذيال والتغافل عن الزلات .

وفى المعاملات : قطع النظر عن الأعمال - أى عن رؤيتها - والإعراض عن الأعواض ودرجتها فى الأصول : ألا يتعلق فى المسير إليه بدليل ولا يأنس مما سواه بخليل .

وفى الأدوية : تنوير العقل بنور القدس وتنزيهه عن الميل إلى جانب الوهم والحس .

وفى الأحوال : الاكتفاء بالمواهب والارتقاء عن ريب المكاسب .

وفى الولايات : التخلى عن كمالات القلب والتحلى بصفات الحق . وفى الحقائق : بذل الروح للفوز بحياة المحبوب .

وفى النهايات : القيام بالحق من غير رسم ، والوقوف مع الحقيقة لا مع الاسم) (١).

أرأيت إلى هذا المرتقى السامى الذى ارتقاه عارفنا الإمام ممشاد وعبر عنه شيخ شيخنا الإمام أحمد ضياء الدين ؟؟ إنه مرتقى أهل الفتوة العارفين .

ولقد استطردنا للتعرف على حقيقة ما شهد به عدول الصوفية لسيدى ممشاد . ولكنه استطراد فى الصميم يهدف إلى فتح الأقواس لإيضاح عبارات قليلة تحمل جبالا من المعانى تحققت فى الإمام ممشاد . فرأينا عوضا عن قلة ما ترجم به أن نبسط القليل مما قيل فى شأنه مع التحليل لمصطلحات القوم التى تنطبق عليه من خلال شهادتهم له .

ولكن ما الذى يشهد للإمام ممشاد من خلال نفسه هو ؟؟

---

(١) انظر المصدر الأخير : ص٢٠٣.

إنها أقواله المعبرة عن حاله وسلوكه ، ولا سيما أن من أخص صفات الصوفى أنه لا يتكلم إلا عن ذوق وتجربة ذاتية .

ولنا أن نتساءل : ما سر تفرد هذا الإمام فى عالم الولاية والتحقيق والمعرفة.

والجواب بأيسر منطوق : هو الاصطفاء الإلهى المحض والاختيار الربانى الذى أدخل هذا العارف فى زمرة المقربين .

ثم هنالك جانب مكتسب حصله الإمام ممشاد بجهاده الروحى وعباداته المتصلة وسلوكه للطريق . ولكنى أعود فأقول : إن هذا الجانب الكسبى نفسه هو وليد التوفيق الإلهى، فيرد آخر الأمر إلى الهبة المحضة . فماذا عن جوانب السلوك عند العارف ممشاد من خلال أقواله هو ؟ نجده يركز بصفة خاصة على الحضور مع الله فى الطاعات وعدم الغفلة عنه بدوام ذكره منددا بقبح الغفلة ومبرراً لذلك إذ يقول : (ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك ، وما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك) [١].

ولا يتأتى محو الغفلة إلا بإخلاء القلب لله وفراغه من السوى وذلك الفراغ يستلزم الزهد فى الدنيا كما يقول عليه الرضوان : (فراغ القلب فى التخلى مما تمسك به أهل الدنيا من فضول دنياهم) [٢] ثم يؤكد لنا الإمام ممشاد أن التوكل على الله بالمفهوم الصوفى الصحيح للتوكل من أعظم مقومات الوصول إليه سبحانه.

وقد سئل سيدى ممشاد عن حقيقة التوكل فقال : (التوكل حسم الطمع عن كل ما يميل إليه قلبك ونفسك) [٣].

ومستند هذا التوكل عند سيدى ممشاد : هو الثقة فى الله . ومحال أن يصل إلى الله عبد لم تكتمل ثقته به . يقول الإمام ممشاد - فيما رواه عنه الإمام السلمى

---

(١) انظر طبقات الصوفية لسيدى أبى عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه ص ٣١٧ وحلية الأولياء ١٠/٣٥٣

(٢) المصدر السابق : ص٣١٧.

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٨.

بإسناده - (لو جمعت حكمة الأولين والآخرين ، وادعيت أحوال السادة من الأولياء : فلن تصل إلى درجات العارفين حتى يسكن سرك إلى الله تعالى وتثق به فيما ضمن لك)[1].

وحين يسكن سر العبد إلى ربه ويتوكل عليه ترتفع همته من الأكوان إلى المكون فيصير فى حرز الله وأمانه ويصبح من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد صاغ الإمام ممشاد هذا المضمون فى قوله : (من يكن الله همته لم تستقطعه الأقدار ولم تملكه الأخطار)[2].

ونتساءل عن المعرفة عند سيدى ممشاد : ما السبيل إليها ؟ وما غايته ؟ ويجيبنا رضى الله عنه بقوله : (جماع المعرفة : صدق الافتقار إلى الله تعالي)[3] فطريق المعرفة إذن هو صدق العبد فى شعوره بالافتقار إلى ربه تعالى فيلوذ به ويتقرب إليه بطاعته ومحبته فيدنيه مولاه من حضرته ويعرف به . وعندما يعرف العبد ربه يتزايد افتقاره إليه ، وكلما افتقر إليه اغتنى به والغنى بالله غاية معرفته ، وبين الوسيلة والغاية لا انفكاك عن الافتقار إلى الله فهو عماد المعرفة الحقة والعبودية الخالصة.

ويصف لنا الإمام ممشاد الطريق إلى الله بأنه طويل وشاق ولا يقدر عليه إلا الأبطال الأقوياء يقول رضى الله عنه : (طريق الحق بعيد، والصبر مع الحق شديد)[4] !! أجل .. إن الغاية سامية فلابد أن يكون صعباً مرقاها . ولكن لا بعيد على مريد . والمريد هو الرامى بأول قصده إلى الله تعالى فلا يلتفت عنه حتى يصل إليه. وهو فى أول طريقه مريد وفى وسطه سالك ومتصوف وفى منتهاه صوفى وواصل .

---

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٣٥٣/١٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص٣١٦.
(٤) المصدر الأخير.

وللمريد آداب عند سيدى ممشاد يوضحها بقوله رضى اللّٰه عنه : (آداب المريد فى أربعة أشياء : التزام حرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب ، وحفظ آداب الشرع على نفسه) (١) .

هذه هى الآداب التى تمثل منهج الإمام ممشاد فى التربية وتعكس لنا مشربه السلوكى واتجاهاته العملية التى تجسد طابع مدرسته الصوفية .

فهو أولا : يحث على التزام حرمات المشايخ . والمراد هنا : الكاملون من أهل الحقائق . فتأدب المريد معهم والانقياد لأوامرهم هو مفتاح السلوك .

ثم هناك واجب آخر يحدده الإمام ممشاد تجاه إخوان الطريق هو خدمتهم والتواضع لهم . وفى ذلك جهاد للنفس وخروج عن حظها . وهو باب عظيم من أبواب الفتح .

ثم الأدب الثالث وهو الخروج عن الأسباب وليس المراد به عدم مباشرة الأسباب تواكلا كما فهم الجهلة من خصوم التصوف . بل المراد الخروج عن رؤية تأثيرها فى المسببات بإسناد الحول والقوة لله وحده سبحانه .

ثم يأتى عماد هذه الآداب ، وأساسها الرئيسى وهو (حفظ آداب الشرع) فيقصم ظهر أعداء الصوفية الذين يرمونهم بالتحلل من الشريعة بينما لا يعتبر الصوفية من يتحلل من الشرع مسلما فكيف يدخل فى عداد الصوفية وهم الذين تحققوا بأعلى مراتب الإسلام ؟

إن قمة الإسلام وحقيقته العليا هى إسلام الوجه للّٰه فى مقام الإحسان وهو مقام المشاهدة كما يطلق عليه الصوفية وفى هذا المقام يحضر العبد مع ربه ليراقب مشاهدته له أو يشاهده هو فيكون فى غيبة عن الأكوان بحيث لا تؤثر فيه ولا تنال من حضوره مع ربه ، وهكذا كان دأب العارف سيدى ممشاد فقد روى الإمام القشيرى فى رسالة بسنده عن أحمد بن على الكرخى أنه قال : (كان جماعة من

---

(١) المصدر نفسه / ٣١٨ والرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ١/١٤٤.

الصوفية متجمعين فى بيت الحسن القزاز ومعهم قوالون يقولون ويتواجدون فأشرف عليهم ممشاد الدينورى فسكتوا . فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمع ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى) [١] !! .

لقد انشغل سيدى ممشاد بالله حتى فقد قلبه مع الله إلى الأبد ، يقول الإمام الطوسى فى اللمع : (سمعت بعض أصحاب ممشاد الدينورى يحكى عن ممشاد رحمه الله تعالى : أنه اعتل علة شديدة فدخل عليه أصحابه عائدين له . فقالوا : كيف تجدك ؟ قال : لا أدرى ولكن سلوا العلة كيف تجدنى ؟ فقالوا له : كيف تجد قلبك ؟ فقال : قد فقدت قلبى منذ ثلاثين سنة) [٢].

لقد صار قلبه مع ربه فلم تعد فيه بقية يتلفت بها لما سوى الله . حتى ولو كانت الجنة بنعيمها . انظر إلى الإمام القشيرى وهو يقول فى رسالته : (دخل جماعة على ممشاد الدينورى فى مرض موته فقالوا : ما فعل الله بك وما صنع ؟ فقال ، منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى !! وقالوا له عند النزع: كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة فقدت قلبى) [٣]. ومن الأسس التى بنى عليها الإمام ممشاد منهاجه الصوفى : إسقاط رؤية الخلق تخلصا من الرياء الذى يطلق عليه الصوفية : الشرك الأصغر. يقول سيدى ممشاد : (الأسباب علائق ، وفى التعريج مواقع ، والاستثناء إلى مسبوق القضاء فراغة وأحسن الناس حالا من أسقط عن نفسه رؤية الخلق ، وراعى سره فى الخلوات مع الله ، واعتمد عليه فى جميع الأمور) [٤].

وحين سقطت رؤية الخلق عند سيدى ممشاد وفقد قلبه مع الله تعالى : ألقى اختياره فى بحر التدبير الإلهى فمنحه الله تعالى سر (كن) الذى لا يناله إلا الربانيون من عباد الله تعالى . ولكن هل استعمل سيدى ممشاد سر (كن) ؟ كلا. لأنه قد ترك اختياره لله تعالى بالكلية إذ فقد قلبه معه .

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٢/٦٥٥.
(٢) انظر اللمع للإمام الطوسى : ص٢٧١.
(٣) انظر : الرسالة القشيرية (المحققة) : ٢/٥٩٧.
(٤) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى : ص٣١٨.

ثم إنه وهو العارف المحقق العليم بآداب الحضرة الإلهية قد آثر التأدب مع اللّه تعالى ففنيت إرادته فى إرادة مولاه . يروى الإمام العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى اللّه عنه وعنا به أن سيدى ممشاد كان يقول : (فقدت قلبى من عشرين سنة مع اللّه تعالى ، وتركت قولى للشىء كن فيكون منذ عشرين سنة أدبا مع اللّه عز وجل) . ثم يعلق مولانا الشعرانى على ذلك بقوله : (قال بعضهم معناه أنه كان يرجع إلى قلبه ثم يرجع بقلبه إلى اللّه . ومعنى : تركت قولى للشىء كن فيكون : أنه كان مجاب الدعوة كلما دعا أجيب . ثم ارتفع عن ذلك إلى اللّه فصار بمراد اللّه لا بمراده فترك الدعاء ا. هـ [1]).

ثم يعرفنا الإمام ممشاد بمعاريج المعرفة والقرب قائلاً : (أرواح الأنبياء فى حال الكشف والمشاهدة وأرواح الصديقين فى القرب والاطلاع) [2] .

أما كرامات سيدى ممشاد فنكتفى منها بذكر هذه الكرامات التى رواها الإمام السلمى بسنده عن فارس الدينورى يقول : (خرج ممشاد من باب الدار فنبح عليه كلب فقال ممشاد (لا إله إلا اللّه) فمات الكلب مكانه) [3] !!.

لقد تحقق بسر لا إله إلا اللّه فصار من خواص العارفين . رضى اللّه عنك ياسيدى ممشاد وجعلنا فى معيتك من خواص أحبابك فى الدنيا والآخرة آمين.

* * *

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٨٨/١.
(٢) المصدر الأخير.
(٣) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمى : ص ٣١٧.

نهاية القرن الثالث وأول القرن الرابع

١ - سـيـدى رويم رضى الله عنه ٣٠٢
٢ - سيدنا أبو بكر الكتانى رضى الله عنه ٣٢٢
٣ - سيدنا الشبلى رضى الله عنه سنة ٣٣٤

«٢٧»

«سيدى رويم بن أحمد البغدادى رضى الله عنه»

لله عز وجل خواص من عباده اصطفاهم لولايته وأمد أرواحهم بالنور الساطع عن جماله القدسى، فجذبت نفوسهم إلى رحال طاعته، وعقولهم إلى رياض معرفته، وأسرارهم إلى أفق مشاهدته أجلسهم على بساط القربة وكساهم حلل التقريب والمحبة، فأضحوا رياحين الوجود ونخبة البرية رضى الله عنهم وجعلنا منهم ومعهم فى الدنيا ويوم الدين.

من صفوة أولئك المقربين: عارف جذبته أنوار العناية ليحتل مكانته فى صفوف الأقطاب المحمديين، والأئمة الراسخين إنه الإمام الواصل والعارف المحقق سيدى أبو محمد رويم بن أحمد بن رويم بن يزيد البغدادى رضى الله عنه وعنا به فى معيته الشريفة دنيا وأخرى آمين.

هو أحد الشموس الساطعة التى سكبت ينبوع الضياء فى أرواح السائرين وأمدت بالنور والعرفان بصائر السالكين إلى جناب رب العالمين.

بزغ كوكب هذا العارف فى القرن الثالث الهجرى الذى تفجرت فيه منابع الثروة الروحية وارتفعت فيه أعلام التصوف لتظل موكب السائرين على الدرب المحمدى. ولم تحدد لنا المصادر التاريخية فى أى سنة ولد ولكنها أرخت لوفاته بسنة ثلاث وثلاثمائة [١] هـ.

وقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به أن سيدى رويما قد دفن بالشونيزية فى التاريخ المذكور [٢].

---

(١) انظر الطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص / ١٨٠.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٧٥/١.

وتذكر لنا المصادر أيضا أن العارف رويما بغدادى الأصل، عريق المنبت، وقد اكتسب من بيئته نسبة إلى العلم والدين تلاقت مع فطرته المتألقة يتحدث عنه الإمام السلمى فى طبقاته قائلا: (وهو من أهل بغداد من جلة مشايخهم وجده رويم ابن يزيد، حدث عن ليث بن سعد وغيره وقيل كنيته أبو بكر)(١).

ويكشف لنا الإمام أبو نعيم فى (حلية الأولياء) عن مكانة الإمام رويم فى التصوف والعلم وذلك فى مطلع ترجمته الرائعة إذ يقول: (ومنهم الفطن المكين، له البيان والتبيين والرأى المتين رويم بن أحمد أبو الحسن الأمين كان بالقرآن عالما، وبالمعانى عارفا وعلى الحقائق عاكفا، قلد بفصل الخطاب، ولم تؤثر فيه العلل والأسباب، كان سمى جده رويم بن يزيد المقرئ الراوى عن ليث بن سعد وإسماعيل ابن يحيى التميمى)(٢) .

وتعطينا الروايات المتعددة فى جزم مؤكد أن سيدى رويما كان قرآنيا منذ البداية ومن بيت قرآنى كان عالما بالقرآن الكريم وقراءاته ملما بعلومه الواسعة وفى الوقت نفسه كان غارقا فى معانى التنزيل الحكيم وفيوضاته اللدنية لا تدخل تحت طائلة العلم الكسبى فطرق باب الجود الإلهى لينال من عطاء الله وفتحه.

وقد وجد الطريق لكل ذلك فى إصلاح النفس والقلب للوصول إلى تحقيق مرتبة التقوى (واتقوا الله ويعلمكم الله) (٣).

وقد تحقق فعلا من أن التصوف مدخل لفهم أسرار كلام الله عز وجل، ولأن طريق التصوف هو طريق العلم والعمل فقد بدأ سيدى رويم سلوكه بالتفقه والدرس مع اشتغاله بالقرآن الكريم ، وعن هذا الجانب يقول الإمام السلمى فى ترجمة سيدى رويم من طبقاته: (وكان فقيها على مذهب داود الأصبهانى وكان مقرئا فقرأ على إدريس بن عبد الكريم الحداد) (٤).

---

(١) انظر المصدر قبل الأخير.
(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٩٦/١٠.
(٣) سورة البقرة / ٢٨٢.
(٤) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص / ١٨٠.

وأيضا روى الإمام أبو نعيم رضى الله عنه من مسانيد جد العارف رويم - الشيخ رويم بن يزيد المقرئ حديثا عن سيدنا جابر رضى الله عنه قال: (رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - أبا الدرداء يمشى قدام أبى بكر. فقال يا أبا الدرداء أتمشى قدام رجل ما طلعت الشمس على رجل مسلم خير منه؟ قال فما رؤى أبو الدرداء بعد هذا يمشى إلا خلف أبى بكر) (١).

ومن منطق العلم والتفقه انطلق سيدى رويم إلى ساحة الجهاد الروحى وسلك الطريق فى عصر كان يزخر بالسادة الأمجاد الذى حملوا لواء التصوف واقتفوا الأثر المحمدى على هدى من ربهم ومن ثم أتيح لسيدى رويم أن يصحب كبار الأئمة والأقطاب وينهل من راحتهم زاد المسير إلى حضرة العلى القدير.

ونجده قد صاحب فى المقدمة سيد الطائفة الصوفية مولانا الإمام الجنيد رضى الله عنه وعنا به وأفاد من صحبته أيما إفادة، كما صحب العديد من أقطاب الطريق أمثال سيدى أبى سعيد الخراز، والإمام أبى العباس بن عطاء وأبى محمد الجريرى وأبى عمرو الزجاجى وأبى عبد الله بن خفيف وغيرهم من أوعية النور ومهبط الإمداد الإلهية.

وقبيل أن نتذوق أثارة من علم عن أثر تلك الصحبة المباركة يجمل بنا أن نتعرف على بعض النماذج السلوكية التى تصور منهج سيدى رويم فى الخدمة والعبادة؛ لقد بلغ سيدى رويم شأوا سامقا فى العبادة والطاعة لا يناله إلا صفوة الصفوة وهذه كلماته تنبئ عن مقامه.

يروى الإمام القشيرى - رضى الله عنه - بسنده عن سيدى أبى عبد الله بن خفيف رضى الله عنه الذى كان من أبرز المريدين المتتلمذين على الإمام رويم - أنه سمع يقول: سألت رويما فقلت: أوصنى فقال: (ما هذا الأمر - أى التصوف - إلا ببذل الروح. فإن أمكنك الدخول فى هذا وإلا: فلا تشتغل بترهات الصوفية) (٢).

---

(١) انظر . الحلية لأبى نعيم : ١٠/٣٠١.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ١/١١٦.

لعمرى إن هذه العبارة التى أطلقها سيدى رويم لهى قاعدة السلوك التى وصل بها إلى ملك الملوك والتى لا بديل عنها للوصول فأساس الطريق هو بذل الروح لله تعالى وإفراغ الجهد فى الطاعة.

وفى بذل الروح على هذا النحو نجاتها وتحررها من ربقة التراب وقيود الآثام لكى تنطلق إلى الأفق الأعلى.

وليس المراد إهلاكها كما يتصور السذج من نقاد التصوف بأن يكلفها ما لا تطيق من المشقات حتى يزهقها. كلا وإنما يبذل المريد أو السالك روحه ونفسه لله بأن يوقفها على خدمته وينذرها قربانا لله فلا تشتغل بما سواه ، ثم نجد سيدى رويما ينهى مريده عن التقاعس عن بذل الروح لله اكتفاء بزخارف الكلام والتحاكى بمقامات التصوف مع البطالة، والاستغناء عن الأعمال بالأقوال فتلك كلها عند الصوفية المحققين ترهات حجب بها الصوفية الأدعياء.

وقد أكد لنا الإمام الشعرانى هذا المعنى نفسه عند سيدى رويم حين قال فى ترجمته : (وكان رضى الله عنه لا يعبأ بالمريد إذا لم يبذل روحه فى الطريق) [(١)] هذا عن المنهج الذى تربى به العارف رويم وتعايش عمليا مع مفهومه ثم ربى عليه مدرسته الصوفية.

أما عن التطبيق فهاهى تلك نماذجه منذ البداية السلوكية لسيدى رويم: يروى الإمام الطوسى فى اللمع عن قاضى الدينور أحمد بن محمد بن سنيد يقول: (سمعت رويما يقول: اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد فعطشت فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا بجارية وقد فتحت باب الدار وخرجت ومعها كوز ملآن من الماء المبرد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت لى: ويحك! صوفى يشرب بالنهار؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت. قال رويم: فلقد استحييت منها ونذرت ألا أفطر أبدا) [(٢)].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/٧٥.

(٢) انظر اللمع للإمام الطوسى : ص ١٧٠

وفى رواية الإمام القشيرى يقول سيدى رويم: (فما أفطرت بعد ذلك اليوم قط)!! أى ماعدا الأيام التى يحرم صومها بالطبع كالعيدين، فالاستثناء فيها واضح القرينة.

وقد ظل سيدى رويم يترقى ويرتقى فى المجاهدة حتى عز نظراؤه، يقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمته من طبقاته: (وكان يقول لى: منذ عشرين سنة لم يخطر فى قلبى ذكر الطعام حتى يحضر، ولى منذ عشرين سنة أصلى الغداة بوضوء العشاء الأخيرة رضى الله عنه) [1] !!

عشرون سنة حتى وقت قوله هذا يصل الليل بالنهار والنهار بالليل بين صيام دائم وذكر لازم، وجوع وسهر، وتَحَنُّثٍ وتبتل.

ثم يقول له قائل ذات مرة: كيف حالك؟ فيجيبه: كيف حال من دينه هواه وهمته شقاه، ليس بصالح تقى ولا عارف نقى [2] ؟؟!!

إنه اتهام النفس وهى فى ذروة الطاعة وقمة العبودية.

وبين الجهاد المتواصل والصحبة المباركة لأقطاب الطريق لاحت إشراقات الفتح فى قلب العارف رويم، وشق الإلهام طريقه إلى نفسه الزكية، وتفجرت فى قلبه منابع المعرفة فنطق لسانه بالحكمة الربانية.

وقد ظهرت آثار هذا الفتح وذاك الإلهام وتلك المعرفة جلية من خلال وقائع لم يحفظ لنا التاريخ منها - للأسف - إلا قليلا. ولكنه قليل مبارك فيه.

والواقعة التى نسوقها الآن قد ضمت أربعة من أئمة الطريق الصوفى. وكان موضوع الحديث «طريق النجاة». والرواية للإمام القشيرى بسنده عن محمد بن عبد الله الفرغانى يقول: (كان الجنيد جالسا مع رويم والجريرى وابن عطاء، فقال الجنيد: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا - أى الالتجاء إلى الله عز وجل - قال الله

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٧٥/١.

(٢) انظر طبقات الصوفية للشيخ أبى عبد الرحمن السلمى ص ١٨٤.

تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) (١).

وقال رويم رحمه الله: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) (٢).

وقال الجريرى: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا قال الله تعالى: (الذين يوفون بعهده الله ولا ينقضون الميثاق) (٣).

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بصدق الحيا قال الله تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) (٤).

ثم أدلى الإمام القشيرى بدلوه فقال: ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء. قال الله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى . . الآية) (٥). وقال أيضا: ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء . . قال الله تعالى: (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٦) ، (٧).

إنه وصف الحكماء الربانيين لطريقة النجاة. كل يرى بمشكاة معرفته.

وكلهم من رسول الله ملتمس   رشفا من البحر أو غرفا من الديم

كذلك نجد لسيدى رويم مع أستاذ الطائفة سيدنا الجنيد عليه الرضوان مواقف يسأله فيها عن مقامات الطريق وأذواقه.

يروى صاحب الرسالة القشيرية بسنده عن سيدى إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت الجنيد يقول - وقد سأله رويم عن الزهد - فقال: (هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب) (٨) وكما أفاد سيدى رويم من صحبته لسيد الطائفة رضى

---

(١) سورة التوبة / ١١٨.
(٢) سورة الزمر / ٦١.
(٣) سورة الرعد / ٢٠.
(٤) سورة العلق / ١٤.
(٥) سورة الأنبياء / ١٠١.
(٦) سورة الأنعام / ٨٧.
(٧) انظر : الرسالة القشيرية ٢٨٢/١.
(٨) انظر : الرسالة القشيرية ٢٩٥/١.

الله عنه وعنا به فقد أفاد كذلك من صحبته الإمام الخراز أحد شوامخ الصوفية رضى الله عنه وعنا به.

فيروى صاحب الرسالة أيضا أن أبا على الروذبارى سمع يقول : قال لى رويم قال أبو سعيد الخراز: (رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين) [1] وهذا من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن العارف يرى بنور الله ما لا يراه المريد من دسائس النفس التى تخرج بالعمل عن حد الإخلاص.

ومن ثم فإن ما يراه المريد إخلاصا بحسب مرتبته لا تخفى خوافيه على العارف فيبصر بنور معرفته ما فيه من الدخل. وهكذا استفاد سيدى رويم واستمد من منابع النور المتدفقة وطبق هذه المعارف فى سمته وسلوكه، وكابد مشقة الجهاد، وعب ونهل من محيط العبادة، واغتسل فى مطهر التصوف بماء العبودية الحقة والتبتل الصادق والإنابة إلى المولى عز وجل. فانجلت مرآة قلبه واستقبل إشراقات المعرفة بعد أن اكتمل سلوكا وتصفية. وعرف فى أوساط بغداد بل وفى الجو الإسلامى كله بزهده وعبادته. وعلمه وفتوحاته. وأضحى قبلة للباحثين عن الحقيقة وإماما فى الطريقة. وشهد له أكابر القوم بإمامته وتفرده.

فهذا هو الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى الذى قال عنه الإمام القشيرى فى رسالته (وهو شيخ الشيوخ وواحد وقته) [2]، والذى أخذ عن سيدى رويم وأخذ عنه القاضى الباقلانى. يروى عنه صاحب الرسالة القشيرية أنه قال: (اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم أحوالهم: الحارث بن أسد المحاسبى: والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكى لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق) [3] .

إن الصوفية قسمان: قسم أخذه الحق تعالى منه إليه وجذبه إلى حضرته

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٢/٤٤٥.

(٢) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ١/١٧٣.

(٣) المصدر نفسه : ١/٧٣.

واستأثر به لنفسه، وأصبح من ضنائن الله عز وجل من عباده كالملامتية وأرباب الأحوال والسياحين فى الأرض، وهؤلاء لا معاملة لهم إلا مع الله عز وجل. وقد حدد الإمام ابن خفيف موقفنا من هذا القسم بقوله: (والباقون سلموا لهم أحوالهم) فلا اعتراض ولا إنكار عليهم: لأنهم فى كفالة الله، وأنفاسهم تجرى على الموافقة للشريعة الغراء فى حركاتهم وسكناتهم على الرغم مما قد يستشكل على بعض المحجوبين من أمورهم. لكن ليحذر المنكرون من معاداتهم ففيهم يقول الحق تعالى: (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب).

أما القسم الآخر: وهم أهل الاقتداء والإمامة. فهم كما يقول الإمام ابن خفيف: (جمعوا بين العلم والحقائق) فلهم نصيبهم فى الظاهر والباطن إذ نالوا الوراثة المحمدية الشريفة فى العلم والهداية ظاهراً وباطنا. فهم أهل الإرشاد والتأسى والحال والمقال. لهم الصدارة عند الخلق والحظوة عن الحق. ولكلا القسمين فى التنزيل الحكيم مثل ونظير. فالقسم الأول يمثله العبد الصالح سيدنا الخضر عليه السلام، والقسم الثانى يمثله كليم الله سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والتسليم. ولا يخفى أن نبوة الكليم مشتملة على الولاية. ليتم التقابل بين القسمين.

وقد كان سيدى رويم عليه الرضوان من أهل الإمامة والاقتداء الجامعين بين العلم والحقائق. ولقد كان عارفا من الطراز الرفيع. فالمعرفة عنده تمثل الحق الأول والأساسى لله على خلقه. يقول الإمام أبو نصر الطوسى رضى الله عنه: سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو؟ فقال: المعرفة. لقوله عز وجل (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [1] قال ابن عباس: إلا ليعرفون [2].

ولقد عنى سيدى رويم بإنارة السبيل أمام طلاب المعرفة وتبيان المناهج المتهافتة التى خذلت أصحابها فى الوصول إلى مقصدهم. فيذكر لنا صاحب

---

(١) سورة الداريات / ٥٦.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية (المحققة) ١/٢٦.

الحلية مقالا مطولا للإمام رويم يصنف فيه طبقات المنتسبين إلى علم المعرفة الذين تسوروا على ذرى قصرت عنها مقاماتهم عجزا عن بلوغها واغتراراً بما سمعوه من علوها. وقد علل لوقوعهم فى هذا المهوى بأمرين: أحدهما: استعجال المنزلة قبل وقتها عجزاً عما عمل فيه الصادقون وبذله المحققون. والآخر: الجهل بطريق السالكين إليها، وإغفال التقوى عما لها وعليها.

واستعرض سيدى رويم تلك الفرق التى وقع فيها اللبس، فيقول رضى الله عنه فى وصف إحدى هذه الفرق: (وفرقة أخرى من العارفين - أى المنتسبين للمعرفة النظرية دون التحقق بها - أشرفت على عجائبهم فى مقاماتهم وعظيم طرقهم فى سيرهم وسيرهم وقطع مفازهم فى تيه مضلة العقول وتسنم عقاب الحيرة، وقطع لجة الهلكة وصراط الاستقامة. فرأيتهم بعين لا يستتر عنها متوار فى حجابه، قد خدع المغرور منهم بمكانة.

فمن بين صريح تحت إشاراته فى بحر عميق بين الجمع والتفريق. فرأيته أسوأ ممن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق [1].

ولقد قصد سيدى رويم ببيانه الحكيم لانحراف تلك الفرق، تحذير المبتدئين والمريدين وطلاب المعرفة الاغترار بأولئك المغترين والنسج على منوالهم.

فطريق المعرفة عند سيدى رويم هو التحقق بالشريعة المحمدية علما وعملا والاهتداء فى السلوك بصحبة أهل الحقيقة. وفى صحبة أهل الحقيقة يقول سيدى رويم قدس الله سره: (قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم - أى أقل تبعة - من قعودك مع الصوفية، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم - أى الظواهر - وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق.

---

(١) انظر: الحلية لأبى نعيم: ١٠/٢٩٩.

فمن قعد معهم وخالفهم فى شىء مما يتحققون فيه نزع الله نور الإيمان من قلبه) (١).

أما عن معرفة سيدى رويم بأحوال الصوفية ومقاماتهم وعلومهم، وأذواقهم فهو البحر الزاخر والإمام الحجة، وهذه قطرات من فيوضاته فى مقامات التصوف يرويها الإمام أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم إذ يقول: (سمعت رويما يقول: الصبر ترك الشكوى، والرضا: استلذاذ البلوى، واليقين: المشاهدة، والتوكل: إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى الوثائق، والأنس: أن تستوحش من سوى محبوبك).

وسئل عن المحبة فقال: الموافقة فى جميع الأحوال وأنشد:

ولو قيل لى مت مت سمعا وطاعة وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا (٢)

وأما عن مفهوم التصوف عند سيدى رويم فقد سئل فيه فقال: استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده (٣).

وقال رضى الله عنه: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار (٤).

رضى الله عنك يا سيدى رويم فى علياء منازل العارفين، وسقانا من بحار معرفتك ومحبتك وحشرنا فى زمرتك مع خواص الحق المتقين (إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) (٥).

* * *

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١/١١٦-١١٧.
(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ١٠/٣٠١.
(٣) انظر اللمع للإمام الطوسى : ص ٤٥.
(٤) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ٢/٥٥٢.
(٥) سورة القمر / ٥٤ - ٥٥.

« ٢٨ »

سراج الحرَم :-

« سيدى أبو بكر الكتانى رضى الله عنه »

من قبضة الرحمة الإلهية تخلقت ذوات العارفين الربانيين، فتولهت قلوبهم فى عشق متوليهم على بساط ديموميته، ونهلت أرواحهم من فيوضات العلوم المتلاطمة أمواجها فى بحار صمدانيته ، وتحيرت عقولهم فى إدراك كنه حقائق مشيئته: فهم النخبة الأصفياء والأولياء الأحباء. رضى الله تعالى عنهم، وزج بنا فى زمرتهم فى خضم أنوار: (يحبهم ويحبونه) إنه هو الولى الحميد.

ممن تولاهم ربهم بعنايته واجتباهم لرعايته ذلك الإمام الذى غمر الحب الإلهى قلبه فتعلق قلبه بربه ووهب الروح لخالقها فلم يكدر صفوها برق المحدثات، وغلب عليه شهود الحق بالحق فكان هو الدليل والمدلول.

إنه الإمام العارف والصوفى الشامخ سراج الحرم وشمس بغداد شيخ الصوفية سيدى أبو بكر محمد بن على بن جعفر الكتانى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى معيته من أهل العناية المقربين.

هو أحدالأفذاذ الأوائل الذين سطعت من بواطنهم إشراقات الحقائق وفاضت من منابعهم أسرار الطرائق، ونهض بهم صرح السلوك الصوفى فى أروع صوره، وأجلى مفاهيمه. عاش رضوان الله عليه فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وكانت وفاته - كما ذكر الإمام السلمى فى طبقـــاته - سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة [١].

والعارف الكتانى - كما يذكر الإمام السلمى أيضا: (أصله من بغداد، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، وأبا الحسين النورى، وأقام بمكة مجاورا بها إلى أن مات) [٢].

---

(١) ، (٢) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٧٣.

وإذن: فالمدرسة الصوفية التى تربى الإمام الكتانى فى أحضانها تتمثل بصفة خاصة فى هؤلاء الأئمة الثلاثة الذين ذكرهم - كأصحاب فى الطريق للعارف الكتانى - أكثر من مصدر تاريخى موثق، ولذكر هذه الصحبة أثره البالغ فى التعرف على المنابع الصوفية التى استقى منها الإمام أبو بكر، ولاسيما أن هؤلاء الصوفية الثلاثة هم من أكبر أقطاب الطريق، وألسنته الناطقة بمنهجه وإشاراته. فالإمام الجنيد رضى الله عنه هو كما عرف به الإمام القشيرى فى صدارة ترجمته له فى رسالته قائلا: (سيد هذه الطائفة وإمامهم) وكما قال عنه سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه وعنا به فى الفتوحات: (هو سيد أهل الطائفة) وهو الذى أسس دعائم التصوف كعلم وشيد بنيانه على أصول الكتاب والسنة.

فهو القائل رضى الله عنه: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) (١).

وكما صحب العارف الكتانى سيد الطائفة فقد صحب شيخا آخر من كبار شيوخ الطريق هو سيدى أبو الحسين النورى. وقد قال عنه الإمام السلمى: (وكان من أجل مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن فى وقته أحسن طريقة منه ولا ألطف كلاما) (٢). وأيضا قال عنه الإمام الجنيد رضى الله عنه بعد وفاته: (منذ مات النورى لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد) وقد كان كصاحبه الإمام الجنيد أشد ما يكون تمسكا بالشريعة وآدابها فلقد سمعه سيدى أبو محمد المرتعش رضى الله عنه يقول: (من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه) (٣).

هذا هو منطق أعلام التصوف يدحض ظلم المفترين من أعداء الأولياء المدعين تحلل الصوفية وحاشاهم - من الشريعة المطهرة. أنى وهم نجومها المتلألئة فى سماء الطهر والصفاء.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ١/١٠٧.

(٢) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى ص ١٦٤.

(٣) انظر الرسالة القشيرية : ١/١١٢.

أما الشيخ الثالث الذى أفاد إمامنا الكتانى من صحبته فهو لسان التصوف سيدى أبو سعيد الخراز عليه سحائب الرضوان، وهو أحد أئمة الصوفية الناطقين بأبكار الحقائق، وقد قيل فيه أنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء. وقد كان لصحبة العارف الكتانى للإمام الخراز أثر صوفى خاص، إذ صرح بعض المؤرخين بأخذه عنه الطريق. فقد قال ابن العماد فى شذرات الذهب وهو يترجم للإمام الكتانى: (أخذ عن أبى سعيد الخراز وغيره) (١).

ولقد شرع سيدى أبو بكر الكتانى فى دخول الطريق مستجمعا كل الوسائل التى توصله إلى غايته ومقصده، وهو بنفسه يحدثنا - فيما رواه الإمام المناوى - عن تلك الوسائل قائلا: (من يدخل هذه المفازة يحتاج إلى أربعة أشياء: حال يحمله، وعلم يسوسه، وورع يحجزه، وذكر يؤنسه) (٢).

إنها مقومات السلوك الصوفى التى لابد من توافرها فى المريد لصحة دخوله الطريق.

فلابد من توافر عنصر الموهبة الإلهية وهى التى عبر عنها سيدى أبو بكر الكتانى بقوله: (حال يحمله) لأن الأحوال عند القوم: هى مواهب الحق تعالى التى تأتى من عين الجود الإلهى، وفى مقابلتها المقامات التى يكتسبها العبد ويرتقى من الأحوال إليها.

ومن ثم قال الإمام القشيرى رضى الله عنه: (فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتى من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مُتَرَقٍّ عن حاله) (٣).

فالحال الذى يحمل المريد أول الأمر هو توافر الموهبة والعناية الإلهية والصلاحية للسلوك. ثم بعد ذلك لابد من علم يسوس المريد ويقوده إلى العمل

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٩٦.
(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٩٨/١.
(٣) انظر : الرسالة القشيرية : ١٩٣/١.

والترقى. فلاتصوف على جهل بأمور الشريعة. إذ لابد من التبحر فى علومها إما وهبا أو كسبا. ثم بعد ذلك يأتى - فى كلام الشيخ الكتانى - ركن الورع. وهو قمة التقوى التى ينبنى عليها مع الإيمان صرح الولاء كما قال تعالى: (الذين آمنوا وكانوا يتقون) (١). ثم الأنس مع الله تعالى بدوام ذكره والحضور معه. هذه وسائل الوصول إلى الله عز وجل التى وصل بها الإمام الكتانى ووصل غيره.

والإمام الكتانى كصاحب مدرسة فى الطريق قد قنن السلوك وحدد المعالم التى يجب التعرف عليها حتى يسلك المريد على بينة. ولقد أوضح أن الطريق يتطلب من المريد الصادق التفانى الكامل فى الطاعة والعبادة.

يروى صاحب الرسالة القشيرية عن العارف الكتانى أنه كان يقول: (من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة) (٢)، إن النوم عند رجال الطريق أخو الموت ولابد للمريد أن يكون حيا غالب أوقاته حتى يحيا قلبه. ووقت المريد من أثمن ما وهبه الله من نعم فينبغى لذلك أن يضن به على النوم إلا إذا غلبه النوم. كذلك إذا امتلأت البطن أثقلت عن الطاعة وأوقعت المريد فى براثن الكسل وأدخلت عليه غواشى الشهوة ومن ثم يجب ألا يأكل إلا عند شدة الجوع وبقدر الحاجة فحسب.

ثم يجب أن يتخلق المريد - من حيث هو مؤمن - يقول الحق تعالى: (والذين هم عن اللغو معرضون) (٣)، فلا يتكلم إلا عند الضرورة. والمراد الكلام الدنيوى. وإلا فغالب أوقاته ذكر لله عز وجل. فالصمت والعزلة والجوع والسهر: أركان أربعة للوصول.

وقد أفرد لها سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه وعنا به رسالة أسماها: (حلية الأبدال) ولقد أوضح لنا الإمام الكتانى مقومات

---

(١) سورة يونس / ٦٣.
(٢) انظر الرسالة القشيرية : ٢/٤٣٦.
(٣) سورة المؤمنون / ٣.

السلوك وآداب المريد ودعائم الوصول من خلال تجربته الذاتية، فلقد كلأته العناية وسهرت عليه الرعاية منذ بداية أمره. وتبحر فى العلم الظاهر قبل أن يسبر غور العلم الباطن وهو علم الحقيقة. وكان إماما فى الدين، وصفه الإمام المناوى رضى الله عنه فى مفتتح ترجمته فى طبقاته بقوله: (... وكان يأمر الناس بتقوى الله على المنابر، وتنطلق بها ألسنة أقلامه من أفواه المحابر)[1].

أجل . . لقد بدأ بالعلم والتفقه، والمعرفة الواسعة بعلوم الدين ونصب نفسه لإفادة الخلق وتبصيرهم بدينهم. ثم كان الجانب العلمى الذى ضرب فيه الإمام الكتانى مثلا فذا يشرف هذه الأمة التى أنجبته.

ففى محاريب العبادة نقف على الصورة المثلى للعابد الذاكر المتقى الخاشع. لقد غلب عليه شعور الإجلال لعظمة ربه حتى كان يقول: (لولا أن ذكره فرض على ما ذكرته إجلالا له. مثلى يذكره ولم يغسل فمه بألف توبة متقبلة ؟؟)[2].

لقد وقف على لب الطاعة وجوهر العبادة.

ومن ثم فقد روى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أنه كان يقول: (العبادة اثنان وسبعون بابا، أحد وسبعون منها فى الحياء من الله تعالى وواحد فى جميع أنواع البرد)[3]. ولتخلقه بالحياء من الله تعالى كان يرى نفسه أقل من أن يذكر الله عز وجل ما لم يقدم للذكر بألف توبة مقبولة !! إنه الأدب مع الله يراه أهل الله. أما درجته فى العبادة فنتعرف على طرف من خلال ما رواه الإمام القشيرى بسنده عن محمد بن إسماعيل الفرغانى رضى الله عنه أنه قال: (كنا نسافر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزقاق والكتانى لا نختلط بأحد ولا نعاشر أحدا. فإذا قدمنا بلدا فإن كان فيه شيخ سلمنا عليه وجالسناه إلى الليل ثم نرجع إلى مسجد، فيصلى الكتانى من أول الليل إلى آخره ويختم القرآن. ويجلس الزقاق مستقبل القبلة، وكنت

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٩٧/١.

(٢) المصدر السابق ٥٩٩/١ والرسالة القشيرية ٤٦٨/٢.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالي عنه ٩٥/١.

أستلقى متفكراً. ثم نصبح ونصلى صلاة الفجر على وضوء العتمة - أى العشاء - فإذا وقع معنا إنسان ينام كنا نراه أفضلنا!) [1].

هؤلاء هم فرسان الليل الذين قال فيهم ربهم: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (٢).

وشيخنا الكتانى على هذا القدم فى العبادة منذ بداية أمره يظل قائما لربه طوال الليل فى استغراق دائم ثم لا يسفر ضوء الصبح إلا وقد ختم القرآن الكريم، وهذا هو بدء أمره فى الطريق إذ يروى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته أن الشيخ الكتانى كان يقول: (كنا معاشر الفقراء - فى بداية أمرنا - نصلى إلى الصباح بوضوء العشاء. فإذا وقع منا أن أحدا ينام نراه أفضلنا) [3]. والأعجب من العبادة نفسها عدم رؤيتهم لها حتى أن النائم كان يرى أفضل ، النائم لعدم رؤية الطاعة من جهة ولأن النائم فى هذه الزمرة يعد صاحيا لنومه على طهارة القلب. إنه الجهاد فى الطاعة: مجهود متصل وراحة منقطعة إذ لا راحة فى الخدمة مع السيد الأعلى عند العبيد الخواص.

لقد تلقن الإمام الكتانى هذا الدرس منذ البداية؟ إذ يروى الخطيب البغدادى بسنده عن ابن شاذان أنه قال: سمعت أبا بكر الكتانى يقول: سألت ابن الفرجى فقلت: إن لله صفوة وإن لله خيرة. فمتى يعرف العبد أنه من صفوة الله ومن خيرة الله؟؟.

فقال: كيف وقعت على هذا؟ قلت : جرى على لسانى، قال: إذا خلع الراحة وأعطى المجهود فى الطاعة، وأحب سقوط المنزلة - أى عند الخلق - وصار المدح والذم عنده سواء).

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٥٦٧/٢ - ٥٦٨.

(٢) سورة السجدة / ١٦ - ١٧.

(٣) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى : ٩٤/١.

أجل .. إنه قتل حظ النفس بالاستغراق فى الطاعة والتطهر من الرياء والعجب وغيره من معوقات الوصول. لذلك كان الإمام الكتانى دائما يحث مريديه على التخلص من الرياء.

يروى الإمام السلمى عن محمد بن عبد الله الرازى أنه قال - عن العارف الكتانى - (وسأله بعض المريدين فقال له: أوصنى! فقال: كن كما ترى الناس وإلا فأرِ الناس ما تكون) !! [1].

قمة الموازنة بين الظاهر والباطن ، وقمة الصدق مع الله ومع الناس.

لقد كان الإمام الكتانى يدعو دائما ومن خلال نفسه وتخلقه إلى الإخلاص فى العبادة وإسقاط حظ النفس، يقول الإمام أبو نعيم رضى الله عنه: سمعنا أبا جعفر الخياط الأصبهانى يقول: (صحبته - أى الشيخ الكتانى - سنين فكان يزداد على الأيام ارتفاعا وفى نفسه اتضاعا) [2].

إنه تناسب عكسى مع النفس كلما ارتفع هو سقط حظها عنده، وهكذا شأن الربانيين ، ومن ثم كان يعبد الله على طهارة قلب ونظافة روح فضرب أروع الأمثلة.

فإلى جانب قيامه الليل وصيامه النهار وذكره وتفكره ضرب المثل الأعلى فى ملازمة تلاوة القرآن الكريم. فيذكر صاحب (تاريخ بغداد) بسنده عن محمد بن عبد الله بن شاذان أنه قال: (كان يقال أن الكتانى ختم فى الطواف اثنى عشر ألف ختمة) !! إنها أقرب ما يتقرب به العبد إلى ربه وهى مناجاته بكلامه لاسيما أثناء الطواف ببيته الحرام.

ولقد كان سيدى أبو بكر الكتانى ملازما للحرم عابدا وذاكرا، قائما ومتفكرا حتى غلب عليه لقب لقبه به أحد أئمة التصوف وهو الإمام المرتعش إذ كان يقول فيه: (الكتانى سراج الحرم) [3]. لقد أضاء الحرم بعبادته المتواصلة وسهره الدائم.

---

(١) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى / ٣٧٤.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٥٨/١٠.

(٣) انظر الطبقات الصوفية للإمام السلمى ٣٧٣.

وقد نتساءل عن سر مواصلة الإمام الكتانى الليل بالنهار وصلاته الصبح بوضوء العشاء، ويجيبنا رضى الله عنه فيما رواه عنه الإمام السلمى قائلا: (إن لله ريحا تسمى ريح الصبيحة مخزونة تحت العرش تهب عند الأسحار تحمل الأنين والاستغفار إلى الملك الجبار)[1].

ولقد وقف الإمام الكتانى أيضا على ما هو أفضل من عبادة الجوارح وأرجح فى الميزان من الأعمال الظاهرة، فقال عليه الرضوان: (روعة عند انتباه من غفلة، وانقطاع عن حظ النفسانية وارتعاد من خوف قطيعة أفضل من عبادة الثقلين)[2] ذلك لأنها عبادات القلب والذرة منها تزن الجبال من عبادات الجوارح.

بل إن هناك ما هو أفضل منزلة من سائر العبادات الظاهرة - وإن كان داخلا فى نطاق مطلق العبادة - ألا وهو المعرفة بالله، فصاحب الحلية يروى أن الإمام الكتانى رضى الله عنه كان يقول: (العلم بالله أعلى وأولى من العبادة له)[3] وذلك بلا ريب تفضيل لنوع على الآخر من مطلق العبادة، فالمعرفة هى سنام العبادات كلها.

ومن ثم يرى الإمام الكتانى أن أهل المعرفة هم الطبقة العليا من الخواص؛ فالعارفون أولا ثم العباد ثانيا. ولذلك يقول العارف الكتانى فى حكمة ربانية رفيعة: (إن الله نظر إلى عبيد من عبيده فلم يرهم أهلا لمعرفته فشغلهم بخدمته)[4] فالعبودية درجات وأعلاها للعارفين.

والعباد مع كون العارفين يفضلونهم هم بلا شك فى منزلة عظيمة، ولكنها منازل ودرجات فأدنى منازل الأولياء العبادة وهى للمؤمنين الذى لهم الولاية العامة ثم العبودية وهى للخواص ثم العبودة لخواص الخواص. ومصداق هذه الموازنة التى

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ٣٥٨/١٠.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمى ٣٧٥.

عقدها سيدى أبو بكر الكتانى بين العارفين والعباد قول الحق تعالى: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» [1] واليقين قمة المعرفة.

ومرة أخرى يقول الإمام الكتانى - كما روى عنه سيدى أبو طالب المكى فى علم القلوب: (العلم بالله أفضل من العلم لله ومن العبادة له) [2] لذلك نجد حديث العارف الكتانى فى المعرفة حديث الذائق المتحقق. ولقد روى عن صاحبه الإمام الخراز رضى الله عنهما بعض العبارات التى تترجم منزلته فى المعرفة يقول الإمام السلمى: سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سمعت محمد بن على الكتانى يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: (للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارات الأزلية) [3].

ولقد وجد سيدى محمد الكتانى منذ وضع القدم فى الطريق بشائر المعرفة مجسدة فيما هدى إليه من الحكمة. فالحكمة أرفع منزلة من العلم والمعرفة غاية الحمكة. ومنذ البداية فى الطريق تفجرت ينابيع الحكمة فى قلبه. يقول الإمام أبو طالب المكى فى (علم القلوب): (وقال الكتانى رحمه الله: كنت فى بدايتى أرى غليان الحكمة فى صدرى لا أمنعها من المستحق ولا غير المستحق. فرأيت ليلة من الليالى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى منامى فقال لى: إلى متى تستخف بالحكمة؟ إن من استخف بالحكمة فقد استخف بالله، ومن استخف بالله فما أسوأ حاله يوم القيامة) [4].

ومن ساعتها لم يتحدث العارف الكتانى إلا بإذن باطنى لأهل الحكمة والمعرفة. وظل يترقى ويترقى من مقام النفس إلى مقام القلب ثم الروح ثم السر حيث المشاهدات والتجليات ، وحيث المحو والمحق والفناء فى عين الجمع.

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٩٩ .

(٢) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى ص ٥٥.

(٣) انظر طبقات الصوفية للعارف السلمى ص ٢٣٢.

(٤) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى . بتحقيق عبد القادر عطا ص ٤٢.

ولقد ترجم الشيخ الكتانى عن بعض تلك المعانى بإشارات لأهل الإشارات يتجلى فيها مقامه وقدمه فى المعرفة.

يقول الإمام السلمى فى طبقاته: (وقال محمد بن على الكتانى : حقائق الحق إذا تجلت لسر أزالت عنه الظنون والأمانى؛ لأن الحق إذا استولى على سر قهره ولا يبقى للغير معه أثر)[1] .

أما سمات العارف وصفاته فقد تحدث الإمام الكتانى عنها حديث المتحقق الراسخ. يقول الإمام السلمى: (وقيل للكتانى: من العارف؟ فقال: من يوافق معروفه فى أوامره ولا يخالفه فى شىء من أحواله، ويتحبب إليه بمحبة أوليائه: ولا يفتر عن ذكره طرفة عين)[2] .

وإذن فضابط العارف موافقة الشرع فى أوامره إيجابا وفى نواهيه سلبا ثم يحب أولياءه وأحبابه تحببا إليه.

فمحبة الأولياء إذن من سمات العارفين ، وهى موصلة إلى درجاتهم متى قام المحب بشروطها ، وهى باب عظيم من أبواب الولاية فتحه الله رحمة لخلقه ، من أجل ذلك نحبهم ونتفانى فى محبتهم ونقف على أعتابهم ونتوسل بهم إلى الله تعالى أن يحشرنا فى زمرتهم ويجعلنا من حزبهم.

أما الغافلون الجاهلون بأقدار الأولياء الذين يقدحون فى موالاة الأولياء ويحطون على من يتقرب إليهم فأولئك هم الضالون المضلون المحجوبون المحرومون. جعلنا الله ممن يحب أولياءه ويسعى فى محبتهم ويحبب خلقه إليهم، لنكون فى معيتهم فى الدنيا والآخرة.

ثم يذكر لنا الإمام الكتانى من سمات العارفين أن لا يفتر عن ذكر معرفته تعالى طرفة عين. فهو حاضر معه دائما. ثم يتحدث فى عبارة أخرى عن عطاء الله

---

(١) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمى ٣٧٧.
(٢) المصدر السابق للإمام السلمى ٣٧٤.

تعالى لخواصه ، وأن ذلك العطاء إنما هو شهوده به سبحانه فيقول: (وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق؛ لأن الحق دليل على كل شيء، ولا يكون شيء دونه دليلا عليه) (١).

ولقد تعرض العارف الكتانى رضى الله عنه لبيان كثير من الحقائق والمقامات كما تناول بإشاراته ونصائحه لمريديه كثيرا من آداب السلوك فلقد سئل عن حقيقة الزهد فقال - فيما رواه الإمام السلمى - (فقد الشيء والسرور من القلب بفقده، وملازمة الجهد إلى الموت، واحتمال الذل - أى لله - صبرا والرضا به حتى تموت) (٢) ومرة أخرى يبين حقيقة الزهد - فيما رواه عنه الإمام الشعرانى - قائلا: (سرور القلب بفقد الشيء، وملازمة تحمل الأذى من جميع الخلائق، وكل شيء أتاه منهم يقول، أنا أستحق أعظم من ذلك ، ويرى أنه استحق النار وصولح بالرماد) (٣).

إنها قمة الزهد والفتوة التى لا يتحقق بها إلا خواص الحق تعالى وقليل ما هم.

وقال الإمام السلمى: (وسمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سئل الكتانى عن السنة التى لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم. فقال: الزهد فى الدنيا، وسخاوة النفس ، ونصيحة الخلق) (٤).

قال وسئل عن المتقى فقال: (من اتقى ما لهج به العوام من متابعة الشهوات وركوب المخالفات. ولزوم باب الموافقة، وأنس براحة اليقين، واستند إلى ركن التوكل، وأتته الفوائد من الله عز وجل فى كل حال فلم يغفل عنها) (٥) هذه سمات الأولياء الأتقياء (الذين آمنوا وكانوا يتقون).

أما التصوف فقد عرفه الإمام الكتانى بتعريف جامع مانع فى كلمتين فقال: «التصوف صفاء ومشاهدة» يشير بالصفاء إلى جانب السلوك، وبالمشاهدة إلى جانب الوصول.

---

(١) ، (٢) المصدر الأخير.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٩٤/١.

(٤) ، (٥) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى / ٢٧٦.

وهو التعريف الذى اختاره أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود للتصوف فى مؤلفاته [1].

وتحدث الإمام الكتانى عن السماع فقال: (سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام) . ومرة أخرى يقول: (المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح إليه. يهيج السماع منه وجدا أو شوقا أو غلبة وارد عليه يفنيه عن كل مسكون ومألوف. وأنشد على أثره:

فالوجد والشوق فى مكانى ... قد منعانى من الفرار

هما معا لا يفارقانى ... فذا شعارى وذا دثارى [2]

ولقد كان الإمام الكتانى لشدة محبته لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يراه مناما. فقد قال: (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المنام فقلت : يا رسول الله: ادع الله لى أن لا يميت قلبى. فقال: قل فى كل يوم أربعين مرة: يا حى يا قيوم لا إله إلا انت) [3].

وقال: (كان فى رأسى وجع فرأيت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فقال اكتب هذا الدعاء. (اللهم بثبوت الربوبية وبعظيم الصمدانية وبسطوات الإلهية وبقدم الجبروتية وبقدرة الوحدانية).

قال فكتبته وجعلته فى رأسى فسكن حالا. وتحدث رضى الله عنه عن أنواع الأولياء فقال: (النقباء ثلثمائة والنجباء سبعون والأبدال أربعون والأخيار سبعة

---

(٦) انظر : المنقذ من الضلال للإمام أبى حامد الغزالى مع أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ص/ ١٧١ نشر دار الكتب الحديثة وقد أورد صاحب الرسالة القشيرية (٢/ ٥٥٤، ٥٩٥) تعريفاً آخر للتصوف عند الإمام الكتاني وهو : (التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء).

(٢) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٧٥.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ٩٤ - ٩٥.

والعمد أربعة والغوث واحد. فمسكن النقباء المغرب والنجباء مصر، والأبدال الشام، والأخيار سياحون فى الأرض، والعمد فى زوايا الأرض والغوث مسكنه مكة فإذا عرض حاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد ثم الغوث فلا يتم الغوث مسألته حتى تجاب دعوته) (١).

رضى الله تعالى عنهم جميعا وبهم وعنك يا سيدى أبا بكر الكتانى وعنا بك فى الدنيا ويوم الدين.

* * *

---

(١) انظر المصدر الأخير.

«٢٩»

تاجُ الصّوفية:

«الإمام الشبلى رضى الله عنه»

فى رياض المحبة الإلهية تتنزل النفحات القدسية والمعارف الربانية على قلوب العارفين الذين رفعت لهم ألوية الاصطفاء فى سجل الأزل فشربت ذواتهم من معين الحب أحلى كاسات الوصال. وهامت أراوحهم فى محيط النور اللانهائى حتى صارت نورًا محضا يسبح فى النور، واحتجبت عن عيون الأغيار بحجاب البشرية، واستترت بغلاف هذه الترابيية، فالمظهر مع الخلق، والجوهر مع الحق ، والمعنى فى قول الشاعر:

وما هو منهمو بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

وفى ذرى المحبة الشامخة نلتقى بعارف من صفوة أولياء الله تعالى هو تاج الصوفية الإمام الربانى سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه.

قطب حلَّقت روحه بالأفق الأعلى وارتفعت إلى منازل الصديقين، وولى أسكرته أنوار التجريد فنطق عن حقائق التوحيد بما يقطع أوهام الحائرين وينير دروب السالكين. فلنلتمس زادا من النور المشع من قبس عرفانه لعل جذبة من إشراق فيضه تستل من أعماقنا أستار الحجب، وتصل بنا إلى ساحل الحقيقة وإلى أفق النور.

ولنأخذ أولا فيما لابد منه من ترجمته الشخصية بالقدر الموصل لمدخل شخصيته:

- فى تحقيق تسميته ذكر كثير من مؤرخى الصوفية أن اسمه دلف بن جحدر الشبلى، بينما ذهب آخرون إلى أن اسمه جعفر بن يونس. وقد روى السلمى هذه التسمية الأخيرة فى طبقاته عن أحد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوبا على قبر الإمام الشبلى ببغداد [1].

وأيا كان: فالكل متفق على الكنية واللقب اللذين اشتهر بهما سيدى أبو بكر الشبلى.

وقد ولد رضى الله عنه ببغداد [2] سنة ٢٤٧ هـ ولحق بربه سنة ٣٣٤ عن سبع وثمانين سنة، وهو خراسانى الأصل. وقد نشأ فى بغداد. وكان والده حاجب الحجاب للخليفة الموفق. فتربى الشبلى فى ظلال النعمة والمكرمة آخذا بنصيبه من الدين والدنيا. حيث تفقه على مذهب الإمام مالك واشتغل بعلم الحديث وروى منه الكثير. ومن مروياته هذا الحديث الذى ذكره السلمى بإسناده عن أبى سعيد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال: الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا. قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال: ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ. قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال: هو ذاك وإلا فالنار [3].

ومع روايته للحديث واشتغاله بالعلم فقد ترقى فى مناصب الدولة حتى صار واليا بنهاوند والبصرة، وأصبح مقربا من الخليفة واتسع مجده وشهرته، ولكن المقادير كانت تدخر له من العناية ما لم يدر بخلده. فكان بدء عهده بطريق القوم حينما هيأت له الأقدار ان يحضر إلى مجلس الصوفى العارف سيدى خير النساج رضى الله عنه، فاستمع إلى حديثه فى علوم القوم ورأى ما أبداه الشيخ من عجائب

---

(١) انظر : طبقات سيدنا السلمى ص / ٣٣٧.

(٢) ذكر الإمام القشيرى فى رسالته (١٤٨/١) فى ترجمة الإمام الشبلى انه بغدادى المولد والمنشا، وإن اصله من اسروشنة - وهى مدينة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وجيحون - بينما ذكر الذهبى فى (سير أعلام النبلاء : ١٥ / ٣٦٧) أن أصله من (الشبلية) - وهى قرية من قرى (أسروشنة) وراء سمرقند ، وأن مولده بسامراء.

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

أحواله وخوارقه. وأحس الشبلى بوقع كلمات الشيخ فى أعماق نفسه ووجدانه تكشف له عن مدى تفريطه فى حق مولاه وإعراضه عن طاعة سيده، فانهمرت دموع ندمه وتوبته وقام من مجلس الشيخ، وقد تفجرت فى أعماقه ذرات الخشية والإنابة. وعزم على المضى فى طريق مولاه فترك مركزه ورمى بجاهه وشهرته حتى لقد ذهب إلى مقاطعة (ودماوند) التى اقطعه إياها الخليفة، وقال لأهلها : كنت والى بلدكم فاجعلونى فى حل . وبدأ التحول الخطير فى حياة العارف الشبلى. لقد صار يحس بتيار جارف من التعلق بالله يهز فى أركان نفسه ، وماذا يساوى ملك الدنيا بأسرها بجانب نعيم لحظة يتصل فيها العبد بخالقه؟ أليس منه البدء وإليه المنتهى «فإلام الفرار من الله ومتى الفرار إليه؟ » وأسرع الشبلى للقاء الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية ليتلقى عنه أصول الطريق الصوفى ولينخرط فى سلك أكرم طائفة. إنها طائفة الربانيين من عباد الله.

وعلى أهبة الاستمداد من محيط إمدادات القوم جرى بينه وبين الإمام الجنيد هذا الحوار الحافل بدرر المعانى ، وهو كما يذكره صاحب كتاب التبر المسبوك: أن الشبلى قال للجنيد: (لقد حدثونى عنك أن عندك جوهرة العلم الربانى الذى لا يضل صاحبه ولا يشقى، فإما أن تمنح، وإما أن تبيع. فقال الجنيد: لا أستطيع أن أبيعها لك فما عندك ثمنها. وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها. ولكن وقد رزقت هذا العزم فهو علامة الإذن، وبشير التوفيق. فألق بنفسك غير هياب فى عباب هذا المحيط مثلما فعلت أنا. ولعلك إن صبرت وصاحبك التوفيق أن تظفر بها. واعلم أن طريقنا طريق المجاهدين الآخذين بقوله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١) فاجعل هذه الآية نصب عينيك فهى معراجك إلى ما تريد) (٢).

ووضع الإمام الشبلى قدمه على أول الطريق حيث تلقى نسبته الصوفية عن الإمام الجنيد عن سيدى السرى السقطى عن سيدى معروف الكرخى الذى نهل من

---

(١) سورة العنكبوت / ٦٩.

(٢) انظر : من أعلام التصوف الإسلامى للشيخ طه عبد الباقى سرور ١٣٢/١.

نبع آل البيت ، حيث أخذ عن سيدى على الرضا - رضى الله عنه - من جهة كما أخذ عن سيدى داود الطائى عن التابعين من جهة أخرى. وكان الارتباط بين سيدى أبى بكر الشبلى وسيدى أبى القاسم الجنيد - رضى الله عنهما - يفوق فى مدلوله حد التصور. إنها صحبة الولاية فى طريق الحق عز وجل، وإنها خلة الروح على صراط المحبة، ولقد كان كل منهما كبيرا فى عين الآخر شامخا فى منزلته سامقا فى رفعته. ولقد بلغ من تقدير الإمام الجنيد لمكانة العارف الشبلى بين أقطاب الصوفية أنه قال (لكل قوم تاج وتاج قومنا الشبلى) [١] إنها كلمة حق من سيد الطائفة. الإمام الشبلى خليق بها وأهل لها؛ لأننا حينما نقلب صفحات الجهاد الروحى ونستطلع الجانب العلمى عند العارف الشبلى سنجد - ولاشك - سطورا من النور تشير إلى سمو هذه الشخصية وعظم منزلتها، فمن الناحية العلمية - وقد أشرنا إليها بصدد الحديث عن نشأته - يروى صاحب كتاب تاريخ بغداد بسنده عن الشبلى أنه قال: (كتبت الحديث عشرين سنة وجالست الفقهاء عشرين سنة) [٢] ومرة أخرى يقول الشبلى مشيرا إلى نفسه: (أعرف من لم يدخل فى هذا الشأن حتى أنفق جميع ملكه وغرق فى هذه الدجلة التى ترون سبعين قمطرا مكتوبا بخطه. وحفظ الموطأ وقرأ بكذا وكذا قراءة) [٣].

ويرى صاحب الرسالة القشيرية أن فقيها من أكابر الفقهاء كانت حلقته بجانب حلقة الشبلى فى جامع المنصور ؛ وكان يقال لذلك الفقيه (أبو عمران) وكانت تتعطل عليهم حلقاتهم لكلام الشبلى. فسأل أصحاب أبى عمران يوما الشبلى عن مسألة فى الحيض - وقصدوا إخجاله - فذكر مقالات الناس فى تلك المسألة والخلاف فيها. فقام أبو عمران وقبل رأس الشبلى وقال: يا أبا بكر: استفدت فى هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها. وكان عندى من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل. أ . هـ [٤].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) (٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى : ١٥ / ٣٦٨.

وكان للشبلى لسان عال فى الطريق ومحجة قوية فى الشريعة يشهد بهما كل من تصدى لجداله من الفقهاء ، فقد كان ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع للشبلى والاستماع لكلامه فجاءه ابن بشار يوما ممتحنا فقال له: كم فى خمس من الإبل: فسكت الشبلى فأكثر عليه ابن بشار فقال له الشبلى: (فى واجب الشرع شاة وفيما يلزم أمثالنا كلها. فقال له ابن بشار: هل لك فى ذلك إمام؟ قال نعم. قال: من؟ قال: أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث أخرج ماله، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما خلفت لعيالك؟ قال: الله ورسوله.

فرجع ابن بشار ولم ينه بعد ذلك أحدا عن الاجتماع بالشبلى [1].

لقد كان وراء علم الشبلى بالشرع علم آخر أخذه عن الله إلهاما بلا واسطة، وكان يقول عن علم القوم:(ما ظنك بعلم علم العلماء فيه تهمة) !! فالعلم المكتسب لا يقاس بعلم أهل الله وشتان بين علم أخذ عن الخالق وعلم أخذ عن المخلوق.

وهذه صفحة أخرى من جهاد الشيخ فى عبادته وعلمه: لقد دخل عليه أبو بكر بن مجاهد فحادثه فسأله عن حاله فقال: (ترجو الخير تختم فى كل يوم ختمتين أو ثلاثا؟) فقال له الشبلى: (أيها الشيخ قد ختمت فى تلك الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة. إن كان فيهاشىء فقد وهبته لك وإنى لفى درسه منذ ثلاث وأربعين سنة ما أنتهيت إلى ربع القرآن). لقد قصد الشبلى بتلاوة القرآن الكريم وجه الله، أما الثواب فقد وهبه لمن يبتغيه. لقد كان حسبه أن يناجى مولاه بكلامه ثلاث عشرة ألف ختمة، ولم يرد ثمنا لهذه المناجاة؛ لأنها خالصة لله. فأى نوع هذا من الإخلاص؟ إنه إخلاص الحب لذات الله بعيدا عن منطق الثواب والعقاب[2].

ثم لنطل على جانب آخر من جوانب الجهاد الروحى عن الإمام الشبلى حيث نرى جهاد النفس فى طاعة الله، وحيث نشرف على مقام المحبة عن هذا الولى:

---

(١) انظر اللمع للإمام الطوسى ص ٢١٠ وفيه (ابن شيبان) بدلاً من (ابن بشار) وانظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٩٠/١.

(٢) انظر اللمع للطوسى : ص ٢٤١.

إن الشبلى منذ عرف طريق القوم قد قطع على نفسه عهدا بالتجرد لمولاه. فالحب الذى غمر قلبه لله يأبى أدنى مشاركة. فاختط لنفسه طريق الجهاد الأكبر مع نفسه وهواه. وبلغ به الحد فى مجاهدته نفسه أنه كان يكتحل بالملح حتى لا ينام ويعتاد السهر. وحينما لامه أصحابه فى قلة النوم قال لهم: (سمعت الحق يقول لى: من نام غفل ومن غفل حجب، وكان هذا سبب اكتحالى بالملح حتى لا أنام) [(١)]. لقد كان يبيت الليل ساهرا يقطع أنفاس السحر فى قيام لربه ويسكب فى دياجى الليل أنات الخشية والإنابة. إنه الحب الإلهى الذى لا يقاس به حب فى الوجود. وإذا كان عشق المخلوق قد أفضى بقيس بنى عامر إلى الجنون بليلاه فكيف بعشق الخالق؟؟. والمحبة الإلهية لها وصف لا يعرفه إلا من ارتوى من سلافها. وقد وصف الشبلى المحب قائلا: (المحبة كأس لها وهج إن استقرت فى الحواس قتلت، وإن سكنت فى النفوس أسكرت، فهى سكر فى الظاهر ومحبة فى الباطن) [(٢)].

ومرة أخرى يقول: (المحبة بحار بلا شاطئ وليل بلا آخر وهم بلا فرح وعلة بلا طبيب وبلاء بلا صبر ويأس بلا رجاء) إنها قمة المحبة التى تفنى المحب وتأخذه عن نفسه لمحبوبه ، وإن الولى لا يصل إلا بإشراق شمسها فى قلبه، فهى دليله ومنهاجه لذا يقول الشبلى: (صراط الأولياء المحبة) [(٣)] ولكثرة ما بدا على الشبلى من لوائح هذه المحبة مع أنه كان على بسطة فى الجسم فقد قال له أحد أصحابه يا أبا بكر: نراك جسيما بديناً والمحبة تضنى؟ فأنشد قائلا:

أحب قلبى وما درى بدنى ولو درى ما أقام فى السمن [(٤)].

وللإمام الشبلى معراج فى الحقيقة يسمو إلى مراقى يضيق عنها حد العبارة. ولقد عبر عن تلك المراقى السامية فى مقام يسميه الصوفية مقام الاستطالة. حيث يؤذن للولى أن يتحدث بما أنعم الله به عليه. فلقد سئل مرة من أنت؟ فقال: (النقطة التى تحت الباء) [(٥)].

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٤/١ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٩٠/١.
(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٧/١
(٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٩/١
(٤) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٧٠/١٠ - ٢٧١ ، وطبقات الصوفية للسلمى : ص ٣٤٢.
(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٨٩/١.

وهذه العبارة رمز لفنائه فى حقيقة الحقائق التى قامت بها العوالم كلها. ولقد حدث أن العارف الحلاج - وهو من أقرب أصحاب الشبلى وأحبهم إليه - قد صرح فى هذا المقام بمالا تطيقه عقول العامة وأشباههم، فكان من أمره ما كان، وإذا قال العارف الشبلى (كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا إلا أنه أظهر وكتمت). ولقد تحدث الشبلى عن مفهوم التصوف والصوفية فأعطى لهذا المفهوم روحا جيدة من نفس مترعة فى الحب والتحقق. فهو يعرف التصوف قائلا: (هو العصمة عن رؤية الأكوان) أى عن الرؤية القلبية التى يحتجب فيها الإنسان بالكون عن المكون. ثم يقول عن الصوفى: (الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى: (واصطنعتك لنفسى). قطعه عن كل غير ثم قال له: «لن ترانى» [1].

وقيل له : لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: لبقية بقيت عليهم، ولولا ذلك ما تعلقت بهم تسمية. ومرمى عبارته: أن الصوفى حين ينقطع عن نفسه لمولاه لا يتم له هذا الانقطاع تماما إذ يتبقى له جزء من أنيته وحقيقته. وهذا الجزء هو متعلق التسمية ولولاه لكان عدما محضا، والعدم لا تلحقه ألتسمية.

أما عن المنهج الذى سار عليه الإمام الشبلى فى تربية المريدين فهو ينحصر فى التعلق التام والدائم بالله تعالى. فإن صفاء القلب يتعكر بأدنى شاغل عن الله.

ومن صور تطبيق هذا المنهج ما ذكره الإمام الشعرانى من أن العارف الشبلى كان يقول لتلميذه الحصرى وهو فى بداية أمره بالطريق (إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية غير الله فحرام عليك أن تحضرنى) [2] إنها تربية الرجال لولاية الله. فتفريغ القلب من الدنيا هو أول خطوة على طريق الوصول.

يقول الشبلى: (أنا الملك أين الملوك؟ إن الله لم يحتجب عن خلقه إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا) [3] وهو يسائل من ركن بقلبه إلى الدنيا قائلا:

---

(١) انظر : جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ص ١٨٧.
(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٩٠/١.
(٣) انظر الحلية لأبى نعيم : ٣٧٠/١٠.

(كيف يصح لك شيء من التوحيد وكلما ملكت شيئا من الدنيا ملكك وكلما أبصرت شيئا صرت أسيره؟) [1]. وإذا ففلسفة الزهد عند الشبلى إنما هى تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء ، وعندئذ لا يضير الصوفى أن يملك الدنيا بأسرها لأن قلبه ملك لله وحده. ومن أطرف ما يروى عن الشبلى ما يصور نظرته للدنيا أنه كان عنده جماعة من الفقراء فأصابتهم فاقة وشدة، فكتب إلى وزير الخليفة: بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد: وجه لنا شيئا من دنياك. فكتب إليه الوزير على ظهر الرقعة: يا شبلى سل دنياك من مولاك، فكتب إليه الشبلى (إنما الدنيا شيء دنى، ولا يسأل الدنى إلا من الدنى، الدنيا هذه ولك منها عبرة فمن يريد العبرة فهو أقل من العبرة) فوجه إليه الوزير عشرة آلاف درهم.

إن الشبلى لم يكن مقصده فى هذه الواقعة طلب الدنيا لنفسه، وإنما هو طلب حق الفقراء فى مال الأمة. أما هو فما له وللدنيا ، إنه عاكف فى حضرة مولاه يناجيه ويتقرب إليه ويقول: (إلهى إن هربت منك طلبتنى وان قصدتك أتعبتنى فليس لى معك راحة ولا مع غيرك أنس. فالمستغاث منك إليك) [2]. وقال له الإمام الجنيد يوما: (لو رددت أمرك إلى الله لاسترحت) فقال له الشبلى: (يا أبا القاسم لو رد الله إليك أمرك لاسترحت) فقال الجنيد (سيوف الشبلى تقطر دما) [3]. إنه العارف المستغرق مع ربه، وهو القائل: (سهو طرفة عين لأهل المعرفة شرك بالله). عارف يتحدث عن نفسه وعن حاله مع الله. وسئل متى يكون العارف بمشهد من الحق؟ فقال: (إذا بدا الشاهد وفنى الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإحساس).

وقال فى حقيقة الذكر: ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور. وأنشد قائلا:

---

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص ٣٤٧.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للمناوى ١/٥٥٩.

(٣) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى ص ٣٤٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكـــرتك لا أنى نســـيـــتك لمـــحـــة

وأيســـر مـــا فى الذكـــر ذكـــر لســـانى

وكـــدت بلا وجـــد أمـــوت من الهـــوى

وهام على القلب بالخـــفـــقـــان

فلمـــا أرانى الوجـــد أنك حـــاضـــرى

شـــهـــدتك مـــوجـــودا بكل مكان

فـــخـــاطبت مـــوجـــودا بغـــيـــر تكلم

ولاحظت مـــعلومـــا بغـــيـــر عـــيـــان (١).

(وبعد): فلماذا نقول عن إمام فى المعرفة ارتفعت فوق قمة المحبة الإلهية أعلامه. وسرت عبر آماد الدهر أقباس أنواره لتوقد مصابيح القلوب وتحدو ركب السائرين إلى نهاية المطاف. فمهما يخط القلم فلن يجف النبع ولن تتطاول الأعين لكى تحدق فى عين الشمس لتحيط بجوهرها. وإنما هو شعاع من الضوء اقتبسناه لنتطلع إلى أفق ملىء بالنور. فرضى الله عن الإمام الشبلى فى الخالدين ، وجمعنا به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

* * *

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ود. محمود بن الشريف ٢/٤٦٧.

القرن الخامس

[حُجَّــة الإســلام

١ - سيدنا أبو حامد الغزالى رضى الله عنه سنة ٥٠٥ .]

« ٣٠ »

حجة الإسلام:

« سيدنا أبو حامد الغزالى رضى الله عنه »

مجدد القرن الخامس

على الدرب المحمدى سار الصفوة من جنود الله الذين أقامهم الله حجة لحقه على خلقه فغذى قلوبهم بنور معرفته، وأغرق أرواحهم فى بحار محبته. فهم الخواص والندماء، وهم الضنائن الأصفياء الذين سجل لهم فى كتابه الكريم محكم الولاء. وبشر بما لهم عنده من جزيل العطاء. وحسبك من العلم بهم أنهم قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم الله على كل شىء، واستأثر بهم لنفسه شهودا لحضرته ولأسراره وتجلياته. ثم أقامهم فى خلقه شموسا تهدى إليه ودلائل موصلة إلى جنابه الأعلى. فرضى الله عنهم وعنا بهم فى الدنيا ويوم الدين.

على القمة الشامخة من منازل أولئك الخواص العارفين والأئمة المحققين: عَلَمٌ رفعه الله فى علياء منازل المقربين. ورفع ذكره عنده فى أعلى عليين. إنه الإمام العارف زين الدين وحجة الإسلام والمسلمين وحامل لواء الصوفية الواصلين سيدى ومولاى الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ورضى عنه وعنا به وأمدنا منه بالنفحات والبركات والمدد العظيم.

إن الحديث عن الإمام أبى حامد رضى الله عنه - منذ أشرقت شمسه فى منتصف القرن الخامس الهجرى إلى الآن - قد أجهد أقلام الباحثين وأخذ من أفكارهم وتأملاتهم القدر الكبير. ومع هذا فلا تزال شخصية هذا الإمام إلى اليوم فيها من الأبعاد ما هو فوق متناول الأفكار وما هو أبعد من مطامح العقول؛ ذلك لأنها شخصية حملت طابع التفرد من شتى الزوايا والاتجاهات. فالجانب العقلى

عند الإمام الغزالى قد أَعْيَا عقول الباحثين، ومن قبلهم عقول الفلاسفة الذين تهافتوا من حول مصباح فكره.

وفى الجانب العلمى النقلى نجد موسوعية الإمام أبى حامد تستغرق محصلات الفقهاء والمتكلمين والأصوليين وغيرهم بشكل قَلَّما يسمح التاريخ بنظيره. ثم فى الجانب الصوفى: نقف فلا نجد عبارات تحمل المضمون.

بل نقف عند ساحل هذا المحيط الربانى وملء أسماعنا هذا البيت الذى ردده الإمام الغزالى رضى الله عنه:

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أجل .. لا تسأل عن الخبر ، فلست تطيق له حملا. والإخبار عما فوق الطاقة فيه تكليف بالعجز، وكثيرا ما يفضى بالخبر إلى الإنكار والتكذيب. ومن ثم فقد عانى الصوفية الكثير والكثير من عنت المكذبين وسفه المحجوبين لعجزهم عن إدراك ما هم فيه. والسبب يصوره الإمام البوصيرى رضى الله عنه فى قوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى تناولت شخصية الإمام أبى حامد وفكره وفلسفته، وتراثه: فإن الجانب الصوفى عنده لا يزال - وسيظل - بكرا فى مرقاه السامى. وهيهات أن تتطاول إليه الأفهام. ولئن كنا قد ظفرنا بشىء من المعرفة النسبية فيما يتصل بهذا الجانب الصوفى فإنما هو شعاع ضئيل تسرب من خلف الحجب لنستدل به على وجود الشمس وإن لم نكن نراها؛ لأن الحقيقة وقف على أهلها.

ومن ثم فسنحاول أن نفتح نوافذ القلوب لهذا الشعاع تعشقا للنور وتعطشا للمعرفة عسى أن يقودنا الأثر إلى المؤثر.

وإذًا .. فالحديث هنا إنما يستهدف استجلاء الجانب الصوفى عند الإمام أبى حامد محامى الصوفية الأكبر، ناصر قضية التصوف ومؤسس مدرسة صوفية عريقة شيد صرحها من روح هدى الكتاب والسنة فسرى نورها عبر الأزمان يمحق دجى النفوس الآبقة من سيدها، ويهدى خطى السائرين إلى الله تعالى لتستقيم على الدرب وتحظى بالوصول إليه. فلنتعايش مع الجانب التاريخى من شخصية الإمام أبى حامد توصلا للتعرف على النبع الذى يمدنا بالعطاء ولكى يكتمل أمامنا النسق الموضوعى فنستجلى حقيقة المضمون الصوفى.

ولد الإمام أبو حامد محمد الغزالى رضى الله عنه فى (طوس) [1] إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ وكان والده رضى الله عنه من أتقياء الفقراء: وكان له دكان يغزل فيه الصوف ويبيعه بخراسان. وكثيرا ما كان يتردد إلى مجالس الوعاظ والفقهاء ويتأثر بما يسمعه هنا وهناك. حتى أنه كان إذا غشى مجلس الفقهاء سأل الله تعالى أن يرزقه ولداً ويكون فقيها، وإذا حضر مجلس وعظ وتذكير سأل الله تعالى أن يرزقه ولدا ويكون واعظا. وتقبل الله منه دعاءيه فرزقه بابنه أحمد الذى كانت الصم الصلاب تلين عند سماع وعظه وتذكيره، ومنحه محمدا الذى صار حجة الإسلام وأفقه أهل زمانه، لكن المنية عاجلت الوالد الصالح قبل أن يرى ثمرة أمنيته. وقبيل أن يسلم الروح إلى بارئها أوصى بابنيه إلى أخ صوفى صالح له فى الله وقال له: (إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما) [2] وتعهد الأخ الصوفى أبا حامد وأخاه منفذا وصية أبيهما حتى نفد ما خلفه لهما من مال فتعذر عليه أن يباشر بنفسه إتمام تحقيق رغبة أبيهما فقال لهما: (اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما. وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما) [3].

---

(١) ذكر ابن خلكان في : (وفيات الأعيان : ٢١٨/٤ – ٢١٩هـ بتحقيق د. إحسان عباس) أن ولادة الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه سنة خمسين وأربعمائة كانت بالطابران وكذلك كانت وفاته سنة خمس وخمسمائة بظاهر الطابران وهي قصبة (طوس) وإحدى بلدتيها .

(٢) ، (٣) انظر : طبقات الشافعية الكبري للإمام تاج الدين السبكى بتحقيق د. عبد الفتاح الحلو و د. محمود الطناحى : ١٩٣/٦ ، ١٩٤.

وبدأت رحلة النور من منطلقها فى طوس. إذ شرع سيدى محمد فى طلب العلم، فبعد أن حفظ القرآن الكريم ودرس أوليات العلم تفقه على يد الشيخ أحمد الراذكانى، ثم سافر إلى جرجان حيث التقى بالإمام أبى نصر الإسماعيلى وعلق عنه التعليقة ثم عاد إلى طوس [1].

وفى طريق العودة كانت نقطة التحول العلمى فى حياة الإمام. فقد روى الإمام أسعد المهنى عنه أنه قال: (قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتهم فالتفت إلىّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت. فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط فما هى بشىء تنتفعون به. فقال لى: وما هى تعليقتك؟ فقلت: كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلىّ المخلاة - قال الغزالى: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى. فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى) [2] أ . هـ.

لقد صار صدره بعد ذلك هو تعليقته التى لا يقدر العيارون على انتزاعها منه، وصارت حافظته هى كتبه وخزانة علمه. وانفتحت نوافذ العلم أمام الإمام الغزالى لكى تغمره بإشراقاتها وتضىء له الدرب إلى الحقيقة.

ولقد كان شروع أبى حامد وأخيه فى طلب العلم ابتداء - حسب إشارة وصيهما - وإن كان تنفيذا لرغبة والدهما فى قصد العلم لذاته إلا أن الظروف فرضت عليهما فى البدء طلب العلم لتحصيل القوت. ولكن أنوار الحقيقة سرعان ما جذبتهما إلى إخلاص العلم لله وصدق التوجه إلى الله ومن ثم قال الإمام أبو حامد قولته المأثورة : (طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله).

---

(١) المصدر السابق : ١٩٥/٤.
(٢) المصدر السابق ١٩٥/٤

ثم بعد أن حفظ الإمام الغزالى تعليقته عن أبى نصر الإسماعيلى فى مدى ثلاث سنوات قضاها بطوس قدم إلى نيسابور حيث تتلمذ على أستاذ عصره (إمام الحرمين) حيث كان رئيس المدرسة النظامية بنيسابور فتضلع على يديه من شتى بحور العلم حتى بلغ القمة فى علوم الفقه والأصول والكلام وغيرها. وشهدت هذه الفترة من حياة الإمام الغزالى اندلاع ثورة فكرية عارمة هزت أرجاء نفسه ودفعته إلى اقتحام غمار البحث والجدل والاستنباطات بنفس طلعة دءوب، متعطشة للمعرفة.

ولقد سجل تاريخه الفكرى لهذه المرحلة الحاسمة من حياته فى كتابه المنقذ من الضلال، فقال: ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين: أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة [١].

لقد خلع الإمام الغزالى ربقة التقليد ليقف على الحقيقة بنفسه. فصارع أمواج الفكر المتلاطمة، وخاض عباب البحث والمناظرة، واستوعب محصلات

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالى مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى : للدكتور عبد الحليم محمود : ص ٧٠ - ٧١ (الطبعة الخامسة)

العلماء والمفكرين وأعمل ذكاءه الخارق فى كل ما قرأ. فنسج شخصيته العلمية والفكرية على منواله هو، وصار أنظر أهل زمانه ووحيد أقرانه. وشرع فى التصنيف فى حياة أستاذه الجوينى فأذهل العلماء بمؤلفاته. حتى إن شيخه إمام الحرمين حينما اطّلع على كتابه المنخول الذى صنفه فى علم الأصول قال له: (يا بنى، لقد دفنتنى وأنا حى . . هلا صبرت حتى أموت) ؟؟

لقد كان انبهار شيخه به يفوق كل حد. حتى إنه كان يقول فيه: (الغزالى بحر مغرق)[1].

ولكن عبثا فهم البعض ممن كتبوا عن الإمام الغزالى نظرة شيخه إمام الحرمين له حين تألق نجمه فى أفق العلم فنسبوا إليه الغيرة منه. ولبئس ما ظنوا. فليت شعرى كيف تتصور الغيرة فى العلم من عالم تقى صوفى كإمام الحرمين؟؟ ولا أدرى كيف غاب عن أذهان هؤلاء أن نبوغ الابن مفخرة للأب؟ على حين أن بنوة العلم حينما تنشأ فى جو الدين والورع تتضاءل دونها بنوة النسب! ولطالما افتخر إمام الحرمين بابنه الغزالى إمام مدرسته من بعده.

ثم لما انتقل إمام الحرمين إلى جوار ربه سنة ٤٧٨ هـ خرج الإمام الغزالى إلى (المعسكر) وهى محلة بالقرب من نيسابور قاصدا نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ومؤسس مدارس النظامية التى تعد أكبر جامعة علمية لا نظير لها فى الدنيا آنذاك، وكان نظام الملك على علم بمكانة الإمام الغزالى فاستقبله باحتفاء بالغ. وبالإضافة إلى أن نظام الملك كان من أكبر أنصار العلم فقد كان كذلك من أكبر أنصار الصوفية ومحبا للأولياء والزهاد، وكان يغدق عليهم ويقدمهم على الجيش فى النفقات. وقد حدث أن عاتبه الخليفة يوما على ذلك فرد عليه بقوله:

(لقد أقمت لك عبادا بالليل لو صاحوا لزلزلت الدنيا بخصومك ومادت بهم الأرض)[2] !!

(١) انظر: طبقات الشافعية للإمام السبكى (١٩٦/٦) واللفظ فيه . (بحر مغدق).

(٢) انظر: سراج الملوك / ٢٩٧ و الأخلاق عند الغزالى للدكتور زكى مبارك ص ١٦ و : (القشيرى) للدكتور إبراهيم بسيونى ، و (الواحد ومنهجه في التفسير) : رسالة دكتوراة للدكتور جوده محمد المهدى : ص ٢٤ ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

ولقد تألق نجم الإمام الغزالى فى المحافل العلمية التى كانت تعقد فى حضرة نظام الملك بالمعسكر فأبدى فى مجالسه العلمية ومناظراته ومساجلاته العلماء من سعة العلم وعمق النظر والفكر ما أحله المحل الأرفع فى قلب الخاصة والعامة لاسيما الوزير. فعهد إليه التدريس فى بغداد بالمدرسة الميمونية النظامية وذلك سنة ٤٨٤ هـ فأعجب به أهل العراق أيما إعجاب وذاع صيته فى الآفاق حتى لقد كان يحضر مجلسه ثلاثمائة مدرس ومائة من أمراء بغداد، وصار الإمام الغزالى حديث الدنيا بأسرها، وكعبة العلم التى تشد إليها الرحال وصارت تصانيفه ملء السمع والبصر فى مختلف فروع العلم.

ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد أن تربع الإمام الغزالى على القمة وحاز إمامة العراق بعد إمامة خراسان. وأصبح المثل الأعلى للعلماء فى ذلك العصر علما وعقلا وموسوعية واجتهادا؟؟ جاء الامتحان الإلهى .. وأقبلت محنة الشك الأليمة التى عانى منها الإمام أيما معاناة. لقد شك فى كل المدركات الحسية والعقلية وأضحى كل ما ينتجه الحس والعقل ضربا من الوهم الذى لا ينتمى إلى الحقيقة بسبب، وعصفت به أعاصير السفسطة ولم ينقذه منها إلا محض العناية الإلهية. يقول الإمام الغزالى: (فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله صدرى من المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمر ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر. وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة. ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه فى قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [1] قال: هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب. فقيل : وما علامته؟ قال: التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود) وهو الذى قال عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الأنعام : ١٢٥.

فيه: (إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره) (١) فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين، ويجب الترصد له، كما قال عليه الصلاة والسلام: (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها (٢) ، (٣).

وخرج الإمام الغزالى من ظلام الشك إلى نور اليقين. وفى ضوء هذا اليقين الإلهى الوهبى قوّم الإمام معارفه وثقافاته من جديد. فحصر أصناف الطالبين للحقيقة فى أربع فرق هم المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية. ومع هذه الطائفة الأخيرة (طائفة الصوفية) وجد الحقيقة كل الحقيقة. ووجد نفسه بعد أن أنزل الفلسفة من عليائها وهدم بيوت العنكبوت التى اتخذها الفلاسفة حصونا لأنفسهم، وسبر غور علم الكلام فلم يجده وافيا بمقصوده وفضح الباطنية بعد أن كشف سوء بضاعتهم، كل ذلك قد اجتازه الإمام فى رحلة البحث عن الحقيقة، وما أن انتهى إلى التصوف حتى وجد فيه ضالته المنشودة فعكف على علوم الصوفية يفقهها بقلبه ويحس إشراقها فى وجدانه فطالع المأثور من إشارات الإمام الجنيد وسيدى أبى يزيد البسطامى ومصنفات الإمام المحاسبى وأبى طالب المكى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين، وتهيأ الإمام الغزالى للانخراط الكامل فى سلك القوم ودخل حياة قوامها العبودية الصادقة لله تعالى، وانغمس فى محيط النور إلى الأبد.

وهنالك حدثت نقطة التحول الروحية إذ انجذب الإمام أبو حامد إلى نداء الروح وتحرر من دواعى الدنيا من شهرة وجاه ومال إلى دواعى الآخرة. أو بالأحرى إلى داعى الحضرة الإلهية. فتجرد من تلك العلائق الدنيوية وعقد العزم على السير إلى الله تعالى على جناح الاضطرار. لقد جذبته الحضرة من نفسه فوجد نفسه معتقلا عن التدريس معقود اللسان محزون القلب مسلوب القوى والإرادة فلم يملك إلا الفرار من نفسه إلى الله وسلك طريق الزهد والتأله. وارتحل إلى بلاد الشام

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى - وحسنه - انظر : الجامع الكبير للحافظ السيوطى : ١٦٧/١.

(٢) رواه الطبرانى عن محمد بن مسلمة ، انظر التخريج في الفتح الكبير للإمام النبهانى ٤٠٣/١.

(٣) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالى : نشرة الدكتور عبد الحليم محمود (الخامسة) ٧٥ - ٧٦.

فأقام فيها قريبا من سنتين - كما قال فى المنقذ - لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة وتصفية القلب بذكر الله تعالى [1].

فكان يصعد منارة مسجد دمشق ويغلق بابها على نفسه كى يخلو إلى ربه ويغلق باب قلبه على ذكره ويسبح بروحه فى ملكوت الله مع الله وبالله. ثم هكذا كان الشأن حين ارتحل إلى بيت المقدس، يدخل كل يوم قبة الصخرة ويغلق بابها على نفسه ليتحنث لربه مناجيا ومتأملا ومشاهدا ومستغرقا. وفى هذا الجو الروحانى النورانى شرع يراعه فى تدبيج سفره الخالد (إحياء علوم الدين) الذى قال فيه الإمام النووى رضى الله عنه: (كاد الإحياء أن يكون قرآنا)[2].

وكان الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يوصى مريديه بقراءته ويقول: (كتاب الإحياء يورثك العلم) [3].

وواضح من تسمية الكتاب أنه يرمى من وراء تأليفه إلى إحياء الدين بإحياء علومه والدعوة الصادقة المخلصة إلى الله تعالى. ومن ثم انعقد إجماع الأئمة والعلماء على أن الإمام الغزالى هو مجدد القرن الخامس [4].

فهو الركن الثالث فى المذهب الأشعرى وهو مجدد مذهب الإمام الشافعى - رضى الله عنه - فى الفقه ثم هو حجة الإسلام الزائد عن حماه غارات الإلحاد والفلسفة المضللة.

ثم لقد كان طابع هذه الفترة التى أعقبت ذهابه إلى الشام هو العزلة والتجرد والتحنث والتعبد ثم السياحة فى بلاد الله حيث كان يطوف على المشاهد

---

(١) المصدر الأخير : ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) انظر : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء - بهامش كتاب إحياء علوم الدين - للشيخ عبد القادر العيدروس . (١٥/١ط / العثمانية (الأولى)).

(٣) (٤) انظر المصدر الأخير (٣٤/١) ففيه نص الحافظ ابن عساكر على أن الإمام أبا حامد الغزالى رضى الله عنه هو المبعوث على رأس المائة الخامسة لتجديد الدين . كما ذكره الحافظ السيوطى رضي الله عنه في مجددي القرون في أرجوزته حيث قال : - والخامس الحبر هو الغزالى وعده ما فيه من جدال.
وانظر : (أتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) للعلامة السيد محمد مرتضى الزبيدى ٢٦/١.

والمزارات. يذهب إلى قبور الصالحين يزورهم ويتبرك بهم ويأوى إلى المساجد والقفار، فطاف ببقاع عديدة ومن بينها مدينة الخليل حيث زار مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم. ثم تحركت فيه دواعى الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة والتشرف بزيارة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك حوالى سنة ٤٨٩ هـ حيث عاد بعدها إلى بلاده وقد خلعت عليه خلع الوصول، وحاز غاية المأمول.

ولنتوقف الآن عند هذه النقطة لنسبر غور الجانب الصوفى وندرس أبعاد الخلفية الصوفية التى تكمن وراء الإمام أبى حامد حجة الإسلام وقاهر الفلاسفة ومجدد المذهب الشافعى فى الفقه وإمام المتكلمين وأستاذ الأصوليين إلى غير ذلك مما قطع أنفاس الباحثين عن جوانب العبقرية الفذة الفكرية والعلمية عند هذا الإمام.

إن هذه الخلفية التى أعنيها هى بعينها المنطلق الذى نستطيع أن نرتب عليه دعوى (حقية التصوف) ونبرهن عليها بالإمام نفسه. ومن ثم فنحن نعتبر الإمام الغزالى هو حجة التصوف من خلال كونه حجة الإسلام.

فما التصوف إلا سنام الإسلام وذروته. إنه الإحساس الذى يرتفع فوق صرحى الإيمان والإسلام. ولقدحظى التصوف بالإمام الغزالى كما حظى هو به. إذ وجد فيه المحامى الأكبر والنصير الأكفأ. فما بنى الإمام تصوفه إلا بعد إمامته وتفرده فى شتى ميادين العلم والبحث.

أجل .. ما بناه إلا على أنقاض الفلسفة فى أعتى عنفوانها، وما بناه إلا على إمامته فى الفقه والأصول وأستاذيته المجمع عليها فى المعقول والمنقول.

ولنتساءل عن بداية الخلفية الصوفية عند الإمام الغزالى رضى الله عنه.

وهذا التساؤل يفرض علينا التعرف على شيوخه فى الطريق، ولاشك أنه التقى بصوفية عديدين كما يتضح من مؤلفاته. ولكننا نراه يصرح بأنه تربى على يد

شيخين جليلين من أقطاب التصوف هما: سيدى أبو على الفارمدى - أحد شيوخ النقشبندية العظام الراسخين فى التحقيق - وسيدى يوسف النساج.

وفيما يتعلق بشيخه النساج يطيب لنا أن نروى تلك الواقعة التى ذكرها الشيخ الزبيدى فى شرح الإحياء. إذ روى عن قطب الدين محمد بن الإربيلى قال: قال حجة الإسلام: كنت فى بداية أمرى منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخى يوسف النساج بطوس فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات. فرأيت الله فى المنام فقال لى يا أبا حامد. قلت: إن الشيطان يكلمنى. قال: لا. بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: يا أبا حامد: ذر مساطرك واصحب أقواما جعلتهم فى أرضى محل نظرى، وهم الذين باعوا الدارين بحبى. فقلت: بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بهم. فقال: قد فعلت. والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسى، ففز ونل. فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت إلى شيخى يوسف النساج، فقصصت عليه المنام فتبسم، قال: يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية محوناها بأرجلنا. بل إن صحبتنى سيكحل بصر بصيرتك بإثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد مالا تدركه الأبصار فتصفو من كدر طبيعتك، وترقى على طور عقلك، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى (إنى أنا الله رب العالمين) (١) أ . هـ .

ثم فيما يتعلق بشيخه أبى على الفارمدى يروى لنا معاصره عبد الغافر الفارسى خطيب نيسابور الأحداث التى أعقبت رحلة الشك .. وانتهت باليقين وسلوك طريق التأله فيقول: (فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة وامتثل ما كان يشير عليه من القيام بوظائف العبادات والإدمان فى النوافل واستدامة الأذكار والجد والاجتهاد طلبا للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات، وتكلف تلك المشاق وتحصل على ما كان يطلبه من مقصوده) (٢).

(١) انظر: اتحاف السادة المتقين للسيد المرتضى الزبيدى ٩/١.

(٢) المصدر السابق عينه .

وإذاً فقد استقى الإمام الغزالى من نبعى شيخيه النساج والفارمدى زاد النور ومضى على قدم التحقيق حتى وصل إلى نهاية الطريق. وهل ثم إلا الله ؟؟؟ ثم بعد رحلة الوصول يصف لنا حجة الإسلام والصوفية طريق التصوف بلسان الذائق المتحقق فيقول فى كتابه المنقذ من الضلال:

(والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبس من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة: فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها - وهى أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله ؟؟ (١).

ثم يقول: ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يرتفع الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه .. إلى أن يقول: بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالى : نشرة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٢٨ - ١٢٩.

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيء بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء - على التحقيق - هى بدايات الأنبياء. وكان ذلك أول حال رسول الله - عليه السلام - حيث تبتل حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب: «إن محمدا عشق ربه». وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها (١) أ . هـ.

وأما عن مقام الإمام العارف سيدى أبى حامد فى طريق القوم ومنزلته الصوفية: فلقد درجنا فى مقالاتنا الصوفية على أن نقر بالعجز عن معرفة منازل هؤلاء الأقطاب العظام من أمثال الإمام الغزالى ودرجاتهم فى التحقيق نظرا لبعد الشقة بيننا وبينهم.

ولكننا فى الوقت نفسه قد التزمنا أن نذكر ما نجده من عبارات تقربنا من معرفتهم وهى العبارات التى يتحدث بها الصفوة من الأولياء عن ذويهم من الأقطاب الأصفياء.وأن ما بأيدينا الآن من تلك الإشارات والعبارات التى قيلت عن الإمام الغزالى لتضعه فى صدارة أئمة الصوفية وأقطابهم الشوامخ العظام.

وحسبنا علما بحقيقة مقامه أن الإمام العارف سيدى أبا العباس المرسى رضى الله عنه قد قال فى حقه: (إنا لنشهد له بالصديقية العظمى) (٢).

.بل لقد روى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال لأصحابه يوما: (إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه) (٣).

وناهيك بشهادة الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه إذ قال: (حجة الإسلام الغزالى من رؤساء أهل الطريق) (٤).

ولقد ذكر الإمام محيى الدين بن عربى عن نفسه أنه كان يقرأ كتاب الإحياء فى المسجد الحرام تجاه الكعبة الشريفة

---

(١) المصدر الأخير: ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ٧٠٤/١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

(٥) المصدر الأخير نفسه: ٧٠٦/١.

وذكر العارف المناوى فى طبقاته أن الإمام الشاذلى رضوان الله عليه قال: (رأيت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام باهى موسى وعيسى عليهما السلام بالغزالى رضى الله عنه وقال: هل فى أمتكما مثله؟ قالا: لا.

وقد شهد الإمام المناوى للإمام الغزالى بالقطبية حيث قال: (وراض نفسه وجاهدها جهاد الأبرار حتى صار قطب الوجود) (١).

وللإمام الغزالى - رضى الله تعالى عنه - عنا به - أقوال مضيئة مأثورة: نقتطف منها ما يلى:

★ يقول عليه الرضوان: (من ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى له الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها: السموات والأرض) (٢).

★ وقال: (جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر) (٣).

★ وقال: (إن لله سبعين حجاباً من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب منها فى الطريق إلا ظن أنه وصل، وأول حجاب بين الله وبين العبد: نفسه، فإنه أمر ربانى، وهو نور من أنوار الله) (٤).

ولسوف نختتم حديثنا عن القطب الغزالى حجة الإسلام والصوفية بهذه الكرامة التى رواها العارف النبهانى فى جامع الكرامات وذكرها الإمام المناوى فى طبقاته إذ قال: (ومن كراماته ما خرجه اليافعى عن ابن الميلق عن العرشى عن المرسى عن الشاذلى عن الشيخ ابن حرازم أنه خرج على أصحابه ومعه كتاب. فقال: أتعرفونه؟ قالوا: هذا الإحياء. وكان الشيخ المذكور يطعن فى الغزالى وينهى عن قراءة الإحياء، فكشف لهم عن جسمه فإذا هو مضروب بالسياط، وقال: أتانى الغزالى فى النوم ودعانى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما وقفنا بين

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد حمدان ك ٧٠٥/١.
(٢)، (٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر نفسه: ٧٠٨/١.

يديه قال: يا رسول الله: هذا يزعم أنى أقول عليك ما لم تقل. فأمر بضربى فضربت)[1] أ . هـ.

إنه الإمام الغزالى الصديق الذى لا يبرح حضرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والذى باهى النبى به الأنبياء. فمهما قلنا فيه فالمدح منا له قدح لأننا لم نقف على كنه منزلته وحسبنا من الإدراك العجز عن الإدراك.

أما بعد: فمعذرة منى إليك يا حجة الإسلام إذ جاوزت قدرى بالحديث عنك. فما دفعنى للاقتراب من ساحلك إلا تعطشى للاغتراف من مددك، وما ساقنى للتحدث عنك إلا فرط حبى لك، فلقد كنت وما زلت وستظل نصرا للإسلام وللصوفية. أسأل الله العلى القدير أن يفيض علينا من بركاتكم فى الدنيا والآخرة وأن يمدنا بمددكم ويحشرنا فى معيتكم فى زمرة عباده المقربين.

* * *

---

(١) انظر مع المصدر السابق (٦/١ ٧٠) : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ١/ ١٨٠ ط/ الحلبى (الثانية).

من أولياء القرن السادس

١ - سيـــدى عبد القــادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه سنة ٥٦١ هـ .
٢ - سيـــدى أحمد الرفـــاعى رضى الله تعالى عنـــه سنة١٥٧٨هـ.
٣ - سيـــدى أبو مدين المغربى رضى الله تعـــالى عنه سنة ٥٨٠ هـ .
٤ - سيـــدى عبد الرحيم القنائى رضى الله تعـــالى عنه سنة ٥٩٢ هـ .

« ٣١ »

القطب الربانى

«سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه»

من دنان المحبة الإلهية ارتوى صفوة الأولياء العارفين الذين تجردت نفوسهم لله، وتحررت أرواحهم من رق ما سوى الله، فأديرت عليهم كاسات رحيق المشاهدة، ووصلوا إلى حق اليقين، واستغرقوا فى عين الجمع متحققين بأسمى مراتب الاصطفاء والخصوصية. إنهم شموس الحق الباهرة التى تغذى هذا العالم بالضياء وتجذب الخلق إلى محيط النور والصفاء. رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ومن أئمة أولئك الأقطاب العارفين والأولياء المقربين: الغوث الأعظم تاج المحققين، وكعبة الواصلين، إمام الأولياء، وقدوة العارفين الأصفياء. القطب الربانى سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه وأمدنا منه بالمدد الأعلى فى الدارين.

إمام تناهت إليه رئاسة التصوف فى عصره، وشرب العارفون من رحيق سره. وقطب حاز مقام الاستطالة على أولياء زمانه طرا ، فأذعن له أقطاب الولاية جمعا وقدموه ليحمل لواء الحقيقة ويقود ركب السائرين إلى جناب رب العالمين. والإمام عبد القادر رضى الله عنه متفرع فى النسب من الدوحة النبوية الشريفة. إذ إنه حسنى الأب حسينى الأم.

فهو الإمام محيى الدين أبو صالح سيدى عبد القادر بن موسى بن أبى عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن مولانا الإمام الحسن سبط الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأما والدته: فهى السيدة فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعى الحسينى الزاهد الذى ينتهى نسبه إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين [1].

ولقد ولد سيدى عبد القادر سنة سبعين وأربعمائة [2] هـ ، بجيل - التى إليها نسبته - وهى بلاد متفرقة من وراء طبرستان. ويقال لها أيضا جيلان وكيلان كما ذكر صاحب شذرات الذهب [3] .

وروى صاحب جامع الأصول مثل ذلك عن أبى الفضل أحمد بن صالح الحنبلى، وأضاف إليه أن سيدى عبد القادر دخل بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وله ثمان عشرة سنة. وقد عاش القطب الجيلانى إحدى وتسعين سنة حيث توفى ودفن ببغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة هـ .

ولقد بدأت حياة القطب الجيلانى تشع بالنور منذ فجر ميلاده وتعلن للدنيا قدوم ولى وإمام ستذعن له رقاب الأولياء، وسيغمر نوره الأرجاء. فيروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته فاتحة الكرامات قائلا: (وحكى عن أمه رضى الله عنها - وكان لها قدم فى الطريق - أنها قالت لما وضعت : ولدى عبد القادر كان لا يرضع ثديه فى نهار رمضان. ولقد غم على الناس هلال رمضان فأتونى وسألونى عنه فقلت لهم: إنه لم يلتقم اليوم له ثديا. ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان، واشتهر ببلدنا فى ذلك الوقت أنه ولد للأشراف ولد لا يرضع فى نهار رمضان) [4].

---

(١) انظر النسب الشريف لسيدى عبد القادر - أبا وأما - فى: (قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر) للعلامة محمد بن يحيى التاذفى الحلبى: ص/٣ وقد ذكر فيه أن والدته حملت به وهى بنت ستين سنة (!!) وقد قيل: لا تحمل لستين سنة إلا قرشية، ولا يحمل لخمسين إلا عربية.

(٢) ذكر الحافظ الذهبى فى ترجمة سيدى عبد القادر من (سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٤٣٩) أن مولده بجيلان فى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، والتاريخ المذكور أعلاه فى (قلائد الجواهر ص/٣) حيث ذكر أنه قدم بغداد سنة ٤٨٨ هـ وعمره ثمان عشرة سنة.

(٣) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٤/ ١٩٨.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ١٠٨.

لقد احتضنت العناية سيدى عبد القادر فنزل من بطن أمه صائما عن الدنيا.

وبدأ موكب النور وهللت البشائر بمقدم قطب الزمان. ومنذ الوهلة الأولى أخذت حياة سيدى عبد القادر مسارها النورانى الاصطفائى، فقد كانت العناية تعده لأداء أسمى رسالة ، وهى حمل لواء الولاية ومشعل الهداية ليقود ركب السالكين وليؤم صفوف الواصلين، وكانت البداية بالتفقه فى الدين والنهل من محيط المعرفة. فأقبل سيدى عبد القادر على شتى العلوم والمعارف يقتات منها ويسبر أغوارها بذكائه الخارق ودأبه المتواصل. وسرعان ما اكتملت له موسوعية المعرفة والتبحر فى علوم الشريعة خاصة بصورة أذهلت عقول أقرانه، فطارت شهرته فى مختلف الأرجاء، وشدت إليه الرحال فى بغداد تستقى من فيوضاته العلمية النادرة.

وعن تلك الصورة العلمية عند الإمام عبد القادر يحدثنا الإمام الشعرانى فى طبقاته فيقول: (وكان رضى الله عنه يتكلم فى ثلاثة عشر علما، وكانوا يقرءون عليه فى مدرسته درسا من التفسير ودرسا من الحديث، ودرسا من المذهب، ودرسا من الخلاف، وكانوا يقرءون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف، والأصول والنحو، وكان رضى الله عنه يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر. وكان يفتى على مذهبى الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب فيقولون سبحان من أنعم عليه..) [1].

وهكذا أخذ الإمام عبد القادر طريقه فى العلوم نحو القمة حتى تربع وصار نسيج وحده.

ولقد روى صاحب نور الأبصار عن ابن الحاج أنه قال فى شرح رسالة ابن باديس: إن الشيخ أبا الفرج بن الجوزى حضر يوما مجلس سيدى عبد القادر، ففسر الشيخ عبد القادر آية وذكر فيها وجوها، وإلى جانب الشيخ أبى الفرج من يسأله: أتعرف هذا القول؟ فيقول : نعم. إلى أن بلغ أحد عشر يعرفها أبو الفرج. ثم زاد

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٠٨ - ١٠٩.

الشيخ حتى انتهى إلى أربعين وجها وعزا كل وجه إلى قائله. فاشتد تعجب أبى الفرج من كثرة علم الشيخ، ثم قال: نترك المقال ونرجع للأحوال. لا إله إلا الله محمد رسول الله. فاضطرب الناس اضطرابا شديدا ، ومزق أبو الفرج ثوبه. اهـ. إنه علم أهل الله، ومفتاحه (واتقوا الله ويعلمكم الله)[1] .

ومن هنا تتحدد معالم الجانب السلوكى عند سيدى عبد القادر. الذى حرص بكل وجدانه على اقتحام عقبات الطريق والمضى نحو غاية وهب لها حياته. إنها الوصول إلى الله. فكان الجانب السلوكى عند العارف الجيلانى فى بدايته حافلا بالمجاهدات. وأى مجاهدات !!

يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى عبد القادر كان يقول: (قاسيت الأهوال فى بدايتى فما تركت هولا إلا ركبته، وكان لباسى جبة صوف، وعلى رأسى خريقة ، وكنت أمشى حافيا فى الشوك وغيره، وكنت أقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطئ النهر. ولم أزل آخذ نفسى بالمجاهدات حتى طرقنى من الله تعالى الحال. فإذا طرقنى صرخت وهمت على وجهى سواء كنت فى صحراء أو بين الناس، وكنت أتظاهر بالتخارس والجنون، وحملت إلى البيمارستان، وطرقتنى مرة الأحوال حتى مت وجاءوا بالكفن والغاسل، وجعلونى على المغتسل ليغسلونى ثم سرى عنى وقمت)[2] !!

إنها فترة الجهاد النفسى للتحرر من ربقة الإنية والتخلص من أسر الترابية التى تحجب القلب عن إشراقات عالم القدس.

إنها فترة حافلة بالانصهار فى بوتقة الجهاد لتصفية الجوهر من التراب والأوشاب.

لقد سلك سيدى عبد القادر طريقا شاقا مليئا بالعقبات، وتحمل فيه مالا يحتمل؛ لأنه أقرب الطرق إلى الوصول. يقول رضى الله عنه:

---

(١) سورة البقرة . ٢٨٢.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٠٨.

(أقمت فى صحراء العراق وخرائبه خمسا وعشرين سنة مجردا سائحا لا أعرف الخلق ولا يعرفوننى، يأتينى طوائف من رجال الغيب والجان أعلمهم الطريق إلى الله عز وجل، ورافقنى الخضر عليه السلام فى أول دخولى العراق وما كنت عرفته، وشرط لى ألا أخالفه، وقال لى : اقعد هنا . فجلست فى الموضع الذى أقعدنى فيه ثلاث سنين يأتينى كل سنة مرة ويقول لى: مكانك حتى آتيك..) [1].

وواصل الإمام عبد القادر طريقه إلى الله بقلب ملأه الحب والشوق والخشية، والإجلال، ومع كل خطوة تزداد الإشراقات سطوعا واتساعا، ويزداد القلب عكوفا بباب المولى عز وجل فى محراب العبودية الخالصة، وتمتزج نبضات القلب بتسبيحات صاعدة إلى السماء، والروح سابحة فى خضم من الأنوار تحث الخطى سيرا إلى مولاها . إنها حياة الساجدين لربهم على بساط القرب يعبدونه عبادة الأحرار لا طمعا فى جنة ولا خوفا من نار.

ولقد كانت عبادات العارف الجيلانى لها نهجها السامى وطابعها المتفرد الذى لا ترقى إليه الهمم ولا تتطاول إليه العزائم. يقول الشيخ أبو الفتح الهروى: (خدمت الشيخ عبد القادر - رضى الله عنه - أربعين سنة. فكان فى مدتها يصلى الصبح بوضوء العشاء ، وكان كلما أحدث جدد فى وقته وضوءه ثم يصلى ركعتين، وكان يصلى العشاء ويدخل خلوته ولا يمكن أحدا أن يدخلها معه فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر. - قال الهروى - : وبت عنده ليلة فرأيته يصلى أول الليل يسيرا ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضى الثلث الأول، يقول: المحيط الرب الشهيد الحسيب الفعال الخلاق الخالق البارئ المصور. فتتضاءل جثته مرة وتعظم أخرى، ويرتفع فى الهواء إلى أن يغيب عن بصرى مرة ثم يصلى قائما على قدميه يتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثانى، وكان يطيل سجوده جدا ثم يجلس متوجها مشاهدا مراقبا إلى قريب طلوع الفجر. ثم يأخذ فى الدعاء والابتهال والتذلل

---

(١) انظر قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر للشيخ محمد بن يحيى التاذفى ص/١٠ . وانظر أيضا: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى: ١/ ١١٠.

ويغشاه نور يكاد يخطف بالأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر. - قال - وكنت أسمع عنده: سلام عليكم سلام عليكم وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر) (١).

هذا هو ليل العارفين، وتلك هى حياة الأوّابين القانتين، وهذا هو فتح الأبرار المتقين. لقد كان سيدى عبد القادر يهب نفسه وروحه لله فى كل نفس ويتضرع فيقول: (يارب: كيف أهدى إليك روحى وقد صح بالبرهان أن الكل لك) (٢) !!

ولقد كانت فلسفة الإمام الجيلانى فى عباداته ومجاهداته متمثلة فى هذه الحكمة المضيئة التى أرسلها من ذات نفسه ومن وحى تجربته ليعمل بها أتباعه ومريدوه: (كلما جاهدت النفس فى الطاعة حييت، وكلما أكرمتها ولم تهنها فى رضاه ماتت.) وهذا معنى خبر (رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (٣).

ولقد وصل العارف سيدى عبد القادر إلى قمة المنازل التى يرنو إليها العارفون المتحققون، والأقطاب الواصلون. فحاز الإمامة الكبرى على الأولياء، وانفرد بمقام لا يكون فى العصر إلا لواحد هو جوهرة ذلك العصر ودرته الفريدة. فقد أجمعت الأمة على قطبيته وغوثيته وعلى إحلاله المحل الأرفع فى الولاية. كما أنه متفرد عن جميع أولياء عصره بمقام يسمى (مقام الاستطالة) أو: مقام الاستطاعة. ولقد وصف القطب العارف سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى فى كتابه (جامع الأصول) هذا المقام وهو بصدد ذكر أنواع الأولياء والمتصوفين فقال: (ومنها واحد يسمى رجل الاستطاعة، ويعطيه الله قدرة كاملة على كل شىء. فهو ذكى الفؤاد وشجاع ومقدام، وكبير الدعوى بالحق لا بالنفس، ولذا يحكم بالعدل، وله كرامات، وليس خاصا بالرجال وعلى هذا المقام عبد القادر الجيلانى) (٤) .

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٠٨.

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٦٨١ وحديث (رجعنا من الجهاد الأصغر .... إلخ) رواه البيهقى والخطيب بسند ضعيف عن سيدنا جابر رضى الله عنه (انظر كشف الخفاء جـ١ ص/ ٥١١).

(٤) انظر جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى - شيخ جدى وشيخى الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سرهما: ص ٧٦ط / الحلبى.

ولقد روت كتب الصوفية - من طرق كثيرة - عن كبار أئمة التصوف أن سيدى عبد القادر رضى الله عنه قال فى مجلسه ببغداد وهو على الكرسى يتكلم على الناس (قدمى هذه على رقبة كل ولى لله) . وكان فى مجلسه آنذاك عامة مشايخ العراق وروى أنهم كانوا نيفا وخمسين شيخا منهم الشيخ ابو النجيب السهروردى والشيخ قضيب البان الموصلى، والشيخ أبو السعود العطار وغيرهم. فأجمع أقطاب الصوفية على أنه لم يبق أحد من الأولياء فى ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين فى جميع آفاق الأرض إلا حنا له رقبته. إلا رجل بأصبهان فإنه لم يفعل فسلب حاله. ولقد روى ذلك الإمام اليافعى فى (نشر المحاسن الغالية) ثم أضاف إليه قائلا: (وكان من جملة من حنا له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوى، والشيخ أحمد بن أبى الحسين الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين. فأما سيدى أحمد: فرووا عنه أنه كان جالسا يوما برواقه بأم عبيد فمد عنقه وقال: على رقبتى. وفى رواية أنه قال: وحميد منهم. فسئل عن ذلك فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. وأما الشيخ أبو مدين: فرووا أنه حنا رأسه يوما وهو بين أصحابه وقال وأنا منهم، اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك أنى سمعت وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك فقال: قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. فأرخوا ذلك وهم بالمغرب ثم جاء المسافرون من العراق فأخبروا أن الشيخ عبد القادر قال ذلك فى ذلك الوقت الذى أرخوه. وأما الشيخ عبد الرحيم فرووا أنه مد عنقه يوما بقناء وقال: صدق الصادق الصدوق. فقيل له ومن هو: فقال الشيخ عبد القادر قد قال : قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. وتواضع له رجال المشرق والمغرب فأرخوا ذلك الوقت ثم جاء الخبر بذلك فى ذلك الوقت) أهـ [1].

ولقد روى الإمام اليافعى أيضا أن أحد العارفين المعاصرين لسيدى عبد

---

(١) انظر: قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر للعارف التاذفى: ص ٢٢ - ٢٦.

القادر وهو الشيخ (مكارم) رضى الله عنه قال: (أشهدنى الله عز وجل أنه لم يبق أحد ممن عقد له لواء الولاية فى أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولا بين يدى الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف العام النافذ فى الوجود وأهله ولاية وعزلا معلمة بطرازى الشريعة والحقيقة وسمعه يقول: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. ووضع رأسه وكذلك قلبه فى وقت واحد) ثم لقد سجل صاحب (نشر المحاسن الغالية) هذه الرؤيا العظيمة لأحد العارفين المعاصرين لسيدى عبد القادر وهو الشيخ خليفة حيث قال : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقلت : له : يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. فقال: صدق الشيخ عبد القادر. وكيف لا وهو القطب وأنا أرعاه) (١).

وليت شعرى ماذا يسجل القلم فى مضمون قول مولانا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - عن سيدى عبد القادر (وأنا أرعاه)؟ إنها التربية المحمدية والوراثة النبوية التى لا يحظى بها إلا صفوة هذه الأمة. ويؤكد ذلك ما روى فى (الفيوضات الربانية) من أن العارف شهاب الدين السهروردى قال: سمعت الشيخ محيى الدين عبد القادر يقول على الكرسى بمدرسته: (كل ولى على قدم نبى، وأنا على قدم جدى - محمد صلى الله عليه وسلم - وما رفع المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قدما إلا وضعت قدمى فى الموضع الذى رفع قدمه منه ، إلا أن يكون قدما من أقدام النبوة فإنه لا سبيل أن يناله غير نبى) (٢).

وإلى جانب أخذ سيدى عبد القادر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مباشرة فقد تلقى الخرقة أيضا عن شيخه العارف: أبى سعيد المخزومى وهو عن شيخه أبى الحسن الهكارى عن أبى الفرج الطرسوسى عن أبى الفضل التميمى عن سيدى أبى بكر الشبلى عن سيد الطائفة الإمام الجنيد عن شيخه السرى عن سيدى معروف الكرخى عن سيدى داود الطائى عن سيدى حبيب العجمى عن الإمام

(١) انظر: قلائد الجواهر ص ٢٥.

(٢) الفيوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية للشيخ إسماعيل القادرى ص ٨٥: ط الحلبى.

الحسن البصرى عن باب مدينة العلم سيدنا ومولانا الإمام على كرم الله وجهه عن سيد الخلق ورحمة العالمين صلوات الله وسلامه عليه [١].

ولقد أسس الإمام طريقته القادرية العلية على منهاج الكتاب والسنة وتربى فيها أئمة وأقطاب قادوا الخلق إلى الله تعالى وسرت أنوارهم تضىء ساحات القلوب وتهدى قوافل السائرين.

ولطريقة سيدى عبد القادر معراجها فى التحقق ومشربها فى العرفان والتذوق. ولقد أوضح ذلك معاصروه من كبار العارفين. فيقول الشيخ على بن الهيتى (كان قدمه - أى سيدى عبد القادر - على التفويض والموافقة من التبرى من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور فى موقف العبودية لا بشىء ولا لشىء) [٢].

أما الشيخ عدى بن مسافر فيقول: (كان الشيخ عبد القادر رضى الله عنه طريقته الذبول تحت مجارى الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضرر والقرب والبعد) [٣] وهذا هو الشيخ (بقاء بن بطو) أحد أكابر الصديقين المعاصرين للقطب الجيلى يقول: (كان طريق الشيخ عبد القادر رضى الله عنه: اتحاد القول والفعل والنفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسنة فى كل نفس وخطرة ووارد، وحال الثبوت مع الله عز وجل) [٤].

ثم يقول فى رواية أخرى: (كانت قوة الشيخ عبد القادر رضى الله عنه فى طريقه إلى ربه: كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوما، وكانت طريقته التوحيد وصفا وحكما وحالا، وتحقيق الشرع ظاهرا وباطنا. ووصفه: قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسر لا تنازعه الأغيار، وقلب لا تفارقه البقايا رضى الله عنه) [٥].

---

(١) انظر: قلائد الجواهر: ص/ ٤.

(٢) (٣) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٠٩.

(٤)، (٥) المصدر السابق: ١/ ١٠٩ - ١١٠.

إنها جوانب الطريق القادرى يصفها صفوة ذائقون، وأئمة محققون تكشفت لهم معالم الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

ولقد كان هدى الكتاب والسنة، ونور الشريعة الغراء دليلا واضحا أمام القطب الجيلانى لا يغيب عن ناظره طرفة عين فكان فى تمسكه بالشريعة مثلا أعلى يدحض افتراءات أعداء التصوف الحانقين على أهله بدعاواهم المتهافتة. يقول سيدى عبد القادر: (تراءى لى نور عظيم ملأ الأفق، ثم تدلى فيه صورة تنادينى: يا عبد القادر: أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات. فقلت اخسأ يالعين. فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان. ثم خاطبنى: يا عبد القادر، نجوت منى بعلمك بأمر ربك وفقهك فى أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق. فقلت: لله الفضل - فقيل لسيدى عبد القادر: كيف علمت أنه شيطان؟ قال بقوله: قد حللت لك المحرمات) [1].

إن سيدى عبد القادر ممن قال تعالى - لإبليس - فى حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) [2].

ولقد كان سيدى عبد القادر يوصى أبناءه ومريديه قائلا: (أتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الذكر ولا تفرقوا، وتطهروا عن الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا) [3].

ولقد كان رضوان الله عليه يقول: (إنما كلامى على رجال من وراء جبل قاف. أقدامهم فى الهواء وقلوبهم فى حضرة القدس تكاد قلوبهم تحترق من شدة شوقهم إلى ربهم) [4].

---

(١) انظر المصدر نفسه، وانظر: الكواكب الدرية للعارف المناوى: ١/ ٦٧٨.
(٢) سورة الحجر/ ٤٢.
(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١١٠ - ١١١.
(٤) الكواكب الدرية للعارف المناوى: ١/ ٦٨١.

ولقد سار على درب سيدى عبد القادر الجيلانى فى كل عصر نخبة من أهل العناية وارثون لمدده، متحققون بمناقبه. ومن أولئك الأقطاب العارفين الذين شرف بهم هذا العصر: جدى وشيخى مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره. فلقد قال له أحد العارفين - وهو الشيخ الترمذى - (إن أحد الأكابر رآك وسيدى عبد القادر فى مقام واحد لا فرق فى ذلك بينكما وهذه أمانة أسلمها إليك) (١) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما عن كرامات القطب الجيلانى فإنها لا تسعها مجلدات. فلنتبرك بذكر طرف يسير منها: يقول الإمام المناوى فى طبقاته عن سيدى عبد القادر: (واجتمع له ببغداد مائة من أكابر الفقهاء وأتوه لامتحانه. فظهرت منه بارقة من نور مرت على صدورهم، فصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم فصعد الكرسى وأجاب عن جميع ما عندهم) (٢) !!

وذكر أيضا أن الذباب كان لا يصيبه وراثة من جده المصطفى - صلى الله عليه وسلم - (٣).

وذكر الإمام الشعرانى من كراماته أنه توضأ يوما فبال عليه عصفور فرفع رأسه إليه وهو طائر فوقع ميتا فغسل الثوب ثم باعه وتصدق بثمنه وقال: هذا بهذا (٤).

ومنها أنه أتاه بعض الرافضة بقفتين مخيطتين وقالوا : قل لنا ما فيها. فوضع يده على إحداهما وقال: فى هذه صبى مقعد. ففتحت فإذا فيها ذلك. فأمسك يده وقال قم فقام يعدو ، ثم وضع يده على الأخرى وقال فيها صبى لا عاهة به ففتحت فإذا فيها ذلك فأمسك بناصيته وقال له اقعد فأقعد. فتابوا عن الرفض، ومات فى مجلسه يومئذ من الحاضرين ثلاثة (٥).

(١) انظر: الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ يس إبراهيم السنهوتى: ص ٢٦٦ ط/ السعادة.

(٢) ، (٣) انظر: الكواكب الدرية للعارف المناوى: ١/ ٦٧٨ - ٦٧٩.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٠٨.

(٥) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى: ٢/ ٢٠٣.

إنه إمام الأولياء، نديم الحضرة القدسية الذى شرب من دنان المحبة حتى ارتوى فهتف بلسان الاستطالة قائلا :

على الأوليا ألقيت سرى وبرهانى
فهاموا به فى سر سرى وإعلانى
فأسكرهم كأسى فهاموا بخمرتى
سكارى حيارى من وجودى وعرفانى
أما كنت قبل القبل قطبا مبجلا
تطوف بى الأكوان والرب أسمانى
خرقت جميع الحجب حتى وصلته
مقاما به قد كان جدى له دانى
وقد كشف الأستار عن نور وجهه
ومن خمرة التوحيد بالكأس أسقانى[1]

وبعد: فقد اغترفنا من البحر قطرات تدفقت فى وجداننا لتنبت أزهار الحكمة وتحيى فينا روعة التأسى بعظماء هذه الأمة الذين حملوا لواء الولاية وأناروا لنا السبيل. فبحق من منحكم هذا العطاء يا مولانا الإمام عبد القادر أن تلحقونا بركابكم لنسير فى رحابكم على الدرب المضىء. رضى الله عنكم وأمدنا بمددكم وغمرنا بفضلكم وجزاكم عن أمة سيدنا - محمد صلى الله عليه وسلم - خير الجزاء إنه نعم المجيب.

* * *

---

(١) انظر: القصيدة بكاملها فى: الفيوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية للشيخ إسماعيل القادرى: ص٥٢ ط/ الحلبى.

« ٣٢ »

القطب الكبير.. أبو العلمين
«سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه»

فى مقام الحضور والمشاهدة تتوالى أنوار التجلى الإلهى على قلب العارف وتنكشف غيوم الأستار عن سماء الحقيقة. فيفنى المشاهد بسره فى معاينة الجمال القدسى، وتعب الروح من كأس الوصال حتى الثمالة. وعندئذ تسطع شموس المعارف والإلهامات فى ساحة القلب، وينهل السر من أسرار الغيب. ومع دوام التجلى يتواصل الإمداد والإشراق، ويهتف العارف بلسان الحقيقة قائلا:

ليلى بوجهك مشرق
وظلامه فى الناس سارى
فالناس فى سدف الظلا
م ونحن فى ضوء النهار

إنه مقام أهل الصدق والإخلاص من خواص الحق تعالى المقربين وأوليائه العارفين رضى الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

ومن شوامخ أعلام أولئك الأئمة الواصلين، وصدور أعيان الأولياء المحققين: قطب أقطاب العارفين ومركز دائرة الصديقين غوث الثقلين أبو العلمين سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

إمام ترقى فى معاريج الحقائق حتى انتهت دونه مقامات الأولياء، وعارف حلقت روحه فى سماوات الوصال حتى غابت عن ذاتيتها فى محيط الفناء.

وقطب جمع بين الشريعة والحقيقة علما وحالا وذوقا ومقالا، فتصدر للقيادة الروحية والتربية الصوفية على منبر الخصوصية والتمكين، وأروى قلوبا عطاشا طالما برح بها شوق إلى النور. وحنين إلى الطهر والصفاء فشعت قبسات هديه المحمدى لتنير الدرب وتثبت الأقدام وتشعل جذوة الشوق إلى الله فى قلوب عباد خلقوا للتفرد فى محاريب العبودية والاختصاص، فرفع الإمام الرفاعى علم الصوفية على صرح مدرسة جديدة تحمل اسمه وطريقته، وتنشئ رجالا يخلفون السلف الصالح فى إقبالهم على الله وتجردهم لخدمته وإحيائهم معالم الطريق المحمدى برائع سمته وجليل عظمته وشامخ مجده.

وشهد القرن السادس الهجرى تألق هذا المجد وبزوغه رأى العين وملء السمع والبصر، على نحو سنشير إليه - بجهد المقل - حسب طاقتنا وطاقة المقال، محاولين أن نضع مجرد نقط تومئ إلى سرج فى السماء وكواكب تسبح فى العلياء. فليكن التوفيق حليفنا، ولتطل علينا روحانية القطب الرفاعى لتسكب فى أعماقنا بارقة من نور تقودنا إلى معرفتها والتعريف بها إذ لا سبيل لنا إلى التحدث عنها إلا بها. فهى نفحة من نور سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولعل أول ما يؤكد سريان المدد المحمدى إلى مولانا القطب الرفاعى رضى الله عنه أنه ينتمى نسبه إلى العترة المحمدية الطاهرة ، فقد أجمع الرواة والمؤرخون على أنه ينتهى نسبه من جهة أبيه إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين ، فهو الإمام السيد أحمد بن السيد على بن السيد يحيى بن السيد الثابت بن السيد الحازم بن السيد أحمد بن السيد على بن السيد الحسن - الملقب برفاعة - ابن السيد المهدى بن السيد أبى القاسم محمد بن السيد الحسن بن السيد الحسين بن السيد موسى الثانى بن السيد إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين على ابن سيدنا الإمام أبى عبد الله الحسين بن

سيدنا على وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأنعم به من نسب زكى [1] . وفى ذلك يقول الخطيب الإدفوى:

لنسبة أحمد المولى الرفاعى
لطه وصلة عظمت مقاما
سرى برهانها شرقا وغربا
وسار معطرا يمنا وشاما

ولقد بشر مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمولد القطب الرفاعى قبل ولادته، فقد روى أن العارف الربانى سيدى منصور البطائحى رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له: (يا منصور: أبشرك أن الله يعطى إلى أختك بعد أربعين يوما ولدا ويكون اسمه أحمد الرفاعى. ومثل ما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء. وحين يكبر فخذه واذهب به إلى الشيخ على القارى الواسطى وأعطه له كى يربيه؛ لأن ذلك الرجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه) قال سيدى منصور: فقلت : الأمر أمركم يا رسول الله. عليك الصلاة والسلام. أهـ [2]

وقد ولد الإمام الرفاعى رضى الله عنه - كما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم - فى بيت خاله القطب البطائحى بقرية (أم عبيدة) من أعمال واسط بالعراق يوم الخميس فى النصف الأول من شهر رجب سنة اثنتى عشرة وخمسمائة هجرية [3]. وتفجر النور المحمدى الذى أهدته السماء إلى الأرض؛ لينشر فى ربوعها شعاع الإيمان واليقين، وليبث دعوة الإصلاح الروحى، ويحيى معالم الهدى المحمدى الوضاء. ولاحت سمات التفرد الاصطفائى منذ شروق حياة الإمام الرفاعى،

---

(١) انظر: قلادة الجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى/ ص١٦.

(٢) انظر: قلادة الجواهر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى ص٢٨ - ٢٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢ وقد ذكر فيه أن ولادة القطب الرفاعى كانت بقرية (حَسَنْ) من أعمال البصرة عام وفاة خليفة بغداد أحمد المستظهر بالله العباسى. بينما ذكر الإمام المناوى فى (الكواكب الدرية: ١/ ٦٥٠ - ٦٥١) أن ولادة الإمام الرفاعى كانت بأم عبيدة بأرض البطائح سنة خمسمائة هـ.

فالأوساط الصوفية كلها كانت على موعد مع فجر ميلاده، سواء عن طريق الكشف أو التبشير كما حدث لخاله الشيخ منصور.

ولقد كانت نظرة واحدة إلى وجه الإمام الرفاعى وهو لا يزال رضيعا فى مهد طفولته تعطى للمتوسم كل دلالات التفرد والولاية، بل إن الأحداث نفسها كانت كثيرا ما تأخذ طابع الكرامات والخوارق. فقد روى صاحب (النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى)، أنه كان لسيدى أحمد مرضعة صالحة عفيفة النفس. فأعطته يوما ثديها فما قبله وأعرض عنها ، فنظروا فى الأمر وفحصوا فوجدوا هذه المرضعة بلا وضوء ، فلما توضأت شرب من لبنها رضى الله عنه !! كما روى فى نفس المرجع أن سيدى أحمد كان يشرب اللبن كل يوم من حين ولدته أمه إلى رمضان فتقيد بعدم شربه اللبن فيه إلى حين جاء العيد فشربه فى أول يوم وأفطر مع الناس فيه [1] !!

لقد أغدقت عليه العناية من إمدادها الربانى وتوالت النفحات مع الأيام والدقائق والأنفاس. وتكفل سيدى منصور البطائحى برعاية سيدى أحمد وتربيته حيث قد لحق أبوه بربه قبل ولادته، وعمل سيدى منصور بوصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فأخذ سيدى أحمد إلى الشيخ على الواسطى - بعد أن حفظ القرآن الكريم - وجمعه عليه ليربيه فى الطريق وليأخذ عليه العهد الوثيق. وبذا اجتمعت لسيدى أحمد روافد العرفان والتحقيق ممثلة فى خاله القطب الربانى الشيخ منصور، وشيخه على القارى. كما يروى صاحب النجم الساعى أنه أخذ أيضا عن خاله سلطان العلماء الشيخ أبى بكر الواسطى الأنصارى، علوم الشريعة وتفنن بها وألف الكتب الكثيرة [2].

---

(1) انظر قلادة الجواهر للعارف الصيادى ص: ٢٥، ٣٢.

(2) ذكر العارف الصيادى فى (قلادة الجواهر ص ٤١) أن الشيخ عليا القارى الواسطى قد تولى أمر تربية سيدى أحمد الرفاعى وسلكه الطريق وأخذ عليه العهد الوثيق وتلقى عنده علوم الشرع، وانكشفت له - بإذن الله - أيام صحبته الحقائق والدقائق والظاهر والباطن، وكان سيدى على الواسطى شيخ العلماء وأهل الخرقة فى (البطيحة) وفى (واسط).

وبذا اجتمعت لسيدى أحمد تربية الظاهر والباطن، فقد تفقه فى الدين على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، ودرس (التنبيه) وألف شرحا عليه فيما بعد، كما صنف فى التفسير والحديث وعلوم القوم أسفارا ثمينة.

ولقد أقبل سيدى أحمد منذ صباه المبكر على شتى المناهل العذبة التى تؤهله لسلوك الطريق والمضى على قدم التحقيق. فنال منها راح المعرفة وإكسير الحكمة الربانية.

يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى أحمد كان يقول: (لما مررت وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرتونى وصانى وقال لى: يا أحمد، احفظ ما أقول لك. فقلت : نعم. فقال رضى الله عنه: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لا يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان. فخرجت من عنده وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت : أوصنى. فقال: ما أقبح الجهل بالألباء والعلة بالأطباء، والجفاء بالأحباء. ثم خرجت وجعلت أرددها سنة فانتفعت بموعظته) [(١)].

وهكذا كان سيدى أحمد يصعد سلم الارتقاء وعيون العارفين ترقبه بعنايتها وتتطلع إليه بفراستها فتكتشف فيه أمل المستقبل فى عالم الولاية.

روى الإمام النبهانى فى (جامع الكرامات) أنه مر بالإمام الرفاعى جماعة من الفقراء - أى فقراء الصوفية - فى صغره. فوقفوا ينظرونه، فقال أحدهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ظهرت هذه الشجرة المباركة. فقال الثانى: تتفرع لها فروع. فقال الثالث: عن قليل يشتمل ظلها. فقال الرابع: عن قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها. فقال الخامس: عن قليل ترى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطلب. فقال السادس: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها. فقال السابع: كم يغلق لها باب، وكم يظهر لها أصحاب. أهـ [(٢)].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١٢٠ ط/ الشرفية.

(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ٤٩٠ ط/ الحلبى (الثانية).

وعندما دنت وفاة سيدى منصور البطائحى شيخ أقطاب عصره، أراد بعض أهله وأصحابه ومريديه أن يجعل الخلافة فى الطريق لابنه من بعده. بيد أن سيدى منصورا كان يرى أن لا أحقية لأحد فى المشيخة من بعده إلا لسيدى أحمد الرفاعى. فقالت له زوجته: أوص لولدك. فقال: بل لابن أختى، فكررت عليه القول. فأراد أن يحسم الموقف بالدليل، فقال لابنه ولابن أخته: ائتيانى بنجيل من أرض كذا. فأتاه ابنه بنجيل كثير ولم يأته ابن أخته بشىء فقال له: يا أحمد لم لم تأت بنجيل؟ فقال: وجدته كله يسبح الله عز وجل فلم أستطع أن أقلع منه شيئا (١).

وهكذا برهن سيدى منصور على أحقية سيدى أحمد بالخلافة، ولمست زوجته وأهله وأصحابه شواهد الاستحقاق والتحقيق من عارف يشهر فى الموجودات بأسرها سر قوله تعالى: (وإن من شىء إلا يسبح بحمده).

وتسلم سيدى أحمد لواء الولاية خلفا لسيدى منصور رضى الله عنه، ومن ثم نتعرف على سند القطب الرفاعى فى الطريق، فقد تلقى خرقة التصوف من خاله سيدى منصور البطائحى، وهو عن شيخه سيدى محمد الشنبكى إمام التصوف بالطبائح فى عصره. وهو قد أخذ عن سيدى أبى بكر بن هوار البطائحى، الذى تلقى الخرقة عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه. فقد ذكر الإمام الشعرانى فى ترجمة سيدى أبى بكر بن هوار فى الطبقات ما نصه: (وهو أول من ألبسه أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخرقة ثوبا وطاقية فى النوم فاستيقظ فوجدهما عليه) (٢) رضى الله عنهم أجمعين(٣).

وإلى جانب هذا السند الظاهرى الذى سلك به القطب الرفاعى الطريق، فإن

---

(١) انظر: قلادة الجواهر للعارف الصيادى ص ٤١ وانظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١١٥.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١١٣.

(٣) إلى جانب هذا السند الصديقى للإمام الرفاعى رضوان الله عليه: أورد العلامة ابن الملقن فى (طبقات الأولياء ص ٩٤) السند الطريقى الحسينى للإمام الرفاعى فقال: (وطريقه فى الصحبة: صحب خاله الشيخ منصور، وهو صحب بها الشيخ عليا القارى الواسطى، وهو صحب بها الشيخ أبا الفضل بن كامخ، وهو صحب بها الشيخ عد ا الروزبارى وهو صحب بها الشيخ عليا العجمى، وهو صحب بها الشيخ أبا بكر الشبلى، وهو صحب بها الشيخ أبا القاسم الجنيد: وهو صحب بها السرى ... وبقية السند معروف).

سيدى أحمد كان يستمد سنده الباطنى من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مباشرة. ولقد ربته روحانية سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ورقته إلى ذروة الولاية والتحقيق. بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الذى سماه بالرفاعى، فقد روى الشيخ أبو بكر العيدروس أن الشيخ عمادا الزنجى سأل السيد الكبير - سيدى أحمد - فقال، أى سيدى: ما سبب اشتهاركم بالرفاعية؟ فقال السيد الكبير: (يازنجى هو أنى كنت يوما جالسا فى عرفات، فإذا جماعة من الأولياء وأهل الطريق الأبدال فى ذلك المجلس، فالتفت فى جانبى فرأيت سيد المرسلين، فقال: يا رفاعى: قد ارتفعت درجتك فى الدنيا والآخرة، بشارة لك. فصار اسمى من ذلك اليوم مشهورا بالرفاعى بين أهل الحضرة؛ لأنهم سمعوه من نفس النبى صلى الله عليه وسلم). ذلك أمر التسمية الباطنية. وأما تسميته الظاهرية بالرفاعى فنسبة إلى جده رفاعة الحسن أبى المكارم المكى. وأما كنيته بأبى العلمين: فلاتصال نسبه من جهة أبيه بسيدنا ومولانا الإمام الحسين، ومن جهة أمه بسيدنا ومولانا الإمام الحسن رضى الله عنهما وعنا بهما فى الدارين.

وذكر بعض العارفين أن كنيته بأبى العلمين للإشارة إلى علمى الشريعة والحقيقة. فهو حامل لواء الظاهر والباطن، وإمام العلم الشرعى والحقيقى.

والمتصفح للجانب السلوكى عند مولانا القطب الرفاعى يرى أقباسا من الضياء تتوهج، وصفحات من النور تزخر بطاعة هذا العارف لربه وشغله به وتفانيه فى عبادته. يروى صاحب النجم الساعى عن الشيخ منصور العدوى قال: سمعت من الشيخ الزنكى قال: (إن السيد أحمد كان فى ليله ونهاره يختم القرآن الكريم، وكان ورده وذكره قراءة القرآن، فإنه أفضل الذكر). ويحدثنا الإمام المناوى فى طبقاته عن جانب الزهد والعبادة عند سيدى أحمد فيقول: (وكان لا يجمع بين قميصين شتاء وصيفا، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة واحدة، ويصلى كل يوم أربعمائة ركعة بألف «قل هو الله أحد»، ويستغفر كل يوم ألفين ، يقول: لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين) (١).

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٧ وقلادة الجواهر للعارف السيد محمد أبى الهدى الصيادى. ص ٦٦.

ويروى الشيخ العيدروس أنه كان رضى الله عنه إذا شرع فى الصلاة يصفر لونه الشريف، وإذا فرغ من صلاة الصبح يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقرأ الأوراد إلى ضحوة النهار العالية، وإذا فرغ من ذلك صلى صلاة الإشراق وصلاة الضحى ثم يتوجه إلى أم عبيدة، ويجاهد نفسه الغيورة الكريمة على العبادة، وكان يقول: إذا كنت فى الخلوة يحصل عندى التأسف والتحسر كثيرا، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه ويجاهد نفسه وينشد هذا البيت ويقول:

والله لو علمت روحى بمن علقت

قامت على رأسها فضلا عن القدم [(١)]

لقد سكن العارف الرفاعى إلى ربه وأنس به، فسجد قلبه على بساط خدمته، واستجمعت همته كل الأحوال والمقامات، فلم يشغل بها عن مولاه. لقد تخطى كل الحواجز والعوائق وصار عبدا ربانيا محضا لا شائبة لرق فيه لغير سيده. وصارت الطاعة للمولى عز وجل هى الروح والريحان. لقد سقطت الأنية فى الطريق فلم يبق إلا روح نورانية مجردة، تغيب بفنائها فى معشوقها الأزلى، ثم تعود من رحلة الفناء إلى مقام البقاء، وعليها من حلل الجلال والجمال ما يضيق عنه نطاق المقال.

وإذا ما تساءلنا عن حقيقة مقام القطب الرفاعى ومكانته فى الطريق، فسوف يكون الجواب بغير حدود؛ لأن مولانا الإمام الرفاعى قد تخطى كل المقامات.

وليس هذا الحكم عفويا أو من عندياتنا أو من قبيل الحدس المبالغ فيه، فقد سجل الإمام الشعرانى رضى الله عنه هذا الحكم فى طبقاته، إذ حكى عن سيدى أحمد أنه قال له شخص من تلامذته: يا سيدى أنت القطب. فقال له سيدى أحمد: نزه شيخك عن القطبية. فقال له: وأنت الغوث. فقال : نزه شيخك عن الغوثية [(١)] !! ويعلق الإمام الشعرانى على ذلك قائلا: (قلت وفى هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار؛ لأن القطبية والغوثية مقام معلوم، ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام. وإن كان له فى كل مقام مقام والله أعلم) [(٢)].

---

(١) انظر: طبقات الأولياء لابن الملقن: ص ٩٦.

(٢) ، (٣) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٢٣ وقلادة الجواهر للعارف أبى الهدى الصيادى ص/ ٨٨، ١٢٨، ١٣١.

حقيقة أن سيدى أحمد لا يدرك شأوه فى الولاية، فهو أحد الأربعة الأقطاب الذين هم أركان الولاية العظمى، الوارثون للمدد المحمدى، المتآخية أرواحهم فى حضرة القدس. ولقد نقل عن كنز العارفين سيدى أحمد الزاهد رضى الله عنه أنه كان يقول: (المشايخ رضى الله عنهم عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف شيخ، وأعظمهم وأبرعهم فى باب المشيخة والولاية ثلثمائة شيخ. وأفضل الثلثمائة سبعون شيخا، وأفضل السبعين سبعة شيوخ، وأفضل السبعة أربعة شيوخ، وأفضل الأربعة شيوخ ثلاثة شيوخ، وأفضل الثلاثة واحد. واصطلاح القوم والأصحاب: هذا الواحد هو قطب الأقطاب سيدى أحمد الرفاعى الكبير).

وروى صاحب النجم الساعى أن الشيخ حجى خالد ومجرد الأكبر وعماد الدين الزنجى وعلى بن نعيم البغدادى ويعقوب الكراز والشيخ على بن عبد الوهاب وسيدى عبد السلام وسيدى عبد القادر الجيلانى، جميعهم شهدوا أن جميع الأولياء تشهد أن السيد الكبير سيدى أحمد الرفاعى غالب أوقاته دائر فى العالم العلوى، ووجوده فى العالم السفلى كناية عن النوع لأنه كان دائم السكر والغرق فى بحر المحبة للحق، وكان دائم التوجه للعالم المجرد والثناء المطلق. أ هـ.

ولقد كان الإمام الرفاعى دائم الحضور مع الله تعالى، وفى الحضرة المحمدية يقظة ومناما. فقد نقل الشيخ العيدروس عن الشيخ نجم الدين أنه قال: قال لى سيدى أحمد الرفاعى: (قد رأيت الله سبحانه وتعالى فى المنام مائة مرة وأربع عشرة مرة، ورأيت سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام مائة وسبعا وأربعين مرة .. وقال: هذا فى النوم. وما غاب عنى يقظة أبدا).

ولقد كان الإمام الرفاعى رضى الله عنه غارقا فى بحار المشاهدات والتجليات التى لا يسع العقل تصورها. يقول الإمام الشعرانى فى محلقاته مصورا أحد مشاهد التجلى الإلهى التى كانت تحدث لسيدى أحمد: وكان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد

شيئا فشيئا حتى يرد إلى جسمه المعتاد ويقول: لولا لطف الله تعالى بى ما رجعت إليكم) (١).

وها هو يصف أحوال المتمكنين فيقول: (إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى، وصارت همته خارقة للسبع السموات ، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا، لا يعجزه شىء، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه. قال: ويدل لما قلناه: ما ورد فى بعض الكتب الإلهية: يقول الله عز وجل: يا بنى آدم أطيعونى أطعكم، واختارونى أخترکم، وارضوا عنى أرض عنكم، وأحبونى أحبكم، وراقبونى أرقبكم وأجعلكم تقولون للشىء كن فيكون .. يا بنى آدم: من حصلت له حصل له كل شىء، ومن فته فاته كل شىء).

ويعلق الإمام الشعرانى على ما يلتبس فهمه من تلك العبارة فيقول: (وقوله صار صفة من صفات الحق تعالى، لعله يريد التخلق والاتصاف بصفته تعالى من الحلم والصفح والكرم؛ لأنه لا يصح لأحد أن يكون عين صفات الحق. فهو كقوله (فبى يرى وبى يسمع وبى ينطق وما أشبه ذلك) (٢).

ثم لنقف الآن عند جانبين من أبرز الجوانب التى حفلت بها شخصية الإمام الرفاعى رضى الله عنه وفاق فيهما الذروة، وهما (الفتوة والتواضع). وفى تعريف الفتوة يقول الإمام القشيرى: (أن يكون العبد ساعيا أبدا فى أمر غيره) (٣).

وفيها يقول العارف أبو على الدقاق: (هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كل أحد فى القيامة يقول: نفسى.. نفسى.. وهو - صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى.. أمتى..) (٤).

ولقد كان القطب الرفاعى شفوقا بالمسلمين إلى حد الافتداء والإيثار، فقد

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لسيدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٢٢.

(٢) المصدر الأخير: ١/ ١٢١.

(٣) (٤) انظر الرسالة القشيرية للإمام القشيرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود: ٢/ ٤٧٢.

ذكر الإمام الشعرانى أن سيدى أحمد كان رضى الله عنه يمرغ وجهه وشيبته فى التراب ويبكى ويقول: (العفو .. العفو .. اللهم اجعلنى سقف البلاء على هؤلاء الخلق) [1].

وكان رضى الله عنه حمالا للأذى فى تسامح كريم، ولم يتغير خاطره من مخلوق قط مهما تطاول عليه بالأذى أو لج فى العناد والإنكار. ولقد روى الإمام الشعرانى أن الشيخ إبراهيم البستى أرسل إلى سيدى أحمد كتابا يحط عليه فيه. فقال سيدى أحمد للرسول: اقرأه. فقرأه فإذا فيه: أى أعور أى دجال أى مبتدع يا من جمع بين الرجال والنساء حتى ذكر الكلب بن الكلب، وذكر أشياء تغيظ، فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب، أخذه سيدى أحمد رضى الله عنه وقرأه وقال: صدق فيما قال جزاه الله عنى خيرا ثم أنشد:

ولست أبالى من زمانى بريبة

إذا كنت عند الله غير مريب

ثم قال للرسول أكتب إليه الجواب، (من هذا اللاش حميد إلى سيدى الشيخ إبراهيم البستى رضى الله عنه أما قولك الذى ذكرته فإن الله تعالى خلقنى كما يشاء وأسكن فى ما يشاء وإنى أريد من صدقاتك أن تدعو لى ولا تخلينى من حلك وحلمك) فلما وصل الكتاب إلى البستى عام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب!![2] وكانت لسيدى أحمد شفقة بالغة بالحيوان حتى إن القطب الشعرانى قال: (وكان قد كلفه الله بالنظر فى أمر الدواب والحيوانات) [3]، وذكر أنه كان إذا جلس على ثوبه جرارة وهومار فى الشمس وجلست على محل الظل، يمكث لها حتى تطير، ويقول: إنها استظلت بنا !! وكان إذا نام على كمه هرة وجاء وقت الصلاة يقطع كمه من تحتها ولا يوقظها. فرذا جاء من الصلاة أخذ كمه وخاطه ببعضه !! ووجد رضى الله عنه مرة كلبا أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد، فخرج معه إلى البرية

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى. ١/ ١٢٣.

(٢)، (٣) المصدر نفسه: ١/ ١٢٢ - ١٢٣.

وضرب عليه مظلة وصار يطليه بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحت الجرب منه بخرقة فلما برئ حمل له ماء ساخنا، وغسله [1] !

إنها الرحمة الرحيمة والشفقة المثالية بخلق الله .. ومن ثم فقد سخر الله له المخلوقات حتى إن أشد الحيوانات والهوام إيذاء قد ذللت للإمام الرفاعى. مثل الحيات والعقارب والثعابين وغيرها. ولا تزال طائفة الرفاعية تشتهر بترويض هذه الحيوانات المؤذية واقتنائها إلى يومنا هذا. ولا عجب، فمن أطاع الله أطاعه كل شيء.

ولقد ضرب سيدى أحمد الرفاعى أروع الأمثلة فى التواضع الجم والأدب المحمدى والذلة والانكسار وأدب مريديه بآدابه. فقد روى عن خادمه الشيخ يعقوب أنه قال: نظر سيدى أحمد رضى الله عنه إلى النخلة فقال : يا يعقوب، انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت. وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض، جعل ثقل حملها على غيرها ولو حملت مهما حملت لا تحس به [2].

ولقد كان رضى الله عنه يقول لأولاده: (من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له. فإن مد يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله، ومن تقدم عليكم فقدموه، وكونوا آخر شعرة فى الذنب فإن الضربة أول ما تقع فى الرأس) [3].

وقال رضى الله عنه لأصحابه يوما (من رأى منكم فى حميد - ويعنى نفسه - عيبا فليعلمه به. فقام شخص فقال: يا سيدى فيك عيب عظيم. فقال: وما هو يا أخى؟ فقال: كون مثلنا من أصحابك. فبكى الفقراء وعلا نحيبهم وبكى سيدى أحمد معهم وقال: أنا خادمكم أنا دونكم) [4]. هذه هى أخلاق النبوة التى ورثها الوارث المحمدى سيدى أحمد الرفاعى.

---

(١) نفس المصدر: ١/ ١٢٢.

(٢) نفس المصدر: ١/ ١٢٠.

(٣) نفس المصدر: ١/ ١٢١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى (٢١ / ٧٨) وفيه بدل قوله «أنا خادمكم أنا دونكم».
وقال - أى الشيخ - : أى عمر: (إن سلم المركب حمل من فيه) وكان المخاطب عمر الفاروثى.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ١٢٣.

ولقد كان آخر مثل ضربه فى الفتوة - رضى الله عنه هو ما رواه الإمام الشعرانى أن سيدى يعقوب خادمه رضى الله عنه قال: لما مرض سيدى أحمد رضى الله عنه مرض الموت قلت له: تجلى العروس فى هذه المرة؟ قال: نعم. فقلت له: لماذا؟ فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشريته بما بقى من عمرى فباعنى) [١] !!

لله أنت يا إمام العارفين.. يا معدن الرحمة من سيد الأولين والآخرين. لقد أسس الإمام الرفاعى طريقته السنية على نهج الكتاب والسنة، فاهتدى بها السالكون ووصل بها السائرون.

«منهج الطريقة الرفاعية قد رسمه شيخها بقوله رضى الله عنه: (طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة) وروح المشرب الرفاعى الذى بنى عليه طريقه يتمثل فى قوله رضى الله عنه: (سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار، والانكسار لتعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله والاقتداء بسنة سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم) [٢] وقال: (رأيت جميع الطرق إلى الله تعالى فما رأيت أحسن ذخيرة وأقرب إلى الله تعالى من طريق الذل والانكسار والمسكنة).

وغنى عن الذكر أن ما يعنيه سيدى أحمد بالذل والانكسار والمسكنة ليس المراد به الضعف فى الدين ولا امتهان حرمة المسلم، فذلك بمنأى عن قصده، بل هو على النقيض منه. ولكن المراد هو إذلال النفس بالعبودية لخالقها والانقياد له حتى ينتقل سلطانها إلى القلب كما قال عليه رضوان الله: (ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس) [٣].

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٢٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكى ١/ ٢٥ ط/ الحلبى (المحققة). وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبى: ٢١/ ٧٩ وفيه بلفظ: (أقرب الطريق الانكسار والذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله وتقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٧، ٦٥٩.

وكان رضى الله عنه يقول: (طريقتنا مبنية على ثلاثة أشياء: لا نسأل، ولا نرد، ولا ندخر) [١]. ولقد ربى الإمام الرفاعى أبناءه ومريديه بنور معرفته، وغسل قلوبهم بماء حكمته، لقد كان رضى الله عنه يقول: (إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشيطان، وإذا صلح القلب أخبرك بما وراءك وأمامك ونبهك على أمور لم تكن تعلمها بشىء دونه، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب معها الرشد وينتفى معها السعد) [٢]. وكان يقول عليه الرضوان: (من شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فيودع كل نفس أعز ما يصلح له فلا يضيع له نفس) [٣].

ولقد سلك على يديه رجال ورجال نهلوا من نبعه كأس المحبة والوصال. يقول الإمام المناوى رضى الله عنه: (وكانت حلقة مريديه ستة عشر ألفا) [٤].

ويروى أنه ترك يوم وفاته أتباعا عدوا يومها بمائة ألف أو يزيدون. لقد تجمعت هذه القلوب لتستقى من معين الحكمة والمعرفة، وترتوى من فيض إلهام القطب اللدنى الذى لا ساحل لمحيط معرفته.

لقد تحدث يوما عن الكشف فقال: (الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكسا بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعا إلى عالم العقل فيتصل به اتصالا معنويا له أثره فى استفاضة نور العقل على ساحة القلب، فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفى عن الأبصار موضعه، ودق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأغيار مرآه) [٥].

سبحان من أفاض على أوليائه بتلك المنح العرفانية. ونأتى أخيرا إلى جانب الكرامات ، وماذا عسى أن نقول؟ إن مقياس الكرامات لا يقوى على استيعاب ما

---

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى. ١/ ٦٥٧، ٦٥٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٦٥٦.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ١٢١.

(٤) انظر. الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للإمام المناوى ١/ ٦٥١.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٢٠.

حفلت به شخصية القطب الرفاعى. فكل جوانب حياته كرامات وفيها ما هو أكبر من الكرامات. فلنذكر تبركا ما يزيدنا عرفانا بالمقام الرفاعى:

روى جمهرة الصوفية أن سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه لما حج وقف تجاه الحجرة العطرة النبوية وقال: السلام عليك يا جدى، فرد عليه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قائلا: وعليك السلام يا ولدى. فتواجد سيدى أحمد لهذه المنحة الجليلة وقال منشدا:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها
تقبل الأرض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فمد له الرسول - صلى الله عليه وسلم - يده الشريفة من قبره الكريم فقبلها فى ملأ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه. وكان من شهود هذا الموقف الجليل سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى عدى الشامى والشيخ ابن قيس الحرانى وغيرهم من كبار العارفين رضى الله عنهم أجمعين [(١)].

ومن كراماته: أن رجلين تحابا فى الله اسم أحدهما معالى والآخر عبد المنعم، فخرجا إلى الصحراء، فتمنى أحدهما كتاب عتق من النار ينزل من السماء، فسقطت منها ورقة بيضاء فلم يريا فيها كتابة، فأتيا القطب الرفاعى ولم يخبراه بالقصة. فنظر إليها ثم خر ساجدا وقال، الحمد لله الذى أرانى عتق أصحابى من النار فى الدنيا قبل الآخرة. فقيل له : هذه بيضاء. فقال: أى أولادى.. يد القدرة لا تكتب بسواد. وهذه مكتوبة بالنور [(٢)] !!.

---

(١) انظر: قلادة الجواهر للعارف السيد محمد أبى الهدى الصيادى ص ١٠٨ - ١٠٩. وانظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى: ١/ ٤٩٤ ط/ الحلبى (الثانية).

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٢.

ومنها أيضا أن بعض أصحابه رآه فى المنام فى مقعد صدق مرارا ولم يخبره. وكان للشيخ امرأة بذية اللسان، تسفه عليه وتؤذيه. فدخل عليه الذى رآه فى مقعد صدق يوما، فوجد بيد امرأته محراك التنور وهى تضربه على أكتافه فاسود ثوبه وهو ساكت. فانزعج الرجل وخرج من عنده. فاجتمع بأصحاب الشيخ وقال: يا قوم: يجرى على الشيخ من هذه المرأة هذا وأنتم سكوت؟؟ فقال بعضهم: مهرها خمسمائة دينار وهو فقير. فمضى الرجل وجمع خمسمائة دينار وجاء بها إلى الشيخ فى صينية فوضعها بين يديه. فقال له: ما هذا؟ فقال: مهر هذه الشقية التى فعلت بك كذا وكذا. فتبسم وقال: (لولا صبرى على ضربها ولسانها ما رأيتنى فى مقعد صدق) [1].

إنه خلق الفتوة وإنها عظمة الشخصية وقوة التحمل تتمثل بأسمى معانيها وأروع صورها فى الإمام الرفاعى قطب الأقطاب، الذى ربى أقطابا ورجالا يسيرون على دربه المحمدى فى كل عصر. ولقد كان من صفوة وارثيه فى هذا العصر مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضوان الله عليه الذى تجسدت فيه الأخلاق المحمدية وانطبع أثرها فيمن سلك على يديه.

وأخيرا: فهذا هو الإمام الرفاعى الذى ترجم له الحافظ الذهبى - أحد أئمة السلفية - قائلا: (الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين أبو العباس أحمد بن أبى الحسن.. الرفاعى المغربى ثم البطائحى) [2].

(وبعد)،

فقد عشنا فى رحابك يا سيدى يا أبا العلمين، نرتوى من مددك، وننعم بذكرك، فبحق جدكم المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أن تمدونا بمددكم وتجذبونا بأنواركم إلى رحاب عطفكم. رضى الله عنكم وجعلنا من ورثة أمدادكم فى الدنيا ويوم الدين.

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى: ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى بتحقيق د. بشار عواد، د. محيى هلال: ٢١/ ٧٧ -٧٨.

« ٣٣ »

إمام الصديقين فى وقته شيخ الشيوخ
«سيدى أبو مدين المغربى» (٥١٠ - ٥٨٠) هـ
رضى الله عنه

من نفحات الجود الإلهى فاضت أنوار الحضرة القدسية على عبيد الاختصاص من الأولياء الخواص أهل الاتصال والكمال. فسبحوا فى أفلاك الولاية الحقانية، وتهيأت قلوبهم لتلقى الأسرار الإلهية ، والتقت أنوار الحضرة الربانية بأنوار عبودية القلب وهو ساجد لمولاه سجود الأبد على بساط الخصوصية. فاندرج نور العبودية فى نور الربوبية وصار العبد صوفيا ربانيا دائم الاستغراق فى المعية القدسية، لا يرى فى الوجود إلا الله، ولا يسمع إلا بالله، ولا ينطق إلا بالله، تلك نعوت ندمان حضرة الرحمن الذين استنارت بهم الأكوان ، وسرت بركاتهم عبر تتابع الأزمان، رضى الله عنهم وعنا بهم ، وأفاض علينا من بركاتهم ما يلحقنا بركبهم الأسعد فى الدنيا والآخرة.

من عيون أولئك السادة الذين سبقت لهم الحسنى وزيادة، إمام من صفوة الأئمة المقربين ورأس من رءوس الصديقين وعلم من أعلام الولاية الراسخين وقطب من أكابر المحققين وعارف: رفعت له فى ذرى العرفان أعلام شامخة، وسارت بذكره كتائب الأيام لمناقبه مؤرخة. فهو كنز فى الحقائق تسترت جواهره خلف حجب الإبهام، وهو بحر فى المعارف لم تسبح فى خضمه زوارق الأفهام. فياله من عارف وياله من إمام. إنه قطب الأقطاب وشيخ الشيوخ العارف الشهير، والغوث الكبير سيدى شعيب بن الحسين الأنصارى الأندلسى الشهير بأبى مدين المغربى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى ظل جنابه الشريف.

أصله من (أشبيلية) وقد ولد على مقربة من شمالها بحصن (قنطنيانة) فى العقد الثانى من القرن السادس الهجرى. وقد اختلفت الروايات فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ، فابن العماد فى شذرات الذهب يؤرخ لوفاته بسنة ٥٩٠ هـ ويقول أنه قد قارب الثمانين عمرا وعلى ذلك يكون ميلاده حوالى سنة ٥١٠ هـ [١].

ويذكر الإمام المناوى رضى الله عنه أنه مات سنة نيف وثمانين وخمسمائة على نحو ثمانين سنة بتلمسان [٢] . وهذا القول أصوب من سابقه.

بينما تقول بعض الروايات الأخرى إن وفاته كانت سنة ٥٩٤ هـ وممن قال بهذا الرأى دائرة المعارف الإسلامية والزركلى فى الأعلام والأستاذ محمد البهلى النيال فى كتابه (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامى) نشر مكتبة النجاح بتونس. وما ذكره المناوى هو الأقرب إلى الصواب.

ومحصل مجموع الآراء أن الإمام أبا مدين عاش فيما بين أوائل العقد الثانى وأوائل العاشر من القرن السادس الهجرى.

وقد نشأ سيدى أبو مدين فى أشبيلية متدرجا فى مدارج الولاية والفتوح الربانى، وقد أحاطت به منذ البداية عناصر الصقل الروحى الذى ولى وجهه شطر السماء مستجديا عناية الله ورعايته فقد شب يتيما ومن أسرة فقيرة كل ما تملكه من تراث هو العلم والتدين، وكانت هذه هى المكونات الأولى لشخصية سيدى أبى مدين ومن ورائها كانت تكمن فطرة زكية حبتها العناية باستعداد قوى للمضى فى درب الولاية.

ورأى سيدى شعيب منذ البداية أن عليه أن يتكسب من عمل يديه ليتسنى له أن يمضى فى طريق لم يخلق إلا له. إنه طريق العلم والولاية. فعمل بالرعى وتعلم صناعة النسيج وشرع فى حفظ كتاب الله تعالى والتردد على الشيوخ فى أشبيلية ثم رأى أن يرتحل إلى المغرب فعبر البحر إلى طنجة ثم سبتة فمراكش

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٤/٣٠٣.

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٦٧٠.

واستقر به المقام فى فاس موئل العلم والولاية التى خرجت أقطابا عديدين مثل سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به. وهناك وجد ضالته المنشودة حيث كانت مجالس العلماء والفقهاء والزهاد والذاكرين. فأخذ يختلف إليهم بحثا عمن يجد قلبه عنده.وتأتى نقطة التحول الأولى فيقول سيدى أبو مدين: (فلم أثبت على شىء إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه فى قلبى. فسألت عنه. فقيل: هو أبو الحسن بن حرزهم). وهذا هو أول شيوخه فى الطريق فلازمه وتتلمذ على يديه فى علوم الظاهر والباطن فدرس عليه (السنن) لأبى عيسى الترمذى و(الرعاية) للإمام الحارث المحاسبى وغير ذلك [1].

وأما شيخه الثانى الذى أخذ عنه الطريق فهو سيدى أبو يعزى المغربى رضى الله عنه. يقول عنه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته: (انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها وأعلام زهادها، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون) [2].

ويقص سيدى أبو مدين قصة التقائه بشيخه أبى يعزى للمرة الأولى. فيروى الأستاذ النبال فى كتابه أنه قال: (سمعت الناس يتكلمون عن كرامات أبى يعزى فذهبت إليه فى جماعة لزيارته، فلما وصلنا إلى جبال مرجان دخلنا على أبى يعزى أقبل الشيخ على القوم دونى. فلما حضر الطعام منعنى من الأكل، وهكذا كان يمنعنى من الأكل ثلاثة أيام وقد أجهدنى الجوع وفقدت بصرى، ومن الغد استدعانى وقال لى: اقرب يا أندلسى. فدنوت منه فمسح بيده على عينى فأبصرت، ومسح على صدرى وقال: هذا سيكون له شأن عظيم).

---

(١) انظر الجانب العلمى عند سيدى إبى مدين فى ترجمته فى (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية) للشيخ محمد بن محمد مخلوف (ص ١٦٤ ط/ دار الفكر) قال فيه (.. جمع الله له علم الشريعة والحقيقة، كان من الفضلاء وأعلام العلماء ومن حفاظ الحديث - خصوصا الترمذى - وكان يقوم عليه ، وكانت ترد إليه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها فى الوقت..) إلى أن قال: (وتخرج على يديه ألف شيخ منهم محيى الدين محمد بن عربى..) وكذلك ترجم له الزركلى فى الأعلام (٣/ ١٦٦) وأورد له من مؤلفاته (مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب) كما أورد له صاحب (إيضاح المكنون) - ١/ ١٣٣ - كتاب (أنس الوحيد ونزهة المريد فى علم التوحيد) وهذا يدفع ما ذكره العلامة المناوى فى (الكواكب ١/ ٦٦٥) أنه كان أميا).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ١/ ١١٦.

ويدأ التحول الحاسم وأخذ الإمام أبو يعزى بناصية سيدى أبى مدين وقد عرف قيمة جوهره ورأى نورانية فطرته مشعة وضاءة، وشفافية قلبه مشرقة متألقة فأخذ بيده إلى الفتح الأكبر وأعطاه مفتاح الوصول، ودله على طريق السعادة الأبدية ، فأمره بالجهاد الروحى الدائب الذى يقشع عنه الحجب ويوصله إلى الحقيقة؛ صيام دائم وقيام لازم، وصمت وعزلة، وجوع وسهر، وذكر وفكر، وسار سيدى أبو مدين على الدرب.. درب النور والعناية، والفتح والولاية، وأخذت تتفتح له مغاليق الأسرار وصار ينهل من محيط الأنوار، وعثر على حقيقة ذاته حين ذابت نفسه فى مصهر الجهاد. وحين عرف نفسه عرف ربه. ولا يقولن أحد أن هذا الضرب من الجهاد الشاق بعيد عن روح الإسلام. فكلنا يعلم أن الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه الشريفتان، وكان يربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع بينما عرضت عليه الجبال أن تكون ذهبا فأبى. إنها قمة العبودية لله تعالى. وإنها للأسوة الحسنة فى النبى العظيم عليه أفضل صلوات الله وسلامه لكى تحظى أمته بشرف المتابعة حسبما تتبع طاقات أفرادها على ما بينهم من تفاوت. وكل يعمل على شاكلته .. (ولكل درجات مما عملوا) (٢).

أما الذين يحتجون على هذا السلوك المثالى المحمدى ممن ثقلت ترابيتهم فاتهموا التصوف بالانحراف عن هدى الدين القويم: فهم شواذ الفطرة غلف القلوب، لم يفهموا روح الإسلام الذى يرقى بالعبد فى درجات العبودية حتى المشاهدة.

وماذا كانت ثمرة الجهاد عند سيدى أبى مدين؟ إنها المعرفة .. إنها الولاية .. إنها الربانية. وانضم سيدى شعيب إلى صفوف الصفوة وذاق طعم شرابهم. وكما يقول العارف:

---

(١) سورة الأنعام / ١٣٢.

من ذاق طعم شراب القوم يدريه

ولو دراه غـدا بالروح يشريه

وبعد أن حدث التحول الروحى العظيم لسيدى أبى مدين على يد شيوخه بفاس أزمع الارتحال - بإذن شيخه - إلى بلاد المشرق فقصد بيت الله الحرام وروضة المصطفى عليه أتم الصلاة والسلام. وفى مكة كان اللقاء المرتقب مع ثالث شيوخه القطب الغوث سيدى عبد القادر الجيلانى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به، ولبس منه الخرقة الصوفية، وتقلد النسبة القادرية. وتضيف بعض الروايات إلى شيوخه قطبين آخرين هما، أبو عبد الله الدقاق وأبو الحسن السلاوى.

بيد أن أكثر المصادر إن لم يكن كلها يولى الشيخ أبا يعزى أهمية خاصة فى تأثيره الروحى فيه وتربيته الصوفية. وكذلك كان سيدى أبو مدين يشيد به دائما حتى أنه كان يقول: (رأيت أخبار الصالحين من أويس القرنى إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى). وأيضا فقد تأثر بكتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالى حتى لقد كان يقول (نظرت فى كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالى)، وهكذا تكاملت جوانب عدة جعلت من سيدى أبى مدين شخصا فذا فى عصره فريدا فى نوعه. فهو من الناحية العلمية قد خاض غمار العلوم بنفس طلعة وهمة تواقة حتى تبحر فى مختلف الفنون وصار حجة فى الإفتاء وإماما فى الفقه المالكى ومحدثا ثبتا وأديبا فريدا بل وشاعرا مبدعا. ومما يؤثر من روائع شعره ما رواه صاحب نفح الطيب من قوله قدس سره:

بكت السحاب فأضحكت لبكائها

زهر الرياض وفاضت الأنهار

وقد أقبلت شمس النهار بحلة

خضراء فى أسرارها أسرار

وأتـى الربيـع بخيـله وجنـوده

فتمعنت فى حسنـه الأبـصـار

والورد نـادى بالورود إلى الجـنى

فتسـابق الأطيـار والأشجـار

والناس ترقص والعقار تشعشعت

والجـو يضحـك والحبيـب يزار

والعـود للغيـد الحسـان مجاوب

والطـار أخفى صوتـه المزمـار

لا تحسـبـوا الزمـر الحرام مرادنا

مزمـارنا التسبيح والأذكـار

وهكذا تلتقى رقة الطبع مع شفافية الروح وتتجاوب الشاعرية مع الصوفية فى إيقاع عذب يملك اللب ويمطر القلب بسيل متدفق من النور المذاب.

والله مـا أحلى صـوت الروح وهو يرفل فى ثيـاب القـريض ليـوقظ القلب من غفوته ويصله بخالقه.

وكما شدا سيدى أبو مدين بجمال صنعة البديع جل جلاله فقد أرسل نجواه إلى خالقه تعالى شأنه لائذا وقاصدا لبابه. وفى هذا المعنى يروى صاحب شذرات الذهب هذه الأبيات من شعره رضى الله عنه:

يامن عـلا فـرأى مـا فى الغيـوب ومـا

تحت الثـرى وظلام الليل منسـدل

أنت الغيـاث لمن ضـاقت مذاهبـه

أنت الدليل لمن جـارت به الحيـل

إنـا قصدنـاك والآمـال واثقـة

والكل يدعوك ملهـوف ومبتهـل

فإن عفوت فذو فضـل وذو كـرم

وإن سطـوت فأنت الحاكم العدل [1]

وأخـذ سيـدى أبو مـدين يحلق فى آفـاق النور ويرتقى فى مـدارج الكمـال، ويسمو فى معارج التحقيق ويترقى فى الأحوال والمقامات حتى وصل إلى علياء منازل المقربين.

ولو حاولنا التعرف على تلك القمة التى وصلها سيدى أبو مدين فى الولاية لوجدناه متربعا على أعلى المقامات؛ يشهد بذلك لسانه فى الحقائق وآراء أهل التحقيق فيه. كما يشهد له منهجه الصوفى الذى تربى عليه وربَّى عليه صفوة من أكابر العارفين. ثم خوارقه التى تواترت عنه وبلغت مبلغا عظيما من الشهرة.

ولعل فى مقدمة من نتعرف منهم على مقام سيدى أبى مدين أعظم أبنائه فى الطريق وحبيب روحه فى الله سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه وعنا به. فقد كان يقول عن سيدى أبى مدين. (شيخنا أبو مدين رضى الله عنه: الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق فى كل شىء ...) ومرة أخرى يقول: (شيخنا أبو مدين من الثمانى عشرة نفسا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله لا يرون سوى الله فى الأكوان، وهم أهل علانية وجهر، مثبتون للأسباب، وخرق العوائد عندهم عادة - قل الله ثم ذرهم [2] -) [3].

وكان سيدى أبو مدين كثيرا ما يردد هذا البيت الذى يجسد مشربه الروحى:

الله قـل وذر الوجـود وما حـوى

إن كنـت مرتـادا بصدق مـراد

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى: ٣٠٣/٤.

(٢) سورة الأنعام/ ٩١.

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ٦٦٧/١.

وكان سيدى أبو مدين لتفرده فى علوم الحقائق غريبا فى عصره شأن كل عارف ، وكان محل إنكار من المتعنتين المحجوبين،ولكنه كان نخبة الله فى زمانه، وكانت معيته للحق تنسيه كل شىء ومن ثم كان شعاره (الله قل وذر الوجود وما حوى). وكان دائم الحضور مع ربه حتى أنه لصدق تحققه بهذا المقام كان يقول: (نسيان العبد للحق طرفة عين خيانة يستحق بها العقوبة)[(١)] !

ويروى مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى أبا مدين كان يقول: (الحضور مع الحق جنة والغيبة عنه نار والقرب منه لذة والبعد عنه حسرة، والأنس به حياة والاستيحاش منه موت).

ومما يدلنا على مقام الإمام أبى مدين ما رواه سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى قدس سره فى (الفتوحات) قائلا: (ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف فمررنا بالحية المحدقة به. فقال لى البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك السلام فسلمنا عليها فردت ثم قالت: من أى البلاد؟ فقلنا من بجاية فقالت: ما حال أبى مدين مع أهلها؟ فقلنا لها: يرمونه بالزندقة. فقالت: عجبا والله لبنى آدم! والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالى عبدا من عبيده فيكرهه أحد. فقلنا لها: ومن أعلمك به؟ فقالت: يا سبحان الله! وهل على الأرض دابة تجهله؟ إنه والله ممن اتخذه الله تعالى وليا وأنزل محبته فى قلوب العباد فلا يكرهه إلا كافر أو منافق)[(٢)] .

وقد علق الإمام الشعرانى على هذا فى طبقاته قائلا: (وأجمع المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه، وكان ظريفا جميلا متواضعا زاهدا ورعا محققا مشتملا على كرم الأخلاق رضى الله عنه). وأما موضوع محادثة الحية التى بجبل قاف فإنه من قبيل الكرامات التى اختص بها أولياءه. والكرامة بنت المعجزة وتشترك معها فى خرق العادة. وقد ثبت أن الرسول - صلى الله عليه

---

(١) المصدر الأخير: ١/ ٦٦٩.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٣١.

وسلم - قد كلمه الضب فى مجلسه مع أصحابه الأعلام وكلمه الجمل فى واقعة أخرى. وإذن فلا يكون خرق العادة مثارا للطعن فى الولاية ممن ملكتهم العادة.

ويروى الإمام محيى الدين بن عربى قدس سره فى كتابه (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) أن بعض الصالحين رأى سيدى أبا مدين فى رؤيا منامية ومعه جمهرة من أعلام أهل الحقيقة. ذكر منهم سيدى أبا حامد الغزالى وسيدى أبا طالب المكى وسيدى أبا يزيد البسطامى قدس الله أسرارهم. وهؤلاء الأقطاب يسألون العارف أبا مدين ويستزيدونه فى أمهات مسائل التصوف. فسيدى أبو حامد الغزالى رضى الله عنه يسأل سيدى أبا مدين عن سر معرفته ومحبته فيقول له سيدى أبو مدين:

(المحبة مركبى، والمعرفة مذهبى والتوحيد وصولى. للمحبة سر لا يكشف، وإدراكات لا يعبر عنها، ولا يوصف سرها ومنبعها، وفى واصلها الجود العلى. فهى للخواص سنة مسنونة دل على ذلك قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) فالمعرفة يا أخى فخرى، وهى قاعدة سرى وأمرى. ثمرتها التوحيد، ومنها وفيها يكون المزيد. فالتوحيد أصل وما سواه فرع. وهو غاية المقامات ونهاية الأحوال، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟).

ويروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته واقعة تتفق مع ما ذكره الشيخ الأكبر فى محاضرة الأبرار اتفاقا لفظيا فى معظم فقراتها وهى إحدى الوقائع المنامية التى مرت إحداها بيد أن مولانا الشعرانى لم ينسبها للطرف السائل واكتفى بنسبتها لسيدى أبى مدين. أما السائل فيذكر الشيخ الأكبر أنه الإمام الغزالى أيضا وقد آثرنا رواية الإمام الشعرانى لأن فيها فقرات غير ما فى محاضرة الأبرار. يقول سيدنا الشعرانى (وقيل له مرة فى المنام: حقيقة سرك فى توحيدك؟ فقال: سرى مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية التى لا ينبغى بثها لغير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها، وأبت الغيرة الإلهية إلا أن تسترها وهى أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقودا وكان فى عالم الحقيقة بسره

موجودا يتقلب فى الحياة الأبدية وهو بسره طائر فى فضاء الملكوت ويسرح فى سرادقات الجبروت وقد تخلق بالأسماء والصفات وفنى عنها بمشاهدة الذات. هناك قرارى ووطنى وقرة عينى ومسكنى، والحق تعالى فى غنى عن الكل. قد أظهر فى وجودى بدائع قدرته وأقبل على بالحفظ والتوفيق، وكشف لى عن مكنون التحقيق. فحياتى قائمة بالوجدانية وإشاراتى إلى الفردانية. فروحى راسخ فى علم الغيب يقول لى مالكى: يا شعيب، كل يوم جديد على العبيد ولدينا مزيد. رضى الله عنه) (١).

ومما يزيدنا تعرفا على مقام سيدى أبى مدين رضى الله عنه وعنا به، ما رواه سيدى عبد الوهاب الشعرانى قدس سره فى طبقاته قائلا: (قال الشيخ أبو الحجاج الأقصرى: سمعت شيخنا عبد الرازق رضى الله عنه يقول: لقيت الخضر عليه السلام سنة ثمانين وخمسمائة فسألته عن شيخنا أبى مدين فقال: هو إمام الصديقين فى هذا الوقت، وسره من الإرادة ذلك آتاه الله تعالى مفتاحا من السر المصون بحجاب القدس، ما فى هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه. ثم قال: ومات أبو مدين رضى الله عنه بعد ذلك بيسير) (٢) هؤلاء والله هم الرجال، مصابيح الأمة ومنارات الخلق، طريقهم هو الموصل إلى السعادة العظمى وأى سعادة؟؟ إنها الوصول إلى الله والمثول فى حضرته والأنس به والفناء فيه والبقاء به والارتواء من بحار محبته حتى لا يزداد العبد مع كثرة الارتواء إلا ظمأ.

لقد حظى سيدى أبو مدين رضى الله عنه بكل هذه العطاءات وبلغ ذروة المقامات ونال القطبية العظمى وغوثية الزمان فى آخر عمره الحافل بالقرب وبالعروج. ولقد تحدث الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين عن منزل القطب فى رسالة له تحمل هذا العنوان، وذكر أن ثمة إمامين يليان القطب فى المقام وأعلاهما الإمام الذى عن يمينه ، ثم قال وهو بصدد بيان منزلة إمام اليمين (... وفى هذا

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ١٣٢.
(٢) المصدر الأخير : ١/ ١٣١.

المقام عاش الشيخ أبو مدين ببجاية إلى قرب موته بساعة أو ساعتين خلعت عليه خلعة القطبية ونزعت عنه خلعة هذه الإمامة وصار اسمه عبد الإله وانتقلت خلعته باسم عبد الرب إلى رجل ببغداد اسمه عبد الوهاب، وكان الشيخ أبو مدين قد تطاول له بها رجل من بلاد خراسان. مات الشيخ قطبا كبيرا).

ومرة أخرى يصرح سيدى محيى الدين بقطبانية شيخه قبل موته فى كتابه (مواقع النجوم) فيقول: (وبلغ لى بعض الروحانية عند اجتماعى به أن شيخنا أبا النجا أعنى أبا مدين رضى الله عنه ما مات حتى كان قطبا قبل موته بساعة أو ساعتين، ولقد أتانى بذلك أبو يزيد البسطامى - رضى الله عنه - فى رؤيا رأيتها وإنى لأعلم وارثه الآن فى ذلك المقام الإمامى وأعرفه غاية المعرفة ولله الحمد على ذلك) لم يلحق الإمام أبو مدين بربه إلا هو متربع على أعلى مقامات الولاية، ودرجته فى الدنيا هى درجته فى الآخرة التى يحشر عليها. كذا قال أهل التحقيق. أجل: ولم يلحق سيدى أبو مدين بربه إلا وقد ربى سلطان العارفين مفخرة الصوفية وترجمانها الأكبر سيدى محيى الدين رضى الله عنه وعنا به وعنه تسلسل الأئمة والأقطاب. وأيضا فسيدى أبو مدين هو شيخ سيدى عبد الرازق المدفون بالإسكندرية والذى هو شيخ لسيدى أبى الحجاج الأقصرى رضى الله عنه وقد كان قطب عصره. كذلك فإن سيدى أبا مدين هو شيخ لأربعة من شيوخ سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه مباشرة وهم سيدى أبو عبد الله بن حرازم وسيدى أبو سعيد الباجى وسيدى أبو محمد المهدوى والرابع هو سيدى محيى الدين بن عربى على ما يذكره بعض الرواة. وأيضا فإن سيدى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه شيخ الإمام الشاذلى قد أخذ عن الشيخ عبد الرحمن المدنى وهو عن العارف الدكالى أحد أبناء سيدى أبى مدين فى الطريق.

ومن ثم نقف على مركز سيدى أبى مدين فى الولاية حين نعلم أنه مؤسس لكل هذه المدارس الصوفية وشيخ لشيوخ الطرق. ومن ثم لقبه سيدى محيى الدين رضى الله عنه بلقب (شيخ الشيوخ) كما أنه لقب سيدى محيى الدين بلقب (الشيخ الأكبر) ولقبه أيضا بـ: (سلطان العارفين).

وكـان لسـيـدى أبى مـدين رضـى الله عنه منهـاج خـاص فى تربيـة مـريديه وترقيتهم فى مقامات الولاية. فيروى الإمام المناوى نقلا عن الإمـام الشعرانى رضى الله عنهما أن سيدى عليا الخواص رضى الله عنه وعنا به كان يقول: (كان مذهب الشـيخ - يعنى أبا مدين - رضى الله عنه تقـريب الطريق على المريدين ونقلهم إلى محل الفتح من غير أن يمر بهم على الملكوت خوفا عليهم من تعشق نفسهم بعجائب الملكوت) كما يروى العارف المناوى عن سيدى محيى الدين أن سيدى أبا مدين كان يقول لأصحابه: (أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، واظهـروا بما أعطاكم الله من نعـمـه الظاهرة - يعنى خـرق العـوائد - والبـاطنة - يعنى المعـارف، فإنه تعـالى يقـول: (وأمـا بنعـمـة ربك فحـدث) [1] ثم يقـول سيـدى محـيى الدين: (وهذه الطبـقـة اختـصت باسم الظهـور لكونهم ظهـروا فى عـالم الشهادة). وكان سيدى أبو مدين يقول لأصحابه (أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصى ولا يستحيون من الله) وكان يقول فى قوله تعالى (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) [2]) فإذا فرغت من الأكوان فانصب قلبك لمشـاهدة الرحـمن وإلى ربك فارغب فى الدوام، وإذا دخلت فى عبـادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها وقل يا ليتها كانت القاضية) . وكان القطب أبو مدين فقيها عن الله بأسرار العبادات فهو يعلل لأفضلية صلاة الجماعة على صلاة الفرد قائلا: (إنما فضلت صلاة الجمـاعة على صلاة الفـرد لأنه يكتب لكل عبـد من صلاته ما قام به منها. فيكتب من صلاة عشرها ومن صلاة ثلثها ونصفها وغير ذلك - أى كما فى الحديث - فيرتفع للجميع صلاة مكملة الأجزاء بعضها ببعض فيعيد الله بركة الكمال والإتمام على الجماعة فيكتب لكل واحد منهم صلاة كاملة ببركة الاجتماع). ومن فوائده فى تربية المريدين ما ذكره سيدى محيى الدين قائلا: (كان شـيـخنا أبو مـدين رضى الله عنه يقـول: من عـلامـة صـدق المريد فى إرادته فـراره عن الخلق، ومـن عـلامـة فـراره عنهم وجوده للحق، ومن عـلامـة صـدق وجوده

(١) سورة الضحى / ١١.

(٢) سورة الشرح / ٧ / ٨.

للحق رجوعه إلى الخلق فهذا هو حال الوارث للنبى صلى الله عليه وسلم فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه حتى فجأه الحق فبعثه الله رسولا مرشدا لعباده. فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته ومثله يسمى وارثا. فالوارث الكامل من ورثه علما وعملا وحالا) (١) وتناول الإمام أبو مدين مفهوم الفقر عند الصوفية بالإيضاح قائلا: (الفقر أمارة على التوحيد ودلالة على التفريد، وحقيقة الفقر ألا تشاهد سواه) (٢) وكان يقول قدس سره (من كان الأخذ أحب إليه من الإعطاء فما يشم للفقر رائحة) (٣) .

وفى حقيقة الإخلاص يقول (الإخلاص أن يغيب عنك الخلق فى مشاهدة الحق) (٤) وكان يقول: كل بدل فى قبضته عارف لأن ملك البدل فى السماء إلى الأرض وملك العارف من العرش إلى الثرى، (٥) أما كرامات سيدى أبى مدين فهى جمة ومشهورة سار بها الركبان وتناقلها الرواة والمصنفون فى مناقب القوم. يقول مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه عن سيدى أبى مدين (وكان الله تعالى قد أذل له الوحوش. ومر يوما على حمار والسبع قد أكل نصفه وصاحبه ينظر إليه من بعد لا يستطيع أن يقرب منه فقال لصاحب الحمار تعال فذهب به إلى الأسد وقال له أمسك بأذن الأسد واستعمله مكان حمارك فأخذ بأذنه وركبه وصار يستعمله سنين موضع حماره حتى مات) (٦) وروى أنه جاء إلى مجلسه معترض فالتفت إليه سيدى أبو مدين وقال له : لم جئت؟ فقال: لأقتبس من نورك. فقال له ما الذى فى كمك؟ فقال له مصحف. فقال له افتحه واقرأ فى أول سطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول سطر فإذا هو (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) (٧) فقال له أما يكفيك؟ فتاب الرجل فى مجلسه (٨) . وذكر المناوى أنه وقع له فى سياحته أنه

---

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٦٦٩.

(٢) ،(٣) ، (٤)، (٥) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٣٢

(٦) المصدر نفسه.

(٧) سورة الأعراف/

(٨) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ١١٩.

دخل على عجوز فى مغارة فأقام عندها فجاء ابنها آخر النهار فسلم عليه فقدمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال الابن تمنيت لو كان هذا كذا فقال الشيخ سَمِّ الله وكل ما تمنيت. فلم يزل يعدد التمنى وهو يقول مقالته الأولى واللون واحد ينقلب ألوانا كثيرة ويجد طعم ما يتمنى [1] . رضى الله عنك يا قطب الأقطاب يا سيدى أبا مدين يا من قلت: ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء ، هم السلاطين والسادات والأمراء، وجعلنا من خواص أحبابك. آمين.

* * *

(١) المصدر نفسه: ١/ ٦٦٦.

«٣٤»

الإمام شيخ الإسلام

«سيدى عبد الرحيم القنائى رضى الله عنه»

من إشراقات شمس النبوة تلألأت أقمار الولاية فى سماء القرب والشهود، وانجذبت قلوب العاشقين الإلهيين إلى الأفق الأعلى لتستقى أرواحهم من أنوار الذات المحمدية فيصيروا ورثة محمديين، وتصبح قلوبهم مرايا ينعكس فيها النور المحمدى فيجذب إلى رحابه كل نفس تواقة إلى النور نزاعة إلى الطهر والصفاء.

ومن ثم كان أولئك الصفوة الصوفية بحق مدرسة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - القائمين من بعده على هداية أمته، وقيادتها إلى الحضرة الإلهية، وما منهم من ولى إلا وهو مغترف من بحر النور المحمدى.

كما قال قائلهم:

وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفا من البحر أو رشفا من الديم(١)

إنهم أولياء الحق تعالى الذين لهم قدم صدق عند ربهم رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم ونفعنا بهم وببركاتهم فى الدنيا ويوم الدين.

من قمم أولئك الأقطاب المحمديين عارف غمره نور سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - فأشرق على الدنيا حكمة وضياء وهديا وعرفانا، وقطب وسع قلبه معرفة الحق تعالى فاقترب واتصل، وفنى وبقى، وهام فى محبة سيده وعشق

---

(١) من شعر الإمام البوصيرى رضى الله تعالى عنه فى بردته العصماء.

معبوده فلم يعر الأكوان التفاتة لانشغاله بمولاه حتى صار هو قطب الأكوان، ولا عجب، فإنها الوراثة المحمدية الصادقة، والوصول إلى الحقيقة المطلقة.

إن صاحب هذا العطاء الإلهى والمجد المحمدى هو الإمام العارف والولى الكامل القطب الشريف سيدى عبدالرحيم المغربى القنائى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى عليين، وأمدنا بعظيم نفحاته وبركاته فى الدنيا ويوم الدين.

وفى مستهل تعرفنا على هذه الشخصية المحمدية نجد أن نسبة سيدى عبدالرحيم إلى مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محققة نسبا كما هى محققة روحا وتربية.

فهو سيدى أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد بن حجون بن أحمد بن محمد بن حمزة بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الزكى بن محمد بن المأمون بن على بن حسين بن على بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين سبط سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين [1].

وأما والدته: فهى الشريفة الحسينية السيدة سكينة بنت أحمد بن حمزة الحرانى. وهى من بنى حمزة الذين كانوا نقباء الشام. رضى الله عنها..

وقد أشرقت شمس ميلاد هذا القطب المحمدى ببلاد المغرب فى بلدة (ترغا) من أعمال (سبتة)، [2] وكان ميلاده الأغر فى مستهل شعبان سنة ٥٢١ هـ. ونشأ سيدى عبدالرحيم فى موطنه المغربى نشأة أهل العناية مبتدئا بحفظ القرآن الكريم. وأخذ يتردد على حلقات الشيوخ والفقهاء، فدرس الحديث الشريف وتفقه

---

(١) انظر النسب الشريف كاملا كما ذكرناه فى طبقات الأولياء لابن الملقن ص٤٤٣ وفى الطالع السعيد للأدفوى (ص٢٩٧ - ٢٩٨) أسقط جدة (أحمد) والد حجون كما أسقط (المأمون) و(على) بن الحسين، وزاد (عليا) قبل محمد بن جعفر الصادق.

(٢) قال صاحب الطالع السعيد (وقيل إنه غمارى) أى من غمارة - التى منها قبيلة سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه، وهى - أى غمارة - من أعمال (سبتة) بالمغرب وهى بلدة مشهورة تقابل جزيرة الأندلس كما جاء بمعجم البلدان (١٨٢/٣).

على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتعشقت نفسه الزكية تحصيل العلوم الدينية والتعمق فى معقولها ومنقولها ، وقد اجتمعت له حافظة قوية وقريحة وقّادة وذهن ثاقب وفطرة نقية مستنيرة. فشرع فى جدية جادة فى تحصيل مأربه وعيون شيوخه وأسرته ترقبه وقلوبهم تحيط به.

بيد أن يد المنون تسللت إلى أقرب الناس إليه وهو والده الصالح الشيخ أحمد، ولم يكن سيدى عبدالرحيم قد تجاوز الثانية عشرة من عمره بعد. وكان الخطب فادحا اهتز له كيان عارفنا القنائى بدنيا ونفسيا، فنال منه المرض كما عصف الحزن بنفسه. فأشارت عليه والدته وأقرباؤه بالسفر إلى أخواله فى دمشق، وكانت رحلة مباركة إذ أتيح للإمام القنائى أن ينهل من محصلات علماء المشرق مزاوجا بينها وبين ما تلقاه بالمغرب. وانطلقت ملكات الإمام عبدالرحيم ومواهبه مسجلة فى سجل التاريخ مَبْعَثَ عالم ومَقْدِمَ إمام، وتألق نجمه هناك على مرأى من أخواله الذين كانوا يحتلون مراكز علمية مرموقة فى الشام مثل السيد محمود مفتى دمشق، والسيد زين العابدين الذى كان إماما للشافعية هناك على ما ذكر فى دائرة معارف البستانى. وعلى الرغم من دعوة علماء الشام لسيدى عبدالرحيم وإلحاحهم عليه فى أن يجلس للتدريس والفتوى فإنه لم يتصد للتعليم والإفتاء إلا بعد عودته إلى موطنه بالمغرب. وفى ترغاى وسبتة أخذ الإشعاع العلمى والدعوة الإسلامية ينبث ضوؤهما فى الآفاق، وتواكبت الجموع المحتشدة على مجلس العالم الشاب سيدى عبدالرحيم تنهل من فيض علمه الغزير غذاء القلب وقوت العقل.

ولقد كان الجانب العلمى عند سيدى عبدالرحيم قاعدة صلبة أسسها لكى يقيم عليها بنيانه الشامخ الذى يوصله إلى الله تعالى. إنه صرح العمل والجهاد الروحى والسلوك الصوفى الذى ينظف ساحات القلب للأنوار الإلهية.

ولقد عرف الإمام القنائى الكثير من أعلام الصوفية بالمغرب ووقف على مناهجهم فى التحقيق ومشاربهم فى الولاية.

وكان من أخص من استقطب همته وجذب روحه: عارف المغرب الكبير

سيدى أبو يعزى المغربى (١) أحد الأوتاد الراسخين والأئمة المحققين، وهو شيخ الإمام العارف سيدى أبو مدين الغوث التلمسانى المتوفى سنة ٥٩٤هـ. وسنأتى إلى أخبار صلاته بمعاصريه ريثما نتابع المسار التاريخى العام لحياته رضى الله عنه.

فبعد أن قضى سيدى عبدالرحيم فترة بالمغرب على أثر رجوعه من الشام لمع فيها نجمه، وعلت شهرته العلمية، اعتزم الرحيل مرة أخرى إلى بلاد المشرق وخرج حاجا إلى بيت الله الحرام حوالى سنة ٥٤٢هـ ومر فى طريقه بالإسكندرية والقاهرة. وبعد وصوله إلى البلد الأمين أدى فريضة الحج ثم أوى إلى جوار سيدنا ومولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمد منه الفتح الأعظم والتربية المحمدية السامية، وأفيض عليه العطاء حتى صار محمدياً بكل دلالات الكلمة. واتصل بالمدد المحمدى حتى صار لا يفارقه طرفة عين. وأمضى الإمام القنائى حوالى ثمان سنوات فيها ما فيها من الأنوار والفيوضات. والتقى هناك فى الجوار المحمدى الشريف بأحد الصوفية الأجلاء وهو عالم قوص الكبير: الشيخ مجد الدين القشيرى رضى الله عنه، وكانت صحبته مباركة. وفى حضرة سيد الخلق – صلى الله عليه وسلم – كانت نقطة التوجه والانطلاق إلى آفاق العروج والتحقيق، وسطرت بحروف النور رسالة هذا الولى المحمدى وهى الدعوة إلى الله على بصيرة، ونشر الهدى الصوفى المحمدى فى آفاق الوجود، وقيادة الأرواح الطاهرة إلى سماء النور والوصول. ومن الرحاب المحمدى علم الإمام القنائى أبعاد مهمته ومركز دعوته فى ربوع كنانة الله فى أرضه، وعلى وجه التحديد فى مدينة (قنا) التى لا يكاد يذكر اسمها حتى تتسابق أنوار ذكرى مولانا السيد عبدالرحيم لتسكن أعماق النفوس الزكية.

وبصحبة سيدى مجد الدين القشيرى رضى الله عنه قدم سيدى عبدالرحيم عليه الرضوان إلى صعيد مصر الذى كان أشوق إليه من الزرع للماء والعليل للدواء،

---

(١) هو الشيخ أبو يعزى بن عبدالرحمن بن ميمون المغربى، انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب، وكان أهل المغرب يستسقون به، كما كانت الأسد والطيور تأوى إليه (انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١١٦/١ – ١١٧).

والذى كان يفتقر إلى عالم مرشد وإمام محقق يبدد ظلمة الباطل بإشراق نور الحق.

ووصل الشيخان الجليلان إلى مدينة (قوص) مقام الشيخ القشيرى ومركز دعوته إلى الله. وبعد ليال ثلاث قضاها سيدى عبدالرحيم بقوص وألح عليه النداء الباطنى مناما خلالها بمواصلة الرحلة إلى مركز الدعوة (قنا) امتثل الإمام وحل بموطنه الصوفى وحلت معه البركات والإمدادات. وحتى يتلاقى الظاهر بالباطن، فقد صدر مرسوم بتعيين سيدى عبدالرحيم شيخا لقنا. واستقر به المقام الأمين، وتزوج من ابنة صاحبه الجليل الشيخ القشيرى، كما اقترن بعد وفاتها بثلاث أخريات ورزق بعقب طاهر مبارك، فيروى أنه أنجب تسعة عشر ولدا وبنتا؛ منهم سيدى محمد كمال الدين وسيدى الكامل علم الدين محمود، وسيدى شمس الدين، وأبو محمد الحسن [1] والسيدة مباركة، والسيدة رحيمة والسيدة عزيزة رضى الله تعالى عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين.

ومكث العارف القنائى فى عاصمة دعوته (قنا) حتى لقى ربه بها سنة ٥٩٢هـ بعد حياة حافلة لا تقاس بالسنين - فذلك بخس لحقها - وإنما تقاس بمدى ما وصله الإمام من فتح وعرفان. تقاس بوصوله وتوصيله الخلق إلى جناب الحق تعالى.

أما تربية شيخنا القنائى الصوفية: فهى تربية خواص الخواص من ضنائن الحق المقربين.

ولقد أومأنا آنفا إلى أنه تربى على يد العارف المغربى الكبير سيدى أبو يعزى المغربى قدس الله سره ، وهو شيخ الغوث الشهير سيدى أبى مدين المغربى المتوفى سنة ٥٩٤هـ. وسيدى أبو مدين هو شيخ سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين آمين. ومن ثم يكون سيدى

---

(١) ترجم له كمال الدين الأدفوى فى الطالع السعيد ص٢٠٣ وذكر أنه كان من الصوفية الفقهاء الفضلاء العلماء، مالكى المذهب، ومن أرباب الأحوال والكرامات وقد توفى رضى الله عنه سنة خمس وخمسين وستمائة أ هـ.

عبد الرحيم أخا فى التربية لسيدى أبى مدين. وقد ذكر بعض الرواة ما يفيد أنه تتلمذ على سيدى أبى مدين أيضا، اذ يقول صاحب (قلائد الجواهر) فى مناقب سيدى عبدالقادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه وعنا به: (قال الشيخ عبدالرحيم القناوى رضى الله عنه: سمعت شيخنا أبا مدين رضى الله عنه يقول: أوقفنى ربى عز وجل بين يديه وقال لى: يا شعيب، ماذا عن يمينك؟ قلت يارب عطاؤك. قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يارب قضاؤك. قال يا شعيب: قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا. طوبى لمن رآك أو رأى من رآك) (1) !!

وممن تربى مع سيدى عبدالرحيم على سيدى أبى مدين المغربى سيدى عبدالرزاق الجزولى المدفون بالإسكندرية وهو شيخ للقطب العارف سيدى أبى الحجاج الأقصرى المتوفى سنة ٦٤٢هـ. ومن ثم تستوضح تفرع هؤلاء الأقطاب جميعا عن الشيخ الأول للعارف القنائى: سيدى أبى يعزى المغربى رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم أجمعين.

وإلى جانب ذلك فهناك نوع خاص من التربية يعد حدثا عجبا فى عالم التأثير الصوفى الروحى قد حظى به عارفنا القنائى.إنه التعهد والرعاية من الشيخ للمريد وهو لا يزال فى عالم الغيب قبل أن يوجد فى عالم الشهادة فلقد كان أحد العارفين يرعى الشيخ القنائى وهو لا يزال فى صلب أبيه . ومصدر خبر هذا الأمر هو قطب العارفين سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به إذ يقول فى كتابه النفيس المسمى بـ (الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية) — الملحق بالطبقات الكبرى - فى معرض بيان التربية الصوفية وذكر أحوال كمل الرجال المربين: (... وكانوا يراعون تلميذهم وهو فى الأصلاب كما وقع لشيخنا رضى الله عنه مع شيخه، وكما وقع لسيدى الشيخ محمد بن هارون مع سيدى إبراهيم الدسوقى، وكما وقع لسيدى أبى السعود بن أبى العشائر مع سيدى حاتم،

---

(1) انظر: قلائد الجواهر فى مناقب عبدالقادر للشيخ العلامة محمد بن يحيى التاذفى الحلبى ص: ١٠٨ ط/ الحلبى الثالثة.

وكما وقع لسيدى الشيخ محمد المغربى مع سيدى الشيخ عبدالرحيم القناوى رضى الله عنهم أجمعين) [1] هـ.

وترقى سيدى عبدالرحيم فى معاريج التربية الصوفية الرفيعة على أيدى أئمة التصوف وأقطابه إلى أن وصل إلى محيط النور، واكتملت صوفيته، ودخل الحضرة المحمدية الشريفة. وهناك ما فوق التصور القد تربى على عين المصطفى الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وأصبح شيخه الأوحد وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصار أحد أقطاب الحضرة المحمدية. ولهذه الحقيقة الكبرى سندها المتين الذى يباهى الشمس فى وضوحه وظهوره:

يروى القطب العارف سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى كتابه (لطائف المنن) عن القطب المحمدى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه وعنا به - وهو شيخ سيدى على الخواص شيخ الإمام الشعرانى رضى الله عنهم - أنه قال: (نحن فى الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: الجعيدى - يعنى نفسه - والشيخ أبو مدين، والشيخ عبدالرحيم القناوى والشيخ أبو السعود بن أبى العشائر، والشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين) [2].

هذه وثيقة التربية المحمدية من قطب محمدى يشهد لهؤلاء الأقطاب الخمسة بأنهم من أهل الحضرة المحمدية، وأن معراجهم فى الحقائق قد وصل إلى قمة لا شيخ لهم إذ ذاك إلا معلم الإنسانية الأول إنسان عين الوجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم. واكتمل الإمام القنائى وصار عليه أن يكمل غيره من صفوف السالكين وطلاب الحقيقة. فشيد طريقته المحمدية التى صارت مركز إشعاع محمدى يستضىء به أهل العناية.

---

(١) انظر: الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية لسيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه ص٢٨ ط/ الشرقية.

(٢) انظر بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشيخ نور الدين الشطنوفى ص/ ٢٢٢ط/ الحلبى.

وبالنور الذى استمده من سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - غذى قلوبا وأرواحا وربى عارفين وأقطابا. وهم لكثرتهم لا نتمكن هنا من استقصائهم. بيد أننا نشير إلى أبرز أعلامهم العارفين.

فالابن الروحى الأول لسيدى عبدالرحيم هو الإمام العارف سيدى أبوالحسن على بن حميد الصباغ المتوفى سنة ٦١٢هـ وهو المدفون بجوار شيخه فى ضريحه الأنور بقنا، فقد تخرج على يديه ونهل من راحتيه فغمره النور والفتح حتى صار آية من آيات الله وبابا من أبواب الحق تبارك وتعالى، فيروى العارف نور الدين الشطنوفى رضى الله عنه فى كتابه (بهجة الأسرار) عن أبى العباس أحمد بن محمد المعروف بالرأس رضى الله عنه أنه قال: (الشيخ أبو الحسن بن الصباغ رضى الله عنه شيخ مكمل عند الله عز وجل. انتهت إليه رئاسة هذا الشأن - أى التصوف - فى وقته فى الديار المصرية وبه غدقت تربية المريدين بها، وتخرج به غير واحد من أهلها مثل الشيخ أبى بكر بن شافع القوصى والشيخ علم الدين المنفلوطى والشيخ الإمام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع القشيرى المعروف بابن دقيق العيد وغيرهم رضى الله عنهم) وقد أفاض صاحب بهجة الأسرار فى ذكر مناقب العارف ابن الصباغ رضى الله عنه بما يوقف على سمو منزلته. كذلك تربى على يد مولانا القطب القنائى نخبة من الأقطاب والعارفين كسيدى أبى الحجاج الأقصرى وسيدى عبدالله القرشى، وابن شافع القنائى وغيرهم) [1].

ولقد كانت تربية الإمام القنائى لأبنائه فى الطريق قوامها التمسك بآداب الشريعة الغراء وتخليص القلب من كدورات البشرية، وتطهير النفوس من قذى الأذى لتعود كما كان فى أصلها تقية نقية، والمزاوجة بين العلم والعمل لتحقيق كمال العبودية، وغير ذلك مما سنطلع عليه من كلامه هو قدس الله سره.

---

(١) انظر بهجة الأسرار ومعد الأنوار للشيخ نور الدين الشطنوفى ص/ ٢٢٢ط/ الحلبى.

ولقد أفاض كبار العارفين وأصحاب الطبقات فى تبيان بعض مناقب قطبنا القنائى التى تشير إلى تحققه بالمقام الأسمى فى المعرفة والولاية.

فهذا هو القطب الشعرانى رضى الله عنه يقول عن سيدى عبدالرحيم فى مفتتح ترجمته من طبقاته:

(هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين، صاحب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، له المحل الأرفع من مراتب القرب، والمنهل العذب من مناهل الوصل، وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة وآتاه مفتاحا من علم السر المصون وكنزا من معرفة الكتاب والحكمة) [(١)].

وكان الشيخ أبو عبدالله القرشى رضى الله عنه يقول: (نور الشيخ عبدالرحيم غلب على أنوار جميع أصحاب الأحوال من أهل الديار المصرية فى وقته رضى الله عنه).

لقد أصبح سيدى عبدالرحيم من أهل الحضرة الإلهية وأضحى من أهل الكشف والمشاهدة فكان يتحدث بنعم الله تعالى عليه فيخبر ببعض ما حباه به مولاه من العطايا مما تسعه عقول أولى الألباب. يروى الإمام الشعرانى عليه رضوان الله عنه أنه كان إذا سمع المؤذن يقول (أشهد أن لا اله إلا الله يقول هو: - (شهدنا بما شاهدنا. وويل لمن كذب على الله تعالى [(٢)]!!

كما يروى عنه أنه كان يقول رضى الله عنه: (أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع) [(٣)] وليس المراد بالإدراك هنا الإدراك الحسى ولا الفهم العقلى وإنما هو فهم الخواص عن الله تعالى بالذوق الكشفى والشهود العرفانى. وإلا فالفهم العقلى متوافر نسبيا لدى علماء الرسوم. وفرق شاسع بين الفريقين.

على أن الإمام القنائى كان وهو يطلق عبارته هذه لا يزال فى ترق مستمر، ولعله أدرك فيما بعد صفة السمع أيضا، وليت شعرى لو وقف الخلائق على كنه

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١٣٣.

(٢) (٣) انظر- الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى ١/١٣٣.

هذا الإدراك الذى حظى به العارف القنائى وذاقوا من بحاره بعض قطرة لفروا إلى الله من أنفسهم ولاغتسلوا من أدرانهم ولباعوا الدنيا وما فيها - لو كانوا يملكونها - لقاء نعيم لحظة من لحظات الفهم عن الله والجلوس على بساط أنسه ومشاهدته.

أما عن منزلة الشيخ فى علوم الحقائق ولسانه فى العلم اللدنى ومعرفته بالأحوال والمقامات: فدونك المحيط الذى لا تعرف له ساحلا ولا قرارا. ولقد ذكر صاحب (بهجة الأسرار) طائفة من أقوال الشيخ رضى الله عنه حاولت أن أقتطف منها - حسب حدود المقال - بعض ما يعرفنا برسوخ مولانا القنائى فى علم الحقيقة وتبوئه للمقام الأرفع فى الولاية. ولكنى تحيرت ماذا آخذ وماذا أدع؟؟ وكلها جواهر ودرر تسكب فى القلب إشراق المعرفة وتضع بين أيدينا مناهج السلوك الصوفى ومعالم التربية الروحية، ومن خلال كل ذلك تعرفنا بمكانة القطب القنائى وبأحواله ومقاماته: يقول سيدى عبدالرحيم قدس الله سره: (قطع العلائق: محو الفقد. وظهور العقد بعدم الالتفات إلى السوى، وثقة القلب بترتيب القدر السابق. والتجريد: نسيان الزمانين حكما، والذهول عن الكونين حالا، وغض البصر عن الأين وقتا حتى تنقلب الأكوان باطنا لظاهر ومتحركا لساكن، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم، والابتهاج بمنفسحات الموارد وانشراح الصدور بصور الأكوان مع ثبوت المقام بعد التكوين ورسوخ التمكين. فتكون السماء له رداءً والأرض بساطا والهيبة فى القلب لعظمة الله تعالى: طمس أبصار البصائر لمشاهدته، ومشاهدته لمن سواه حسنا، فلا يرى إلا بأنوار الجلال ولا يرى إلا بسواطع الجمال.

والرضا: سكون القلب تحت مجارى الأقدار بنفى التفرقة حالا وعلم التوحيد جمعا. فيشهد القدرة بالقادر والأمر بالآمر، وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال.

والتمكين: شهود العلم كشفا ورجوع الأحوال إليه قهرا والتصرف بالقادح حكما وكمال الأمر شرعا.

والجوع: صفاء الأسرار فى استغراق الأذكار. والشوق: الاستغراق فى مجال الذكر طربا ثم الغيبة فى توسط الذكر سكرا ثم الحضور فى أواخر الذكر صحوا، فهو بين استغراق يهيجه، وغيبة تزعجه، وحضور ينعشه، وثلث وقت المشتاق استغراق وثلثه غيبة وثلثه حضور.

والحياة: أن يحيى القلب بنور الكشف فيدرك سر الحق الذى برزت به الأكوان فى اختلاف أطوارها فكيف هى حية بالله تعالى، ويخاطبه بأسرار معانيها وألطاف مبانيها.

والتبرى من الحول والقوة: ذهاب الخواطر من المحل عليه، وفناء الأكوان فى امتزاج الأنفاس غيبة. ويفيد صاحبه أن يحفظ الله عليه حاله ويرقى فى كل لحظة مقامه فلا يبرز فى الملك والملكوت حركة ولا سكون ولا اختلاف طور بحكم إلا وله فيه زيادة نورية وحقيقة إيمانية ونمو مقام، فلا يتكدر عليه حاله ولا يختلف عليه وجده. فإن ظهرت عليه القدرة أخفته، وإن بطنت فيه أظهرته. فرؤيته غيبة وحضوره بطونة.

والمصافاة بالأسرار: ألا يسمع آية إلا من مخاطب فى سره بسر المراد فى العمل، وتتنوع له الأفهام باختلاف المقامات فى العمل؛ فهو يرتع فى رياض الأسرار، ويصافى بخالص الأنوار، ويتجلى له الحكم فى أنوار الجمال، يهدى إليه ذواتها ويمنحه هباتها.

والواصل: ألقى السمع للإصغاء وفتح البصيرة للنظر. فتنقلب حروف الأكوان فى سر استماعه نذيرا وحكما ومواعظ فهو فى رياض التدبير بين حدائق المواعظ الناطقة والصامتة، وأزهار الحكم الباطنة والظاهرة.

والتقوى: ألا يظهر على محله حركة إلا وهى منوطة بحبل العلم مع غيبة عن حركته. فإن تكن باطنة ففى باطن العلم حكمها، وإن تكن ظاهرة ففى ظاهر العلم وجودها مع طهارة القلب وتسليم النفس ومبادرة الوقت. وإذا فتح هذا الوصف

للعبد آتاه الله عز وجل العلم وفتح له باب الإلهام الوحيى فيحدث روحه بأسرار الملكوت.

والتحقيق: الاستغراق فى الأنوار الغيبية؛ فيرى قلبه مشكاة دائمة الأنوار فيدرك به حقيقة النفس وكيف رتب الله تعالى وضعها، والناس فى ذلك على قسمين: متمكن أمكن ومتمكن غير أمكن؛ فالأول: هو الذى يجد العبارة العلمية منوطة بلطيف الحال مفصحة للتبليغ بشرط التلقى.

والثانى: هو الذى يدرك ذلك كشفا ويمتنع منه عبارة فهو غير مبلغ له حقيقة ما أدركه من لطيف الأنوار وخفى الأسرار.

والكشف: بروز الأفعال والأحوال على القسطاس الصديقى والصراط الحنيفى، وكذلك الأكوان تبرز له حقائقها على الوضع الأول من غير إشارة لتمثيل ولا تلويح بل بروز التشكيل. وهى تظهر له على اثنى عشر قسما: صنوان وغير صنوان لشموس المعارف ولطائف العوارف ، ويشهد فى ذلك ماله قبل الاتصال والانفصال.

والذكر: اضمحلال الذاكر برؤية المذكور حتى يبقى محقا فى عين المحو. وسكرا فى سر الصحو. قال تعالى: (واذكر ربك إذا نسيت) (١) معناه أنك ذاكر. فنسيانك ذكر، وغيبتك عن النسيان شهود المذكور وهو المعبر عنه بذكر الذاكر. وأما من قال إذا نسيت من سواه فاذكره: فهذا لا يصلح إلا للغافلين لا للمحققين، وهذه المقامات كلها نتائج اتباع الكتاب والسنة بحسن الأدب. ومن لا اتباع له للشرع فلا شىء له من هذه المقامات ولا الأحوال) اهـ (٢).

هذه أقباس من مشكاة معرفة الإمام القنائى تنبئ بتفرده فى علوم الحقائق والتحقق بها كشفا وذوقا، وهى كما نرى لا توجد إلا فى خزائن العلم اللدنى الذى نال منه قطبنا القنائى ما لم ينله أحد فى عصره، وليس هذا بعجيب ولا مستنكر

(١) سورة الكهف/ ٢٤.

(٢) انظر. بهجة الأسرار للشطنوفى: ١٩١ – ١٩٢.

على من تربى فى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وإنما العجيب أن ترى أناسا ممن طمست بصائرهم ينكرون على الأولياء رغم هذه الآيات الباهرة والمعارف الزاخرة والكرامات الساطعة والفتوحات الربانية العظمى التى لم ينلها أحد غيرهم. بل ومن عجب أن نفس الخوارق والكرامات التى جاءت لتفتح عيونهم على الحق الواضح وتعرفهم بفضل الله على أوليائه كانت هى الأخرى محل تكذيب وإنكار من أنصار الباطل، وزينت لهم ضلالتهم فحسبوها حقا واتباعا للسنة بينما هم فى غيهم يعمهون (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء...) [1]!

فلنمض إلى كنز الحقيقة الزاخر بالفتوحات والعطاءات الربانية والمنح الاصطفائية. ولكن ما ظفر به هؤلاء الخواص مما هو آية على تحققهم واجتباء الله لهم كلما علا شأنه وعز وصفه كلما استتبع ذكره معينا غزيرا من اليقين بصدق أحوال الأولياء حتى لا يقع المطلع على مناقبهم فريسة للشك والإنكار.

وميزاننا الذى لن نبرحه قيد شعرة هو الكتاب والسنة كما أشار القطب القنائى. أقول هذا لأن ثمة مناقب لسيدى عبدالرحيم ترتفع بالإنسان حينما يقف على معرفتها إلى مستوى يتضاءل فيه وزن العقل ويغلب وزن الروح والقلب.

يقول مولانا الشعرانى رضى الله عنه فى مناقب سيدى عبدالرحيم: (وحكى أنه نزل يوما فى حلقة الشيخ شبح من الجو لا يدرى الحاضرون ما هو. فأطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه) [2]!!

إنه إكرام الله تعالى لأولياء الأمة المحمدية أن يشفعوا حتى فى الملائكة بما أوتوه من مدد الشفيع الأعظم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة فاطر ٨

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٣٣.

وهذه الهفوة لا تقدح فى عصمة الملك كما لم يقدح الأكل من الشجرة مثلا فى عصمة أبى البشر عليه السلام.

ومن كرامات سيدى عبدالرحيم أيضا ما رواه سيدنا الشعرانى رضى الله عنه قائلا: (وكان إذا قال لعامى يافلان تكلم على العلماء فيتكلم عليهم فى معانى الآيات والأحاديث حتى لو كانت هناك عشرة آلاف محبرة لكلت عنه. ثم يقول له اسكت فلا يجد ذلك العامى معه كلمة واحدة من تلك العلوم رضى الله عنه) [1].

ومن كراماته رضى الله تعالى عنه ما ذكره سيدى الإمام النبهانى رضى الله عنه فى (جامع الكرامات) قائلا: (وقال الكمال بن عبدالظاهر: زرت قبره وجلست عنده فخرجت يده من قبره وصافحنى وقال: يابنى: لا تعص الله طرفة عين فإنى فى عليين) [2] !! وكان سيدى عبدالرحيم متصلا بالملأ الأعلى وعلى صلة وثيقة بالملائكة على غرار ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم غير أنه لم تظهر لنا إلا وقائع فردية مثل حالة سيدنا عمران بن حصين رضى الله عنه الذى كانت الملائكة تجالسه يقظة وتؤانسه فى مرضه كذلك. يقول سيدنا الشعرانى عن قطبنا القنائى: (وكان الشيخ إذا شاوره إنسان فى شىء يقول له أمهلنى حتى استأذن لك فيه حبريل عليه السلام فيمهله ساعة ثم يقول له افعل أو لا تفعل على حسب ما يقول جبريل. ثم يعلق الإمام الشعرانى قائلا: ومراده بجبريل صاحب فعلته هو من الملائكة لا جبريل الأنبياء عليهم السلام...) [3].

ومن كراماته رضى الله عنه: فائدة الأربعاء وتروى عن أبى عبدالله القرشى: وهى أن من له حاجة عند الله تعالى يزور سيدى عبدالرحيم يوم الأربعاء بكيفية مخصوصة بأن يمشى إلى قبره حافيا مكشوف الرأس وقت الظهيرة فيدخل ويصلى ركعتين ويقرأ شيئا من القرآن الكريم ويقول اللهم أنى أتوسل إليك بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبأبينا آدم وأمنا حواء وما بينهما من

(١) انظر. الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٣٣.
(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى رضى الله تعالى عنه: ٢/١٦٥.
(٣) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٣٣ والكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٦٨٣-٦٨٤.

النبيين والمرسلين وبعبدك عبدالرحيم اقض حاجتى ويذكر حاجته) يروى بتواتر أنه لم يجربها أحد إلا وقضيت حاجته [١]، ولقد توفى سيدى عبدالرحيم القنائى قدس الله سره سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هـ [٢].

رضى الله عنك يا سيدى عبدالرحيم وعنا بك ومنحنا بك عز الدارين مع خواص أحبابك إنه نعم المجيب.

* * *

(١)، (٢) المصدر الأخير ١/٦٨٤.

من أولياء القرن السابع

١ - سيدنا محيى الدين بن عربى رضى الله عنه سنة ٦٣٨هـ.

٢ - سيدنا أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه سنة ٦٥٦ هـ .

٣ - سيدنا داود العزب رضى الله عنه سنة ٦٦٨ هـ .

٤ - سيدنا أحمد البدوى رضى الله عنه سنة ٦٧٥ هـ .

٥ - سيدنا إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه سنة ٦٧٦ هـ .

٦ - سيدنا أبو العباس المرسى رضى الله عنه سنة ٦٨٦ هـ .

« ٣٥ »

﴿ الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه ﴾

فى قمة معاريج الحب الإلهى تتكشف سبحات الجلال عن جمال الذات العلية لتغذى أرواح أهل الاختصاص الذين سقيت ذواتهم من معين أسرار قول الحق تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فهم أولياء الحق تعالى وخواصه، الذين زجوا بأرواحهم فى محيط النور الأزلى تعشقاً للجمال المطلق فارتوت قلوبهم من معين السر المحمدى. وأثمرت أغصان المحبة فى قلوبهم قطوفاً دانية من كرْم الوصال تشعشعت به أرواحهم فهاموا فى حبه سكارى وراح الروح تجذبهم إلى رحاب القدس حيث هتكت لهم الأستار وكشفت لهم الأسرار. هنالك قمة الوصول لأهل الفتح والقبول من عباد الحق المقربين وخواصه العارفين.

وفى الذروة العليا من سنام الولاية العظمى والفتوح الربانى يتربع إمام من صدور الأئمة الربانيين والأقطاب المحققين . بل هو آية الله فى أوليائه، ومنحته العلوية لخُلَّص أصفيائه، إنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سلطان العارفين وختم الأولياء المحمديين، سيدى ومولاى الإمام محيى الدين بن العربى، قدس الله سره وأعلى فى الوجود ذكره، ورضى عنه وعنا به وأمدنا منه بالمدد الأعلى فى الدارين آمين.

هو شمس الولاية التى تكتحل بضيائها بصيرة كل عارف وتستمد من أقباسها . روح كل صوفى تعشقت روحه سر الصفاء الربانى. ومن عجب أن الشمس بكل

جلائها وظهورها وإشراقها لا تتطاول إليها قوى الإدراك لتلمس حقيقتها وجوهرها. ولعل مناط العجب أن سر تقاصر الإبصار عن إدراك جوهرها يكمن فى شدة ظهورها. كذلك الأمر فيما يتعلق بشمس الولاية سيدى محيى الدين رضى الله عنه. فأينما تحسست سر الصفاء الربانى فى ولى لله رأيت فيه قبساً من نور هذا الإمام. ومع ذلك فمما يثير العجب- كل العجب- أن نجد البعض من أدعياء الفكر والمعرفة ينكرون ولاية هذا الإمام العارف جاهلين أو متجاهلين ما له من منزلة دونها مرتقى الأفهام ومطمح البصائر. بيد أن شواهدها ملء السمع والبصر، ولا تقل دلالة فى محيط الإدراك العقلى والوجدانى عن دلالة الشمس على وجود النهار. فليس أمامنا من رد لهؤلاء المحجوبين سوى قول الشاعر:

وليس يصح فى الأذهان شىء

إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا ما استرسلنا فى مقارنة شمس الولاية بشمس الكون لأدركنا أن سر خفاء الحقيقة مشترك بينهما. فما المانع من إدراك حقيقة الشمس الكونية إلا عجز الأبصار عن الرؤية نتيجة لشدة ضياء الشمس من جهة ولبعد مرتقاها من جهة أخرى. كذلك ليس المانع من تعرف حقيقة شمس الولاية إلا عجز العقول عن إدراك الحقيقة نتيجة لقوة ضيائها من جهة ولبعدها عن مطمح الإدراكات من جهة أخرى. وثمة أمر مشترك آخر يتمثل فى أن مناط الانتفاع بالشمس إنما هو الاهتداء بها لا إليها. وعلى هدى ضوئها يتسنى الوصول إلى الحقيقة. فمن هنا نهتدى إلى الطريق، وعلى الدرب نسير.

ولسوف نخوض فى هذا المقال - مع يقيننا بعدم الأهلية لذلك - عباب بحر متلاطم الأمواج، خفىّ الأبعاد، بعيد الأعماق. وكل ما نعرفه عنه أنه بحر لكن مياهه ضياء، وأعماقه كنوز وشواطئه موصلة إلى الحقيقة. يصفه فريق من المحجوبين بأنه بحر الظلمات ، ويراه أهل الكشف بحر الأنوار الربانية. فيه تحيا الروح ويثمل العقل براح المحبة، وتستشعر النفس برد الرضا والطمأنينة. وإذا لم تكن أهلية

الخوض متوافرة فلنستمد من بحر النور قطرة فيها سر الضياء وليمدنا بها سلطان العارفين شيخ الصوفية محيى الدين.

فمن أى الجوانب ترى يكون البدء؟ لعله الجانب التاريخى. فلنتعرف على ملامحه فى عجالة عاجلة. إن شيخنا الأكبر هو سيدى أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى. من نسل عبد الله بن حاتم أخى عدى بن حاتم الطائى. ويعرف بابن العربى فى بلاد المغرب وبابن عربى فى بلاد المشرق ؛ تفرقة بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى.

وقد آثرنا هنا ترجمته بابن العربى تأسياً به رضى الله عنه حيث كان يسمى نفسه فى كتبه بالتعريف. ولقد قال التاريخ كلمته عن هذا الإمام ومنذ فجر ميلاده. فجاء به فى يوم من أخلد أيامه وهو يوم (بدر) حيث سجل أول نصر للإسلام.

ولد سيدى محيى الدين فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان المعظم سنة ٥٦٠هـ فى مدينة (مرسية) [1] ببلاد الأندلس. وأسرة سيدى محيى الدين من أعرق الأسر ببلاد المغرب، ولها فى الفضل والجود والعلم والتصوف منزلة سامقة شادت بها الألسنة والأقلام.

فوالده الشيخ محمد بن على من أئمة رجال الفقه والحديث. وكان على قدم فى طريق القوم. وقد ذكر سيدى محيى الدين فى فتوحاته بعض الكرامات التى وقعت لوالده يوم وفاته. فقال : (وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرنى بموته وأنه يموت يوم الأربعاء. وكذلك كان. فلما كان يوم موته وكان مريضاً شديد المرض استوى قاعداً غير مستند وقال لى يا ولدى : اليوم يكون الرحيل واللقاء. فقلت : كتب الله سلامتك فى سفرك هذا وبارك لك فى لقائك. ففرح بذلك وقال لى : يا ولدى، جزاك الله عنى خيراً، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هو ذا أنا أشهده. ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء لها نور يتلألأ . فشعر بها الوالد . ثم

---

(١) انظر : « محيى الدين بن عربى » للشيخ طه عبد الباقى سرور ص ١٢ - ١٤ . ط/ الخانجى.

إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه. فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده، وقلت له : أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتينى نعيك فقال لى: رح ولا تترك أحداً يدخل على. وجمع أهله وبناته. فلما جاء الظهر جاءنى نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت. وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم) [١].

هذا هو والده ولى من أولياء الله الواصلين.

وأما والدته فهى السيدة (نور) وهل ينجب النور إلا النور؟؟ لقد كانت من القانتات العابدات الصالحات. ومع عبير أنفاسها الطاهرة تصاعدت دعوات إلى الله تعالى أن يصطفى ابنها لحضرته، وقد كان.

وفى محيط الأسرة الصالحة أيضاً نجد أن جد سيدى محيى الدين كان من قضاة الأندلس العلماء الورعين . أما عن الشيخ عبد الله بن محمد، فقد كان من أهل الكشف والمعرفة. وأما عن أخواله: فقد سجل أصحاب الطبقات الصوفية لهم مناقب جليلة. فمن أخوال الشيخ الأكبر سيدى أبو مسلم الخولانى الصوفى الزاهد المجاهد الذى كان يقضى الليل قائماً لربه فإذا ما أدركه الإعياء ضرب رجليه قائلاً: (أنتما أحق بالضرب من دابتى !! أيظن أصحاب محمد صلوات الله عليه أن يفوزوا به دوننا؟؟ والله لازاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا من بعدهم رجالاً) [٢].

كذلك من أخوال سيدى محيى الدين سيدى (يحيى بن يغان) الذى كان ملكاً على تلمسان فجذبته العناية الإلهية ففر من ملكه ومن نفسه إلى الله، وآثر أن يمتلى القمة. فتصوف وتزهد حتى أن سيدى محيى الدين كان يقول لبعض من يطلبون منه الدعاء : (التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان فإنه ملك وزهد، ولو ابتليت بما ابتلى به

---

(١) انظر : « محيى الدين بن عربى » للشيخ طه عبد الباقى سرور ص ١٢ - ١٤ . ط/ الخانجى.

(٢) انظر : (محيى الدين بن عربى) للشيخ طه عبد الباقى سرور ص ١٤ وفيه العزو إلى الجزء الأول من الفتوحات المكية .

من الملك ربما لم أزهد)[1]. هذه لمحات عن البيئة الأسرية لسيدى محيى الدين والتى كانت تتسم بالصفاء والنقاء وتؤثر حق الروح عن فضول المادة. فارتقت فى سلم الفلاح إلى مدارج الوصول.

وفى (مرسية) درج الشيخ الأكبر فى أجواء النور فحفظ كتاب الله تعالى واستقى قلبه من هداه العظيم. تم انتقل سنة ٥٦٨هـ مع والده إلى (أشبيلية) وعمره ثمانية أعوام حيث التقى بصفوة من علماء عصره، وارتوى على يديهم من مناهل العلم أيما ارتواء. فقرأ كتاب (الكافى) فى القراءات السبع على الشيخ أبى بكر بن خلف وأبى القاسم الشراط. وقرأ (كتاب التيسير) لأبى عمرو الدانى على أبى بكر محمد بن جمرة. ودرس علوم الحديث والفقه واللغة على أساطين العلم وفحوله فى عصره مثل أبى عبد الله بن زرقون والحافظ بن الجد فقيه الأندلس وأبى الوليد الحضرمى وأبى الحسن بن نصر وأبى محمد عبد الحق الإشبيلى وأبى القاسم بن بشكوال وغيرهم[2].

وقد استوعب الشيخ الأكبر كل ما وقع بيده من مصنفات وما سمعه عن شيوخه من أقوال . فتألقت عبقريته العلمية وعلا نجمه على أقرانه، وارتفع إلى مرتبة الشيوخ وصار إماماً فى المعقول والمنقول، وأجازه جهابذة العلم بمروياتهم ومصنفاتهم كابن عساكر وابن الجوزى والحافظ السلمى، وعبد الحق الإشبيلى وغيرهم. وعرف كل أولئك ومن جاء بعدهم للشيخ الأكبر منزلته التى لا تسامى.

ولقد ذكر الشيخ المفسر المحدث إسماعيل العجلونى فى : (كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)، عن الشيخ حجازى الواعظ شارح الجامع الصغير للإمام السيوطى: أن الشيخ محيى الدين بن عربى معدود من الحفاظ[3].

---

(١) انظر : ابن عربى : حياته ومذهبه لاسين بلاثيوس ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٦.
وانظر : الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى : عبد الحفيظ فرغلى على القرنى ص ٢٠ سلسلة أعلام العرب.

(٢) انظر : البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٢٣-٢٥ والمراجع السابق ص : ١٤-١٥.

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٥٠/٢٠٠.

والحافظ فى مصطلح المحدثين يطلق على من يحفظ مائة ألف حديث. ثم لقد وصل الشيخ الأكبر أيضاً فى حياته إلى مرتبة الاجتهاد المطلق. حيث صرح بذلك فى فتوحاته فى الباب السابع والستين وثلاثمائة. فقال ، (وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع صلى الله عليه وسلم) كما قال رضى الله عنه أيضاً:

لست ممن يقول قال ابن حزم

لا ولا أحمد ولا النعمان

وعلى هذا البيت يعلق ابن العماد فى شذرات الذهب قائلاً: (وهذا صريح فى الاجتهاد المطلق. كيف لا؟ وقد قال، عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة ما قلتها. وعن أحاديث ضعفت من جهتها: قلتها، وإذا لم يكن مجتهداً فليس لله مجتهد . أن لا تراه فهذه آثاره) [1] أ. هـ.

هذه لمحة عن الجانب العلمى عند الشيخ الأكبر ولابد منها قبل إبراز الجانب الصوفى العملى. ليعلم الجميع أن الشيخ الأكبر حينما تصوف فقد تصوف على أساس متين من العلم والتبحر فى الشريعة إلى درجة الاجتهاد المطلق كما أسلفنا. ثم لقد ذكر بعض أصحاب الطبقات أن سيدى محيى الدين قد تقلد بعض وظائف الدولة قبل أن يتجرد للتصوف. فالإمام الشعرانى رضى الله عنه يقول فى طبقاته: (وكان - أى الشيخ الأكبر- رضى الله عنه أولاً يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب. ثم تزهد وتعبد وساح، ودخل مصر والشام والحجاز والروم، وله فى كل بلد دخلها مؤلفات) [2]

ولقد كانت العزلة هى نقطة التحول والمنطلق الروحى عند الشيخ الأكبر، إذ أنه بينما كان يعمل بالكتابة لبعض ملوك المغرب تجاذبته دواعى الحضرة الإلهية ليترك الكل وينقطع لربه. وأيا ما كان شكل هذا الانقطاع فإن البحث عن الغاية قد

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى : ٢٠٠/٥.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٥٩/١ - ١٦٠.

ملك عليه كيانه فلم تعد لديه القدرة على المضى فى طريقين: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) (١).

ولقد شاءت الأقدار أن يدخل فى محيط الربانيين، وأن ينغمس فى النور الإلهى، وأن يأخذ علمه عن الله تعالى بلا واسطة. وفيما يتعلق بفترة التعبد والخلوة والتحنث يقول الإمام الشعرانى فى اليواقيت والجواهر: (ثم إنه طرقه طارق من الله عز وجل فخرج فى البرارى هائماً على وجهه إلى أن نزل بقبر فمكث فيه مدة ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التى نقلت عنه، ولم يزل سائحاً فى الأرض يقيم فى كل بلد بحسب الإذن ثم يرحل عنها يخلف ما ألفه من الكتب فيها ...) (٢) . لقد خرج سيدى محيى الدين من خلوته وقد فتحت له خزائن العلم اللدنى وغمره الفيض الإلهى. ولم يكن سلوكه الطريق منذ البدء تلقائياً بلا واسطة. فقد صحب شيوخاً عديدين ترجم لهم فى كتاب أسماه(الدرة الفاخرة فى ذكر ما انتفعت به فى طريق الآخرة) ويصل عدد شيوخ سيدى محيى الدين كما ذكرهم إلى خمسة وخمسين شيخاً.

ومن أبرز هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم شيخنا سلطان العارفين: القطب العارف سيدى أبو مدين المغربى رضى الله عنه إمام التصوف فى وقته . وقد كان سيدى محيى الدين يلقبه بشيخ الشيوخ. يقول الشيخ محمد رجب حلمى فى كتابه (البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر) معرفاً ببعض شيوخه: (وأخذ العلوم الباطنية عن حضرة .. العارف الشيخ أبى مدين المغربى وجمال الدين يونس ابن يحيى القصار وأبى عبد الله التميمى وأبى الحسن بن جامع بالذات، وأخذها بالواسطة عن حضرة الغوث سيدنا عبد القادر الجيلانى وحصل له الفيوضات الغزيرة والفتوحات الكثيرة) (٣) . وأيضاً من شيوخه الإمام العارف : أبو العباس

---

(١) سورة الأحزاب / ٤.

(٢) انظر : اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر للإمام الشعرانى رضي الله تعالى عنه ١/٧ط الحلبى ١٣٧٨هـ

(٣) انظر : البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى القادرى أحد أحفاد الشيخ محيى الدين رضى الله عنه ص ٢٨ ط/ السعادة .

العرينى [1]، والشيخ أبو محمد بن عبد الله. وعنه يحدثنا سيدى محيى الدين قائلاً: (دخلت على شيخنا أبى محمد بن عبد الله بغرناطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة. وهو من أكبر من لقيته فى هذا الطريق، ولم أر فى طريقته مثله فى الاجتهاد. وكان ممن أوتوا فهماً فى القرآن إرثاً محمديا. فقال لى : الرجال أربعة: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم رجال الظاهر. ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحد . قال الله تعالى (وعلى الأعراف رجال): وهم أهل الشم والتمييز، والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم. كان منهم أبو اليزيد البسطامى. ورجال إذا دعاهم الحق يأتون رجالاً لسرعة الإجابة لا يركبون . قال تعالى (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً): وهم رجال المطلع...) أهـ [2] .

وأيضاً من شيوخه: الإمام العارف سيدى يوسف الكومى. ولسيدى محيى الدين معه هذا الموقف العرفانى الذى يرويه قائلاً : (سألنى شيخى يوسف الكومى سنة ست وثمانين وخمسمائة عن مسألة من مشكلات التصوف فقال : إذا اجتمع عارفان فى حضرة شهودية عند الله تعالى ما حكمها؟ قلت: يا سيدى، هذه مسألة تفرض ولا تقع؛ لأن الحضرة لا تسع اثنين ولا تشهدها عين زائدة. فإن افترضناها مثالاً: فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أو لا يجمعهما . ثم حكم التجلى من حيث الظهور واحد ومن حيث المتجلى له مختلف. فالذوق متباين لاختلافهما فى أعيانهما. ولا يجتمع شهود وخطاب وتجل ورؤية غير) [3]

أرأيت هذا المنطق العرفانى النضاح بالنور الذى فاض به لسان الشيخ الأكبر مع شيخه؟ إنه حديث العارف الذائق وما أجله وأجمله من حديث ذى شجون بين الشيخ وشيخه. فسبحان من أعطى وأنعم !!

ثم لا ننسى ونحن بصدد الحديث عن شيوخ الشيخ الأكبر أنه التقى فى مطلع

---

(١) ، (٢) انظر : محيى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦ - ٢٧.

شبابه بأم روحية له فى الطريق. وهى السيدة فاطمة بنت القرطب فكان يخدمها وكان لها من العمر آنذاك خمس وتسعون سنة على حين أن الذى يراها يحسبها بنت أربع عشرة سنة وكانت من القانتات العارفات بالله. يقول سيدى محيى الدين: (وكانت تقول لى : أنا أمك الإلهية ونور أمك الترابية. وإذا جاءت والدتى لزيارتى تقول لها: يا نور هذا ولدى فبريه ولا تعقيه) [١] !! ثم يذكر لنا الشيخ الأكبر أن له سنداً فى الطريق عن سيدنا الخضر عليه السلام عن طريق شيخه عبد الله بن جامع، فيقول فى الجزء الأول من الفتوحات (واجتمع به- أى بالخضر- رجل من شيوخنا وهو عبد الله بن جامع من أصحاب على بن المتوكل وأبى عبد الله قضيب البان كان يسكن بالمقلى خارج الموصل فى بستان له. وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضيب لبان، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذى ألبسه فيه الخضر فى بستانه وبصورة الحال التى جرت له معه فى إلباسه إياها) أ. هـ . بل لقد كان هناك اتصال مباشر للشيخ الأكبر بالخضر عليه السلام وتلقى عنه، إذ روى الإمام الشعرانى فى (الكبريت الأحمر) أن سيدى محيى الدين قال فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات : (كنت لا أقول بلباس الخرقة التى يقول بها الصوفية حتى لبستها من يد الخضر عليه السلام تجاه باب الكعبة) [٢].

وحتى لا يرتاب أحد فى مشروعية لبس الخرقة: فقد قال الإمام الشعرانى عقب هذا الكلام مباشرة: قلت، ذكر الحافظ ابن حجر أن حديث لبس الخرقة متصل ورواته ثقات. كما أوضحت ذلك فى مختصر الفتوحات. والله أعلم) [٣].

ويخلص لنا من كل ما سلف أن الشيخ الأكبر قد تربى فى رياض الصوفية تربية الأكابر على يد الأكابر. ثم ارتقى سيدى محيى الدين بعد ذلك إلى مرتبة التفرد المطلق والاتصال المباشر. فجاءته البشارة المؤذنة بالاتصال الكامل

---

(١) انظر : الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى للشيخ عبد الحفيظ فرغلى ص ٤١.

(٢) ، (٣) انظر الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر للإمام الشعرانى : بهامش كتاب اليواقيت والجواهر ١٤/١ ط / الحلبى سنة ١٣٧٨ هـ.

والمباشر. يقول رضى الله عنه : (ولقد أنعم الله علىّ ببشارة عظمى بشرنى بها وكنت لا أعرفها من حالى فأوقفنى عليها الإمام خليفة القطب. فقد نهانى عند التقائى به عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لى : لا تنتم إلا إلى الله. فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه. بل الله تولاك برعايته وعنايته. فاذكر فضل من لاقيت إن شئت ولا تنتسب إلا إلى الله) (١). لقد صار عبداً إلهياً لا نسبة له إلا إلى مولاه .

وتوالت عليه الإمدادات والفتوحات وذاق الأحوال والمقامات. وأصبح لا تمر عليه ساعة إلا وهو فى مزيد من الترقى والعروج. ولقد تحقق بجميع أحوال الصوفية ومقاماتهم والتى أحصاها بنفسه فى الفتوحاب فبلغت ستين ألفاً. استمع إليه وهو يقول رضى الله عنه : (قد دخلنا فى كل ما ذكرناه فى هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله وزدنا عليهم باسم إلهى هو (الآخر)، أخذنا منه الرياضة وروح الله الذى يناله المقربون من قوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) (٢) ونلت هذا المقام فى دخولى هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة) أى وعمره عشرون عاماً (٣) ».

ثم لقد تحقق سيدى محيى الدين رضى الله عنه بمقام (الصديقية العظمى) وهو المقام الذى يراه جل الصوفية خاتمة مقامات الولاية وأعلاها. بيد أنه بعد أن حظى به وجد أن ثمة مقاماً فوقه أعلا منه، فهو فوق الصديقية ودون النبوة مباشرة ويسمى (مقام القربة) وهو مقام سيدنا الخضر عليه السلام.

وعنه يحدثنا الشيخ الأكبر قائلاً: (هذا المقام دخلته فى شهر المحرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر بمنزل إنجيل ببلاد المغرب. فتهت فى هذا المنزل فرحاً ولم أجد فيه أحداً فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبى يزيد

(١) انظر : محيى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقى سرور ص ٢٧.

(٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٨٩.

(٣) انظر : محيى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقى سرور ص ٢٩.

بالذلة والافتقار ، رضى الله عنه ، وعن سيدى أبى يزيد المقربين فى مقام القربة وقرينا بهما إليهما ومعهما انتماء لجنابهما الشريف.

تلك هى أبرز مقامات الشيخ الأكبر وذلك هو مركزه الشامخ فى الولاية، لنتطلع إليه من بعيد وهو يحتل قمة التصوف والتحقق، وأنى لنا الرؤية؟ هل نسينا أن البصر أعجز من أن يحدق فى الشمس الصغرى- شمس الدنيا- ؟ وأن البصيرة أعجز من أن تحدق فى الشمس الكبرى - شمس الولاية-؟ وهل لدينا من القدرة ما نخترق به تلك الحجب وهذا البون الشاسع ما بين السماء والأرض؟ عذراً يا شمس الولاية فإنما نحن عاشقون لضيائك فلتسمح لنا فى أن نتعرف إليك فى أعلى عليائك. ونعود إلى رحلتنا مع الشيخ الأكبر عبر مسافات التاريخ فنذكر أنه أقام فى (أشبيلية) فيما بين عامى ٥٦٨ ، ٥٨٩هـ وخلال هذه الثلاثين عاماً صعد الشيخ إلى القمة وتربع عليها. كما أنه خلال هذه الفترة قام بعدة سياحات داخل بلاد المغرب زار خلالها عديداً من المدن والبلدان مثل : مورور، والزهراء، وقرطبة، وتونس، وفاس، وسبتة وغرناطة. وكلها سياحات صوفية التقى فيها بشيوخه، وحظى بأحواله ومقاماته. ثم فى سنة ٥٩٨ هـ ارتحل إلى بلاد المشرق حاجاً إلى بيت الله الحرام.

وفى مكة التقى بالشيخ أبى شجاع أمام مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام والذى بنى الشيخ الأكبر بابنته الصوفية الصالحة.

وفى مكة أيضاً ألف سيدى محيى الدين ديوانه الشعرى (ترجمان الأشواق) الذى يعد آية فى الشعر الرمزى والذوق الصوفى الرفيع.

ثم فى مكة أيضاً ألف الشيخ الأكبر أعظم موسوعة صوفية فى الإسلام وهى (الفتوحات المكية) وتقع فى أربعة مجلدات عظيمة ؛ تشتمل على خمسمائة وستين باباً وهى مقسمة إلى ستة أقسام: أولها فى المعارف، وثانيها فى المعاملات، وثالثها فى الأحوال، ورابعها فى المنازل، وخامسها فى المنازلات، وسادسها فى المقامات.

ومن أراد أن يقف على مكانة الشيخ الأكبر فى علوم القوم وأذواقهم ويطلع على قمة الذوق الروحى والعلم اللدنى ويعرف منزلة هذا الإمام فى الاطلاع على

الأسرار الإلهية فليطالع كتاب (الفتوحات المكية) الذى يؤكد لنا أن سيدى محيى الدين بحق هو ترجمان الصوفية الأكبر ، وحسبنا شهادة سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه لهذا الكتاب إذ يقول : (طالعت من كتب القوم مالا أحصيه، وما وجدت كتاباً أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ..) [١].

ثم يقول الإمام الشعرانى بعد أن أشار لما تضمنه كتاب الفتوحات من معارف: (وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، فإن علوم الشيخ كلها مبنية على الكشف والتعريف ومطهرة من الشك والتحريف) أهـ [٢].

هذا عن كتاب الفتوحات وهو أحد مصنفات الشيخ التى بلغت خمسمائة كتاب إذ يقول صاحب (البرهان الأزهر) : « وقد بلغت مصنفات الشيخ قدس سره زهاء خمسمائة، وإنه ليتمثل بها بين العامة» [٣].

ولقد نشر الأستاذ كوركيس عواد إحصاء المؤلفات الخمسمائة للشيخ الأكبر فى مقالات نشرها بمجلة المجمع العلمى بدمشق. ولقد ذكر الإمام الشعرانى فى اليواقيت أن الشيخ مجد الدين الفيروزأبادى قال : (وقد رأيت إجازة بخط الشيخ - محيى الدين - كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب ورأيت فى آخرها: وأجزت له أيضاً أن يروى على جميع مؤلفاتى ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفاً وأربعمائة مؤلف منها تفسيره الكبير فى خمسة وتسعين مجلداً وصل فيه إلى قوله تعالى : ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾، فاصطفاه الله لحضرته ..) [٤].

---

(١) انظر . الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر للإمام الشعرانى رضى الله عنه : على هامش كتاب (اليواقيت والجواهر) ١/٢-٣.

(٢) المصدر الأخير ٣/١.

(٣) انظر البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٣٩.

(٤) انظر . اليواقيت والجواهر للإمام الشعرانى : ٨/١ ط الحلبى .

بيد أن التراث العظيم الذى صنعه الشيخ الأكبر لم يجد من يصونه من بعده فابتلى بالدس فيه وبالتقول على سيدى محيى الدين ونسبة بعض العقائد الزائفة إليه كالقول بالحلول والاتحاد. وقد قيض الله للشيخ الأكبر من ذب عنه وناضل عن تراثه كالشيخ مجد الدين الفيروزأبادى والإمام الشعرانى وغيرهما. فقد اختصر سيدى عبد الوهاب الشعرانى كتاب الفتوحات المكية فى كتابه لواقح الأنوار القدسية وقال فيه : (وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة فحذفتها من هذا المختصر وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب كما وقع للبيضاوى مع الزمخشرى ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين حتى قدم علينا الأخ العالم المدنى المتوفى سنة ٩٥٥هـ فذاكرته فى ذلك فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره ..)[٢] .

وأنى يتصور القول بالحلول أو الاتحاد من الشيخ الأكبر وهو القائل : (ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد وما قال بالحلول إلا أهل الجهل والفضول)[٢] وهو القائل فى الباب التاسع والتسعين والمائة من الفتوحات (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث ولا يكون حالاً فى المحدث، وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ربط إضافة وحكم لا ربط وجود عين بعين فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبدا)[٣] أفبعد ذلك ينسب إلى الشيخ القول بالحلول والاتحاد؟؟.

وأما عن فكرة وحدة الوجود : فإنها عند الصوفية غيرها عند المستشرقين

---

(١) المصدر الأخير ط ص ٧ وانظر أيضاً : محيى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقى سرور ص / ١٧٥.

(٢) المصدر الأخير : ص / ١٦٩.

(٣) المصدر الأخير : ص / ١٦٧.

والفلاسفة ومن لف لفهم. وقد وقع اللبس فى الفكرة حين وقع الخلط بين الوجود والموجود فالموجودات لا شك متعددة ولا يمكن أن تتأتى فيها الوحدة. ولم يقل الصوفية إطلاقاً بوحدة الموجود. أما الوجود فما ثم إلا وجود واحد هو وجود الله تعالى . فهو سبحانه واجب الوجود الذى يمد كل الممكنات بالوجود وما دام وجود الممكنات ليس ذاتياً بل بإيجاده تعالى فوحدة الوجود قائمة على هذا النحو وذلك ما عناه الصوفية وعلى رأسهم الشيخ الأكبر.

ولكن أعداء الصوفية رفعوا ألوية التشهير بسيدى محيى الدين نتيجة للدس عليه من جهة ولعلو أذواقه وإغلاق عباراته وتأبيها على مدارك غير الخاصة من جهة أخرى. ولما وقع الإنكار على الشيخ قيض الله له من يرد عنه. فقد صنف الإمام جلال الدين السيوطى كتاباً يرد فيه على المنكرين على الشيخ الأكبر وأسماه (تنبيه الغبى فى تبرئة ابن العربى) وشهد له أئمة العلم والولاية بفضله وسمو منزلته فى معاريج التحقيق. وحسبنا أن نعلم أن الذى سماه بالشيخ الأكبر ولقبه بسلطان العارفين إنما هو القطب أبو مدين المغربى كما ذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته [١] وسيدى مصطفى البكرى فى (السيوف الحداد). وناهيك بشاهدة الإمام فخر الدين الرازى الذى كان يقول : (كان الشيخ محيى الدين ولياً عظيماً) وبالإمام السهروردى الذى كان يقول عن سيدى محيى الدين : (إنه بحر الحقائق) [٢] !! وهذا هو سلطان العلماء سيدى عز الدين بن عبد السلام يشهد للشيخ الأكبر كما روى الإمام الشعرانى فى طبقاته قائلاً : (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر المحروسة يحط عليه - أى على سيدى محيى الدين - كثيراً فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبانية) [٣].

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١٥٩/١.

(٢) انظر : البرهان الأزهر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٢٩.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٦٠/١.

وفى اليواقيت والجواهر يقول الإمام الشعرانى (وممن أثنى عليه - أى الشيخ الأكبر - من مشايخنا : محمد المغربى الشاذلى شيخ الجلال السيوطى، وترجمه بأنه مربى العارفين كما أن الجنيد مربى المريدين وقال : إن الشيخ محيى الدين روح التنزلات والإمداد وألف الوجود وعين الشهود وهاء المشهود الناهج منهاج النبى العربى قدس الله سره وأعلى فى الوجود ذكره) اهـ. وأما عن كرامات الشيخ الأكبر: فهذه كرامة نسوقها للمنكرين على سيدى محيى الدين خاصة ولأعداء التصوف عامة. يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات : (وأخبرنى أخى الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبى: أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محى الدين. فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فخسف به دون القبر بتسعة أذرع فغاب فى الأرض وأنا أنظر. ففقده أهله من تلك الليلة فأخبرتهم بالقصة فجاءوا وحفروا فوجدوا رأسه. فكلما حفروا نزل وغار فى الأرض إلى أن عجزوا وردموا عليه التراب) (١) !! وقد ذكر شيخ شيخنا سيدى أحمد ضياء الدين النقشبندى فى جامع الأصول أن الشيخ - محيى الدين- قدس الله سره - صاحب طريقة بالاستقلال لدى أهل الحقائق كبقية الطرق- وقد انتهت إلى سيدى أحمد ضياء الدين بجانب النقشبندية طريقة الشيخ الأكبر عن طريق شيخه سيدى أحمد بن سليمان الطرابلسى ولقنها هو لمولانا الإمام العارف سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه لتغمر أنوارها الوجود فى هذا العصر كما غمرته دائماً من قبل (٢) .

وبعد: فما ذكرت عن مولاى الشيخ الأكبر إلا بعض قطرة من سناه فبحق النور المحمدى أسألك يا سيدى محيى الدين يا سلطان العارفين أن تفيض علينا من أنوارك وأن تلحقنا بركابك رضى الله عنك فى زمرة المحمديين.

★★★

---

(١) انظر : المصدر السابق : ١/١٥٩.

(٢) انظر . الكتاب التذكارى محيى الدين بن عربى فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده : الفصل الثانى عشر : بحث الطريقة الأكبرية للدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ص ٣٥٠.

« ٣٦ »

إمام الطريقة الشاذلية
سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه

فى خضم الأنوار الإلهية تسبح أرواح العارفين الربانيين المتخلقين بأخلاق الحق تعالى، الهائمين فى بحار المحبة، الساجدين بأبدانهم على بساط النجوى الطوافين بقلوبهم حول العرش، المتنعمين بخصوصية المعية الاصطفائية. فهم دائماً وأبداً مع الحق بالحق للحق. يحظون بالتجلى الشهودى ويعاينون الجمال المطلق حيث يناجون معشوقهم كما قال العارف :-

جمالك فى كل الحقائق سافر
وليس له إلا جلالك ساتر
تجليت للأكوان خلف ستورها
فَنَمَّتْ بما تخفى عليه السرائر

إنهم الخاصة العليا من أولياء الله العارفين، وصفوته الواصلين. الذين أبرزهم فى مملكته رحمة لخلقه ودلائل إلى حضرته. رضى الله عنهم وعنا بهم دائماً وأبداً فى الدنيا ويوم الدين.

ومن سواطع هذه الشموس المشرقة، وشوامخ هذه القمم الشاهقة: إمام تفتخر به الأمة المحمدية. ويحق لها بل عليها أن تفتخر. وقطب تتحير الأوهام فى استشراف عليائه والعروج إلى أفق سمائه. وولى تزدهى به الولاية، فهو شمس سمائها ومبعث ضيائها. إنه القطب الفرد الجامع المتربع على عرش الولاية العظمى صاحب المعارج القدسية والمنازلات العرشية حامل لواء العارفين وعلم الأفراد الواصلين. الإمام العارف سيدى أبو الحسن الشاذلى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به وأمدنا بمدده الأعلى فى الدنيا ويوم الدين.

ولنستسمح مولانا أبا الحسن فى أن نشرف بالحديث عنه، وليمدنا بقطرة من بحار أنواره نرى من خلالها- وفى حدود طاقاتنا- بعض ما وسعته شخصية هذا القطب المحمدى من عطاءات ربانية لا يعلم مداها إلا المعطى سبحانه ومن ارتضى من خواص أوليائه. وأنَّى لمن هم أصفاد فى الأرض من أمثالنا أن يمتد بصره أو بصيرته لمن هم فوق عنان السماء من أمثال سيدى أبى الحسن؟؟

ألا فلنقبس من الشمس بعض الضياء على رغم البعد بين الأرض والسماء. وحين نتحدث عن صفوة الأحباء من خاصة الأولياء فلنتجاهل لوم الأعداء وعتب الجهلاء ممن حجبت قلوبهم عن إشراقات محبة الأولياء. فالأمر جد عظيم؛ لأن عظمة الإسلام نفسه لا تتجلى فى أروع صورها كأجلى وأبهى ما تكون مثلما تتجلى من خلال هؤلاء الرجال الذين صنعهم الإسلام لكى يصوغوا مجده ويرفعوا لواءه، ويُعْلُو الصرح المحمدى شامخاً فوق عنان السماء، ويبرزوا عظمة هذا الدين بمثله العليا ومبادئه السامية، وأخلاقياته وعطاءاته ممثلاً فى سلوكهم المثالى وفيضهم اللدنى، ومعراجهم الروحى إلى سماء الحقيقة. فلتنطلق مسيرتنا من البدء. من أصل الشجرة المباركة إنها الشجرة النبوية التى يتدفق فيها النور المحمدى ويتسلسل فى أغصانها المزهرة النسب الشريف حتى ينتهى إلى القطب المحمدى سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

فهو سيدى أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصى بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى ابن محمد بن مولانا الإمام الحسن بن سيدنا على كرم الله وجهه ، وابن مولاتنا السيدة فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - وقد روى النسب الشريف على هذا الوجه فى (لطائف المنن) لسيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه [1]. والروايات التاريخية كلها مجمعة على نسبة سيدى

(١) انظر لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن . للعارف بالله تعالى سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى رضى الله تعالى عنه ص / ٥٣ نشر المكتبة السعيدية بالقاهرة .

أبى الحسن إلى مولانا الإمام الحسن رضى الله عنهما. وقد ولد الإمام الشاذلى بقرية (غمارة) القريبة من مدينة (سبتة) ببلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة هجرية [1]. ونشأ بها نشأة أولى الاصطفاء، فحفظ القرآن الكريم وشرع فى تلقى العلوم الشرعية، ثم لم يلبث أن ارتحل - وهو لا يزال فى ريعان الصبا- إلى مدينة (تونس) حيث التقى هناك بجهابذة العلم لكى يشبع نهمه ويستقى من روافد المعرفة ما شاء الله له. وهناك تفقه على مذهب الإمام مالك، وحصل من مختلف العلوم النقلية والعقلية ما تفوق به على أفذاذ علماء عصره. لذلك يقول الإمام ابن عطاء الله : (إنه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة) [٢].

وانتشر صيته فى الأرجاء، فكان الشيوخ يقبلون عليه متتلمذين. وربما يتوق البعض لمناظرته تأكداً من مكانته العلمية. فيجلس إليه، وفجأة يحس المتناظر أنه أمام بحر مغرق لا يتأتى الاقتراب منه إلا للاغتراف من فيض علومه. إنه التضلع من علوم الشريعة استعداداً لسلوك الطريقة ولاستشراق أنوار الحقيقة. أما الخلفية التى تنطوى وراء هذا الجانب الظاهرى الممثل فى الإمام أبى الحسن العالم: فهى منذ البداية تتمثل فى البحث عن أول الطريق. عن الرجل الذى يتسلم زمام هذا القلب لكى يصله بالله اتصالاً لا انقطاع بعده. فلقد روى صاحب (المفاخر العلية) أن سيدنا أبا الحسن قال :

(لما دخلت تونس فى ابتداء أمرى قصدت بها جملة من المشايخ، وكان عندى شىء أحب أن أطلع عليه من يبين لى فيه خيراً. فما فيهم من شرح لى حالاً حتى دخلت على الشيخ أبى سعيد الباجى رحمه الله تعالى فأخبرنى بحالى قبل أن أبديه وتكلم على سرى فعلمت أنه ولى الله تعالى فلازمته وانتفعت به كثيراً) [٣]

---

(١) انظر المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية للعلامة أحمد بن محمد بن عياد ص ١٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤/٢.

(٣) انظر المفاخر العلية للعلامة ابن عياد ص ١٦ ط/ الحلبى.

وذاق سيدى أبو الحسن أولى نفحات الطريق فعقد العزم على السفر الطويل والهجرة إلى الله تعالى، وألقى عصا التسيار فى عدة بلاد وأقطار. فزار أكثر بلاد المغرب ثم شرق وارتحل حاجاً إلى بيت الله الحرام مرات عديدة وساح سياحات كثيرة وسلك مسلك الرياضة والمجاهدة. ولقد كان فى كل خطوة يخطوها يمور بداخله سؤال ملح (أين الشيخ ؟) . إن المريد فى طريق الوصول يشبه سفينة تمخر عباب المحيط. وهل تعرف السفينة طريقها بدون مرشد يحدد لها معالم الطريق؟؟ وهل ذلك المرشد للمريد إلا الشيخ الذى يقود خطاه إلى الله « فمن هو؟. حقيقة لقد عثر سيدى أبو الحسن من خلال سياحاته وهجراته المتتابعة على شيوخ عديدين وكلهم على قدم فى الطريق. وقد مرت بنا واقعة الشيخ أبى سعيد الباجى معه فى تونس. ولكن همة سيدى أبى الحسن كانت تطمح إلى مشرق شمس الولاية. أعنى إلى القطب ذاته. فكان يسأل عنه كل من يلقاه من الرجال. بل كان يسأل عن مظان وجوده فى الأمكنة والبقاع.

ولقد كان من المعروف فى الوسط الصوفى أن العراق برزخ الصالحين وموئل الرجال المتمكنين. فسافر إليها سيدى أبو الحسن. ولنتابع أحداث هذه الرحلة ومترتباتها البالغة الأهمية مع سيدى أبى الحسن نفسه. فلقد روى صاحب المفاخر العلية أن سيدى أبا الحسن كان يقول:

(لما دخلت العراق : اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى فما رأيت فى العراق مثله. وكان بالعراق شيوخ كثيرة، وكنت أطلب على القطب. فقال لى الشيخ أبو الفتح: تطلب على القطب بالعراق وهو فى بلادك؟ ارجع إلى بلادك تجده، فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذى الشيخ الولى العارف الصديق القطب الغوث أبى محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسنى- قال رضى الله عنه : لما قدمت عليه وهو ساكن منارة برباطه فى رأس الجبل.. اغتسلت فى عين أسفل الجبل، وخرجت عن علمى وعملى وطلعت عليه فقيراً وإذا به هابط على. فلما رآنى قال : مرحباً بعلى بن عبد الله بن عبد الجبار.. وذكر نسبى إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم. ثم قال لى يا على : طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك أخذت منا غنى الدنيا والآخرة. فأخذنى منه الدهش فأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتى، ورأيت له خرق عادات من كرامات وغيرها) أ هـ [1].

وهكذا كانت البداية الاصطفائية لسيدى أبى الحسن مع شيخه العارف سيدى عبد السلام بن مشيش قطب عصره. وهى البداية التى كان يسعى إليها سيدى أبو الحسن بعزيمة الرجال وقد كانت هى أيضاً تسعى إليه. فإن القطب فى عصر ما : ليعتبر ضالته المنشودة هى الرجل الذى سيحمل سره ويتقلد إرثه من بعده. وهو لذلك يبحث عنه كجوهرة ثمينة فريدة فى العالم. والتقى الوارث والمورث أو: تلاقى المريد مع شيخه. فليهنأ العالم بهذا اللقاء وياله من لقاء. وبدأت الفتوحات الربانية الكبرى تتوالى على الشيخ أبى الحسن وهو بصحبة أستاذ الولاية الأكبر فى عصره. إنه الشيخ ابن مشيش الذى يقول عنه ابن عياد فى المفاخر : (ومقامه بالمغرب كالشافعى بمصر) [2].

ولقد رأى سيدى أبو الحسن من فتوحات شيخه ومعاريجه الروحية وعلومه اللدنية ما يذهل الألباب. فاغترف من فيوضاته ونهل من نفحاته. ولقد كانت وصايا الشيخ له نضاحة بالنور يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته أن سيدى أبا الحسن كان يقول :

(أوصانى أستاذى رحمه الله تعالى فقال: حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىء وعند كل شىء، ومع كل شىء، وفوق كل شىء، وقريباً من كل شىء، ومحيطاً بكل شىء. بقرب هو وصفه، وبإحاطة هى نعته، وعد عن الظرفيه والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات وعن الدور بالمخلوقات وأمحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شىء معه) [3].

---

(١) انظر : المفاخر العلية للشيخ ابن عياد الشافعى ص ١٤.
(٢) المصدر السابق : ص ١٣.
(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢/ ١٠.

ويروى صاحب المفاخر بسنده عن الإمام أبى الحسن تلك الواقعة الفريدة التى كانت نقطة تحول وانطلاق لشخصية سيدى أبى الحسن على يد شيخه. ويقول مولانا الشاذلى :

(وكنت يوماً جالساً بين يديه وفى حجره ولد صغير فخطر ببالى أن أسأله عن اسم الله الأعظم. فقام الولد إلى. ورمى يده إلى أطواقى وقال : يا أبا الحسن أردت أن تسأل الشيخ عن الاسم الأعظم إنما الشأن أن تكون أنت هو الاسم.- يعنى سر الله مودع فى قلبك - قال فتبسم الشيخ وقال : أجابك فلان عنا. وكان إذ ذاك قطب الزمان، ثم قال لى يا على: ارتحل إلى أفريقية واسكن بها بلداً تسمى (شاذلة) فإن الله يسميك الشاذلى - ولم يكن سيدى أبو الحسن قد عرف بالشاذلى بعد - وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية. فقلت له يا سيدى، أوصنى.. فقال :

الله الله والناس. تنزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلا بَواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك. وقل : اللهم أرحنى من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم، ونجنى من شرهم وأغننى بخيرك عن خيرهم وتولنى بالخصوصية من بينهم إنك على كل شىء قدير) (١).

وارتحل سيدى أبو الحسن حسب تعليمات شيخه لتتحقق الأحداث التى أخبره بها شيخه مسبقاً حرفياً. وقد كانت رحلة النور وقد تخللها- كما أخبر شيخه- شىء من ضباب المحن التى يبتلى بها الأصفياء ثم لا تلبث أنوارهم أن تسطع من جديد وهى أشد صفاء وإشراقاً.

ذهب الشيخ إلى (شاذلة) وهى بلدة على القرب من تونس. وأقام هناك فترة تعبد وتحنث فى مغارة بجبل (زعفران) . وكان برفقته بعض أصحابه وتلاميذه

---

(١) انظر : المفاخر العلية للعلامة ابن عياد ص /١٥.

كالشيخ أبى محمد عبد الله الحبيبى وهو من أهل (شاذلة) ولقد شهد من أستاذه الشاذلى أحوالاً ومقامات- مدة إقامته هناك - يضيق عنها حد المقال. ثم كان فى نهاية إقامة الإمام الشاذلى بشاذلة ما رواه صاحب المفاخر العلية من أن سيدى أبا الحسن قال :

(قيل لى يا على : اهبط إلى الناس ينتفعوا بك. فقلت يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم. فقيل لى : انزل فقد أصحبناك السلامة ودفعنا عنك الملامة. فقلت يارب .. تكلنى إلى الناس آكل من دريهماتهم؟ فقيل لى : انفق يا على وأنا الملى. إن شئت من الجيب وإن شئت من الغيب) ولقد كان من تلك المناجيات والمخاطبات الإلهية ما يتعلق بتسمية الشيخ حيث قال رضى الله عنه : (قلت يارب لم سميتنى بالشاذلى ولست بشاذلى ؟ - أى من شاذلة - فقيل لى يا على : ما سميتك بالشاذلى إنما أنت الشاذلى- بتشديد الذال المضمومة- يعنى المفرد لخدمتى ومحبتى) أ.هـ [1].

وتوجه الشيخ أبو الحسن من شاذلة إلى تونس وسكن فيها بمسجد البلاط داراً تفتح للقبلة. والتفت حوله نخبة من الفضلاء وثلة من الباحثين عن النور وكان من بينهم صاحبه وخادمه الجليل سيدى أبو العزائم ماضى والشيخ أبو الحسن الصقلى وأبو عبد الله الصابونى وغيرهم. واتسعت شهرة الشيخ وذاع صيته. وفى الوقت نفسه كان ضباب المحن قد تأهب لاكتناف ضوء الشمس . فقد سمع به قاضى الجماعة أبو القاسم بن البراء. وعرف ما للشيخ من سامق المنزلة فى قلوب الخاصة والعامة. فأحس بمراجل الغيرة والحقد تغلى فى داخله، وخيل إليه أن الشيخ جاء ينتزع الكرسى الذى يجلس عليه ويسلبه مجده وشهرته. فأوقع به عند السلطان أبى زكريا مدعياً أن هذا الشيخ فاطمى، وقد جاء ليشوش عليه بلاده. فعقد السلطان اجتماعاً للمواجهة بين الشيخ والقاضى ويحضره الفقهاء وقد حضره السلطان متخفياً من وراء حجاب. وسئل الشيخ أبو الحسن عن نسبه مراراً فأجاب.

---

(١) المصدر الأخير : ص ٢٦ - ٢٧ ط / الحلبى .

ثم انفتحت خزائن علوم الشيخ ليجيب عن أى سؤال ولا يجاب هو عن أى سؤال. فبهت القاضى على مسمع من السلطان، ولم يسع السلطان حينئذ إلا أن يقول لابن البراء، هذا رجل من أكابر الأولياء وما لكم به طاقة.

وتزداد مرارة الحقد عند القاضى فيقول للسلطان: والله لئن خرج فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجوك من بين أظهرهم فإنهم مجتمعون على بابك.

وهنا تتغلب شهوة السلطة والمصلحة الشخصية فى نفس السلطان على رؤيته الحق. فيأمر بإخراج الفقهاء واستبقاء الشيخ أبى الحسن معتقلاً بالقصر. ويدخل بعض أصحاب سيدى أبى الحسن فيقول له أحدهم: يا سيدى .. الناس يتحدثون فى أمرك ويقولون يفعل به كذا وكذا من أنواع الأدب. وانفجر بالبكاء بين يديه وإذا بالشيخ يبتسم فى ثقة العارف واطمئنان الولى ويقول (والله لولا أنى أتأدب مع الشرع لخرجت من ههنا ومن ههنا وأشار بيده. وكلما أشار إلى جهة انشق الحائط!! ثم قال له : ائتنى بإبريق وسجادتى وسلم على أصحابى وقل لهم ما نغيب عنكم إلا اليوم خاصة، وما نصلى المغرب إلا معكم إن شاء الله تعالى).

وتتجلى كرامات الشيخ أبى الحسن مدللة على رفعه منزلته عند ربه. فيتوضأ ويصلى لله ثم تصعد المناجاة إلى الله فلا يحجبها حجاب ، بل تفتح لها أبواب السموات وتحفها أجنحة الملائكة. ويفاجأ السلطان فى اليوم والساعة بالآتى : أولاً: كانت عنده جارية ملكت عليه فؤاده وكان يعتبرها أعز ما لديه فأصابها فى ذلك اليوم مرض فماتت من ساعتها.

وثانياً : أثناء انشغال الجميع بغسل الجارية وإخراجها للصلاة أغفلوا مجمراً فى البيت فالتهبت النار فأحرقت كل ما فى البيت من الفرش والملابس والذخائر والأموال مما لا يعد ولا يحصى [1].

---

(١) انظر المفاخر العلية للعلامة ابن عياد ص ٢٧ - ٢٨.

عندئذ أدرك السلطان أنه أصيب من أجل هذا الولى سيدى أبى الحسن، وأدرك أنه عادى لله ولياً فآذنه الله بالحرب وتلك كانت مقدمته.

ومن عجب أن أخا السلطان كان من خلص أتباع الشيخ. وكان يومئذ يشيع جنازة خارج المدينة. وما أن عاد وعلم بما حدث حتى صب جام لومه وغضبه على أخيه وأخذه إلى الشيخ مسترضياً ومعتذراً.

ولقد منى ابن البراء فى آخر حياته بعاقبة تستدر دمع العدو قبل الصديق إذ فتن بماله وولده وساء أمر دينه واستخدمه الظلمة ولم يختم له بخير أعاذنا الله من غضب أوليائه.

وارتحل سيدى أبو الحسن من تونس متوجهاً إلى بلاد المشرق على نية العودة إلى تونس بعد أداء مناسك الحج. ودخل الإمام الشاذلى الإسكندرية. وكان فى انتظاره الشطر الثانى من المحنة التى اجتاز شطرها فى تونس. إذ قد سبقه إلى سلطان مصر عقد بالشهادة من ابن البراء ضد الشيخ للإيقاع به عند السلطان كما فعل بتونس وبنفس التهمة (التشويش على البلاد) وتكررت حادثة التحفظ على الشيخ وصَحْبه بالإسكندرية وفى نفس الوقت جاء جماعة إلى الشيخ متظلمين من السلطان وهنا رأى الشيخ ضرورة مقابلة السلطان بالقاهرة لرد المظالم ووضع الحق فى نصابه فخرج الشيخ وصحبه من مكان اعتقالهم مارين بالجنود والحراس دون أن يكلمهم أحد. لقد غشى عليهم فلم يبصروا ركب الشيخ. ووصل الركب إلى القاهرة ليشفع فى القبائل عند السلطان وإذا بالسلطان يقول للشيخ (اشفع فى نفسك) ويبرز له عقد ابن البراء فيرد عليه الشيخ (أنا وأنت والقبائل فى قبضة الله) وقام الشيخ منصرفا. فلما مشى قدر العشرين خطوة كلم القضاة السلطان فلم يتكلم، وحركوه فلم يتحرك !! فبادروا إلى الشيخ رضى الله عنه وأخذوا يقبلون يديه ويسترضونه. فعاد إلى السلطان وحركه بيده المباركة فتحرك ثم نزل عن

---

(١) المصدر الأخير ص ٢٨.

كرسيه وجعل يستسمحه ويقبل يديه ، ويسأله الدعاء ونفذت جميع مطالب سيدى أبى الحسن وردت مظالم القبائل (١).

ثم طلع الإمام أبو الحسن لأداء الحج وبعدها عاد إلى تونس وكانت عودته إلى تونس لأمر جليل. إنه اللقاء المنتظر بين وارث المدد سيدى الإمام أبى العباس المرسى وبين الشيخ المربى الإمام الشاذلى. لقد قال الشيخ أبو الحسن حين التقى بسيدى أبى العباس (ما ردنى لتونس إلا هذا الشاب) وقد كان لقاء لا افتراق بعده، فقد سرت جاذبية النور المحمدى بين العارف الشاذلى وخليفته المنتظر الذى قال له يوماً : (يا أبا العباس ما عرفتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت) (٢).

إنه المثل الأعلى فى ارتباط المريد بشيخه والشيخ بمريده إلى درجة الوحدة الروحية.

ثم ذات ليلة يرى الإمام أبو الحسن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام وكانت رؤيا تحمل البشائر وتشير إلى مركز الإمام الشاذلى فى التربية وتشير إلى استمداده المحمدى المباشر.

يقول رضى الله عنه (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا على : قلت لبيك يا رسول الله. قال لى انتقل إلى الديار المصرية تربى بها أربعين صدِّيقاً.. وكان ذلك فى زمن الصيف وشدة الحر- فقلت يا سيدى يا رسول الله الحر شديد.. فقال لى : الغمام يظلكم. فقلت يا حبيبى: أخاف العطش. فقال لى: إن السماء تمطركم فى كل يوم أمامكم. قال ووعدنى فى طريقى بسبعين كرامة) (٣).

وانتقل سيدى أبو الحسن إلى مصر ليحقق ما أنبأه به شيخه العارف ابن بشيش، ويرث القطبانية الكبرى. فلقد روى صاحب المفاخر العلية أن الشيخ العارف

(١) انظر أيضاً المفاخر العلية للشيخ ابن عياد ص / ٣٠.

(٢) انظر لطائف المنن للإمام أحمد بن عطاء الله السكندرى ص ٧٠ نشر المكتبة السعيدية - درب الجماميز - القاهرة.

(٣) انظر المفاخر العلية للشيخ ابن عياد ص / ٣١.

أبا على يونس بن السماط دخل على الشيخ أبى الحسن وهو بمقرية من الإسكندرية، وجلس بين يديه وتأدب معه بكلام لم يفهم الحاضرون منه شيئاً ثم قبل يديه وانصرف وهو يبكى. فتعجب منه أصحابه وسألوه أثناء الطريق عن ذلك فقال لهم : -

(رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وقال لى : يا يونس.. كان أبو الحجاج الأقصرى بالديار المصرية وكان قطب الزمان فمات البارحة وأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى فأتيت إليه حتى بايعته بيعة القطبانية- أ هـ (١).

وصار سيدى أبو الحسن موضع نظر الله من خلقه وأضحى قطب الوجود وغوث الزمان.

وأقام سيدى أبو الحسن بالإسكندرية فى مسكن وقفه عليه السلطان ببرج من أبراج السور، وتزوج وأنجب ذرية طيبة بعضها من بعض.

ولقد هتف به بعد قدومه إلى مصر هذه المرة يا على : ذهبت أيام المحن وأقبلت أيام المنن عشراً بعشر اقتداء بجدك - صلى الله عليه وسلم - (٢) وأخذ القطب الشاذلى يدعو إلى الله على بصيرة، وتتلمذ على يديه أساطين العلماء بمصر آنذاك وفى مقدمتهم سلطان العلماء سيدى عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد - والشيخ عبد العظيم المنذرى وابن الصلاح، وابن الحاجب وأبو العلم ياسين تلميذ سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم أجمعن (٣).

ونستوقف الآن خطى العرض التاريخى بعد أن أسهبنا الحديث فيه- بوازع من موضوعية البحث - لننظر من بعيد - بمقدار ما بيننا وبين الإمام أبى الحسن - إلى مقام القطب أبى الحسن. ولنتعرف على المدرسة الشاذلية بطابعها الفريد ومنهجها

---

(١) المصدر السابق : ص ٣١.

(٢) المصدر السابق . ص ٣٢.

(٣) انظر : المفاخر العلية ص / ٢٣، ٤٣، ٤٤ .

فى التربية. وماذا يمكن أن يقال عن الإمام الشاذلى للتعبير عن مقامه ؟؟ ماذا يمكن أن يقال عن إمام ذكر صاحب المفاخر العلية أنه كان يقول:

(أخذت ميراثى من رسول الله فمكنت من خزائن الأسماء، فلو أن الجن والإنس يكتبون عنى إلى يوم القيامة لكلّوا وملّوا) [1] ؟؟ أجل يا سيدى يا أبا الحسن لا يمكن أن تعبر عن مقامك الكلمات ولو كتبنا فيك حتى الممات !! فلنعترف بالعجز (والعجز عن الإدراك إدراك)، ولنقف عند ساحل البحر.

فقد روى سيدى الإمام ابن عطاء الله السكندرى أنه قيل للشيخ أبى الحسن من هو شيخك ؟؟ فقال : كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد بل أعوم فى عشرة أبحر. خمسة من الأدميين :

(النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وخمسة من الروحانيين : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح) [2].

ولنعش هذا اللقاء المحمدى مع القطب الشاذلى كما رواه وارث سره الإمام أبوالعباس المرسى رضى الله عنه إذ يقول : (كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان، وكان شهر رمضان، وكانت ليلة جمعة وكانت ليلة سبع وعشرين. فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه. فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل. فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ : ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول يا على : طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله فى كل نفس. قلت: يا رسول الله وما ثيابى؟ قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام،. فمن أحب الله هان عليه كل شىء، ومن عرف الله صغر لديه كل شىء، ومن وحد الله لا يشرك به شيئاً. ومن آمن بالله أمن من كل شىء، ومن أسلم لله قلما يعصيه وإن عصاه

(١) انظر المصدر نفسه : ص ١٢.
(٢) انظر المصدر نفسه . ص ٢١ - ٢٢.

اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره. ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل : « وثيابك فطهر» أ.هـ [١].

لقد كان سيدى أبو الحسن دائماً فى الحضرة المحمدية يأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويستمد منه ولا يغيب عنه أبداً ولقد روى صاحب المفاخر أنه كان رضى الله عنه يقول :

(والله لو حجب عنى رسول الله طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين) [٢].

وكذلك قال هذه العبارة وريثه سيدى أبو العباس فيما بعد حين خلف شيخه. ولقد كان سيدى أبو العباس أدرى الناس بحقيقة شيخه، وها هو ذا ينبئنا ببعض ما عرفه. فيقول رضى الله عنه : (جلت فى ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش: وهو رجل أشقر أزرق العينين. فقلت له : ما علومك؟؟ وما هو مقامك؟؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علماً. وأما مقامى فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال فقلت : ما تقول فى شيخى أبى الحسن الشاذلى؟ فقال : زاد على بأربعين علماً. هو البحر الذى لا يحاط به) [٣].

ولقد روى الإمام الشعرانى أن الشيخ ابن دقيق العيد كان يقول : (ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه) [٤].

إنه الإمام الشاذلى الذى بهر العلماء بعلومه وارداته فلم تتطاول إليه طاقات العقول فكان أوحد الدنيا فى علوم الحقائق. يروى الإمام ابن عطاء الله أن سيدى أبا الحسن قال : (قيل لى: يا على .. ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس فى علم

---

(١) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله السكندرى ص ٥٦ نشر السعيدية .
(٢) انظر المفاخر العلية ص ٢٣ - ٢٤ .
(٣) المصدر نفسه : ص /٢٢ .
(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢/٤.

الحـديث أبهى من مـجلس الشـيخ زكى الدين عـبـد العظيم، ومـا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك) [1].

وماذا عسى أن يتناوله الشيخ فى مجلسه؟ يقول ابن عياد : (وكان كلامه فى العقل الأكبر والروح الأنور والقلم الأعلى والقدس الأبهى والاسم الأعظم، والكبـريت الأحمر والياقوت الأزهر والأسماء والحروف والدوائر ..) [2].

إنه العلم اللدنى الذى لا يوجد فى ذلك العصر إلا عند الإمام أبى الحسن.

ولعزة هذا العلم وندرته وخصوصيتـه لخاصة الأولياء لم يسطره الإمام أبو الحسن فى كتاب بل بثه لأصحابه الذين توافرت فيهم أهلية الاستمداد، ولذلك حين سئل رضى الله عنه: لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟ قال رضى الله عنه: (كتبى أصحابى) [3].

ومن هنا نعبر إلى منطلق طريقته ومدرسته التى ملأت أسماع التاريخ وغمرت الدنيـا نوراً وهـديا فى كل عـصـر وزمـان. مـا هـى معـالم هـذه الطريقـة؟ يقـول شـيخ شيخنا سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى النقشبندى رضى الله عنه فى وصف طريق الإمام الشاذلى :

(وأمـا طـريقـتـه: فـجـاء فى طريق الله بالأسلوب العـجـيب والمنهج الغـريب والمسلك العزيز القـريب، وجمع فى ذلك بين العلم والعمل والحـال والمقـام الهـمـة والمقـال، واشتملت طـريقته على الجذب والمجاهدة والعناية، واحتوت على القـرب والتسليم والرعـاية، وشـيدت بالعلمين الظاهـر والبـاطن وسـائر الهـداية والأسـرار والكرامة والقـرب، وكان مبنى طريقته على طلب العلم وكثرة الذكر والحضور فكانت بهذا الاستحضار الذى هو الجمع أسهل الطرق وأقربها بعد النقشبندية، وليس فيها كثـرة المجـاهدة؛ لأن مـا فى النفس من النور الأصلى يتـعـاضـد ويقـوى بنـور العلم أو بنور الذكر ..) [4].

---

(١) انظر المفاخر العلية ص ٢٣.
(٢) انظر : المفاخر العلية ص / ٢٢.
(٣) انظر : أبو الحسن الشاذلى للشيخ علي سالم عمار جـ١ ص ١١٩.
(٤) انظر جامع الأصول للعلامة سيدى أحمد الكمشخانوى ص ٨٣.

ويروى صاحب المفاخر عن سيدى ابن عطاء الله أنه قال عن طريق الإمام أبى الحسن:

(وطريقه رضى الله عنه طريق الفناء الأكبر والتوصيل الأعظم حتى كان يقول : ليس الشيخ من يدلك على تعبك إنما الشيخ من دلك على راحتك) [١].

ولقد كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه يقول: (الناس يدعون إلى باب الله تعالى وأبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يدخلهم على الله) [٢].

وقد استمد القطب الشاذلى أسس طريقته من روح الكتاب والسنة. يقول رضى الله عنه.

(ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين فى الهداية. قال تعالى : وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) [٣][٤].ولقد كان رضى الله عنه يقول :

(من أراد عز الدارين فليدخل فى مذهبنا يومين. فقال له القائل كيف لى بذلك؟ قال : فرق الأصنام عن قلبك وأرح من الدنيا بدنك ثم كن كيف شئت.فإن الله تعالى لا يعذب العبد على مد رجليه مع استصحاب التواضع للاستراحة وإنما يعذبه على تعب يصحبه تكبر) [٥] .

وروى صاحب جامع الأصول أنه قال رضى الله عنه : (لقد جئت فى هذه الطريق بما لم يأت به أحد لأنه عين طريق النقشبندية وهى سلطان الطرق) [٦] .

كما روى أن سيدى محمدا المغربى رضى الله عنه قال (أعطى الشاذلية ثلاثاً لم تحصل لمن قبلهم ولا لمن بعدهم؛ الأول : أنهم مختارون فى اللوح

---

(١) انظر المفاخر العلية ص / ٢٣.

(٢) انظر المصدر الأخير ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) سورة السجدة / ٢٤.

(٤) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢/١٢٨.

(٥) انظر . أبو الحسن الشاذلى للشيخ على سالم عمار ص / ١٢٤.

(٦) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ص ٨٣.

المحفوظ. الثانى أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو. الثالث أن القطب منهم إلى يوم القيامة) [1] إنها خصوصيات الطريق الشاذلى يعرفها أهل التحقيق .

وفيما يتعلق بهذا الأمر الثالث خاصة فإن الأمر الواقع يصدقه كما يصدق أخويه.

إذ إن شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية رضى الله عنه حينما حان وقت توليه القطبانية الغوثية : (تشذَّل) فتلقى الطريقة الشاذلية عن العارف بالله سيدى عبد القادر الفاسى رضى الله عنه [2]. ولقد ربت الطريقة الشاذلية أقطاباً سرت أنوارهم فى كل عصر وزمان وعرفهم الإمام الشاذلى ورباهم بروحانيته القدسية فقد روى عنه أنه قال : (أعطيت سجلاً مد البصر فيه أصحابى وأصحاب أصحابى إلى يوم القيامة عتقاء من النار). ومصداقاً لذلك فقد بشر فى حياته بخليفته الخامس مولانا السلطان الحنفى رضى الله عنه إذ قال (يظهر بمصر رجل يعرف بمحمد يكون فاتحاً لهذا البيت ويشتهر فى زمانه ويكون له شأن) [3] وقال مرة أخرى : (الحنفى خامس خليفة من بعدى) إنها مدرسة الإمام أبى الحسن نديم الحضرة الإلهية الذى كان يناجى ربه كما يقول فى حزبه : (أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء ولا ببعده عنى إنك على كل شىء قدير).

وبعد :

فإنى لم أحاول أن أعرف بسيدى أبى الحسن فسيدى أبو الحسن هو شمس المعرفة، وإنى لأعتذر إلى مقامه الرفيع إذ قصرت فى الحديث عنه. إنما هى ومضات تجذب قلوبنا إليه فى عليائه، فإليك يا سيد العارفين يا سيدى أبا الحسن أتوجه بالرجاء وأنت فى حضرة الرسول- صلى الله عليه وسلم- لأن تهبنا نظرة العطف والإمداد لنكون فى معيتكم المباركة مشمولين بعطفكم فى الدنيا ويوم الدين. رضى الله عنكم وعنا بكم آمين.

(١) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ص ٨٣.

(٢) انظر : الأنوار القدسية للشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ يس السنهوتى ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) انظر المفاخر العلية للشيخ ابن عباد : ص / ٢١.

« ٣٧ »

قطب الأرض فى وقته :-

سيدى داود الأعزب رضى الله عنه

على القدم المحمدى سار خواص هذه الأمة الذين سجدت قلوبهم فى محاريب الولاء والاصطفاء وارتقت أرواحهم فى معاريج القدس والصفاء، حيث اتصلت بالمحبوب الأعلى وحظيت بالأنس والإشراق، فاكتملت عبوديتها لمولاها بفنائها فى حضرته، ثم عادت إلى الأكوان ربانية ملكوتية؛ لتشع أنوارها فى الوجود، وتجذب المنقطعين إلى رحاب القدس، وتحرر الأرقاء من عبوية النفس، وتشرق ثم تشرق، وتمد ثم توصل، إنها رسالة الورثة المحمديين أقطاب خير أمة أخرجت للناس. رضى الله عنهم وأمدنا بمددهم لنسير فى ركبهم وتحت لوائهم فى الدنيا ويوم الدين.

من أعلام أولئك الأئمة الأقطاب إمام جذبه الحق تعالى إلى حضرته واستخلصه لنفسه فوصل إلى الله وانقطع إليه واستمد من فيوضاته القدسية ونال عطاءه من الوراثة المحمدية فكان نعم المثل الصالح للسائرين على طريق العناية الربانية. إنه القطب العارف باب الفتوحات سيدى داود بن مرهف الأعزب رضى الله عنه وعنا به فى معية أحبابه المقربين.

هو أحد الأقطاب الواصلين الذين ازدهر بهم القرن السابع الهجرى، فكان حلقة متممة لسلسلة الولاية المحمدية، ومبعث إشعاع روحى غزا قلوب السالكين وبصائر المريدين، وقد تألق سناه فى فترة حفلت بثراء روحى فى شتى بقاع العالم الإسلامى. فحمل اللواء من سلفه الأخيار إلى خلفه الأطهار. وفيما بين تسلمه وتسليمه ضرب أروع أمثلة السلوك والتحقق ووصل إلى قمة الولاية والتمكين.

وسيدى داود ينتمى نسبه إلى البيت العلوى الشريف، فأبوه سيدى مرهف بن أحمد بن سليمان بن وهب الذى تمتد سلسلة نسبه إلى سيدى محمد بن الحنفية ابن مولانا الإمام على كرم الله وجهه (١).

وقد ولد سيدى داود رضى الله عنه سنة ست وستمائة هجرية، وكانت وفاته ليلة السابع والعشرين من جمادى الآخر سنة ثمان وستين وستمائة هـ .

أما أسرته فقد كانت تقيم بالحجاز حيث ولد سيدى داود فى (الصفرا) وتربى هناك فى أحضان عشيرته التى كانت تضم نخبة زكية من أهل التقى والصلاح مثل والده الشيخ مرهف ووالدته السيدة سلمى، وكانت من القانتات العابدات. وخاله العارف سيدى محمد القصرى المدفون الآن بقويسنا وزوجة خاله المذكور السيدة حامدة المدفونة بأسنيت، والسيدة صالحة شقيقته ووالدة خليفته من بعده سيدى عمران - رضى الله عنه - الذى هو مدفون إلى جواره فى ضريحه الأنور بتفهنا العزب غربية.

وحين قدم سيدى داود إلى مصر وقد استوى عوده وتأهل للتربية الصوفية: التقى بشيخه القطب العارف سيدى أبى السعود بن أبى العشائر رضى الله عنه، الذى يعد قمة شامخة من قمم الولاية فى القرن السابع، إذ يقول عنه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (هو من أجلاء مشايخ مصر المحروسة وكان السلطان ينزل إلى زيارته، وتخرج بصحبته سيدى داود المغربى وسيدى شرف الدين وسيدى خضر الكردى ومشايخ لا يحصون، وكان يسمع عند خلع نعليه أنين كأنين المرض فسئل رضى الله عنه عن ذلك فقال : هى النفس نخلعها عند النعال إذا اجتمعنا بالناس خشية التكبر! وصام فى المهد رضى الله عنه ..) (٢) اهـ.

هذا هو شيخ سيدى داود الذى تربى على يديه ونال فتحه الإلهى. ونستطيع -

---

(١) انظر : طبقات الأولياء لابن الملقن بتحقيق وتعليق نور الدين شريبة : ص ٤٧٥ وانظر : الخطط التوفيقيه لعلى مبارك ٣٩/١٠.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١٣٧/١.

فى ضوء ما ذكره الإمام الشعرانى عن سيدى أبى السعود - أن نستجلى بوضوح صورة المرشد والمربى الذى تخرج من مدرسته الروحية أئمة وأقطاب ومشايخ لا يحصون كما نستجلى أيضاً نوعية هذا المنهج السلوكى الذى تربى به سيدى داود فى مدرسة شيخه القطب بن أبى العشائر.

فهذا المنهج يعتبر فى جوهره امتداداً لمنهج القطب العارف سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه الذى من أبرز سماته :- التواضع والفتوة وفناء النفس فى طاعة الله، والأخذ بالعزائم والتخلق بمكارم الأخلاق وخرق العادة وبذل الطاقة فى خدمة المسلمين.

ومن ثم نستطيع أن ندرك سر التجرد الذى يمثل أبرز سمات القطب الأعزب، والذى من أجله آثر العزبة على التأهل حتى لقب بالأعزب أو العزب.

فلم يكن فى حياته متسع لزوجة ولا لولد، إذ كان مولاه هو شغله الشاغل الذى ملك كليته .

وظاهرة العزبة نجدها خصوصية عند بعض أكابر الطريق كسيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبى يزيد البسطامى وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين، وإن دلت هذه الظاهرة على شىء فإنما هو التجرد الكامل من عارف لا يرى فى نفسه بقية يهبها لغير الله، وليس لديه من الاستعداد ما يمكنه من القيام بأعباء التأهل ومترتباته، فصرف حياته لمولاه الذى استأثر به لنفسه فلم يشأ أن يجعل لغيره منه حظاً.

ومن منطلق التفرغ والتجرد نعبر إلى ساحة مليئة بالنور نضاحة بالإشراق حافلة بالإمدادات، ونقف على مشارف فتح إلهى مطلق لم يحظ به فى كل عصر إلا فرد واحد هو صفوة ذلك العصر.

فيخبرنا الإمام المناوى رضى الله عنه عن مقام مولانا العارف داود قائلاً :- (داود الأعزب: صوفى بحره طامى، ونور حاله لا يدركه مقدم ولا تالى) (١).

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢/ ٨٠.

ثم يضع بين أيدينا وثيقة التفرد الأسمى لسيدى داود، حيث يقول رضى الله عنه : - (بشر به قبل وجوده أبو الحجاج الأقصرى فقال : ليظهرن داود الأعزب يكون قطب الأرض والقائم بالوقت) [1] !!

لله درك يا سيدى داود. فأنت واحد الدنيا فى عصرك ونخبة الله من خليقته فى زمانك !.

إن مرتبة القطب هى ذروة مراتب الولاية. وفى تعريف القطب يقول سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى شيخ أستاذنا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سرهما: القطب هو الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام.

وهكذا سبقت البشرى بالقطبية من سيدى أبى الحجاج رضى الله عنه الذى كان قطب زمانه قبل سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه مباشرة ، وانتقلت القطبية منه إليه كما أوضحت فيما سبق عن القطب الشاذلى رضوان الله عليه.

ولم تكن هذه البشرى من سيدى أبى الحجاج وحدها هى شاهد التفرد وسمو منزلة القطب الأعزب. وإنما عانقتها شواهد وشواهد لا تخضع للحصر.

لقد كان سيدى داود من أقطاب القرن السابع الذى شهد عيون الولاية وشوامخ أعلام الصوفية، وكان طبيعياً أن نجد صدى منزلته وولايته لدى أئمة التصوف فى هذا القرن. ولولا ظاهرة الخفاء التى ناطت بتاريخ التصوف فى كثير من أحقابه لوجدنا من مناقب سيدى داود الكثير والكثير.

ومن بين ما تسرب إلينا من مناقب القطب الأعزب ما ذكره بعض الصوفية من أنه قد توافر لسيدى داود أن يلتقى بقمة الولاية الشامخة فى هذا القرن .

أعنى مولانا سلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به . فيروى أن سيدى أحمد البدوى حين قدم من العراق إلى مصر أقبلت إليه وفود

(١) المصدر الأخير نفسه .

الأولياء مهنئة، ومبايعة له بإمامته للأولياء فى عصره. وكان من بين من قدم لتهنئته: سيدى داود الأعزب رضى الله عنه. بيد أنه لم يأت إليه إلا عقب الوفود جميعاً. فسأله مولانا البدوى عن مجيئه آخر الوفود. فقال سيدى داود: جرت العادة يا سيدى أن يأتى الملوك أولاً ثم الخدم والعبيد ثانياً!! فرد عليه سيدى أحمد البدوى قائلاً : لا يا داود، بل الخدم والعبيد أولاً ثم الملوك ثانياً !!.

لله ما أرفع أدب الأولياء وما أجل تواضع العظماء !! من هذه الواقعة ينعكس لنا طابع التواضع الفريد عند سيدى داود الذى دفع به إلى الصدارة وجعله فى مصاف الملوك. ملوك الولاية وسلاطين المعرفة.

ومن ثم يتضح جلياً مقام سيدى داود. وعند من ؟؟ عند سلطان الأولياء الذى جاوز مقامات الولاية جميعاً وكان معدوداً من أفراد العالم.

وأقصد بتلك الإشارة الرد على تساؤل يمكن أن يطرح . وهو : إذا كان سيدى داود آنذاك هو قطب الوقت فما مقام بقية الأقطاب؟ نقول إنه من المقرر عند الصوفية أنه ما من مقام إلا وفوقه مقام حتى تنتهى الحدود المرسومة ويبقى من الكمالات ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وهناك يحلق الأفراد والملامتية وغيرهم، ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (١).

كذلك نجد ونحن بصدد التعرف على منزلة سيدى داود فى الولاية كثيراً من شواهد العروج إلى القمة.

فيروى أصحاب الطبقات أن سيدى إبراهيم الجعبرى رضى الله عنه- وهو من أجلاء الصوفية المتمكنين - قد اجتمع بسيدى داود رضى الله عنه حين قدم مصر. فسئل سيدى إبراهيم عن سيدى داود بعد اجتماعه به فقال : (ما أقول فى سبع من لم يلتزم معه الأدب يفترسه). ثم أضاف قائلاً : (دخلت عليه يوماً فنسيت ما معى من العلوم) (٢) !! .

---

(١) سورة المدثر / ٣١.

(٢) انظر . الكواكب الدرية للعلامة المناوى : ٢ / ٨٠ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

لا شك أن هذه الواقعة تصور لنا مدى رسوخ سيدى داود وتفرده فى العلوم اللدنية إلى حد ينسى معه عارف كالشيخ الجعبرى ما لديه من العلوم بمجرد الدخول عليه.

ولقد كان من الشواهد البارزة على سمو مكانة سيدى داود أيضاً ما سمعته من بعض الصوفية المعاصرين الثقات من أن شيخى وقدوتى إلى الله القطب العارف مولانا الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية قدس الله سره: كان يزور ضريح سيدى داود رضى الله عنه ببلدة تفهنا العزب على مدى أربعين عاماً ويشهد بولايته العظمى.

وعن تحقق سيدى داود بمقامات الولاية العظمى يروى لنا العارف المناوى رضى الله عنه أن سيدى داود رضوان الله عليه قال : (مددت رجلى يوماً فنوديت من يجالس الملوك لا يسىء الأدب) [(1)] !!

إنه نداء الحضرة الربانية الذى سبق أن نودى به سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه وغيره من أئمة هذا الطريق ، وهو نداء لا يصدر إلا للكمل من الرجال إيذاناً بأن الولى صار من أهل الحضرة وصار جليس مولاه فلا يجالسه إلا على أكمل حال حيث قمة المراقبة والحضور.

ولقد كان لسيدى داود رضى الله عنه لسان عال فى الطريق وإشارات لدنية تخترق حجب النفس والقلب والروح لتنفذ إلى أعماق السر وترويه بماء الحكمة العرفانية وترفع عنه الحجب والمساتير كى يمضى على طريق العناية إلى أسمى غاية. فكان رضى الله عنه يقول : (إذا قام الولى من قبره أتته خلع الرضا ونشر قدامه لواء ما بين المشرقين ونادى جاويشه بين يديه للمحشر) [(2)].

وكان يقول قدس سره : (إذا رأيتم جاه الرجل قائماً بعد وفاته فاستدلوا به على نفعه فى الآخرة) [(3)].

---

(١) المصدر السابق : ٨١/٢.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٨٠/٢.

(٣) المصدر الأخير .

وفى بيان الشكر على نعم الله وربطه بدوامها أثر عن سيدى داود أبيات رواها سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب البحر المورود قائلاً : (وكان سيدى داود العزب ينشد : -

إذا رزق الله الفتى ما يصونه ... وسلمه من فتنة وضلال
وعافاه مع أمن وأصبح شاكياً ... لدقة حال أو لقلة مال
فقل نعم إن أنت أحكمت قيدها ... بشكر وإلا آذنت بزوال [(١)]

وتحدث سيدى داود عن المريد الصادق ولكنه حديث الخواص الذى لا يتأهل له إلا من شرب من شراب القوم وخاض فى بحارهم وارتفعت روحه بالعبادات عن نطاق العادات يقول عليه الرضوان: (علامة العارف الطيران فى الهواء والمشى على الماء والإنفاق من الغيب وكون الدنيا بين يديه كالقصعة يتصرف فيها كيف يشاء ويرى ظاهرها من باطنها كالقنديل) [(٢)] .

ولا جدال فى أن منطق المحجوبين عن الله يستبعد كل هذه المفاهيم فى تعجب واستنكار. ولكن من قال أن عين الضرير حجة على عين البصير ؟؟ إن هؤلاء الصفوة الأولياء هم أمناء الله فى عباده ونخبته من خليقته أودعهم سره وأغدق عليهم من عطاياه وبره.

فأى عجب فى أن يذلل لهم طبائع الأشياء وقد ذللوا طبائعهم فباتوا فى حبه هائمين ومن خشيته مشفقين وبحقوقه قائمين!!.

ولست مع البعض الذى يتراجع عن موالاة الأولياء ونصرتهم والقيام بحقوقهم بذكر وكشف النقاب عن مآثرهم وخوارقهم مهما كانت بعيدة التصور فى نظر المحجوبين مادامت على منهاج الشريعة الغراء.

---

(١) انظر : البحر المورود فى المواثيق والعهود للإمام الشعرانى - بهامش كتاب (لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية) له أيضاً ص ١١٢ط/ الميمنية.

(٢) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٢/ ٦٤.

ولست أيضاً مع من يقدح فى إظهار مراسيم الحب للأولياء والتبرك بآثارهم مادام الحب فى الله ولله هو المقصد والغاية.

فالتبرك استمداد من عطاء الله الذى منحه لأحبابه، وذكر الكرامات والخوارق تدليل على محبة الله لأوليائه ومناصرته لهم.

وانطلاقاً من هذا المنطلق الواضح والمحدد نتبرك بذكر بعض كرامات مولانا القطب الأعزب :-

. ذكر العارف المناوى فى مناقب سيدى داود من طبقاته: إن من كراماته رضى الله عنه أنه استضافه إنسان وذبح له رأس غنم وجاء له به فقال ارفعه. فتبين أن غنمه اختلطت بغيرها فكان المذبوح من ذلك الغير [1] !!.

وهذا يذكرنا بالإمام المحاسبى رضى الله عنه الذى قال عنه الإمام أبو على الدقاق : (كان الحارث إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه عرق فكان يمتنع عنه) !!.

إنها قمة الورع التى وصلها أقطاب الصوفية وحدهم بما نالوه من إرث النبوة.

ومن كرامات سيدى داود أيضاً : أنه صنع له إنسان طعاماً فذبح له شاة فعلم والده فحنق من ذلك، فلما جئ له به قال لأصحابه : (كلوا اللحم واجمعوا العظم ولا تكسروا منه شيئاً) فلم يشعر به إلا وهو يرعى مع الغنم [2] !! .

ومن كراماته رضى الله عنه أيضاً : أن امرأة جاءته بولد قد تعوجت يداه ورجلاه وقالت إن والده ينكره لما ناله فما ترى ؟؟ فأحضروا والده فقال له سيدى داود : إن برئ من ذلك تستلحقه؟ قال نعم : فوضع يده على الولد فقام صحيحاً سليماً [3] !!

---

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام النبهانى : ٨٠/٢.
(٢) المصدر السابق ٨١/٢.
(٣) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٦٤/٢.

وذكر الإمام المناوى أيضاً أن من كرامات سيدى داود : أن ابن الحبشية واقع جارية له سوداء فأتت ببنت. فقال لها : إن قلت إنها منى قتلتك. ثم دخل على الشيخ فقال له الشيخ : أرى جارية بالباب تشكو منك. اخْتَرْ إماً الصلب أو الضرب. فخرج من عنده فلقيه أمير البلد فضربه كما قال الشيخ رضوان الله عليه [1]. إنها مكاشفات الأولياء وخوارقهم وتصريفهم النافذ الذى منحهم الله إياه قد بدت أجلى من الشمس فى وضح النهار على يد سيدى داود الأعزب الذى بلغ علياء التفرد والتمكين فلقب بعدة ألقاب تشير إلى سمو منزلته مثل : (باب الفتوحات) و (خامس الأقطاب) أى الأقطاب الأربعة : سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

كذلك لقب بـ (سياف الأربعة) أى منفذ أحكامهم الباطنية التى يصدرونها عن إلهام من الله. وله غير ذلك من الألقاب والمآثر مما هو مذكور فى مناقبه رضى الله عنه.

وبعد :

فهذا قليل من كثير عن سيد من سادات الصوفية الأمجاد وأعلامهم الأفراد الذين اصطفاهم ربهم لحضرته، ومنّ عليهم بمعرفته.

وقد وقف بنا العجز عند ساحل البحر لنتطلع إليه فى شوق وانبهار على قطرات من فيضه الزاخر تصيب جدب قلوبنا فتحييها بالنور والمعرفة.

رضى الله عنكم يا سيدى داود وأمدنا من بحار أنواركم وأظلنا بلوائكم المحمدى فى معيتكم الشريفة وغمرنا بعطفكم دنيا وآخرة ببركة سيدنا ومولانا محمد رحمة العالمين - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته الطيبين الطاهرين.

★★★

---

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٨١/٢.

« ٣٨ »

القطب النبوى سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه

فى أعلى قمة الولاية لله عز وجل تربع الأقطاب المحمديون الذين سبحت أرواحهم فى محيط النور المحمدى وجالت قلوبهم فى حضرة الجمال القدسى فاستمدت ذواتهم من نور الأنوار وشربت من رحيق الأسرار، وتحققت بكمالات الإرث المحمدى الذى نالت بفضله شرف الإمامة وتربعت على عرش الكرامة. أولئك هم خواص الحق تعالى الذين استخلصهم لنفسه ونادمهم على بساط قدسه. وجعلهم شهود حضرته وجنود مملكته. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير.

وفى الذروة العليا ممن تربعوا على عرش الولاية الربانية والوراثة المحمدية: الإمام العارف والغوث الفرد الجامع، قطب أقطاب الأولياء، وسلطان العارفين الأصفياء، باب الحضرة المحمدية، ومخصوص العناية الإلهية: السيد الحسيب النسيب سيدى ومولاى السيد أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه.

وهو طلسم الولاية العظمى وكنز العرفان الأسمى، النور المحمدى السارى فى آفاق الوجود، السر المكتم صاحب الكشف والشهود. رضى الله عنه، وأمدنا بمدده وعمنا بفضله وجعلنا تحت لوائه فى الدنيا ويوم الدين.

إن الحديث عن قطب الأولياء مولانا السيد البدوى رضى الله عنه مهمة بالغة الخطورة. ولا طاقة لإنسان أن يؤديها حق الأداء. ذلك لأنه لم يتأت بعد لعامة الأولياء - فضلاً عن غيرهم- أن يحيط علماً بمقام القطب البدوى. فكيف يتحدث عنه ؟؟ وكيف تقف العقول على حقيقة مقام من خصه الله بالولاية العظمى واستمدت ذاته الشريفة من ذات الرسول صلى الله عليه وسلم عطاءها الربانى فتخطى كل مقامات الولاية وحاز الإمامة الكبرى على الأقطاب طرا.

إن سلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى هو الإمام الذى تمثلت فى شخصيته العظمى كل مقومات الولاية، وتضافرت له كل عناصر الخصوصية الاصطفائية. فهو أكبر من يمثل الجانب الباطنى للحضرة المحمدية فى محيط الولاية. من أجل ذلك: وانطلاقاً من مضمون تلك الحقائق، فالحديث عن سيدى أحمد البدوى - من حيث حقيقة مقامه- لا تسعه العقول؛ لأن مقامه فوق مستوى إدراكات العقول. وإن كل من تحدثوا عن مولانا السيد البدوى من أقطاب الولاية لم يكشفوا اللثام عن حقيقة ما عرفوه فضلاً عما استأثر الله تعالى بعلمه. وإنما تناولت الأقلام شيئاً مما حفظه التاريخ عن سيرة هذا الإمام، وشيئاً مما لاح لأهل القرب من بعض أحواله ومعاريجه وكراماته. لذلك نجد أن ترجمان التصوف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه قد استهل الحديث عن مولانا السيد فى طبقاته بقوله : (وشهرته فى جميع أقطار الأرض تغنى عن تعريفه، ولكن نذكر جملة من أحواله تبركاً به ..) (١).

إن اجماع الأمة منعقد على إمامة القطب البدوى للأولياء وعلى بلوغه الذروة العليا فى الولاية والمعرفة. بيد أن حقيقة السيد لم يقف عليها عارف. وحسب الناس أن يستضيئوا بنور الشمس ولا عليهم أن يحيطوا بجوهرها أو يصلوا إلى كنهها، إذ لا طاقة لهم على التحديق فيها بأبصارهم عن بعد فكيف لو اقتربوا ؟؟؟.

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخى من حياة مولانا السيد : فأول ما نقف عليه هو أن سيدى أحمد البدوى سليل آل بيت النبوة. فهو السيد الشريف أبو العباس سيدى أحمد بن سيدى على البدرى بن السيد إبراهيم بن السيد محمد الذى ينتهى نسبه إلى سيدى على الرضا بن سيدى موسى الكاظم بن سيدى جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين ابن مولانا الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين (٢).

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/١٥٥.

(٢) انظر سياق النسب الأحمدى محققا - مفصلاً فى كتاب (المعارج القدسية فى المناقب الأحمدية : حقيقة القطب النبوى السيد أحمد البدوى رضى الله عنه) للفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب : الجزء الأول : ص ١١٢-١١٣ ط/ الأولى .

وهذه النسبة الشريفة مجمع عليها من أئمة المؤرخين وجهابذة المحققين، وسادة الصوفية العارفين. حيث ذكرها ابن خلكان والمقريزى وابن أزبك الصوفى والإمام السيوطى والإمام الشعرانى وغيرهم.

وقد ولد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه بمدينة (فاس) بالمغرب سنة ست وتسعين وخمسمائة هجرية (١١٩٩م). وقد هاجر أجداده رضى الله عنهم من الحجاز إلى بلاد المغرب على أثر اضطهاد العباسيين للأشراف العلويين. فاستقرت الأسرة ببلاد المغرب واستوطنت (فاس) سنة خمس وثلاثين وخمسمائة هـ. وشهدت مدينة فاس مولد قطب الأقطاب أبى الفتيان نادرة العصر وغوث الزمان. ولد وعلى مفرقه تاج الولاية، وفى أنفاسه عبير شجرة النبوة. فأشرقت بنوره الأرجاء، وباهت الأرض بمولده السماء. إنه القطب البدوى نفحة النور من سيد الأنبياء .

ولقد نشأ أبو الفتيان فى أحضان الرعاية ببلاد المغرب وشرع فى حفظ كتاب الله تعالى والتفقه فى الدين واقتفاء أثر أسلافه الطاهرين. وما أن بلغ سيدى أحمد السابعة من عمره حتى حان انتقاله مع أسرته إلى رحاب بيت الله الحرام حيث سمع أبوه قائلاً يقول له فى منامه : (يا على انتقل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لنا فى ذلك شأنا) [1].

وانتقلت الأسرة المباركة. وكانت مكونة من عشرة أشخاص : سيدى على البدرى، وزوجته السيدة فاطمة الشريفة، وأبناء ثمانية: أكبرهم سناً سيدى الشريف حسن، وآخرهم مولداً وأكبرهم مقاماً سيدى أحمد البدوى، وأخوهما السيد محمد. ثم أخوات خمس هن : السيدة فاطمة والسيدة زينب والسيدة رقية والسيدة فضة والسيدة أم كلثوم.

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/١٥٥.
و النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية للإمام نور الدين الحلبى بتحقيق الشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ٣٣ ط/ الأولى .

ويروى الإمام الشعرانى عن سيدى الشريف حسن قصة العودة وما تلاها من أحداث، وأحوال لسيدى أحمد فى مكة فيقول : (قال الشريف حسن أخو سيدى أحمد رضى الله عنه فما زلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيتلقونا بالترحيب والإكرام حتى وصلنا إلى مكة المشرفة فى أربع سنين.. فتلقانا شرفاء مكة كلهم فأكرمونا ومكثنا عندهم فى أرغد عيش حتى توفى والدنا سنة سبع وعشرين وستمائة ودفن بباب المعلاة وقبره هناك ظاهر يزار فى زاوية- قال الشريف حسن- فأقمت أنا وإخوتى وكان أحمد أصغرنا سناً وأشجعنا قلباً، وكان من كثرة ما يتلثم لقبناه بالبدوى. فأقرأته القرآن فى المكتب مع ولدى الحسين ولم يكن فى فرسان مكة أشجع منه وكانوا يسمونه فى مكة العطاب. فلما حدث عليه حادث الوله تغيرت أحواله واعتزل الناس ولازم الصمت فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة) [1] اهـ.

ولنقف قليلاً عند هذه الأحداث التى عاشها سيدى أحمد فى مكة والتى ورد بعضها فيما رواه سيدى حسن الأكبر: لقد كان الأمر بالانتقال إلى مكة ذا دلالة عميقة المغزى بالنسبة لسيدى أحمد على الخصوص. إذ شاء القدر أن تكون نقطة البدء الروحى لسيدى أحمد فى مكة بجوار بيت الله الحرام حيث مهبط الوحى وحيث كان بدء النبوة. وبما أن سيدى أحمد على القدم المحمدى فلابد أن يكون فتحه محمدياً بمعنى الكلمة. فيكون المنطلق المكانى لولايته هو نفس المنطلق المكانى لنبوة جده – صلى الله عليه وسلم. ففى مكة المناخ الروحى الذى يلائم ميلاد الفتح الأكبر عند سيدى أحمد.

وفى جوار بيت الله الحرام أتم مولانا شيخ العرب حفظ القرآن الكريم وأتقن علم القراءات، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وتعلم الفروسية حتى كان هو فارس مكة وشجاعها الذى لا يبارى. ومن ثم أطلق عليه لقب (العطاب) و : (محرش الحرب) . ولقد ذكر أمامه يوماً أن جده سيدنا علياً كرم الله وجهه كان يضرب فى القتال بسيفين معاً. فاتفق وقوع حرب بمكة فخرج سيدى أحمد وضرب بسيفين حتى تعجب الناس من شجاعته [2].

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١/١٥٥.

(٢) انظر النصحية العلوية للإمام الحلبى ص / ٣٥.

ولقد ضرب أبو الفتيان سيدى أحمد أروع الأمثلة فى ميدان الجهاد الروحى، والسلوك الصوفى وهو لم يزل بعد فى ريعان الصبا ومطلع الفتوة. فلقد كان يلقب بالزاهد وهو لم يتجاوز بعد السابعة من عمره قبل أن يغادر (فاس) . وفى ربوع مكة أطلق لروحه العنان فأقبل على المجاهدات والطاعات بعزيمة الرجال، وأخذت روحه تستمد الفيض الإلهى وتقتبس من نور الأنوار حتى صارت نوراً محضاً. ومن شدة نوره كان يتلثم بلثامين بحيث لا يرى الناس منه إلا عينيه. ومن ثم لقب بالبدوى لتوافق مظهره مع مظهر البدو. بيد أنه يخفى شواهد الحقيقة البادية فى محياه النورانى، ويتستر عن الخلق إذ لا معاملة له إلا مع الخالق !!.

لقد تحول سيدى أحمد بكليته إلى الله وانقطع إليه، ولازم الصيام ظاهراً وباطناً. والصيام الباطن عند أهل الحقيقة هو الإمساك عما سوى الله. ولقد بلغت مجاهداته إلى حد أنه كان يطوى أربعين يوماً لا يتناول طعاماً ولا شراباً ولا يذوق نوماً (١). لقد سرت إليه نفحات : (أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى). إنه مع الله يتعبد له ويتقرب إليه ويأنس به.

وكثيراً ما كانت خلوته الصوفية فى مغارة بجبل أبى قبيس بالقرب من مكة. حتى لقد ذكر أبو السعود الواسطى فى تاريخه أن سيدى أحمد قد فتح عليه بجبل أبى قبيس (٢).

إنه الفتح الأكبر الذى استغرق بعده مولانا السيد فى مشاهدة أنوار الذات العلية، والعكوف فى الحضرة القدسية. عند ذاك ظهر عليه الوله ولازم الصمت وصار لا يكلم الناس إلا بالإشارة. ولقد روى القطب الشعرانى فى طبقاته أن بعض العارفين كان يقول عن سيدى أحمد البدوى : (أنه رضى الله عنه حصلت له جمعية على الحق تعالى فاستغرقته إلى الأبد. ولم يزل حاله يتزايد إلى عصرنا هذا) (٣).

---

(١) انظر : النصيحة العلوية للإمام نور الدين الحلبى : ص/٤٢.
(٢) انظر . الجواهر السنيه للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدى ص ٧.
(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١٥٥/١.

لقد وصل القطب البدوى إلى قمة الولاية وسجد قلبه لله إلى الأبد وصار وحدانى الذات متفرداً بأعلى المقامات، وصارت حياته كلها وقفاً على الطاعة والمشاهدة فلم تتسع حياته لأى شاغل آخر مهما كان. ولقد عرض عليه أخوه سيدى الشريف حسن الزواج فأبى وقال : (أنا موعود بألا أتزوج إلا من الحور العين). إن سيدى أحمد قد نذر نفسه لله بالكلية، وآثر حق مولاه على حق نفسه، وآثر أن يبيت لربه ساجداً وقائماً ذاكراً وقانتاً. إنه النموذج الفذ والصورة المثلى لولى الله. لقد صار منصرفاً بكليته إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق فى سره، ومن ثم لقب بالقدسى.

ثم ذات يوم وفى شهر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة رأى سيدى أحمد فى منامه- ثلاث مرات- قائلاً يقول له : (قم واطلب مطلع الشمس - أى العراق- فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس وسر إلى طندتا فإن بها مقامك أيها الفتى)

ويقص سيدى أحمد رؤياه على أخيه سيدى حسن الأكبر فيشفق عليه من زيارة العراق؛ لأنها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين، وكثيراً ما يقع من أرباب الأحوال مبارزات باطنية ومعارضات روحية لا يسلم منها إلا فحول الرجال. ولكن الهاتف يعاود سيدى أحمد فى الليلة التالية ويقول له فى منامه (يا أحمد يا بطال- أى يا بطل - لا يخاف من الرجال إلا من لا وراءه رجال وأنت وراءك رجال وأى رجال) وهللت البشائر باستقبال أقطاب العراق للقطب البدوى. فجاءه سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى فى منامه وقالا له : (يا أحمد : قد جئناك بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق والمغرب بأيدينا فإن كنت تريد أى مفتاح شئت أعطيناه لك) فقال لهما سيدى أحمد رضى الله عنه (أنا منكما .. ولكن أنا ما آخذ المفتاح إلا من يد الفتاح)[1] !! إنها مفاتيح التصريف

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٥٥ والجواهر السنية للشيخ عبد الصمد الأحمدى : ص ٤٩ ط/صبيح.

الباطنى والزعامة الروحية، يأبى سيدى أحمد أن ينالها إلا من يد مولاه؛ لأنه لا معاملة له إلا مع الله. وانطلق الركب إلى العراق. وصاحب سيدى أحمد أخوه سيدى الشريف حسن فوصلا العراق فى ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة هـ.

وأقبل مولانا السيد وأخوه على زيارة آل البيت وأقطاب الولاية بالعراق . فزارا جدهما السيد موسى الكاظم وسيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى الحسين ابن منصور الحلاج وسيدى عدى بن مسافر وتاج العارفين أبا الوفاء والشيخ موسى الزوالى وسائر الأولياء والصالحين. ثم واصلا السير إلى قرية (أم عبيدة) لزيارة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه.

وهناك توجه النداء الباطنى لسيدى أحمد من القطب الرفاعى يشير عليه بالتوجه إلى فاطمة بنت برى بالعشائر فى شمال العراق لتقويم سلوكها المعوج وتأديبها بالحال. وفاطمة بنت برى كانت سيدة من أرباب الأحوال وكانت تتمتع بقسط وافر من الجمال والثراء. إلا أنها اشتهرت بأسلوب غريب فى الإيقاع بغير المتمكنين من الرجال. حيث كانت تتعرض بجمالها وفتنتها لمن تلقاه من أهل التقى والصلاح فإذا ما وقع فى شركها سلبت منه حاله وضيعت عليه رأس ماله فى الطريق. وقد تجمع حولها قومها وأنصارها يؤازرونها فى مسلكها الخاطئ. بيد أن حق الشرع لا يذهب هباء. فلم يرتض أقطاب الولاية ذلك المسلك المنحرف فأشار قطبا التصريف (الرفاعى والجيلانى) على أبى الفتيان بدرء هذه الفتنة. فذهب إليها وودع أخاه الشريف حسن حيث هو عائد إلى مكة. وما أن وصل سيدى أحمد إلى بنت برى ووقع نظرها عليه حتى أحست بنهاية أمرها. حيث وجدت أن ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال لا يعدو ذرة بجوار شامخ الجبال. فلقنها بحاله وكراماته الدرس القاسى وثأر لمن سلبتهم من الرجال بأن سلبها ما معها من حال فلم تملك إلا أن تابت على يديه وأنابت وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء حيث عرفوا منزلة السيد قطب الأقطاب [1].

---

(١) انظر تفصيل قصة أبى الفتيان مع فاطمة بنت بري في كتاب (المعارج القدسية في المناقب الأحمدية) للفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب الجزء الأول ص /١٩٠.

وعاد سيدى أحمد بعد رحلة العراق إلى مكة وقد تزايد حاله واستغراقه واتسع مدده وزاد نطاقه. حتى لقد أيقظت أخته السيدة فاطمة أخاها الشريف حسن ذات ليلة من نومه وقالت له (يا ابن والدى : إن أخى أحمد قائم طول الليل وهو شاخص ببصره إلى السماء ونهاره صائم، وانقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر، وله مدة أربعين يوماً ما أكل طعاماً ولا شراباً) لقد برح الوجد والوله بسيدى أحمد وطال صمته واستغراقه وصار لا يتحدث إلا بالإشارة. إن روح القطب البدوى فى عروج مستمر، ومقامه فى ارتقاء دائم. إنه يعيش فى عالم آخر ويسبح فى ملكوت الله بروح العارف المتأمل .

وذات ليلة من رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة هـ: رأى سيدى أحمد رضى الله عنه الهاتف فى منامه يقول له (يا أحمد سر إلى طندتا فإنك تقيم بها وتربى رجالاً وأبطالاً: عبد العال وعبد الوهاب وعبد المجيد وعبد المحسن وعبد الرحمن. رضى الله عنهم أجمعين) (١).

ودخل شيخ العرب طنطا سنة ٦٣٥ هـ لتغمر أنواره هذه البقعة المباركة التى اختارها الله مثوى لهذا القطب العظيم . ونزل سيدى أحمد بدار الشيخ ركن الدين ابن شحيط المعروف بالشيخ ركين. واتخذ مولانا السيد من سطح دار ابن شحيط مقراً لإقامته ومنطلقاً لدعوته ومركزاً لتربية أبنائه ومريديه. ومن ثم فقد عرف أتباعه السادة الأحمدية بالسطوحية . وحين دخل السيد طندتا كان بها أولياء وعارفون. وقد سلم أكثرهم لسيدى أحمد بولايته، وتصريفه كسيدى سالم المغربى وسيدى حسن الصائغ فأقرهم على ولايتهم. أما من اعترض منهم على سيدى أحمد كصاحب الإيوان المعروف بوجه القمر فقد سلبهم السيد حالهم عقاباً لهم.

وأقام سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه على السطح مدة اثنتى عشرة سنة يدعو الخلق إلى الله تعالى ويربى أئمة وأقطاباً ملأوا الدنيا علماً ونوراً وولاية وتحققاً. كان السطح أشبه ما يكون بمسجد الصفة التى كان يتعبد فيه صحابة

---

(١) انظر : الجواهر السنية للشيخ عبد الصمد الأحمدى : ص/٦٠.

رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - وينقطعـون لربهم ويعمـرون جـوف الأسـحـار بالذكر والإنابة والاستغفار.

وكان سيدى أحمد البدوى هو الإمام المربى، والقائد المرشد والواله الأواب والعاشق المستغرق. كان يبيت الليل شاخصاً ببصره إلى السماء وعيناه متوقدتان كالجمر، وروحه سابحة فى خضم الأنوار الإلهية، وقلبه جوال فى حضرة القدس، وأنفاسه تهليلات وتسبيحات. وكان يرد عليه الحال فيصيح الصيحة تنخلع لها القلوب وتزلزل الأعماق. إنها صيحة الوجد والوله.. صيحة العشق والمحبة.. ومن فى العاشقين مثل سيدى أحمد.. مصطفى الحضرة الإلهية ومجتبى الوراثة المحمدية ؟؟.

ومن فوق السطح سرت جاذبية النور من ذات السيد لتجذب قلوب الموعودين بالفتح الربانى. ولقد ربى السيد من فوق السطح رجالاً وأبطالاً كانوا مع العناية الإلهية على ميعاد.

وفى مقدمة من سرى إليهم المدد الأحمدى ونهلوا من محيط أنوار سيدى أحمد البدوى: الإمام العارف قدوة المحققين وعمدة السالكين سيدى عبد العال الأنصارى رضى الله عنه.. وأخوه القطب الواصل سيدى عبد المجيد رضوان الله عليه. لقد كان سيدى عبد العال هو الابن القلبى الأول لسيدى أحمد وهو خليفته الأعظم ووارث سره من بعده. فشيد أركان البيت ورتب الأشاير وعمر الزوايا وقصده الناس بالزيارة من سائر الأقطار .

وأما سيدى عبد المجيد فقد نشأ فى فيشا المنارة مع أخيه سيدى عبد العال وما أن قدم سيدى أحمد إلى طندتا حتى انجذب إليه ولازمه على السطح فتأدب بآدابه وعرف إشاراته، وكان لا ينام الليل تبعاً لسيدى أحمد، وذات يوم وجد نفسه مشوقاً لرؤية وجه سيدى أحمد وقد كان دائماً متلثماً بلثامين. فقال له : يا سيدى أرنى وجهك أنظر إليه، فقال له : يا عبد المجيد كل نظرة برجل فقال يا سيدى

أرنى ولو مت. فكشف له اللثام الفوقانى فصعق سيدى عبد المجيد ومات فى الحال. مات شهيد نظرة من قطب الرجال [1].

مات شهيد المحبة والنور. إنها أول مرة يكشف فيها السيد اللثام فصعقت الأنوار واحداً من أعز أبنائه.

ومن أجل أبناء السيد فى الطريق وخلفائه من بعده سيدى عبد الوهاب الجوهرى ومقامه بالجوهرية قرب محلة مرحوم. ومنهم أيضاً سيدى محمد قمر الدولة الذى قال له مولانا السيد : (أنت قمر دولة أصحابى) ومقامه ببلدة نفيا . ولقد تخرج على يد السيد من فوق السطح أولياء وعارفون لا يحصون عدداً وكلهم حمل أمانة الدعوة إلى الله على بصيرة فبثهم سيدى أحمد فى البلاد منارات للهداية والعرفان وأقطاباً تلتمس منهم البركات فى كل عصر وآن .

وأما عن شيوخ سيدى أحمد فى الطريق واستمداده الروحى فلعله من نافلة القول - بناء على ما اشتهر وعرف لسيدى أحمد- أن نقول إن مولانا السيد : محمدى التربية فهو فى مقدمة الأولياء الذين ربتهم روحانية الذات المحمدية وهو لذلك يأخذ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم بلا واسطة. بل إنه باب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا يمكن دخول الحضرة المحمدية إلا بواسطته . وإن كان هذا كله لم يمنع من أن السيد قد أخذ الطريق ظاهراً عن عدة مشايخ. فقد جمع سيدى الشريف حسن الأكبر بينه وبين الشيخ عبد الجليل النيسابورى بالمغرب فألبسه الخرقة [2].

كذلك روى الإمام الحلبى أن سيدى أحمد قد تسلك على يد الشيخ برى أحد تلامذة الشيخ أبى نعيم البغدادى وأحد أصحاب سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه [3].

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١٥٦/١.
وانظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٦٤/٢ نشر الأزهرية للتراث.

(٢) انظر النصيحة العلوية للإمام الحلبى ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه : ص /٤٠.

ولكن الأصل فى تلقى مولانا السيد إنما هو عن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ولذلك كان سيدى أحمد رضى الله عنه يقول :

ليس لى شـــيخ ولا لى قـــدوة
غـــيـــر خـــيـــر الرسل طه الأولا [1]

وثمة شواهد لا تقبل الحصر على عروج سيدى أحمد إلى الذروة فى التمكين واستمداده من المحيط المحمدى مباشرة. ومن ذلك ما عبر عنه بقوله رضى الله عنه: (وعزة ربى إن سواقى تدور على البحر المحيط، لو نفد ماء سواقى الدنيا ما نفد ماء سواقى) [2] !!

الا فلتهنأ أمة فيها سيدى أحمد البدوى. وناهيك بشهادة القطب المحمدى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه على عظم منزلة مولانا السيد فى مقام الفتوة إذ يقول : (وعزة ربى ما رأيت فى الأولياء أكبر فتوة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه . ولذلك آخى بينى وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان هناك من هو أكبر فتوة منه لآخى بينى وبينه [3]). إن مولانا السيد لم يتحدث عن نفسه ولا عن مقامه؛ لأن مشربه هو التواضع المحمدى. ولقد وقفت على سر إحجام السيد عن التحدث عن نفسه فى كتاب ألفه القطب العارف سيدى أحمد الشرنوبى فى مناقب الأقطاب الأربعة فذكر فيه حواراً جرى بين القطبين شقيقى الروح والمشرب سيدى أحمد البدوى وسيدى، إبراهيم الدسوقى رضى الله عنهما. فكان مما قاله سيدى أحمد لسيدى إبراهيم- بعد ذكر مناقب لا تسعها العقول - «أما تعلم أنك اخترت التكلم فى الدنيا وأنا اخترت التكلم فى الآخرة ؟؟» حقيقة إن مقام السيد لا يعرفه أحد فى الدنيا. ورغم ذلك فقد تكفل سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه بالإشارة لمنزلة سيدى أحمد حيث أثر عنه أنه كان يقول :

---

(١) انظر : كرامات وأوراد القطب النبوى السيد الشريف العلوى السيد أحمد البدوى . للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص /١٦ ط / الأولى .

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه : ١/١٥٧.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٢/٧٦.

فـــــــــــــــضل الله علـيـنـا عـم

كل الجـمــاعــة تبع والســيــد عم [1]

وأمـا عن كـرامـات باب الـرسـول - صلى الله عليـه وسلم : فـهى لا تقع تحت حصر وكتب الطبقات حافلة بها فمنها مجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج. يقول الإمام الشعرانى فى طبقاته :

(وقد شـاهدت أنا بعينى سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه مقيداً مغلولاً وهو مخبط العقل فسألته عن ذلك فقال بينما أنا فى بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت لسيدى أحمد فإذا أنا به فأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى هنا. فمكث يومين ورأسه دائر عليه من شدة الخطفة. رضى الله عنه) [2].

ومنها أن ابن اللبان وقع فى حق سيدى أحمد رضى الله عنه فسلب العلم والقرآن والإيمان فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل فى أمره فدلوه على سيدى ياقوت العرشى فمضى إلى سيدى أحمد وكلمه فى القبر وأجابه وقال له أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رسماله، فقال بشرط التوبة. فتاب ورد عليه رسماله أى الإيمان والعلم والقرآن [3].

ومنها ما ذكره القطب الشعرانى بقوله : (وسبب حضورى مولده كل سنة أن شيخى العارف بالله تعالى محمد الشناوى رضى الله عنه أحد أعيان بيته رحمه الله قد أخذ على العهد فى القبة تجاه وجه سيدى أحمد رضى الله عنه وسلمنى إليه بيده فخرجت اليد الشريفه من الضريح وقبضت على يدى وقال: سيدى يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك. فسمعت سيدى أحمد رضى الله عنه من القبر يقول نعم) [4].

(١) انظر : السيد إبراهيم الدسوقى للبحاثة أحمد عز الدين خلف الله ص ٤٧.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٥٩.

(٣) المصدر الأخير : ١/١٥٩.

(٤) المصدر الأخير : ١/١٥٧.

ومنها أن الشيخ ابن دقيق العيد أراد أن يذهب ليرى الشيخ على السطح فلما ذهب إليه ونظر إلى الشيخ وهو يلقى درسه وعليه لوائح الوجد والوله فقال ابن دقيق العيد فى نفسه: (ما هو إلا مجنون) فكاشفه مولانا السيد ورد عليه ببيته الخالد :

مـــجـــانين إلا أن ســـر جنونهم

عـزيز على أعـتـابه يسـجـد العـقل [1]

وليت شعرى إن من أكبر كرامات هذا القطب العارف هو إجماع الأمة الإسلامية على محبته فى مشارق الأرض ومغاربها وإقبالهم من كل حدب وصوب على زيارته كما قال سيدى محمد عبد الرحيم النشابى فى قصيدته الجليلة عن مولانا السيد:

من مـــثله تســعى الوفــود لحــيــه

كـــالحج أو كـــالبــيت فى الطوفـــان

إن لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه أتباعاً ومحبين يسيرون على دربه فى كل عصر. ولقد كان من صفوة أحبابه وسالكى طريقته فى هذا العصر مولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه الذى اغترف من كل بحر فى الولاية. ولقد آثر عن مولانا السيد بعض الوصايا والنصائح والفوائد والفرائد وقد تضمن كتاب العارف بالله تعالى الشيخ أحمد حجاب قسطاً وافراً منها فى كتابه القيم عن مولانا السيد رضى الله عنه. يقول القطب النبوى : (يا عبد العال إياك وحب الدنيا فإنه يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل. واعلم يا عبد العال أن الله تعالى قال فى كتابه المكنون : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) يا عبد العال اشفق على اليتيم واكس العريان وأطعم الجيعان وأكرم الغريب والضيفان عسى أن تكون عند الله من المقبولين.. يا عبد العال عليك بكثرة الذكر وإياك أن تكون من الغافلين عن الله تعالى.. ولا تكن منكراً على فقراء المسلمين جميعهم.. يا عبد العال..

---

(١) انظر : النصيحة العلوية للإمام الحلبى ص /٤٩.

أحسنكم خلقاً أكثركم إيماناً بالله تعالى، والخلق السيئ يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل، يا عبد العال : هذه طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء وحسن الوفاء وحمل الأذى وحفظ العهود) [1].

إنها وصايا القطب النبوى الذى أسس طريقة منهاجها كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم وروحها محبة النبى - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته وأصحابه والسير على دربهم فى طريق الحق المبين.

وبعد :

فمع النور عشنا .. وفى محيط أنوار أبى الفتيان سبحنا نقتات من سيرته العاطرة غذاء قلوبنا وقوت أرواحنا ونستنشق من أريجها الفواح شذى الروضة النبوية فليسمح لى سلطان الأولياء وباب النبى - صلى الله عليه وسلم أن أرفع له رجاء بأن أحظى منه بنظرة عطف أحمدية أبدية أصير بها محسوباً على جنابه الأعلى فى الدارين .

رضى الله عنكم يا مولانا السيد وجزاكم الله عن أمة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خير ما يجزى به الورثة المحمديون، وحشرنا فى زمرتكم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

---

(١) انظر : الجواهر السنية للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدى : ص / ٨٦.

« ٣٩ »

القطب القرشى شيخ الإسلام .. أبو العينين سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه

فى حضرة القدس تشرق أنوار الحقيقة المطلقة فى قلوب من اختارتهم العناية ليتبوءوا ذروة الولاية. فهم ضنائن الحق تعالى وكنوزه التى أودعها فى خلقه. لقد حباهم بذخائر معرفته، وسقى أرواحهم من كأس محبته، وأدخلهم دار فردانيته فأجلسهم على بساط قربه يستغرقون فى مشاهد الجلال والجمال. يفنون فيه ويَبْقَوْن به. حتى إذا نهلت أرواحهم من محيط الأنوار وحملت ودائع الأسرار وقفت على منابر الخصوصية والهداية تدعو الخلق إلى الله تعالى، وتجذب قلوبهم إلى طريق الوصول.

ومن خواص أئمة أولئك الأقطاب العارفين، وصدور أعيان الأولياء المقربين: الإمام العارف والشيخ الكامل الراسخ بحر الشريعة، ومنار الطريقة، وكعبة الحقيقة، سلطان الأولياء، وسكرذان الأصفياء ، برهان الملة والدين، وجوهر عقد الصالحين شيخ الإسلام أبو العينين سيدى إبراهيم الدسوقى القرشى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

هو أحد الأقطاب الأربعة أركان الولاية العظمى وكنوز الفتح الأسمى، وهو شيخ الطريقة البرهامية ذات النفحات القدسية. وهو أحد أفراد العالم أصحاب الدوائر الكبرى - فى الولاية . ثم هو من أخص الورثة المحمديين الذين ربتهم روحانية سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد ترجم جهابذة الفتح والعرفان لسيدى إبراهيم الدسوقى بما يضيق عنه الجنان من الفتوحات الربانية والعطاءات القدسية . (وإنما يعرف الفضل من الناس

ذووه) يقول ترجمان الصوفية سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمته للقطب الدسوقى : (... له المعراج الأعلى فى المعارف، والمنهاج الأسنى فى الحقائق، والطور الأرفع فى المعالى، والقدم الراسخ فى أحوال النهايات، واليد البيضاء فى علوم الموارد، والباع الطويل فى التصريف النافذ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود، وأبرزه رحمة للخلق، وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرّفه فى العالم، ومكنه فى أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب وصوّمه فى المهد. رضى الله عنه) [1] أ هـ.

ولعل نقطة البداية فى الحديث عن قطب الأولياء أبى العينين رضوان الله عليه: هى نسبه الشريف. فهو قرشى ينتمى للدوحة النبوية بإجماع الرواة والمؤرخين. فهو سيدى، إبراهيم بن سيدى عبد العزيز (أبى المجد) ابن السيد على قريش بن السيد محمد الرضا بن السيد محمد أبى النجا الذى ينتهى نسبه للإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر بن سيدى زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين [2].

أما والدته رضى الله عنها : فيروى الجلال الكركى عن بعض الثقات أنها هى السيدة فاطمة ابنة ولى الله تعالى أبى الفتح الواسطى قدس الله سره. وكان سيدى أبو الفتح من أجل أصحاب سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه. كما أنه من شيوخ سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه [3].

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤٠ - ١٤١.

(٢) انظر نسب الإمام الدسوقى محققاً مفصلاً فى الأبحاث الملحقة بكتاب لسان التعريف بحال الولي الشريف سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه تأليف الشيخ أحمد جلال الدين الكركى وتحقيق وتعليق ودراسة الشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ١٥٣ - ١٥٦ ط/ السعادة.

(٣) انظر لسان التعريف للشيخ الكركى : ص ٣٤ - ٣٥.

ومن ثم يتضح لنا تمهيد العناية الإلهية للجو الروحى الأسرى الذى يستقبل ميلاد القطب الدسوقى.

ولقد ولد سيدى إبراهيم رضى الله عنه سنة ٦٣٣هـ على أشهر الروايات، حيث ذكر ذلك الإمام الشعرانى، والإمام المناوى والعارف النبهانى[1]. وإن كان آخرون - كالعلامة جلال الدين الكركى وغيره- يرون أن تاريخ ميلاده هو سنة ٦٥٣هـ. بيد أن رواية الإمام الشعرانى أشهر وأحرى بالقبول.

وعلى كل فالجميع متفقون على أن الإمام الدسوقى قد عاش من العمر ثلاثاً وأربعين سنة.

ولقد كان أقطاب الولاية ينتظرون مولد الإمام الدسوقى ويبشرون به قبل ميلاده . ومن ذلك ما روى من أن العارف بالله تعالى سيدى محمد بن هارون كان يقوم لسيدى عبد العزيز أبى المجد والد القطب الدسوقى إذا مر عليه ويقول : (فى ظهره ولى يبلغ صيته المشرق والمغرب) [2] !!

وولد القطب الدسوقى، واستقبلت الدنيا من يملأ آفاقها نوراً وعلماً وولاية وتحققاً. وبدأت رحلة النور مع أول إشراقة لفجر ميلاد الإمام الدسوقى. وكان القدر يعد مفارقات عجيبة تمهد لهذا النور انطلاقه فى دروب الحياة. حيث اتفق وقوع الشك فى هلال رمضان فى نفس العام الذى ولد فيه سيدى إبراهيم فقال العارف ابن هارون : انظروا هذا الصغير هل رضع فى هذا اليوم ؟ فأخبرت والدته أنه من الأذان قد فارق ثديها ولم يرضع. فأرسل الشيخ ابن هارون يقول لها لا تحزنى فإنه إذا غربت الشمس شرب. وأمر عند ذلك الناس بإتمام صوم ذلك اليوم. وتأكد للناس بعد ذلك أن هذا اليوم من رمضان. وعرفت أول كرامة لسيدى إبراهيم وهى صومه فى المهد، رضى الله عنه [3].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٥٤ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٢/١٥ وجامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ١/٣٩٨.

(٢) انظر : لسان التعريف ص ٢٣ - ٢٤ و السيد إبراهيم الدسوقى للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ١٦-١٧- واللفظ منه .

(٣) المصدران الأخيران .

ولا شك فى أن لذلك دلالة- وأى دلالة- على أن سيدى إبراهيم مختار للعناية من الأزل ومجذوب للحضرة منذ أول عهده بالحياة. وحياة العارفين لا تخضع للمقاييس التى نألفها أو نتعقلها، فلها حساب خاص بين الحبيب والمحبوب، بين الطالب والمطلوب. وإذا: فلا بينية لأحد بين العبد المقرب وسيده، ولا مدخلية لعقل أو مقياس بين الولى ومولاه. فكل نفس للولى إنما هو بحساب ومقدار، ولقد ينال الولى الخاص من العطاء فى لمحة ما لا يناله غيره الدهر كله.

وهكذا كانت حياة العارف الدسوقى من بدايتها إلى منتهاها.. عروج وارتقاء، وفتوحات ومنازلات، ومكالمات ومشاهدات. ولا تثريب على العقل فى أن يتوقف عن التعقل فهذا ليس ميدانه. وإنما هو ميدان ، القلب والروح. أما إذا تجاوز العقل حده وولج الفكر غير مجاله فلن يبوء إلا بالنكران ومن ورائه الخسران، وموقف أعداء التصوف على ذلك خير دليل. أقرر هذا بادئ ذى بدء توطئة لما سأسوقه عن القطب الدسوقى من مناقب لا تخضع للمقاييس العادية بحال من الأحوال لأنها منذ البداية خصوصيات اصطفائية تفرد بها أفذاذ تربعوا على قمة الولاية. كما نقرر ثانياً أن هذه المناقب معزوة إلى أسانيدها ومصادرها الوثيقة. وليس لنا منها إلا أمانة النقل ثم التحليل الموضوعى قدر ما أمكن، وإلقاء الضوء عليها حسبما تسمح الطاقة ويتسع المقام. لقد تحدث مولانا القطب الدسوقى رضى الله عنه فى كتابه (الجوهرة) عن بعض مناقبه التى منّ الله تعالى بها عليه. وذلك من باب التحدث بنعمة الله عز وجل وإظهار فضله سبحانه على من تولاه واصطفاه.

ولقد نقل الصوفى العارف جلال الدين الكركى عن كتاب الجوهرة طرفاً من تلك المناقب الدسوقية وضمنها كتابه القيم : (لسان التعريف بحال الولى الشريف سيدى إبراهيم الدسوقى) يقول الشيخ جلال الدين:

(ثم إن الأستاذ قدس الله روحه حكى بجوهرته أنه لما بلغ من العمر سنة: أمسك من يحملهم الريح- وهم أولياء الله الطيارة- وأقعدهم على الأرض، ولما بلغ سنتين أقرأ مؤمنى الجن القرآن، ولما بلغ ثلاث سنين دفعه والده إلى المؤدب لما

توسم فيه من الخير وخشى أن يفوته تدبير السلوك بعدم القراءة. فلما لقنه المؤدب كعادته مع الأولاد أجاب مؤدبه بما أضمره. ثم سأل مؤدبه عن مسائل فلم يجب عنها فأجاب هو عنها فتعجب المؤدب من ذلك . فحدث المؤدب بأنه صام فى القماط. فقال له: يا سيدى هل شعرت بصومك فى المهد كما علم به الأهل؟ فقال يا مؤدب : وهل يتقبل ممن يعبد الله على جهل؟ .. لقد أخذنى حبيبى من إياى، وسلبنى عن معناى، وأفنانى عن فناى، فتلقيته لا من تلقأى، واستجليته لا بمرآى، وخاطبته لا بإيحاى، وناجيته لا بإصغاى، وأجلسنى على سرير الصفا، وسقانى بكأس الوفا، وعقد لى لواء الولا، فاستعذبت فيه أليم العذاب والبلا، ورضيت منه بقديم القضا، فلو جرعنى كئوس المنية لشربتها، ولو عذبنى بفنون الرزية لاستعذبتها، ولو أوردنى موارد الهلكة لوردتها. فأنا معه كما يريد لا كما أريد.. فهو المراد وأنا المريد!» [1]

فعند ذلك بنيت له خلوة ببلدة دسوق فدخلها فأقام بها عشرين سنة. ولما بلغ أربع سنين صح له من العناية قدر (خرم إبرة) فرأى من المشرق إلى المغرب. فبينما هو على وضوء ختام الأربع وإذا بتفاحة نزلت بحجره فرماها خوفاً أن تكون لقطة. فنودى فى سره : كلها يا إبراهيم فإنها هدية من الله إليك. فلما أكل نحو نصفها نودى فى سره: ارمها يا إبراهيم فإنها حرمت عليك. فرماها. ثم نودى : انظر يا إبراهيم : فجالت روحه فى الملكوت فإذا هو واقف بين يدى الله فتقطب وهو ابن خمس، وشاهد ما فى العلا وهو ابن ست، وجاوز مراتب الأولياء إلا الشيخ عبد القادر الكيلانى فإنهما صارا فى الفضل سواء وهو ابن سبع...) [2] .

وإلى هنا نكتفى بهذا القدر من المناقب التى يواصل العارف الكركى حكايتها عن القطب الدسوقى والتى تتوالى مع الأيام والسنين.

ولعل وقوفنا عند هذا القدر قد تعمدناه إشفاقاً على العقل مما ذكر بعد ذلك من خوارق المنح والعطايا التى لا يقوى على تحملها جنان. على الرغم من أن فى

---

(١) انظر لسان التعريف للعلامة الجلال الكركى ص / ٤٠.

(٢) المصدر الأخير ٠ ص /٤١.

القدر الذى ذكرناه فعلاً ما لا يسهل تصوره. بيد أننا لا نجاوز الحقيقة بل نحتضن جوهرها حين نقول : إن كل ما ذكر وما لم يذكر من مناقب سيدى إبراهيم إنما هو فى حدود منطق القرآن الكريم ولا يتعدى هذه الحدود بحال من الأحوال، فإن هذه المنح التى لا تخطر ببال إنما هى فى صميم مدلول قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ (١) ولا حرج على فضل الله تعالى. وليت شعرى إذا لم يتفرد هؤلاء الخواص بتلك المنح الجليلة فأين محور الخصوصية إذاً؟؟

فلنواصل السير مع قطب الأولياء سيدى إبراهيم. لقد أقام رضى الله عنه بخلوته التى بنيت له بدسوق عشرين سنة فى انفراد مع ربه قانتاً متبتلاً يسبح فى بحار القرب بروح عشقت أنوار الذات، فغمرتها نفحات التجليات. كان اعتكافه مع ربه حافلاً بالمناجاة والأنس والاتصال الدائم بالله تعالى فى حضرة القدس حيث يفنى فى المشاهدة عن كل شىء حتى عن فنائه، ويغرق فى بحار الذات وتيار الصفات، ثم يبقى بالحق بعد أن فنى فيه. فيسمع لذيذ الخطاب، ويسقى من لطيف الشراب. وعندئذ يهتف بلسان الحقيقة قائلاً :

شربت دنان الصرف فى حضرة الرضا

وكان دليلى فى الهدى سيد العرب (٢)

ولنقف قليلاً عند الشطر الأخير فى هذا البيت. إنه إشارة إلى الاقتداء المباشر بسيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه -. ومن ثم يتقرر أن مولانا القطب الدسوقى محمدى التربية. ولقد صرح سيدى إبراهيم فى كتاب (الحقائق) بأن شيخه الذى أخذ عليه العهد إنما هو الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول : (أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ على العهد بيمينه وصار يكشف لى عن الأمور ويفتح لى أقفال الحجب) ويروى الجلال الكركى أن سيدى إبراهيم رضوان الله عليه كان إذا ألبس أصحابه خرقة الفقر - أى التصوف - يقول : (تلقيتها عن سيد

---

(١) سورة الشورى / ٢٢.

(٢) انظر لسان التعريف للجلال الكركى ص / ٥٩.

الأولين والآخرين: اعلموا - ألبسنا الله وإياكم لباس حبه وألحقنا وأنتم بموجبات قربه- أن العارف قد يجذبه الله إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ وقد يجمع شمله بالنبى - صلى الله عليه وسلم فيكون آخذاً عنه وكفى بهذا منة) (١).

ولقد كان للإمام الدسوقى رضى الله عنه صلات وثيقة العرى بأقطاب الصوفية المعاصرين له، والذين ازدهى بهم القرن السابع الهجرى وحفل بأنوارهم. وقد تلقى سيدى إبراهيم الخرقة عن كثير منهم على سبيل التبرك.

أما تلقى الهداية والاستمداد الروحى فإنما هو عن سيد الخلق ورحمة العالمين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وممن تلقى عنهم سيدى إبراهيم تبركاً: القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه . حيث روى العلامة كمال الدين الحريرى أنه رأى فى بعض الأجازات أن سيدى إبراهيم الدسوقى قدس سره قال فى كتاب الحقائق : (أخذت الطريقة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهد البيعة عن القطب أبى الحسن الشاذلى) (٢).

وأيضاً فلقد كان هناك اتصال للقطب الدسوقى بطريقة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه، إذ إن والد سيدى إبراهيم قد أخذ عن سيدى أبى الفتح الواسطى الذى تلقى الطريقة عن القطب الرفاعى (٣).

ثم هناك قمة الاتصال الكامل والأخوة الروحية الفريدة التى سجلها التاريخ بحروف من نور بين أعظم قطبين للولاية فى ذلك العصر وهما شقيقا الروح قطب الأقطاب سيدى إبراهيم الدسوقى وسلطان الأولياء باب الرسول صلى الله عليه وسلم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما وعنا بهما وأمدنا بمددهما وجعلنا تحت لوائهما فى الدارين آمين.

---

(١) انظر لسان التعريف بحال الولى الشريف سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه للشيخ أحمد جلال الدين الكركى ص ١٤٤ .

(٢) انظر : السيد إبراهيم الدسوقى للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ٤٣.

(٣) انظر : المصدر الأخير : ص / ٣٩.

إنها أخوة الوراثة المحمدية بين أرفع قمتين فى عالم الولاية. ولا أدل على سمو مكانتهما من أن الإمام الشعرانى قد ذكر فى (لطائف المنن) أنه أعطى محفة من نور تطير به فى سائر أقطار الأرض وتطوف به على قبور المشايخ من فوق أضرحتهم جميعاً إلا ضريح سيدى أحمد البدوى وضريح سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله تبارك وتعالى عنهما فإن المحفة نزلت به من تحت عتبة كل منهما ومرت من تحت قبره. وعلق على ذلك القطب الشعرانى قائلاً : (ولم أعرف إلى الآن الحكمة فى تخصيص هذين الشيخين بذلك نفعنا الله تعالى بهما) [1] .

ولقد أثر عن سيدى إبراهيم أنه كان يقول عن أخيه القطب البدوى : (إن ابن العم السيد أحمد البدوى هو الأسد الكاظم) [2] وكذلك كان يقول : فضل الله علينا عم كل الجماعة تبع والسيد عم [3] رضى الله عنهما ونفعنا بهما وخلقنا بأخلاقهما السامية.

إن الإمام الدسوقى قد ترقى فى معراج الولاية حتى تربع على الذروة العليا. وإشاراته الصوفية خير شاهد على ذلك. فلقد أعطى مفاتيح العلم اللدنى فتحدث عن منازل أهل الفتح والعرفان حديث العارف المتحقق.

يقول رضى الله عنه : (من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة بقى هو بلا هو . فحينئذ يبقى زماناً فانياً ثم يعود فى حفظ الله تعالى وكلاءته سواء حضر أو غاب، ولا يبقى له حظ فى كرامات ولا كلام ولا نظام نفسانى وخلص لجانب العبودية المحضة) [4].

ولقد تناول سيدى إبراهيم موضوع الشريعة والحقيقة والعلاقة بينهما فقال (الشريعة أصل والحقيقة فرع. فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات مندرجة فيهما) [5].

---

(١) انظر : لطائف المنن والأخلاق لسيدى عبد الوهاب الشعرانى ١/١١١ ط/ الميمنية.

(٢) انظر : الجواهر السنية للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدى ص ٨٢ وكرامات واوراد القطب النبوى ٦٦.

(٣) انظر · السيد إبراهيم الدسوقى للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ٤٧.

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤٢.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤١.

كما علل لتسمية الحقيقة قائلاً (وما سميت الحقيقة حقيقة إلا لكونها تحقق الأمور بالأعمال، وتنتج الحقائق من بحر الشريعة) [1] .

وجاءه رجل فقال له أريد أن أسلك طريق الحقيقة. فقال له : (يا ولدى : الزم أولاً طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المرضية الزاهرة الباهرة التى نورها جلا الظلم، وأنار بطاح مكة والمدينة والشام ومصر والعراق واليمن والمشرق والمغرب، والأفق العلوى والسفلى، فإذا عملت بها انقدح لك منها علم الحقائق والأسرار، فاسلك يا أخى كما قلت لك على التدريج شيئاً بعد شيء والله يحفظك إن صدقت) [2].

وكان رضى الله عنه يقول : (إذا عمل الفقير على نسق الاتباع الشرعى تروحنت نفسه وصارت روحانية لطيفة نورانية تجول جولان السر والقلب والمعنى)

هذا هو مفهوم الشريعة والحقيقة عند القطب الدسوقى الذى كنى بـ (أبى العينين) لأنه كان ينظر بعينى الشريعة والحقيقة. فقد كان إماماً فيهما بأدق معانى كلمة (إمام) . كان بحراً فى العلوم الشرعية لا يدرك له قرار، ومن ثم لقب بشيخ الإسلام [3] .

ولقد كان رضى الله عنه حين يتكلم فى الحقائق يغترف من بحار العلوم اللدنية التى لا ساحل لها ويسكب فى أعماق القلب أكسير الحكمة الربانية بإشراقها وسموها.

وها هو ذا يصف طريق السالكين إلى الله فيقول (الطريق إلى الله تعالى تفنى الجلاد، وتفتت الأكباد، وتضنى الأجساد، وتدفع السهاد. وتسقم القلب، وتذيب الفؤاد فإذا ارتفع الحجاب سمع الخطاب، وقرأ من اللوح المحفوظ الرموز، واطلع على معان دقت، وشرب بأوان رقت، فكان مع قلبه ثم يكون مع مقلبه لامع قلبه لأن

---

(١) انظر المصدر نفسه : ١/١٤٣.

(٢) انظر المصدر نفسه : ١/١٥٠.

(٣) انظر تلقيب علماء عصر الإمام الدسوقى له بلقب (شيخ الإسلام) بعد تسليمهم بتفوقه العلمى إثر محاولات امتحانه : فى ملحق لسان التعريف ص / ١٦٩.

الله يحول بين المرء وقلبه. فإذا خرج عن الكل طال لسانه بلا لسان. مع شدة اجتهاده وأعماله الظاهرة ثم الباطنة. ثم بعد ذلك لا حركة ولا كلام ولا تسمع إلا همسا. إنما هو سمت بلا حس. ثم يصفو من صفاء الصفاء، ووفاء الوفاء، ويخلص من إخلاص الإخلاص فى الإخلاص للإخلاص ثم يتقرب بما يكون جليساً فإن المجالسة لها آداب، أخرى يعرفها العارفون) [1].

وعن مقام العرفان وخصوصياته الاصطفائية يقول إمام العارفين سيدى إبراهيم : (إذا كمل العارف فى مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة وأخذ العلوم المكتوبة فى ألواح المعانى ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها، وأطلعه الله على العلوم المودعة فى النقط ولولا خوف الإنكار لنطقوا بما يبهر العقول. وكذلك لهم من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسن مختلفة وكذلك لهم فى معانى الحروف والقطع والوصل والهمز والشكل والنصب والرفع مالا يحصر ولا يطلع عليه إلا هم، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما فى البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما فى حياة الإنس والجان مما يقع لهم فى الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق وما تحت التحت ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم فإن مواهب السر اللدنى قد ظهر بعضها فى قصة موسى والخضر عليهما السلام) [2].

ماذا هنالك من تعليق على هذا الفيض الربانى والمدد الإلهامى؟ لا شىء سوى الانبهار والهيبة الأخاذة والتطامن الكامل أمام عظمة الله القادر الخلاق العليم الذى اصطفى مَن عباده من حباهم بهذا الفضل العظيم.

إنها كنوز الفتح الربانى ومواهب الفيض العرفانى التى منحها الله لأهل وده وولايته.

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤٤.
(٢) انظر المصدر الأخير.

ولقد أسس الإمام الدسوقى طريقته على منهاج الكتاب والسنة ورسم لأبنائه ومريديه معالمها الوضاءة كى يسيروا على الدرب ويصلوا إلى الغاية. يقول رضوان الله عليه : (واعلم يا ولدى أن طريقتنا هذه طريق تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان فمن خالف شيئاً منها رفضته الطريق طوعاً أو كرهاً) (١) .

وكان رضى الله عنه يقول : (من لم يكن متشرعاً متحققاً نظيفاً عفيفاً شريفاً فليس من أولادى ولو كان ابنى لصلبى. وكل من كان من المريدين ملازماً للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدى وإن كان من أقصى البلاد) (٢) .

وبهذا رفض الإمام الدسوقى من يدعى الانتماء إليه وهو مفرط فى حقوق الشريعة مؤثراً دنياه وهواه على دينه ورضا مولاه. وبالمنطق نفسه فإن من قام بحقوق الشرع وعمل بالكتاب والسنة فهو من أخص أبناء سيدى إبراهيم.

ومن ثم يتضح أن مقياس التبعية الحقيقية للقطب الدسوقى إنما هو اقتفاء أثره وإيثار مبادئه لا التمرغ فى عرض الدنيا وإيثار المال والولد على حق الله ففى هؤلاء الأدعياء يقول سيدى إبراهيم (الله خصم كل من شهر نفسه بطريقتنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا) (٣).

ولقد كان سيدى إبراهيم يوجه نصائحه وتعاليمه لأبنائه وأتباعه فى الطريق حاثاً لهم على الترقى فى مدارج الكمال والتفهم لأسرار الذكر الحكيم. يقول رضوان الله عليه : (ان أردت يا ولدى أن تفهم أسرار القرآن العظيم فاقتل نفس دعواك، واذبح شبح قولك واطرح نفس نفسيتك تحت قدم أقدامك، وعفر خديك على الثرى، وأشهد أن نفسك قبضة من تراب، واعترف بكثرة ذنوبك، وقل يا ترى مثلى يقبل له عمل؟! فإذا كنت على هذا الوصف فيرجى لك أن تشم رائحة من معانى كلام ربك

(١) المصدر نفسه : ١٤٦/١.
(٢) المصدر نفسه : ١٤١/١.
(٣) المصدر نفسه : ١٤٥/١.

وإلا فباب الفهم عنك مغلق. وعزة ربى أن كل حرف من القرآن العظيم يعجز عن تفسيره الثقلان ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يعلموا معنى (ب) بعقولهم لعجزوا وما لأحد من ذات نفسه شىء قل ولا جل وإن لم يكن الله تعالى يعلّم العبد وإلا فهو عائم فى البحر مزكوم محجوب لا شم ولا لم ولا علم ولا حس، ومن لم يذق مقام القوم ويرى ويشاهد لم يحسن أن يصف بحرا لا قرار له ، أو يترجم عن ساحل لا آخر له ، أو يعوم فى قعر التخوم أو يصل إلى النون أو يدرك معانى السر المصون. وأما إذا أعطى عبده علم ذلك فلا مانع) [1].

لله درك أيها الإمام العارف الذائق، المتحقق. وطوبى لأمة أنت من رجالها !!

إن هذه الإشارات اللدنية التى نذكرها ونسجلها لمولانا الدسوقى - مع يقيننا بأنها فى مستوى القمة ولا يمكن أن تجاريها الأفهام إلا أننا نرمى من وراء ذكرها إلى إبراز شواهد من فتوحات هؤلاء القمم ، ثم نهدف أيضاً إلى تحفيز الهمم والعزائم الطموحة إلى مراتب الولاية والتحقيق ليجدوا السير ويحثوا الخطى.

وغنى عن الذكر أننا لا نضع فى حسباننا حينئذ من فى صدورهم عداء للتصوف، فالشمس هى الشمس ولو عميت عنها الأبصار ، فلنفتح عيون قلوبنا للضياء ولننهل من ينبوع الصفاء.

يقول الإمام الدسوقى فى تعريفه بصفات الفقير- والفقير هو اصطلاح للصوفى إذ هو مفتقر دائماً إلى مولاه .. (لا يكون الفقير فقيراً حتى يكون حمالاً للأذى من جميع الخلائق إكراماً لمن هم عبيده سبحانه وتعالى فلا يؤذى من يؤذيه ولا يتحدث فيما لا يعنيه ولا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة، ورعاً عن المحرمات، موقوفاً عن الشبهات، إذا بلى صبر، وإذا قدر غفر، غضيض الطرف يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه. طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح والاحتمال لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه) [2]. وأما عن كرامات القطب

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٥٢/١.

(٢) المصدر الأخير : ١٤٩/١.

الدسوقى فقل ما شئت . فمنها معرفته رضى الله عنه بسائر اللغات. يقول الإمام الشعرانى فى طبقاته : (وكان رضى الله عنه يتكلم بالعجمى والسريانى والعبرانى والزنجى وسائر لغات الطيور والوحوش)[(١)] ومنها ما رواه المناوى قال:خطف تمساح صبياً فأتت أمه مذعورة فأرسل نقيبه فنادى بشاطئ البحر بقوله يا معاشر التماسيح من ابتلع صبياً فليطلع به فطلع ومشى معه إلى الشيخ فأمره أن يلفظه فلفظه حيا وقال للتمساح مت بإذن الله فمات [(٢)]، وقد أخذت فقرة من ظهره وعلقت على بابه- وهى الآن فى الضريح لا تزال موجودة.

ومنها أن اشتكى إليه بعض الفقراء من قاض بثغر الأسكندرية كان ينكر على الصوفية ويناصبهم العداء ويتعسف مع مريدى سيدى إبراهيم على الخصوص فاستغاثه يوماً أحد مريديه من ذلك القاضى فكتب سيدى إبراهيم رقعة وأعطاها لرجل من عنده ليسلمها للقاضى وفيها هذه الأبيات:

سهام الليل صائبة المرامى
إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال
يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم فى دعاء
وأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ثم رمين سهماً
فما يغنى التحصن بالدروع

وتسلم القاضى الرقعة وأخذ يقرؤها فى استهزاء فلما وصل إلى قوله : (إذا

---

(١) المصدر الأخير : ١/١٤٢.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام ا لمناووى : ٢/١٥.

أوترن ثم رمين سهما) خرج سهم من الورقة فدخل فى صدره وخرج من ظهره فوقع ميتاً. فالعياذ بالله من الإنكار على الأولياء [1]. وغير ذلك من كرامات القطب الدسوقى ما لا يقع تحت حصر ولولا ضيق المقام لذكرنا العديد منها، ولكن الجدير بالتسجيل فعلاً هو أن سيدى إبراهيم كان متحققاً بأرفع درجات الكرامة وهى الكرامة المعنوية التى يعرفها علماء الصوفية بالاستقامة ولذلك كان شيخنا القطب العارف مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه يقول (الاستقامة خير من ألف كرامة) رضى الله عن الإمام الدسوقى وعن كل أولياء الله الصالحين حملة إرث النبوة وأئمة الهدى ورضى عنا بهم أجمعين.

وبعد : فقد اقتبسنا هذه الومضة النورانية من مناقب قطب الأولياء سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه لكى يسرى شعاعها فى أعماق قلوبنا فيضىء لنا الطريق ونقتفى أثر هذا الإمام الوارث لمدد سيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - فائذن لى يا سيدى إبراهيم أن أتطلع إلى مقامكم السامى فى فخر واعتزاز وأن أنال منكم محسوبية الدارين ومدد السالكين على دربكم الأمين رضى الله عنكم دائماً أبداً وعنا بكم آمين.



(١) انظر : لسان التعريف بحال الولى الشريف للعلامة الجلال الكركى ص ١١٠ - ١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ٤٠ »

الإمام أبو العباس المرسى رضى الله عنه

فى ذرى المحبة الشامخة، وفى آفاق النور والإشراق يُطَوِّفُ أقطاب الولاية فى رحاب الملكوت الأعلى ويغْشَوْنَ حضرات القرب والوصول، ويغترفون من معين السر الإلهى نورانيتهم المتألقة فى عالم القدس والصفاء، ويتزودون من إمدادات الفيض الإلهى راح أرواحهم المُهَيَّمَة فى جمال الذات العلية. فكلما ارتووا عطشوا، وكلما ازدادوا قرباً هاموا اشتياقاً، وكلما سكروا أنساً غرَّدُوا طرباً، وكلما ذابوا عشقاً فنوا اتصالاً. فيتحقق لهم بالوصلة نعيم الأبد مع الواحد الفرد الصمد، فيجلسهم على منابر الخصوصية ورثة للأنبياء ودعاة إلى شرف الاتصال وعز الولاء. رضى الله عنهم وعنا بهم وجعلنا فيهم ومنهم ومعهم بحق رحمة العالمين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فى تلك الذرى الشامخة نتعرف على قطب شامخ وإمام واصل خلعت عليه العناية خلع الرضوان الأكبر والعرفان المحقق. إنه الإمام العارف والغوث الفرد الجامع، نديم الحضرة القدسية ومهبط التنزلات العرشية وبحر العلوم اللدنية الوارث المحمدى سيدى أبو العباس المرسى قدس الله سره وأغدق علينا مدده وبره فى الدنيا ويوم الدين.

ولست أدرى بادئ ذى بدء بأى مقدرة يتطاول الإنسان إلى أوج هذا الشموخ الفذ أو يحيط بهذا المحيط لكى يتحدث عنه بما هو أهله؟ وأى طاقة يسعها أن تتعرف على ملامح شخصية فنيت فى الله وأصبحت ربانية ؟؟ لاشك - والأمر كذلك- بأننا سنغترف من المحيط بعض قطراته القريبة من الساحل محاولين أن نأخذ من الجزء سر الكل قدر ما يتحمله، ذلك الجزء أو ما نتحمله نحن منه.

وبتعبير أوضح. سنتعرف من خلال بعض ما كتب عن سيدى أبى العباس- فى حدود طاقتنا- على منزلة هذا القطب الشامخ فى الولاية ودرجته فى المعرفة. أو بالأحرى على (ربانيته) وصوفيته.

لئن كان هذا التعرف يتطلب مجالاً أرحب من حدود هذا الكتاب- وهو كذلك دون شك - فلن يسعنا إلا استكشاف بعض الملامح المميزة التى تكمن فيها الدلالة بوضوح. ومنها يتيسر العبور إلى التفصيلات التى تلقى مزيداً من الضوء. ويتفرع بنا البحث إلى جانب تاريخى وآخر موضوعى، والأول إطار للثانى كما أن الثانى مضمون للأول.

وموضوعية البحث هنا تقتضينا إبراز الإطار فى عجالة يتحدد من خلالها المضمون:

إن قطبنا الذى نتعرف عليه هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى. رضى الله عنه. ويذكر بعض المؤرخين أن نسبه يتصل بالصحابى الجليل سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله تعالى عنه وعنا به. ومن ثم كانت نسبته إلى الأنصار رضى الله عنهم [(١)].

أما مولد سيدى أبى العباس رضى الله عنه فكان سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) بمدينة مرسية إحدى مدن الأندلس وإليها نسبة مولانا أبى العباس، وفيها كانت نشأته النورانية على درب العناية الإلهية. فقد أرسله والده سيدى عمر إلى مؤدب من أولياء الله تعالى ليحفظه القرآن الكريم ويفقهه فى الدين. وسرعان ما تلألأت أنوار الفطرة الذكية وانقدحت المواهب السنية فى وجدان سيدى أبى العباس لتواكب مسيرته على طريق الفتح والمعرفة، وكان من أوائل شواهدها ما رواه رضى الله عنه بنفسه قائلاً : (كنت وأنا صبى عند المؤدب، وجاء رجل فوجدنى أكتب فى

---

(١) انظر : الإمام أبو العباس المرسى للأستاذ أحمد حسين الدسياوى ص ١٥٦ ط/ دار المعارف.

لوح، فقال : الصوفى لا يسود بياضاً. فقلت له : ليس الأمر كما زعمت. ولكن لا يسود بياض الصحائف بسواد الذنوب)[١] !!

هذا منطق العارفين ينطق به وهو لا يزال غلاماً زكياً.

ويقول رضى الله عنه : (عمل إلى جانب دارنا خيال الستار وأنا إذ ذاك صبى فحضرته. فلما أصبحت أتيت إلى المؤدب - وكان من أولياء الله تعالى - فأنشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا

وهو الخيال بعينه لو أبصرا[٢] !!

ويمضى سيدى أبو العباس فى طريق النور، ويصل إلى ريعان الشباب ومعينه من التقى والهداية يزداد يوماً بعد يوم وساعة إثر ساعة، ويرى والده فيه قرة عينه وعقد أمله ويمن طالعه فيقربه ويدنيه منه ويسند إليه بعض أعماله التجارية مع أخيه الأكبر سيدى أبى عبد الله جمال الدين محمد لكى يقرن سيدى أبو العباس- ومنذ البداية - بين العبادة والتكسب اقتداء بالسلف الصالح، ويختلف من مدينة مرسية إلى سائر المدن والأمصار فى عمل وعبادة وبين جوانحه قلب لهج بذكر ربه وروح قانتة أوّابة وبصيرة تتفتح كل يوم بإشراق جديد. وذات يوم من عام ٦٤٠هـ يزمع الوالد الصالح الحج إلى بيت الله الحرام وبرفقته أسرته، وأبحروا عن طريق الجزائر. وبينما هم على مقربة من شاطئ (برنة) إذا بعاصفة قوية تهب عليهم فتغرق المركب ويستشهد الوالدان الصالحان[٣] وينجو الأخوان سيدى أبو العباس وسيدى محمد. فاتجها نحو تونس ليخلف سيدى محمد أباه فى تجارته ويتجه سيدى أحمد إلى تجارة لن تبور. فيتخذ من زاوية كانت للفقيه محرز بن خلف مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم . وكانت المقادير تعد لسيدى أبى العباس لقاءه مع الفتح

---

(١) ، (٢) المصدر السابق ص / ١٥٧ .

(٣) ذكرت المصادر أن سيدى عمر والد الإمام أبى العباس - رضى الله عنهما - كان متزوجا من السيدة فاطمة ابنة الشيخ عبد الرحمن المالقى وهو من الرجال الصالحين (انظر المصدر السابق).

الأكبر، مع السعادة العظمى والمجد الأسمى، ويحين اللقاء مع الأمل المرتقب، مع القطب الذى سيصله بالله ويأخذ بيده إلى معاريج الفتح والمشاهدة، مع قطب الزمان سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدنيا والآخرة.
وكان الملتقى الذى هيأت له الأحداث فى تونس، ولنستمع إلى قصة أروع لقاء من سيدى أبى العباس نفسه. يقول رضى الله عنه : (لما نزلت بتونس - وكنت آتيت من مرسية - وأنا إذ ذاك شاب : سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى. فقال لى رجل : تمضى بنا إليه؟ فقلت: حتى استخير الله. فنمت تلك الليلة فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس وعن يمينه رجل وعن يساره رجل. فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان! فانتبهت. فلما كان بعد صلاة الصبح جاءنى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرت معه. فلما دخلت عليه. رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل فدهشت. فقال لى : عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟ فذكرت له اسمى ونسبى. فقال لى: لقد رفعت إلى منذ عشر سنين)[١] !!

وكان المنطلق الأسمى إلى أسمى غاية. لقد وجد سيدى أبو الحسن فى سيدى أبى العباس مرآة ذاته الشريفة وأهلية وراثته فى القطبية وخلافته فى الوراثة المحمدية، ورأى أن هذا هو الرجل الثانى فى الطريقة الشاذلية. بل نستطيع أن نعتبره الرجل الأول من حيث اتحاده الروحى مع شيخه على نحو ما سنراه من عبارات شيخه فيه.

وبدأت التربية الكاملة والترقى الدائم إلى عالم القدس. وما ظنك بمن يربيه القطب الغوث على عينه. وفى زاوية (زغوان) بتونس حيث كان يقيم سيدى أبو العباس مع شيخه سيدى أبى الحسن: كان مقر الدعوة إلى الله، فكانت الحشود الهائلة من المريدين وطلاب الحقيقة على اختلاف مستوياتهم من علماء وتجار

(١) انظر لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن. للإمام أحمد بن عطاء الله السكندرى ص ٥٨ نشر المكتبة السعيدية.

وعامة يغشون مركز الإشعاع الشاذلى وينهلون من أقباسه زاد الحكمة والتوجه إلى الله.

ويرتفع شأو الإمام أبى الحسن وتعظم منزلته فى قلوب العامة والخاصة إلى حد أثار حقد قاضى القضاة ابن البراء وأقلقه على مركزه فى نفوس العامة إذ رأى أن منزلته بدأت تتهاوى أمام عظمة الإمام أبى الحسن فلجأ إلى الإيقاع به لدى السلطان أبى زكريا على نحو ما ذكرنا فى حديث سابق عن الإمام الشاذلى رضوان الله عليه. وكانت النتيجة هى ارتحال القطب الشاذلى إلى بلاد المشرق حيث توجه إلى الإسكندرية ثم إلى بيت الله الحرام ثم كانت العودة إلى تونس ثانية. ونتساءل عن سر هذه العودة برغم ما يكتنفها من مشاق. ويجيب سيدى أبو الحسن على ذلك عند التقائه بسيدى أبى العباس قائلاً : (ما ردنى إلى تونس إلا هذا الشاب) ثم يعود الإمام الشاذلى إلى الإسكندرية بأمر محمدى تلقاه مناماً ليربى فيها أربعين صديقاً، ويصطحب معه فى العودة أخص أصحابه ومريديه وفى مقدمتهم وارث سره سيدى أبو العباس. وكانت صحبة سيدى أبى العباس لشيخه مصحوبة بالترقى الدائم والمدد المتصل. وهذا نموذج عملى يجسد منهاج التربية ويصور معراج الترقى لسيدى أبى العباس على يد شيخه الشاذلى : يقول مولانا أبو العباس رضوان الله عليه : (كنت مع الشيخ فى السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن، فلما أحس بى قال : أحمد، قلت : نعم يا سيدى . قال : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته ثم نزل إلى الأرض. والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلق بقوله : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [1] ما قال فى السماء ولا فى الجنة، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون

---

(١) سورة البقرة / ٣٠.

خليفته، وأنت أيضاً لك قسط من آدم. كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة)[1] !!.

وهكذا أخذ سيدى أبو الحسن بيد سيدى أبى العباس ليوصله إلى الله وليفرغ فيه سره الإلهى ليكون خليفته من بعده. أو ليكون هو هو !! ولم يلحق الإمام الشاذلى بربه إلا وقد تحققت الوحدة الروحية بأسمى معانيها بين سيدى أبى العباس وشيخه، وأصبح سيدى أبو العباس شمساً متلألئة فى عالم الولاية، ومن ثم فقد كان سيدى أبو الحسن يقول له : (يا أبا العباس: والله ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت !! يا أبا العباس : فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك !!)[2].

لقد أذابت هذه الوحدة الروحية الأثنينية بين الشيخ ووارثه حتى صح لكل منهما أن يقول للآخر يا أنا !! ومن خلال هذه الرؤية العميقة لمفهوم الاتحاد الروحى بين الشيخ ومريده استوحينا أولية سيدى أبى العباس فى تأسيس الطريقة الشاذلية. ومن منطلق هذه الوحدة أيضاً كان الإمام أبو العباس قد أعطى لسان شيخه فى الحقائق ووقف على منهله فى العلوم اللدنية، ويؤكد ذلك ما رواه سيدى أحمد بن عطاء الله رضى الله عنه قائلاً :

(من المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة فى دار الزكى السراج وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه. فقال : أين أبو العباس ؟ فلما جاء قال : يا بنى تكلم.. يا بنى تكلم بارك الله فيك.. تكلم ولن تسكت بعدها أبدا. فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ)[3].

وكثيراً ما صرح سيدى أبو الحسن لأصحابه بما بلغه سيدى أبو العباس من منزلة سامقة فى الولاية، وبتحققه بأعلى المقامات. فكان رضى الله عنه يقول :

---

(١) انظر : لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص / ٦٢.

(٢) المصدر الأخير ص / ٧٠ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٣/٢.

(٣) المصدر الأخير ص / ٧٦.

(هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحجب عنه ولو طلب الحجاب لم يجده) (١) !!

ليت شعرى أى معنى يمكن أن يعبر عن مقام سيدى أبى العباس أكثر مما حملته هذه العبارة ؟؟ إنها قمة الوصول، وقمة الولاية وقمة التحقق، وقمة القمم !! لقد وصل سيدى أبو العباس إلى الله لدرجة أنه لا يمكنه أن ينقطع عنه. حتى لو أراد الانقطاع لم يظفر !! لقد صار ربانياً صرفاً ليس له فى نفسه شيء.

إنه موقوف على ربه، والحجاب حرام على من طلبته الحضرة لنفسها. إنه مخطوب العلا، ومراد الجناب الأقدس، وتلك ذروة المنى وقمة الاصطفاء.

ولقد أهله شيخه للتربية حتى صار يربى المريدين على عينه ويوصلهم إلى الله بين عشية وضحاها. ولقد بلغ به شيخه إلى ذروة الاكتمال التى يمكن أن يحظى بها ولى لله.

ولنستمع إلى تصريحات صريحة بكل تلك المنح والعطايا من الإمام الشاذلى. لقد كان رضى الله عنه يقول لمريده سيدى زكى الدين الأسوانى: (يا زكى: عليك بأبى العباس فوالله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله !! يا زكى : عليك بأبى العباس، فوالله ما من ولى لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعه الله عليه !! يا زكى : أبو العباس هو الرجل الكامل) (٢).

ويروى عن الشيخ ماضى بن سلطان أنه قال : (وقع بينى وبين أبى العباس كلام فسمعنى الشيخ – أى سيدى أبو الحسن- فقال لى : يا ماضى: الزم الأدب مع أبى العباس فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف أنت أزقة الإسكندرية) (٣) !! لقد ارتفعت الحجب وانقشعت الأغلفة، وتبدت حقائق الأشياء لمن سيجد قلبه لرب الأشياء. ولم يلحق الإمام الشاذلى بالرفيق الأعلى إلا وقد صار سيدى أبو العباس نسخة منه أو صار هو. ولقد صرح سيدى أبو الحسن

---

(١) انظر : الإمام أبو العباس المرسى للدسياوى ، ص / ١٤٤.

(٢) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله : ص / ٧٠ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٢/ ٢٢.

(٣) انظر العارف بالله أبو العباس المرسى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٥ سلسلة أعلام العرب .

بخلافة سيدى أبى العباس له، فقال لأصحابه : (إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى، وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه) [1].

وانتقل سيدى أبو الحسن قدس الله سره إلى جوار ربه سنة ٦٥٦هـ، وترك سيدى أبا العباس خليفة له من بعده وشيخاً للطريقة الشاذلية العلية.

وصار سيدى أبو العباس أوحد الدنيا وقطب الزمان وكهفاً لأهل الحقيقة وداعياً للحضرة الإلهية، فتصدر للتربية وأخذ يوالى الأولياء والأقطاب بإمداده وينشر أقباسه فى الوجود وينفق على المستحقين من خزائن علمه وفيوضاته ما لا يوجد فى عصر واحد إلا لفرد واحد.

ولئن حاولنا أن نتصفح جوانب العظمة فى شخصية سيدى أبى العباس : لما وسعتنا مجلدات ولا أسفار - وتلك حقيقة لا مبالغة فيها بحال - ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. فلنقتبس شذرات مضيئة تشير إلى سموه فى الولاية والمعرفة.

أما عن الجانب العلمى عنده- وهو جدير بأن يستقل به بحث مستفيض فبوسعنا أن نصنفه إلى علم كسبى وعلم وهبى. ولا يعزب عنا أنه نشأ منذ البدء فى رحاب الفقه والدرس، وألم بحظ وافر من العلوم النقلية والعقلية من تفسير وحديث وفقه وأصول وأدب ولغة كأتقن ما يكون الدرس والتفقه. بيد أنه بعد أن اتصل بشيخه الإمام أبى الحسن: تفتحت أمامه كنوز المعرفة واستوعب فى حضرته- كسباً ووهباً - ما يعز استقصاؤه فى مختلف العلوم؛ لأن شيخه كان بحراً فى العلوم حتى ليروى أنه كان إذا تحدث فى علم ما : ظن السامع أنه - لتبحره فيه - لا يجيد سواه. وتلك ملحوظة متواترة عن سيدى أبى الحسن. وكان سيدى أبو العباس يقيم فى القاهرة- بخط المقسم- أثناء إقامة شيخه بالإسكندرية. فكان لحرصه على حضور مجالس شيخه يذهب إليه كل ليلة من القاهرة إلى الإسكندرية ليحضر ميعاده ثم يرجع إلى القاهرة !!

---

(١) انظر : المصدر نفسه : ص ٤٢.

وكان من أبرز المصنفات التى تدرس فى مجالس سيدى أبى الحسن- فى التصوف خاصة - : (ختم الأولياء) للحكيم الترمذى، (والإحياء) للإمام الغزالى . وكان سيدى أبو الحسن يشهد له بالصديقية العظمى، وكذلك كتاب (الرسالة) للإمام القشيرى، و (قوت القلوب) للإمام أبى طالب المكى (1).

وغير ذلك كثير وكثير فى علوم المعاملات والحقائق وغيرها. وأما عن العلوم اللدنية عند سيدى أبى العباس: فإنها لا تقاس بحد ولا يتوقف لها على حصر؛ لأنها علوم سر، والسر لا يباح لغير أهله. ولقد أخذ سيدى أبو العباس ينهل من مناهل العلم اللدنى فى حياة شيخه وبعد انتقاله وينفق منه على خواص أصحابه.

وقد نتساءل: لماذا لم يسطر الإمام المرسى علومه فى كتب ينتفع بها من بعده ؟ ولقد أجاب هو رضى الله عنه على هذا التساؤل قائلاً : (إن علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لاتحملها عقول عوام الخلق. فكتبى أصحابى) (2) ! ولطالما حظيت قلوب أصحابه بفيوضاته وأقباس معرفته.

يقول مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته عن القطب المرسى: (وكان رضى الله عنه أكثر ما يتكلم فى مجالسه فى العقل الأكبر والاسم الأعظم وشعبه الأربع والأسماء والحروف ودوائر الأولياء ومقامات الموقنين والإملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار وأمداد الأذكار، ويوم المقادير وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة وعلم الأفراد، وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله تعالى مع عباده من حلمه وإنعامه ووجوه انتقامه) ثم يقول : (وكان رضى الله عنه يقول : لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون من رحمة الله تعالى) (3).

ويقول الإمام ابن عطاء الله رضى الله عنه : (وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لا يتنزل إلى علوم المعاملة إلا فى قليل من الأيام لحاجة بعض الناس إلى

---

(1) انظر لطائف المنن لسيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى : ص / ٧٧.
(2) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه : ١١/٢.
(3) انظر : المصدر نفسه ١٣/٢ ولطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص ٨٨.

ذلك.- قال - ولذلك يقل اتباع من تكون علومه العلوم السابقة، فإن المشترين للمرجان قد يكثرون وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان. ولم يزل اتباع أهل الحق قليلين كما قال تعالى فى أهل الكهف : (ما يعلمهم إلا قليل) وأهل الله كهف لأمور الناس ولكن قليل من يعرفهم) (١).

وكان سيدى أبو العباس رضى الله عنه يقول فى شأن خصوصية العلم الوهبى الذى يفضى به لخواص مريديه : (والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم فى زمن واحد قط إلا واحداً بعد واحـــد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه) (٢).

وكان يقول أيضاً : (لا أعلم أحداً اليوم يتكلم فى هذا العلم غيرى) (٣).

ولقد كان سيدى أبو العباس يريد أن يظل فى خلوته معتزلاً للخلق منفرداً للحق ولكنه اضطر للجلوس على منصة الهداية اضطراراً، يقول رضى الله عنه : (والله ما جلست بالناس حتى هددت بالسلب، وقيل لى : لئن لم تجلس لسلبتك ما وهبناك) (٤) !

ويروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن رجلاً كان ينكر على سيدى أبى العباس ويقول: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظمى ظاهر الشرع يأباها. فحضر يوماً مجلس الشيخ فانبهر عقله ورجع عن إنكاره وقال: هذا الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ! ثم صار من خواص أصحابه (٥).

وكان سيدى أبو العباس يقول : (شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه) (٦) !

---

(١) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص ٨٨-٨٩ والطبقات الشعرانية الكبرى ١٣/٢.

(٢) (٣) » الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣/٢.

(٤) المصدر نفسه : ١٤/٢.

(٥) طر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣/٢.

(٦) المصدر بمسه .

إن علم الفقهاء قد حصله معهم ثم وقف هو على المنهل الأعذب، يرتشف منه دون مشارك ، وظل يرتوى حتى صار بحراً متلاطم الأمواج بل محيطاً لا تلقى له ساحلاً من أى الفجاج.

وهاك مثلاً يصور درايته بعلوم اللغات: يروى الإمام ابن عطاء الله السكندرى عن الشيخ نجم الدين الأصفهانى أنه قال : (قال لى الشيخ أبو العباس يوماً : ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على اللغة العجمية فأتيت إليه بكتاب الترجمان. فقال الشيخ رضى الله عنه : ما هذا الكتاب ؟ قلت كتاب الترجمان. قال: فضحك الشيخ وقال: سل ما شئت بالعجمية أجبك بالعربية أو سل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية. فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية، وقال : يا عبد الله: ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن - أى الولاية- ويخفى عليه شيء من الألسنة) (١).

وكان رضى الله عنه يقول : (إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات وعرف جميع الألسن إلهاماً من الله عز وجل) (٢).

وكان سيدى أبو العباس رضى الله عنه إماماً فى التفسير الصوفى وله دقائق وإلهامات فى استنباط أسرار القرآن الكريم لم تسمع إلا منه ولقد سمع رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى : (اياك نعبد وإياك نستعين): إياك نعبد : شريعة ، وإياك نستعين : حقيقة.إياك نعبد : إسلام ، وإياك نستعين إحسان، إياك نعبد : عبادة ، وإياك نستعين : عبودية : إياك نعبد فرق ، وإياك نستعين : جمع) (٣).

وكان يقول فى قوله تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلا) (٤) : سمى خليلا : لأنه خالل سره محبة الله تعالى . قال الشاعر:

---

(١) انظر لطائف المنن لسيدى احمد بن عطاء الله : ص / ٨٠.
(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣/٢.
(٣) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله : ص / ١٠٨.
(٤) سورة النساء / ١٢٥.

قـــد تخللت مـــسلك الروح منى
ولذا سـمى الخليل خليـلا
فـإذا مـا نطقت كنت كـلامى
وإذا مـا صـمت كنت العليـلا [1]

ويقـول رضـى الله عنـه فى قـوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾ [2]: ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله، وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا أن الإسراء من بساط العبودية، فالنبى – صلى الله عليه وسلم – كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه. فالأولياء لهم قسط العبودية فلهم قسط من الإسراء. يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم [3].

(وأيضاً كان له رضى الله عنه تفسير للأحاديث النبوية الشريفة وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية. ولا مجال للبسط فى إيراد آرائه وإنما نسوق مجرد مثل موجزه، فقد كان رضى الله عنه يقول فى قوله صلى الله عليه وسلم : (إنما أنا رحمة مهداة) : إن الأنبياء إلى أممهم عطية، ونبينا صلى الله عليه وسلم هدية، وفرق بين العطية والهدية، إن العطية للمحتاجين، أما الهدية: فللمحبوبين !!) [4].

وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام : (السلطان ظل الله فى الأرض) : هذا إذا كان عادلاً. أما إذا كان جائراً : فهو ظل النفس والهوى » [5] وفى قوله صلوات الله عليه وسلامه عليه (من عرف نفسه عرف ربه) يقول قدس سره : معناه : من

---

(١) انظر : لطائف المنن : ص / ١٤٤.
(٢) سورة الإسراء /١.
(٣) انظر : الإمام أبو العباس المرسى : للدسياوى ص ٩٤ ط/ دار المعارف.
(٤) انظر لطائف ص ١٣٣.
(٥) انظر الإمام أبو العباس المرسى : للدسياوى ص /١٠٧.

عرف نفسه بذلها وعجزها عرف ربه بعزه وقدرته . وعلق على ذلك الإمام الشعرانى رضى الله عنه قائلاً : (وهذا أسلم الأجوبة والله أعلم) [1]. كذلك كان لسيدى أبى العباس رضى الله عنه تفسير لمشكلات القوم، وللعبارات المغلقة فى كلام الأولياء وأهل الحقائق.

من ذلك على سبيل المثال : قوله فى قول سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه وعنا به « خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله» : (معناه أن أبا يزيد رضى الله تعالى عنه يشكو ضعفه وعجزه عن اللحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاضوا بحر التوحيد ووقفوا على الجانب الآخر على ساحل الغرق يدعون الخلق إلى خوض. أى : فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا) [2] اهـ، ومن ثم ندرك أن لكلام الأولياء رضوان الله عليهم المتعلق بالحقائق فهما خاصا لا يقف عليه إلا أهله.

نقول ذلك لأن المحجوبين والمعاندين يتلمسون الوهم من تلك الأقوال ليقدحوا به فى التصوف والعيب فيهم وليس فى الصوفية.

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وآفته من الفهم السقيم

ولقد قيض الله لأوليائه من يذود عنهم ويبين مرامى كلامهم الحافل بالدر والياقوت والماس من أمثال القطب أبى العباس. أما أقوال الإمام أبى العباس نفسه فى علوم الحقائق فدونك بحر ليس له ساحل. فلنرتشف بعض قطراته لنروى تعطش أرواحنا للحقيقة.

كان رضوان الله عليه يقول : (جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلقوا من الرحمة ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة !!) [3].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١٢/٢.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٥/٢.

(٣) انظر : المصدر نفسه ١١/٢-١٢.

ومن روائع حكمه التربوية التى كان يؤدب بها مريديه قـوله رضى الله عنه : (إن الله تعالى جعل الآدمى ثلاثة أجزاء، فلسانه جزء، وجوارحه جزء وقلبه جزء، وطلب من كل جزء وفاء. فوفاء القلب ألا يشتغل بهم رزق ولا مكر ولا خديعة ولا حسد ووفاء اللسان ألا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم فيما لا يعنيه ووفاء الجوارح ألا يسارع بها قط إلى معصية، ولا يؤذى بها أحداً من المسلمين، فمن وقع من قلبه فهو منافق، ومن وقع من لسانه فهو كافر: ومن وقع من جوارحه فهو عاص) (١).

وكان رضوان الله عليه يقول : (ما سمى إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التى وجدها، وأنت يا ولدى لك خمسة أصنام معنوية، فإن كسرتها فأنت فتى : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة، والدنيا. وأفهم هنا : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على) (٢).

(وكان رضى الله عنه يقول : (للناس أسباب وسببنا نحن الإيمان والتقوى . قال الله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (٣) ﴾ (٤).

ومن كلامه رضى الله عنه : (جميع أسماء الله للتخلق إلا اسمه « الله » فإنه للتعلق. فليكن ذكرك « الله » فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمرة. فبساطه العلم وثمرته النور، والنور ليس مقصوراً وإنما يقع به الكشف والعيان) (٥).

وتحدث رضى الله عنه عن الأولياء صفوة الله من خلقه وما لهم من المنازل والعطاءات فقال : (إن لله عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه) (٦) إنه وصف خواص

(١) انظر لطائف المنن : ص / ١٤٦ - ١٤٧.
(٢) انظر لطائف المنن : ص / ١٤٩.
(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١٤/٢.
(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٤/٢.
(٥) انظر · الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٧/٢ ولطائف المنن ص / ١٤٨.
والإمام أبو العباس المرسى للدسياوى ص ٥٦.
(٦) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٢/٢.

الأولياء وقد تحدث به الإمام أبو العباس عن تحقق. ولقد حذر سيدى أبو العباس من معاداة الأولياء والوقوع فيهم قائلاً : (إذا ضاق الولى هلك من يؤذيه فى الوقت : وإذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه) (١) ولكنه إذا لم ينتقم الولى لنفسه لسعة معرفته فإن متوليه ينتقم له؛ ولذا يقول الإمام المرسى : (لحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك فإياك ثم إياك) (٢) وكان رضى الله عنه يعرف بأقدار الأولياء وأئمة الصوفية ويتحدث عن مقاماتهم. فمن ذلك قوله : (كان الجنيد رضى الله عنه قطباً فى العلم . وكان سهل التسترى رضى الله عنه قطباً فى المقام، وكان أبو يزيد رضى الله عنه قطباً فى الحال) (٣).

وأما عن اطلاع الأولياء على الأمور الغيبية وكشفهم لها فيقول قدس سره (قد يطلع الله الولى على غيبه إذا ارتضاه بحكم التبع للرسل عليهم الصلاة والسلام ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها) (٤).

وقد أذن لسيدى أبى العباس رضى الله عنه أن يتحدث بما أنعم الله عليه من منح وهبات اصطفائية إبرازاً لفضل الله على أوليائه. وقد صورت هذه الأقوال سمو الإمام المرسى وتفرده فى ذروة الولاية والتحقق والتمكين. كان رضى الله عنه يقول: (والله ما سار الأولياء والأبدال من (ق) إلى (ق) إلا حتى يلتقوا مع واحد مثلنا) (٥) وكان رضوان الله عليه يقول : (والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات -وأمسك على لحيته- لأتوها ولو حبوا على وجوههم) (٦)

ويروى الإمام الشعرانى أن سيدى أبا العباس رضى الله عنه كان يقول (لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو حجبت طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين) وكذلك كان يقول فى حق الجنة وفى حق الوقوف بعرفة كل سنة (٧).

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٤/٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٤/٢.

(٣) المصدر نفسه : ١٧/٢.

(٤)، (٥) المصدر نفسه : ١٢/٢.

(٦)، (٧) المصدر نفسه : ١٣/٢.

وذكر سيدى أحمد بن عطاء الله فى سفره الثمين : (لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه الحسن) عديداً من المنازلات والأحوال والمقامات عن الإمام المرسى ما يشهد بأنه قطب عصره الفرد. فيروى عن الإمام الشاذلى أنه قال : لن تهلك طائفة فيها إمام وولى وصديق وشيخ . ثم قال : فالإمام أبو العباس (١).

أما كرامات سيدى أبى العباس فلن يتسع المقام للإفاضة فيها وحسبنا أن نذكر أنه كان يقول قدس سره (والله ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى) (٢).

فلنتبرك بذكر ثلاث منها :

فإحداها : أنه أخبر بخليفته سيدى ياقوت العرشى يوم ولد ببلاد الحبشة وصنع له عصيدة أيام الصيف بالإسكندرية ، فقيل له : إن العصيدة لا تكون إلا فى أيام الشتاء ، فقال : هذه عصيدة أخيكم ياقوت ، ولد ببلاد الحبشة وسوف يأتيكم فكان الأمر كما قال .

و الثانية : أنه قدم إليه رجل طعاما فيه شبهة يمتحنه ، فرده وقال : إن كان المحاسبى كان إذا مد يده إلى شبهة ضرب عرق بإصبعه ، فأنا فى يدى ستون عرقاً تضرب .

والثالثة : ما ذكره الإمام النبهانى أن أهل الإسكندرية خافوا هجوم العدو فتقلدوا السلاح ، فقال الشيخ : ما دمت بين أظهركم لا يدخلها ، فلم يدخلها إلا بعد موته (٣).

رضى الله عنك يا سيدى أبا العباس وجعلنا من خواص أحبابك فى الدنيا ويوم الدين.

---

(١) انظر : لطائف المنن : ص ٧٠ نشر السعيدية .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٨/٢.

(٣) انظر الكرامات الثلاث فى جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٥٢٠/١ - ٥٢٢.

من أعلام أئمة الصوفية فى :

القرن الثامن

[١ - سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى .]

« ٤١ »

إمام الطريقة النقشبندية
سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى
رضى الله عنه

فى محيط النور الإلهى لاحت إشراقات التجليات الإلهية لأهل الوفاء والصفاء ، واستروحت قلوبهم بروح القرب والمشاهدة ، وتنعمت أرواحهم بالإلقاء فى عين بحر الوحدة حيث لا تسمع إلا بالله ولا تبصر إلا بالله ، إنها قلوب تعرفت فعرفت ، وشاهدت فتيقنت ، وتحققت بولاية الله ففازت بالنعيم الأبدى . والفتوح السرمدى . تلك مواهب الله تعالى لأحبائه وأصفيائه الذين أنزلهم منازل قربه وأحلهم ساحات رضوانه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وفى علياء منازل أولئك الصفوة المقربين والأئمة العارفين القطب الجامع والعلم الشامخ سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى رضى الله عنه .

هو الشيخ الأعظم للطريقة النقشبندية ، وأحد أعلام الصوفية الأفذاذ المتربعين على قمة الوصول .

ولد رضى الله عنه بقصر العارفان وهى قرية من قرى بخارى تبعد نحو فرسخ منها . والألف والنون فيها علامة الجمع فى اللغة الفارسية . وكان مولده فى شهر المحرم سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية (١) .

فنشأ وتربى فى أحضان الرعاية حتى استوى عوده . وفى كل يوم تلوح عليه سمات نورانية تبشر بفتوح ربانى عظيم . وقد تلقى سيدى محمد بهاء الدين أصول

---

(١) انظر : رشحات عين الحياة : للشيخ على بن حسين الواعظ الهروى ص ٥٠ نشر دار صادر .

الطريقة عن ثلاثة من أجلاء الصوفية الأعلام حيث أمده كل منهم بمدده وسقاه من نبعه ، وكانت تربيته على يد أحد هؤلاء الثلاثة تربية أويسية حيث أمدَّتْهُ روحانية القطب الكبير سيدى عبد الخالق الغجدوانى - رضى اللّٰه عنه - بالمدد الروحى الأعظم ، وسرت فيه نورانيته وأعدت قلبه لتلقى الفيوضات الربانية والنفحات القدسية .

ثم كان التلاقى بين التربية الأويسية فى الباطن والتربية الروحية فى الظاهر حينما هيأت له العناية أن يلتقى باثنين من أركان الطريق الصوفى النقشبندى فى عصره وهما القطب الراسخ سيدى محمد بابا السماسى والصوفى العارف سيدى الأمير كلال رضى اللّٰه عنهما .

ويلاحظ فى أسماء هؤلاء الشيوخ الثلاثة كما يلاحظ فى أسماء الشيوخ النقشبندية بصفة عامة أنها أسماء فارسية وأعجمية . ذلك لأن انتشار الطريقة النقشبندية كان على أوسع نطاق فى بلاد الفرس والعجم كما كان فى بلاد الترك ، والعراق وغيرها من بلاد ما وراء النهر .

أما قصة اللقاء الأول مع الشيخ العارف سيدى محمد السماسى : فيقصها سيدى محمد بهاء الدين قدس اللّٰه سره إذ يقول : « أرسلنى جدى وكان سنى وقتئذ نحو ثمان عشرة سنة إلى سماس لخدمة العارف الكبير والمرشد الشهير الشيخ محمد بابا السماسى باستدعاء منه لى ، فلما نلت الحصول إليه لم يأت وقت الغروب إلا وقد وجدت ببركته بنفسى سكينة وخشوعا وتضرعا ورجوعا . ثم إنى قمت وقت السحر فتوضأت وأتيت المسجد الذى فيه أصحابه ، فأحرمت بالصلاة . فلما سجدت دعوت اللّٰه تعالى وتضرعت إليه كثيرا فمر على لسانى أثناء دعائى :

إلهى : أعطنى قوة على تحمل البلاء ، ومنحة المحبة . ثم إنى صليت الفجر مع الشيخ قدس سره . فلما انصرفت من الصلاة التفت إلى وذكر لى كل ما صدر منى على طريق الكشف ثم قال لى : يا ولدى : ينبغى أن تقول فى دعائك : إلهى أعط هذا العبد الضعيف ما فيه رضاك . فإنه تعالى لا يرضى أن يكون عبده فى

بلاء ، وإن ابتلى حبيبه على مقتضى حكمته يعطه قوة على تحمله ويطلعه على حكمته. فلا ينبغى للعبد أن يختار البلاء فإنه ينافى مقام الأدب » ا هـ[1] .

لقد كان هذا هو اللقاء الأول والمرتقب لسيدى محمد مع شيخه الكبير . وكان لقاء يشع بالنور ويسمو بالروح إلى آفاق العبودية الخالصة والأدب الكامل مع الله تعالى .

وأمام هذه الكشوفات القلبية الباهرة والمعارف الربانية العالية وجد سيدى محمد بهاء الدين الصورة المثلى للشيخ المربى ، ورأى فى شيخه الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى العرفان والتحقق . فلازمه وتأسى بهديه وسلوكه . فكانت ذاته تشرب من ذاته النور والهدى . وهذه هى حقيقة المريد وعلاقة الشيخ بمريده فى الطريق . وظلت تلك الرابطة الروحية بين الشيخ والمريد إلى أن لحق الشيخ بربه وترك فى قلب مريده مفتاح الحب الإلهى الذى بدأ إشراقه يسطع آنا إثر آن .

ثم بعد وفاة العارف السماسى - وقد وضع سيدى محمد بهاء الدين قدمه فى الطريق - أخذه جده إلى سمرقند وصار يتردد به على الصالحين والأقطاب آملا أن تناله بركاتهم . ثم أتى به إلى بخارى وزوّجه بها ، وكانت إقامته فى قصر العارفان حيث الانقطاع إلى العبادة والتشرع والتحقق .

كل ذلك ومدد شيخه السماسى يتواصل إليه ، وروحانية القطب سيدى عبد الخالق تكتنفه وتغدق عليه من أسرارها وإمدادها إلى أن جمعته المقادير بثانى اثنين من شيوخ الظاهر ، وهو القطب العارف السيد أمير كلال قدس سره .

وكان اللقاء الحبيب لقاء القلب والروح ، لكى يسرى المدد المحمدى الذى روى أصل هذه الشجرة النقشبندية المباركة ليصل إلى فنن طالما ستطيب ثماره وتتفتح أزهاره ويتضوع أريجه فى الآفاق يبث أنفاس الطهر والصفاء ويحيى أرواحاً تتعشق الضياء ذلك هو القطب البهاء وارث مدد الأنبياء .

---

(١) انظر : الحدائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية للشيخ عبد المجيد الخانى: ص ١٢٦ نشر الدروبى بسورية.

وكانت الصلة بالسيد أمير كلال امتداداً للصلة الوثقى بالقطب السماسى . حتى لقد أخبر السيد الأمير كلال سيدى محمداً بأن الشيخ السماسى قد أوصاه به وقال له : لا تأل جهداً بتربية ولدى محمد بهاء الدين ولا بالشفقة عليه ، ولست منى فى حل إن قصرت فى ذلك . فقال له قدس سره : إن أنا قصرت فى هذه الوصية فلست برجل [1] .

ووفى الأمير بوعده أيما وفاء ، والشىء من معدنه لا يستغرب فهم أهل الوفاء والصفاء .

وعن نقطة التحول فى بداية سلوك سيدى محمد بهاء الدين يقول:مبتدأ يقظتى وتوبتى أنى كنت جالساً مع صاحب لى فى خلوة فبينما أنا ملتفت إليه أكلمه إذ سمعت قائلا يقول لى :

أما آن لك أن تعرض عن الكل وتتوجه إلى حضرتنا ؟ فحصل لى من سماع هذا الكلام حال عظيم [2] .

ودخل سيدى محمد بهاء الدين مرحلة جديدة فى التربية الروحية بالذكر والعبادة والعلم والعمل . وكان شيخه يعده لأن يكون نسيج وحده . فذاً فى عصره . إماماً فى زهده وورعه . والطريق إلى ذلك واضح ومستقيم ، ولكنه مكتنف بأشواك المجاهدة . إذ لابد من محو الإنية لاختراق الحجب . ولابد من قمع النفس لانطلاق الروح . إن الغاية سامية فلابد من مشقة الصعود . ولكن إذا هللت بشائر التوفيق تذللت الصعاب ، وهانت المشقات وصارت العبادات عادات والمجاهدات ترويحات.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وبالإضافة إلى صحبة العارف بهاء الدين لشيخه القطب السماسى والأمير كلال . . فإنه كذلك قد صحب عدداً من شيوخ بخارى ؛ إذ التقى بالعارف الشيخ

---

(١) انظر · الحدائق الوردية للشيخ عبد المجيد الخانى ص ١٢٦ .

(٢) انظر المصدر نفسه .

فثم أحد أكابر الأولياء ، كما التقى بالقطب (عارف الديك كرانى) أحد العارفين وصحبه سبع سنين . كما كان له من شيوخ الترك نصيب فى التربية الروحية . إذ التقى فى بخارى بالقطب الجليل الشيخ خليل الذى ولى سلطاناً على بلاد ما وراء النهر، واستمرت صحبته له ست سنين أفاد فيها من صحبته ووقف على جملة من آداب السلوك الخاصة بالكمل من الرجال [1] .

وهكذا نجد القطب البهاء يتنقل فى رياض المعرفة والسلوك ويصحب أئمة الزهد والعرفان فى عصره حتى اكتمل بدره وبلغ أشده فى الطريق فخاض فى بحار المعرفة وشرب من ينابيع المحبة . واستغرق فى مشاهد الفتح الإلهى حتى صار أوحد وقته ونادرة زمانه . يقول قدس الله سره : (كنت يوماً من أيام الأحوال فى ذلك البستان - وأشار إلى البستان الذى هو الآن محل ضريحه الأنور - أنا وجماعة من المتعلقين بى . فغلبت على الجذبات الإلهية ولطف العنايات الربانية واضطربت اضطراباً عظيماً لم أطق معه الثبات ولا الاشتغال وأنا مستريح . فقمت مسلوب القرار وجلست مستقبل القبلة فحصل وقتئذ غيبة اتصلت بالفناء الحقيقى وحقيقة الفناء فى الله عز وجل . ورأيت أنى فى صورة نجم في بحر من نور بلا نهاية ، وأنى انمحيت فيه ولم يبق بى من الحياة الظاهرة أثر . ففزع الحاضرون وبكوا فى تلك الحالة علىّ ، ثم بعد ست ساعات ردت إلى بشريتى شيئاً فشيئاً) [2] .

إنه مشهد من مشاهد الفناء فى الله عز وجل ، ولقد كان سيدى محمد بهاء الدين مستغرقاً فى هذا المشهد الذى يفنى العبد فى حقيقة الحقائق فصار مختصاً بهذا المقام فى ديوان الولاية .

وعن خصوصيات الأولياء يقول سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى رضى الله عنه فى كتاب جامع أصول الأولياء : (اعلم أن لكل من الأولياء خصوصية ، وهمة فى الحياة وبعد الممات كنقش الحقيقة والإلقاء فى بحر الوحدة والفناء

---

(١) انظر الحدائق الوردية للشيخ الخانى : ص ١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٣٠ .

والاستغراق لشاه نقشبندى محمد بهاء الدين ، وقوة التصرف والإمداد لعبد القادر الجيلانى ، وقوة العمل والواردات لعلى أبى الحسن الشاذلى ، وخرق العادة والفتوة لحضرة أحمد الرفاعى ، والترحم والتعطف للسيد أحمد البدوى ، والسخاء والكرامة لإبراهيم الدسوقى ... إلخ) [1] .

رضى الله عنهم أجمعين وأمدنا بمددهم فى الدارين . إنها خصوصيات ومراتب اختص بها رجال الله وراثة نبوية واستمداداً من الفيض المحمدى الذى سرى نوره فى العالمين .

ولقد عرف سيدى محمد بهاء الدين خصوصيات أولياء الله فغاص فى بحارهم وجاء بالعجب . ومما يشهد له برسوخ قدمه فى معرفة آثار روحانية السادة الصوفية الأمجاد قوله : « إن التوجه لروحانية أويس القرنى رضى الله عنه له أعظم تأثير فى الانقطاع التام والتجرد الكلى عن العلائق الباطنة والظاهرة ، والتوجه لروحانية الإمام محمد بن على الحكيم الترمذى يوجب محو الصفة » [2].

ولم يكن علمه بتلك الأمور من قبيل الإدراك النظرى فحسب وإنما الشيخ قد تحقق بكل تلك المقامات حتى صدرت عنه تلك الإشارات صدور الشعاع عن الشمس . ويؤيد ذلك ما ذكره العارف الشيخ صلاح جامع فى مناقبه بقوله : (كنت عند الشيخ سنة تسع وثمانين وسبعمائة فسمعته يقول : إن لى اثنتين وعشرين سنة وأنا على قدم الحكيم الترمذى ، فإنه كان لا صفة له وأنا الآن لا صفة لى عرف ذلك من عرف) [3] .

لقد فنيت صفاته فى صفات مولاه فناء محا منه كل شوائب الأنية حتى صار ربانياً بمعنى الكلمة مصطنعاً للحق ومجتبى للمولى لا يرى فى الوجود إلا مولاه وذلك قطب رحى الولاية.

---

(١) انظر جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم . لسيدى أحمد ضياء الدين النقشبندى الكمشخانوى : ص / ٥ ط / الحلبى .

(٢) انظر : الحدائق الوردية للشيخ الخانى : ص / ١٣١ .

(٣) انظر الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ الخانى والشيخ يس السنهوتى ص ١٣١ .

ولقد كانت عزيمة الشيخ البهاء رضى الله عنه فى هذا الطريق تسبق ارتداد الطرف . فمنذ أزمع السير إلى الله لم تقف أمامه عقبة . ففاق قرناءه ووصل إلى القمة وحده . وها هو ذا يقول : (وضعنا القدم فى هذا الطريق نحو مائتى شخص فاجتهدت أن أسبق الجميع فأدركتنى عناية الله تعالى فسبقتهم ووصلت إلى المقصود)(١) .

ولقد وصل إلى مقصوده وهو الله سبحانه وتعالى بهدى من الله ، ولم ينل هذا الهدى إلا بالمفتاح القرآنى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »(٢) .

أجل إنه الجهاد الأكبر .

إنه صقل مرآة القلب والتجرد عن علائق النفس . ولقد عنى سيدى محمد بهاء الدين بذلك أيما عناية إذ يقول قدس الله سره : (أربعون سنة وأنا فى ملاحظة مرآتى والعمل بها فلم تغلط مرآة وجودى أصلا)(٣) .

ولما صعد إلى القمة وتوالت عليه الفتوحات قال : (مرآة المشايخ لها جهتان ومرآتنا لها ست جهات)(٤) .

ومن مشاهد تلك الفتوحات الإلهية : ما ذكره رضى الله عنه إذ يقول (طفت ليلة حول (زيورتون) فوصلت إلى أكمة هناك فورد على حال عجيب فقيل لى : اطلب من حضرتنا ما أردت . فقلت مع التواضع والخضوع : إلهى ، هب لى قطرة من بحار رحمتك وعنايتك . فقيل لى : تطلب من كرم حضرتنا قطرة ؟ فأخذنى حال أعظم وهزتنى الأريحية وعلو الهمة فلطمت وجهى لطمة قوية وجدت ألمها أياماً وقلت : يا كريم هب لى بحار رحمتك وعنايتك مع القوة على تحملها . فظهر لى على الفور أثر الموهبة والعناية وببركة ذلك بلغت ما بلغت)(٥) .

---

(١) انظر : الحدائق الوردية : ص ١٣١ .
(٢) سورة العنكبوت / ٦٩ .
(٣) ، (٤) انظر الأنوار القدسية : ص / ١١٣ .
(٥) انظر : الحدائق الوردية : ص ٣٠ - ٣١ .

ولقد كان القطب بهاء الدين على صلة بسيدنا الخضر وكثيراً ما كان يلتقى به ويراه أصحابه ومريدوه .

وقد روى صاحب الحدائق الوردية : إن أحد أجلاء أصحاب الشيخ وهو الشيخ خسرو قال : (قصدت يوماً زيارة الشيخ رضى الله عنه . فوجدته واقفاً فى البستان على حافة الحوض يتكلم معه شيخ لم أعرفه ، فلما سلمت عليه انصرف ذلك الشيخ إلى ناحية من نواحى البستان . فقال لى رضى الله عنه : هذا الخضر -مرتين - فلم أتكلم بل سكت . وبعون الله لم أجد فى نفسى ميلاً إليه - أى عن شيخى - لا ظاهراً ولا باطناً ثم بعد يومين أو ثلاثة رأيته أيضاً فى بستان الخانقاه يتحدث مع الشيخ رضى الله عنه . وبعد مضى شهرين لقيته أيضاً فى سوق بخارى فتبسم فسلمت عليه فعانقنى وباسطنى وسألنى عن أحوالى . فلما رجعت إلى قصر العارفان وتمثلت فى أعتاب الشيخ رضى الله عنه قال لى : « إنك اجتمعت بالخضر فى سوق بخارى » . ا هـ (1) .

وهكذا تتضح صلة الشيخ الوثيقة بسيدنا الخضر ، وهكذا نرى أدب صاحبه ومريده الذى حفظ لشيخه حقه ولم يركن بقلبه لسوى شيخه حتى ولو كان سيدنا الخضر . ثم هكذا ترى مكاشفات الشيخ لمريده مع بعد المسافة بينهما إذ رآه وهو يحادث الخضر بسوق بخارى .

وثمة واقعة عجيبة ذكرها صاحب الحدائق الوردية وهى تشهد لسيدى محمد بهاء الدين بسمو منزله فى إظهار الكرامات والخوارق . يقول خليفته ووارث سره من بعده سيدى علاء الدين العطار : (كنت عند حضرته - أى الشيخ - فى يوم غيم فقال لى : هل دخل وقت الظهر ؟ فقلت له : لا . فقال : انظر إلى السماء . فنظرت فلم أجد حجاباً أصلاً ورأيت جميع ملائكة السموات يشتغلون بصلاة الظهر . فقال: ما تقول ؟ هل صار وقت الظهر ؟ فخجلت مما صدر منى واستغفرت منه وبقيت مدة وأنا أجد لذلك فى نفسى ثقلاً عظيماً (2) .

---

(1) انظر الحدائق الوردية للشيخ الخانى ص ١٣٩ .

(2) المصدر السابق : ص ١٣٨ .

إنه نور البصيرة الذى يقطع الحجب والمسافات وإنها لمكاشفات العارفين المحققين .

ولقد عرف أئمة الصوفية لسيدى محمد بهاء الدين قدره ومنزلته فى الطريق، فهو الإمام المجدد روح الطريقة النقشبندية ، ولقد ذكر صاحب الحدائق الوردية أن الحكيم الترمذى قد أخبر الشيخ عبد الله الخجندى بأن الشيخ بهاء الدين هو قطب الزمان (١) .

وإنما سميت هذه الطريقة بالنقشبندية ؛ لأنها تصل بالعبد إلى مقام نقش اسم الجلالة على القلب بالنور الإلهى ، ومن ثم فقد قيل فى منظومة السلسلة النقشبندية العلية عن القطب بهاء الدين وطريقته :

ببهاء الدين محمد روح طريقتنا للّه نجى

صافى المولى حتى انتقشت أسماء الذات على المهج

إنها طريقة مؤسسة على اتباع السنة واجتناب البدعة والأخذ بالعزائم والتخلى عن الرذائل والتحلى بمحاسن الأخلاق والفضائل . ومبنى هذه الطريقة على التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته - صلى اللّه عليه وسلم - فى قوله (ما صب اللّه في صدري شيئاً إلا وصببته فى صدر أبى بكر) (٢) .

ولما كان مبنى هذه الطريقة على تقديم الجذبة على السلوك ومبنى بقية الطرق على تقديم السلوك على الجذبة فقد قالوا : (إن بداية الطريقة النقشبندية نهاية سائر الطرق إلا من كان له قدم المحبوبية من الأولياء من حيث هو طريق لاغير وجميع أولياء اللّه شخص واحد كما قال سيدنا محمد - صلى اللّه عليه وآله وسلم - (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) .

(١) انظر المصدر نفسه : ص ١٣٨ .

(٢) رواه المحب الطبرى فى الرياض النضرة ونقله عنه الإمام مصطفى البكرى رضى الله عنه فى كتاب (الصلاة الهامعة بمحبة الخلفاء الأربعة) ص / ٤٠ ط / الحلبى - ولفظه فيه : (ما أوحى إلى شىء إلا صببته فى صدر أبى بكر) .

وقد اختار سيدى محمد بهاء الدين لطريقته الذكر الخفى وهو ذكر القلب والروح والسر .

وفى فضل هذا النوع من الذكر أخرج البيهقى فى شعب الإيمان أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (الذكر الذى لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً) .

وأما عن آداب الطريقة النقشبندية فيقول القطب بهاء الدين :

(لهذه الطريقة ثلاثة آداب : أدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ وهو أن يكون المريد فى الظاهر والباطن مستكملاً للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهى معرضاً عن سواه بالكلية .

وأدب مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو أن يستغرق فى مقام (فاتبعونى) ويراعى ذلك فى جميع الأحوال وجوباً ، ويعلم أنه - صلى الله عليه وسلم - واسطة بين الحق والخلق، وأن كل شىء تحت تصرف أمره العالى .

وأدب مع المشايخ وهو لازم للطالبين ؛ لأنهم سبب فى متابعته - صلى الله عليه وسلم - ووصلوا إلى مقام الدعوة إلى الحق فينبغى للمريد حضوراً أو غيبة أن يكون مراعياً لأحوالهم مقتدياً بهم متمسكاً بأذيالهم) [1] .

ويصرح الشيخ بعناية الشيخ بمريده قائلاً : (كل من مال إلينا أو انتسب إلى محبتنا بعيداً كان أو قريباً لابد أن نلحظ نسبته كل يوم وليلة ونمده من منبع عين الشفقة والتربية بالإمداد الدائم إن كان حافظاً لأحواله منقياً لطريق الإمداد من أدناس التعلقات وأوساخها) [2] .

ولقد أكد سيدى بهاء الدين رضى الله عنه استمداد طريقته من السنة المحمدية المطهرة إذ قال : (إن طريقتنا من النوادر وهى العروة الوثقى وما هى إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية واقتفاء آثار الصحابة الكرام . ولقد أدخلونى

---

(١) ، (٢) انظر : الحدائق الوردية للشيخ الخانى ص / ١٣٣ .

فى هذا الطريق من باب الفضل فإنى لم أشهد أولاً وآخراً إلا فضل الحق تعالى والعمل فيه يحصل منه فتوح كثيرة؛ لأن رعاية السنة السنية من أعظم الأعمال)[1]

لقد شيد الإمام بهاء الدين طريقته على السنة المحمدية وربى بها رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسارو على الدرب حتى وصلوا إلى غايتهم السامية.

وممن شرف بهم عصرنا من أقطاب هذه الشجرة النقشبندية المباركة : الإمام العارف قطب الوجود سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه وأمدنا بمدده مع سائر أئمة هذا الطريق وكل طريق يوصل إلى الله تعالى .

(وأخيراً) : وبعد هذه المسيرة الروحية مع إمام الطريقة النقشبندية نسأل الله تعالى أن يغمرنا بنفحات وبركات سيدى محمد بهاء الدين ، وأن يحشرنا فى زمرته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) انظر : الحدائق الوردية ص / ١٣٥ .

القرن التاسع

[١ - سيدنا السلطان الحنفى رضى الله عنه سنة ٨٤٧
٢ - سيدنا إبراهيم المتبولى رضى الله عنه وعنا به
سنة ٨٨١]

« ٤٢ »

قطب أقطاب عصره
مولانا السلطان شمس الدين الحنفى
رضى اللّٰه عنـــه

أظهـر الحق تبارك وتعالى أوليـاءه إلى الوجـود أقباسـاً من النور يهـتدى بها السـابحـون فى مـحيط الحـياة ، وأبـرز فيـهم من الشـواهد والصفـات الدالـة على اجتبائه لهم مالا يدع مجالا للارتيـاب إلافى نفس حجبت عن النور . وها نحن أولاء نتعـرف على تلك الشـواهد والصفـات فى شـخصيـات أولئك الخـاصة الأتقيـاء – ماوسـعنا التعـرف – علنا نقتفى أثرها فنمضـى من ورائهم إلى أشـرف غـاية وأكـرم سبيل .

وشـخصـيـة العـارف الكبـيـر مـولانا السلطان الحنفى تحـمل من مـواهب الاصطفاء ودلائل العناية ما لا يتسع له تصور ولا يقوى على استشراف آفاقه خيال. ولقـد صدق الإمام الشـعرانى رضى اللّٰه عنه إذ قـال : (لو رام الولى نفسـه أن يتكلم على مقام نفسه لا يقدر) (١) .

ونحن إنما نقف وراء الكلمات المأثورة والأحداث المروية نستخبرها ونستكنه مـا وراءها من مـعطيـات ودلالات تقـربنا من شـخـصـيـة هذا القطب الربانى الذى أجـمعت آراء أهل التحـقيق على بلوغـه أسمـى مراتب العرفـان وترقيه لأعلى مـراقى الولاية .

فهو أحد صدور الأئمة العـارفين والأقطاب الواصلين سيدى مـحمد شمس

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٢/٧٩ .

الدين الحنفى الصديقى الذى ينتهى نسبه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو حنفى المذهب . ولد رضى الله عنه سنة ٧٦٧ هـ ، وتوفى سنة ٨٤٧ [١] .

وقد نشأ نشأة أهل العناية يتيم الأبوين ، وقضى طفولته فى بيت خالته . فلما بلغ من العمر سبع سنين مضى به زوج خالته إلى بعض أصحاب الحرف ليعلمه حرفة يكتسب منها . فكان سيدى محمد يهرب من عند صاحب الصنعة إلى الكتاب ليحفظ القرآن الكريم . وتوالى هروبه إلى الكتاب حتى كان هو المنتصر برغبته على ميول زوج خالته . وكان من رفقائه فى الكتاب : شيخ الإسلام ابن حجر ، وجلال الدين بن المطوع وغيرهما [٢] .

ولما أتم سيدى محمد الحنفى حفظ القرآن الكريم : صار يبيع الكتب فى سوقها فمر عليه بعض الأولياء فقال (يا محمد ما للدنيا خلقت) [٣] !! فكانت هذه الكلمة هى الحد الفاصل بين حياتين شتان ما بينهما ، إذ كانت فاتحة الذهاب إلى الله تعالى .

فدخل الخلوة للعبادة وهو ابن أربع عشرة سنة ومكث فيها سبع سنين حتى سمع وهو فى الخلوة هاتفا يقول : (يا محمد : اخرج انفع الناس) ثلاث مرات، وهدد بالقطيعة إن لم يخرج [٤] . إذ لم تكن له رغبة فى ترك الخلوة والخروج إلى الناس ، ولكن العناية كانت تؤهله لمنصب جليل هو دلالة الخلق على الله تعالى وسوقهم إليه . وتوالى الفتح الإلهى على الشيخ الحنفى حتى صار أوحد زمانه وفريد عصره علما وعملا وولاية وتحققا .

والسلطان الحنفى شاذلى الطريقة . وقد بشر به سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، إذ أسر إلى بعض خواص أصحابه (سيظهر بمصر رجل يعرف بمحمد الحنفى يكون فاتحا لهذا البيت ويشتهر فى زمانه ويكون له شأن عظيم) [٥]

---

(١) انظر تاريخ مولده فى الكواكب الدرية للإمام المناوى مقيدا له بقوله (تقريبا) ١٦٦/٣ وتاريخ وفاته فى الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢ / ٧٩ ، ٨٩ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى الشعرانية ٧٩/٢ والكواكب الدرية المناوية ١٦٧/٣ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٧٩/٢ .

(٤) ، (٥) المصدر نفسه ٨٠/٢ .

كما قال رضى الله عنه أيضا : (الحنفى خامس خليفة من بعدى) [١] . وسرت هذه المبشرات من سيدى أبى الحسن إلى سيدى أبى العباس المرسى ومنه إلى سيدى ياقوت العرشى ثم إلى الشيخ ابن اللبان الذى أخبر الشيخ حسن الخباز المعاصر للسلطان الحنفى، وقد كان الأمر كما أخبر سيدى أبو الحسن. إذ تلقى سيدى محمد الحنفى الطريقة الشاذلية بعد خروجه من الخلوة عن الشيخ ناصر الدين بن المليق عن جده سيدى شهاب الدين بن المليق عن سيدى ياقوت العرشى عن سيدى أبى العباس عن شيخه رأس الطريقة سيدى أبى الحسن الشاذلى [٢] رضى الله عنهم أجمعين وأرضانا بهم دنيا وأخرى آمين .

هذا ولم يكن تلقيب سيدى محمد الحنفى بالسلطان وليد المصادفة أو اتفاقاً عفويا . فلم يشتهر بهذا اللقب إلا بعد عدة وقائع وأحداث جرت له مع سلاطين عصره وحكامه الذين وقعوا تحت طائلة كراماته وخوارقه فدانوا له بالولاء حتى صاروا منفذين لأمره ورهنا لإشارته .

ومن ذلك ما رواه الشيخ شمس الدين بن كتيلة من أن السلطان فرج بن برقوق كان يرمى الرمايا والأذى على المسلمين ، وكان الشيخ يعارضه . فأرسل وراء الشيخ وأغلظ عليه القول وقال له : المملكة لى أو لك ؟ فقال سيدى الحنفى : (لا لى ولا لك . المملكة لله الواحد القهار) ثم قام الشيخ متغير الخاطر فأصيب السلطان ابن برقوق على الفور بداء عضال فى جسده (ورم فى محاشمه) كاد يهلك منه وعجز الأطباء عن إبرائه فقال له بعض خواصه العقلاء : هذا من تغير خاطر الشيخ محمد الحنفى ، فأرسل أمراءه خلف الشيخ لاسترضائه فلم يجبهم . فما زالوا به حتى استرضوه فأرسل للسلطان ابن برقوق رغيفاً مبسوسا بزيت قائلا لأمرائه : (كل هذا تبرأ ولا تعد لقلة الأدب نملخ آذانك) [٣].

---

(١) انظر : السر الصفى فى مناقب السلطان الحنفى للشيخ على البتنونى ص ١٢ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣/١٦٦ .

(٣) انظر : السر الصفى للشيخ عمر البتنونى جـ ١ ص ١٩ والطبقات الكبرى الشعرانية ٢/٨١ .

وعلى أثر هذا الحادث طارت شهرة السلطان الحنفى فى الآفاق وعلت منزلته فى أعين العامة على منزلة الملوك والسلاطين . وتأكيدا لهذه الحقيقة يقول شيخ الإسلام العينى فى تاريخه الكبير :

واللّه ما سمعنا ولا رأينا فيما حويناه من كتبنا وكتب غيرنا ولا فيما اطلعنا عليه من أخبار الشيوخ والعباد والأستاذين بعد الصحابة إلى يومنا هذا أن أحدا أعطى من العز والرفعة والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة عند الملوك والأمراء وأرباب الدولة والوزراء عند من يعرفه ومن لا يعرفه مثلما أعطى الشيخ شمس الدين الحنفى - ثم قال :- وأبلغ من ذلك أنه لو طلب السلطان أن ينزل إليه خاضعاً حتى يجلس بين يديه ويقبل يديه لكان ذلك اليوم أحب الأيام إليه [1] .

وذكر الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : أن الملك المؤيد نزل إلى سيدى محمد الحنفى فجاء إلى الزاوية فوجد الشيخ فوق سطح البيت . فطلع إليه سيدى أبو العباس - أحد مريديه - وأخبره . فقال له : قل إنه ما يجتمع بأحد فى هذا الوقت . فوضع السلطان المؤيد يديه على رأسه ورجع إلى القلعة ولم يتغير من الشيخ إجلالاً له [2] .

هذه هى منزلة سيدى محمد الحنفى عند الملوك والسلاطين . ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة والمرتبة السامقة : لقب بالسلطان .

وأما فيما يتعلق بمنزلته العلمية : فهو البحر الذى لا يدرك له ساحل ولا قرار؛ ولقد حضر مجلسه يوما الشيخ جلال الدين البلقينى - رضى اللّه عنه - فسمع تفسير الشيخ للقرآن الكريم فقال :- (واللّه طالعت أربعين تفسيراً للقرآن الكريم ما رأيت فيها شيئاً من هذه الفوائد التى ذكرها الشيخ محمد) . وكذلك كان يحضر مجلسه شيخ الإسلام البلقينى - وهو غير الشيخ جلال الدين - وشيخ

---

(١) ، (٢) المصدر الأخير : ٢ / ٨٢ وانظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٣/١٧٠ .

الإسلام العينى وشيخ الإسلام البساطى المالكى وغيرهم [١] .

وكان إذا سأله أحد من المنكرين عن مسألة أجابه فإن سأله عن أخرى أجابه وهكذا حتى يكون المنكر هو التارك للسؤال فيقول له الشيخ رضى اللّه عنه : (أما تسأل ؟ فلو سألتنى شيئاً لم يكن عندى أجبتك من اللوح المحفوظ) [٢] .

هذا هو المثل الأعلى لأهل العلم الحقيقى . إنه طراز فريد من العلماء الذين يأخذون علمهم من اللّه تعالى ولم يدنسوا بهاء عملهم بدنس الدنيا وعرضها الفانى. وإن الدنيا لتخدم هؤلاء وهى صاغرة ؛ لأنهم أخلصوا دينهم للّه فآثرهم اللّه بفضله وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

وأما عن مكانة سيدى محمد الحنفى رضى اللّه عنه فى طريق القوم : فهو قطب أقطاب عصره وإمام أهل التحقيق فى زمنه . صاحب المحل الأرفع فى الولاية والمعراج الأسنى فى مراقى الحقائق . وناهيك بإمام أقام فى درجة القطبانية ستا وأربعين سنة وثلاثة أشهر كما أخبر بذلك سيدى الشيخ إسماعيل رضى اللّه عنه ، وذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته [٣] .

ومع ذلك فالأمر الذى يحير الألباب : هو أن السلطان الحنفى يقول (واللّه لقد مرت بنا القطبية ونحن شباب فلم نلتفت إليها دون اللّه عز وجل) [٤] !!

ولكنه وإن لم يلتفت إليها فهى قد التفتت إليه ، إذ لم يوجد فى عصره من هو أكثر صلاحية لها منه .. إنها تربية الرجال . ولقد قام الشيخ رضوان اللّه عليه بهذه المهمة خير قيام ، إذ تربى على يديه صفوة من الأولياء الذين نهلوا من نبعه المصفى . ولقد تحدث عن ذلك سيدى طلحة المدفون بالمنشية الكبرى رضوان اللّه عليه قائلا : (قال لى سيدى محمد الحنفى : يا طلحة : خرج من زاويتى هذه أربعمائة ولى : وفى رواية ثلثمائة وستون على قدمى . كلهم داعون إلى اللّه تعالى .

---

(١) ، (٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه . ٨٦/٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٢ / ٨١ .

(٤) انظر المصدر نفسه : ٨٤/٢ وانظر السر الصفى للشيخ عمر البتنونى ٣٥/٢ .

وأصحابنا بالمغرب كثير وبالروم والشام أكثر . وأكثر أصحابنا باليمن وسكان الكهوف والبرارى والمغارات) [1] .

وفى جذب الشيخ لقلوب الخلق إلى الله أسرار عجيبة . فقد جاء رجل إليه وقال : يا سيدى أنا ذو عيال فقير الحال فعلمنى الكيمياء . فقال الشيخ : أقم عندنا سنة كاملة بشرط أنك كلما أحدثت توضأت وصليت ركعتين . فقام على ذلك . فلما بقى من المدة يوم جاء إلى الشيخ . فقال له غدا تقضى حاجتك . فلما جاءه قال له: قم فاملأ من البئر ماء للوضوء فملأ دلوا من البئر فإذا هو مملوء ذهباً . فقال: يا سيدى ما بقى فىّ الآن شعرة واحدة تشتهيه . فقال له الشيخ : صُبَّهُ مكانه واذهب إلى بلدك فإنك قد صرت كلك كيمياء . فرجع إلى بلده ودعا الناس إلى الله تعالى[2]. ولقد سأل الشيخ يوما عن الصالح من هو ؟ فقال : (الصالح هو من صلح لحضرة الله عز وجل . ولا يصلح لحضرة الله عز وجل إلا من تخلى عن الكونين) [3] .

إنه ينطق عن الله تعالى بمفهوم الصلاح الأمثل الذى يجدر بصاحبه أن يعد فى زمرة الصالحين .

هذا ، وللكرامات والخوارق فى حياة السلطان الحنفى جانب يعز وصفه ويبعد استقصاؤه . ولقد كان صدور الكرامات منه إبرازا من الله تعالى لفضله وعلو شأنه، ولكى يرسخ اعتقاد مريديه ومعاصريه فى رسوخ قدمه فى الولاية . أما عن نفسه هو : فقد كان حظه من الله تعالى فوق الكرامات والخوارق . إنه مع الله تعالى فى استغراق دائم . ولئن كان له جانب من معاشرة الخلق فإن هذا الجانب لا ينال إطلاقا من استغراقه مع ربه ، فهو معهم بالجسد ومع مولاه بالقلب والروح . وسنذكر مثالا واحدا من كراماته الخارقة كشاهد صدق على ولايته لمن يهمهم رؤية

---

(١) انظر الطبقات الكبرى الشعرانية ٢/٨٥ - ٨٦ .
(٢) انظر طبقات الإمام الشعرانى الكبرى : ٢ / ٨٦ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٣/١٧٢ .
(٣) انظر الطبقات الكبرى الشعرانية ٢ / ٨٩ .

الولاية من هذا الجانب :- لقد دعاه بعض الأمراء مرة إلى وليمة - وكان فى نفس ذلك الأمير من جهة السلطان الحنفى حسد على إقبال الخلق عليه - فوضع له طعاماً مسموما فى إناء وقدمه للشيخ . وكان لا يجرؤ أحد على الأكل مع الشيخ من إنائه . فأكل منه وحده وهو يعلم أنه مسموم ثم قام وركب إلى زاويته فاختلطت الأوانى فجاء ولدا الأمير فأكلا من إناء الشيخ فماتا معا . ولم يضر الشيخ شىء من السم[1] .

وتلقى الأمير فى ولديه - كما تلقى ابن برقوق وغيره من قبل - درسا من السلطان الحنفى تعلم فيه معنى التعرض لغضب الأولياء ، كما عرفوا فضل ملوك الآخرة على ملوك الدنيا . فكان منهم بعد ذلك منتهى الإجلال للسلطان الحنفى وصاروا عونا له على مصالح المسلمين .

هذا هو السلطان الحنفى الإمام العالم والسلطان الولى والقطب الواصل والعارف المحقق الذى تحدث بنعمة الله تعالى عليه قائلاً : (نحن أسرار الوجود)[2]! لقد سرنا فى نور طرف من مناقبه نذكر فيه وبه هدى السلف الصالح أولياء الله تعالى .

وبعد : فمازلنا على الشاطئ نستنشق نسمات ساقها هدير أمواج هذا البحر المتلاطم ، وليس لنا قدرة على خوض عبابه ، إذ ليس معنا سفين المعرفة ولا شراع نور البصيرة ، وليكن مبلغ علمنا به أنه لا ساحل له ، فلتهنأ أمة فيها السلطان الحنفى الذى لم نسطر عنه إلا حرفا من كتاب ولم نرتشف من بحره إلا قطرة من عباب . وليكن حديثنا عنه بمثابة إشارة من بنان تشير - وهى فى الأرض - إلى كوكب درى فى السماء . أفاء الله علينا من بركاته وعطفه الأبدى دنيا وآخرة . آمين.

* * *

---

(١) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ١ / ٢٦٥ وانظر أيضا الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢ / ٨٤م.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضوان الله تعالى عليه : ٢ / ٨٨ .

« ٤٣ »

سيدنا إبراهيم المتبولى
رضى اللّه عنــه سنة ٨٨١

فى محراب الولاية لله عز وجل ينعم أهل الاصطفاء بما حباهم به مولاهم من جزيل العطاء ، فهم البدور الساطعة فى أفق هذا الوجود ، وهم البروق اللامعة أهل الكشف والشهود ، بذكرهم تتنزل الرحمات ، وفى رحابهم تجاب الدعوات وبحبهم تقبل الشفاعات . رضى اللّه عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله إلا أن حزب اللّه هم المفلحون .

من أولئك الصفوة الأتقياء والخاصة الأنقياء قطب الولاية وربيب العناية الوارث المحمدى سيدى إبراهيم بن على بن عمر الأنصارى المتبولى الأحمدى رضى اللّه عنه .

إنه إمام من أئمة الطريق وعلم من أعلام التحقيق ، صاحب الفتوحات الباهرة والمناقب الفاخرة . وهو أحد من أبرزهم اللّه تعالى فى الوجود لتعريف الخلق بآداب العبودية ، وحقوق الربوبية . فأحيوا موات القلوب وأعتقوا رقاب النفوس من أصفاد الذنوب .

ولو ذهبنا نستطلع آراء حملة الأقلام الصوفية وأصحاب الطبقات لنستخبرها عن مكانة العارف المتبولى لوجدنا أن تلك الشخصية الفذة قد حوت من الأسرار ما تنوء به شم الرواسى وتضيق به زواخر البحار .

وفى فاتحة تلك المنح اللدنية التى حفلت بها شخصية العارف المتبولى أنه محمدى التربية إذ إنه لم يتلق الطريق إلا عن سيدنا رسول اللّه – صلى الله عليه

وسلم - كما أخبر بذلك لسان الطريق سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى اللّه عنه قائلاً عنه فى صدر ترجمته : (ولم يكن له شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم) (١) .

ولقد قال عنه أيضاً أنه : (كان من أصحاب الدوائر الكبرى فى الولاية) (٢). ولهذه العبارة مغزاها الذى يدركه أهل الفتح والعرفان .

أما عن التربية المحمدية التى حظى بها سيدى إبراهيم المتبولى فهى موضوع له مقوماته ونتائجه . إذ إنه من أساسيات التربية الصوفية أن تكون على يد شيخ يأخذ بيد المريد ويرشده إلى معالجة نفسه بتصفيتها من الرذائل ثم بتحليتها بالفضائل ، وهكذا حتى يصبح المريد صوفيا بمعنى الكلمة .

بيد أن هناك نخبة مختارة وصفوة مجتباة قد اختارهم الرسول صلى الله عليه وسلم من أخيار أمته ليربيهم بنفسه تربية روحية صوفية محمدية . وهذه الثلة المصطفاة تستمد مشربها فى الطريق من النبع المحمدى مباشرة كما شرب سيدى أويس القرنى من منهل سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - حيث كان لذلك سيد التابعين .

ومن ثم فإن تلك النخبة المختارة هم فى المقام الأول ورثة محمديون .

ولقد كان العارف المتبولى محمدياً بكل دلالات هذه الكلمة ، محمدى الروح والقلب والسلوك والمشرب .

ولقد كان فى بداية أمره لشدة تعلقه بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وفائق محبته له كثيرا ما يراه فى المنام فيخبر بذلك أمه فتقول : (يا ولدى إنما الرجل من يجتمع به فى اليقظة)(٣) !!! .

وتحسس سيدى إبراهيم في كلمة أمة هذه أملا عزيزا لا ينال إلا بالاصطفاء

---

(١) ، (٢) انظر : الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٢ / ٧٥ .
(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢ / ٧٥ .

الإلهى ، وتعشقت روحه هذا اللقاء المحمدى الذى هو قمة منازل الفتح الربانى فتوالت عليه إمدادات الفتوح حتى تحقق مأربه ، وغرقت روحه فى محيط النور المحمدى وصار يرى النبى - صلى الله عليه وسلم - يقظة ومشافهة بعد أن كان يراه مناما، فأخبر والدته بذلك فقالت له : (الآن شرعت فى مقام الرجولية)(١) !!! للَّه دَرُّها من أم عليمة بمقامات الرجال(٢) وللَّه دره من رجل تربع على قمة تتهافت الأمانى حسرى دونها .

لقد ذكر الإمام الشعرانى تلك الواقعة فى طبقاته كشاهد صدق على أن العارف المتبولى قد نال فتحه المحمدى الأكبر وبلغ أرقى منازل العارفين .

ولقد ولد العارف المتبولى قدس الله سره فى مطلع القرن التاسع حوالى سنة ٨٠٠ هـ وقدم من بلده (متبول) - مركز كفر الشيخ - إلى (طنطا) وأقام بضريحها فى رحاب الإمام البدوى مدة ثم قدم القاهرة فأقام بالحسينية ، وصار يبيع الحمص المصلوق بقرب جامع شرف الدين ، ثم أقام بزاوية بدرب التتر تعرف بالشيخ رستم وتحول لزاوية بقرب دار السباع (٣) .

إن العطاء الذى حفلت به شخصية القطب المتبولى قلما تتسع له شخصية صوفية أخرى على امتداد الأعصر والأزمان . لقد كان رضى اللَّه عنه يقول : (وعزة ربى لتتوزع أحوالى بعدى على سبعين رجلا ولا يحملون) (٤) إن الإرث الذى سيخلفه فيه من يأتى بعده من الأقطاب لن يقوى على تحمله سبعون من الرجال . وقد سبق أن عرفنا مفهوم الرجولية فى الطريق .

ألا يخلق بهذه القمة الشامخة أن تتعرف على أمجادها بصائر أولى الألباب ؟

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢ / ٧٥ .

(٢) قال الإمام المناوى فى ترجمة الإمام المتبولى رضى الله عنه فى (الكواكب الدرية : ٣ / ٨٤) : (وكانت أمه من الصالحات ، أرباب الأحوال ، وكان الشيخ على الخواص - مع علو مقامه فى التصريف إذا جاءته حملة شديدة يذهب إلى قبرها، ويحكى لها ذلك عند القبر فتقضى الحاجة- قال الشعراوى- وقبرها معروف بذلك إلى الآن) !

(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى : ٣ / ٨٣ نشر : الأزهرية للتراث .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٢ / ٧٦ .

ولقد ذكر أصحاب التراجم الصوفية أنه كان يجتمع بالخضر - عليه السلام - ولاعجب فهو نديم الحضرة المحمدية . ثم هو الرجل الذى استغرق فى مقامات الفناء فى اللّٰه حتى فنى عن فنائه . وبعد ذلك هو العارف الذى وقع عليه الاختيار المحمدى ليكون أخا فى الطريق لسلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وأمدنا بمدده . يقول العارف المتبولى (وعزة ربى ما رأيت فى الأولياء أكبر فتوة من سيدى أحمد البدوى رضى اللّٰه عنه . ولذلك آخى بينى وبينه رسول اللّٰه - صلى الله عليه وسلم - ولو كان هناك من هو أكبر فتوة منه لآخى بينى وبينه) (١) .

ومن خلال تلك العبارة نتبين أن مناسبة إخائه للقطب البدوى إنما هى الفتوة فى الطريق . واصطلاح الفتوة عند الصوفية يدل على التخلق بخلق الرحمة والإيثار. إنه الإرث المحمدى الذى يستمد سناه وإشراقه من فيض قوله تعالى : (بالمؤمنين رءوف رحيم) (٢) . فالأولياء هم معدن الشفقة والرحمة بالأمة المحمدية. ومن ثم انجذبت حول الشخصية المتبولية قلوب وأرواح تاقت إلى النور وتعطشت للضياء فقادها الشيخ إلى اللّٰه على بصيرة وهدى .

ولقد كان الشيخ المتبولى رضوان الله عليه متأسيا بالهدى المحمدى تأسيا لانظير له فى سلوكه وأحواله وأوصافه . إن عينى الشريعة والحقيقة لا تغيبان عنه طرفة عين . فهو ينظر بنور اللّٰه ويطبق معالى الأوصاف والكمالات فى مسلكه القويم ويرفق العلم بالعمل . إنه مسلك القدوة الحسنة .

لقد كان يعمل بيده فتارة يشتغل بالزراعة وأخرى يتجر بالحسينية ، وكان يلبس الصوف ويتعمم به . وكان يتخذ من اللون الأحمر فى زيه شعارا لاتحاده فى المشرب مع سيدى أحمد البدوى رضى اللّٰه عنه ويقول : (أنا أحمدى) (٣) .

---

(١) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى : ٢ / ٧٦ .

(٢) سورة التوبة / ١٢٨ .

(٣) انظر فى ذلك : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢ / ٧٧ وفى الكواكب الدرية (٨٧/٣) للعارف المناوى قال فى ترجمة الإمام المتبولى . وكان يتعمم بالصوف ، ويتطيلس بشملة حمراء ويقول : (أنا أحمدى المقام) (رضى الله عن سيدى أحمد البدوى وعن سيدى إبراهيم المتبولى .

ولقد مكث رضوان اللّٰه عليه نحو الثمانين سنة إلى أن انتقل إلى جوار حبيبه ومولاه سنة نيف وثمانين وثمانمائة هـ ، وقد عاش هذه الحياة فى جو إلهى لم يَشُبْهُ مأربٌ شخصى أو دنيوى قط . وقد ظل طيلة حياته عزبا لم يتزوج ولم يغتسل قط من جنابة لأنه لم يحتلم أبدا ، فإذا ما سأله مريد عن سبب عزبته قال : (ما فى ظهرى أولاد حتى أتزوج بسببهم) [1] .

إنه يرى لكل شىء وجهته الشرعية وهو لا يباشر الشىء إلا من هذه الوجهة.

أما عن جانب الكرامات فى حياة القطب المتبولى : فإن كراماته لا تتسع لها الصفحات ولا تتحملها العقول . فمنها أنه رضى اللّٰه عنه لم يكن يصلى الظهر فى مصر أبدا فكان بعض الفقهاء ينكر عليه ذلك فسافر ذلك الفقيه المعترض إلى الشام فوجد سيدى إبراهيم المتبولى يصلى هناك فى الجامع الأبيض برملة لد . فسلم عليه وسأل قيم الجامع عنه قائلا : سيدى إبراهيم دائماً يصلى الظهر عندكم ؟؟ فقال : نعم !! فرجع الفقيه عن إنكاره واعتقد الشيخ [2] .

ومن كراماته أيضاً ، أن امرأة أوقفته فى الطريق مستنجدة به ، فقال لها : ماحاجتك ؟ فقالت : ابنى أخذوه الإفرنج وأريد منك أن تدعو اللّٰه ليرجع . فقال : باسم اللّٰه . ثم دعا الله ، ولم تمض لحظات إلا وقال لها : ها هو ولدك فرأت ولدها أمامها فى الحال [3] !!

وكان الشيخ رضى اللّٰه عنه إذا رأى إنسانا يعلم ما فى نفسه وما هو مرتكبه من الفواحش [4] . وتعرض جماعة من الظلمة إلى بعض رجاله فى الحقل فانتصر بعض الوزراء للظلمة تصديا لجماعة الشيخ وقال : إن كان المتبولى شيخاً ينفخنى فقال الشيخ : يا ولدى ما أنا أنفخ وإنما أفوق سهمى فلا يرد : فدخل الوزير بيت الخلاء فانتظروه فلم يخرج . فدخلوا عليه ، فوجدوا لحيته ووجهه فى حلق الخلاء

(١) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى ٢ / ٧٥ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٣ / ٨٦ ، ٩٠ والطبقات الشعرانية ٢ / ٧٧ .

(٣) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ١ / ٤٠٤ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣ / ٨٧ .

وهو ميت [1] . فاعتقد الناس كافة وخاصة الأمراء والوزراء مكانة الشيخ رضى اللّه عنه . ومن كراماته رضى الله عنه ما نقله الإمام النبهانى عن الإمام الشعرانى إنه قال : أخبرنى سيدى على الخواص رحمه الله تعالى أن الكعبة طافت بالشيخ إبراهيم المتبولى حجراً حجراً ثم رجع كل حجر إلى مكانه[2] .

أما فيما يتعلق بجانب الوصايا فى الطريق والحكم المشرقة التى تفيض من ينبوع هذا الإمام العارف : فإنها كلمات كالدر المنثور تملأ القلب إيمانا وإشراقاً : إنه يقول : (طهر قلبك من محبة الدنيا يجر ماء الإيمان فى قلبك جداول ، ومن لم ينظف قلبه من ذلك لا يجرى فى قلبه ماء الإيمان) [3] .

وللعارف المتبولى وصية فى الطريق تشتمل على جملة من النصائح الثمينة، وهى وصية سامية المرقى ، وقد اشتهرت فى الأوساط الصوفية وشرحها الإمام الشعرانى رضى اللّه عنه شرحا يعتبر قمة فى التصوف وأطلق عليه (المنح السنية على الوصية المتبولية) وفى تلك الوصية يقول القطب المتبولى ، (عليك أيها الأخ بالاستقامة فى التوبة) (واحذر من دقائق الرياء ومن أذى الخلق ومن أكل غير الحلال وجاهد نفسك بالجوع وإتعابها فى الأعمال الشاقة) (وقلل النوم ما أمكنك ، والزم العزلة والصمت ولا تترك قيام الليل) (وتباعد من الوقوع فى مظالم العباد وأكثر من الاستغفار والزم الحياء والأدب ولا تغفل عن ذكر اللّه تعالى ولو مع الغفلة فإنه عمدة الطريق) . إن هذه النصائح الثمينة قد أثمرت وآتت من دنان المحبة فارتوى وأروى وأشرقت منه فيوضات ربانية تجل عن الوصف ، وأضحى فى عصره شمساً تتلألأ بالنور وتفيض بالضياء فكان خليقا بلقب (إمام الأولياء فى عصره) كما ذكره الإمام النبهانى فى صدر ترجمته بجامع كرامات الأولياء .

* * *

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢ / ٧٦ .

(٢) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ١ / ٤٨ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢ / ٧٧ .

القرن العاشـــــر

[
١ - سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه وعنا به سنة ٩٤٥هـ .

٢ - سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به سنة ٩٧٣ هـ.
]

« ٤٤ »

مَفْخَرَةُ الأَوْلياء العَارِفُ الأُمِّيّ

« سيدى على الخواص رضى اللّٰه عنه »

اصطنع الحق تعالى أحبابه لنفسه ، ورباهم على عينه ، وجعل قلوبهم خزائن معرفته . فأودع فيهم من دقائق سره ما لا تدركه العقول . ألا إنهم أنوار اللّٰه المتلألئة فى سماء مملكته ، وعباده الساجدون على بساط خدمته . من دنا من ساحتهم أحلوه خير مقام ومن فاز بصحبتهم نال الوصول إلى الملك العلام . من أولئك الأئمة الواصلين والأعلام المربين ، معدن التقى والإخلاص ، وصفوة الأولياء الخواص سيدى نور الدين على الخواص البرلسى رضى اللّٰه عنه.

سيد من سادات القوم وركن من أركان الطريق ، وشيخ تربى على يديه أئمة وأعلام وحسبك أن من أبنائه فى الطريق : الإمام العارف ترجمان التصوف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى اللّٰه عنه.

والإمام الخواص شخصية صوفية تحتل الذروة فى عرفانها وتحققها بأسمى المقامات ؛ فلو ذهبنا نتعرف على تلك المواهب الإلهية التى منحها القطب الخواص لضاقت بنا السطور وتحيرت منا العقول إزاء هذه المنح الاصطفائية التى لا يحدها وصف ولا حصر ، ولكن سنسبر من عمق هذه الشخصية ما تهيأ لنا .

فليسمح لنا العارف الخواص أن نقبس من أضواء سيرته المباركة ونسبح فى بحر عطائه بالفكر والتأمل لنعرف فضل اللّٰه تعالى على أوليائه ، وفضلهم على سائر الناس .

وفى مقدمة التعرف على العارف الخواص نتساءل عن المنهل الصوفى الذى شرب منه ثم سقى منه غيره . ولكم نطمئن إلى كل ما سنعرف عن الخواص من

مواهب إلهية وفتوحات ربانية حين نعلم أنه تربى صوفياً على يد القطب المحمدى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه . يقول العلامة المناوى فى الترجمة الشخصية للعارف الخواص (وكان فى ابتداء أمره يبيع الجميز وهو شاب عند الشيخ إبراهيم المتبولى بالبركة ، ثم أذن له أن يفتح دكان زيات ، فمكث بها نحو أربعين سنة ، ثم ترك ، وصار يضفر الخوص حتى مات)[1] . ومكانة القطب المتبولى غير خافية على من له قدم فى المعرفة الصوفية . ويكفى أن نشير هنا إلى سمو منزلته كشيخ للعارف الخواص من خلال تلك العبارة التى قالها متحدثاً بنعم الله عز وجل : (نحن فى الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الجعيدى - يعنى نفسه - والشيخ أبو مدين والشيخ عبد الرحيم القناوى والشيخ أبو السعود بن أبى العشائر والشيخ أبو الحسن الشاذلى) إن هؤلاء الخمسة الذين ذكرهم العارف المتبولى يمثلون المدرسة المحمدية فى عصرهم : وهم سادة أهل الأرض فى عرفانهم بالله وصدق عبوديتهم له .

وانطلاقاً من مضمون هذه الحقيقة التى تعرفنا بمقام القطب المتبولى شيخ العارف الخواص فإننا ولا شك سنجد الكثير والكثير من ثمار هذه التربية . فلقد أسلم سيدى على نفسه لشيخه ليوصله إلى مقامات الرجال ، فتعهده شيخه بالصقل والتربية حتى صارت صورة شيخه منعكسة فى شخصه .

ولقد كان القطب المتبولى يعده لكى يكون خليفته من بعده.

ولقد أثر عن سيدى على الخواص ما يشير إلى أنه كان إبراهيمى المقام إذ ذكر الإمام الشعرانى فى منته أن شيخه كان يقول : (أخذت طريقى هذه عن سيدى إبراهيم المتبولى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتارة يقول : أخذت طريقى هذه عن أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام)[2] .

واجتماع الولى بالنبى إنما هو اجتماع فى عالم الأرواح بعد صفاء روح الولى

---

(١) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤/٩٠ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

(٢) انظر لطائف المنن والأخلاق لسيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٢/٧١ط/الميمنية.

وتحررها من كثافة ترابيته . ولا تتنافى تلك المتابعة الإبراهيمية التى أشرنا إليها مع متابعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما هو لسيدنا إبراهيم عليه السلام . إنما هو بالأصالة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نبى الأنبياء .

ثم لقد تحقق سيدى على الخواص فيما بعد بالإرث المحمدى بحكم وراثته لمقام شيخه المتبولى رضى الله عنه . فلقد ذكر الإمام الشعرانى عن الشيخ أبى الفضل الأحمدى أن سيدى عليا لم يمت حتى صار يأخذ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلا واسطة [1] .

ولذلك يفخر القطب الشعرانى بأن بينه وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى التربية رجل واحد هو شيخه الخواص . ولقد ورث سيدى على الخواص سيدى إبراهيم المتبولى وصار بعده قطبا راسخا فى الولاية . ولقد كان من مظاهر هذا الإرث أن شيخه كان يقام له سماط كل سنة على سد يأجوج ومأجوج ويحضره جميع الأولياء من سائر أقطار الأرض وهو بمثابة حفل تكريم يحتفل فيه الأقطاب بسيدى إبراهيم وتتلاقى أنوار العارفين فى هذا المشهد الروحى العظيم وتعم النفحات والبركات أرجاء الكون .. وقد ظل هذا السماط يقام للقطب المتبولى حتى انتقل إلى جوار مولاه . فلما ورثه القطب الخواص صار يقيم السماط الذى كان يقام لشيخه ، بل لقد زاد سماطه على سماط شيخه بأن صار يحضره أرواح الشهداء والأنبياء إضافة لجمع الأولياء . رضى الله عنهم أجمعين [2].

وقبل أن نترك الحديث عن تربية الإمام الخواص الصوفية : نضيف أنه نهل إلى جوار المورد المتبولى من مورد شيخ آخر هو سيدى محمد أبو البركات الخياط؛ وهو الذى دفن الشيخ الخواص بضريحه المقام بالحسينية بمصر . ولقد أنبأه شيخه أبو البركات بذلك مسبقاً وهو حى . إذ قال له : (يا على : لا يشتهر هذا

---

(١) انظر اجتماع سيدى على الخواص رضى الله عنه بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم يقظه فى (تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب للشيخ محمد محيى الدين المليجى ص / ٥٢ط / أمين عبد الرحمن.

(٢) انظر . الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ٧٧/٢ والمناقب الكبرى للشيخ المليجى ص ٥٣ - ٥٤.

الضريح والمزار إلا بك) وقد تحقق ما قاله الشيخ ، إذ لم يشتهر الضريح إلا بعد أن لحق سيدى على بربه وانتقل إلى جوار شيخه سنة ٩٤٩ هـ. فعرف المزار واشتهر بسيدى على الخواص مع أنه أصلا لشيخه أبى البركات رضى الله عنه (١).

والآن وبعد تطوافنا بمنابع التأثر الروحى التى استمد منها العارف الخواص ذاتيته الصوفية : لنتعرف على ثمار هذا التأثر ونتسلق ذرى هذه القمة الشامخة لنقف على مشارف الفتح الإلهى فى شخص العارف الخواص . وهنا نجد لزاما علينا أن ندخل البيت من بابه .

وباب الخوّاص هو الإمام الشعرانى الذى تتلمذ على يديه ونال فتحه الإلهى . لقد ذهب إليه وهو من أعلم أهل الأرض بشرع الله وأفقههم فى دينه وأكثرهم موسوعية إلماما بشتى فنون المعرفة ، ذهب هذا الإمام بكل ما يحمله من مواهب إلى رجل أمى ليدخله إلى حضرة الله ، ولكن هذا الأمى - رغم أميته - كان كنزا مخفيا من كنوز الله فى أرضه ، فتسلم هذا الأمى ذلك العالم ليقول له : « إنك لست بعالم بعد ، لأنك تأخذ علمك عن المحدثات . وأما نحن فنأخذ علمنا عن الله بلا واسطة» وهذا العلم الذى بلا واسطة هو العلم اللدنى . والسبيل إليه هو تربية النفس ، وتطهير القلب من الأغيار لتحل فيه الأنوار . وأمره أن يبيع كل كتبه ويتصدق بثمنها وأن يترك طلب العلم تماما لمدة سنة كاملة ثم يحضر إليه . ففعل ذلك وأتاه بعد عام فقال له : (بقيت فارغا والفارغ يملأ ولا يتغير ما فيه ، ثم أجلسه بين يديه ولقنه الذكر ، وأخذ عليه العهد وأعطاه الورد وقال له : يا عبد الوهاب لايفتح عليك إلا بروضة المقياس فاذهب إليها فى غد بالدواة والقرطاس ، وانتظر الفتح الإلهى) .

فامتثل الإمام الشعرانى أمر شيخه .

وفى روضة المقياس جاءه الفتح الإلهى فأخذ يُدوِّن فى قراطيسه من فيض إلهامه ويعرضها على شيخه لكن الشيخ يأمره بمحوها لأن فيها شائبة علم مكتسب

---

(١) انظر تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب (المناقب الكبرى) ص ٥٨ .

وما زال يكتب ويمحو حتى تمحض له العلم اللدنى فقال له الشيخ : (لقد تم أمرك وعلا قدرك وشاع ذكرك وروى قلبك عن ربك فاكتب ما شئت) (١).

ويخبرنا الإمام الشعرانى أنه بعد فتحه قد غطس فى بحر علوم شيخه القطب الخواص خمس مرات وفى كل مرة وجد صيدا من خزائن علومه اللدنية ، فلما أراد أن يغطس السادسة استحال البحر حجرا إذ قد نال نصيبه من بحر علوم شيخه العارف . وحديث الإمام الشعرانى عن هذه الغطسات الخمس : قد لا يجد متسعا فى عقول الكثيرين أو فى تصورهم . ولكن موضوعية البحث تلح فى طلب الحقيقة أيا كان مدى تصورها .

يقول العارف الشعرانى أنه حينما غطس فى المرة الأولى فى بحر علوم شيخه وجد جملة العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى جميع هذا العالم على اختلاف طبقاته من الصديقية العظمى إلى آخر درجات الولاية (٢) .

وفى المرة الثانية وجد جملة آيات القرآن الكريم وتحت كل آية تفسيرها بما شاء الله من العلوم .

وفى الثالثة : وجد جملة الأحاديث النبوية الشريفة بشروحها ودلالاتها وعلومها التى لا تحصى .

وفى الرابعة : وجد علم التأويل الخاص بتأويل ما أخذ عن الكمل من أهل الله تعالى .

وفى الخامسة وجد جملة من الحقائق المتفرقة التى لا تتنازع فيها العقول الإنسانية .

والأمر الذى يحير الألباب بعد كل هذا العطاء الإلهى الذى لا يحده تصور أن الإمام الشعرانى يصرح بأن ما وقف عليه فى غطساته الخمس لا يمثل حقيقة ما

---

(١) انظر : المناقب الكبرى : تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب للشيخ محمد محيى الدين المليجى ص ٥٤ – ٥٥.

منحه شيخه الخواص من فتح إلهى ، إذ يقول : إن بحر علوم شيخنا رضى اللّٰه عنه لا يدرك له قرار ، ولذلك قصدت حين غطست فيه المواضع القريبة من الساحل رفقاً بالسامعين إذ الغور فى ذلك لا مرقى لغالب الأولياء إليه فضلاً عن غيرهم[1]!!

ترى ماذا يخامر عقولنا إزاء تلك المواهب الإلهية وقد جاوزت مدى التفكير وخرجت عن حد التصور ؟؟.

حقيقة : لا يسعنا إلا أن نرددها فى خشوع وإجلال : (ذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء واللّٰه ذو الفضل العظيم) [2] .

ولنتابع السير مع هذا الولى العارف لنعرف فى حدود قدرتنا ما آتاه اللّٰه من فضله : لقد كان هذا الشيخ الأمى إذا تحدث فى معانى القرآن أتى بما يحير أفهام جهابذة العلماء . ومع ذلك فقد كان يترفق على عقولهم ويمسك عما لا يطيقونه من خزائن علمه .

ولقد كان يقول : (من العلماء - ويعنى نفسه - من يعطيه اللّٰه حكمة كل حرف تكرر فى القرآن العظيم . ومنهم من يعطيه اللّٰه من العلم والقوة ما يقدر به على تخريج جميع أحكام القرآن وجميع الكتب المنزلة من أى حرف شاء منه . ذلك فضل اللّٰه يؤتيه من يشاء واللّٰه ذو الفضل العظيم) [3] .

ومرة أخرى يقول : (لا يصير الرجل عندنا معدوداً من أهل الطريق إلا إن كان عالما بالشريعة المطهرة مجملها ومبينها ناسخها ومنسوخها خاصها وعامها . ومن جهل حكما واحدا منها سقط عن درجة الرجال) [4].

ولقد قصدنا أن نشبع الحديث عن الجانب العلمى عند الخواص لنؤكد تلك الحقيقة الصوفية الراسخة (ما اتخذ اللّٰه من ولى جاهل ولو اتخذه لعلمه !!) .

---

(١) انظر نفس المصدر الأخير : ص/ ٥٥ - ٥٧.
(٢) سورة الحديد /٢١
(٣) انظر : المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب) للشيخ المليجى ص ٥٨.
(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣٢/٢.

ولقد أكدت تلك الحقيقة ذاتها من قبل حينما رأينا الولى الأمى سيدى عليًّا الخواص فى موقف الأستاذ المعلم لإمام العلماء فى عصره القطب الشعرانى الذى صنف كتابا من إجابات شيخه الأمى على أسئلته فى مختلف آفاق العلوم والحقائق والمتشابهات . وقد كان الشيخ يجيبه عنها تارة بالسريانية وتارة بالعبرية أو العربية. وقد أسمى الإمام الشعرانى كتابه (درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص) . وهذا الكتاب آية فريدة فى علوم الحقائق ولسان الإشارات . ثم لنعرج الآن على أحوال الشيخ ومناقبه وكراماته التى تخبرنا بمنزلته بين أهل اللّٰه تعالى ; لقد ذكر الإمام الشعرانى أن سيدى عليا رضى اللّٰه عنه كان ينظر إلى الشخص فيعرف من أنفه جميع ما ارتكبه من المعاصى والآثام بفراسته الصادقة [(١)]. وكان ينظر فى الميضأة التى يتوضأ فيها الناس فيعرف جميع الذنوب التى غفرت وخرت فى الماء من غسالتها ، ويعرف أهل تلك الذنوب التى غفرت على التعيين ويميز بين غسالة كل ذنب وآخر من كبائر وصغائر ومكروهات[(٢)] . وكان إذا نظر فى دواة الحبر يرى الحروف التى تكتب منها إلى أن يفرغ الحبر [(٣)] ، وقد أخبر تلميذه سيدى أفضل الدين ذات مرة حين رأى دواة بالسطر الأول الذى سيكتب منها فترقب الكاتب حتى كتب فوجد كتابته منطبقة مع ما أخبر الشيخ حرفاً حرفا.

ويقول الإمام النبهانى عنه فى (جامع الكرامات) « وكان رضى اللّٰه عنه أميا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان رضى اللّٰه عنه يتكلم على معانى القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفسياً يحار فيه العلماء !!

ثم ينقل عن الإمام الشعرانى قوله (وكان شيخنا الشيخ على الخواص يعرف بين الأولياء بالنسابة ؛ لأنه ينسب كل حيوان للجد الأول لذلك الجنس) [(٤)].

وكان رضى اللّٰه عنه يرى فى الليل والنهار معاريج أعمال الناس إلى السماء على التعيين . وكان كشيخه المتبولى لا يصلى الظهر بمصر أبداً بل يصليه بالجامع الأبيض (برملة لد) وقد شهد له من هناك بصلاته الظهر دائماً .

---

(١)،(٢) (٣) انظر : تذكرة أولى الألباب للشيخ المليجى ص ٥٣.

(٤) انظر ٠ جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى . ٢/٣٧٣.

وكان رضى الله عنه من أرباب الفتوة الذين يتحملون عن الأمة البلايا والمحن بأجسامهم وأرواحهم ، وكان من أصحاب التصريف النافذ . ولقد سمع الإمام الشعرانى سيدى محمد بن عنان يقول : (الشيخ على البرلسى أعطى التصريف فى ثلاثة أرباع مصر وقراها)[1] . وسمعه مرة أخرى يقول : (لا يقدر أحد من أرباب الأحوال أن يدخل مصر إلا بإذن الشيخ على الخواص رضى الله عنه)[2].

ويذكر الإمام الشعرانى أن سيدى عليا كان يعرف أصحاب النوبة فى سائر أقطار الأرض، ويعرف درجات الفتح فى قلوب العارفين ... رضى الله عنه وعن سائر أولياء الله أجمعين[3] .

(وبعد) فمعذرة لمولاى القطب الخواص إذ لم أف بحق مقامه السامى فى حديثى القصير القاصر . وأنى يستطيع من هو راسف فى قيود أنيته الترابية أن يصف من تحرر من كل القيود وتجرد لمولاه وحبيبه فقرب منه وأنس به حيث هناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . رضى الله عنك يا مولانا الخواص وسقانا من نبعك المصفى أحلى وأصفى ما يختص به الخواص من عباد الله تعالى آمين .

* * *

---

(١) ، (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢/١٣٠.

(٣) انظر المصدر نفسه .

« ٤٥ »

ترجمان الصوفية العارف الربانى
سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه

على عرش الولاية المحمدية تربع أقطاب الصوفية الذين اجتباهم الحق تعالى لمعرفته ومحبته ولقيادة خواصه إلى حضرته ، فهم شموس الهداية فى كل عصر ، وحملة الإرث المحمدى فى كل زمان من أولئك الأئمة العارفين ، والأساطين الواصلين قطب السلوك إلى اللّٰه تعالى : كنز الفتح الربانى أبو المواهب سيدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى اللّٰه عنه وعنا به .

ولقد آثرت البدء بالحديث عن الإمام الشعرانى رضى اللّٰه عنه كإمام فى علوم الشريعة والفقه بوجه خاص - وإن كان التصوف يمثل الجوهر الأعم فى شخصيته - قاصداً بذلك إبراز نقطتين على جانب كبير من الأهمية .

أولاهما : أن التصوف الحقيقى لا يقوم أساسا إلا مرتكزاً على دعائم قوية من العمل بالشريعة المحمدية والتخلق بها..

وهذا بالطبع يستلزم الإحاطة الدقيقة بالعلوم الشرعية والإلمام بأصولها وفروعها حتى يمكن أن تطبق سلوكيا عمليا ومن ثم تفضى العبادة بالعابد إلى المعبود . وهنا حقيقة التصوف .

أما النقطة الثانية : فهى إزالة اللبس عن فريق من الناس يعتقد أن ثمة انفصالا أو تباينا بين الشريعة والحقيقة ، وهذا اعتقاد يجانب الصواب بالكلية. فما الشريعة والحقيقة إلا وجهان لشىء واحد أحدهما ظاهر للعام والخاص . والآخر

باطن لا يطلع عليه إلا الخواص ، وشاهد ذلك هو تمثل الجانبين (الشرعى والحقيقى) على أوسع نطاق فى شخصية الإمام الشعرانى رضى الله عنه . ولكى نتعرف على الشخصية الشعرانية فى صورتها العلمية الفريدة ، نجد لزاما علينا أن نتتبع المسار التاريخى لهذه الشخصية حتى نلتقى بالمسار العلمى الذى نرى من خلاله أبعاد هذه الصور بوضوح .

ولد الإمام الشعراى سنة تسع وتسعين وثمانمائة هجرية ببلدة قلقشندة بإقليم القليوبية من أصل شريف ينتمى إلى الدوحة العلوية الهاشمية .

فهو : أبو المواهب سيدى عبد الوهاب ابن الشيخ أحمد بن الشيخ على بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الشيخ موسى بن السلطان فاشين بن السلطان محيى بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن السيد موسى بن سيدى محمد بن الحنفية ابن سيدنا على كرم اله وجهه [١] . وجده السابع هو السلطان أحمد الزغلى سلطان تلمسان بالمغرب . ففى أصله العريق يتلاقى الملك والشرف ولكل منهما انطباعه النفسى والبيئى فى حياته رضى الله عنه .

وترجع تسميته بالشعرانى لانتسابه إلى قرية أبيه (ساقية بنى شعرة) [٢] التى انتقل إليها بعد أربعين يوما من مولده والتى عاصرت صباه الحافل ببوادر الفتوح الإلهى إذ أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره .

وقد نشأ رضى الله عنه يتيم الأبوين (محمديا) حيث توفى والده شهاب الدين أحمد وهو فى التاسعة ، وكان له عمان وعشرة إخوة لوالده وشقيقه سيدى عبد القادر، أما والدته فقد توفيت وهو فى سن التمييز .

---

(١) انظر : المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب) للشيخ محمد محيى الدين المليجى ص ٣٨ .

(٢) ذكر صاحب المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب) ص ٣٨ أن (ساقية أبى شعرة) كانت قرية من قرى مدينة (منف) ثم صارت بإقليم المنوفية على نهر نيل مصر تجاه بلد يقال لها (السراشيم) بإقليم القليوبية : وقد جيء بسيدى عبد الوهاب إليها من بلد جده لأمه (قلقشدة) من إقليم القليوبية لأن والدته كانت إذ ذاك عند أهلها فانتقلا به إلى بلد أبيه التى نسب إليها وهى (ساقية أبى شعرة) .

وكان وهو فى الثامنة يقوم الليل بالقرآن تهجداً وتعبدا ، وشرع بعد حفظه للقرآن الكريم فى حفظ متون العلم فقهها ونحوها وقراءتها ثم أخذ فى شرحها ودراستها على يد أخيه سيدى الشيخ عبد القادر . وكان رضى عنه الله كثيراً ما يصلى بالقرآن كله فى ركعة واحدة وهو دون البلوغ (١) .

وفى سنة ٩١١ هـ ارتحل مع أخيه إلى القاهرة طلبا للعلم فى الأزهر الشريف واتصل بأقطاب العلم فى عصره كالإمام السيوطى والإمام اللقانى وشيخ الإسلام سيدى زكريا الأنصارى وشهاب الدين الرملى الشافعى (٢) وأفرغ كل منهم خلاصة علمه وصفوة فكره فى صدر الإمام الشعرانى اعتزازا منهم بنبوغه وإقباله على العلم بهمة نادرة وعزيمة جبارة .

لقد كان يعشق العلم ويبذل فى سبيله أغلى ما لديه .

كان يقضى الليالى ساهرا يتنقل بين رياض الكتب وذخائر المصنفات بنهم وولع يفوقان حد الدهشة ، أجل كان يعشق العلم لأنه كان يجد فيه ذاته وحقيقته ؛ ولأنه وسيلته للتقرب من ربه عز وجل ، ولكى يزاوج الإمام الشعرانى بين تربيته العلمية وتربيته الروحية اتصل بأول شيوخه فى الطريق سيدى على الشونى رضى الله عنه ونهل من مورده العذب النورانى قوت روحه وغذاء قلبه . وبعد خمس سنوات قضاها الإمام الشعرانى فى الأزهر الشريف طالبا لعلوم الشريعة وتحت إشراف شيخه نور الدين الشونى طالبا لعلوم الحقيقة : انتقل إلى مسجد سيدى أبى العباس الغمرى، وكان هذا المسجد يعد بمثابة معهد علمى يضم إلى جانب صفوف الصلاة ومجالس الذاكرين حلقات العلم ، ويقوم بالتدريس فيه جهابذة العلماء .

فانتجع الإمام الشعرانى هذا الروض مزاوجا بين العلم الوهبى والعلم الكسبى مؤتمرا بأمر مربيه ومرشده سيدى الشونى فى عقد مجلس فى هذا المسجد للصلاة على النبى – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) ، (٢) انظر المناقب الكبرى للشيخ محمد محيى الدين المليجى : ٣٨ – ٤٠ .

وبعد أن قضى فى هذا المسجد ما شاء الله له انتقل إلى مدرسة تدعى (أم خوند) بخط كافور الإخشيدى، وهناك تألق نجمه وغمرت شهرته سائر بقاع الأرض إماما فى علوم الشريعة والحقيقة . هذا عرض موجز يمثل الخطوط العريضة للحياة العلمية التى حفلت بها شخصية الإمام الشعرانى رضى الله عنه .

ويهمس فى خاطر من يعنى بدراسة هذا الإمام تساؤل حائر : أى سر يكمن فى شخصية هذا الرجل جعله يقتحم غمار العلوم بشكل لم يعهد له مثيل لا فى قرنائه فحسب بل على امتداد الصعيد العلمى فى طول البشرية وعرضها .

لقد كان يطالع أوسع الشروح فى ليلة واحدة ، ويكتب عليه من الحواشى والزوائد ما يفوق به الأصل . ثم يرفق هذا بذلك ويرسله إلى شيخه الذى يقرأ عليه فيتعجب شيخه من سرعة مطالعته لهذه المواد ويقول : لولا أنك تلخص زوائدها لقلت : إنك لم تنظر فيها فضلا عن أن تطالعها كلها .

ولنقرأ ما كتبه بنفسه عن اطلاعاته العلمية فى كتابه الميزان .

لقد ذكر من أسماء المصنفات التى قرأها فى شتى فروع العلم ما يغرق العقول فى الدهشة : إذ قسم هذه الاطلاعات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فيما حفظه من الكتب عن ظهر قلب ، ويشمل ذلك حشدا هائلا من متون العلم من فقه ونحو ولغة وحديث، أمثال كتب المنهاج والإيضاح وألفية ابن مالك وألفية السيوطى وألفية العراقى والشاطبية وغيرها .

والقسم الثانى : فيما قرأه من شروح هذه المتون وغيرها على كبار علماء عصره كشيخ الإسلام سيدى زكريا الأنصارى ، والشيخ أمين الدين والإمام السيوطى. وعد من هذا القسم حوالى مائة شرح حافلة بالروائع المصنفة من شروح الصحيحين وأسفار التفسير . بل ذكر أنه طالع بعض هذه الشروح على أساتذته عشر مرات .

أما القسم الثالث : فذكر فيه ما طالعه لنفسه من مئات المصنفات والتى يبلغ

أحدها وهو تفسير ابن النقيب المقدسى مائة مجلد وهو أوسع ما رئى فى علم التفسير ، ويسترسل فى ذكر مطالعاته بصورة مذهلة .

فمن الكتب ما قرأه ثلاثين مرة كتفسير الجلالين ، ومنها ما قرأه ثلاث مرات كالأم للإمام الشافعى .

بل إن منها ما طالعه بإشارة باطنية من الرسول - صلى اللّٰه عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ككتاب المدونة الكبرى فى فقه المالكية .

وتفصيل الكتب التى طالعها مذكور فى كتاب الميزان [١] . وبدهى أن هذه الصورة التى نراها فى اطلاع الإمام الشعرانى على مصنفات العلوم - وهى صورة موسوعية إلى حد بعيد - لابد أن تثمر قطوفا دانية وجنى شائقاً من تأليف هذا الإمام العالم .

وحقا كانت كذلك فقد تمخضت عبقرية هذا الإمام عن نتاج غزير ومثمر إذ ذكر صاحب المناقب الكبرى أن مؤلفات الإمام الشعرانى جاوزت الثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم من تفسير وحديث وطب ولغة وتصوف وفقه فى مختلف المذاهب. وبعض هذه المؤلفات يقع فى خمسة مجلدات. ومن أشهر مؤلفاته: الطبقات الكبرى، والميزان فى الفقه المقارن، واليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر، ولوامع الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية، ولطائف المنن والأخلاق، إلى غير ذلك [٢] .

وله كتاب يدعى (تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء) ذكر فيه نحو واحد وسبعين ألف علم ، ثم لما رأى غالب العقول تحيرت منه غسله فى البحر [٣] .

من أى طراز كان هذا الرجل ؟ إنه نسيج وحده . وإنه ما وصل إلى هذه الدرجة من العلم إلا بالمفتاح القرآنى : « واتقوا اللّٰه ويعلمكم اللّٰه » [٤] .

---

(١) انظر : الميزان الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٥/١. - ٧٨ ط / عيسى الحلبى .

(٢) انظر : المناقب الكبرى للشيخ المليجى ص / ٧١ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ص ٥٨ .

(٤) سورة البقرة / ٢٨٢ .

ولننظر إليه فقيها يتربع على قمة لم يصلها إلا الأقلون .

إن مؤلفين من مؤلفاته وهما (الميزان الكبرى) و (كشف الغمة عن جميع الأمة) لم يحظ بمثلهما فقيه .

وحقا أقول إن كتاب الميزان خاصة لم يسبق إلى مثله عالم بل ولم يلحق أيضاً إذ يقول عن سبب وضعه أنه (الوصول إلى مطابقة القلب للسان فى صحة اعتقاد أن سائر المسلمين على هدى من ربهم فى سائر أقوالهم) ؛ (فلذلك أمعنت النظر لهم فى سائر أدلة الشريعة وأقوال علمائها فرأيتها لا تخرج عن مرتبتين : تخفيف وتشديد ؛ فالتشديد للأقوياء والتخفيف للضعفاء) [(١)] وقد أمسك الإمام الشعرانى ميزان الشريعة بيده مستندا إلى كشفه وذوقه لعين الشريعة من جهة وإلى الأسانيد النقلية التى حصلها من جهة أخرى ، وأخذ يعرض لسائر أبواب الفقه ومسائله فى كفتى ميزانه ثم يحللها ويقارن بينها ويرجع الراجح منها فى مقدرة فائقة بحيث يستشف الباحث من خلال تحليله ومقارنته وترجيحه عمق أحكام الشريعة واتساع أفقها ورسوخ أقدام أئمتها ورفع الحرج عن المتلمسين لسبل الهداية على ضوئها .

وليت شعرى كيف نترك تراثنا الإسلامى العريق فى ميادين التشريع الإسلامى حبيس المكتبات ونعكف على تراث الغرب تاركين زادنا الأصيل إلى ما أخذه الغير منا . فلنستمع إلى شهادات رجال الاستشراق أنفسهم وأقوالهم عن إمامنا الشعرانى : يقول المستشرق فولرز : (إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله وكان مصلحا لا يكاد يعرف له نظير ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرون كتابا يعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق إليه أبدا ولم يعالج فكرتها أحد قبله) [(٢)] .

ويقول عنه ماكدونالد : (إنه كان يجمع بين أعظم المميزات تضاداً وإنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ . كان عقله من العقول النادرة الخلاقة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام) [(٣)] .

(١) انظر : الميزان الكبرى للإمام الشعرانى : ١ / ٤ .

(٢) ، (٣) انظر : الشعرانى : إمام التصوف فى عصره للدكتور توفيق الطويل ص ١٤٤ ط / عيسى الحلبى .

والآن نقول : إن هذه الآراء التى أدلى بها المستشرقون عن الإمام الشعرانى لا تضيف له مجدا جديدا بقدر ما تحملنا نحن تبعة التقصير فى حق تراث هذا الإمام الأعظم ، وأن كتابا آخر له وهو كشف الغمة عن جميع الأمة ليضيف إلى تراثه الفقهى تعزيزا مشرفا إذ جمع فيه أدلة المذاهب الأربعة وغيرها فى شتى فروع الفقه ومسائله ، وأودعه معظم أدلة المجتهدين واستوفى فى كل باب منه ما روى فيه من الأحاديث الصحيحة مع توجيه الأدلة وكشف غوامض المباحث فى أسلوب سهل ممتنع ، وفى إطار روحى عذب وأصالة منهجية .

وأما عن مقام سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الولاية فإنه لا يتاح فى هذا المقام إلا اقتباس إشارات إلى مقامه الرفيع ، مع استحضار ما أسلفناه فى الحديث عن شيخه سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه من تلقيه للطريق على يديه كما تلقى الطريقة الأحمدية على يد سيدى محمد الشناوى حيث أخذ عليه العهد فى القبة الأحمدية وخرجت له يد الإمام البدوى من الضريح وصافحها بعد سماع القطب الملثم وهو يقول (نعم نعم) إثر قول سيدى محمد الشناوى (يكون خاطرك على عبد الوهاب واجعله تحت نظرك) (١) .

وقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه أن الله تعالى منَّ عليه بأن جعله من ورثة شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكونها تجمع مقامات الرسل كلها ، فكان محمدى المقام وتلميذاً لحضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكان من ثمرة هذا الإرث المحمدى أنه كان ليلة الأحد من الأسبوع تنام عيناه وقلبه لا ينام إرثا محمديا (٣) .

كما ذكر فى (المنن) أنه كان لشدة قربه من النبى صلى الله عليه وسلم تطوى له المسافة بينه وبين قبره الشريف فى أكثر الأوقات حتى إنه كان يضع يده على مقصورته صلى الله عليه وسلم وهو جالس بمصر !! (٤) .

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١ / ١٥٧ .
(٢) انظر : لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعرانى : ٢ / ٧١ .
(٣) ، (٤) لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعرانى : ٢ / ٧١ .

وذكـر رضى الله عنه أنه كمل مـقـام سـبـعـين وليـا فى البـرزخ وأنه ذكـر منهم سيدى عمـر بن الفارض وسيدى أبا السعود الجارحى رضى الله عنهـما حيث كشف له عن درجاتهم فى الجنة فوجد أن حصـولهم على ما وعدوا به متـوقف على أعـمـال فقـام بها عنهم [1] ولقد أخبرنى أحد العارفين المعاصرين بأن سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه قد أعطى درجة قطبانية السلوك وهـى أعلى درجة للقطابة فى عـالم الولاية . وهذه إشـارات وجـيزة إلـى مـقـام هـذا الـولى العظيم فـرضـى الله تعالـى عن الإمام الربانى سيدى عبـد الـوهاب الشـعـرانـى وجـمـعنا به فـى الفـردوس الأعلى مع شـيخنا الشـيخ جـوده إبراهيم الذى تربى فـى الـمـدرسـة الشـعـرانيـة فى المـعـرفة وقـال حينما سئل عن إطالة الزيارة فى مقـامه الكـريم : (رضى الله عنه : إن كتبـه هـى التى ربتنا) !! فرضـى اللـه عنهمـا وعن والدى محـبوب الإمـام الشعـرانـى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى وأمدنا بمـددهم العميم فى الدنيا ويوم الدين .

وبعد :

فـالإمـام الشـعـرانى قد أسـدى إلى أمـة الإسـلام خـدمـات جليلة وأضـاف إلـى العلم تراثا لم يأخذ حقه من العناية به والإفادة منه .

وأثرى حيـاتنا العلمية والـروحيـة بفيض زاخـر قدمـه من ذوب وجـدانه قـربـانا خالصا لله لينفع به أمة الإسـلام .

فـجـزاه الله عن الإسـلام والـمـسلمـيـن أحـسن مـا يجـازى به أولو الـفـضل المخلصون، ونفعنا بعلمه وبركته فى الدارين ، إنه سميع مجيب .

* * *

(١) انظر : المناقب الكبرى للشيخ المليجى ص / ١٣٤ .

القرن الثانى عشر

[١ - سيدنا على البيومى رضى الله تعالى عنه ١١٠٨-١١٨٣هـ .]

« ٤٦ »

سلطان الموحدين سيدى على البيومى
رضى الله عنه ١١٠٨ - ١١٨٣ هـ

يرتفع الخاصة من أولياء الحق تعالى إلى مقام تتلاشى فيه أنية العبد مع سيده فيتحقق بفناء ذكر الأشياء عن قلبه ، ويتفرد بسره وروحه لربه قائماً بين يديه تجرى عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته فانياً عن نفسه وحسه بقيام الحق تعالى له فى مراده منه فيكون كما هو قبل أن يكون فى جريان حكمه سبحانه عليه. ذلك عبد جذبه الحق تعالى منه إليه ، وأسدل ستر العناية عليه ، فهو مخصوص الحضرة القدسية ومجتبى الذات العلية ، وتلك مرتبة خواص الموحدين . رضى اللّٰه عنهم وعنا بهم وأورثنا درجاتهم فى الدنيا ويوم الدين .

من عيون أقطاب تلك النخبة المصطفاة ، والثلة المجتباة : إمام نهل من بحار التوحيد حتى تشعشعت روحه وفاضت أنواره ، وولى أخذته جذبة الرحمن فلم تدع له فى نفسه بقية ، فحلّق فى سماء الحب يردد مع الموحدين نداء الحضرة وكلمة التوحيد : (فاعلم أنه لا إله إلا اللّٰه) [1] .

قالها بتحقق وذوق ويقين فانتقشت فى قلبه وسرى نورها فى كيانه حتى صار نوراً محضاً يسبح فى محيط النور الإلهى .

إنه الإمام العارف مجذوب الذات الإلهية ومحبوب الحضرة المحمدية سيدى على نور الدين البيومى قدس اللّٰه سره ورضى عنه وعنا به وأمدنا بمدده المحمدى دنيا وآخرة . اللهم أمين .

---

(١) سورة (سيدنا) محمد صلى الله عليه وسلم : الآية / ١٩ .

والقطب البيومى هو أحد فروع الدوحة المحمدية الشريفة ، فقد ذكر المؤرخون ومشيخة عموم السادة البيومية نسبه الشريف على النحو التالى . هو : سيدى على بن السيد حجازى بن السيد داود بن السيد مصباح بن السيد عمر بن السيد حرفيش بن السيد عبد الرحيم بن السيد حسن بن السيد حماد بن السيد عثمان بن السيد عطية بن السيد معيد بن السيد عيسى بن السيد حماد بن السيد داود بن السيد تركى بن السيد قرشلة بن السيد أحمد بن السيد على بن السيد موسى بن السيد يونس بن السيد عبد الله بن السيد إدريس بن السيد إدريس الأكبر ى بن السيد عبد الله المحض بن السيد الحسن المثنى بن السيد الإمام الحسن بن سيدنا الإمام على كرم اللّه وجهه وابن سيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء بنت رحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين دنيا وآخرة . آمين [1] .

هذه هى الشجرة المحمدية التى تفرع منها العارف البيومى وهى الشجرة التى تتلألأ نوراً على نور ؛ لذا تبركت بإثباتها هنا لنتابع مسار النور حتى نصل إلى الكوكب البيومى المضىء .

وقد بزغ فجر ميلاد هذا الكوكب المحمدى سنة ثمان ومائة وألف هجرية حسبما ذكره الجبرتى فى تاريخه والزركلى فى الأعلام .

وكان مولده فى بلد (بيوم) التى ينسب إليها . وقد وصفها على مبارك فى الخطط التوفيقية بقوله : (... قرية من مديرية الدقهلية بمركز منية غمر بحرى شنّبارة الميمونة بنحو ثلاثة آلاف متر ، وفى شرقى ناحية مسكة بنحو ثلاثة آلاف ومائتى متر ، وفى جنوب ناحية جصفا بنحو ألفين وخمسمائة متر ، بها مسجد وأنوال لنسيج الأقمشة ...) .

وقد نشأ سيدى على البيومى نشأة المصطفين الأخيار من عباد الحق

---

(١) انظر : مجموعة أوراد الطريقة البيومية الصادرة عن مشيخة عموم السادة البيومية للشيخ حامد أحمد فضل شيخ عموم السادة البيومية بمصر ص ٣٣ .

الأطهار فكفلته الرعاية الإلهية وأمدته بالمواهب اللدنية . فدرج فى سلم المجد الاصطفائى مرتقيا إلى مصاف الورثة المحمدين . حفظ القرآن الكريم وبادر إلى التفقه فى الدين فغشى مجالس الشيوخ والعلماء ونهل على أيديهم من فيض علوم الشريعة . فتفقه على مذهب إمامنا الإمام الشافعى - رضى الله عنه وعنا به - وتلقى علوم التفسير والحديث واللغة وغيرها على أفاضل علماء عصره ، وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه أن الإمام البيومى قد أخذ الحديث والمسلسلات عن الشيخ عمر بن عبد السلام التطوانى كما تلقى عن نخبة من أشياخ عصره .

وهكذا أخذ سيدى على البيومى فى تحصيل العلوم الشرعية الكسبية أولاً حتى نال منها حظاً وفيراً ومدداً غزيراً . ثم شاءت له العناية الإلهية أن يشرع فى الانخراط الفعلى فى سلك القوم ، وأن ينهل من شربهم الأصفى غذاء روحه وقلبه . فأخذ فى المجاهدات الروحية والرياضات النفسية التى تصقل مرآة القلب وتصفى النفس من شوائبها لترتقى عبر مقاماتها السبع لتصل إلى مرتبة النفس الكاملة . ولكننا نجد - ونحن بصدد دراسة الجانب السلوكى عند العارف البيومى - أنه قد سلك أكثر من طريقة .

فقد ذكر الجبرتى أنه تلقن طريقة الخلوتية من السيد حسين الدمرداش العادلى وسلك فيها مدة . ثم أخذ طريقة الأحمدية عن جماعة من الأفاضل . ولم يعين شيخه فى الطريقة الأحمدية . ثم نجد كذلك عند تصفح مؤلفات الإمام البيومى أنه ألف رسالة فى طريق السادة النقشبندية رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين . وقد تحدث فى هذه الرسالة عن تلقين الطريقة النقشبندية مما يدلنا دلالة قاطعة على أنه سلك الطريقة النقشبندية أيضاً ، إذ لا يتأتى - فى المحيط الصوفى خاصة - أن يكتب أحدهم فى علوم القوم إلا عن ذوق وتجربة علمية . ولكننا نجد فى النهاية أن الصبغة الصوفية الغالبة على عارفنا الإمام البيومى هى الصبغة الأحمدية التى يستمد فيها من مورد أبى الفتيان سيدى أحمد البدرى سلطان الأولياء رضى الله عنه وعنا به . ومن ثم فالإمام البيومى يعد أحد أركان

الطريقة الأحمدية التى شيدها القطب النبوى باب المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى عنه وعنا به .

على أن سيدى على البيومى قدس سره مع كونه أحد أركان الطريقة الأحمدية قد نسبت إليه طريقة مستقلة تعرف بالطريقة البيومية لها معالمها ومنهجها وأورادها المتميزة . مما يدلنا على أن سيدى عليا البيومى قد اكتمل صوفيا وصار إماماً ربانياً صاحب مدرسة روحية واضحة المعالم متميزة المنهج . وقد يتساءل البعض - كما سئلت مراراً بقاعات الدرس فى كلية أصول الدين - عن سر تعدد الطرق الصوفية مع أن الهدف واحد هو الوصول إلى الله عز وجل .

والجواب - وله بموضوعنا ارتباط وثيق - أن هذا التعدد لا يعنى الاختلاف فى الجوهر على الإطلاق ، وإنما هو تميز فى طريقة المعالجة ، والصوفية رضوان الله عليهم يطلقون دائماً فى هذا الصدد تلك العبارة (إلى الله تتعدد الطرائق بعدد أنفاس الخلائق) . فإن لكل نفس معدنها ونوعيتها المتميزة وفطرتها التى فطرها الله عليها. وما من شك فى أن الطبائع الإنسانية متفاوتة فى درجة الانقياد إلى الحق والإذعان له والمسك به ، كذلك فإن قابليتها للسلوك الصوفى متفاوتة كماً وكيفاً .

وأيضاً فإن نسبة تغلغل الأمراض القلبية متفاوتة من شخص لآخر ، وتبعاً لذلك فإن وسائل التقويم السلوكى الصوفى لا تعطى تأثيراً متساوياً لدى مختلف النفوس . والشيخ فى الطريق كالطبيب للمريض ، ورب داء قلبى لمريد ما لا يجد علاجه عند شيخ يجده عند آخر حسب طبيعة المريد وقابليته للإفادة من منهج ذلك الشيخ . ولكل شيخ خصوصية منحه الله إياها فى أسلوب معالجة القلوب وتوصيلها إلى الله عز وجل .

ومن ثم فالتعدد مزية وليس مطعنا فى الطريق الصوفى ، ففريق من السالكين قد لا يجد دواءه إلا عند طريقة الإمام الغزالى رضى الله عنه مثلا لانبنائها على كثرة المجاهدات بينما فريق آخر يجد سلم الوصول ممهداً فى طريقة

سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى التى تنهل من منهل الصديق الأعظم رضوان الله عليه ، والتى يتقدم فيها جذب المريد على سلوكه ، وبالمثل قد يجد السالك قلبه وروحه فى طريق سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه . على أن ثمة رجالاً من أفذاذ الصوفية تتسع طاقاتهم الروحية لسلوك أكثر من طريقة كما كان شأن شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سره ورضى عنه وعنا به ، فقد تلقن أكثر من أربعين طريقة . لكن على الرغم من ذلك يبقى لهذا النوع من الأقطاب تخصص فى طريقة . فقد كان سيدى على البيومى رضى الله عنه ولا يزال طابعه الغالب هو المشرب الأحمدى، كما أن طابع شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه وعنا به هو الطابع النقشبندى . وبمزيد تلك الخصوصية يتسع المدد ويعم ويدخل أهل العناية عن طريق أولئك الأقطاب فى طريق الله أفواجاً يسبحون بحمد الله ويستغفرونه إنه كان تواباً .

ومن خلال أحمدية القطب البيومى وكثرة الفيوضات التى اختصه الله بها صار صاحب طريقة بالاستقلال هى الطريقة البيومية التى هى أصلاً وروحاً ومشرباً : الطريقة الأحمدية ، نسبت إلى أحد أركانها الأفذاذ ، وحتى لا نعبر إلى النتيجة قبل المقدمة التى تبنى عليها أو نتخطى إلى الغاية قبل بيان الوسيلة . لا يعزب عن ذهننا ولا يغيب عن تصورنا أن سيدى عليا البيومى قدس الله سره قد قطع مرحلة سلوكية قلما تطمح إليها همة سالك . مرحلة كان طابعها الجهاد الروحى الشاق الذى يمحو علائق السالك بأوشاب التراب لكى تنفتح أمامه المساتير وتنجاب الحجب ويستشرف الآفاق العليا لعالم القرب والوصول .

فمنذ البدء وميزان الشريعة لم يفارقه طرفة عين . حتى وإن خيل لبعض المحجوبين أن بعض تصرفات الشيخ لم تتفق مع الشريعة . فهؤلاء المعترضون لم تزل على قلوبهم أقفالها فلم يصلوا بعد إلى فيصل التفرقة الشرعية بين الطاعة والمعصية بينما وصل العارفون من أمثال القطب البيومى إلى مستوى التربية المحمدية على أيدى المحمديين من الأقطاب ، وما يزال يترقى حتى صار أهل الحضرة المحمدية بتعلق روحه بروح جسد سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ، وقد

بدأت المرحلة السلوكية عند الإمام البيومى بعد أن نال من علوم الشريعة قسطه الكسبى الذى برز به بين علماء عصره وشهد له به أساطين العلماء وعلى مستوى مشيخة الإسلام . ثم بعد أن اكتمل علمياً أخذ يكتمل عملياً . وكانت صورة مشرفة بحق . فقد ألقى بنفسه فى محراب العبودية على لهفة وتعطش وتحرق للطاعة والوصول . فدخل الخلوة ليخلو بحبيبه الأكبر فلا يشغله شاغل عنه ، وأخذ يستغرق فى الذكر والقيام والتفكر حتى فنى عن نفسه وحصلت له الجذبة الإلهية التى لا يعرف الخلق عنها إلا الاسم ، وآه لو يعرفون حقيقتها . (إن كلمة مجذوب التى يرددها العامة وفى تصورهم لها لا يتراءى لهم من مضمونها سوى صورة الإنسان المسلوب العقل ، يكمن فى طيات مضمونها صورة العبد الإلهى الذى أخذه الحق تعالى منه إليه فذهب إليه بالكلية فأصبح عقله وروحه وقلبه مع مولاه ، فالرسم مع الخلق والحقيقة مع الحق . فتارة يضن الحق تعالى بوليه عن خلقه فيمسكه معه ويصبح فى عداد الضنائن ، وتارة بعد أن يجذبه ويصطفيه يرده لقيادة الخلق ودلالتهم على اللّٰه سبحانه وتعالى .

وهكذا كان شأن العارف البيومى رضى اللّٰه عنه. بعد أن حصلت له الجذبة، وانقدحت فى قلبه الأنوار الإلهية ، وسبحت روحه فى محيطات الكشف والإلهام والواردات وترقى من وصف (متصوف) إلى وصف : (صوفى) ومن مرتبة الصفاء إلى مرتبة المشاهدة. بعد أن نال تلك المنح والعطاءات الإلهية أراد اللّٰه له أن يكون داعية من دعاة الحق ومسلكاً للحضرة . فالتفت القلوب حوله ومنذ أن تألقت فى وجهه نورانية القرب حيث كان لا يزال ببلدته بيوم .

فلقد صار الشيخ من الذين إذا رؤوا ذكر اللّٰه عز وجل كما أنبأ بذلك الحديث الشريف عن حقائق الأولياء . وكما جذب الشيخ إلى الحضرة أصبح عليه أن يجذب بدوره قلوب الصالحين ليوصلها إلى الحضرة . ومن ثم فقد نيطت به رسالة المعلم الربانى ، وقد كان أهلاً للمسئولية على مستوى القادة الروحيين الوارثين لإمداد النبوة بمقتضى العلم باللّٰه تعالى ، فقد عَرَّف القلوب كيف تعتصم بحبل اللّٰه ولا

تميل عن صراطه المستقيم . وعلمها كيف تذكر اللّه فتخنس قرناؤها من الشياطين المقيضة لمن يعشو عن ذكر الرحمن ، وتطمئن بذكر اللّه الذى بذكره تطمئن القلوب، وعلم تلك القلوب كيف تزهد فى الدنيا فلا تتكالب عليها تكالب الكلاب على الجيفة، بل وطّنها على أن تبتغى الدار الآخرة ولا تنسى نصيبها من الدنيا، وهو النصيب الكفاف الحلال المعين على طلب الآخرة . علم المريد كيف يرحل بقلبه عن الدنيا رغبة فيما عند اللّه من متاع سرمدى لا يزول ، وقد يصل إلى قمة النعيم وهو مشاهدة المولى عز وجل .

ويا طالما وصل الإمام البيومى قلوباً إلى اللّه وجذب نفوساً من براثن القطيعة والشهوات القاتلة إلى رحاب الأمن والطمأنينة فى محراب التعامل مع اللّه! وقد وجدت تعاليم الشيخ منذ البداية صداها القوى فى نفوس أهل بلدته فتكوكبت الجموع حوله تنشد النور . وضاقت به قريته (بيوم) فارتحل إلى القاهرة واتخذ مقراً له فى الحسنية المنسوبة إلى سيد شباب أهل الجنة رضى اللّه تعالى عنه وعنا به ، والتى تسمت كذلك لأنها كانت موطناً لأحباب سبط الرسول صلى اللّه عليه وسلم ورضى عنه وعنا به.

فاتخذ سيدى على البيومى مسكناً له تجاه مسجده الحالى بالحسينية . كما اتخذ من مسجد الظاهر مركزاً له ولأتباعه لإقامة شعائر العبادة [1] . فكان يعقد فيه حلق الذكر ومجالس العلم والصلاة على سيدنا ومولانا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وأقام فى هذا المسجد جامعة روحية قوامها الطاعة والعبودية للّه سبحانه ، والعمل المشيد على العلم ، والتعلق باللّه تعلقاً لا يترك فى العبد فضلة لحظوظ النفس وشهواتها .

وكان الإمام البيومى مثلاً أعلى لأتباعه فى سمته النورانى وإعراضه عن لهو الدنيا ولعبها وعرضها الفانى . وكان فى حياته الخاصة بسيطاً متواضعاً وكان زيه أحمدياً . فكان يلبس قميصاً أبيض وطاقية من الصوف الأبيض عليها عمامة من

---

(١) انظر : مجموعة أوراد الطريقة البيومية للشيخ حامد أحمد فضل ص / ٣١ .

شملة صوف حمراء تمثل شعار سيدى أحمد البدوى رضى اللّٰه تعالى عنه وعنا به. وتواترت الإمدادات والفتوحات على الشيخ البيومى فى مقامه بالقاهرة فبعد أن حدد لأتباعه منهاج طريقه اختلى فى بيته بالحسينية فكان لا يخرج منه إلا مرة فى الأسبوع يذهب فيها إلى المشهد الحسينى الشريف فى موكب صوفى رائع . فكان يمتطى بغلته ويحف به أتباعه من كل جانب ويسيرون حوله معلنين بالتوحيد والذكر الجهرى مهللين ومكبرين حتى يصلوا إلى المسجد الحسينى الشريف . فيدخلون فى مظهر صوفى يأخذ بمجامع القلوب ، ويعقدون فى رحاب بضعة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم ورضى عنه وعنا به حلق الذكر ويظلون ضحوة النهار فى ذكر متصل يصعد إلى عنان السماء وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . أما عن الإمام البيومى فى رحاب مولانا الحسين رضى اللّٰه عنه وعنا به فحدّث عن فتوحات اللّٰه لوليه ولا حرج .

يقول عنه الجبرتى فى تاريخه : (وإذا زار المشهد الحسينى يغلب عليه الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش النافر ، وإذا جلس بعد الذكر تراه فى غاية الضعف) هذا عن المظهر والأثر الخارجى . أما عن الأحوال والواردات التى تفيض على الشيخ البيومى ويحدث من جرائها ما وصفها الجبرتى فهنا بيت القصيد .. فيوضات سماوية منهمرة وأمداد متصلة وسبحات ونفحات وارتقاءات سبحان من منّ بها وسبحان من أنعم . وكان المشهد والمجلس الذى يعقده الإمام البيومى وأتباعه كل يوم ثلاثاء بمسجد مولانا الإمام الحسين رضى اللّٰه عنه وعنا به ملتقى النفحات الربانية ومهوى الأفئدة السماوية، ولكن قوماً قدحجبت بصائرهم عن مكانة أهل الوصول قد سولت لهم نفوسهم أن ينتقدوا هذا المشهد الخالد، وأن ينكروا على أتباع الإمام البيومى من أهل الجذب والتجريد والذين كانوا فى حالة جذبهم يدخلون المسجد حفاة حاملين عصيهم وأعلامهم رافعين أصواتهم بالذكر والتكبير والتهليل . وتوسط لهؤلاء الطاعنين بعض العلماء وذوى النفوذ لمنع الإمام البيومى وأتباعه من إقامة حضراتهم فى المسجد ، لكن صوتاً للحق قد قيضه اللّٰه لنصرة وليه وأتباعه هو الشيخ عبد اللّٰه الشبراوى شيخ الأزهر عليه رحمة اللّٰه ورضوانه .

كان ذلك الشيخ على قدم فى الصلاح وعرفان بحقوق أولياء اللّه ومنازلهم فقام منتصراً لسيدى على البيومى مؤيداً دعواه فى المناصرة بالدليل . فقال إن الشيخ البيومى رجل من رجال اللّه وعالم ربانى يقود القلوب إلى اللّه ، وإذا كانت مجالس الذكر لم تعط للمحجوبين شاهداً على صلاحه وولايته فليكن مجلس العلم. ودعا كل من سولت له نفسه الاعتراض على الشيخ البيومى ليشهد مجده العلمى ، وطلب من سيدى على البيومى أن يلقى درساً فى علوم الشريعة أمام أولئك الخصوم، وتواكبت الجموع محتشدة فى مجلس الشيخ حتى غص المسجد بالحاضرين . وجلس العالم الربانى سيدى على البيومى رضى اللّه عنه على كرسى التدريس وشرع فى شرح الأربعين حديثاً النووية التى كانت تدرس بالأزهر الشريف وأخذ يخرج للناس من خزائن علمه فوق طاقات الحاضرين عجباً عجاباً حتى تراءى لهم بحراً لاساحل له ، وعجزت فطاحل العلماء أن تستوعب ما جاء به فلم يملكوا إلا أن يهللوا ويكبروا عرفاناً وإجلالاً لسيدى على البيومى رضى اللّه عنه (١)

وإذا ما أردنا مزيداً من التعرف على الجانب العلمى عند سيدى على البيومى رضى اللّه عنه فإن مؤلفاته التى لا تزال أكثرها قيد المخطوطات فى انتظار أن تتناولها يد التحقق والإخراج لتشهد برسوخ قدم هذا الإمام الربانى فى العلم والمعرفة ، وهذه طائفة من مصنفاته كما ذكرها المؤرخون :

١ - شرح الأربعين النووية .

٢ - شرح الجامع الصغير .

٣ - شرح الحكم العطائية .

٤ - شرح الإنسان الكامل للجيلى .

٥ - رسالة فى خواص الأسماء الإدريسية .

٦ - رسالة الوحدانية - وهذه المؤلفات السابقة قد ذكرها الزركلى فى الأعلام ثم ذكر الجبرتى فى تاريخه من مؤلفات الشيخ .

---

(١) انظر : مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن · للأستاذ على عبد العظيم ١ / ٩٥ - ٩٦ نشر مجمع البحوث الإسلامية .

٧ - شرح على الصيغة الأحمدية وعلى الصيغة المطلسمة .

٨ - رسالة فى الحدود .

٩ - مؤلف فى طريق القوم خصوصاً فى طريق الخلوتية الدمرداشية ألفه سنة أربع وأربعين ومائة وألف . كما ذكر بعض من كتبوا فى طبقاته بالإضافة لما سبق عديداً من المؤلفات مثل :

١٠ - رسالة فى طريق النقشبندية أو تلقين الطريقة النقشبندية .

١١ - رسالة التنزيه المطلق .

١٢ - رسالة فى تلقين الأسماء السبعة .

١٣ - رسالة فى الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم .

١٤ - المنتخب النفيس فى الفقه على المذاهب الأربعة.

١٥ - النور الساطع فى الاسم الجامع .

١٦ - الفوز والانتباه فى بيان من لا يلتفت إلى سواه .

١٧ - شرح حكم أبى مدين رضى الله عنه .

١٨ - شرح الأسماء السهروردية .

١٩ - دعوة حسبنا الله ونعم الوكيل .

٢٠ - رسالة غريق النور.

وهناك مصنفات أخرى للإمام البيومى لم نذكرها خشية الإطالة . وفيما ذكرناه دلالة، وأى دلالة على أن الشيخ كان بحراً من العلم اللدنى لا ساحل له . أما عن منزلة مولانا الإمام البيومى فى طريق القوم فلا تفى بالإشارة إليها مجلدات ؛ لأن العارف من أولياء الحق تبارك وتعالى حينما يصير من أصحاب الدوائر الكبرى يتعذر الوقوف على كنه منزلته لأنه صار ربانياً .

- شيخنا البيومى رضى الله عنه قد عرف لدى أوساط الولاية وعند الخواص والعوام منذ عصره إلى الآن بلقب انفرد به فى محيط الولاية وهو لقب (سلطان الموحدين) وهو لقب يدل على أن سيدى على البيومى قد تحقق بقمة منازل

التوحيد في عصره . ولقد سألت والدى فى ذلك - وهو أحد رجال التصوف الذين تجردوا لله ، كما أنه من خواص أبناء شيخنا جودة إبراهيم رضى الله عنه ، ومحسوب الحضرة الأحمدية - فأجابنى عن سر تلقيب العارف البيومى بـ (سلطان الموحدين) : بأنه استغرق فى مقام التوحيد الذى هو قمة مقامات التصوف السبعين ألفاً كما ذكر ذلك شيخ شيخنا العارف بالله تعالى سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى رضى الله عنه وعنا به فى كتاب (جامع أصول الأولياء) حيث جعل التوحيد خاتمة المقامات السبعين ألف التى يقابل كل مقام منها حجاب للبشر. إذ للبشر سبعون ألف حجاب ظلمانى وسبعون ألف حجاب نورانى. فمن وصل إلى مقام اخترق حجاباً يقابله. وباختراق جميع الحجب يصل العبد إلى الله تعالى(١) .

وشاهد رسوخ قدم مولانا البيومى فى مقام التوحيد أنك ترى حزبه الذى ألفه للطريق مشتملاً على آيات التوحيد (النفى والإثبات) بصورة غالبة مثل : « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » (٢).

« وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون» (٣) « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٤) ومن أكبر دلالات الفتح البيومى أن سيدى عليا رضى الله عنه كان يرى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مناماً ويقظة ؛ يقول رضى الله عنه فى آخر رسالة الخلوتية : (وكنت أرى النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلوة فى المولد فقال لى فى بعض السنين لا تخف فى الدنيا ولا فى الآخرة (٥)) .

ورآه يقول لأبى بكر رضى الله عنه : اسع بنا نطل على زاوية الشيخ

---

(١) انظر جامع الأصول فى الأولياء وانواعهم وأوصافهم لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى النقشبندى رضى الله تعالى عنه ص ٢١٥ ط / الحلبى .

(٢) سورة النمل / ٢٦ .

(٣) سورة القصص / ٧٠ .

(٤) سورة القصص / ٨٨ .

(٥) انظر حامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٢ / ٢٨٢ .

دمرداش- أى شيخ سيدى على - وجاءا حتى دخلا فى الخلوة ووقف عندى وأنا أقول: اللّه اللّه وحصل لى فى الخلوة وهم فى رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - فرأيت الشيخ الكبير يقول لى عند ضريحه : مد يدك إلى النبى - صلى اللّه عليه وسلم - فهو حاضر عندى) [1] .

وقال رضى اللّه عنه : (ودخلت مرة على السيد أحمد البدوى وعنده النبى - صلى اللّه عليه وسلم - فحكم فى وأنا استغيث بالنبى - صلى اللّه عليه وسلم - وكان سبب ذلك التردد فى نزولى مولده فغاثنى اللّه بعد ذلك ببركة النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان - أى سيدى أحمد البدوى - قد ألبسنى بيده الزى الأحمر مرتين مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح، وقال : اذهب إلى الكردى[2]. وقد ذكر الإمام النبهانى من كراماته أيضاً أنه لما كان بمصر مصطفى باشا مال إليه واعتقده وزاره فقال له : إنك ستطلب إلى الصدارة فى الوقت الفلانى، فكان كما قال الشيخ ، فلما ولى الصدارة بعث إلى مصر وبنى له المسجد المعروف بالحسينية وسبيلا وكتابا وقبة وبداخلها مدفن للشيخ على يد الأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة [3] .

هذا هو سلطان الموحدين الإمام الواصل والعارف الكامل . رضى اللّه عنك يا سيدى على يا بيومى وعنا بك وجعلنا من خواص أحبابك فى الدنيا والآخرة .

* * *

(١) انظر جامع الأولياء للإمام النبهانى ٢ / ٣٨٢ .
(٢) انظر المصدر نفسه : ٢ / ٣٨٣ .
(٣) انظر المصدر نفسه : ٢ / ٣٨٣ .

القرن الرابع عشر

[١ - سيدنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه وعنا به سنة ١٣٤٧ هـ .]

« ٤٧ »

العارف بالله تعالى وزير الحضرة المحمدية مولانا الشيخ جودة إبراهيم الحسنى النقشبندى رضى الله عنه

إلى سماء الحقيقة تعرج أرواح الصفوة الأولياء الذين اختارتهم العناية منذ الأزل ليكونوا دعاة للحضرة الإلهية . إنهم أحباب الله وخاصته الذين اصطفاهم لمعرفته وأجلسهم على بساط قربه فأرواحهم سابحة فى بحار أنواره مستغرقة فى مشاهدة جلاله وجماله ، وقلوبهم فانية فى محبته عامرة بذكره ومعرفته ، أولئك هم أولياؤه الذين استخلفهم فى كل عصر دلائل إليه وسدنة لحصن شريعته وحقيقته .

وممن أشرقت شمس ولايتهم فى هذا العصر : الإمام الربانى قطب دائرة العارفين وشمس سماء الواصلين الوارث المحمدى سيدى الشيخ جودة إبراهيم .

إمام أئمة المربين وعلم شامخ من أعلام الصوفية المحققين وهو شيخ الطريقة النقشبندية ذات المفاخر العلية . المنعوت بأنه عالم الأولياء وولى العلماء .

لقد أجمعت على إمامته وتفرده فى أعلى مقامات الولاية جمهرة العارفين من شتى البلاد والأقطار ، وسارت بذكره ركبان العامة والخاصة فى العمران والقفار .

ولنسر من أول الطريق مع تاريخ هذا العارف النقشبندى لنتعرف على ملامح الشخصية الجودية فى إطارها التاريخى . لقد ولد سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه ببلدة : العزيزية بمركز منيا القمح فى إقليم الشرقية . وكان مولده فى الثلاثين من شعبان سنة ألف ومائتين وأربع وستين هجرية . ومن أب شريف ينتهى نسبه إلى مولانا الإمام الحسن بن سيدنا على كرم الله وجهه ، ومن أم شريفة يتصل نسبها

بمولانا الإمام الحسين رضى الله عنه [1] بزغ فجر هذا الولى التقى . فتربى فى أحضان الرعاية فى هذا البيت الشريف مستهلاً نشأته النورانية بحفظ كتاب الله تعالى . وكانت بوادر الفتوح والنجابة بادية على صفحات وجهه يقرؤها كل ذى بصيرة نيرة . ولقد بشر بفتوحه وعرفانه أقطاب الولاية فى الشام وبلاد الأتراك وهو لا يزال صبيا . فذات يوم بينما هو يقرأ القرآن على شيخه فى الكتاب : إذ حضر إليه شيوخ من بلاد الشام والترك يتبركون به ويستحثون شيخه على تمام العناية به لأن له فى ديوان الولاية مقاما ساميا ينتظره . وما أن أتم سيدى الشيخ جودة حفظ القرآن الكريم حتى التحق بالأزهر الشريف لينضم إلى صفوف طلاب العلم ورجال الدين . وهناك أقبل على تحصيل العلم الشريف بروح تواقة متعطشة للمعرفة . فوقف على مناهل الشريعة السمحة يغترف من بحارها ويتزود من نورها قوتا لروحه وغذاء لقلبه . لقد أخلص النية فى طلب العلم فأثمر العلم فى قلبه نورا كشف له الطريق إلى حضرة المولى عز وجل . وآية ذلك أنه كان يقضى سحابة نهاره يتنقل بين رياض العلم وقطوف المعرفة فى الأزهر الشريف ، ثم إذا جن الليل انقطع لربه كأن لم تكن له صلة بدنيا الناس . وآوى إلى الخلوات يتعبد لربه ويترجم ما حصله من العلم فى نهاره إلى عمل تفتح له أبواب السماء فى ليله .

ولطالما عمرت به خلوات مسجد سيدى الدمرداش المحمدى ومسجد سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنهما .

إن وقته كله وقف على طاعته لربه نهارا فى العلم وليلا فى العبادة . لقد كان هذا السلوك النورانى مثار تعجب معارفه ومعاصريه حتى شيوخه فى الأزهر : الشيخ الأشمونى العلامة النحوى المتوفى سنة ١٢٣١ هـ والبجيرمى الفقيه الشافعى، والشيخ الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ والشيخ إبراهيم السقا

---

(١) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ يس إبراهيم السنهوتى ص ٢٦٦ ط / السعادة . وانظر : النفحات الجودية فى مآثر وأوراد الطريقة النقشبندية ومناقب مولانا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سره لخادم الحضرة الجودية الدكتور جوده محمد أبو اليزيد المهدى : ص / ٩٩ ط / دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ وغيرهم . [١] كل أولئك كانوا يعتزون به ويفخرون بأن من بين أبنائهم فى العلم : الشيخ جودة إبراهيم .

وكان شيخنا - رضى الله عنه - آية الآيات فى معرفة طرق الأحاديث والجرح والتعديل وتخريج الأحاديث من الكتب الستة وغيرها كما ينبئ عنه تضلعه ورسوخه فى علوم الحديث على ما سنبينه بعد.

وكذلك كان شيخنا الشيخ جوده رضى الله عنه حجة لا يبارى فى علوم العربية من لغة ونحو وتصريف ومعانى وبيان وبديع وشعر وأمثال إلى غير ذلك، كما كان حجة فى العلوم العقلية من علم الكلام والمنطق وآراء أهل الفرق، وقد تفرد بتحصيل المطولات والمشكلات فى كل علم درسه.

مكانة الشيخ فى علم الحديث:

ومما يؤكد مكانة شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه وعلو مرتبته العلمية ما نص عليه الشيخ محمد زاهد الكوثرى من إدراكه للإسناد العالى فى علم الحديث بأخذه عن محدث العصر سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى صاحب كتاب راموز الأحاديث وشرحه لوامع العقول والمؤلفات التى تزيد على خمسين مصنفا إذ قال الشيخ الكوثرى فى كتابه «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز»:

«وتخرج به طبقتان من أهل العلم وشارك حرب روسيا مع إخوانه، ثم حج ثانية سنة ١٢٩٤هـ وأقام بعد الحج بمصر ثلاث سنوات. وختم فى خلالها (راموز الأحاديث) فى جامع سيدنا الحسين سبع مرات ، ومن جملة من أخذ عنه الإجازة بالحديث: الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ومحمد بن سالم طموم المنوفى والعارف الشيخ جودة والسيد محمد بن عبدالرحيم الطنطاوى والشيخ مصطفى بن يوسف الصعيدى وغيرهم...» [١]

---

(١) انظر · الأنوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص / ٢٦٦ .

(٢) انظر: التحرير الوجير للشيخ محمد زاهد الكوثرى ص٣٦، ٢٧، ٣٤.

وقد نوه الشيخ الكوثرى بعلو هذا السند إذ ذكر فى نفس المصدر أنه قد أخذ الإجازة عن القسطمونى تلميذ الكمشخانوى ثم قال : وبذلك علا سندى ولله الحمد[1].

لمحات عن مكانته الصوفية:

وأما فى علم التصوف فدونك البحر الذى لا ساحل له!! لقد شرب مصنفات القوم شربا وغرق فى محيط إشاراتهم وعلومهم، وقد أعدته العناية ليكون منهم بل ومن أكابر أئمتهم ، وقد أدرك عليه الرضوان بثاقب بصيرته أن الطريق سلوك وتحقق فسارع إلى رحاب القوم ليترجم العلم إلى عمل والنظر إلى بصر، والظاهر إلى باطن، ووضع نصب عينى قلبه غاية لا يغيب عنها طرفة عين، إنها الوصول إلى الله عز وجل ، إنها الولاية لله الحق. إنه الطريق الذى ذابت فيه مهج العاشقين وتحرقت فيه أكباد العارفين، ولقد كانت تلك الغاية تريده كما كان يريدها لأنه ما خلق إلا لها فمضى إليها فى ركب النور، ووضع قدمه فى الطريق إلى الله عز وجل وقلبه مشرق بوهج المحبة وروحه متعطشة للنور المطلق، فاتصل سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه بأكابر صوفية عصره، ونهل من منابعهم الروحية حتى انتهت إليه أسانيد سلاسل أكثر من أربعين طريقة عن أساطين شيوخ وقته، وكان كل منهم يسلمه مفتاح طريقته ليكون مرجعاً للسلوك فيها، ولنتعرف على:-

الطرق الصوفية التى سلكها مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه:

١ - تلقى رضى الله عنه الطريقة الخلوتية المسلمية عن سيدى عبدالله بن السيد سليم (المسلمى) عن الشيخ الشرقاوى عن القطب الحفنى رضى الله عنه.

٢ - وتلقى رضى الله عنه الطرق الأحمدية والبرهامية والقادرية، والرفاعية والجشتية عن الشيخ الترمذى عن الشيخ أبى رباح عن الشيخ الصاوى عن الإمام الدردير عن القطب الحفنى رضى الله عنه.

---

[1] انظر: التحرير الوجير للشيخ محمد زاهد الكوثرى ص٢٦، ٢٧، ٣٤.

كما تلقى شيخنا هذه الطرق مرة أخرى عن العارف الشيخ محمد الأشمونى عن الترمذى رضى الله عنهما.

٣ - وتلقى مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه الطريقة الشاذلية أيضا عن سيدى عبدالقادر الفاسى عن سيدى محمد بن جمرة ظافر المدنى عن سيدى العربى ابن أحمد الدرقاوى الفاسى عن سيدى على الجمل العمرانى الخصاصى عن سيدى عبدالرحمن الفاسى عن سيدى والد سيد أحمد المتقدم عن سيدى يوسف الفاسى عن سيدى عبدالرحمن المجذوب عن سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى الصنهاجى عن سيدى يحيى القادرى عن سيدى على وفا عن سيدى محمد وفا عن سيدى داود الباخلى عن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى عن سيدى الإمام أبى العباس المرسى عن مولانا الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وعنا به.

٤ - ثم التقى سيدى الشيخ جودة - رضى الله عنه - وعنا به بقطب الواصلين وإمام المحققين سيدى أحمد ضياء الدين بن مصطفى بن عبدالرحمن الكمشخانوى المتوفى بتركيا سنة ١٣١١هـ.

وكان رضى الله عنه إماما فى الشريعة والطريقة والحقيقة جامعا لأصول الولاية وباباً من أبواب الحق تبارك وتعالى. فشاءت الإرادة العلية أن يلتقى بمن أعدته العناية ليكون مركزاً للهداية ورأسا للأولياء.

وكانت قصة اللقاء آية تشهد بعظمة المنصب وجلالة المقام، فبينما كان سيدى أحمد ضياء الدين بالقسطنطينية إذ رأى ذات ليلة فى منامه أشرف الخلق مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمره بالذهاب إلى مصر ليلتقى بسيدى الشيخ جودة رضى الله عنه ويلقنه الطريقة ويعطيه البيعة الروحية.

وفى نفس الليلة يرى مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه مولانا رسول الله الأعظم صلى الله عليه وسلم يأمره بالحضور إلى حجرة المخلفات النبوية الشريفة بحرم مولانا الإمام الحسين - رضى الله عنه ليأخذ العهد عن سيدى أحمد ضياء

الدين؛ ويلتقى الشيخان لقاء القمة فى رحاب مولانا الإمام الحسين عليه رضوان الله دائماً أبداً ويتبايعان فى الطريق ويأخذ مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه العهد المحمدى ويتلقى من سيدى أحمد ضياء الدين رضى الله عنه وعنا به أصول اثنتين وأربعين طريقة انتهت إليه بأسانيدها وهذه الطرق هى:

١ - النقشبندية. ٢ - القادرية. ٣ - الأحمدية.

٤ - الرفاعية. ٥ - الدسوقية. ٦ - الشاذلية

٧ - الأكبرية (نسبة للشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى، قدس الله سره).

٨ - المولوية. ٩ - الكبروية. ١٠- السهروردية.

١١- الخلوتية. ١٢- الجلوتية. ١٣- الغزالية.

١٤- السعدية. ١٥- الجشتية. ١٦- البكرية.

١٧- العمرية. ١٨- العثمانية. ١٩- العلوية.

٢٠- الحضرية. ٢١- الشطارية. ٢٢- البيومية.

٢٣- الملامية. ٢٤- العيدروسية. ٢٥- المتبولية.

٢٦- الكلنشية. ٢٧- الحمزوية. ٢٨- البيرامية.

٢٩- العشاقية. ٣٠- المغربية. ٣١- البحورية.

٣٢- الحدادية. ٣٣- الغيبية. ٣٤- الخضرية.

٣٥- العباسية. ٣٦- الزينبية. ٣٧- العيسوية.

٣٨- البكداشية. ٣٩- الرومية. ٤٠- الشعبانية.

٤١- السنبلية. ٤٢- الأويسية.

وهذه الطرق مسطرة فى الأنوار القدسية ومذكورة بأصولها فى كتاب (جامع أصول الأولياء) لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى [1]، وقد لقن سيدى أحمد ضياء الدين قدس سره مولانا الشيخ جودة هذه الطرق بأصولها ولقنه سبعة أسماء ساطعة وقال له: (هذه لأصول الطرق جامعة ماعدا النقشبندية السابقة والشاذلية اللاحقة) وأذن له بتلقين الذكر وإعطاء العهود فى جميع تلك الطرق المذكورة.

وأشرقت أنوار الفتح والعرفان فى قلب مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه، وقطع مرحلة سلوكية لا يقوى عليها إلا الفحول من الرجال، فوقته كله كان لربه منذ نشأته فكان وهو بالأزهر الشريف يقضى سحابة نهاره فى العلم والتحصيل ثم إذا جن الليل انقطع لربه كأن لم تكن له صلة بدنيا الناس، وآوى إلى الخلوات يتعبد لمولاه ويترجم ما حصله من العلم فى نهاره إلى عمل تفتح له أبواب السماء فى ليله، وكان يتحنث لربه فى خلوات مسجد سيدى الدمرداش المحمدى ومسجد سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنهما ، وبعد حصوله على درجة العالمية من الأزهر الشريف تفرد للعبادة وانقطع إلى الله، لقد انتهى من الوسائل وشرع فى الغايات فاشتغل بالذكر الخفى الذى عرف به أقطاب الطريقة النقشبندية ولازم المراقبة لله عز وجل والسهر الدائم صافا قدميه لله سبحانه فى حندس الليل وشمس الحقيقة دائمة السطوع فى قلبه.

وكان رضى الله عنه آخذا بالعزائم فى أموره كلها محاسبا نفسه أشد المحاسبة حتى لقد سمعت من أحد مريديه الصادقين [2] أنه كان يصل الليل بالنهار بلا نوم ويتحرز من النوم بعد الفجر حتى مطلع الشمس، فغلبته عيناه ذات يوم فأغفى قبل طلوع الشمس إغفاءة خفيفة، وكان هذا الوقت مخصصا لبعض أذكاره فقام بعدها فزعا وآلى على نفسه أن يصوم سنة كاملة بلا انقطاع!!

---

(١) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين ص٢ ، ٣ تجد هذه الطرق جميعا بمراجعها. وانظرها أيضا فى الأنوار القدسية للشيخ يس إبراهيم ص٣٦٧.

(٢) حدثنى بذلك زوج كريمة مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه صهرى الحاج السيد أحمد عفيفى وذكر لى أن الشيخ محمد أبو عزب الولى المدفون بالسويس كوشف بهذه الواقعة فقدم إلى الشيخ ليتحايل لإفطاره شفقة عليه رضى الله عنهما

إنه جهاد المقربين وعزم الراسخين.

وكان رضى الله عنه ملازما لمودة سادتنا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزورهم وأولياء مصر جميعا سيرا على قدميه الشريفتين ولا يركب إليهم أدبا مع مقامهم السامى.

وكان يمكث أطول مدة فى زيارته عند مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به، فإذا سئل فى ذلك قال عليه الرضوان (إن كتبه هى التى ربتنا)!!

وليت شعرى كيف يجهل تراث الإمام الشعرانى حتى الآن فلا ينشر منه إلا القليل وحتى القليل يعانى من هجوم أعداء الصوفية بينما هو مدرسة صوفية رفيعة تربى فى أحضانها أفذاذ الصوفية وأساطين المعرفة، لقد كانت كتب الإمام الشعرانى الموجودة فى حياة مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه تدرس فى مجلسه ليقتات من أنوارها مريدوه ومحبوه.

ولقد كان مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه دائما فى حضور مع الله تعالى، فى مراقبة ومشاهدة، ومؤانسة ومنادمة، لقد وصل فى القرب إلى درجة الفناء الكامل فى الله:

وفى مقام الفناء يشهد العارف الحقيقة المطلقة ويشهد الجمال القدسى ويكون بلا هو فى الحضرة الإلهية حيث لا يشهد سوى الله تعالى ثم يتحقق بمقام البقاء بعد الفناء، فبعد أن يفنى فى الله يبقى بالله ويعمر دائرة الملك كما عمر دائرة الملكوت.

لقد تحقق سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه بأرفع المقامات التى تحقق بها ولى لله تعالى ، ومهما تحدثت أو وصفت فلن أفى بحق مقامه فالعين كليلة عن أن ترنو إلى القمة التى تربع عليها الشيخ ، وهى أيضا لا تقوى على التحديق فى جوهر الشمس لكى تتعرف حقيقتها وقصارى ما أملكه أن أصف مبلغى من العلم وأن أستنطق شواهد الحقيقة كما نطق بها العارفون والإثبات الواصلون.

إشارات إلى مقام سيدنا الشيخ جودة فى الولاية:

١ - فى علياء المقام القادرى:

روى صاحب (الأنوار القدسية) فى ترجمة شيخنا رضى الله عنه أن العارف الترمذى - وهو من جملة شيوخ شيخنا فى الطريق كما أسلفنا - قد قال لسيدى الشيخ جودة رضى الله عنه يوما: (إن أحد الأكابر رآك وسيدى عبدالقادر - أى الجيلانى رضى الله عنه - فى مكان واحد لا فرق فى ذلك بينكما وأنا وراءكما من خلفكما، فهذه أمانة أسلمها إليك ولا فضل لى فى ذلك ياقرة عينى عليك)!!

وبالوقوف على عبارة الشيخ الترمذى والتأمل فيها ندرك أن مولانا الشيخ جودة عليه الرضوان قد وصل إلى مقام سيدى عبدالقادر الجيلانى أحد أركان الولاية، ووقف على تلك القمة الشامخة التى وقف عليها القطب الجيلانى متقلدا سيادة الأولياء فى عصره حتى قال بلسان الصدق والتحقيق (قدمى هذه على رقبة كل ولى لله)!! وما قالها إلا بأمر من الحضرة العلية.

إنها مرتبة غوث الزمان وقطب الأوان!!

٢ - رتبة الوزارة المحمدية:

ولقد اشتهر مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه فى حال حياته وبعد انتقاله بلقب (وزير النبى صلى الله عليه وسلم) كما اشتهر سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به بلقب (باب النبى صلى الله عليه وسلم) ولم يلق هذا اللقب من كبار أولياء عصره أدنى اعتراض، بل لقى كل الإذعان، وكيف لا وهو الوارث المحمدى إنسان عين الولاية فى عصره، وعرف سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه بهذا اللقب حتى لدى محبيه فى بعض الأقطار الإسلامية كبلاد الشام وتركيا الذين يفدون لزيارته ويخبرون باشتهاره عندهم بوزير المصطفى صلى الله عليه وسلم بإقرار العارفين فى بلادهم إياهم على ذلك!!

وقد وفقنى الله تعالى لتأصيل هذه الحقيقة علميا من التراث الصوفى الأصيل؛ إذ نقل البحاثة الصوفى الأستاذ عبدالقادر عطا عن سيدى عبدالغنى

النابلسى وصول السالك النقشبندى إلى مقام الوزارة المحمدية فقال (وفى الطريقة النقشبندية يتحدث النابلسى عن المراقبة فيقول: «ومن بركة المراقبة أن يحصل المراقب على مرتبة الوزارة والنيابة عن (سيدنا) محمد صلى الله عليه وسلم بمعنى الخلافة عن صاحب المراقبة فى الظهور والتصرف فى عالم الملك والملكوت فيكون هو صاحب الوقت الذى بخواطره تتصرف الملوك فى ممالكها والرعية فى أملاكها.. وصاحب المراقبة إذا نظر غيره من أهل الحجاب والغفلة وسرى ذلك النظر بقبول ذلك الغير استحال ذلك الغير إلى ما صار عليه صاحب المراقبة من الكمال». (١)

٣ - قرة عين أولياء عصره:

ومن شواهد سمو مقام سيدى الشيخ جودة أيضا أن الشيخ محمد الأشمونى - وكان من أكابر الواصلين - قد جلس إليه أحد مريديه ليتعرف منه على مراتب أولياء عصره، فأخذ يسرد عليه أسماءهم واحدا تلو الآخر والشيخ الأشموتى يعطى كل واحد مرتبته قائلا: هذا ولى وذاك عارف وذلك مدعى إلى غير ذلك... إلى أن ذكر المريد اسم مولانا الشيخ جودة فأمسك الشيخ بيده وقال (جودة طيب قوى قوى قوى - وظل يكرر كلمة قوى بكثرة مذهلة - ثم قال: نفع الله به المسلمين)!!.

لقد سما شيخنا رضى الله عنه إلى قمة مراتب الصديقين المقربين وارتفع عن الغوثية إلى الفردانية فكان من الأفراد الذين هم خارج دائرة القطب يهيمون فى جلال الله وجماله وثمة على ذلك شواهد يضيق عنها نطاق المقال.

٤ - مولانا الشيخ جودة امتداد النسبة الضيائية بالديار المصرية:

ولقد سجل أساطين علماء العصر لسيدنا الشيخ جودة - عليه رضوان الله تعالى - مكانته المتفردة فى عصره كإمام صوفى وباب من أبواب الحق تبارك

---

(١) انظر: التصوف الإسلامى بين الأصالة والاقتباس (فى عصر النابلسى) للأستاذ عبدالقادر أحمد عطا: ص٢٤٣ نشر دار الجيل ببيروت وانظر مفتاح المعية فى شرح الطريقة النقشبندية لسيدى عبدالغنى النابلسى· ورقة ٢٤ بمخطوطة الظاهرية.

وتعالى، فها هو ذا العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى الذى تولى وكالة المشيخة الإسلامية فى تركيا يذكر - رضوان الله عليه - فى إجازته الحديثية أن مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه هو الامتداد الحى للنسبة الضيائية بمصر - أى النسبة الصوفية إلى ضياء الدين سيدى أحمد الكمشخانوى رضوان الله عليه، الذى تلقى عنه إسناده العالى فى الحديث النبوى الشريف - كما قدمنا قبل - فيقول الشيخ الكوثرى:

(ودامت النسبة الضيائية فى الديار المصرية بواسطة العارف المغفور له الشيخ جودة فى منيا القمح - من أجل أصحاب الكمشخانوى - وبواسطة نجله وتلاميذه رحمه الله تعالى) (١).

أى أن سيدنا الشيخ جودة رضوان الله عليه كان يمثل المدرسة النقشبندية الممتدة إلى عصره متفرعة عن العارف الضياء الكمشخانوى عليه رضوان الله تعالى، باعتباره من أجل أصحابه وأكملهم معرفة وتحققا ، ثم إن هذه النسبة قد قدر لها الامتداد من بعد مولانا الشيخ جودة قدس الله سره بواسطة نجله وخليفته الأمجد مولانا الشيخ عيسى جودة رضى الله تعالى عنهما وأمدنا بنورهما.

كما حق لها الامتداد أيضا بواسطة من تتلمذوا على يد مولانا الشيخ جودة من نجباء مريديه وأبناء قلبه لتمتد فروع الشجرة المباركة فى آفاق الكنانة العزيزة وارفة الظلال طيبة الأعراف مباركة الثمار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها!!

٥ - وامتداد النسبة الأكبرية بمصر:

وكذلك كان سيدنا الشيخ جودة رضوان الله عليه يمثل الامتداد الأكبرى فى عصره حيث انتهت إليه النسبة الأكبرية - ضمن نسب الطرق الصوفية الاثنين والأربعين التى أوردناها من قبل - وهى نسبة طريق الشيخ الأكبر سيدى محيى بن عربى رضى الله تعالى عنه التى تلقاها عن شيخه الضياء الكمشخانوى عن شيخه

---

(١) التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز للشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ص٢٤ط: الأنوار سنة ١٣٦٠هـ وانظر ترجمة الكوثرى بالأعلام للزركلى ١٢٩/٦ وبمعجم المؤلفين لعمر كحالة ٤/١٠.

سيدى أحمد بن سليمان الطرابلسى الذى ألف فى آداب الطريقة الأكبرية رسالة سماها: «النور المظهر فى طريقة سيدى الشيخ الأكبر» (١).

إذ يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية (٢): (وقد أعطى الكمشخانوى الطريقة الأكبرية بمصر فى أواخر القرن الماضى، فكان له خلفاء كثيرون، وأعظم من سرى إليهم سر نسبته: الشيخ جودة إبراهيم، أحد الصوفية المصريين الذين عاشوا فى أواخر القرن الماضى، وإلى منتصف هذا القرن،ولد سنة ١٢٦٤هـ بالعزيزية إحدى قرى مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية، ودرس بالأزهر الشريف، وتلقى طرقا صوفية كالخلوتية والشاذلية عن بعض شيوخ عصره).

ولما وفد الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوى إلى مصر تلقى عنه الشيخ جودة فيما تلقى من طرق: الطريقة الأكبرية (على عادة بعض المتأخرين من الصوفية فى تلقى أكثر من طريقة صوفية واحدة فى وقت واحد ثم أذن له بتلقين الذكر، وإعطاء العهود فى جميع الطرق التى تلقاها عنه، ومنها الأكبرية.

وقد توفى الشيخ جودة بعد سنة ١٣٤٤هـ، وقد لقى كاتب هذه السطور بعض تلاميذه من الصوفية وعلماء الأزهر، ويقوم على طريقته الآن نجله الشيخ عيسى جودة، ولطريقته أتباع كثيرون إلى الآن، وخصوصا فى الشرقية.

فإذا تبين ذلك: عرفنا أن طريقة ابن عربى الأكبرية قد كتب لها الاستمرار فى الوجود إلى العصر الحاضر (٣).

---

(١) انظر: الكتاب التذكارى: محيى الدين بن عربى - الفصل الثانى عشر: الطريقة الأكبرية للدكتور: أبو الوفا التفتازانى ص٣٤٨ - ٣٤٩ نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

(٢) يشغل حاليا منصب رئيس المجلس الصوفى الأعلى بمصر، ونائب رئيس جامعة القاهرة.

(٣) نفس المصدر السابق: ص/ ٣٥٠ - ٣٥١ وانظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين النقشندى ص٢ ، ١٠٨ (والأنوار القدسية) للشيخ يس بن إبراهيم السهنوتى ص/ ٢٦٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ - عيسوى المقام:

لقد اشتهر شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به بأنه كان عيسوى المقام ، وأكد ذلك خليفته ونجله المبارك مولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه - وفى تسمية نجله الكريم بهذا الاسم إشارة إلى تحقق مولانا الشيخ جودة بالمقام العيسوى فى الفتح الإلهى كسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه الذى ظهر على يديه من الكرامات من جنس معجزات سيدنا عيسى عليه السلام: فالعيسوى من الأولياء: هو من ورث من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مالو كان سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام موجوداً وتابعاً للنبى صلى الله عليه وسلم ما ورث ذلك إلا منه (١).

٧ - مولانا الشيخ جودة محمدى القدم:

ثم لقد ترقى العارف بالله تعالى شيخنا الشيخ جودة إبراهيم رضوان الله عليه فى معاريج الولاية والقرب من الحق تبارك وتعالى، فبعد أن أتم مراتب الولاية فى لطائف عالم الأمر الخمس حصل له التحقق بكمالات النفس المطمئنة والعناصر الأربعة التى هى لطائف عالم الخلق، وحصلت له كمالات الاسم الباطن والتحقق بالولاية العلياء والوراثة المحمدية العظمى فتم له بحمد الله الترقى من القدم العيسوى إلى القدم المحمدى!!!

ولقد كان فى عروجه الروحى - قدس الله سره - عبر مقامات اللطائف الخلقية متحققاً بالجهاد الأكبر الذى قال فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» (٢)!!

ويوضح مولانا الإمام أحمد الفاروقى طبيعة هذا الجهاد فى هذه المرحلة

---

(١) انظر جامع الأصول لسيدى احمد الكمشخانوى ص١٠٨.

(٢) خرجه المحلونى فى (كشف الخفا : ص٥١١) عن البيهقى عن سيدنا جابر رضى الله عنه - بسند ضعيف - ثم خرجه عن الخطيب فى تاريخه عن سيدنا جابر رضى الله عنه بلفظ «قدم النبى صلى الله عليه وسلم من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه» أهـ.

بأنه ليس جهاد النفس الأمارة التى هى شر جميع الخلائق. لأنها صارت بعد الاطمئنان - أى بلوغها إلى مقام المطمئنة وحصول رضا حضرة الرحمن: رئيس لطائف عالم الأمر - مع كونها من عالم الخلق - ورئيس جميع الأقران.

ومن ثم: فالجهاد حينئذ لا يتصور مع النفس وقد بلغت حد الاطمئنان وصارت راضية مرضية «وإنما يكون مع اختلاف طبائع العناصر الأربعة التى هى أجزاء القالب الإنسانى، وصورة الخلاف والبغى من أجزاء القالب عبارة عن: إرادة ترك الأولى، وارتكاب الأمور المرخصة وترك العزيمة لا إرادة ارتكاب المحرمات أو ترك الفرائض والواجبات، فإن هذه الأشياء قد صارت فى حقها نصيب الأعداء[1].

ومن هنا كان مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه - وهو فى قمة الوصول لا يترخص فى عباداته فكان وهو فوق الثمانين من عمره الشريف يقوم الليل على قدميه ويؤثر العزيمة على الرخصة، ولا يتأول فى الأحكام وإنما ملء قلبه وجوانحه شريعة محمدية محضة نقية من الشوائب والتأولات.

ولبلوغ مولانا الشيخ جودة عليه رضوان الله كمالات مراتب عالم الخلق وتشرفه بالوراثة المحمدية: كان من أهل الصحو والبقاء بعد الفناء ولم يكن من أهل الشطح أو السكر شأن أولياء عالم الأمر لأنه بلغ درجة الكاملين فى الولاية أهل الإرث المحمدى.

يقول مولانا الإمام الفاروقى رضى الله عنه: (أيها الولد: إن كمالات العناصر الأربعة - وإن كانت فوق كمالات المطمئنة كما مر - ولكن بواسطة مناسبتها لمقام الولاية، وصيرورتها ملحقة بعالم الأمر: صاحبة سكر[2] وفى مقام الاستغراق، فلا

(١) انظر: مكتوبات الإمام الربانى سيدى أحمد الفاروقى السرهندى قدس الله سره: المجلد الأول ص٢٥١.

(٢) لفظ السكر بسكون الكاف هنا ليس معناه اللغوى المعروف الذى هو حالة تعرض بين المرء وعقله - كما ذكره الراغب فى مفرداته ص٢٣٦ - وإنما هو مصطلح فى علم التصوف يعرف بأنه غيبة بوارد قوى، وهو لا يكون إلا لأصحاب المواجيد وهو مقابل فى عرف الصوفية للصحو، فالعبد فى حال سكره يشاهد الحال، وفى حال صحوه يشاهد العلم!!

(انظر الرسالة لمولانا أبى القاسم القشيرى رضى الله عنه ٢١٧/١ - ٢١٩).

جرم لا يبقى فيها مجال المخالفة، وحيث كانت مناسبة العناصر بمقام النبوة أزيد: كان الصحو غالبا فيها. فبالضرورة تبقى فيها صورة المخالفة (١) لأجل تحصيل بعض المنافع والفوائد المربوطة بها فافهم) (٢).

ولقد حظى شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه بأوفر حظ من كمالات الإرث النبوى المحمدى بحكم التبعية الكاملة لأشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه، فورث من العلوم المحمدية مالا يمكن تسطيره فى كتاب، وورث من المقامات ما يعز إدراكه، ثم تفرد بفردانيته فوق المقامات المعهودة شأن الأفراد المحمديين.

يقول سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره فى شأن الورثة المحمديين:-

(ولا يقال فى أحد من أهل هذه الطريقة إنه «محمدى» إلا لشخصين:

إما شخص اختص بميراث علم من حكم لم يكن فى شرع قبله، فيقال فيه «محمدى».

وإما شخص جمع المقامات ثم خرج عنها (لا منها) إلى (لا مقام) كأبى يزيد وأمثاله.

فهذا أيضا يقال فيه: محمدى، وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبى من الأنبياء: ولهذا ورد فى الخبر: «إن العلماء ورثة الأنبياء» (٣)، ولم يقل ورثة نبى خاص، والمخاطب بهذا: علماء هذه الأمة» (٤).

وقد أشار سيدى الإمام أحمد الفاروقى رضوان الله عليه - فى مكتوباته إلى

---

(١) يقصد بها: المخالفة المركوزة فى طبيعة العناصر السابق تبيانها نحو إرادة ترك الأولى وإيثار الرخص على العزائم.

(٢) مكتوبات الإمام الربانى (١/ ٢٥١).

(٣) خرجه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١/ ١٣٠ط/ البهية المصرية عن أبى داود والترمذى وابن حبان والحاكم - مصححا - من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه، وأورده الإمام البخارى فى ترجمته لباب (العلم قبل القول والعمل).

(٤) الفتوحات المكية لسيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه ٣/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

أن دولة كمالات الإرث المحمدى التى كانت فى أوج ازدهارها على عهد أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجدد ازدهارها بعد مضى الألف الأول من عهده صلوات الله وسلامه عليه، حيث شرف هو رضوان الله عليه بهذه الدولة وبجلال هذا المنصب وكان مجددا للألف كما شهد له أئمة الراسخين فى العلم والتحقيق، وكأن فى هذا تبشيرا بدخول إمامنا الشيخ جودة هذه الدولة العلية حيث إنه من أقطاب ما بعد الألف من الورثة المحمديين . يقول سيدى أحمد الفاروقى قدس الله سره:

ينبغى أن يعلم: أن منصب النبوة كان [1] مختوما بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولكن لأتباعه صلى الله عليه وسلم نصيب كامل من كمالات ذلك المنصب بالتبعية، وهذه الكمالات كانت فى طبقة الأصحاب أزيد منها فى غيرها، وسرت هذه الدولة أيضاً على سبيل القلة إلى التابعين وتبع التابعين، ثم شرعت بعدهم فى الاختفاء والاستتار، وانتشرت كمالات الولاية الظلية وغلبت وشاعت، ولكن المرجو أن تتجدد هذه الدولة المستترة بعد مضى الألف، ويحصل لها الغلبة والشيوع ، وأن تظهر الكمالات الأصلية، وتستتر الظلية، وأن يكون المهدى عليه الرضوان مروج هذه النسبة العلية) [2].

وبالوراثة المحمدية تحقق مولانا الشيخ جودة - رضوان الله عليه بالمرتبة العلياء بانطواء جميع المقامات عنده، ونهل منها بقدر قسمت له المشيئة الأزلية، فشرب من جميع الأذواق وتواردت عليه جميع الأحوال التى كانت فى حقه - لكمال ولايته - مقامات.

وقد تحدث قطب الواصلين وإمام المحققين سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به عن تحققه بهذه الوراثة المحمدية التى لا يتحقق بها إلا أكمل الأولياء ، وبين سر تعدد وراثة الولى لأكثر من قدم لنبى أو لا ينالها رسول فقال عليه الرضوان:

---

(١) المراد بلفظ (كان) هنا: الكينونة الدائمة أى كان ولا يزال وسيظل مختوما بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

(٢) مكتوبات الإمام الربانى ١/ ٢٥١.

(ومما من الله تبارك وتعالى به على: أنه جعلنى من ورثة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، لكونها تجمع مقامات الرسل كلها فلا يخرج عنها مقام، وقل فقير يعطى ذلك، إنما يكون أحدهم وارثا لموسى، أو عيسى أو زكريا أو يحيى ونحوهم عليهم الصلاة السلام.. فعلم أن من كان محمدى المقام: فقد انطوى عنده جميع مقامات الرسل - بقدر حظه ونصيبه منها - لأنه لا يصح لغير نبى أن يرث مقام نبى على التمام أبدا!!

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين: إبراهيمى المقامى، وسيدى على الخواص: محمدى المقام، وسيدى إبراهيم المتبولى: محمدى إبراهيمى، فكان تارة يقول: شيخى السيد إبراهيم الخليل وتارة يقول: شيخى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: ويجمع بينهما بأنه كان تلميذا فى بدايته للخليل عليه السلام، ثم صار تلميذاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى نهايته» [1].

وأقول: وكذلك كان شيخنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه عيسوى المقام ثم محمدى القدم ، وقد ظهرت على يديه من الكرامات من جنس ما ظهر على يدى مورثه الأول ثم مورثه الثانى الأعظم صلى الله عليهما وسلم من المعجزات كما سيأتى فى موضعه من الكتاب بمشيئة الفتاح الوهاب.

* * *

(طائفة من كرامات مولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله تعالى عنه)

١ - كرامة إحياء الموتى بإذن الله:

تواترت على ألسنة أتباع الشيخ ومحبيه رضى الله عنه هذه الواقعة، وهى أن رجلا كان ينذر للشيخ رضوان الله عليه مبلغا من المال لينفقه فى الخبرات كل عام ويرسله إليه مع ابنه وبينما هذا الابن قادم ذات مرة للوفاء بنذره اعترضه عند قرية

(١) لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق لسيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه. ٢/٧١ط الميمنية.

العزيزية رجل كان آنذاك معينا فى قوة الأمن وكان يعلم بأمر هذا الرجل فصمم على أخذ المال منه وتحايل لذلك فلما لم يفلح دبر لقتل هذا الابن إذ دعاه للمبيت عنده فذهب إليه بداية وفى المساء ذبحه ونقل جسده ليلا فوضعه أمام منزل الشيخ بالعزيزية بعد آخذ ما معه، ولما كان رجال الأمن بصدد التحقيق وجهت التهمة لمولانا الشيخ جودة بقتل الرجل فما كان منه إلا أن قال: أحضروا القتيل وضموا رأسه إلى جسده فأحضروه أمامه فقال له: قم بسم الله وقل من قتلك!! وتتحقق الكرامة الكبرى ويتحرك القتيل وينطق باسم قاتله على مرأى ومسمع من رجال الأمن وجمهرة المحتشدين من أتباع الشيخ وعوام الناس وقد قيدت هذه الواقعة بمحاضر شرطة منيا القمح آنذاك.

ولقد كان الشيخ رضى الله عنه آنذاك عيسوى المقام يحيى الموتى بإذن الله، وهذا أمر مصطلح عليه عند السادة الصوفية إذ إنه ما من ولى لله إلا وهو على قدم نبى من الأنبياء وله من الكرامات مثلما لذلك النبى من المعجزات تكريما لسيد النبيين صلى الله عليه وسلم كما تقدم بيانه.

٢ - تسليمه باليد الشريفة على حضرة مولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم:

ذكر الثقات من أتباع الشيخ رضى الله عنه أنه كان يحج فى سنة من السنين وبينما هو فى زيارة سيد الوجود عليه أفضل صلوات الله وتسليماته إذا به يقترب من الحجرة النبوية الشريفة ويقرأ السلام على جده المصطفى صلى الله عليه وسلم وإذا باليد المحمدية الشريفة تمتد إليه من شباك الحجرة النبوية فيقبلها الشيخ رضوان الله عليه على مرأى من خواص أحبابه وقد أمرهم بالكتمان فلم تذع تلك الكرامة للعامة إلا بعد انتقاله رضى الله عنه.

وقد حكى لى هذه المنقبة العظمى شيخى فى حفظ القرآن الكريم الشيخ حسن محمد عثمان من العزيزية شرقية رواية عن جده الذى شهد الواقعة عيانا.

وهذه الكرامة قد ثبت نظيرها لسيدى أحمد الرفاعى رضى عنه الملقب بصاحب مد اليد لتسليمه على مولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

٣ - ومن كراماته رضى الله عنه أنه كان فى يوم عرفة من كل عام يكون فيه موجودا بمصر يأمر بإغلاق باب خلوته عليه وعدم الدخول إليه من مطلع الشمس إلى غروبها، ويأتى الحجاج من مريديه فيقسم بعضهم أنه رأى الشيخ واقفا بعرفات فى ذلك العام ولا يكاد يخلو عام يوجد فيه الشيخ بمصر من أحد يراه إما بجوار الكعبة وإما بعرفات. أو نحوها من المشاهد المقدسة.

٤ - ومنها أنه أخبر الشيخ الأحمدى الظواهرى بإعادته إلى معهد طنطا الذى كان شيخا له بعد نقله إلى معهد أسيوط حيث جاء الشيخ الأحمدى إلى سيدنا الشيخ جودة متوسلا به إلى الله تعالى فى ذلك فقال له شيخنا رضوان الله عليه ستعود لمعهد طنطا وسترقى شيخا للأزهر فكان الأمر كما قال ، وكان الشيخ الظواهرى بعد أن صار شيخا للأزهر يأتى لزيارة الشيخ والتوسل به إلى الله عز وجل والتبرك به وبآثاره.

٥ - ومنها أنه كان يلتقى بسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فى البرزخ ويخاطبه فى ضريحه الشريف ويسمع خطاب سيدى أحمد البدوى له. بل ذكر خواص أبناء الشيخ قدس سره أن سيدى أحمد البدوى جاء إليه يعوده فى مرضه ورأى أهل بيت الشيخ القطب البدوى عيانا وهو مع الشيخ بحجرته.

٦ - ومنها أن الشيخ محمد الخضرى - من علماء الأزهر ومؤلف كتاب «نور اليقين» - جاء لزيارة الشيخ بصحبة محمد باشا أباظة وحسنين بك مرعى عمدة العزيزية ولم يكن عنده حسن اعتقاد آنذاك فى الشيخ فرأى بمجلس الشيخ أحد المريدين يقرأ فى بعض كتب التصوف ويلحن فى العربية وكان الشيخ يتجاوز - تخفيفا - عن بعض الأخطاء اللغوية ما دامت ليست فى قرآن أو حديث لكن الشيخ الخضرى ظن أن الشيخ لا يعرف خطأ القارئ ولم يتفوه بكلمة بل جذب الكتاب من القارئ دون استئذان الشيخ ليقرأ ويظهر علمه وعندما شرع الشيخ الخضرى فى القراءة لم يقدر على أن ينطق عبارة واحدة صحيحة، وكان شيخنا رضى الله عنه يصحح له أخطاءه فأقر للشيخ رضى الله عنه بعظم مكانته واعتذر عما أسره فى

نفسه. وناشد الشيخ قائلا لا تكن سببا فى سلب نعمة العلم منى فإنها ثروتى وأخذ عنه الطريق وصار من مريديه.

٧ - ومن كرامات سيدنا ومولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله تعالى عنه وعنا به - التى هى من قبيل مكاشفاته بالخواطر القلبية - ما ذكره حضرة نجله وخليفته المكرم مولانا الشيخ عيسى جودة رضوان الله عليهما: أنه فى غضون سنى نشأته المباركة - وقد شاع ذكر شرف نسبه الحسينى فى الآفاق - أراد أن يتحقق من ذلك من حضرة والده الأمجد - رضوان الله عليه - فقصد خلوته المباركة لذلك مضمرا قصده فى نفسه وبينما هو داخل إلى الحضرة الجودية بادأه مولانا الشيخ جودة قدس الله سره بالإجابة قبل السؤال قائلا: نعم يا عيسى نحن أشراف ومن نسل مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه [1]!!

٨ - وأيضا من كراماته رضوان الله عليه - التى تعد من إطلاع الله تعالى له على المغيبات بإذنه وبمشيئته سبحانه - أن حضرة نجله مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان عندما كان بصدد التأهل وإحراز شطر دينه أراد التزوج من إحدى قريباته - من جهة والدته رضى الله عنها - إذ وجد فيها صلاح الدين والدنيا، فلما دخل على حضرة والده الأمجد رضوان الله عليه وأبدى له كمال رغبته فى هذه الزيجة وقد قدم أهل العروس المختارة إلى الساحة الجودية ساعين لشرف هذه المصاهرة بمجرد علمهم باختيار مولانا الشيخ عيسى، فما كان من مولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه إلا أن أشار إلى نجله المبارك أن اختر غيرها فإنها ليست لك. دن إبداء سبب، فما كان منه بعد إلا التسليم والامتثال لأمر الشيخ قدس الله سره ولم يمض إلا ثلاثة أيام وجاء خبر وفاة تلك الفتاة [2] رحمها الله.

★ ★ ★

---

(١) عن لسان حضرة شيخنا الشيخ عيسى جودة رضى الله عنهما وعنا بهما آمين.

(٢) انظر: الأنوار القدسية للشيخ يس السنهوتى صـ٢٦٩ وقد سمعتها من شيخنا الشيخ عيسى أيضا بمزيد من التفصيل.

٩ - ومن كرامات شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به أنه كان يبشر مريديه ببعض ما أطلعه الله عليه من الخيرات المغيبة المستقبلية لهم تثبيتا لهم وتأكيداً لرعايته القلبية وعنايته بشئونهم يقظة ومناما، فمن ذلك: ما انقله عن أحدهم من ورقة بخطه عندى نصها:

«رأيت خيرا إن شاء الله، رأيت عمى فضيلة المرحوم ولى الله الشيخ جودة فى المنام، زارنى بزيه المحترم وقال: أبشرك بأنه سيولد لك ولد بعد سبعة عشر يوما !! فكان كما قال الشيخ عليه رضوان الله، فرزقنى الله بمولود كما قال الشيخ، فسميته محمد كمال، جعله الله من السعداء آمين.

محمد الخضرى هلال

المقيم بسمنود بشارع سعد/ ٩٨

أمام المحطة المصرية

والشكر لله فلى بشيخى صلة نسب

★ ★ ★

١٠- ومن كرامات شيخنا الشيخ جودة رضوان الله عليه - التى تدخل فى نطاق المكاشفات بالحقائق العلمية وتمييز الأصيل من الدخيل فى أمهات كتب الصوفية - ما ذكره مريده الشيخ يس بن إبراهيم السنهوتى مصنف كتاب «الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية» من أنه كان يقرأ فى كتاب «الإنسان الكامل» لسيدى عبدالكريم الجيلى رضى الله عنه. فلما وصلى إلى مسألة: انقطاع العذاب عن أهل النار، حصل فى نفسه شىء بالطبع لما فى ظاهر ذلك من ظاهر مخالفة الشرع، فذهب على الفور إلى شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به، ليسأله عن مطالعة الكتاب المذكور مضمرا فى نفسه السؤال عن تلك المسألة بالذات - أى التى توقف فى قبولها - فلما سأل شيخنا قدس الله سره: أ أقرأ الإنسان الكامل؟؟ ضحك مولانا الشيخ جودة وقال له متعجباً : أأنت تقرأ بنفسك؟؟- مشيرا بهذا الاستفهام التعجبى إلى صعوبة الكتاب ومحذرا من الوقوف عند ظاهر

عبارته - ثم قال مكاشفا للسائل عما أضمر السؤال عنه - «طيب، أعرفه، وقرأته غير أن به مسألة انقطاع العذاب عن أهل النار، ولعل ذلك مدسوس على صاحبه به» ثم أردف قائلا وموجها: لا ينبغى الخروج عن ظاهر الشرع!! فقال الشيخ يس لسيدنا الشيخ جودة رضى الله عنه: إن فى ذلك الكتاب «قل هو» أى الإنسان «الله أحد»!!

فضحك مولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه أكثر من الأول وقال: بل هى كذلك - أى معناها - «قل هو» يا إنسان «الله أحد» (١) !!

ففسر شيخنا رضى الله عنه لفظة «أى» بأنها للنداء بمعنى «يا» وليست تفسيرية، حتى لا يفسر ضمير الهوية المعنى به الذات الأقدس جل وعلا بالإنسان!!

أرأيت نورانية مكاشفة شيخنا العظيم ورسوخ قدمه المحمدى فى التمسك بالشريعة وتنزيهها عن دخيل الرأى وشطط الشطح الذى جلب للتصوف أقاويل المرجفين وتعنت المبطلين؟

رضى الله عنك يا شيخنا الشيخ جودة إبراهيم وأمدنا بمددك العميم.

* * *

---

(١) انظر. الانوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص٢٧١.

« ٤٨ »

العارف بالله تعالى
مولانا الشيخ عيسى جودة رضى الله عنه

فى سماء المعارف الإلهية يتحقق للصفوة الربانيين إيلاد الأرواح - وهو الميلاد الثانى بعد ميلاد الأشباح فى أرض الطبيعة - فيلج العارف ملكوت السموات والأرض، ويتحقق بحق اليقين بعد الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فيكون كائنا بائنا ، مع الخلق بجسده ، ومع الحق تعالى بقلبه ، مناجيا مناجاة العارفين ، ولسان حاله يردد :-

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

من أولئك الصفوة الصادقين مع الله تعالى : ولى عاش سراجا يضىء للناس طريق السلوك إلى ملك الملوك ، ويغذى أسرار السائرين إلى جناب رب العالمين ، وحقيقته عند الله تعالى مضنون بمعرفتها على غير أهلها ، فهو فى الحضرة نشوان من سكر المحبة الإلهية ، إنه المخبت الأواب ، رفيع الجناب ، عيسوى المقام ، محمدى الإقدام ، سيدى الشيخ عيسى جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

شريف تدلى فرعه من الدوحة الهاشمية العلوية الحسنية الحسينية المباركة، فوالده مولانا الشيخ جوده بن السيد إبراهيم بن السيد مصطفى جوده الذى ينتهى نسبه (أباً) إلى سيدنا الحسن بن سيدنا على كرم الله وجهه ، كما ينتهى نسبه (أما) إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه.

ولقد شاع واشتهر شرف هذا النسب الذى دوى صداه فى سمع مولانا الشيخ عيسى وهو لايزال فتى يافعا ، حتى عزم على تحقيقه باليقين ، فدخل ذات يوم على والده الكريم - وهو فى خلوته - وفى صدره أن يتحقق منه من صحة النسب . فإذا بمولانا الشيخ جوده قدس الله سره يكاشفه بما يضمره فى سره دون أن ينبس ببنت شفة فيقول له مبادئا : (نعم يا عيسى ، نحن أشراف ومن نسل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه) !!

فكانت هذه المكاشفة الجودية أقوى توثيقا من مجامع الأنساب ، لأنها نتيجة الكشف الصحيح ، ومع ذلك : فالأسرة الجودية والعيسوية مسجلة بنقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية، وبطاقات النسب الشريف فى حوزة أفراد الأسرة.

وقد ولد مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه بقرية (العزيزية) مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية - وهى بلدة والده الأمجد وأسرته المباركة - وذلك سنة ١٣٢٦هـ = سنة ١٩٠٨م حيث كان مولده بحى الشيخ جوده بالمنزل الذى آلت ملكيته إلى ابن خالته الحاج عبد الرحمن خطاب (وهو ملاصق للمنزل الذى ولد به الفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب) .. وقد رأيت بنفسى الإبريق الذى لم يزل معلقا بحجرة ولادته حتى أواخر الخمسينيات .

ووالدة مولانا الشيخ عيسى هى السيدة مريم بنت الحاج عيسى أبو سرور من قرية بيت بشار شرقية. ولسيدنا الشيخ عيسى إخوة أربعة ذكور هم : السيد محمد الطاهر ، والسيد محمد الطيب ، والسيد عبد الرحمن - وهم إخوته لوالده من الحاجة السيدة البرماوى من العزيزية .. ثم السيد عبدالله ، وهو أخوه لوالده أيضا من السيدة التركية.

وله ست أخوات هن : السيدة فاطمة الزهراء - وهى جدة الفقير إلى الله كاتب هذه السطور لأمه - والسيدة آمنة ، والسيدة عائشة ، والسيدة خديجة [1].

---

(١) كانت السيدة خديجة بنت مولانا الشيخ جوده رضى الله عنهمامن أهل الكشف الظاهر، وكان أهل العزيزية وما حولها يأتون إليها بمرضاهم لتدعو لهم فكانت تدعو لهم وتبشر بشفاء من يشفى وتخبر بموت من دنا أجله ويتحقق ما أخبرت به دون تفاوت مطلقا . وقد رأيت فى رؤيا منامية فى إحدى ليالى جمادى الأولى سنة ١٤١٨ أن السيدة خديجة تحققت بمقام سيدى أحمد حجاب فى الولاية وكان من أوتاد الأرض .

وهن أخواته لوالده من الحاجة السيدة البرماوى ، ثم شقيقتاه : السيدة فاطمة النبوية والسيدة منيرة - والدة زوجة الفقير - رضى الله تعالى عن الجميع.

وقد نشأ مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان نشأته الأولى بالعزيزية فى أحضان أسرته المباركة وفى رحاب أولياء العزيزية سيدى الحجازى أبى عثمان عفان (خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها) وسيدى حسن أبى المواهب ، وسيدى إدريس بن سيدى غنيم الغنيمى ، والإمام العزيزى شارح الجامع الصغير للإمام السيوطى رضى الله عنهم أجمعين . فى ربوع هذا البلد الطيب استوى عوده على سوقه ، وطاب نباته بإذن ربه ، فكانت النشأة المباركة على عين وزير النبى صلى الله عليه وسلم . فحفظ القرآن الكريم ، وأمده مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه بنظرة النخبة والاصطفاء وهو فى المقام العيسوى ، لذا أسماه (عيسى) وأنجبه من السيدة (مريم بنت عيسى) ليكون - بعد الاكتمال - على القدم المحمدى كشأن الورثة المحمديين.

وما أن انتقل مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه بأسرته إلى مدينة (منيا القمح) حتى بدأت مرحلة جديدة فى انتشار دعوة الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية ، وأيضا: فى نضج الشخصية العيسوية ، حيث كان نضجه مبكرا، فبرزت أمارات النجابة ولوائح السلوك الصوفى على محياه وفى سمته الجودى ؛ فكان يعد من بين إخوته للخلافة الجودية .

وسطع نجمه وهو فى أوائل العقد الثانى من عمره المبارك حتى كان محل إجلال وإعجاب الأسرة الجودية وأتباع سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه، فتقدمت الأسر العريقة المحبة لسيدنا الشيخ جوده ونجله تطلب التشرف بمصاهرة وزير النبى صلى الله عليه وسلم بتزويج مولانا الشيخ عيسى لإحدى بناتها ، ولكن حدث فى هذا الأمر مفارقات وكرامات :- منها أن سيدنا الشيخ عيسى قد عزم على التزوج من إحدى قريباته - من جهة والدته رضى الله عنها - إذ وجد فيها صلاح الدين والدنيا ، فلما دخل على حضرة والده الأمجد قدس الله سره ليبدى

رغبته فى هذه الزيجة : إذا بسيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه يقول له : (اختر غيرها فإنها ليست لك) !!

هذا وقد قدم أهل تلك العروس إلى الساحة الجودية - وهى معهم - بمجرد علمهم باختيار مولانا الشيخ عيسى لها ، ولكن لم يكن فيه إلا التسليم والامتثال لأمر الشيخ قدس الله سره . وكانت المفاجأة : أنه لم يمض سوى أيام ثلاثة وجاء خبر وفاة تلك الفتاة رحمها اله تعالى(١).

ولكن المشيئة الإلهية قدرت زواج مولانا الشيخ عيسى من السيدة فاطمة بنت الحاج أحمد حمدى الصفتى ، وكان والدها رحمه الله من أحباب سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه وكان يمتلك خمسمائة فدان إلى جانب أموال أخرى وظفها لتفع المسلمين ، وكان له مسجد يحمل اسمه فى (عين شمس) بالقاهرة.

فتزوج مولانا الشيخ عيسى هذه الزيجة المباركة وهو فى الثالثة عشرة من عمره.

سلوكه الصوفى :

كان مولانا عيسى - عليه الرضوان - من أهل الفتح الذين تقدم جذبهم على سلوكهم ، حيث شهدت طفولته المباركة ألوانا من الكرامات - سيأتى ذكرها فى موضعها من الترجمة - ولكن الوظائف السلوكية الظاهرة قد تحقق بها وهو فى الرابعة عشرة من عمره ؛ حيث أذن له سيدنا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه بدخول الخلوة آنذاك والذكر بالأسماء السبعة الجامعة لأصول الطرق قاطبة - عدا النقشبندية السابقة والشاذلية اللاحقة - بالإضافة إلى الذكر الخفى باسم الذات ، بعد الذكر بالنفى والإثبات ، وهما من الأسس التربوية السلوكية للطريقة النقشبندية ، وقطع مراحل الذكر بلطائف عالم الأمر ، والترقى منها إلى الذكر بلطائف عالم الخلق.

---

(١) انظر هذه الكرامة فى الأنوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص٢٦٩ ، وقد حكاها لى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه بمزيد من التفصيل .

فأما الذكر بالأسماء السبعة : فإنه لقطع عقبات النفس السبع لبلوغ مقاماتها وتحقيق مراتبها، والتحقق بمعرفة الله تعالى بعد معرفة النفس (فإنه من عرف نفسه فقد عرف ربه) ومن ثم ترقى إلى ذروة المراتب، وبيان الأذكار السبعة كما يلى :-

الذكر الأول : (لا إله إلا الله) وهو للنفس الأمارة - التى تأمر صاحبها بالسوء - ولون نورها : أزرق وعدده : مائة ألف مرة .

والذكر الثانى : (الله) ، وهو للنفس اللوامة - التى تلوم صاحبها بعد وقوع المعصية- ولون نورها : أصفر ، وعدده : مائة ألف مرة .

والذكر الثالث : (هو) ، وهو للنفس الملهمة - التى تلهم صاحبها فعل الخيرات - ولون نورها : أحمر ، وعدده : تسعون ألف مرة.

والذكر الرابع : (حى) ، وهو للنفس المطمئنة - أى اطمأنت وسكنت من اضطرابها وسلمت للأقدار - ولون نورها : أبيض ، وعدد هذا الذكر سبعون ألف مرة .

والذكر الخامس : (قيوم) ، وهو للنفس الراضية - التى رضيت من الله بكل حال - ولون نورها : أخضر ، وعدده : تسعون ألف مرة.

والذكر السادس : (رحمن) ، وهو للنفس المرضية - التى صارت مرضية عند الحق وعند الخلق - ولون نورها : أسود ، وعدده : خمسة وتسعون ألف مرة.

والذكر السابع : (رحيم) ، وهو للنفس الكاملة - التى كملت أوصافها وصارت رحيمة لجميع الخلق - وليس لها نور مخصوص ، فنورها يتموج بين هذه الأنوار الستة ، وعدد هذا الذكر : مائة ألف مرة.

وهذه المراتب والأذكار عند جميع الطرق إلا عند النقشبندية والشاذلية ، فإن عندهما يذكر اسم الذات (الله) والنفى والإثبات (لا إلله إلا الله) فى القلب واللطائف ، وذلك مع كثرة التوجهات والمراقبات ، والرياضات ، والخلوات.

وإنما ذكر مولانا الشيخ عيسى - بتوجيه والده رضى الله عنهما - بالأسماء السبعة بالإضافة إلى الذكر باسم الذات وبالنفى والإثبات : ليستجمع أصول الطرق فى سلوكه ، وذلك شأن الكبار من الأولياء ، الذين صلحت ذواتهم - بالاجتباء الإلهى - لاستجماع أنوار الطرق جمعاء ، وسبحان من يختص برحمته وعطائه ومده من يشاء.

وأما نظام الخلوة وتوجهاتها التى سلك بها مولانا الشيخ عيسى جوده رضى الله تعالى عنه وعنا بهما فى الدارين : فقد تلقيته منه بمنزلنا الجودى الأحمدى بطنطا فى غرة شعبان المكرم سنة ١٤٠٩هـ ويتمثل هذا النظام بشروطه فيما يلى:

أولا : مدة الخلوة أربعون يوما كاملا ، لا انقطاع فيها.

ثانيا : الإذن من الشيخ المرشد للمريد بدخول الخلوة والاشتغال بأذكاره.

ثالثا : أن يكون المريد دائما على طهارة من الحدثين الأكبر والأصغر.

رابعا : الانقطاع الكامل من المريد عن كافة الشواغل الدنيوية ؛ ليتبتل إلى ربه تبتيلا.

خامسا : عدم اختلاط المريد خلال مدة الخلوة بأحد إلا بإذن من الشيخ المرشد.

سادسا : الاقتصار فى المأكل والمشرب على ما يأمر به الشيخ - وهو الأغذية النباتية غالبا - إلا إن أذن له بغيرها ؛ وذلك ليكون عونا للمريد على السهر للذكر وتلطيفا لكثافته الترابية.

سابعا : الاعتكاف الدائم بالخلوة ، وعدم الخروج منها بتاتا إلا لقضاء الحاجة وصلاة الجماعة.

وقد أخبرنى مولانا الشيخ عيسى جوده - رضى الله عنهما - أن مولانا الشيخ جوده عليه رضوان الله كان يصرح لأهل الخلوة بإقامة الجماعات فى الفرائض بها.

وأما نظام الذكر بالخلوة وتوجهاتها :

فقد أخبرنى مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان : بأنه على النحو التالى :-

أولا : الذكر فى لطيفة (القلب) - الموجودة تحت الثدى الأيسر بقدر إصبعين - وهو على قدم سيدنا آدم على نبينا الأعظم وعليه الصلاة والسلام ، ويستمر هذا الذكر لمدة ثمانية أيام.

والتوجه الخاص به : أن يقول الذاكر - بعد الذكر بلطيفة القلب - : «إلهى بفيض تجلى أفعالك الذى أرسلت من قلب النبى صلى الله عليه وسلم إلى قلب سيدنا آدم ، ومن قلب سيدنا آدم عليه السلام بواسطة قلوب المشايخ : أرسل إلى قلبى».

وثانيا : الذكر فى لطيفة (الروح) - الموجودة تحت الثدى الأيمن بقدر إصبعين - وهى على قدم سيدنا : نوح وإبراهيم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ويستمر هذا الذكر لمدة يومين .

والتوجه الخاص به أن يقول بعد ذكر لطيفة الروح : «إلهى بفيض تجلى صفاتك الثبوتية الذى أرسلت من روح النبى صلى الله عليه وسلم إلى روحَىّ سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، ومن رُوحَىّ سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما السلام بواسطة أرواح المشايخ إرسل إلى روحى».

وثالثا : الذكر فى لطيفة (السّرّ) - الموجودة فوق الثدى الأيسر بقدر إصبعين - وهى على قدم سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وذلك الذكر لمدة يومين أيضا .

والتوجه الخاص به : أن يقول بعده : «إلهى بفيض تجلى شئون ذاتك الذى أرسلت من سرّ النبى صلى الله عليه وسلم إلى سر سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومن سر سيدنا موسى عليه السلام بواسطة المشايخ ارسل إلى سرّى».

ورابعا : الذكر فى لطيفة (الخفى) - الموجودة فوق الثدى الأيمن - وهى على قدم سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو لمدة يومين أيضا.

والتوجه الخاص به : أن قول بعده : «إلهى بفيض تجلى صفاتك السالبة الذى أرسلت من خفاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى خفاء سيدنا عيسى عليه السلام ، ومن خفاء سيدنا عيسى عليه السلام بواسطة خفاء المشايخ أرسل إلى خفائى .

ثم خامسا : الذكر بلطيفة (الأخفى) - الموجودة فى وسط الصدر - وهى تحت قدم نبينا الأعظم سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه دائما وسلم ،وهذا الذكر لمدة يومين كذلك .

والتوجه الخاص به أن يقول بعده : «إلهى بفيض تجلى شئون جامعيتك الذى أرسلت إلى إخفاء النبى صلى الله عليه وسلم ،ومن إخفاء النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة إخفاء المشايخ أرسل إلى إخفائى».

★ تلك هى أذكار اللطائف الأمرية - المنسوبة إلى عالم الأمر - الخمس ، بتوجهاتها.
ويليها فى نظام الخلوة أذكار لطائف عالم الخلق كما يلى :-

وسادسا : الذكر فى لطيفة (النفس) - وهى فى الجبهة - لمدة يومين .

وسابعا : الذكر فى العناصر الأربعة التى هى قوام الجسد كله لمدة يومين .

ثم ثامنا : الذكر بحبس النفس - بفتح الفاء - بالنفى والإثبات (لا إله إلا الله) بعدد وتر على قدر اتساع النفس ، بحيث يتلفظ قبل نهايته بـ (سيدنا محمد رسول الله) ،وذلك لمدة ثلاثة أيام .

ثم تاسعا : المراقبة ، وحقيقتها : معنى النفى والإثبات من غير ملاحظة حروف الكلمة الطيبة ، وهى فى اصطلاح أهل الحقيقة : استدامة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه فى جميع أحواله . والمراقبة هى الطريق الرابع من طرق الوصول عند السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية .

ويظل المريد فى الخلوة متحققا بمقام المراقبة ثلاثة أيام حسب نظامها

الدقيق الذى رسمه مولانا الشيخ جوده - ومن بعده مولانا الشيخ عيسى رضى الله عنهما - لأبنائه ومريديه .

ثم عاشرا : المرور على كل لطيفة من اللطائف الأمرية والخلقية بالذكر باسم الذات (ألفا) ، وبعد كل ألف من ذكر اللطائف الأمرية بتوجه إلى كل لطيفة منها بالتوجه المناسب لها - كما مرّ آنفا - ومدة هذا المرور فى الخلوة : ثلاثة أيام .

ثم حادى عشر : التهليل - أى الذكر بلا إله إلا الله - على قدر سماح نفس الذاكر (لمدة أربعة أيام) .

وقد أفادنى شيخنا الشيخ عيسى جوده رضى الله تعالى عنهما : أن ذكر اللطائف المذكورة فى نظام الخلوة إنما هو باسم الذات ، حيث يتم المختلى الذاكر به أحد عشر ألفا منها خمسة آلاف قبل دخول الخلوة ، فيكون ذكره باسم الذات الأقدس فى الخلوة ستة آلاف .

ثم بعد إتمام ما مر ذكره : يعكف الذاكر المختلى على الذكر الخفى باسم الذات حتى يتم أربعين يوما ، بعدد أيام وليالى ميقات الكليم سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، حيث قال ربنا عز وجل فى محكم كتابه العزيز : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) . (١)

★ ★ ★

هذا قبس من الجانب السلوكى التعبدى الذى سلك به مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه تحت إشراف والده الأمجد مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين آمين ، حيث كانت الخلوة فى بيته ثم فى المسجد الجودى . (٢)

---

(١) سورة الأعراف / ١٤٢ .

(٢) من ترتيبات القدر الإلهى أن يكون مكان الخلوة الملحق بالمسجد الجودى الشريف هو مكان ضريح مولانا الشيخ عيسى جوده رضوان الله عليه ، فيا لها من منقبة شريفة أن يكون متعبده هو المكان الذى دفن فيه ، فأنعم به من روضة من رياض الجنة !!

ومن ثم كان مولانا الشيخ عيسى قد قطع المراحل السلوكية فى شبابه الباكر على عين مربيه وزير حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وخاض بحار المجاهدات وحظى بالمكاشفات وظهرت على يديه الكرامات منذ كان فى المهد صبيا ، فظلت تتوالى على يديه حتى لقى ربه ، بل وبعد انتقاله إلى جوار مولاه عز وجل .

جانب من كراماته رضى الله تعالى عنه :

١ - مما يؤثر عن مولانا الشيخ عيسى جوده رضى الله عنهما وعنا بهما من الكرامات وهو لم يبلغ الحلم بعد : أنه قد شرع بعض الضالين فى بناء مقر للضلال والعصيان بالقرب من المسجد الذى أسسه والده الأمجد رضوان الله عليه ، وبمجرد علم مولانا الشيخ عيسى بشروعهم فى البناء اصطحب أحد اتباع الشيخ - وهو الشيخ إبراهيم أبو حبيب الكبير إلى ذلك المقر وأخذا يقرآن الفاتحة لسيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ثم يأمر أبا حبيب فينادى شيخنا الأكبر بالمدد ، فما يصبح الصباح إلا وقد صار البناء أثرا بعد عين !!

وقد تكررت هذه الكرامة ثلاث مرات ، مع كل إعادة لبنائه حتى قدم أصحابه إلى سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه مستغيثين به لما علموا بكرامة نجله رضى الله عنه وتابوا عن غيِّهم .

٢ - ومن كراماته رضى الله تعالى عنه - فى صغره أيضا - أنه كان مع حضرة والده رضوان الله عليه ببلدة (الشموت) مركز بنها ، فكان بعض أتباع الشيخ رضوان الله عليه يقومون بدراسة القمح ، فحضر إليهم سيدنا الشيخ عيسى - وهو فى حوالى العاشرة من عمره المبارك ،وطلب منهم ركوب آلة الدراسة المساة بـ (النورج) ولكنه لم يكن هناك دواب تجر (النورج) ، فأصر على ركوبه بدون دواب ، وقال له (سر بأمر الله تعالى) فسار النورج وحده بقدرة الله تعالى بدون أى شىء يجره وسط دهشة الحاضرين !!

وقد تكررت هذه الكرامة نفسها فى بلدة (بَنْدَفْ) التابعة لمركز منيا القمح بمحافظة الشرقية ويرويها شهود العيان ، وتتناقلها الجموع الغفيرة .

٣ - ومن كراماته رضى الله عنه : أنه كان فى زيارة لبلدة (دنديط) مركز ميت غمر - فى حياة والده الأمجد قدس الله سره - نائبا عنه ، وهو لا يزال فتى يافعا دون البلوغ ، فاحتفى به أهل البلدة احتفاء بالغا أثار حفيظة عمدة البلدة فأخذ يستنكر الالتفاف حول الشيخ عيسى وهو فى هذه السن بهذه الصورة .

وعلى إثر استنكاره ذلك : وبينما هو داخل من باب دوّاره الكبير إذا به يصطدم بشق الباب المغلق مع أن شقه الآخر مفتوح ، فوقع على الأرض وسط دهشة أهله ، فأدرك من فوره أن هذه الوقعة لوقوعه فى ولى الله الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه واعتراضه عليه .

ثم كانت تتمه الكرامة : أن يرى أحد سالكى الطريقة النقشبندية بالبلدة فى الليلة التالية مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره وهو يقول له فى رؤياه : إنى أرى نجلى عيسى وأعرف من يكرمه ممن لا يكرمه .

ولقد كانت هذه الزيارة بما وقع فيها من الكرامة - كما حكى لى مولانا الشيخ عيسى سببا فى إقبال معظم أهل البلدة على الدخول فى الطريقة النقشبندية واستقامتهم على مبادئها ، لدرجة أنه كان بها (خواجه) من أصل إفرنجى يتاجر فى الخمر ، فأعرض عنه الجميع ، فخرج منها مدبرا بعد أن أغلق محله ، فلما سئل أثناء مغادرتها عن السبب قال : (وماذا أصنع هنا فى هذا البلد والكل قد صار نقشبنديا)!! ألا فلينظر الجهلة المنكرون على الصوفية والأولياء : ماذا يفعل التصوف النقى والأولياء المتحققون فى المجتمع الإسلامي؟؟ إنهم يقهرون الظلام بنورهم الساطع الوهاج .

٤ - ومن الكرامات التى أجراها الله تعالى على يد مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه - وهو فى صغره أيضا - أنه كان مع حضرة والده الأجل مولانا الشيخ جوده - عليهما الرضوان الإلهى - فى ضيافة محمد بك منصور نصير

عمدة قرية (ملامس) بالشرقية ، وأثناء مدة الضيافة : فقدت مصوغات حرم المضيف - وكانت جواهر غالية ومعادن نفيسة - فشكوا ذلك إلى مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ، وإذا بمولانا الشيخ عيسى - وهو فى حوالى السابعة من عمره يشير بيده نحو امرأة ريفية كانت تحمل وعاء فوق رأسها ، ويصيح (هذه هى السارقة) مع أنه آنذاك لم يغادر مجلس والده ، فأمسك بها ، وفتش الوعاء الكبير الذى تحمله (القفة) فوجدت المصوغات المسروقة مخفية بداخله ، فشهد الجميع بأنها كرامة الشيخ عيسى .

وكتب السيد محمد منصور نصير بعد ذلك إلى مولانا الشيخ جوده يشيد بكرامة نجله ، ثم أهداه هدية قيمة .(١)

٥ - ومن كرامات سيدنا الشيخ عيسى رضى الله عنه أيضا : ما حدثنى به الشيخ داود عبدالدايم - من نقشبندية (تصفا) أبناء الشيخ أحمد نور - أنه حج إلى بيت الله الحرام حوالى سنة ١٩٦٧م فالتقى فى (عرفات) بمولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه ، وصحبه فى الموقف وجالسه هناك مع أن فضيلة الشيخ عيسى لم يسافر إلى الحج فى ذلك العام ، فلما عاد الشيخ داود من الحج ، وذهب لزيارة سيدنا الشيخ جوده ومولانا الشيخ عيسى بمنيا القمح : قال لشيخنا الشيخ عيسى : متى عدت من الحج ؟؟ فأدركه شيخنا على الفور قائلا: (اسكت لا تتكلم واحفظ السر) .(٢)

٦ - وهذه كرامة أخرى من هذا القبيل السالف ، وصاحبها الذى وقعت له هو فضيلة الشيخ شوقى العوالى مدير الوعظ بمحافظة القليوبية ، وقد رواها بنفسه فى الاحتفال بالذكرى الأولى لانتقال مولانا الشيخ عيسى جوده رضوان الله عليهما - بالمسجد الجودى بمنيا القمح - حيث قال أنه اعتزم الحج فى إحدى السنين وخشى ألاّ يمكن من ذلك ، فجاء إلى مولانا الشيخ عيسى وسأله

---

(١) انظر : النفحات الجودية للدكتور جوده محمد ابو اليزيد المهدى ص١٩٨ ط الأولى .

(٢) حدثنى بهذه الكرامة الشيخ داود المذكور فى الجمعة الختامية للمولد الرجبى الأحمدى سنه ١٤٠٩ بمزلنا بطنطا مشافهة .

أن يدعو الله تعالى له بذلك حيث إنه مستجاب الدعوة ، فقرأ له الفاتحة على هذه النية ، ثم بشّره بأنه من حجاج ذلك العام ، وقد يسَّر الله تعالى له ذلك وسافر وشافه الكعبة الغراء ، وبينما هو فى الطواف وقد أطبق عليه الزحام من كل جانب حتى توقف عن الحركة تماما وكاد أن يهلك ، وإذا به ينادى يا سيدنا الشيخ عيسى مدد .. أدركْنى !!

ويقسم الشيخ شوقى العوالى أنه أبصر أمامه على الفور مولانا الشيخ عيسى بجسمه وشخصه وأخذ يفسح له فى المطاف حول الكعبة حتى أتم طوافه وأدى مناسكه بحمد الله تعالى وعاد سالما غانما ، ومولانا الشيخ عيسى لم يبرح وطنه هذا العام !!

٧ - ومن كرامات مولانا الشيخ عيسى قدس الله سره :- وهى مما يدل دلالة قاطعة على كمال تحققه بالخلافة الجودية ، والنيابة عن حضرة والده الأكرم رضوان الله تعالى عليهما :-

ما حدثنى به أحد مريديه من أنه كان فى فترة السبعينيات يقوم بخدمة المسجد الجودى ، ويؤدى الابتهالات وأذان الفجر ونحو ذلك ، فتعرض له أحد شيوخ الطرق الصوفية الأخرى محاولا أن ينقله من السلوك النقشبندى إلى سلوك طريقة ذلك الشيخ ، فأمهله السالك النقشبندى حتى يستخير الله تعالى .

وإذا بهذا المريد النقشبندى يرى فى ليلته مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره يأتيه فى منام كفلق الصبح ، فى منظر جلالى مهيب ، ويقول له :-

«يا فلان ، إن العهد الذى أخذته من نجلى عيسى هو مني» ثم قال له :-

«انظر ورائى» ، فنظر المريد فوجد خلف مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه مجموعة من القصور الفخمة الرائعة التى لا نظير لها فى الدنيا جمالا وروعة ، فقال له سيدنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه : (لقد بَنَيْتُ لك هذه القصور بيدى وهى لك ، فإن تركت عهدنا وطريقتنا هُدِمّتْ وخسرتها) !!

فقام الرجل من نومه ذاهلا مما رأى وسمع ، وقد امتلأ كيانه بحب الطريقة النقشبندية وشيخها مولانا الشيخ جودة وخليفته مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنهما، وحشرنا فى معيتهما المشرفة يوم الدين. اللهم آمين .

٨ - ومن كرامات مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه :- ما حدثنى به الأستاذ إسماعيل سليمان المحامى - شقيق اللواء حسين سليمان مدير المباحث الجنائية بالشرقية سابقا - :

أنه كان فى زيارة لمولانا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه فى إحدى سنى السبعينات على وجه التقريب ، فلما وقف أمام مقصورة ضريح سيدنا الشيخ جوده رضوان الله عليه : خطر بباله تساؤل : - هل الشيخ عيسى وَليٌّ حقا ؟ أم هو مجرد شخص عادى يحمل اسم والده ؟؟

قال الاستاذ إسماعيل : فسمعت بأذنى من داخل الضريح صوتا عاليا مدويا يقول : (وراءك وليٌّ مني) !!

فالتفتُّ ورائى فوجدت الشيخ عيسى واقفا ورائى فجأة وليس معه أحد !! فتحققت ولايته يقينا بتزكية أبيه الأمجد رضوان الله عليهما . آمين .

٩ - ومن كراماته الظاهرة رضى الله تعالى عنه ماحدثنى به المريد النقشبندى الشيخ يحى دياب صهر السيد محمد بن مولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه : أنه أثناء تجديد بناء مسجد مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه : وكان مباشرا للبناء تحت إشراف سيدنا الشيخ عيسى عليه رضوان الله تعالى - كان يسمع بأُذنِه الظاهرة صوت مولانا الشيخ عيسى من منيا القمح وهو ببلدته (السيفا) بمحافظة القليوبية يناديه قائلا : (يا يحيى ، أحضر خمسة بنّائين غدا معك لبناء حائط المسجد). والأعجب أن يجد الشيخ يحيى البنائين الخمسة فى انتظاره مستعدين للذهاب لبناء حائط المسجد وكأنهم على موعد سابق متفق عليه !!

١٠- ومن كراماته أيضا رضى الله تعالى عنه : معرفته - بنور الله - بموعد انتقاله إلى جوار مولاه عز وجل ، حيث إنه قبل وفاة زوجته (السيدة فاطمة) رضى الله عنها التى توفيت قبله بعام ، عز عليها فراق زوجها وشيخها المبارك فقالت له وقد استشعرت دنو أجلها (يعز على فراقك يا مولانا) ، وإذا بسيدنا الشيخ عيسى رضوان الله عليه يقول لها على مسمع من الحاضرين (لن أفترق عنك إلا سنة واحدة)، وإن هو إلا عام واحد وكان الانتقال إلى الرفيق الأعلى فى غرة ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه !! إنها مكاشفة المؤمن الذى ينظر بنور الله.

(مكانته فى الولاية وتحققه بالوراثة المحمدية) :-

لقد ارتقى شيخنا العارف بالله تعالى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه مكانة عزيزة شامخة فى عالم الولاية ، حيث إنه كان عليه الرضوان :-

١ - الخليفة الأعظم لمولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه ، ومن المقطوع به أن الخليفة يرث مستخلفه فى مقاماته الولائية الاصطفائية ، ولقد كان مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه وزيرًا لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فى عالم الباطن ووارثا لسيدنا أبى بكر الصديق رضوان الله عليه الذى قال فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من نبى إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض ، فأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر) . (١) فكان مولانا الشيخ عيسى خليفة لوالده الأمجد فى الوزارة المحمدية .

٢ - إمام الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية وحامل لوائها ومربى أبنائها ومسلّك مريديها وناشرها فى ربوع الديار المصرية ظاهرا وباطنا .

فلقد قلده والده الأمجد رضوان الله عليه هذه الإمامة - كما تؤكده أحداث كل من الكرامتين : السابعة والثامنة فيما أوردناه آنفا - فظل طوال حياته قائما على

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه : ١٦٦/٥ ط/ الحلبى .

أمر الطريقة حتى اللحظة الأخيرة من عمره المبارك ، داعيا إلى الله على بصيرة وفاتحا للطريق مربيا للسالكين ، ولم تنقطع رحلاته لنشر رسالة الطريق فى مختلف البلدان حتى أثناء وفاته رضى الله عنه .

فكان سيدنا الشيخ عيسى رضى الله عنه يربى أبناء قلبه بالنظر كحضرة والده قدس الله سره ، وكان كلامه فى الطريق بالإشارة الخفية ، وكان يؤثر إخفاء مقامه الباطنى ومنزلته الولائية إيثارا للإخلاص مع الله تعالى ، وإذا أراد إعلام أحد أبنائه ومريديه بشيء من مقاماته ، أفصح له على الخصوص وربما بطريق الرمز أو الرؤيا أو بظهور كرامة كمكاشفة بأمر خاص أو نحو ذلك .

ونظرا لشدة حرصه على إخفاء مقامه فقد تستَّر عن الأغيار بستار كثيف من التمسك بالظاهر لقصر معرفته على من يصلح لها فى طريق الله عز وجل .

ومن ثم وقع أهل الشقاء والحرمان فى شرك الإنكار عليه ليزدادوا من الله بعدا .

٣ - ★ كان ولا يزال رضوان الله عليه محل إجلال أولياء وعلماء عصره ، ومناط تكريمهم وتقديرهم لمكانته الصوفية ،ولا سيما من خلفاء مولانا الشيخ جـــوده رضى الله عنه كمـــولانا الشيخ عليـــوة عطية وسيـــدى محمد ابن أبى اليزيد رضى الله عنهما .

فلقد كان سيدى الوالد الشيخ محمد أبو اليزيد يعظم قدره ويتبرك به - وهو من هو فى الولاية والعرفان - حتى إننى عندما طلبت من سيدى الوالد أخذ العهد على يديه فى منتصف عقد الستينات - وأنا طالب بكلية أصول الدين - أخذنى إلى منيا القمح وسلمنى لمولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه بالمقام الجودى وقال لى (خذ العهد من خالك سيدنا الشيخ عيسي) وأخذت العهد منه بحمد الله تعالى وسلكت على يديه الطريقة النقشبندية ، وقد رأيته فى رؤيا وهو يلقننى اسم الموافقة (ياحى) ثمانى عشرة مرة فى نفس واحد . كما رأيته فى رؤيا أخرى وهو يقدمنى إلى جمهور غفير فى سرادق عظيم بصفة صوفية أسأل الله تعالى أن أكون

أهلا لها مع التحقيق بلا سلب بعد عطاء ، بجاه رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

★ ومن الأولياء الذين عاصروا مولانا الشيخ عسيى وشهدوا له بالرسوخ والتمكين وسمو المنزلة فى الولاية : مولانا السيد حسن المسلمى رضوان الله عليه حيث كان يتوسل به إلى الله عز وجل ويقيم خدمته فى رحابه فى المولد الجودى كل عام بمنيا القمح .

★ ومن الأولياء المعاصرين له العارف بالله الشيخ مصطفى عبدالجليل مجاور مولاتنا السيدة زينب رضى الله عنها وعنا بها فى الدارين ، وكانت إقامته الأخيرة بمنيا القمح حيث كانت له مدرسة روحية فى الطريق ، فكان يقول رضى الله عنه (إن سيدنا الشيخ عيسى قد طارت فيه رقاب) أى من المنكرين على ولايته رضى الله عنه،

★ ومن شيوخ الأزهر وعلمائه الذين عرفوا فضله ومنزلته شيخ الاسلام الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى الذى سعى معه فى إقامة مولد سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه وقد صحبه فى السفر لمقابلة السيد عبدالحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية آنذاك لإتمام إجراءات المولد . وفى الطريق إلى السيد البكرى قال الشيخ الأحمدى - شيخ الأزهر - لمولانا الشيخ عيسى : (إن الشيخ البكرى سيطلب منك ضم الطريقة النقشبندية الجودية إلى المشيخة العامة وتعيينك من قبله شيخا لها ، وهذا خلاف ما وصى به سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه فلا توافقه فى ذلك) . [1]

★ ثم كان من كبار العلماء الأولياء المعاصرين لمولانا الشيخ عيسى المعظمين لقدره فى الولاية : الشيخ محمد النجدى سالم شيخ الشافعية بمصر، والملقب بالشافعى الصغير ، وهو الذى صحب مولانا الشيخ عيسى إلى المجلس الصوفى ومقر المشيخة العامة بسراى الخرنفش بالقاهرة لأخذ

(١) انظر النفحات الجودية للدكتور محمد ابى اليزيد المهدى ص ١٨٤ - ١٨٥ ط/ الاولى .

الموافقة النهائية على عمل المولد الجودى ، وقد ذكر لى مولانا الشيخ عيسى أنه عندما قصد تجديد وضوئه فى خلال هذه الرحلة حمل الشيخ النجدى شيخ علماء عصره فى الفقه : الملابس الخارجية - كالجبة وحزام القفطان - لمولانا الشيخ عيسى حتى فرغ من وضوئه !! حقا إنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

٤ - أنه - فضلا عن كونه امتدادًا للنسبة الضيائية النقشبندية المنسوبة إلى سيدى أحمد ضياء الدين [١] فهو كذلك امتدادٌ للنسبة الأكبرية - المنسوبة إلى الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره - كما صرح بذلك العلامة الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية الأسبق حيث ذكر فى (الكتاب التذكارى محيى الدين بن عربى) أن سيدنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه قد تلقى من سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى قدس الله سره : الطريقة النقشبندية ومعها جملة من الطرق منها : الطريقة الأكبرية ، ثم قال : (.. وقد توفى الشيخ جودة بعد سنة ١٣٤٤هـ وقد لقى كاتب هذه السطور بعض تلاميذه من الصوفية وعلماء الأزهر ، ويقوم على طريقته الآن نجله الشيخ عيسى جوده ، ولطريقته أتباع كثيرون إلى الآن ، وخصوصا فى الشرقية). [٢]

ومن ثم يعتبر مولانا الشيخ عيسى شيخا للطريقة الأكبرية فى عصره أيضا .

٥ - ومما يثير دهشة عند الكثيرين : أن يبرز فى سجل أمجاد مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه أنه حاز - فى الباطن - مقام الخلافة الأحمدية البدوية

---

(١) انظر الكتاب التذكارى : محيى الدين بن عربى : الفصل الثانى عشر ، الطريقة الأكبرية . للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص/٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) هو الإمام الجامع سيدى أحمد ضياء الدين بن مصطفى الكمشخانوى النقشبندى المتوفى بتركيا سنة ١٣١١هـ صاحب المؤلفات العظام مثل راموز الأحاديث وجامع الأصول وهو شيخ مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنهما .

أيضا، باعتباره وارث والده الأمجد الذى كان - مع كونه إماما للنقشبندية - متحد الذات مع سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليهما .

ومما أكد لى هذه الحقيقة : أن أحد السالكين النقشبندية المتسلكين على يد والدى العارف بالله تعالى سيدى محمد ابى اليزيد المهدى رضوان الله تعالى عليه : وهو الشيخ عبدالله أمين خفاجى - من كفر أبى داود مركز طنطا - قد حكى لى أثناء حياة مولانا الشيخ عيسى حوالى سنة ١٩٩٤م أنه رأى عقب الاحتفال بالمولد الأحمدى أنه يسير خلف شيخنا الشيخ فى ساحة المولد البدوى المبارك ، فسمع صوتا ينادى ويقول (الشيخ عيسى هو الخليفة الأول لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه) !! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

٦ - ومن الحقائق المؤكدة عند عارفى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه : أنه كان (عيسوى المقام) كحضرة والده مولانا الشيخ جوده رضى الله عنهما ، الذى كان - وهو فى خلوته - ينادى بصوت عال حبيبه الذى شاركه فى هذا المشرب - وهو سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليه - قائلا : (يا عيسوى المقام) ، وقد سمعه حضرة والدى السيد محمد أبو اليزيد رضى الله عنه وهو يردد هذا النداء ، ومن ثم فقد سمى نجله وخليفته (عيسى) وهو متحقق بهذا المقام .

★ وتفسير هذا المقام - بإيجاز - كما وضحه سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره : أن السالك لطريق الله ، العامل بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لابد أن يصادف فى عمله - فيما يفتح له منه فى قلبه وطريقه ويتحقق به - طريقة من طرق نبى من الأنبياء المتقدمين مما تضمنته هذه الشريعة ، فإذا فتح له فى ذلك فإنه مع كونه محمديا ملة وشريعة وطريقة ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة ، فيقال فيه عيسوى أو موسوى أو إبراهيمى ، وذلك لتحقيق ما تميز له من المعارف ، وظهر له من المقام جملة ما هو داخل تحت حيطة شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

---

(١) انظر : الفتوحات المكية لسيدى محيى الدين عربى رضى الله عنه بتحقيق د. عثمان يحيى : ٣/٣٥٦ - ٣٥٨ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ومن ثم يظهر على يد ذلك الولى من الكرامات من جنس ما ظهر على يد ذلك النبى من المعجزات كإحياء الموتى والإنباء بالمغيبات ونحو ذلك .

ولولا إيثار مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه للستر والكتمان لرأينا على يديه - فوق ما ظهر لنا - من الكرامات الكثير والكثير .

★ ومما يظاهر تحقق سيدنا الشيخ عيسى بالمقام العيسوى أيضا ما رواه أحد مريديه وهو الشيخ عطايا .. من المنشية الكبرى أنه قال (كنا بصحبة شيخنا الشيخ عيسى رضى الله عنه ببلدة «إنشاص البصل» فسألته : لماذا سماك سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه «عيسى» ؟ فقال : عيسى بن مريم يا ولد . ثم أمضينا ليلتنا .

وفى الصباح : ذهبنا لزيارة أحد المريدين ، فطرق سيدنا الشيخ عيسى الباب - وكان قرآن الصباح يقرأ فى المذياع - فقال صاحب البيت : من بالباب ؟ وإذا بالقارئ يقرأ : «ذلك عيسى بن مريم قول الحق» !! فنظر سيدى الشيخ عيسى إلىَّ وضحك .

٧ - تحققه بالوراثة المحمدية وتخلقه بالخلق المحمدى . أجل ، لقد حظى هذا الولى بحظ وافر من الوراثة المحمدية فى حاله ومقامه ، فكان متخلقا بمكارم الأخلاق المحمدية ، ومن أخصها : الشفقة على خلق الله ، والنظر إليهم بعين الرحمة ، وما خُيِّرَ بيْنَ أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، وكان معظما للشريعة المحمدية غيورا على حقوق الله تعالى ، بارا بأهله ، رحيما بأبناء قلبه خاصة ، وبالمسلمين عامة .

وهذه واقعة تجسيد رحمته حتى بالعصاة الذين اجترؤوا على حقوقه ، فقد روى صهره الحاج السيد أحمد عفيفى أنه ضُبط لص يسرق حقل الشيخ فى الأرض المخصصة لإقامة مولد والده مولانا الشيخ جوده قدس الله سره ، وقد جمع اللص قدرا كبيرا من (الفول) المزرُوع فى أرض الشيخ وعباه فى (جوال) كبير ، ولما هم بنقله ضبط متلبسا ، وذهب بعض الحضور لإحضار الشيخ لينفذ فيه العقاب عن

طريق رجال الأمن ، لكن الشيخ لما حضر ورأى الرجل فى حاله المؤسف ، سأله : لم تسرق حق غيرك ؟ فتعلل بأنه فقير ولا يجد مالا ، فأطلق الشيخ سراحه ، ولما هم اللص بالانصراف فى دهشة وتعجب قال له الشيخ : خذ ما جمعته من الفول معك وامض به إلى عيالك !!

فذهل الحضور من فعل الشيخ ، وأخذ صهره الحاج السيد أحمد يلوم الشيخ على تسامحه . وفى تلك الليلة : رأى الحاج السيد أحمد مولانا الشيخ عيسى واقفا بثيابه البيضاء على ساحل بحر عظيم ، وسمع قائلا يقول : إن الشيخ عيسى على القدم المحمدى ومتخلق بالخلق المحمدى !!

رضى الله عن ولى الله مولانا الشيخ عيسى وجزاه عن الأمة المحمدية كفاء ما قدمه من عطاء ونفع وإمداد ، وجمعنا وإياه فى الفردوس الأعلى مع الورثة المحمديين .

اللهم آمين

* * *

« ٤٩ »

العارف بالله تعالى
سيدى الشيخ عليوة عطية الحسينى النقشبندى
رضى الله تعالى عنــه

فى حضرة الصدِّيقية يتجلى الحق تعالى باسمه «المؤمن» على خواص من عباده - وهم الصديقون من الأولياء - فيُشْهِدُهم بنور الكرم الإلهى عين ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم عن رب العزة من خلف حجاب الغيب ، وتقع لهم المكاشفات فى حضرة مطلقة ترتفع فيها حجب التقيد بالماضى وبالمستقبل ، ويكون لهم الاطلاع الوجودى الحاضر حيث تطلع ذواتهم من خلف حجب هياكلها بنور عين البصيرة فتبصر حقائق الأشياء ، كما وقع لسيدنا حارثة حيث قال فى جوابه عن حقيقة حق الإيمان « ... وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه» (١) ومرتبة الصديقية عند أكابر العارفين - كالإمام محيى الدين بن عربى قدس الله سره - مستندها من الأسماء الإلهية «المؤمن» ، وأعظم من تحقق بها فى الأمة سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فهو المصدق بالصدق على كماله فأثنى عليه التنزيل فى قوله تعالى ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك المتقون ★ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ . (٢) فالذى جاء بالصدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه ،والبيهقى فى الشعب والبزار فى مسنده . (انظر تخريجه فى كتاب الإعلام بأنِ التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبدالله الصديق الغمارى ص/٣٤ .

(٢) سورة الزمر : ٣٣ - ٣٤ .

صدق به سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه (٣) ، ومن حضرة الصديقية : يصدّق الحق تعالى عباده المؤمنين ، وأثرها فى المخلوقات هو الإيمان ، ومن ثم : كان المؤمنون الصديقون لهم النور التام ؛ لصدقهم ؛ إذ لولا النور لما عاينوا صدق المخبر وصدق الخبر من خلف حجاب هذا الهيكل ، فطوبى لهم ، ثم طوبى لهم وحسن مآب .

من أولئك الصديقين المقربين فى عصرنا : كوكب تألق فى سماء الحضرة الجودية المباركة ، وفرد تفرد بالعلياء فى الحضرة الصديقية المشرفة ، ترجمه أحد خواص أتباعه العارفين بقوله : «نزهة أبصار دائرة الملك ، ومتعة أرواح سراح حضرات الملكوت ، ومجمع مراكز أسرار الجبروت ..» . (٤)

إنه العارف المحمدى الشريف الحسينى العلوى مولانا الشيخ عليوه بن الشريف السيد بن الشريف عطية الحسينى النقشنبدى رضى الله تعالى عنه .

إنه فرع الدوحة المحمدية الحسينية الذى تدلى فى دائرة قطب الغوث فى عصره مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضوان الله تعالى عليه ، فكان امتدادًا لسلسلة الشرف العرقى والتحقيقى فى عصره .

وثيقة نسبه الشريف :-

لقد وقفت بحمد الله تعالى على وثيقة شجرة النسب المتصل من مولانا الشريف عليوة السيد عطية إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، وهى الموجودة بحوزة حفيده السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد عليوة رضى الله عنه المقيم بسنيطة أبى طواله مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية ، وهى مصدرة - فى أعلاها - بشهادة عمدة ومشايخ وأعيان (سنيطة أبى طواله) المحررة بتاريخ : الرابع والعشرين من رجب سنة ١٣٣٠هـ ، ويلى هذه الشهادة : توثيق مطابقتها لما فى كتاب (بحر الأنساب) للنجفى ، الموجود لدى

(٣) انظر تفسير البيضاوى ٢/٢٥٦ ط/ الحلبى .

(٤) الشيخ يس إبراهيم السنهوتى : النفحات الإلهية ص٣ .

الشاهد بصحة المطابقة : السيد محمد منصور من السنطة غربية - والشهادة ممهورة بخاتمه - وقد آثرت إثبات محتوى هذه الوثيقة - على طوله - لما تحويه من درر نفيسة.

★ فأما صلب الوثيقة : فمصدر بديباجة رائعة فى بدء الخليقة الآدمية ، وتنقل النور المحمدى فى أصلابها ، ثم سياق نسب سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ثم بيان أبنائه وبناته صلى الله عليه وسلم ثم نسل سيدنا على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنهما وعنا بهما ، وبيان تفرع هذا النسل حتى السيد (جعفر بن السيد على الهادى) ، وقد أقام السيد (جعفر) بمدينة (همدان) وابنه السيد (على) أعقب السيد (عبدالله) الذى أنجب السيد (أحمد) المشهور بالعباسى الذى أعقب السيد (محمود) الذى أعقب السيد (على) الذى أعقب السيد (حسين) الذى أعقب السيد (جلال الدين) الذى أعقب السيد (محمد) الذى تزوج بفاطمة بنت يعقوب بن الإمام أبى إسحق الشيرازى بن إبراهيم الهمدانى بن إبراهيم القطب - من ذرية مسلم السلمى - وأعقبا السيد (أيوب) الذى أعقب السيد (جمال الدين يوسف الهمدانى) من أئمة رجال الطريقة النقشبندية ، وقد تلقى عنه العلم كل من القطبين السيد أحمد الرفاعى والسيد عبدالقادر الجيلانى رضى الله تعالى عنهما .

وتذكر الوثيقة : أن السيد (يوسف الهمدانى) قد تزوج من السيدة زينب بنت حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه ، وأعقب منها سيدى (سليم أبو مسلم) العراقى ، الذى تزوج بأخت سيدى عبدالقادر الجيلانى وأعقب منها السيد (مسلم) العراقى الكائن ضريحه بالكوم الأخضر بناحية (ميت يزيد غربية) كما تذكر : أن السيد (سليم أبومسلم) قد تزوج بالسيدة (فاطمة) أخت سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ، وذلك حين حضوره إلى مكة المكرمة مع الأربعين العراقية ، وقد ذكر هؤلاء الأربعين بأسمائهم ومراقدهم ، وعدَّ منهم : سيدى إبراهيم اليمانى ، وضريحه بالمحلة الكبرى وسيدى يوسف الخواص

وضريحه بقرية (برما) بالغربية ، وسيدى (خضر أبو نجاح) وضريحه بقرية (أبونجاح) مركز منيا القمح شرقية - وهو جد الفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب -

ثم ذكر طرفا نفيسا من مناقب وأقوال سيدى سليم أبو مسلم رضى الله تعالى عنه ومنها أنه حضر وفاة سيدى على البدرى والد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه بمكة ، وتزوج ابنته السيدة فاطمة رضى الله عنهم أجمعين .

ثم ذكرت الوثيقة أن سيدى (سليم أبو مسلم) قد توفى سنة ٦٥٧هـ أو سنة ٦٥٨هـ ودفن بجزيرة بقرة بنى إسرائيل رضى الله تعالى عنه .

★ أما سيدى (مسلم العراقى) - وهو الذى أقام بميت يزيد غربية : وله من الذرية : السيد (حسن) الكائن ضريحه بجوار قبلة الدعاء بقرافة الإمام الشافعى رضى الله عنه بمصر وكذلك : السيد (مسلم الأكبر) وضريحه بمشتهر بالقليوبية ، وكذا سيدى (مسلم الأوسط) وضريحه بالقباب الصفراء ، ثم سيدى (مسلم الأصغر) وضريحه بزاويته بناحية (زمران الكوم) بالبحيرة ، وسيدى (سالم أبو مريم) وضريحه بزاويته بالحاجر بناحية (حوش عيسى) بالبحيرة ، وسيدى (محمد أبو مسلم) وضريحه بناحية (جناج) بالغربية . وسيدى (سليمان أبو مسلم) وضريحه بناحية (صفط تراب) بالغربية ، وسيد (على العراقى) وضريحه بالسنطة غربية .

وقد توفى سيدى (مسلم العراقى) رضى الله عنه سنة ٦٩٤هـ ودفن بالكوم الأخضر شرقى (ميت يزيد) بالغربية .

★ وأما سيدى (عبدالله بن سيدى سليم العراقى) : فإن له من الذرية : سيدى (عبيد) وضريحه بالعصلوجى بالشرقية . وسيدى (محمد) ، وسيدى (سعيد) وضريحه بالميمونة بالشرقية ، وسيدى (على بهدر) وضريحه بالشوبك بجوار مدينة (بسطة) .

وقد أقام سيدى (عبدالله) بميت زافر ، وأقام معه ولده (محمد) وتوفى ودفن بها سنة ٦٩٥هـ ولهم ذرية مذكورة فى بحر الأنساب .

★وأما سيدى يوسف الهمدانى بن سيدى سليم العراقى رضى الله عنه : فقد أعقب ذرية ورد ذكر أسمائهم (عشرة) فى الوثيقة وقد توفى سنة ٧٢٣هـ .

★وأما سيدى (علوان بن سيدى سليم أبو مسلم العراقى رضى الله تعالى عنه: فقد أعقب السيد (عمر) الكائن ضريحه بعمريط ، والسيد (جمال الدين) الكائن ضريحه ببنى عامر ، والسيد (محمد) ، والسيد (على) . وقد توفى سيدى (علوان) ودفن بمقام والده ، أما السيد (محمد) والسيد (على) فإنهم أقاموا بناحية (طيماى البوطة) بالشام .

وقد أعقب السيد (محمد) : السيد (مسلم) ، والسيد (سليم) .

★فأمَّا السيد (مسلم) : فقد أعقب السيد (سلام) وضريحُهُ بغزَّة بالشام .

★وأما السيد (سلام) : فقد أعقب السيد (سليم) والسيد (مسلم) وتوفى ودفن بغزة .

★ وأما السيد (سليم) فقد أعقب السيد (مسلم) والسيد (على) ولهم ذرية بالشام .

★ وأما السيد (عمر) : فإنه أقام بعمريط وأعقب السيد (بُكَيْرَة) وضريحه بأرض عمريط بالشرقية ،والسيد (سلامة) الكائن ضريحه بأرض عمريط ، والسيد (عبيد) وضريحه ببنى عامر بالشرقية ،والسيد (أحمد) والسيد (حسن) والسيد (محمد الصامت) وضريحه ببحطيط ، والسيد (جمال الدين) .

★وأما السيد (جمال الدين) والسيد (عبيد) والسيد (أحمد) فأضرحتهم ببنى عامر . وقد أعقب السيد (جمالد الدين) السيد (محمد) الذى أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (على أبو جمامة) الكائن صريحه ببنى عامر . وهو الذى أعقب كلا من السيد (قاسم) ، والسيد (على) ، والسيد (زين الدين) وضريحه ببنى عامر .

★ فأما السيد (قاسم) فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (على) وتوفى ودفن ببنى عامر ، ولابنيه ذرية بكفر المسلمية بأرض بنى عامر .

★ وأما السيد (محمد الصامت) فقد أعقب كلا من السيد (زين الدين قاسم) والسيد (احمد) والسيد (شعبان) وتوفى ودفن ببحطيط .

★ وأما السيد (زين الدين قاسم) فقد أعقب كلا من سيدى (محمد خضر) الكائن ضريحه بغزالة الخيس بالشرقية ، والسيد (تاج الدين) ، والسيد (على الدين) الكائن ضريحه بخلوته بناحية (سنيطة أبوطواله) بولاية الشرقية ، والسيد (جلال الدين) والسيد (محيى الدين) ، والسيد (أبوبكر) ، والسيد (عبده) وقد توفى زين الدين قاسم ودفن بأرض (بنى عامر) .

★ وأما السيد (على الدين) فقد أعقب كلا من : سيدى (سعد) وضريحه بأرض أولاد سيف بولاية الشرقية ، وسيدى (محمد ميدان) بالسنيطة بالشرقية .

★ ثم إن السيد (سعد) قد أعقب السيد (محمد) وتوفى ودفن بأرض أولاد سيف .

★ ثم إن السيد(محمد ميدان) بن سيدى (على الدين) قد أعقب السيد (حسن) ، وتوفى ودفن (بسنيطة عوض) .

★ وأما السيد (حسن) فقد أعقب كلا من : السيد (إبراهيم) والسيد (عبدالله) ، والسيد (سليم) وتوفى ودفن مع والده .

★ وأما السيد (سليم) فقد أعقب كلا من السيد (أحمد) والسيد (على) وتوفى ودفن مع والده .

★ ثم إن السيد (أحمد) قد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (صالح) والسيد (سليم) والسيد (سليمان) وتوفى ودفن مع والده .

★ وأما السيد (على) بن السيد (سليم) المذكور آنفا : فإنه أقام بسنيطة أبى طواله وكان معه بعض من العربان أقاموا معه مدة من الزمان ، ثم إنهم أقاموا بالتلّين .

★ ثم إن السيد (على بن السيد سليم) الذى أقام بسنيطة أبى طواله فقد أعقب كلا من السيد (أحمد) والسيد (محمد) وتوفى ودفن بجبانة (أبى طوالة) .

★ ثم إن السيد (أحمد بن السيد على بن السيد سليم) قد أعقب السيد (عطية) وهذا غاية التعقيب الموجود فى (بحر الأنساب) . ثم تقول وثيقة النسب العليوى :

★ وأما السيد (عطية) فقد أعقب السيد (محمد) ، وتوفى السيد (عطية) ودفن بجوار مقام سيدى (عبدالله أبى طواله) .

★ وأما السيد (محمد) بن السيد (عطية) فقد أعقب كلا من : السيد (عطية) والسيد (محمد) والسيد (السيد) والسيد (إسماعيل) ثم توفى السيد محمد ودفن بجوار سيد عبدالله أبى طواله .

★ وأما السيد (محمد) بن السيد (عطية) فقد أعقب كلا من : السيد (عطية) والسيد (محمد) والسيد (السيد) والسيد (إسماعيل) ثم توفى السيد محمد ودفن بجوار سيدى عبدالله أبى طواله .

★ وأما السيد (السيد) فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (عليوة) - شيخنا المترجم له رضى الله تعالى عنه - والسيد (أحمد) ، ثم استشهد السيد (السيد) فى حرب أحمد عرابى برأس الوادى فى (التل الكبير) بالشرقية.

★ وأما السيد (عليوة) - المترجم له -: فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (جوده) - على اسم شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره - والسيد (محمود) والسيد (حامد) والسيد أحمد.

وهنا ينتهى بيان الوثيقة الشريفة لنسب مولانا الشيخ عليوه عطية الحسينى رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

وقد نظم العارف بالله تعالى الشيخ يس إبراهيم حليحل السنهوتى رضى الله عنه نسب مولانا الشيخ عليوة السيد عطية رضوان الله عليه فى منظومته الرائعة المثبتة فى رسالته الغراء (النفحات الإلهية: توسلات بآل البيت ورجال السلسلة النقشبندية ، فرع مولانا الحاج عليوة السيد عطية) فقال فيها بعد المقدمة الشعرية:-

فمبدؤها الهادى المنير محمد ... أجلُّ الورى قدرا وفخرا وموطنا
فلولاه ماكنا ولا كان كوكب ... ولولاه لم نعرف بحق إلهنا ..
سألناك يا ألله خير مؤمل ... بفاطمة الزهرا بفضلك جد لنا
حبيبته الأولى وبضعة نوره ... وقُرَّته بعد الإله ولا عنا
بسيد شبان الجنان بأسرها ... وخير شهيد فى سبيلك ما ونا
حسين حبيب الله وابن حبيبه ... وصفوة شمس الحسن هبنا مرادنا
كذاك بزين العابدين وفخرهم ... وفرع الأصول الطاهرات أمدنا
نزيه السجايا أكرم الناس باسم ... تخال الثنايا من بشاشته سنا
وبالباقر الفخر النزيه محمد ... غياث الورى عند الشدائد نجنا
جميل المحيا محسن الفعل باذل ... كريم العطايا للبرية هننا
وبالصادق العزم المهند جعفر ... ووارث سر الغار جهرا وباطنا
عميد البرايا فى هداية ربهم ... وقطب الولا حقق رجانا وقونا
وهبنا بموسى الكاظم الغيظ قدوة ... على النفس عند المؤلمات ونقنا
فضائله كالشمس تسطع بالضحى ... ويقصده الباكى فيضحك معلنا
بحق على الملقب بالرضا ... تكرَّمْ علينا يا إلهى ورضنا
هو البحر علما والسحائب منحة ... فأكرم به أصلا وفرعا وموطنا
بعبد الجواد بن الكرام محمد ... ملاذ لمن ضاقت به الأرض فاحمنا
بسرٍّ على الهادى الغياث وجعفر ... وحق على جد بفضلك واهدنا
ثلاثة أقمار تكامل نورهم ... أزاحوا عن الدنيا المشقة والعنا
وبالقطب عبدالله نوِّر بصيرتى ... بأحمد بلغنا المحامد والمنا
وبسرٍّ محمود سبيل رشادنا ... كذا بعلى ذى الجلال أجلَّنا
بحق جلال الدين فخر زمانه ... حسين لدى البأسا يقول لها أنا
وبالكامل القطب الكبير محمد ... بأيوب يسمى يا إلهى أعزنا
بسرٍّ جمال الدين جمِّل خصالنا ... ويسِّرْ لنا من فضل جودك سؤلنا
وعطف علينا يا إلهى بيوسف ... نتيجة همدان بفضلك أغننا

كـذا بسليم من تعـالت فـروعـه — بسـرك يا رحـمن سلمْ قلوبنا
وأعل بعلوانٍ عن النقص عـزمنا — ومن عُـمَـرٍ عَـمِّـرْ حشـانا وسـرنا
وبالصـامت الشـهم الرفـيع محـمـد — عن اللهـو بالأغـيـار يارب كـفنا
وزيِّـن بزيـن الـديـن لبـى وظاهـرى — ومنَّ علينا بالحـمـايـة وارعنا
وبالصـالح القطب السنيطى أعـزنا — فـإن علـى الدين يرفع من دنا
وأكـرم بميـدان مـحـمـد خاضـعـا — حسيبـا على الأسياد بالحب أعلنا
وحـسِّنْ نوايانا بسـيـدنا حـسـن — كـذا بسليم صـدَّ عنا همـومنا
بحق علـى يا إلـهى وأحـمـد — بفـضلك يا الله كـبِّـرْ شئـوننا
وبالبطل القطب الشـهـيـر وأحـمـد — تحـنـن علـينـا يا إلـهـى وهـنـنـا
بعبـدك ذى القـدر الرفـيع محـمـد — وبالسـيـد العـالى المقـام أعـزنا
وبالـبطل الفـردالنزيه عليـوة — سـألنـاك يا الله هبنا مـرادنا
هو الغـوث تلقـاه لكل ملمـة — رءوف رحـيم لا يقـدِّر بالدنا
لدى الناس مشـهـور بزهد وعـفـة — وقـد نال عند الله قـدرا ومـأمنا
به فـتـمـسك يا خليلى ولا تخف — وحـسـبك فـخـرا أن تنال به المنا
فـيـارب أكـرمنا به وشـقـيـقـه — محـمـد المشـهـور بالقنع والغنا
بشـقـيـقـه الثـانى المكرَّم أحـمـد — من اللطف والإحسان عمم وخصنا
وهذا تمـام العـقـد يا قـاصـد العـلا — فقم سحـرًا وانشـده تدرك ميـامنا
وصل وسلم يا إلـهى مـدى المـدى — على المصطفى الهادى الشفيع نبينا
كـذا الآل والأصـحـاب ثم من اهتـدى — ومن فـضلك امنحنا وبالخـيـر أغننا

★ ★ ★

مولده وموطنه ونشأته الصوفية المباركة

لقد ولد هذا الإمام الشريف العارف بربه : فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائتين بعد الألف هجرية (١٢٨٧هـ) الموافقة لسنة (١٨٧٠ ميلادية) فكان رضوان الله عليه وارثا محمديا حتى فى تاريخ مولده وفى عمره

المبارك أيضا حيث إنه عاش ثلاثة وستين عاما حيث كانت وفاته قدس الله سره فى ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف هجرية حسبما أفادنى بذلك حفيده الأستاذ محمد جوده عليوة المحامى ، وكذا الشيخ صلاح النقشبندى من بلدة (التلين) شرقية .

ولقد نشأ الولى الشريف سيدى عليوة عطية رضوان الله عليه فى بيت الولاية الهاشمية فى أسرته المسلمية بسنيطة أبى طوالة بالشرقية نشأة أهل النور فى مدارج المعالى الاصطفائية فى أحضان أب يجرى الدم المحمدى فى عروقه وهو الشريف (السيد) وأم كريمة الأرومة والحسب واسمها (السيدة) أيضا ، فتواصلت سيادة الأبوين لتنجب سيدا سما به علو النسب إلى المحتد العلوى فسمى (عليوة) !!

ولقد كانت نشأة هذا الولى فى رحاب علم من أجلاء أعلام الإسلام وهو الإمام قاضى المدينة المنورة سيدى عبدالله بن عبدالرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى النَّجارى المدنى التابعى - أحد الأئمة الأثبات - [1] المتوفى بعد الثلاثين ومائة فى آخر عهد بنى أمية ، وهوالمشهور بسيدى عبدالله أبى طوالة الذى سميت باسمه بلدة (أبو طوالة) - التى تتاخمها وتنسب إليها (سنيطة أبو طوالة) موطن سيدى عليوة رضى الله عنه - وهذه القرية قد أقيمت على أطلال بلدة قديمة كانت تسمى «دمشتير» وكانت من كفور «التلِّين» بولاية الشرقية ، وتقع بالقرب منها قرية (القبة) التى وردت فى (تحفة الإرشاد) باسم (قبة دمشتير) . وقد ذكر صاحب (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) أنه بسبب خراب قرية (دمشتير) أضيف زمامها إلى ناحية (الصفرا) وهى قرية قديمة تعرف اليوم باسم (سنيطة أبو طوالة).[2]

(١) ترجم له الحافظ شمس الدين الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢٥١/٥ نشر مؤسسة الرسالة تحت عنوان (أبوطوالة) وذكر أنه حدث عن سيدنا أنس بن مالك وعامر بن سعد ، وحدث عنه الإمام مالك بن أنس وفليح وسليمان بن بلال ، وله ترجمة فى تهذيب الكمال : ٧٠٤ وتذهيب التهذيب (٢/١٦٤/٢) وتاريخ الإسلام ٢٦٧/٥ وتهذيب التهذيب ٢٦٧/٥ وخلاصة تهذيب الكمال ٢٠٤ وصنف فى ترجمته الأستاذ محمد على الطوخى ناظر مدرسة أبى طواله كتيبا بعنوان (سيرة الأمير أبو طواله قاضى المدينة) .

(٢) انظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية للأستاذ محمد رمزى ص١٣٦ .

على هـذه الربوع وفى تلك الرحـاب المـتـوهجـة بنور هذا الإمـام العـالم الولى (سيدى عبدالله أبو طوالة) رضـى الله عنه نشأ مـولانا الحـاج عليوة فى جو الولاية ، وفى أسـرة عـريقـة فى الشـرف والفـضل والمكانة الاجتـمـاعـيـة . فـقـد كـان عـمـدة (السنيطة) المعـاصر لسيدى الحاج عليوة هو ابن عمه السيـد/ محمد محمد عطية، ثم تسلسلت العـمـدية فى الأسـرة وكان شـقيقه الأكبـر السـيد أحـمـد من أهل الكشف الخـارق ، حيث حدثنى السيـد/ عـبـدالمعـبـود ابن شـقـيـقـة سـيدى عليـوة - السـيدة حميـدة - بأن السيـد أحمد شـقيق سيدى عليوة قد أمسك يوما بحـديدة سكين كانت فى بيته ثم توجه بالخطـاب إلى أمه فسـألهـا : مـا هذه يا أمـاه؟ فقـالت له : حـديدة ، فقال لها على وجه المكاشفة بما سيجد من مخترعات : يا أماه ، عما قريب ستطير هذه الحـديدة فى جو السـمـاء ، وعـمـا قـريب ستـتكلم هذه الحـديدة ، وعـمـا قـريب سيكون منها كذا وكذا من الصناعات - وهذا الحديث كان فى أواسط القـرن التاسع عشـر قبل ظهور الطائرات والراديو وما إلى ذلك !!

★ وقـد كـان جل أفراد أسـرة مـولانا السـيـد (عليوة) مـن حـملة القـرآن الكريم حتى النساء ، فقـد كـانت السيدة (حافظة) بنت شقيقـة السيـد (محمـد) الذى أثبتنا طرفـا من مكاشـفاته آنفـا - كانت تحفـظ القرآن كله عن ظهـر قلب بأحكام التجـويد ، وكانت على جانب من التفقـه فى الدين والإلمام بسيرة الأجـداد الأشـراف إلـى درجة منقطعة النظير !!

★ ولقـد كـان من أبرز أقـران مـولانا الحـاج عليـوة لدى نشـأته المـبـاركة الشـيـخ مـحـمـد أبو حجـازى من بلدة (بهنية) مركـز (ديرب نجم شـرقـيـة) وقـد كـان هـذا الـرجـل لشـدة اتصـاله بمـولانا السـيـد عليوة يعـد بمـثـابة توأم له وكـان من أقـرانـه فى تاريخ المـولد ومـلاصـقـا له فى النشـأة والسلوك ، وكان يعـد آية مـن آيات الله تعـالى ؛ إذ يذكر عارفوه أنه لم يشرب قط إلا من ماء النيل ، وأنه لم يذهب إلى طبيب قط !!

★ وقـد ذكـر الشـيخ يس إبراهيـم السنهـوتى رضـى الله عنه : أن مـولانا الـشـيخ عليوة قد سلك فى شبابه المبكر طريقة الخلوتية لكنه لم يعين له شيخا فيها ، وربما

كانت هى طريقة المسلمية الخلوتية التى سلكها آباؤه وأجداده الكرام ، لكن العناية الإلهية كانت تدخره وتدخر له سلوك الطريقة النقشبندية على يد إمام العصر وغوث الدهر وزير حضرة النبى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى الدارين ، آمين .

سلوكه على يد مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره :-

يروى صاحب (الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية) أن مولانا السيد عليوة السيد عطية رضوان الله عليه كان متتلمذا لبعض الأشياخ أول أمره وسلك طرقا كثيرة كالخلوتية فى عهده ، وصاحبه مدة من السنين ، وأعطاه الإجازة، وأذن له بتلقين المريدين غير أن أمه رأت ليلة من الليالى - وكانت صالحة عابدة زاهدة تقية - أن الملك أخذ ابنها مولانا وسيدنا السيد عليوة عطية ، وحصل لها من ذلك خوف وشك ، ولم تعلم عند ذلك من هو الملك ؟

فلما كان النهار حصل لولدها الأكرم حب يشفعه نار وشوق أليم ووجد عظيم لحضرة ذى العلم والسلطان فضيلة مولانا الشيخ جوده قطب الدهر وغوث الزمان !!

وفى الحال : حضرعنده ، وتلقى عنه النسبة الشريفة ، وحقر ما كان فى دهره حصل له ؛ لما رأى من رفعة مولانا الشيخ - رضى الله عنه - وعلو همته - ومازال إلى وقتنا هذا فى صحبته - وانتفع به أتم انتفاع . وكان ببركته رضى الله عنه أكمل الأتباع) . (١)

لقد انخرط مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه فى سلك الملك ، أى ملك الولاية فى عصره مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه الذى كانت له رئاسة الأولياء فى عصره ، وكان سيدنا الحاج عليوة هو مطلوب الحضرة الجودية ، بدلالة أن والدته الكريمة رضى الله تعالى عنها رأت فى منامها قبل التقائه بشيخه الأكبر أن

---

(١) الشيخ يس إبراهيم السنهوتى : الأنوار القدسية ص/٢٧٠ .

الملك يستدعى ابنها المبارك للديوان الملكى الباطنى . إنها إشارات أهل الحقيقة!!

وبمجرد مثول مولانا الشيخ عليوة فى الحضرة الجودية كان الميلاد الروحى الحقيقى ، وكان سريان سرِّ السلسلة النقشبندية المباركة ، بل وأصول إحدى وأربعين طريقة صوفية إلى قلب مولانا الشيخ عليوة فسلك الطريق إلى الله عز وجل بنظرة شيخه الأمثل وزير حضرة النبى صلى الله عليه وسلم الذى أولاه أتم عناية وأعده للخلافة مع حضرة نجله مولانا الشيخ عيسى عليهما الرضوان .

ولقد شهد سيدى عليوة من مولانا الشيخ جوده قدس الله سره عجائب الفتوحات وبدائع الكرامات الدالة على كمال عنايته به .

فمن ذلك : مارواه صاحب (الأنوار القدسية) قائلا :- (ومنها : أن حضرة مولانا السيد عليوة كان راكبا قطارا مع الشيخ سيد البل ، وتركا متاعهما به ، وذهب القطار به وسار مدة كبيرة فى وجهته ، وبعد أن ذكرا متاعهما توسلا بفضيلة مولانا الشيخ جوده فردَّ الله القطار إلى المحطة ببركته عليهما) . (٢)

ومن ذلك ما ذكره الشيخ يس أيضا فى كتابه المذكور بقوله : (ومنها - أى الكرامات الجودية - ما حدثنا به مولانا السيد عليوة المتقدم ذكره : أنه مرض مرضا أعيا الأطباء أمره ، ففى ليلة من الليالى : أتاه فضيلة الشيخ فى المنام ، ودهنه بدهن مخصوص وبشره بالشفاء التام ، فبرئ صبيحة ذلك اليوم من مرضه ببركة فضيلة مولانا الشيخ..) . (٣)

ثم من ذلك أيضا ما ذكره (صاحب الأنوار القدسية) فى سياق ذكر الكرامات الجودية، حيث قال : (ومن كراماته - أطال الله عمره (٤) ونفعنا به : ما ذكره صاحب

---

(٢) المصدر السابق ص/١٧١ .

(٣) المصدر السابق ص/١٧٠ .

(٤) هذه العبارة تدل على أن الشيخ يس السنهوتى قد صنف كتاب (الأنوار القدسية) فى حياة شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره ، وذلك سنة ١٣٤٤هـ قبل انتقال مولانا الشيخ جوده بعامين كما هو مؤرخ بنهاية الكتاب .

الأخـلاق الزكيـة مـولانا الأكـرم السـيد عليوة بن السـيد بن عـطية - أكبـر خلفـائه وخـلاصـة خاصـة أصـحـابه بعـد فـضيلة نجله - قال : بينمـا كنت ذات ليلة فى لذة المنـام ، غـيـر دارٍ بنـوايا الأيام إذ جـاء قـرة عـينى وسـيـدى ومـولاى الشـيـخ جـوده ، وأيقظنـى من مـرقـدى وقـال : - إن جـمـاعـة من اللصـوص جاءوا لسـرقـة بيتـكم على الخصـوص ، وهـم الآن داخلون من النافذة وعلى الجدار ، فقم يا بنى وانتبه لحـراسة الدار .

فـقـمت مسـرعـا لأمـره ، فـإذا هم به كإخبـاره ، فلمـا رأونى فـروا ، وكلهم خـابوا وخسـروا ، وأصابهم جميعا الردى وما أحد منهم نجا !!) . (١)

إنهـا الـرعـاية الكـاملة - ظاهـرا وبـاطنـا - من الشـيخ الكامل لأحب أبنـاء قلبـه إليه، تحوطه فـى جميع تقلباته وأحواله الدنيوية والأخروية .

★ ولقد كان مولانا الشيخ عليوة رضوان الله عليه معظما لحضرة شيخه الذى مـلأ عليه أقطار نفسـه وشغل قلبه فلم يترك لغيره من الخلق بقية !!

فـمـا أن التحق بخـدمـه شيـخه حتى لازمـه مـلازمـة كـاملة ، وترك بلده وأرضـه ليتـولاها أفـراد أسـرته وأقـام بالسـاحـة الجودية ليل نهـار ، فلم يكن يعـود لأهله وبلده إلا فـى نهاية الأسبوع بعد عصـر الجمعة .

واعـتـراه الوله والإخبـات والـوحشـة من الخلق والإنس بالحق جل وعـلا . فلم يعـد فيه فـراغ لمجالسـة أهل الدنيا ، حتى إنه كان يغادر بلدته (السنيطة) ليلا أو قبل شـروق الشـمس ويدخلها كذلك فـى غبشـة الظلام . ومن طريق خلفى غـيـر الطريق المعهود !!

وكان لا يـركب سيارة من بلده إلى حضرة شيخه بمنيا القمح ، وإنمـا كان يسير إليه على قدميه تبـجـيلا وتعظيـمـا ، بل وتقـول بعض الروايات إنه كان يمـشى إليه حافى القدمين !

---

(١) انظر الأنوار القدسية ص/٢٦٩ .

★وخلال المرحلة السلوكية لمولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه كان بادى التقشف ، شديد الزهد فى الدنيا ، وظل كذلك إلى آخر عهده بالدنيا .

لقد هجر الكرى فلم يعرف النوم سبيلا إلى عينيه إلا دقائق معدودة فى اليوم والليلة وفى ثورة جهاده النفسى قام بشق السرير الذى كان ينام عليه بالمنشار وآثر أن يكون هجوعه اليسير منطرحا على الأرض حتى لا يستلذ لين الفراش ، وطوى (المرتبة) نهائيا !! وحتى مرضه الأخير تحايل نجله الشيخ جوده وصنع له (كنبة) من الخشب فلم ينم عليها إلى فى مرض الاحتضار (١) !!

وكذلك طرح ملابسه الصوفية الرائقة وآثر جلبابا من (الدمور) ، وذات يوم جاءه نجله الشيخ جوده بملابسه الصوفية القيمة فرفضها وقصد التصدق بها مؤثرا خشن الثياب ، ولما حزن نجله لذلك رأى فى منامه من يقول له (إن والدك حين كان يلبس الصوف والثياب الفاخرة لم يكن يعرفه أحد ، ولكنه لما لبس (الدمور) صارت العلماء والعظماء يقبلون يده !!) .

لقد ارتقى مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه إلى أوج التحقق والعرفان ، وصار بتوجه حضرة شيخه مولانا الشيخ جوده قدس الله سره إليه وإغداق مدده عليه : أكسيرا ربانيا محضا ، عارفا بالله تبارك وتعالى ، مرتقيا بهمة قلبه إلى حضرة القدس ، وصار مستغرق الروح فى الذات المحمدية ، فكان رجلا كاملا فى الطريق إلى الله تعالى .

★ومن الإشارات الجودية التى تدل على مكانته فى الطريق وعند حضرة شيخه العظيم رضوان الله عليه : ما حدثنى به والدى العارف بالله تعالى سيدى محمد أبى يزيد المهدى رضى الله تعالى عنه : أن سيدنا الشيخ جوده قدس الله سره كان خارجا من خلوته يوما - وقد أضناه العشق الإلهى وأنحل جسمه - فتسابق العلماء والشيوخ المريدون بساحته لأخذ يد شيخهم والتشرف بصحبته فى مشيته ،

---

(١) عن لسان حفيده الأستاذ محمد جوده عليوه المحامى فى مساء الخميس الموافق ١٩٩٧/١١/٦ .

لكنه آثر مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه قائلا : (أتوكأ على الشيخ عليوة) !! ونعمت الإشارة بدلالتها العظمى على أن مولانا الشيخ عليوة صار ركنا فى الطريق إلى الله تعالى يعتمد عليه شيخه الجليل !!

★ ولقد ابتنى سيدنا الشيخ عليوة رضوان الله عليه خلوة فى بيته بالسنيطة واستمرت عامين قبل انتقاله رضى الله تعالى عنه بنحو خمس عشرة سنة . (١)

وفى شأن هذه الخلوة العليوية : يقول صاحب (الأنوار القدسية) :-

(ومنها : ما حكاه لنا حضرة مولانا وسيدنا وسندنا السيد عليوة السيد؛ قال رضى الله عنه : والخلوة عندى بالسنيطة ببيتنا ، وكان فضيلة مولانا الشيخ جوده يرسل من يرى فيه الأهلية لدخولها إلينا ، لاعتقاده بنا).

وكذلك أمرنى - جزاه الله أحسن الجزاء - وقال : «يا شيخ عليوة ، أدخل الخلوة ممن ترى فيه الأهلية من تشاء» !!

قال سيدى عليوة : سألنى من بالخلوة أن أوصى الشيخ عليهم ، وأن أساله لهم الدعاء والنظر إليهم .

فلما حضرت عنده ، لم أقل له - سهوا لا عمدا - فقال حضرته رضى الله عنه :- «سبحان الله ، أنا لا أغفل عن أهل الخلوة أبدا» (٢) !!

لقد كان مولانا الشيخ عليوة مربيا فى حياة شيخه مولانا الشيخ جوده وفى حضرته بإذنه رضى الله تعالى عنه ، لأنه صار من كمل الرجال ونظير سيدى عبدالعال من حضرة سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنهما وعنا بهما فى الدارين ، ولا يخفى أن وارث القطب قطب كما أن وارث الفرد من الأفراد ، أما مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه فهو خارج عن التنظير والقياس والمفاضلة

---

(١) أخبرنى بذلك الشيخ عبدالمعبود محمد عطية (ابن شقيقة مولانا السيد عليوة عطية) وذلك بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجودى الشريف بمنيا القمح فى رجب ١٤١٨ الموافق ١٩٩٧/١١/٧ .

(٢) انظر : الانوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ يس السنهوتى ص/٢٧٢ .

لأنه قطعة من سيدنا الشيخ جوده وهو منه بمنزلة شخصه ، رضى الله عنه وأرضاه فليفطن أهل النظر السليم .

طرف من كرامات مولانا الشيخ عليوة قدس الله سره :-

للكرامات دلالاتها على تحقق الولى ومدى ارتقائه فى معراج الولاية ، ولكنها عند كبار الأولياء من طراز سيدى الشيخ عليوة ليست مطمح هممهم العلية ، لأنهم أهل الصدق مع الله تعالى ومقصدهم هو الله وحده ، كما هو شعار السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية «إلهى أنت مقصودى ورضاك مطلوبى».

ومع ذلك : فقد ظهرت كرامات عديدة على يد مولانا الشيخ عليوة رضى الله تعالى عنه رغم شدة حرصه على الخفاء والتستر ، وفيها أيما دلالة على شموخ هذا الولى ، وسنجتزئ بذكر عشر كرامات منها على سبيل التبرك :-

فالكرامة الأولى :- وهى ذروة المعالى - هى رؤيته واجتماعه فى اليقظة بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح بهذه المنقبة العظيمة صفيه وتابعه الشيخ يسن إبراهيم السنهوتى مصنف تكملة «الأنوار القدسية» والعالم الأديب الشاعر ؛ حيث قال فى نهاية رسالته «النفحات الإلهية : توسلات بآل البيت ورجال السلسلة النقشبندية» ما نصه :-

(يكفى مولانا الحاج عليوة فخرا أنه بضعة محمدية ، ورؤيته للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة كلما أحب) .(١)

والكرامة الثانية : ما ذكره لى فضيلة والدى سيدى محمد أبو اليزيد المهدى رضوان الله عليه من أن مولانا الحاج عليوة عليه رضوان الله تعالى كان إذا شرع فى التسبيح يسبِّحُ معه حصى المسجد بصوت مسموع .

أقول وهذه الكرامة من جنس تسبيح الحصى فى كف حضرة مولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن جنس تأويب الجبال مع سيدنا داود على

---

(١) انظر النفحات الإلهية توسلات بآل البيت ورجال السلسلة النقشبندية ص/١٠ .

نبينا وعليه الصلاة والسلام كما قص علينا القرآن العظيم فى قوله تعالى (يا جبال أوبى معه) .(١)

والكرامة الثالثة : أنه كان لشدة استغراقه فى ذكر الله تعالى يسبّح الله وهو نائم ؛ حيث روى حفيده الأستاذ محمد جوده عليوه عن والده أنه فى المرض الأخير لسيدنا الحاج عليوة وبينما كان نائما على (كنبة) ومستغرقا فى نومه رأى إصبعه الكبير يتحرك بالتسبيح ، فلما استيقظ تحقق منه أنه كان يسبح الله تعالى وأمره بكتمان ما وقف عليه فكتمه ولم يظهره إلا بعد وفاته .

والكرامة الرابعة : مكاشفته بولادة حفيده الأستاذ محمد جوده ، حيث ولد قبل انتقال جده مولانا الشيخ عليوة بنحو ثلاث سنين ، وكان سيدى عليوه فى هذه الحقبة ملازمًا لساحة شيخه مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه طوال الأسبوع ولا يعود إلى بلده إلا فى نهاية الأسبوع عصر الجمعة - كما أسلفنا - بيد أنه قطع هذه العادة وفاجأ الأسرة بحضوره وسط الأسبوع فى اليوم الذى ولد فيه حفيده . أ (محمد جوده) لحضور يوم مولده الذى عرفه بنور الله بطريق المكاشفة ، فحضر وسماه محمدا .

والكرامة الخامسة : أنه كاشف الأسرة بأن حفيده محمدا هذا سيكون فى مستقبل الأيام محاميا ، إذ توسم فيه ذلك وكان يقبله لدى طفولته فى فمه ولسانه كما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل مع سيدتنا فاطمة الزهراء وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضى الله عنهم أجمعين ، فكانت الإشارة فى ذلك: أن الله تعالى سيمنحه قول الحق وأداء أمانة الكلمة .

والكرامة السادسة : وهى من قبيل المكاشفات أيضا : ما حكاه نجله الشيخ جوده عليوة أنه فى عنفوان شبابه قد أغراه البعض بزراعة التبغ (الدخان) فى حقله بين شجيرات القطن فى الخفاء دون أن يعرف أحد ففعل ذلك ، وإذا بمولانا الشيخ عليوه يكاشف بما حدث ويأتى من منيا القمح على غير عادته ويركب الدابة إلى

---

(١) سورة سبأ /١٠ .

الحقل ، ويعمد إلى المكان الخفى الذى زرعت فيه تلك الشجيرات الملعونة وأخذ يعنّفُ ابنه على زراعتها وأمره باقتلاعها فورا لتطهر الأرض من دنس الدخان . وهذه شيم أهل الصفاء والنقاء والتزكية !!

والكرامة السابعة : أن صديق عمره الشيخ محمد أبو حجازى رضى الله عنه- وهو الذى لم يكد يفارقه يومًا ما - فاجأه المرض يوما - وهو المعروف بأنه لم يذهب إلى طبيب قط - فزاره مولانا الشيخ عليوه رضى الله عنه وناوله إناء فيه مشروب عادى غير الدواء فتناوله من يده وشربه فقام من مرضه كأن لم يكن به مرض على الإطلاق ببركة الشيخ !!

والكرامة الثامنة : أنه كان بصحبة الحاج سيد عزام من بنى قريش (شرقية) فى زيارة لأحد معارفه فى إحدى البلاد المجاورة ، ولكنه عندما التقى مع ذلك الرجل المضيف أحَسَّ بثقل روحه وبعدم تآلف الأرواح ، فخرج الجميع إلى زمام القرية ومشوا بجوار مصرف للمياه (رشاح) فتظاهر سيدنا الحاج عليوة بأنه يريد قضاء حاجة على ضفة ذلك المصرف مستترا وقصد ذلك المكان القصى بعيدا عن الأعين ، وطال انتظار الرفقة فذهبوا إليه وفتشوا كل ناحية حول المصرف فلم يجدوه ، لقد اختفى تماما ، ولما عادت الرفقة إلى بلدة (السنيطة) وجدوه فى البلدة، وعرفوا أنه وجد بالبلدة منذ اختفى عن أعينهم فأيقنوا أنه كان من أهل الخطوة ممن تطوى لهم الأرض بإذن الله تعالى على سبيل الكرامة !!

والكرامة التاسعة :- وهى من الوقائع التى حدثت لى شخصيا - أنه أعطانى عهد الطريقة مناما ، حيث إننى كنت أتوق إلى رؤيا أرى فيها عمى الحاج عليوة رضى الله تعالى عنه وعنا به ، من كثرة ما حدثنى فضيلة والدى رضى الله تعالى عنه وعنا به عن علو مقامه ومكانته عند جدى الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه وعنا به فمن الله تعالى علىّ برؤيا جمعتنى بحضرته فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ وكانت ليلة أربعاء فرأيته معى فى منزلنا الأحمدى بطنطا فى الطابق الأرضى وأدخلته على حضرة والدى فى حجرة الضيافة فاستقبله بترحاب بالغ ثم

جلست إليه أشكو ثقل المسئوليات والهموم فطمأننى ، ثم قلت لحضرته فى لهفة بالغة : (مش حاتأخذونى بقى يا عمى الحاج عليوة) ؟؟

فأجابنى بقوله رضى الله عنه : (دى الوقت حنأخذك أو بعدين حنأخذك) : أى أنك محسوب علينا غير أن أخذة الجذب الكلى قد تتأخر زمنيا إلى وقت لاحق تقتضيه الحكمة والمشيئة الإلهية .

ثم رأيتنى ويدى فى يده الشريفة وهو يدعو لى دعوات كثيرة وقد استغرقت فى معيته الشريفة حتى أحسست أننى أخذت العهد المبارك على يده الشريفة ليتحقق لى أخذ القبضة المباركة من حضرات الخلفاء الثلاثة لمولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنهم أجمعين وهم مولانا الشيخ عيسى ، ومولانا الشيخ عليوة ووالدى الكريم رضى الله عنهم أجمعين .

بيد أنى فى نفس الرؤيا أردت أن أتحقق من أخذ العهد من مولانا الشيخ عليوة، فكان على كتفى (فوطة) فأراد بعض الحاضرين من أهل المنزل أخذها من على كتفى لكن مولانا الشيخ عليوة منعه من أخذها قائلا بالنص «خليها له لأنه أخذ فيها العهد» فكانت كرامة كبرى لسيدى عليوة رضى الله عنه أن أكرمنى بما كنت أتمناه من رؤياه والتشرف بتلقى عهد الطريقة من يده المباركة.

ثم الكرامة العاشرة :- وهى من قبيل كراماته بعد وفاته رضى الله عنه كسابقتها - ما أخبرنى به الأخ النقشبندى الشيخ صلاح ... من (التلين) أنه فى بعض السنين عندما تراخى نجله الشيخ جوده عن الإعداد لإقامة الخدمة بمولد شيخنا الأكبر مولانا الشيخ جوده رضى اله تعالى عنه وعنا به لظروف صحية : جاءه سيدنا الشيخ عليوة فى منامه وعنفه على ذلك وهدده ببلاء أكبر إذا لم يقم بالخدمة المعتادة فى سرادق (السنيطة) الذى يقام بساحة مولد سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه كل عام ، والذى يعد خدمة سيدنا الشيخ عليوة فى المولد الجودى المبارك . فكانت تلك الكرامة من قبيل مكاشفته البرزخية وتصريفه النافذ رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

★ إن لتلك الكرامات دلالاتها العميقة على سمو مقام مولانا القطب الشريف الشيخ عليوة عطية ، وإنها لمكانة شامخة نالها بتفانيه فى حب شيخه وزير حضرة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وغيرته المحرقة على حرمة شيخه العظيم ، لدرجة أن نجله الشيخ جوده عليوة لما عظم قدر والده عنده بمشاهدة أحواله السنية وكرامته العلية قال له يوما (انت مثل سيدى الشيخ جوده) ، وهنا تعاظمت غيرة سيدى عليوة على مقام شيخه الذى لا يقاس به أحد فى عصره وما بعده فانتهره بحدة بالغة وبلغ من انفعاله أنه قذف ابنه بكوب مملوء بالماء فى وجهه لأنه قاسه بشيخه ذى المقام الأرفع فى عالم الولاية ، أجل فالشىء من معدنه لا يستغرب ، هذا شأن الرجال مع أشياخهم .

وإن المقام ليضيق عن استقصاء مناقب هذا الغوث الفرد الجامع ، ولله در صاحب النفحات الإلهية إذ قال فيه متوسلا فى منظومته النقشبندية :-

وبالإمام رفيع الشأن سيدنا ... عليوة صاحب الأسرار والمنن
قطب الوجود مجيب سؤل قاصده ... ورحمة للورى بل زينة الزمن
ووارث المصطفى علما وفى عمل ... وكاشف الغم والأحزان والدرن

رضى الله عن القطب الشريف سيدى عليوة الحسينى المحمدى وألحقنا بمعيته فى الدارين. آمين .

★ ★ ★

« ٥٠ »

القطب الفريد .. سيدى محمد أبو اليزيد المهدى الحسينى رضى الله تعالى عنه

من رحيق الحب الإلهى نهلت أرواح خاصة الخاصة من أولياء الله المقربين الذين تطهرت ذواتهم من شهود السوى بماء الغيب المتدفق من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت ، فسالت به أودية قلوبهم ، فتحررت من الأغيار ونفدت إلى نور الأنوار قاطعة مراحل السير إلى الحق تعالى فى منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين ومبدأ التجليات الأسمائية ، ثم بالتعلق بالأسماء والصفات إلى الأفق الأعلى ونهاية الحضرة الوحدانية ، ثم بالترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية ، ثم إلى مقام السير بالحق عن الحق للتكميل ، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع ، وإلى ذلك أشار العارف بقوله :

ليس من لوّح بالوصل له ... مثل من سير به حتى وصل
لا ولا الواصل عندى كالذى ... طرق الباب وللدار دخل
لا ولا الداخل عندى مثل من ... ساروه فهو للسر محل
لا ولا من ساروه كالذى ... صار إياهم [1] فدع عنك العلل

---

(١) المراد هنا : التعبير عن غاية القرب دون إرادة الاتحاد أو الحلول ، فقد قال قائل هذه الأبيات وهو الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره (ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد وما قال بالحلول إلا من دينه معلول) وانظر الأبيات فى لسان التعريف بحال الولى الشريف سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه للعلامه الشيخ أحمد جلال الدين الكركى ص ١٠٨ .

ولقد شهد عصرنا هذا ثلة من خواص الخواص المقربين ، أنعم الحق تعالى علينا برؤيتهم وصحبتهم والاستمداد من بحار أنوارهم ، والسقيا من رحيق تربيتهم ومحبتهم والتحقق من شموخ ولايتهم .

من أولئك الصفوة المقربين : ولى الله العارف بالله تعالى فرع الشجرة المحمدية ونائب الحضرة الجودية النقشبندية ، ووكيل الحضرة الأحمدية البدوية ، فرد زمانه وغوث أوانه ، الحسيب النسيب القطب الفريد : سيدى محمد أبو اليزيد ابن محمد المهدى الحسينى رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

مولده ونشأته

لقد بزغ نجم مولد هذا العارف الربانى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة بعد الألف هجرية فوافق ميلاده الثامن والعشرين من إبريل سنة ١٩٠٠م تسعمائة وألف ميلادية .

وقد تدلى هذا الفرع الشريف من الدوحة الهاشمية المحمدية ، فوالده – رضوان الله عليه – هو الداعية القرآنى الشيخ محمد المهدى بن السيد مصطفى ابن السيد خليل من نسل السيد عبدالظاهر الذى هو رأس من رؤوس الأشراف الحسينيين بناحيتى «كفر تصفا» و«الزمرونية» ، وهو فرع من أبناء سيدى خضر أبى نجاح الحسينى الكائن ضريحه ببلدة (أبى نجاح) التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

وقد تعاهد فرع أسرة (عبدالظاهر) ببلدة (كفر تصفا) التابعة – الآن – لمركز كفر شكر بمحافظة القليوبية – شجرة النسب الحسينى الشريف المثبتة فى سجل مرقوم انتهى إلى بيت العالم الجليل الشيخ حسن عبدالظاهر الذى كان مدرسا بمعهد القاهرة الدينى وتخرج على يديه فيالق من العلماء . وأذكر من بينهم الدكتور عبدالفتاح بركة الأمين العام الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية ، وقد كان العم الشيخ حسن عبدالظاهر رئيس لجنة امتحانى الشفوى فى الشهادة الابتدائية بمعهد طنطا الأحمدى سنة ١٩٥٩م .

ومن علماء فرع عبدالظاهر الحسينى كذلك الشيخ يوسف عبدالظاهر الذى كان واعظا عاما بالمنصورة .

أما فرع عبدالظاهر بالزمرونية - التى كانت تتبع مركز ميت غمر وصارت تابعة لمركز كفر شكر - فإنه يتمثل فى الشريف السيد/ مصطفى خليل الذى أنجب سيدى محمدا المهدى والد القطب أبى اليزيد ، كما أنجب السيد على والد الشريفين مصطفى وعزب خليل.

وكان سيدى محمد المهدى رضوان الله عليه ممن يشار إليهم بالبنان فى التقوى والورع . وقد صدق فيه قول الرسول العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ؛ فالأسرة الخليلية الظاهرية كانت - ولا تزال بحمد الله تعالى أسرة قرآنية تشع قرآنا وعلما أزهريا ولدنيا .

وقد نال الجد الشريف محمد المهدى رضوان الله عليه تلقيبه بالمهدى من ألسنة الخلق التى هى أقلام الحق تعالى ، حيث كان من شدة ورعه وتقواه يغض بصره عن المحارم فى الطريق حتى يظن أنه فاقد البصر فتستفسر الرائحات والغاديات من أسرته وأهله عن حال بصره فيجبن بأنه حديد ؛ فينطق الله الألسنة بأنه المهدى !! ومن ثم لقب بالمهدى .

وقد قدرت المشيئة الالهية أن ينتقل الشريف محمد المهدى إلى جوار ربه ولم يزل ابنه المترجم له جنينا فى بطن أمه السيدة (مبروكة) فولد رضى الله تعالى عنه يتيما كالدرة اليتيمة .

ومن ترتيب القدر الإلهى كذلك : أن يكون محل ميلاد القطب الفريد أبى اليزيد هو بلدة : (الزمرونية) التى تقل ضريحا عظيما لولى شامخ من أئمة الصوفية هو سلطان العارفين سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى رضى الله تعالى عنه المتوفى سنة ٢٦١هـ .

وهو الذى لقبه العارف الخوافى رضى الله عنه بلقب (سلطان بالعارفين) ، وكان سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه يسميه : أبا يزيد الأكبر ،

ونص على أنه كان القطب الغوث فى زمانه ، وأنه كان على قلب إسرافيل ، له الأمر ونقيضه .(١)

وقد اشتهر - فى الدوائر الصوفية - أن لسيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه أربعين مقاما فى مختلف بقاع الأرض ، ومما زرته - شخصيا - منها: ثلاثة مقامات أحدها فى قرية (سديمة) مركز كفر الزيات بمحافظة الغربية ، وثانيها : فى منيل الروضة بالقاهرة حيث يوجد ضريحه بمسجد يحمل اسمه فى شارع يحمل اسمه أيضا .

أما ثالث تلك المقامات اليزيدية البسطامية ، فكان بالزمرونية ، حيث شاء العلى القدير أن ينبت منها العارف أبو يزيد الثانى - المعروف بالمهدى - الذى سأل شيخه وزير الحضرة المحمدية مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه : عن سر تعدد مقامات بعض الأولياء كسيد أبى يزيد البسطامى رضوان الله تعالى عليه ، فأجابه : بأن الولى فى البرزخ بمثابة الغواص فى بحرٍ لجىّ ، يمكنه أن يبرز ويظهر فى أى بقعة شاء من سطح البحر ، فحيثما ظهر فى بقعة من الأرض شيد له مقام !! وقد دفن سيدى محمد المهدى إلى جوار ضريح سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهما .

وكانت والدة سيدى محمد أبى اليزيد - رضوان الله تعالى عليهما - من القانتات الصالحات ، وكانت محبة للأولياء وعلى صلة روحية بكبار الأقطاب ، فما أن نشطت بعد وضعها إياه ، واستجمعت قواها بعد مدة وجيزة حتى حملته بين ذراعيها وذهبت به على قدميها إلى ضريح قطب الأرض فى زمانه سيدى داود العزب رضى الله تعالى عنه ببلدة (تفهنا العزب) وسألت الحق تعالى أن يجعل وليدها فى رعاية هذا القطب الكبير ، واستجاب الله تعالى دعاءها . ومن ثم كانت هناك رابطة روحية وثيقة العرى بين سيدى محمد أبى اليزيد وبين سيدى داود العزب رضى الله تعالى عنهما .

وفى رحاب القطب البسطامى رضى الله تعالى عنه كانت نشأة العارف أبى

---

(١) انظر : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للعلامة المناوى بتحقيق د. عبد الحميد حمدان : ١، ٤٤٢.

يزيد الثانى - أو نقول - (أبا يزيد الكبير) حسبما تومئ إليه إشارة سيدى محيى الدين بن عربى - قدس الله سره - فى تلقيبه للعارف البسطامى بأبى يزيد الأكبر!! فهذا الشبل من ذاك الأسد !!

فقد نشأ سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه فى أعطاف العناية الإلهية نشأة العارفين ، حيث كان المنطلق الأول إلى عالم الولاية أن يتضلع من كتاب الله تعالى ، فحفظ القرآن الكريم فى نعومة أظفاره فى بيت أسرته القرآنية وعلى يد عمه الشريف (على أبوخليل) الذى كان شيخ كتاب القرية ومحفظ علمائها كتاب الله تعالى ، وقد أخذ على عاتقه تحفيظ أفراد أسرته - رجالا ونساء - آيات الذكر الحكيم ،ومبادئ العلوم الشرعية التى يجدر إلمام كل مسلم بها .

وما أن أتم سيدى الوالد الماجد - سمى البسطامى - حفظ كتاب الله تعالى حتى التحق بالأزهر الشريف فى أقرب معهد دينى من بلدته ،وهو معْهد (كشك) الدينى بزفتى ، الذى أنشأه كشك باشا بها ، وأخذ الشيخ الشريف أبو يزيد فى دراسة العلوم الشرعية والعقلية واللغوية بالمعهد ، وكانت الدراسة فى المطولات منذ بدئها حتي إن دراسة النحو منذ السنة الأولى.كانت فى شرح الكفراوى على الأجرومية ، ولا يزال هذا الكتاب موجودا ضمن مكتبة العارف أبى اليزيد ضمن فرائد المصنفات . وظل الشيخ يواصل طلبه للعلم فى الأزهر الشريف حتى كانت نقطة التحول الكبرى فى حياته ألا وهى :- **لقاؤه بشيخه مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه وبدء سلوكه الصوفى .**

بينما كان مخطوب العلا سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه يتزود من علوم الشرع فى ريعان شبابه فى منتصف العقد الثانى من عمره : كانت أضواء الحقيقة تصوب أشعتها صوب موطنه فى الرحاب البسطامى ، فقد كان قطب عصره العارف بالله تعالى سيدى الشيخ جوده إبراهيم الحسنى شيخ الطريقة النقشبندية الخالدية بالديار المصرية يقوم برحلاته الصوفية لفتح الطريق فى شتى بلاد مصر، وكان للبلاد المجاورة لمنيا القمح منها حظ وفير أخذ شكل العادة فى ميقات معين على مدار العام .

وفى يوم من أيام النفحات الإلهية التى ورد فيها الحديث الشريف (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها) كان موكب الأنوار الجودية متوجها إلى رحاب القطب البسطامى رضى الله تعالى عنه فى (الزمرونية) فتوجهت الجموع الغفيرة لاستقبال مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه ، وكان محط رحاله فى روضة سيدى أبى يزيد الأكبر رضوان الله عليه : ودنا وقت الصلاة ، وطلب سيدى الشيخ جوده رضى الله عنه ماء ليتوضأ ، وتأهب شيوخ البلد وشبانها ومعهم كبار أتباع الشيخ كلهم يأمل أن يحظى بشرف المثول بين يديه وصب ماء الوضوء فى راحتيه ، إلا شابا واحدا وقف فى حياء وخشوع يرمق الشيخ بنظراته فحسب ولم ير نفسه أهلا للتقدم لتوضئة هذا الإمام الجليل الذى تشع أنوار الجلال والجمال من محياه ، وكان ذلك الشاب المنبهر فى خشوع هو سيدى محمد أبو اليزيد الذى قنع بالنظر إلى الشيخ ووجد فى هذا النظر سعادة الدنيا والآخرة. وفجأة: أشار سيدى الشيخ جوده إلى ضالته المنشودة وارث السر والحال وقال: هذا الفتى هو الذى سيوضئنى !! ووسط نظرات التعجب من الجمع : تقدم الشاب الأزهرى الشيخ محمد أبو اليزيد وأمسك بالإبريق . وبينما هو يصب ماء الوضوء فى يدى القطب النقشبندى إذا بسيدى الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه يرفع بصره فى وجه الشيخ محمد ويرمقه بنظرة نخبة واصطفاء فكانت الجذبة النقشبندية الأبدية ، جذبة القلب إلى حضرة القدس مع الصحو التام !! ومن لحظتها صار الشيخ محمد مريدا لقطب عصره سيدى الشيخ جوده رضى الله عنه ، حيث وجد فيه الشيخ ، والقدوة ، والمربى ، والمعلم ، والواصل ، والموصل ، لقد رأى فيه الشيخ الكامل ، والمثل الأعلى . فلزمه من ساعته ، وتعلقت روحه بساحته ، فكان يذهب إليه يوميا من بلدته (الزمرونية) عقب صلاة الفجر ماشيا على قدميه مسيرة عشرة كيلو مترات إلى منيا القمح ليصل ساحته قبل شروق الشمس ، على مدى اثنى عشر عامًا .

وفى الساحة الجودية بمنيا القمح كان مركز السلوك الصوفى المحمدى الرفيع ، على أعلى مستوياته ، وكان لسيدى محمد أبى اليزيد حظ أعلى من العناية

الجودية ، كان وزير النبى صلى الله عليه وسلم يؤهله للوراثة الجودية كما أهل نجله الأمجد مولانا الشيخ عيسى ، وخليفته الأنور سيدى الشيخ عليوه عطيه الحسينى رضى الله عنهم أجمعين .

وسيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه هو الذى لقب سيدى محمدا المهدى بأبى يزيد كما أخبرنى بذلك ، إذ نظر إليه ذات يوم بعين الإمداد والتحقيق وقال له : أقبل يا أبا يزيد !! ولم يكن معروفا من قبل بهذا اللقب ، وفى تلقيبه به : إشارة إلى حظ وافر من وراثة مقام سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه .

سنده فى الطريق النقشبندى :

وبتلقى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى رضوان الله عليه عن شيخه الواصل إلى الله تعالى مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره : الطريقة النقشبندية ،وأخذه القبضة والعهد والبيعة على يديه : تحقق له شرف النسب الروحى الصوفى إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم حقيقة وباطنا ، كما تحقق له شرف النسب الحسنى المحمدى عرفا وظاهرا ، فصار شريف النسبتين كريم المحتدين ، وهذا هو سنده ونسبه الصوفى :-

لقد أخذ القبضة عن حضرة قطب عصره سيدنا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى عن سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ، عن سيدى أحمد بن سليمان الطرابلسى ، عن سيدنا ضياء الدين خالد العثمانى المجددى البغدادى عن سيدنا عبدالله الدهلوى ، عن سيدنا حبيب الله مظهر ، عن سيدنا نور محمد البدوانى ، عن سيدنا محمد سيف الدين ، عن سيدنا محمد المعصوم ، عن سيدنا أحمد الفاروقى - الإمام الربانى مجدد الألف الثانى - عن سيدنا محمد الباقى بالله ، عن سيدنا محمد الخواجكى الأمكنكى عن سيدنا درويش محمد ، عن سيدنا محمد الزاهد عن سيدنا عبيدالله أحرار ، عن سيدنا يعقوب الجرخى ، عن سيدنا علاء الدين العطار عن سيدنا ومولانا محمد بهاء الدين الحسينى الأويسى (شيخ الطريقة النقشبندية ومجددها الأعظم) وهو عن سيدنا الأمير كلال ، عن سيدنا محمد بابا

السماسى عن سيدنا على الراميتنى العزيزان عن سيدنا محمود الإنجير فغنوىٰ عن سيدنا عارف الريوكرى عن سيدنا عبدالخالق الغجدوانى - الذى أخذ عن سيدنا الخضر عليه السلام عن حضرة سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . كما أخذ سيدنا عبدالخالق عن سيدنا يوسف الهمدانى عن سيدنا أبى على الفارمدى (ملتقى السلاسل النقشبندية الثلاث) : فقد أخذ عن سيدنا أبى الحسن الخرقانى عن سيدنا أبى يزيد البسطامى عن سيدنا جعفر الصادق عن سيدنا القاسم بن سيدنا محمد بن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم . كما أخذ سيدنا أبو على الفارمدى عن سيدنا أبى القاسم الجرجانى عن سيدنا أبى عثمان المغربى عن سيدنا ابى على الكاتب عن سيدنا أبى على الروزابارى عن سيدنا الإمام الجنيد (سيد الطائفة الصوفية) عن خاله سيدنا السرى السقطى عن سيدنا معروف الكرخى (ملتقى السلسلتين الصديقية والعلوية) فقد أخذ عن سيدنا داود الطائى عن سيدنا حبيب العجمى عن سيدنا الحسن البصرى عن باب مدينة العلم سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم . كما أخذ سيدنا معروف الكرخى عن سيدنا على الرضا عن سيدنا موسى الكاظم عن سيدنا جعفر الصادق عن سيدنا محمد الباقر عن سيدنا على زين العابدين عن حضرة سيدنا الإمام الحسين عن أبيه سيدنا على عن حضرة الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم . هذا هو السند الصوفى النقشبندى لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه وهو سند الفقير إلى الله تعالى نجله ومريده وخادمه مؤلف هذا الكتاب عفا الله تعالى عنه وغفر له وحشره مع آبائه وأجداده تحت قدم سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين . آمين.يارب العالمين .

لقد ارتبط سيدى محمد أبو اليزيد بشيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم - رضوان الله تعالى عليهما - ارتباط الفرع بأصله فى الشجرة المحمدية ، فصار منه يستمد النور والعلم والمعرفه والسلوك والتربية ، وتحقق على يديه بالشريعة ، والطريقة ، والحقيقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

★ ولقد كان مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره يربى أبناءه ومريديه بالنظر ، إذ ينظر لمريده نظرة الاصطفاء فيملؤه مددا .

★ وقد حدثنى والدى سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه أنه كان فى حضرة شيخه سيدنا الشيخ جوده - قدس الله سره - فى ساحة التربية الجودية التى كانت حافلة بالمريدين - وموضعها الآن بيت مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه ، المواجه للمقام الجودى الشريف بمنيا القمح - وقد أطرق والدى فى شبه استغراق فى الحضرة الجودية ، وفجأة جاءه الصحو فرفع بصره إلى شيخه ، فوجد سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه يركز بصره عليه ، ويخصه بالنظر العالى الحافل بالأنوار .

★ وكانت حياة العارف بالله تعالى سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه خلال معايشته لشيخه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه إقامة دائمة فى مركز الطريقة الجودية من شروق الشمس إلى غروبها ، لا ينقطع اللقاء إطلاقا حتى خلال المرض ، فقد مرض سيدى محمد أبو اليزيد يوما بالحمى ، وأشارت عليه أسرته أن يلزم الفراش ببلده ، فأبى إلا أن يركب مطية ليقطع بها المسافة إلى رحاب شيخه - وكان دأبه فى الصحة أن يسير إليه على قدميه تأدبا - وما أن دخل ساحة شيخه ورآه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه داخلا مريضا على ظهر مطيته حتى قال : (عجايب ، هل جاءتك الحمى ؟) وما أن نزل الشيخ أبو اليزيد عن دابته حتى عوفى تماما من مرضه ، فمكث فى حضرة شيخه ما قدر له ثم أذن له الشيخ فى العودة إلى بلده ، وما أن غادر الحضرة الجودية حتى ظهرت أعراض الحمى على مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه ، فأدرك أبناء الشيخ ومريدوه وعلى رأسهم مولانا الشيخ عليوه عطيه الحسينى رضى الله عنه أن مولانا الشيخ جوده قد تحمل (حملة الحمى) عن مريده العزيز سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه .

★ ولقد أخذ الشيخ أبو اليزيد دوره البارز فى مركز التربية الجودية ، فكان

الابن القلبى المصطفى المتقى المغمور برعاية شيخه ، كان هو المؤذن ، والمقيم للصلاة ، وكان هو قارئ القرآن الكريم تجويدا وترتيلا ، ولقد قرأ القرآن الكريم عن ظهر قلب على شيخه سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه ولم يخطئ فى حرف واحد - كما أخبرنى بذلك - فلما أتم ختم القرآن العظيم نظر إليه مولانا الشيخ جوده نظرة الفتح والاجتباء ، وقال له : فتح الله عليك !! ودعاء الأقطاب مستجاب !

★ وكان الشيخ أبو اليزيد كذلك قارئا لسيدنا الشيخ جوده - رضى الله عنهما - فى أمهات الكتب والمصادر العلمية ، حيث إن مجلس سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه كان مجلس قرآن وعلم شرعى ومعرفة صوفية وتربية قلبية وروحية، فكان يقرأ فى مجلسه صحيح البخارى بشروحه وصحيح مسلم وأمهات كتب التفسير والتصوف وكتب الشمائل النبوية .

ولقد أخبرنى شيخى الوالد سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه أن من بين ما قرأه بحضرة شيخه كتاب (المواهب اللدنية) للإمام القسطلانى رضى الله تعالى عنه .

★ وكان سيدى محمد أبو اليزيد يدخل إلى خلوة شيخه الخاصة ويشهده فى عباداته وسبحاته الروحية ، وقد وصف لى عبادة شيخه رضوان الله عليه واستغراقه فى صلاته مع الله تعالى قائلا (آه يا ولدى : لو رأيت جدك الشيخ جوده مرة واحدة وهو يصلى مستغرقا فى مشاهدة ربه وفى مناجاته لقلت على الفور إنه لم يصل أحد لله فى هذا العصر إلا هذا الرجل) !! أجل : إنما يعرف الفضل من الناس ذووه ! »

★ وكان سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه يكاشف مريده أبا اليزيد بخواطر قلبه : فبينما كان حاضرا فى مجلس شيخه طلب سيدنا الشيخ جوده فنجانا من القهوة ، وأخذ يشرب من الفنجان وعين سيدى الوالد لا تفارقه ، فقال فى نفسه : لو يمن الله تعالى علىّ برشفة من سؤر شيخى من هذا الفنجان ؟؟ وفى الحال التفت سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه لمريده الشيخ أبى اليزيد من بين عشرات

المريدين الحاضرين ومد يده الشريفة إليه بالفنجان قائلا : خذ واشرب ما تبقى من القهوة !!

★ ومن بين سلوكيات التربية الجودية : عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وتعهد قراءة القرآن الكريم بالتزام ، ومن ثم كان سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه يجلس مع حبه فى الله تعالى سيدى الشيخ عليوه عطية الحسينى ويقرأ كل منهما القرآن كله على الآخر ، وكانا إذا أخذا فى التسبيح يسمعان تسبيح الجماد - حصى المسجد - من حولهما كترجيع الجبال مع سيدنا داود على نبينا الأعظم وعليه الصلاة والسلام .

★ لقد تقلد سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه مفاتيح الفتح الإلهى من شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله تعالى سره ، وتحمل من الأسرار مالا تتحمله شم الرواسى من الجبال ، ولكنه كان المستقر والمستودع الأمين ، وصدق فيه قول الصوفية الأخيار «صدور الأحرار قبور الأسرار» !!

لقد تحمل الأمانة ، ونال خلعة الخلافة ، وأذن من شيخه وزير النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته أن يكون مركزه فيما بعد انتقال الشيخ فى المقام الأحمدى البدوى الشريف ؛ فقد حدثنى شيخى الوالد رضوان الله تعالى عليه ، بأنه كان فى الحضرة الجودية قبيل انتقال مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ، وخلال المجلس الجودى صرح قطب عصره سيدنا الشيخ جوده قدس الله تعالى سره بأنه قد دنا وقت انتقاله إلى جوارمولاه عز وجل ، فانخلعت قلوب الحاضرين وذرفت الدموع من العيون ، فتوجه سيدى محمد أبو اليزيد إلى شيخه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليهما قائلا : «ياسيدى : نذهب إلى من بعدك» ؟ فرد عليه بصيغة الإفراد والتخصيص : «أنت تذهب إلى جوار سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه !!».

وانتقل مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه إلى الرفيق الأعلى فى السابع عشر من شهر شوال سنة ١٣٤٦هـ ، ورأى سيدى محمد أبو اليزيد إثر انتقال شيخه

العظيم فى منامه أن مولانا الشيخ جوده - قدس الله سره - قد أمسك به وأحاط أوسطه بيده الشريفة وقذف به في جو السماء فطار حتى هبط فوجد نفسه أمام مقصورة قطب الأقطاب سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وباب المقصورة الشريفة مفتوح على مصراعيه ، فنظر إلى كسوة الضريح الأحمدى الشريف فرأى مكتوباعليها : «إنا فتحنا لك فتحا مبينا» فكان ذلك إيذانا بالفتح الأحمدى الذى تحقق به سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه بعد فتحه الجودى .

إنتقال سيدى محـــمد ابو اليزيد إلى جوار
مولانا السيد البدوى رضى الله تعالى عنهما :

وتوجه مولانا العارف أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه بتوجيه شيخه وزير حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنه إلى جوار باب النبى صلى الله عليه وسلم لتبدأ مرحلة صوفية ولائية أخرى فى حياة هذا العارف .

ولم يكن هذا التوجه والانتقال من قبيل المصادفة أو الاختيار الشخصى ، فليس فى حياة الأولياء مآرب شخصية ، ولا دواعى نفسية ، وإنما هى خطوات ربانية على مدارج الاصطفاء والاجتباء . وكل مرحلة زمنية لها مضمونها السلوكى والعرفانى . وآية ذلك : ما سمعته ذات يوم فى حضرة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالجليل قاسم خليفة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالفتاح القاضى - شيخ شيخ الاسلام الإمام الدكتور عبدالحليم محمود رضى الله تعالى عنه - من أحد رجالات الطريقة الشاذلية القاضية من بلدة العزيزية شرقية أنه سمع أحد المكاشفين من العزيزية - واسمه الشيخ صالح الهربيتى - يقول : لقد تنازع فى الشيخ محمد أبى اليزيد قطبان كبيران :

أحدهما : سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه .

وثانيهما : سيدى أحمد البدوى رضوان الله تعالى عليه . وذلك فى حضرة برزخية : فقال سيدى أبو الحسن لسيدى أحمد : اترك لى الشيخ محمد أبا اليزيد، فإنى أريده للإقامة عندى إلى جوارى فى (حميثرا) .

فقال له القطب البدوى : ولكنى أريده عندى ياشيخ أبا الحسن لينتفع به الخلق فى (طنطا) ؛ إذ أنه لو ذهب إليك فى (حميثرا) لن ينتفع به إلا القليل ، فاتركه لى . عندئذ قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه : لقد تركته لك يا أبا الفتيان !

ولقد كان تعلق سيدى محمد ابو اليزيد بالقطب البدوى - لا سيما بعد تصريح شيخه له بالمقام عنده - عجيبا ، فكان قبل ارتحاله إلى طنطا يتردد عليه سعيا على القدم من بلده (الزمرونية) إلى طنطا !!

وأصبح الشيخ أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه مجاورا لسلطان الأولياء باب حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا ، لقد اختاره القطب البدوى لحضرته داعيا إلى الله على بصيرة .

ولقد كان لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه - فى الجوار الأحمدى - مضماره السلوكى التعبدى ، ومرقاه التحققى العرفانى .

فلقد تهيأت له الأسباب واتخذ لنفسه (خلوة) بالجامع الأحمدى فى الطابق الثانى بناء على تعليمات من مدير الغربية آنذاك إثر رؤيا منامية رأى فيها الإمام البدوى يكلفه بتخصيص خلوة بمسجده للشيخ أبى اليزيد ، وقد استجاب للأمر .

وفى تلك الخلوة اليزيدية بالرحاب الأحمدى: كان سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه صوام النهار قوام الليل ، يقطع الليل تسبيحا وقرآنا وتهجدا .

لقد هجر زخرف الدنيا الزائف وسكن إلى سيده وخالقه ومولاه ، متقللا مخشوشنا فى عيشه ، عازفا عن المتاع القليل ، مقبلا على الله تعالى بكليته حيث النعيم الحقيقى الذى قال فيه سلطان الزاهدين سيدى إبراهيم بن أدهم - رضوان الله عليه - (لو يعلم ملوك الدنيا ما نحن فيه من النعيم: لجالدونا عليه بالسيوف) !!

ومما تناقله مريدو الشيخ أبى اليزيد عن شيخهم : أنه مكث أحد عشر عاما يصوم صوم سيدنا داود - على نبينا وعليه السلام - ؛ يصوم يوما ويفطر يوما !!

وأنه كـان يتلو القـرآن على الدوام ، فى المـصـحـف أو عن ظهـر قلب ، وقـد ظل هـذا دأبه إلى آخر حياته ، وقد حدثنى الشيخ عبدالحميد سلام - أحد شيوخ المقرأة الأحمدية - أنه استمع لسيدى محمد أبى اليزيد وهو يقرأ عليه القرآن حتى ختمه فى نهار يوم واحد ، وأكد لى أن هذا كان ديدنه خلال السنوات الأخيرة من عمره المبارك . حدثنى بذلك بعد مضى أربعين يوما من انتقاله إلى جوار مولاه .

وكان كبار الصوفية المعاصرين يترددون على سيدى محمد أبى اليزيد فى خلوته كالعارف بالله سيدى أحمد حجاب والعارف بالله الشيخ محمد خليل الخطيب الذى درس لى الحديث الشريف وعلم التصريف بالمعهد الأحمدى ، وقد سألته يوما عن معرفته بسيدى محمد أبى اليزيد صوفيا فأجابنى بقوله (كفى والدك شرفا أنه جالس البدوى خمسين عاما) !!

ومن أجلاء أحباب والدى من العارفين المعاصرين سيدى الشيخ صالح الجعفرى إمام الجامع الأزهر الشريف ، واذكر أننى زرته قبل انتقاله بنحو عام بالجامع الأزهر الشريف فقال لى : (لقد تخرج من خلوة والدك علماء وأولياء ، وأنا منهم) - والله شهيد على ما أقول - إنها شهادة الكبار للكبار من أفذاذ المدرسة المحمدية !

إن هذه الشهادة التى أدلى بها العالم الولى الربانى لتقطع بوضوح جلى أن سيدى محمدا أباليزيد رضوان الله عليه كان مربيا للعلماء والأولياء فى مركز الدعوة إلى الله تعالى بالجامع الأحمدى ، وكانت خلوته امتدادًا لجامعة السطح الأحمدية التى أسسها سيدى أحمد البدوى رضوان الله تعالى عليه .

فلقد كان سيدى محمد أبو اليزيد يتلقى تربيته المباشرة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما بعد تربيته الجودية ، ويربى بها أتباعه ومريديه بالروضة الأحمدية كما صرح بذلك العارف بالله تعالى الشيخ عطية محمود خليفة سيدى سلامة الراضى والقطب الإمام الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين كما صرح بثاقب مكاشفته وعرفانه بجملة من الحقائق منها :

★ أن سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليه قد أخذ سيدى محمدا أبا اليزيد بسلسلته وصبغه بصبغته فصار كأنه سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه .

★ وأن سيدى أحمد البدوى قدس الله سره قد أولى الشيخ أبا اليزيد ثقته فى التصريف فكان كل ليلة جمعة يتلقى منحة من سيدى أحد البدوى وجملة من التكاليف ينفذها حرفيا طوال الأسبوع .

★ وأنه كان لوظيفة العارف أبى اليزيد جانبان بالمقام الأحمدى : أحدهما : تلاوة القرآن الكريم والأوراد والإنفاق على الفقراء والتعهد الظاهرى والباطنى لمريديه وأتباعه والجانب الآخر : هو الجانب التصريفى بتفيذ ما يتلقاه من الإمام البدوى من تعليمات وأوامر وتكليفات تلقى إليه ليلة الجمعة ، ولذلك كان لا يتغيب عن المقام الأحمدى ليلة الجمعة إطلاقا .

★ وكان من اختصاصات الشيخ أبى اليزيد من فيض عطاء الله تعالى رفع البلاء بتوجهه إلى جناب الحق جل جلاله ، ولاسيما للشفاء من الأمراض العضال .

★ وأن الركن الذى كان يلزمه سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه بالمقام الأحمدى الشريف هوالركن المطل على القبة المحمدية الخضراء المعظمة والمواجه لها من المقام الأحمدى ، ولذلك لم يعرف عنه الجلوس فى مكان سواه منها .

★ وأن سيدى محمدا أبا اليزيد رضى الله تعالى عنه قد تحققت له الخلافتان : الجودية النقشبندية ، والأحمدية البدوية ، باعتبار أن مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه مع إمامته للنقشبندية كان قطبا فى الدائرة الأحمدية أيضا فورثه سيدى محمد أبو اليزيد فى هذا الجانب وترقى به إلى المقام الأحمدى، وكان بالنيابة عنه يمثل (الجودية الأحمدية) ، وأنه كان صديقا حميما لسيدى (أحمد البابلى) رضى الله عنه .

★ وأن سيدى أحمد البدوى قدس الله سره كان زعيم الاستغراق الإلهى ، وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألقى على سيدى محمد أبى اليزيد خلعة الاستغراق واكتملت فيه قبل انتقاله بأربع سنين .

★ وأن سيدى محمدا أبا اليزيد فى ذروة اكتماله كان غريق محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بدا لأهل الكشف غرقه قبل انتقاله إلى جوار مولاه بتسع سنين .

★ كما أخبرنى العارف بالله الشيخ عطيه محمود الشاذلى المكاشف بأنه ما من لقاء يلتقى فيه مع سيدى محمد أبى اليزيد إلا وجده قد ترقى عن المقام السابق الذى شهده فيه قبل ذلك إلى مقام أعلى منه ، فكان رضوان الله عليه فى ترق دائم وعلو مقام مستمر .

المنهج التحقيقى لسيدى محمد أبى اليزيد قدس الله سره :

لقد اتسم منهاج هذا الإمام العارف بربه بجملة من المعالم البارزة التى يتمثل أبرزها فيما يلى :

أولا : أنه كان يقدس الشريعة ويلتزم بأوامر الشرع ويجتنب نواهيه بصورة فريدة ، كالحفاظ على الجماعات فى الصلاة والإكثار من الصدقات الخفية فضلا عن الزكاة المفروضة ، وكان يرسل رواتب شهرية لعديد من الأسر الفقيرة فى طنطا وضواحيها ، بل وفى محافظات نائية ، ويتعهد اليتامى وينفق فى وجوه الخير مباشرة وتسببا ، ومن الجدير بالذكر أنه توسط لدى وزارة الأوقاف لإعطاء حصص من صناديق النذور لأعضاء مقارئ القرآن الكريم بمساجد الجمهورية ، وكانوا من قبل لا ينالون إلا الفتات ، وهذا من حبه للقرآن وأهله فتم على يديه تكريم أهل القرآن .

وثانيها : أنه كان شديد الغيرة على حرمات الله تعالى ، وكان يحرص على عدم اختلاط الرجال بالنساء سواء أكان ذلك فى خلوته الأحمديه أم فى مجلسه بالمقام الأحمدى أم فى منزله الذى جعله من ثلاثة طوابق بحيث لا يرى رجل امراة،

ولا عكس ذلك ، بل كان يؤدب مريديه بألا يخالطوا المرد - جمع أمرد - ولا يظهر أحدهم بأى مظهر يثير الريبة فى الخلوة أو الجلوة فكانت مدرسته التربوية صورة مشرفة تتجسد فيها الآداب المحمدية بصفائها ونقائها . قائمة على طهارة الظاهروالباطن .

وثالثها : أنه كان شديد التعظيم لشعائر الله تعالى . حريصا على إظهار تلك الشعائر للأمة ، وقد حدث فى الستينيات أنه منعت الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان فى المذياع ، فكان وزير الأوقاف وقتها - السيد أحمد عبدالله طعيمة فى زيارة لسيدى محمد أبى اليزيد فى منزله بطنطا فسأله عن أى مطلب له ، فأجابه بطلب إعادة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان ، وقد لبى الوزير مطلبه بعدها بأيام حيث أذيعت الصلاة على سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بعد الأذان وظلت مدة مديدة بأصوات كبار القراء كالشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط وغيرهما .

ورابعها : إيثار الخفاء وعدم الظهور للخلق وتجنب الشهرة ، إيثارا لجناب الحق جل وعلا ، وكان يتمثل بحكمة سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى رضوان الله عليه (ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) كما كان يردد لأبناء قلبه الأقوال المأثورة فى هذا الصدد ، ومنها : (الظهور يقصم الظهور) و (من قال أنا وقع فى العنا) ونحو ذلك .

وكان رضى الله عنه إذا زار بلده (الزمرونية) أو بلد أهله (العزيزية) يدخل بعد غروب الشمس ويمكث يوما أو يومين ملازما للمنزل ثم يغادر القرية بعد الفجر وقبل شروق الشمس !

وخامسها : دوام ذكر الله تعالى فى السر والعلن ، والإعراض عن اللغو بكافة صوره ، فلم ير الشيخ إلا تاليا للقرآن الكريم أو منشغلا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغ المأثورة عن كمَّل العارفين ولا سيما فى (دلائل الخيرات) التى كان مواظبا عليها وملزما مريديه بها يوميا فى مجالس الدلائل أو فى بيوتهم ،

وكان للشيخ صيغ فريدة يعطيها لمريديه لقضاء الحاجات والشفاء من الأمراض ، ومنها تلك الصيغة التى أعطاها للسيد الدكتور محمد إسماعيل مدير مستشفى الأزهر السابق وأنجزت الشفاء لحرمه من مرض عضال وهى (اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك يا ألله صلاة وسلاما تامين دائمين متلازمين بدوام ملك الله وعلى آله وصحبه وسلم . مدد يا سيدنا الشيخ جوده أنت ومن معك ثلاثا -) وكان تلقيها سحر الثلاء السادس من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٤هـ .

وكذلك أعطى لأخى فى الله تعالى الشيخ عبدالحميد أبو النضر هذه الصيغة ليواظب عليها الا وهى (اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى الحبيب العالى القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك ، صلاة وسلاما تامين دائمين متلازمين بدوام ملك الله ، تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات وتقضى لنا بها جميع الحاجات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات) . إنها أكسير مجرب لقضاء الحاجات .

وسادسها : التحبب إلى الله تعالى بموالاة أولياء الله تعالى ومحبتهم ومودتهم وزيارتهم ولا سيما سادتنا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه آية من آيات الله فى محبة أوليائه ومعرفة مقاماتهم ومداومة زيارتهم متأسيا بشيخه مولانا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه ، وكان يرى أن موالد آل البيت والصالحين إنما هى مواسم رحمات ومواقيت فيوضات وتجليات ربانية حجب عن رؤيتها أهل الإعراض والاعتراض ، ففى كل مولد : جمعية لأهل الله تعالى تغمر فيها الأنوار وتتوزع الهبات والنفحات الإلهية مع التبرى من كل ما يخالف الشرع من منكرات ، فليس لنا فى الموالد إلا الطاعات والقربات ، وما سواها نبرأ منه وندعو إلى تطهير ساحات الأولياء من أدناسه فلا تحجبنا الأكدار عن الأنوار .

وكان سيدى محمد ابو اليزيد قدس الله سره يقول (إن الله تعالى يطلع وليه على نية من يزوره قبل أن يغادر بيته بنور الله [1] فيستقبله فى ضريحه بموائد الكرم والعطاء لأنهم أحياء فى قبورهم ويتحفون زوارهم بالهبات والعطايا ، وإذا كان كبراء الدنيا يقدمون لزوارهم موائد الضيافة عنوانا على كرمهم أفيترك أولياء الله زوارهم يعودون من رحابهم دون عطاء وهم أكرم خلق الله ؟؟ حاشا وكلا !)

وسابعا : التواضع والتذلل لجناب الحق تعالى ، وخفض الجناح للمسلمين، وقتل حظوظ النفس الأمارة بسيف الجهاد الأكبر ليصبح شعار النفس (الذل والانكسار) وعدم رؤية النفس على أحد من خلق الله تعالى ، إنه فناء الإنية تحت سطوة أنوار الربوبية ، فكان شعار هذا العارف الربانى الذى يردده ويمهر به كتب مكتبته العلمية (أحوج العبيد محمد أبويزيد) رضى الله عنه .

وكان من معالمه التربوية : حث مريديه بقوة على إماتة النفس ، ويباهى أبناءه بمن تحقق له ذلك منهم قائلا : (فلان أصبح بلا نفس) !

وكثيرا ما كنا نرى شيخنا أبا اليزيد بعلو قدره يفترش الثرى لجلوسه فى رحاب الصالحين ، ويطعم الفقراء بيديه ، ويخدم أضيافه بنفسه ، ويواسى أهل البلاء ، ويسعى على قدميه فى قضاء حوائجهم . إنها مثاليات الإسلام المتألقة فى سلوكيات الصوفية الصادقين .

وثامنا : الزهد فى الدنيا ، بطرح زخارفها ومفاتنها ، واحتقار متاعها الشاغل عن الله تعالى ، فكنت أتعجب فى صباى أننى لم أر سيدى الوالد أبا اليزيد مرة واحدة عند (بقال) أو (جزار) أو (ترزى) كسائر الناس !! إنه منشغل بربه على الدوام، وهذه الأماكن يرتادها من يقوم بخدمته من أسرته أو مريديه ، لقد رزقه الله من الحلال كفايته وأسرته ، وكان أهله وبعض أفراد الأسرة يراعون المصالح ولكنه

---

(١) يؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة يوسف / ٩٤ : (ولما فصلت العير قال ابوهم إنى لأجد ريح يوسف) .

لقى ربه ولم يذهب إلى ضيعة أو مساحة من الأرض يمتلكها ، بل لقد صدق فيه ما ورد فى الحديث (أوحى الله إلى الدنيا : من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه) و(من جعل همه واحدا كفاه الله سائر الهموم) !

ولم يكن رضى الله عنه مباليا فى ملبوسه أكان من القديم أم من الجديد ، ولكن الحق تعالى قد ألبسه تاجا من الوقار والجلال ومسحة من النور والجمال بحيث كان وجهه الشريف يتلألأ نورا . وكان إذا نزع ثيابه لغسلها تفجرت منها رائحة أطيب من المسك !!

وكان متقللا فى طعامه لا يبالى من أى صنف أكل مادام الطعام من صافى الحلال ، وكان لا يأكل إلا عن جوع ولا يشبع من الطعام ، وما عهدته يتناول إفطارا فى الصباح فى حال عدم صيامه ولا يتناول عشاء إنما هو فنجان من القهوة حتى عند سحوره فى الصيام !!

وتاسعا : الورع عن المحرمات والشبهات بل وعن السوى ، فقد كان سيدى محمد أبواليزيد قدس الله سره محتاطا لدينه ، نائيا عن مناط الشبهات ، حتى إنه دعاه أحد محبيه ممن كان يتعامل مع بعض المصارف الربوية إلى مأدبة عنده فرفض الشيخ بشدة ، وكان إذا دعاه البعض ممن يشتبه فى ماله مع ستر حاله يذهب إليه ويطلب من بعض مريديه أن يشترى له قطعة من الجبن والخبز فيتناولهما معرضا عما لذ وطاب من الطعام إيثارا لطيب المطعم ، ومن ثم كان الشيخ مستجاب الدعوة ، وكان مؤثرا لمولاه على كل ما سواه ، فلم يشغله عن الله شاغل أنى كان . إنه العبد الربانى فى سموه الصمدانى .

وعاشرا : إخلاص العبادة لله عز وجل ، فلم يكن سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه ممن يعبد الله لمأرب سواه ، وكان يؤدب أبناءه على هذا المبدأ .

وشاهد ذلك : أننى كنت فى شرخ الشباب شغوفا بنعيم الجنة لما كنت أقرأ عن هذا النعيم المتعدد الألوان فى تفاسير القرآن والسنة ، حتى أننى قلت لشيخى الوالد قدس الله سره : إننى أرجو النهم بالطاعات والعبادات لأظفر بهذا النعيم ،

وإذا به رضى الله عنه يتعجب لما أقصده من العبادة ، ويلتفت إلى قائلا : (اعبد الله لا لعلة ، اقصد وجهه الكريم ومرضاته فذلك مقصد أهل الله من طاعته) . أجل إنها عبادة الأحرار التى تترفع فوق طلب الجنة وخشية النار ، إنه الطراز الأعلى من الأولياء ، خواص الذات الإلهية ، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا فى زمرتهم وحزبهم المفلحين ، لقد جسدت سيدتنا رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها هذا المشرب الرفيع بقولها :-

كلهم يعبدونك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا

وليس لى فى نعيم الجنان حظ أنا لا أبغى بحبى بديلا

★ ★ ★

منزلة سيدى محمد أبى اليزيد ومقاماته فى عالم الولاية :

لقد ارتقى هذا الإمام العارف بربه إلى قمة خواص الخواص من أولياء الله تعالى ، وعرف ذلك أهل الفتح والعرفان بكشفهم البصيرى ، وأتيح لنا بفضل الله تعالى الوقوف على شموخ مقام هذا العبد الربانى من خلال تصريحات وتلويحات وإشارات ومبشرات تتجسد فى المراتب الآتية :-

أولا : مرتبة الخلافة الجودية : فلقد أجمع أتباع مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره ، ومعهم سائر اولياء العصر على أن سيدى محمدا أبا اليزيد رضوان الله عليه قد شرف بالخلافة الجودية وصار أحد كبار خلفاء وزير النبى صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك أولو الكشف الصحيح كالشيخ عطية محمود رضى الله عنه وغيره .

وسيدى محمد أبو اليزيد يقوم بمهام التربية فى الدائرة الجودية ، حيث من الله تعالى على برؤيته خلال العام الماضى وكنت أسأله فى الرؤيا عن دوره فى المدرسة الجودية ، فأجابنى رضى الله عنه بقوله : (أبوك هو المزكى) أى المربى والمكمل للنفوس .

وثانيا : مرتبة وزير سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه . وشواهدها كثيرة ، ومنها ما حكاه لى العالم الزاهد الورع الأستاذ توفيق الضبع مربى الأجيال بمدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة والعارف النقشبندى من أنه كان فى زيارة لسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه منذ نحو أربعين عاما فالتقى بأحد أرباب الأحوال بالمسجد الأحمدى وجرت له معه أمور ومكاشفات وكان من بينها أن قال له : أتحب أن تعرف وزيرى سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ؟ فأجاب بنعم فأخبره بأنهما سيدى محمد أبو اليزيد والشيخ على بكر رضى الله عنهما . كما يعاضد ذلك ما يلى:

ثالثا : وكان رضى الله عنه وكيل سيدى أحمد البدوى وخليفته باطنا رضى الله تعالى عنه ، ومن شواهد ذلك : ما سطره بخطه الأستاذ محمود محمد العسال- أحد رجالات الطريقة الشاذلية بطنطا - فى شهر المحرم سنة ١٣٨١هـ ونصه (رأيت فى منامى سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ، وسألنى عما يشغلنى ، فسكت ، ثم وجدت فى هذه اللحظة الحاج الشيخ محمد أبو اليزيد أمامى ، فقال لى سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه : إن الشيخ محمد أبو اليزيد وكيلى ، فأخبره عما يشغلك ، وهو يصرفك . وبعدما صحوت من النوم علمت بأن الشيخ محمد أبو اليزيد له سر عظيم) .

وهذه الرؤيا تؤكد ما ذكره الشيخ عطية محمود عن الشيخ أبى اليزيد من قوله: (وهو خليفة كبير من خلفاء سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ، والآن بعض أهل الكشف يذهبون إليه ويعرضون قضاياهم عليه) ، هذا بالإضافة لما اوردناه آنفا .

رابعا : تحققه بالوراثة المحمدية ، وترجمته فى طبقات الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ، فقد رأيت فى رؤيا منامية أننى أقرأ فى كتاب (الطبقات الكبرى) لسيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به فضوجئت بترجمة لسيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه نصها : (ومنهم أبو يزيد)

وتحتها : (أبو يزيد يفعل كما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومفاد هذا أنه رضى الله عنه قد ورث حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وصار متحققا بالاقتداء به فى أفعاله صلى الله عليه وسلم .

كما يؤيد ذلك أيضا قول العارف بالله تعالى الشيخ عطية محمود فى شريط مسجل له عن مناقب سيدى أبى اليزيد رضوان الله عليه (الشيخ وارث محمدى) .

خامسا : تحققه بالاستغراق ثم الغرق فى المحبة المحمدية ، وهو ما نوه به الشيخ عطيه محمود فى حق شيخنا رضى الله تعالى عنه وأرضاه وذكر أنه قد أخذ فى التحقق بهذا المقام قبل تسع سنوات من انتقاله رضى الله تعالى عنه .

سادسا : شهوده فى ديوان أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، ومما يشهد لذلك : إن سليلة آل البيت رابعة عصرها الشيخة زكية عبدالمطلب الحسينية رضى الله تعالى عنها - وكانت من كبار اولياء العصر ودفنت بمقامها جوار سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه - كانت فى زيارة لولى الله سيدى محمد أبى اليزيد أوائل السبعينيات ، فقالت له : ألا تأتى معنا لزيارة سيدى أبى الحسن رضى الله عنه ؟ وهنا استدركت بقوة الحال فقالت عن الشيخ أبى اليزيد : إنه هناك على الدوام . ثم توجهت إلى بالخطاب قائلة : (إن والدك له كرسى فى ديوان أهل البيت) رضى الله عنهما مع آل البيت أجمعين وعنا بهم فى الدارين آمين .

سابعا : تحققه بدرجة القطبانية التى هى أعلى درجات الولاية ، وقد دل على ذلك شواهد وإشارات صدرت منه ومن كبار عارفى عصره ، كما نطقت بها الإلهامات والرؤى الصادقة والقرائن المحتفة ، فإن مقام القطبية لعزته وسموه لايكشف للعامة ، من تلك الشواهد والإشارات ما يلى :

١ - لقد عاد سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه من المسجد الأحمدى إلى منزله ذات ليلة متهللا ، طاويا بين جوانحه سعادة غامرة تجلت شواهدها فى محياه ، فسألته ما الخبر ؟ فقال أن عمك الشيخ أحمد حجاب - العارف الكبير بالمقام الأحمدى - كان جالسا إلى جوارى فى مجلس دلائل الخيرات الذى يعقد

بالقبة الاحمدية ، فتزاحم الناس على المجلس حتى ضاق المكان بالشيخ أحمد حجاب ، فجنح إلى جانبى قائلا (أفسح قليلا يا رئيس الدولة) ! ما دلاله تعبير (رئيس الدولة) هنا على لسان كليم أبى الفتيان ؟ إنها رئاسة دولة الولاية التى يجتبى إليها الحق تعالى من يشاء من عباده . ألا إنها القطبية .

٢ - ثم لقد أخبرنى الشيخ عبدالرؤوف عبدالكريم من علماء الأزهر فى السابع والعشرين من يناير سنة ١٩٧٤ أنه رأى نفسه مع زميل له فى منامه يسيران فى طريق مهيب ، وإذا بقائل يقول لهما (ستسلمان الان على ملك الملوك) فانتابتهما الدهشة والهيبة ، وبعد برهة فتح باب عظيم فظهرت لهما ساحة كبيرة بها قاعة ومنصة ، وإذا بالشيخ محمد أبى اليزيد جالسا على المنصة فى هيئة الملوك ، فسلما عليه واستأذنا للانصراف بعد التسليم على ملك الملوك رضى الله تعالى عنه وأرضاه .. وملك ملوك هنا رمز لقطب الوقت الذى تدين له رؤوس الولاية بالطاعة والإجلال .

٣ - كما حدثنى أخى فى الله تعالى الشيخ أحمد عمارة أنه كان بمدينة (شبين الكوم) فى الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٧٥ وكان معه صهره الحاج محمد خطاب - الذى تلقن العهد من الشيخ - ومعه زميل له ، فالتقوا بسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه فى مصلى ، فأراد ذلك الزميل أن ينال شرف القبضة من الشيخ لكن الشيخ أحمد عمارة يعلم أنه قد سبق له أخذ العهد على شيخ آخر فى الطريقة البيومية ، فهمس إلى الشيخ بذلك فإذا بسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه يرد عليه قائلا (الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد) !! فكان هذا تصريحا من الشيخ فى اليقظة بأنه فى مقام الرئاسة لأولياء عصره ، وليس ذلك إلا القطب .

٤ - وكذلك حدثنى الشيخ داود ابوطبل البرهامى أنه رأى بعد انتقال الشيخ بعشرين يوما من يؤكد له أن سيدى محمد أبا اليزيد ينال رتبة لم ينلها ولى منذ ثلاثمائة سنة .

٥ - ثم كان القطع عندى بتحقق الشيخ بالقطبية فيما رأيته من رؤيا منامية رأيت فيها حافظ العصر الشيخ عبدالله الصديق الغمارى رضى الله عنه ، ففرحت جدا برؤيته - لما أعلمه عن علمه وفضله - فأثنيت عليه فى رؤياى قائلا :

«أنت حافظ الحديث وخادم السنة ورافع راية الإسلام ..» ثم قلت «وأنت قطب عصرك» فقال لى : «لا بل أبوك قطب عصره ، وقد صلى بالأولياء إماما فى قبة مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه» .

٦ - ومما يعاضد ذلك أيضا : ما حكاه لى أخى الشيخ نصر شهاب الدين واعظ مركز فوه من أنه حينما كان فى السنة النهائية بكلية أصول الدين سنة ١٩٧٥م - وقد درست له فى ذلك الحين وأنا مدرس مساعد بقسم التفسير - رأى فى رؤيا منامية أنه يزور سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى صحبة سيدى محمد أبى اليزيد بعد صلاة العصر فلما كانا خارجين من المسجد حمل نعال شيخه ثم بعد الخروج لبس حذاء الشيخ وألبس الشيخ حذاءه ثم سار خلف الشيخ وأخذ يصيح قائلا : «هذا قطب عصره ، هذا عظيم وقته ، هذا وحيد دهره» .

فلما التقى بالشيخ - يقظة - وأنا معه ، قص عليه رؤياه ، فأقرها ، وقال لى :

«اسمع يا جوده ما يقوله نصر» فكان ذلك لإشعارى بمنزله شيخنا رضى الله عنه .

فإنه كان - لعظيم صدقه وإخلاصه مع الله تعالى - لا يتحدث عن نفسه ، ولا يصف نفسه بالمشيخة ، ولا يتحدث بشرف نسبه ، ولا بمنزلته فى الباطن .

لقد كان أكسيرا من العبودية المحضة لله تعالى ، ومدرسة فى الإخلاص ، يرفض الدعاوى ، ويتجنب الشهرة ، وما عرف عنه ما عرف إلا من حديث المقربين منه ، ومن مبشرات الرؤى الصالحه التى هى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

مدرسته العلمية ومشربه الذوقى :-

لقد كان شيخنا أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه - مع فتحه الربانى الكبير - طلعة فى العلوم الشرعية ، وله مكتبة علمية فريدة تضم أمهات المصادر والمراجع فى التفسير والحديث والفقه - المذهبى والمقارن - والشمائل المحمدية ، والتصوف ، وغير ذلك ، وله عليها تأشيرات بخط يده تنم عن تبحره فى قراءتها واستيعابها .

كما أن له اختيارات ومنتقيات لدرر العلم وفرائده تدل على عمق غوصه وصيده للآلئ الفريدة وغرائب الأحكام الفقهية التى تؤصل للرخص الشرعية كمسافة القصر عند الإمام داود الظاهرى مثلا ، ومسألة وقوع رؤية الله تعالى بالبصر فى الدنيا (١) وغرائب الكرامات الواقعة على أيدى الأولياء رضى الله تعالى عنهم (٢) ، وتفسير العبارات الموهمة المعروفة بشطحات الصوفية ومسلك الصوفية فى تقبيل أعتاب الأولياء (٣) وغير ذلك . هذا : والذى تعرفناه من أحاديث الشيخ رضوان الله عليه أنه قد تضلع علميا من مصنفات الإمامين الكبيرين : حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى وشيخ الإسلام سيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه .

فقد كان شيخنا رضى الله تعالى عنه يشيد بموسوعة «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى رضوان الله عليه مرددا للقول المأثور «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء» ، كما كان يتمثل بقول شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره حينما سئل عن سرّ إطالة زيارته لمقام الإمام الشعرانى عليه رضوان الله فيجيب بقوله : «إن كتب الإمام الشعرانى هى التى ربتنا» !!

من ثم كان مولانا الشيخ أبواليزيد رضوان الله عليه منتميا لمدرسة الإمام

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٣/٢ ط الشرفيه .

(٢) المصدر السابق ١٥٦/١ .

(٣) المصدر السابق ١١٤/٢ .

الغزالى ومتضلعا من مشرب الإمام الشعرانى حتى إنه كان يضع كتاب الطبقات الكبير له على وسادته باستمرار ، مع الميزان الكبرى له والإبريز للإمام الدباغ والعظة والاعتبار لسيدى أحمد حجاب .

وقد اطلعت يوما على قائمة كتب الإمام الشعرانى التى اقتناها سيدى محمد أبو اليزيد فأحصيت بها أسماء خمسة وعشرين مؤلفا ، ويندر أن تضم مكتبة خاصة هذا العدد من مؤلفات القطب الشعرانى وحده . وما ذاك إلا لحبه العظيم لهذا القطب العظيم وشغفه بمصنفاته التى لا نظير لها فى التراث الإسلامى .

أما فى مجال التفسير القرآنى : فقد كان الإمام فخر الدين الرازى رضى الله تعالى عنه محل الإعجاب الشديد للقطب الفريد سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه ، فكان كان مشدوها لموسوعيته المتبحرة فى أمهات المسائل العقدية والفقهية والمباحث الكونية والعقلية وغيرها مع مسحة التصوف المطلة من وراء سطوره .

وكذلك كان للإمام السيوطى رضى الله عنه حظوة عند سيدى أبى اليزيد ، لتبحره فى موسوعة (الإتقان) فى علوم القرآن وحسن تشعيبه لفروع هذا العلم .

وكان لسيدى محمد أبى اليزيد تبحر فى الفقه المذهبى مقتنيا عدة مصنفات فى كل مذهب على حدة ، وكان منتجعه فى الفقه الشافعى : حاشية الإمام الباجورى على ابن قاسم بصفة خاصة ، وفى الفقه الحنفى (مجمع الأنهر بشرح ملتقى الأبحر) للعلامة شيخ زاده وفى الفقه المالكى أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك لسيدى أحمد الدردير . وفى الفقه الحنبلى (نيل المآرب بشرح دليل الطالب) للعلامة عبدالقادر الشيبانى .

أما فى الفقه المقارن : فقد كان (الميزان) للإمام الشعرانى هو المرجع المحبب ، وكذا كشف الغمة عن جميع الأمة له أيضا ، ثم بداية المجتهد لابن رشد .

وفى علم التصوف كان للشيخ أبى اليزيد رضوان الله عليه سياحات وإبحارات فى مصادره الكبرى ، وكان للإمام محيى الدين بن عربى قدس الله سره - بصفة

خاصة - أيما إجلال ، فكان إذا ذكر أمامه قال فى استغراق : (إنه الشيخ الأكبر) !! وكان ينصح بقصر قراءة مصنفاته - كالفتوحات المكية وفحصوص الحكم - على من سلك طريق المجاهدة ، وارتقى فى أوج العرفان . تلك إشارة إجمالية إلى المدرسة العلمية لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه وزاده علوًّا وارتقاء .

كرامات العارف بالله تعالى سيدى محمد أبى اليزيد :

لقد أكرم الحق تعالى أولياءه بظهور الكرامات على يديهم ، وجعلها آيات مصدقة لتحققهم بولاية الله عز وجل ، كما جعل المعجزات للرسل والأنبياء آيات مصدقة لتحققهم بالنبوة والرسالة . فكانت الكرامات بمثابة مفاتيح لتصديق الولى وتمييزه من الدعى المتصوف الدخيل على ساحة الأولياء ؛ ليصح الاقتداء بالولى المتحقق فى سلوك طريق الله عز وجل على هدى وبصيرة .

فعلى هدى كرامات الأولياء : دخل إلى رحاب التصوف والولاية جهابذة من أساطين العلم وجموع وأفواج من أنقياء العامة الذين سبقت لهم من الله الحسنى !!

وكان من الذين دخلوا تحت مظلة الصوفية من أئمة العلماء - بعد سبق الإنكار - سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبدالسلام رضى الله عنه الذى أذعن لحقيقة الكرامات ودورها فى اكتشاف الطريق الحق الموصل إلى الله تعالى ، يقول الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه - فى طبقاته الكبرى :-

«وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام - رضى الله عنه - يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبى الحسن الشاذلى وتسليمه للقوم :-

من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين : مايقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ، ولا يقع شىء من ذلك قط لفقيه إلا إن سلك مسلكهم كما هو مشاهد .

وكان الشيخ عز الدين - رضى الله عنه - قبل ذلك ينكر على القوم ويقول :

هل لنا طريق غير الكتاب والسنة [1] ؟؟ فلما ذاق مذاقهم ، وقطع السلسلة الحديد بكراسة الورق صار يمدحهم كل المدح . [2]

وإن الإنكار على الكرامات إنما هو ناتج عن سوء الفهم لحقيقتها ، فإن الكرامة فى الشرع : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بشرع الله تعالى ومستغرق فى ذكره وطاعته .

وبمقتضى أن الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الولى فهى إذًا ليست من خلق الولى حتى تستنكر ، وإنما هى من خلقه تعالى - وهو قادر على كل شىء - وليس الولى إلا مظهرا لها ومجلى ظهرت على يديه بسبب تقواه لله عز وجل ، ومن ثم فإن منكر الكرامه فى الحقيقة مصادر بزعمه على صلاحية القدرة وطلاقتها ولذلك كان معادى الأولياء هو فى الحقيقة معادى الله عز وجل وداخل تحت طائلة قول الله عز وجل فى الحديث الشريف (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب) . [3]

من هذا المنطلق العلمى الشرعى نشرع فى ذكر كرامات ولى الله تعالى سيدى محمد أبى اليزيد وهى كرامات بلغت من الكثرة حدا طائلا ولكن نجتزئ منها بذكر ما يلى :-

الكرامة الأولى : هى استقامته على منهج الله تعالى وتطبيق شرعه بالقدر الذى يندر وجوده ورعا وزهدا وغيرة على حدود الله تعالى واتقاء الشبهات . وهذه الكرامة المعنوية يؤثرها كبار العارفين على مئات الكرامات الحسية من الطيران فى الهواء والمشى على الماء وطى الأرض ، وقد كان شيخنا أبو اليزيد رضوان الله عليه

---

(١) هذه العبارة من المنكر للتصوف : قولة حق يراد بها باطل : فإن التصوف الحقيقى مستقى من روح الكتاب والسنة ولا يعرف ذلك إلا من زالت الأقفال عن قلبه : «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» .

(٢) الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى : ١٢/١ ط/ الشرفية .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق من صحيحه (٨٧/٤ ط حجازى) .

كثيرا ما يتمثل قول شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره : «الاستقامة خير من ألف كرامة» !

الكرامة الثانية : مكالمته لسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وعنا به - يقظة - كما شهد الكبار من أولياء عصره ومنهم مولانا الشيخ إسماعيل عبده ، حيث أخبرنا الشيخ كامل ابو النضر - من أبناء الشيخ فى التربية ومن أهل قبريط مركز فوة - أنه كانت له حاجة عند الله تعالى فذهب لزيارة سيدى احمد البدوى رضوان الله عليه فوجد الشيخ إسماعيل عبده جالسا بالضريح فسأله أن يرفع حاجته إلى الإمام البدوى متوسلا به إلى الله تعالى لقضائها فقال له : انظر إلى باب المقام فإن أول من يدخل منه الآن هو كليم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فاقصده فى رفع حاجتك إليه ، فنظر إلى الباب فإذا بأول داخل منه هو سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه فأيقن أن شيخه هو كليم السلطان أحمد البدوى عليهما الرضوان .

والكرامة الثالثة :- وهى من روائع مكاشفات الشيخ ومن دلائل تقدير أولياء عصره لمنزلته - فقد حكى الشيخ كامل أبو النضر - المذكور آنفا - أنه فى مبادئ مراحل سلوكه على يد شيخه أبى اليزيد رضى الله عنه كان واقفا نفسه لخدمته فى خلوته الأحمدية بالمسجد الأحمدى ، وفى ذلك اليوم كان الشيخ إسماعيل عبده يزور سيدى محمدا أبا اليزيد فى خلوته فكلف الشيخ أبو اليزيد مريده الشيخ كامل بالخروج لإحضار طعام للإفطار ، فلما خرج لذلك وجد الشيخ محمدا أبا رمضان أمسك بكرسى وقذفه فى وجه الشيخ كامل فأدماه فجلس يضمد جرحه ، فتذكر أنه مكلف بإحضار إفطار شيخه وضيفه فأسرع بإحضار الإفطار للشيخ فلما دخل عليه وجده والشيخ إسماعيل ينظران إليه ضاحكين ، ثم قال الشيخ إسماعيل (هل يليق بالمريد إذا كلفه شيخه بإحضار الإفطار أن ينشغل عنه بسماع الشيخ أبى رمضان؟)

فأتبعه سيدى محمد أبو اليزيد بقوله : لقد نال جزاءه من الشيخ أبى رمضان حتى لا يعود لمثلها ! ثم بعد برهة قال له الشيخ : الآن اذهب لسماع أبى رمضان ، فأسرع بالذهاب إلى القهوة الأحمدية فوجد الشيخ أبا رمضان منتظره صامتا من

وقت أن ضربه فلما رآه عانقه ثم قال له : يا حبيبى عندما يكون المريد فى حاجة شيخه لا ينبغى له أن يقف عند أبى رمضان . لكن بعد أن ينفذ أوامر شيخه ويأتى بإذنه لسماع أبى رمضان يرحب به أبو رمضان ويسمعه العجب ، ثم قام فأنشد له روائع الإنشاد الصوفى الحافل بجليل المعانى فى الحقائق والأذواق .

الكرامة الرابعة :- وهى من عجائب مكاشفاته أيضا - ما حدثنا به الأستاذ أحمد لبيب وكيل وزارة الأوقاف الأسبق وصديق الدكتور محمود حب الله أمين عام مجمع البحوث الإسلامية الأسبق أن الدكتور حب الله ذكر له أنه كان على خلاف فى اختصاصات العمل مع الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق فأفضى به الأمر إلى كتابه استقالته ووضعها فى درج مكتبه ولم يعلم بها أحدا من الناس ، وفى صباح اليوم التالى : فوجئ بدخول سيدى محمد أبى اليزيد عليه وهو منفرد بمكتبه وقال له مكاشفا : (يا دكتور حب الله . إن سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه يأمرك بسحب استقالتك التى تنوى تقديمها وتخفيها بمكتبك ويبشرك بتغيير الأوضاع قريبا جدا) فتعجب الدكتور حب الله من معرفة الشيخ بأمر الاستقالة الذى لم يعلمه أقرب الناس إليه ، فقام بتمزيق طلب قبول الاستقالة ، وإن هى إلا أيام معدودة وأجرى التعديل الوزارى وأطلقت له الاختصاصات ، فأيقن بأن سيدى محمدا أبا اليزيد كليم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما ونائب الحضرة الأحمدية البدوية .

الكرامة الخامسة : ما حدثنى به الأستاذ محمد توفيق عويضة أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ونائب وزير الأوقاف الأسبق ؛ من أنه عندما كان رئيسا لهيئة الاتصال بالشعوب الإسلامية فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر حدث خلاف بينه وبين بعض قيادات الثورة أفضى إلى إقالته من منصبه ، وفى منتصف اليوم التالى لإقالته دق جرس باب شقته بالزمالك ففتح بنفسه الباب فوجد سيدى محمدا أبا اليزيد أمامه - ولم يدر بخلده أن الشيخ يعرف عنوانه فجلس معه وشرب الشيخ القهوة وكاشفه بما حدث وقدم إليه البشرى بتفريج الأزمة ، ثم قام منصرفا ، فصحبه الأستاذ محمد توفيق عويضة حتى نهاية كوبرى السلطان أبى العلا رضى

الله عنه ، وفجأة وقف الشيخ وقال له : اذهب الآن فورا إلى مسكنك ولا تتوقف فى الطريق حتى وإن قابلك أحد معارفك . وأسرع الأستاذ محمد توفيق بك إلى شقته ، وبمجرد دخوله سمع رنين التليفون ، فكان المتحدث سكرتير الرئيس عبدالناصر يطلبه للحضور مساء لمقابلة الرئيس ، وأثناء المقابلة لاطفه الرئيس وقال له : غدا توجه إلى مكتبك وعد إلى منصبك ، وكانت هذه نقطة التحول لتأسيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وظل الاستاذ محمد توفيق عويضة أمينا له - فى عهده الذهبى - حتى سنة ١٩٧٨م.

الكرامة السادسة : ما حدثنى به الأستاذ أحمد عوض مأمور الضرائب بطنطا ان خاله الحاج أحمد عبدالقادر - عمدة محلة روح - كان يعتزم الحج بنظام القرعة، فجاء لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه بالمقام الأحمدى وسأله أن يدعو له بتيسير الحج والزيارة ، فقال له الشيخ إنك ستحج هذا العام إن شاء الله تعالى ، ولكن إذا حملتك أمانة أتؤديها ؟ قال : نعم ، وما هى ؟ قال أن تقرئ عنى السلام لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم وتتوسل لى به صلى الله عليه وسلم أن يمنحنى الله عفوه وغفرانه . فقال الحاج أحمد . نعم . حبا وكرامة . فيسر الله له الحج فى عامه ، لكنه لما كان بالمدينة المنورة نسى - لانشغاله بقضاء مهامه وحاجاته من شراء الهدايا ونحو ذلك - أن يؤدى أمانة الشيخ وإذا به - وقد أوشك على الرحيل- يرى الشيخ أبا اليزيد فى منامه يقول له : لماذا قصرت فى أداء الأمانة ؟!! فقام الحاج أحمد وهرع إلى الروضة المحمدية الشريفة وقام بأداء أمانة الشيخ ثم لما عاد إلى وطنه قدم لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فوجد الشيخ أباااليزيد فى انتظاره فقال له الحاج أحمد عبدالقادر : لقد أديت الأمانة التى حملتنيها ، فرد عليه الشيخ بقوله (وهل أديتها إلا بعد أن ذكرناك بها) !! رضى الله عن أوليائه!

الكرامة السابعة : (تسليمه باليد - يقظة - على مولاتنا السيدة زينب رضى الله عنها) فقد حدثنا الشيخ كامل أبو النضر أنه كان مع شيخه سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه فى رحاب مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه

بالقاهرة، وبعد حضورهما مجلس (دلائل الخيرات) بالساحة الحسينية بالباب الأخضر فحضر أحد الرجال لصحبة الشيخ ، ثم قام الشيخ متوجها إلى زيارة رئيسة الديوان سيدتنا زينب رضوان الله عليها ، ولكن (الشيخ كامل) اعتذر إلى الشيخ لعدم تمكنه من صحبته فى هذه الزيارة لسبق ارتباطه بموعد . فتوجه الشيخ وصاحبه إلى الحرم الزينبى الشريف .

وفى اليوم التالى : التقى الشيخ كامل بذلك الرجل الذى صحب الشيخ فى زيارته الزينبية فأخذ الرجل فى تعنيف الشيخ كامل على فوات صحبة الشيخ فى هذه الزيارة قائلا : لقد فاتك مالم تكن تحلم به من العطاء ، فلقد ذهبنا إلى الروضة الزينبية المباركة وظل الشيخ أبو اليزيد بالمقام الزينبى - وأنا معه - حتى خلا المقام الشريف من الزوار ، ولم يعد به سوانا ، وفجأة أبصرت بعينى رأسى - وأنا فى تمام اليقظة - مولاتنا السيدة زينب رضى الله تعالى عنها تخرج من المقصورة الشريفة فى قمة الجلال والبهاء فأقدم سيدى محمد أبو اليزيد للسلام عليها وقبّل يدها الكريمة وأنا أنظر إليه عيانا !!

فسبحان من يعطى من يشاء من عباده ما شاء من جوده وعطائه ، وويل لمن يحجر بعقله ويصادر على عطاء الله لأحبائه . اللهم ارزقنا حسن التسليم . آمين .

الكرامة الثامنة : (تسليمه باليد - يقظة - على سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه) روى هذه الكرامة : الشيخ محمد مصطفى خليل إمام مسجد الزمرونية ومحفظ القرآن الكريم بها - وابن أخت سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه - حيث كان مولانا الشيخ أبو اليزيد فى إحدى زياراته المعتادة لبلده (الزمرونية) وكانت عادته دخول البلد ليلا والمكث بها يوما أو يومين ، ثم يغادرها بعد الفجر وقبل الشروق ، وكان الشيخ محمد مصطفى رفيقه لدى سفره من البلدة، وكان الشيخ معتادا زيارة مقام سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه قبل مغادرة البلد . وفى تلك الزيارة كان الشيخ متوجها إلى مقصورة القطب البسطامى يقرأ سورة (يس) ، ولدى الفراغ من القراءة كان الشيخ محمد مصطفى يركز بصره

عليه ، وإذا به يرى المقصورة الخشبية لسيدى أبى يزيد رضوان الله عليه ترتفع عن الأرض رويدا رويدا ثم تخرج يد الإمام أبى يزيد البسطامى من الضريح فيتلقاها سيدى محمد ابو اليزيد ويقبلها ، ثم يعود إلى الضريح .

ولما انتهت الزيارة توجه سيدى محمد أبو اليزيد إلى ابن شقيقته قائلا (إياك أن تخبر أحدا بما رأيت) فلم يذع نبأ هذه الرؤية اليقظية طوال حياة الشيخ رضى الله عنه .

الكرامة التاسعة : وقد رواها لنا فضيلة الشيخ محمد حماد - شيخ الجامع الأحمدى بطنطا - ونحن بمنزل صديقنا الدكتور مجدى عوارة بطنطا فى صحبة كريمة ومعنا الشيخ زين العابدين أحمد رضوان ولفيف من المحبين لآل البيت والأولياء :-

حكى لنا الشيخ محمد حماد عن الشيخ السيد عنبة شيخ الجامع الأحمدى السابق : أنه لما عُيِّنَ شيخا للمسجد لم يكن يتقاضى من حصص صناديق النذور بينما كان الخدم والملاحظون بالمسجد لهم نسبة مقررة من عائد صندوق شيخ العرب حتى كانت دخولهم أضعاف دخل شيخ المسجد ، فبلغ الغضب بشيخ المسجد آنذاك أنه قرر تقديم استقالته .

وفى ذات ليلة رأى الشيخ سيد عنبه فى منامه أنه فى ضريح سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه أمام المقصورة ، وفجأة انفرجت المقصورة عن عدة رجال عليهم الوقار والجلال ، ويرتدون الثياب البيضاء ، فحدق الشيخ سيد عنبه فى وجوههم فلم يعرف منهم إلا سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه ، وهو الذى تولى مخاطبته من بينهم فقال له : (يا شيخ سيد : اكتب مظلمتك وارفعها إلى المسئولين وسيتم إنصافك إن شاء الله تعالى) .

وفى اليوم التالى قام الشيخ سيد برفع مظلمته - التى سعى مرارا فى الشكوى منها دون جدوى - ولكن تم الحسم فيها سريعا وعدلت اللوائح وصار لشيخ

المسجد نسبة مقررة فى صندوق النذور ببركة سيدى أحمد البدوى على يد وكيله ووزيره سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

والكرامة العاشرة : هى معرفة الشيخ بموعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ؛ فقد كان من عادة سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه : السفر من طنطا إلى القاهرة لزيارة آل البيت وشهود ليلة الثلاثاء عند مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه ، وقد سألته فى سر هذا التوقيت ، فأجابنى بأن أحد العارفين المكاشفين أخبر بأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضر كل ليلة ثلاثاء عند سبطه الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه .

وفى ليلة الثلاثاء الموافق ٢٩ من ديسمبر ١٩٧٦ كانت آخر زيارة له فى حياته الدنيوية وكان من عادته فى كل زيارة أن يعود إلى منزله بطنطا قبل ظهر الثلاثاء لكنه فى هذه المرة تأخرت عودته لآخر النهار ، فلما رجع إلى منزله الأحمدى سأله بعض أهله : لماذا تأخرت يا مولانا فى عودتك هذه المرة ؟

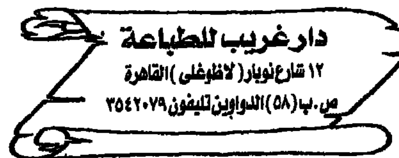
فأجاب قائلا : (إننى كنت أستأذن من آل البيت) !! إنه استئذان الرحيل إلى جوار الملك الجليل ، ولم يسبق أن قال هذه العبارة فى أى زيارة سابقة ، ولكنه كشف العارفين بموعد لقاء رب العالمين . رضى الله تعالى عن سيدى محمد أبى اليزيد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

★ ★ ★

الفهرس

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع ٣١٨٩/ ٩٨
I. S. B. N. 977 - 215 - 300 - 9



هذا الكتاب

● يتناول فيه المؤلف بالتاريخ والتحليل العلمى والصوفى خمسين شخصية من أعلام السادة الصوفية الذين يمثلون خاصة الخاصة من أولياء الله تعالى باعتبارهم قادة السلوك إلى الله عز وجل.

● وقد صنفهم المؤلف حسب الترتيب التاريخى قرناً فقرناً منذ القرن الثانى الهجرى إلى عصرنا الحاضر مثبتاً أن الحركة الصوفية قد واكبت مراحل التاريخ الإسلامى بتلازم مطرد منذ عصر التابعين إلى الآن.

● ويتضمن الكتاب تراجم أئمة الفقه الأربعة المجتهدين ونخبة من أفذاذ علماء الأمة مجسداً الجانب الصوفى الرفيع على أعلى مستوياته فى هديهم وسلوكهم ليثبت أن الحقيقة لا تنفك عن الشريعة إذ هما وجهان لعملة واحدة هى العملة الرسمية للإسلام ذاته.

● وقد استقيت مادة الكتاب من أوثق المصادر العلمية المثبتة بهوامشه بما لا يدع مجالاً لعلامة استفهام حول مصادره وقد تحرى فيها المؤلف بأداته العلمية المتخصصة تمحيصها من الدخيل على التراث الصوفى من نظريات الحلول أو الاتحاد أو إسقاطات [illegible]

● ومع كل ذلك تبقى [illegible] فيها إلا من لا قدرة له على السباحة فى محيط التصوف الحافل بالعجائب والأسرار.

هانى أحمد غريب